

المحتويات

النظام الدولي الجديد :

- ٧
٩ د. علي الدين هلال
٢٥ د. ودودة بدران
٤٥ د. حسنين توفيق إبراهيم
٩٧ د. ناصيف يوسف حتي

الأدب والعلوم الإنسانية :

- (تمهيد) د. شكري محمد عياد ١٢٥
الرواية الأنثروبولوجية بين الواقع الانتوجرافي والخيال الإبداعي د. أحمد أبوزيد ١٣٥
التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية : التراث وإشكاليات المنهج د. فتحي أبو العينين ١٦٥
الدراسات النفسية والأدب د. شاكر عبد الحميد ٢١١
القارئ والنص : من السيميوطيقا إلى الميرمينوطيقا سيزا قاسم ٢٥١
السقوط والخلاص : قراءة في رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ ... د. حسن حنفي ٢٨٣

قبل أن تقرأ

في هذا العدد المزدوج من مجلة عالم الفكر - الذي يضم العديدين الثالث والرابع من المجلد الثالث والعشرين - تعود المجلة إلى قطعها الكبير الذي ظلت تصدر به على مدى ثمانية عشر عاماً منذ بداية صدورها عام ١٩٧٣ .

وتضم صفحات هذا العدد المزدوج محورين حول «النظام الدولي الجديد» و«الأدب والعلوم الإنسانية» . وتناقش دراسات المحور الأول مفهوم «النظام الدولي الجديد»، والسياسات الأساسية لتطوير النظام الدولي في مرحلته الراهنة، والنمط المحتمل لتفاعلات القوى بين أعضاء الجماعة الدولية المتظمة في إطار ما نسميه بالنظام الدولي الجديد، واحتمالات المستقبل فيما يتعلق بتطور النظام الدولي في إطار هذا المفهوم . كما تلقي الضوء على مفهوم النظام الدولي الجديد في الكتابات الأمريكية من حيث هيكلية النظام وتوجهات التفاعلات الدولية وتداعيات انتهاء الحرب الباردة على إمكانية العمل الجماعي في النظام العالمي ووضع الدول النامية . ويناقش المحور أيضاً صورة «النظام الدولي الجديد» في الساحة الفكرية العربية متناولاً المصادر والمنهج، وطبيعة الجدل الدائر حول المفهوم ذاته ما بين إقرار بوجود نظام دولي جديد، ورفض لمثل هذه المقولة، واتجاه ثالث يقول بوجود نظام جديد في طور التشكل، ومصادر التغيير في النظام الدولي أو عوامل التحول إلى نظام دولي جديد، وعلاقة حرب الخليج الثانية (حرب تحرير الكويت) بما يعرف بالنظام الدولي الجديد، والجدل الدائر حول بنية هذا النظام وقيمه، وموقع العالم العربي والإسلامي في النظام الدولي الجديد وقضايا أخرى عديدة .

ونقرأ في المحور الثاني: «الأدب والعلوم الإنسانية» مجموعة من الدراسات تناقش الإسهامات التي تقدمها العلوم الإنسانية إلى الدراسات الأدبية، والإضاءات التي قدمتها تلك العلوم لفهم الخبرة الأدبية. ولعل التقديم الممتلئ ثراء وعمقاً لمحرر هذا المحور الأستاذ الدكتور شكري عياد يغني عن أي بيان فيما يتعلق بطبيعة هذه العلاقة وإشكالياتها وتاريخها وأفاقها المستقبلية. كذلك تضيف الدراسات الخمس التي تليه أبعاداً كاشفة وسمات وأفكاراً جديدة ومتنوعة حول تلك العلاقة. فنقرأ عن العلاقة بين الكتابات الأنثروبولوجية والأعمال الروائية، وفي مجال العلاقة بين الأدب وعلم الاجتماع نقرأ «التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية: التراث وإشكاليات المنهج»، وفي مجال العلاقة بين علوم اللغة والأدب نقرأ «القارئ والنص: من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا»، وأخيراً نقرأ محاولة لرؤية فلسفية لنص أدبي لعملاق الرواية العربية نجيب محفوظ في مقال (السقوط والخلاص: قراءة في رواية «أولاد حارتنا»).

والآن ونحن نترك القارئ لصفحات هذا العدد المزدوج، نأمل أن يستمتع بما احتواه محوره من مناقشات وتحليلات وأفكار، وأن تضيف هذه التحليلات والأفكار جديداً إلى رؤيته لموضوعات وقضايا كل من المحورين.

رئيس التحرير

النظام الدولي الجديد

آفاق ما بعد الحرب الباردة

- الواقع الراهن واحتمالات المستقبل
- مفهوم النظام العالمي الجديد في الأدبيات الأمريكية
- النظام الدولي الجديد في الفكر العربي
- أي هيكل للنظام الدولي الجديد؟

تحرير وتقديم: د. علي الدين هلال

النظام الدولي الجديد

الواقع الراهن واحتمالات المستقبل

د. طي الدين هلال*

تمهيد

بداية، لعلنا لا نضيف جديدا إذا قلنا بأن النظام الدولي قد شهد منذ بداية الحرب العالمية الثانية العديد من التحولات غير المسبوقة التي كان لها أعمق الأثر ليس فقط بالنسبة لبنية العلاقات الدولية، وإنما أيضا بالنسبة لمجمل المفاهيم التي استقرت طويلا في ذاكرة الأمم والشعوب.

ولا شك أن بعضا من هذه التحولات قد ازداد عمقا واتساعا خلال السنوات الأخيرة، وإلى الحد الذي يسوغ للبعض من الباحثين والمحللين إمكان الحديث عن أن ثمة نظاما دوليا «جديدا» أصبح الآن في طور التكوين إن لم يكن قد تكوّن بالفعل. ويلعب هؤلاء الباحثون إلى حد التأكيد على أن هذا النظام الدولي «الجديد» سيكون مختلفا بدرجة كبيرة في ملامحه العامة وقواعده الحاكمة عن النظام الدولي السابق عليه، وإن احتفظ النظامان — على الرغم من ذلك — ببعض هذه الملامح أو تلك القواعد كخصائص وسات مشتركة تجمع بينهما.

فماذا نقصد أصلا باصطلاح «النظام الدولي»؟ وإلى أي مدى يحق لنا — في الوقت الراهن ومنذ بداية العقد الحالي تحديدا — الحديث عن نظام دولي «جديد»؟ وما هي أهم السمات أو الملامح العامة المميزة لهذا النظام؟ ثم ماهي الآثار المحتملة مستقبلا بالنسبة لهذا النظام، وخاصة فيما يتعلق بتطبيقات القوى بين أعضاء الجماعة الدولية؟

* عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية — جامعة القاهرة.

الإجابة عن هذه التساؤلات، وغيرها مما قد تستلزمه ضرورات التحليل، هي موضوع هذا البحث. وسنمعرض لهذه الإجابة من خلال التركيز على نقاط رئيسية ثلاث هي:

أولاً: في بيان المقصود بالنظام الدولي، وهل نحن فعلاً بإزاء نظام دولي «جديد».

ثانياً: الملامح الأساسية لتطور النظام الدولي في مرحلته الراهنة.

ثالثاً: احتمالات مستقبل الكتابة لتطور النظام الدولي.

أولاً: في بيان المقصود بالنظام الدولي ومدى ملاءمة الحديث عن نظام دولي «جديد»

المشاهد أنه لا يوجد كلمة تعريف واحد متفق عليه بين جمهور الباحثين لاصطلاح النظام الدولي. فكل ينظر إلى هذا الاصطلاح من زاوية خاصة أو من منظور مختلف، وفي ضوء ظروف وأوضاع معينة، بل وحتى اختلاف من التعبيرات وحسابات خاصة^(١). ولعل هذا هو الذي يفسر لنا لماذا تعدد أوصاف هذا النظام، إذ في حين يصفه البعض بأنه نظام محايد، يصفه البعض الآخر بأنه نظام غير محايد أو منحاز إلى طائفة من الدول في المجتمع الدولي على حساب الطوائف الأخرى، أما البعض الثالث فلا يتروء في وصف النظام الدولي بأنه يقوم أساساً على مبدأ المعيار المزدوج Double Standard.

وبصفة عامة، يمكن القول بأن اصطلاح النظام الدولي - والذي شاع استخدامه على نطاق واسع من جانب الباحثين والمحللين خلال الفترة الأخيرة - إنما يستخدم بالأساس للإشارة إلى مجموعة الضاعلات أو شبكة علاقات القوى - التعاونية منها والصراعية على حد سواء - التي تتم فيها بين أعضاء المجتمع الدولي على المستويين العالمي والإقليمي، والتي تجري وفقاً لنسق أو منظومة معينة للقيم.

ويستدل من ذلك، في واقع الأمر، على أن أي نظام دولي إنما تتحدد عناصره المفهومية في مجموعة مقومات رئيسية تتمثل أبرزها فيما يلي: فبدية يلاحظ أن أي نظام دولي لا بد وأن يعرف حالة وجود قوة أو قوى معينة هي التي تمسك بزمام الأمور في نطاقه، وتكون هي التي لها الكلمة العليا في توجيه مسار حركة الأحداث بين أطرافه، ومرجع ذلك إلى حقيقة أن «النظام الدولي» - كمفهوم مجرد - إنما يقوم أساساً على مبدأ الصراع والمواجهة بين القوى الفاعلة فيه، وذلك على خلاف الحال في التنظيم الدولي الذي يفترض فيه أنه يقوم على مبدأ التعاون والتآزر. وثانياً، يلاحظ - كذلك - أن أي نظام دولي لا بد وأن تسود فيه طريقة أو طرق معينة لإدارة الأزمت أو العلاقات المتبادلة بين أطرافه، وبما يحق أو على الأقل لا يتعارض والمصالح الوطنية لهذه الدول المهيمه من بين هذه الأطراف. وثالثاً، أن كل نظام دولي تتوافر له في العادة سمات وبلاصح خاصة تميزه بدرجة ملحوظة عن النظام الدولي السابق عليه. ومن هنا، يقال - أحياناً - إن كل نظام دولي يكاد يرتبط بواقعة أو وقائع Events معينة تشكل نقطة أو تاريخاً فاصلاً Critical Date بين مرحلتين مختلفتين لتطور العلاقات الدولية. ومن ذلك مثلاً، أن الواقعة أو الحدث المتمثل في اندلاع الحرب العالمية الأولى قد شكل وبحق أحد الخطوط الرئيسية الفاصلة بين النظام الدولي ذي الطابع الأديبي الغالب والذي سيطر على العلاقات الدولية منذ قيام الثورة الصناعية ونشوء الامبراطوريات في أوروبا وامتدادها إلى أقاليم ما وراء البحار، والنظام الدولي الذي ساد خلال فترة ما بين

الحريين العالميتين . كما أن نشوب الحرب العالمية الثانية قد مثل بدوره تاريخياً حاسماً يفصل بين فترة ما بين الحريين ومرحلة جديدة سواء في تفاعلاتها السياسية أو في قواعدها الضابطة . وطبقاً للرأي الراجح في أوساط الباحثين المهتمين بتحليل العلاقات الدولية ، فإن المرحلة الجديدة لتطور النظام الدولي منذ أوائل عقد التسعينيات قد ارتبطت بحدثين كبيرين هما : حرب تحرير الكويت (يناير/ فبراير ١٩٩١) وانهيار الاتحاد السوفيتي (ديسمبر ١٩٩١) . ويرى هؤلاء الباحثون - ويحق - أن العديد من الأحداث التي وقعت على امتداد المسرح الدولي منذ أوائل العقد الحالي لم تكن لتحدث لو أن الاتحاد السوفيتي قد ظل قائماً^(٢) . ورابعاً ، أن القاعدة بالنسبة إلى أي نظام دولي هو أنه يقوم على / أو يتشكل من مجموعة من النظم الدولية الفرعية أو التابعة Sub-Systems ، والتي يمكن لكل منها أن يباشر تأثيراً متفاعلاً على مجمل التفاعلات الحادثة على مستوى النظام الدولي العالمي أو الكوني Global . ولا شك أن ذلك يتحقق بصفة خاصة في حالة وجود أكثر من قطب واحد على قمة هذا النظام الدولي ، وذلك على نحو ما رأيناه مثلاً خلال الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الانهيار الرسمي للاتحاد السوفيتي في ٢١ ديسمبر ١٩٩١^(٣) .

والواقع ، أنه إذا أخذنا بعين الاعتبار هذا التعريف المبسط لاصطلاح النظام الدولي بمتناصره المشار إليها ، فإن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الخصوص يمكن إيجازاً في الآتي : في ضوء التحولات الدولية التي أخذت تحدث بعمق منذ بداية عقد التسعينيات - والتي سنعود إلى بيانها تفصيلاً - إلى أي مدى يصح لنا الحديث عن نظام دولي «جديد» قد تشكل فعلاً أو بسبيله إلى الظهور والتبلور؟ .

بما لا شك فيه أن التحولات العميقة في العلاقات الدولية منذ بداية العقد المذكور ، قد خلقت شعوراً عاماً قوياً لدى الكثير من الباحثين بأن النظام الدولي أصبح الآن على أعتاب مرحلة جديدة تكاد تختلف من حيث خصائصها وسماتها العامة عن تلك المراحل التي تطور خلالها هذا النظام طيلة الفترة الممتدة من عام ١٩٤٥ وحتى منتصف الثمانينيات على وجه التقريب . ولعل هذا الشعور العام هو الذي يمكن أن يفسر لنا شيوع استخدام اصطلاح «النظام الدولي الجديد» في السنوات الأخيرة . وطبقاً لرأي جانب كبير من الباحثين ، فإن هذا الاصطلاح قد استخدم للمرة الأولى على لسان الرئيس السوفيتي السابق ميخائيل جورباتشوف ، وذلك في إطار الحديث عن سياسته الخاصة بالتقارب مع الغرب ومع الولايات المتحدة الأمريكية خاصة . وقد قصد جورباتشوف من وراء استخدامه لهذا الاصطلاح أنه النظام الذي أعقب الحرب الباردة وانتهاء خطر المواجهة بين الشرق والغرب ، والذي يقوم على مبادئ حاكمية جديدة تتضمن من بين أمور عدة : نزع السلاح ، وإحلال مبدأ توازن المصالح بدلاً من توازن القوى انطلاقاً من التسليم بعدم قدرة أي من المعسكرين الأمريكي والسوفيتي على فرض إرادته على الآخر ، وتزعم الصفة الأيديولوجية من العلاقات الدولية . ومع الحصر في الوقت ذاته على العمل من أجل تخطي الحواجز والصراعات تحقيقاً لمصالح البشرية جميعاً .

وقد عوّل الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش على المصطلح نفسه في بداية أزمة الخليج الثانية في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ ، وذلك بهدف جسد التأييد العالمي ضد العراق . كما عاد الرئيس بوش واستخدم هذا المصطلح مراراً بعد ذلك ، ولا سيما بعد أن بدأ الدور السوفيتي في الضعف ثم الانهيار مع توالي عمليات تفنخ

الأطر الاتحادية لما كان يعرف باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . ومن ذلك مثلا، ما أعلنه الرئيس بوش في خطابه أمام الكونغرس الأمريكي في ٥ مارس ١٩٩١ من : «أن حرب الخليج كانت المحك الأول لنظام عالمي جديد». وفي أعقاب نجاح الولايات المتحدة في إدارة أزمة الخليج وتدمير آلة الحرب العراقية وتحريم الكويت وإعادة حكومتها الشرعية، عاد الرئيس الأمريكي السابق ليعلن بوضوح - في خطاب له بالكلية الحرة بقاعدة ماكسويل الجوية - «أن أركان النظام الدولي الجديد هي : تسوية المنازعات بالوسائل السلمية، والتفاهم الدولي في مواجهة العدوان، والعمل من أجل تخفيض مخزونات الأسلحة وإخضاعها للسيطرة ومعاملة الشعوب معاملة عادلة...».

وتبعا، أصبح الحديث عن النظام الدولي «الجديد» يمثل أحد الموضوعات الأساسية في مختلف وسائل الإعلام في الدول المختلفة، كما أنه أضفى مادة خصبة للبحث والدراسة من جانب المحللين الذين تباينت آراؤهم بشأن شكل هذا النظام وسماته الرئيسية والقرى الفاعلة فيه، وعما إذا كان سيظل نظاما أحادي القطبية أم أن التطورات الدولية اللاحقة سوف تقود إلى شكل معين من أشكال توازن القوى بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان وبقية العالم، والعمل من أجل تخفيض مخزونات الأسلحة وإخضاعها للسيطرة والحرب العالمية الثانية»^(٤).

ومع كل ذلك، فليس بوسع أي باحث مدقق أن يذهب إلى حد التسليم تماما بمقولة أن النظام الدولي الذي عرفه العالم طيلة الفترة الممتدة بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٨٥ (وهو تاريخ وصول الرئيس السوفيتي السابق جورباتشوف إلى قمة السلطة في موسكو) قد ولى إلى غير رجعة، وأن نظاما دوليا جديدا بكل معنى الكلمة قد حل محله^(٥). فالحق، أن ما يشهده العالم اليوم - ومنذ انهيار دولة الاتحاد السوفيتي إنيا هو أقرب إلى وصف «القوضى الدولية» منه إلى أي وصف آخر، أو على أقل تقدير يمكننا القول بأن النظام الدولي يمر اليوم بمرحلة انتقالية ذات طبيعة خاصة قد تستغرق عدة سنوات لكي يعود بعدها إلى الاستقرار النسبي وسحبنا أن ندلل على ذلك بالإشارة إلى الحقائق الآتية : الأوضاع السيئة وخاصة من الناحية الاقتصادية لغالبية الجمهوريات السوفيتية السابقة وبقية دول روسيا الاتحادية ذاتها، والغموض الذي مازال يحيط بمستقبل الدور العالمي والإقليمي لروسيا باعتبارها الوريث الأكبر لدولة الاتحاد السوفيتي، والمشاكل الحادة في دول شرق أوروبا واحتمالات انخراطها في علاقات وثيقة سياسيا وعسكريا وبقي ذلك اقتصاديا ضمن نطاق مجموعة حلف الأطلسي، والصراعات العرقية التي أدت إلى نشوب حروب ومنازعات داخلية ودولية في بعض المناطق كما في يوغوسلافيا السابقة وأذربيجان وأرمينيا وأفغانستان، واتجاهات السياسة الخارجية للصين سواء في إطار السياسات الدولية العالمية أو على مستوى سياسات منطقة جنوب شرق آسيا، وسياسات كوريا الشمالية التي وصلت ببحوثها إلى درجة تمكنها من إنتاج الأسلحة النووية والتي تفصح من حين لآخر عن مظاهر للتمرد على القيادة الأمريكية للعالم المعاصرة ونوعية العنصرية في ألمانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى كفرنسا والنمسا، والمشكلات الداخلية في الولايات المتحدة وخاصة ما يتعلق منها بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

إذا، فالنتيجة المبشرة التي يمكن أن نخرج بها للمراقب لمسار حركة الأحداث في عالمنا المعاصر ومنذ بداية

عالم الفكر

العقد الحالي، إنما تمثل في ازدياد درجة عدم التيقن بالنسبة لمستقبل اتجاهات هذه الأحداث، وازدياد الإدراك لحقيقة أن ما لا نعرفه بشأن هذا الموضوع أصبح يفوق بكثير حجم ما نعرفه أو نستوعبه فعلاً، وهو ما يهتم علينا ضرورة أن نتعامل - بحذر منهجي - مع وضع جديد لم تكتمل معالمة بعد. وعليه، فقد يكون من الحكمة عدم التسرع في إصدار الأحكام القيمة فيما يتعلق بالصورة العامة التي سيكون عليها النظام الدولي بعد انتهاء مرحلته الانتقالية الراهنة.

على أن الوصول إلى هذه النتيجة العامة لا يمنع من طرح السؤال الآتي: في ضوء القدر المحدد للمعلوم لنا في مجمل التحولات الدولية التي أخذت تحدث تباعاً منذ أواخر عقد الستينيات، ما هي أبرز الملامح أو السمات العامة التي بات يتميز بها النظام الدولي خلال مرحلته الانتقالية هذه؟
نجيب عن هذا السؤال من خلال النقطة الثانية من البحث.

ثانياً: ملامح تطور النظام الدولي في المرحلة الراهنة

قد يكون من المفيد بداية، وقبل أن نعرض لهذه الملامح، أن نعيد التأكيد على ما سبق أن أشرنا إليه فيما يتصل بحقيقة أن أي نظام دولي لا يبدأ من فراغ، وإنما تكون له مقدماته الأولية التي تصله بالنظام الدولي السابق عليه، مما يشكل قدراً من الاستمرارية في تطور العلاقات الدولية على نحو معين. ومرد ذلك إلى كون أن التطور التاريخي لا يعرف - كمبدأ عام - الاندفاعات العشوائية أو الانقطاعات المفاجئة، فكل شيء مقدماته وأصوله وجذوره، فالتاريخ الإنساني - بعبارة أخرى - لم يعرف قط تطوراً جديداً تماماً لا يمت بصلة بما سبقه، وحتى الثورات الكبرى في نطاق هذا التاريخ - وكذلك الأديان - قد عكست البشائر التي ظهرت فيها ولو في حدود معينة.

ومؤدى ذلك، أن بعضاً من الملامح التي سيلي ذكرها يمكن تلسمه أيضاً في نطاق النظام الدولي الذي ظل يحكم العلاقات الدولية طيلة الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف عقد الثمانينيات تقريباً^(١). ومن ذلك مثلاً أن القاعدة المعروفة في نطاق القانون الدولي العام المعاصر بقاعدة عدم جواز اللجوء إلى القوة أو التهديد باستخدامها في نطاق العلاقات الدولية المتبادلة، لها جذورها التي تعود على الأقل إلى اتفاقيات لاهاي للسلام عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ وكذا إلى عهد عصبة الأمم الذي أبرم في إطار معامدات صلح فرساي عام ١٩١٩. والتيء ذاته يصدق أيضاً على الموضوع الخاص بتطور الحماية الدولية لحقوق الإنسان.

ونعود الآن إلى سؤالنا المطروح بشأن الملامح المميزة للنظام الدولي في تطوره الراهن.

يمكننا إيجاز أهم هذه الملامح فيما يلي^(٢):

١ - فبدية، هناك الثورة الهائلة في وسائل الاتصال ونقل المعلومات وسرعة تداولها عبر الدول، وما ترتب على ذلك من اختصار غير معهود للزمن والمسافات بين مختلف مناطق العالم، الأمر الذي جعل أفكارنا ومفاهيمنا عن الظواهر والأشياء تتأثر إلى حد بعيد بالأحداث الجارية والتطورات المتلاحقة على امتداد هذا العالم. وكما هو معلوم، فقد ساعد على ذلك - وخاصة فيما يتعلق بنقل المعلومات من خلال نظم الحاسبات

الآلية ذات القدرة الفائقة على الاضطلال بمختلف الوظائف التي تناسط بها . ونتيجة لذلك ، اعتبر البعض - ويحق - أن إحدى السمات الرئيسية لعالمنا المعاصر إنما هي السرعة في التواصل وفي معدل التغير، وإلى الحد الذي حل بعض المفكرين الاجتماعيين مثل ألفن توفلر إلى التساؤل بشأن مدى قدرة الإنسان على التكيف مع هذه الدرجة غير المسبوقة من السرعة في تداعي الأحداث وتلاحقها .

٢- واتصالاً بهذا الملحح السابق ، هناك أيضاً الخاصية المتمثلة في الثورة العلمية والتكنولوجية ، وهي الثورة التي أصبحت آثارها ومظاهرها تندفق علينا ومن حولنا من كل جانب سواء في شكل منتجات صناعية أو في صورة أجهزة ومعدات حديثة أو في وسائل الاتصال ذاتها . ولعل البعض يتذكر بهذه المناسبة ، ذلك الحوار الشهير الذي تم مباشرة عن طريق الأقمار الصناعية والذي التقى من خلاله ما يقرب من ٧٠٠ من رجال الأعمال وعدد من المسؤولين المصريين في القاهرة وست مدن أمريكية - في إبريل ١٩٨٢ - وناقشوا خلاله فرص الاستثمار المتاحة في مصر .

ومرة أخرى ، فإنه ليس بوسع أحد أن يغفل في هذا المقام الدور الحاسم للحاسبات الإلكترونية كسمة مميزة لثورة المعلومات الهائلة التي اصطبغت بها النظام الدولي المعاصر في السنوات القليلة الماضية ، وخاصة في مجالات الدفاع وبناء القدرات العسكرية للدول . وبحسب رأي بعض المحللين ، فإن هذه الثورة الإلكترونية الهائلة قد ميزت بدورها - بأربع سمات فرعية هي ^(٨) :

١- فاولاً ، توصف هذه الثورة بأنها ساعدت إلى حد بعيد في اختصار المدى الزمني الذي كان يفصل بين كل ثورة صناعية وأخرى . فقد أخذ هذا المدى يضيق باستمرار بحيث يمكن القول بأنه إذا كان الصائم قد انتظر ما يقرب من ١٨٠٠ عام حتى تبدأ الثورة الصناعية الأولى ، وأنه لم يدخل في عصر الثورة الصناعية الثانية إلا بعد مئة عام من ذلك التاريخ ، واحتاج فقط إلى ما لا يزيد على ربع قرن ليُدخل في عصر الثورة الصناعية الثالثة ، إلا أنه أصبح اليوم وريثاً في أقل من عشر سنوات على مشارف ثورته الصناعية الرابعة .

ب- ومن ناحية أخرى ، يلاحظ أن هذه الثورة الصناعية الجديدة في مجال الإلكترونيات تمتاز بأنها - وعلى خلاف الثورات الصناعية السابقة التي اعتمدت على الصناعات الثقيلة أو على صناعة الآلات والسيارات وخلافه - تعتمد على نتائج العقل البشري وعلى حصيلة الخبرة والمعرفة التقنية . ولعل هذا هو الذي يفسر لنا - وعلى سبيل المثال - لماذا يذهب الجزء الأكبر من القيمة عند تقدير ثمن المنتج إلى المعرفة والتكنولوجيا المستخدمة وليس إلى المواد الخام التي استُخدمت في عملية تصنيع هذا المنتج .

ج- ولأن العقل البشري هو الذي أصبح ينظر إليه باعتباره قوام الثورة التكنولوجية الرابعة ، لذا فقد بات من المقبول بصفة عامة أن مواجهة هذا التطور الجديد الحاد في طبيعة العمليات الإنتاجية إنما تستلزم بالدرجة الأولى استثماراً رئيسياً في نوعيات معينة من المجالات ، وبالأخص تلك التي تتعلق بأمور التعليم وتطوير المهارات البشرية وتنمية كوافر وقدرات تستطيع التعامل مع مخرجات هذه الثورة والتكيف مع نتائجها . ولاشك أن ذلك قد بات أمراً مطلوباً من الدول كافة أن تنمي وتعدها نفسها لمواجهة ، وخاصة تلك التي تبغى تحقيق خطوات واسعة على طريق حل مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية .

عالم الفكر

د- وأما السمة الفرعية الرابعة للثورة التكنولوجية المعاصرة فتتمثل في حقيقة أنه أصبح في حكم المسلم به اليوم أن ثمة مجالات معينة بالذات ينبغي علينا أن نتابعها وذلك لصلتها الوثيقة بأي تقديم يرمى تحقيقه في سبيل حل مشكلتنا الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. وتتمثل هذه المجالات بالأساس في الآتي استغلال الطاقات البديلة، والإفادة من الطاقة الشمسية، واقتحام مجال الهندسة الوراثية وتكنولوجيا إنتاج الطعام الرخيص وبكميات وفيرة، ومجال إحلال الآلة محل الإنسان في كل ما يتصل بأمور المكنة Automization⁽⁴⁾.

٣- وهناك، من ناحية ثالثة، ما أصبح يشار إليه في بعض الكتابات المعاصرة بظاهرة الاعتماد الدولي المتبادل International Interdependence أو التقسيم الدولي الجديد للعمل The New International Division Of Labour، وخاصة بعد التزايد الملحوظ في أعداد وأنواع الشركات متعددة الجنسية Multi-national Corporations بالأحرى الشركات دولية النشاط والتي تمتد بأنشطتها إلى ما وراء الحدود السياسية للدول. وقد ظهر أثر ذلك واضحا في طبيعة المنتج الصناعي، حيث لم يعد في إمكان دولة واحدة - مهما كانت قدرتها الذاتية - أن تستغل بمفردها بصنع هذا المنتج، وإذ أصبح من الشائع اليوم أن نجد العديد من المنتجات الصناعية (سيارات، أجهزة إلكترونية، حاسبات آلية، ...) يتم تجميع مكوناتها في أكثر من دولة بحيث تقوم كل واحدة منها بالتركيز على / أو بالتخصص في صنع أحد هذه المكونات فقط.

٤- كذلك، فإن من السات الأخرى المميزة للنظام الدولي في تطوره الراهن كون أن المشكلات والقضايا التي يواجهها قد أصبحت ذات طابع دولي غالب ولم تعد مشكلات محلية أو حتى إقليمية. وبعبارة أخرى، فإن مشكلات كتلك المتعلقة بالجفاف أو التضخم أو نقص الغذاء أو الإرهاب أو تلوث البيئة، ... لم تعد تقتصر من حيث آثارها ونتائجها - وكذا من حيث القدرة على التصدي لها ومواجهتها على النطاق الإقليمي لمجموعة من الدول بلوانها، وإذ امتدت هذه الآثار وتلك النتائج إلى دول أخرى متباعدة جغرافيا. ومن هنا نستطيع أن نفهم مثلا لماذا تبدو دولة كاليابان معنية كثيرا بموضوع التلوث البيئي في منطقة الخليج - على نحو ما حدث إبان أزمة الاحتلال العراقي للكويت (أغسطس ١٩٩٠ - فبراير ١٩٩١)، وذلك على الرغم من المسافة الجغرافية الشاسعة التي تفصل بينها وهذه المنطقة. كما أن هذه السمة العالمية أو الكونية Global للمشكلات الدولية الراهنة هي التي حلت بالعوض لأن يقرر صراحة أن مشكلة كتلك الناجمة عن التلوث البيئي مثلا قد أصبحت تمثل تهديداً للسلم والاستقرار في العالم الأمر الذي يستدعي جهودا دولية مشتركة لمواجهتها سواء من أجل ضبط الانفجار السكاني أو لكفالة نوع من التوزيع العادل لموارد الغذاء بين الدول الغنية والدول الفقيرة أو لمنع تجريف الأراضي الزراعية ووقف الاعتداء على البيئة (تدمير الغابات، دفن النفايات النووية في مناطق مأهولة أو قرية منها ...).

٥- والواقع، أن الحديث عن الملامح الرئيسية لتطور النظام الدولي في مرحلته الراهنة ربما لا يكون مكتملا من دون الإشارة إلى ذلك التبدل الكبير الذي طرأ على مبدأ السيادة الوطنية في مفهومه التقليدي. فالشاهد، أنه كنتيجة للتحويلات النوعية العميقة التي شهدتها هذا النظام ليس فقط منذ منتصف الثمانينات وأوائل التسعينيات وإذ أيضا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ترتب آثار عديدة فيما يتعلق بالبلد المذكور أدت إلى

التضييق من نطاق وحدود سلطات واختصاصات الدولة القومية. وقد كان ذلك لصالح توسيع مادة الاهتمام الدولي بالمسائل التي ظل ينظر إليها دوماً وبحسب معايير القانون الدولي التقليدي باعتبارها من الأمور التي تندرج ضمن نطاق الاختصاص الداخلي Domestic Jurisdiction للدولة أو ضمن نطاق مجالها المحجوز Reserved Domain^(١٠). وليس ثمة شك في أن التطور الحاصل الآن في مجال الحماية الدولية لحقوق الإنسان، يشكل مثالا نموذجياً يمكن الإشارة إليه في معرض التذليل على درجة التغير التي أصابت مبدأ السيادة الوطنية لمصلحة المجتمع الدولي.

ولئن كان الاهتمام الدولي المتزايد بحقوق الإنسان والحريات الأساسية تعود بدايته الحقيقية إلى تاريخ إنشاء الأمم المتحدة عام ١٩٤٥، إلا أن المشاهد أن السنوات الأخيرة من تطور النظام الدولي - وبالذات منذ نشوب أزمة/ حرب الخليج عامي ١٩٩٠/ ١٩٩١ - قد عمقت من هذا الاهتمام وذلك من خلال إعادة طرح ما اصطلح على تسميته «بمبدأ التدخل الدولي الإنساني Humanitarian Intervention أو «التدخل الدولي لأغراض إنسانية»^(١١).

ولعل المثالين الأكثر دلالة في هذا الخصوص هما اللذان نجدتهما في حالتي التدخل الدولي ضد العراق لحماية الأكراد والشيعة في شمالي البلاد وفي جنوبها وذلك في أعقاب انتهاء حرب تحرير الكويت في ٢٦ فبراير ١٩٩١، والتدخل الدولي في الصومال منذ أوائل عام ١٩٩٣ والذي تم تحت شعار «إعادة الأهل» وإقناذ الشعب الصومالي من خطر المجاعات التي أغلقت تفتك به كنتيجة لانهار الدولة، وحصرتها عن القيام بمجمول الوظائف المنطوق بها في مثل هذه الأحوال^(١٢).

وبصفة عامة، فإنه مما لا شك فيه أن التبدل الذي طرأ على مفهوم السيادة الوطنية لا يمكن فهمه بمعزل عن حقيقة أن الدول القومية - وعلى الرغم من التزايد المطرد في أعدادها وبشكل تدريجي منذ عام ١٩٤٥ - لم تعد هي الفاعل الوحيد في نطاق العلاقات الدولية، وذلك على خلاف الحال خلال الفترة السابقة على هذا التاريخ. فإلى جانب الدول، أصبحت هناك كيانات دولية عديدة تضطلع اليوم بدور كبير - يفوق دور الدول ذاتها في بعض الأحيان - في توجيه مسار حركة الأحداث على امتداد الساحة الدولية. فهناك، على سبيل المثال، المنظمات الدولية على اختلاف أنواعها من حكومية وغير حكومية، عالمية وإقليمية، عامة ومتخصصة. وهناك، أيضاً، الشركات دولية النشاط والتي أصبحت اليوم تمثل إحدى الظواهر الأساسية المميزة للعلاقات الدولية المعاصرة^(١٣). وكلنا يعلم كيف تضخمت نشاطات بعض هذه الشركات الدولية وإلى الحد الذي تتجاوز فيه ميزانية الواحدة منها ميزانيات العديد من الدول مجتمعة، وخاصة دول الجنوب.

ونتساءل الآن عن مدى إمكانية القول باستمرار هذه السات كملامح مميزة للنظام الدولي فليس في مرحلته الراهنة ومنذ أوائل عقد التسعينيات، أم يصح لنا القول - من جهة أخرى - بأن التحولات التي طرأت على بنية النظام الدولي منذ أزمة/ حرب الخليج الثانية أو على أقصى تقدير منذ انبهار الاتحاد السوفيتي هي ببساطة اليوم لأن تضفي على هذا النظام الدولي خصائص وسياق من نوع جديد تماماً.

عالم الفكر

مرة أخرى، ليس بوسع أي محلل سياسي أن يتجاهل حقيقة أن انتهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي - والتي استمرت قرابة أربعة عقود - قد خلق إطاراً جديداً للسياسة الدولية ينسجم بالتغير السريع، إطار ذو سمات خاصة ومميزة حيث أنه لا يقتصر على القضايا السياسية وإنما يمتد ليعطي مجالاً رحباً للتنظيم الاجتماعي والإنساني أيضاً. وكما سلف القول، فإن التطورات التكنولوجية العميقة التي يشهدها العالم في الوقت الحاضر صارت تؤثر على الوزن النسبي لعناصر الإنتاج، بمعنى أنها زادت من قيمة وأهمية دور المعرفة والمعلومات بالمقارنة بقيم العناصر الأخرى المعروفة في نطاق علم الاقتصاد التقليدي كالأرض والعمل ورأس المال، وهكذا، نمت صناعات جديدة تنحصر أنشطتها في جمع المعلومات وتنظيمها وتخزينها واسترجاعها، وتظهر اصطلاح «مجتمع المعلومات» للدلالة على هذا التطور النوعي الجديد. ولعلنا لا نبالغ إذا خالصنا، في هذا المقام، إلى القول بأن انبهار دولة الاتحاد السوفيتي إنما كان في أحد جوانبه تعبيراً عن عدم قدرة مؤسساتها العلمية والاقتصادية على الاستجابة لمتطلبات التغير التكنولوجي السريع هذه.

والحق، أنه مع اعترافنا بالأثار الضخمة التي نجمت عن انتهاء عصر الحرب الباردة بين قطبي النظام الدولي، إلا أن القول بأن هذا النظام سيشهد خلال المستقبل المنظور توجهات سياسية جديدة تقرم على إحلال مبدأ التعاون محل مبدأ الصراع والمواجهة ليس مقطوعاً بصحة تماماً فلا يزال هناك من ينظر إلى العالم منذ نهاية عام ١٩٩١ من خلال مفاهيم الحرب الباردة، حيث يرى هؤلاء أن روسيا الاتحادية - وهي الوريث الأكبر والأقوى للاتحاد السوفيتي السابق - مازالت تمتلك القدرة الكافية التي تمكنها من شن الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم فإن التهديدات الاستراتيجية للغرب عموماً وللولايات المتحدة على وجه الخصوص لا تزال قائمة على الرغم من الاختفاء الرسمي للدولة الاتحاد السوفيتي. وواضح، أن هذا الفريق من المحللين لا يعمل كثيراً على التوليا أو على الإعلانات السياسية، وإنما يركز بالأساس على الحقائق الحادثة فعلاً، فيما يهيم هو مصير ترسانات السلاح ونظم التسليح المتوفرة لدى ورثة الاتحاد السوفيتي.

كما ينطلق أنصار هذا الرأي من مقولة أن التأثير الواضح لانتهاء الحرب الباردة ربما يظهر في بعض مناطق العالم - كأوروبا الشرقية - دون البعض الآخر. فعلى سبيل المثال، لم يؤد انتهاء هذه الحرب إلى إحلال فوري للسلام في منطقة مهمة كمنطقة الشرق الأوسط، وذلك على الرغم من استمرار المباحثات الثنائية منها والمتعددة الأطراف، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا بأن السياق المحموم على التسليح فيما بين دول المنطقة مازال مستمراً فوفقاً للكتاب السنوي الذي يصدره معهد «سري» الشهير في السويد، يلاحظ أن الإنفاق العسكري للمملكة العربية السعودية قد زاد من ٨٨٧، ١٤ مليون دولار في عام ١٩٨٨ إلى ٢٢٧، ٢٦ مليون دولار في عام ١٩٩١، وزاد بالنسبة لدولة إسرائيل وخلال الفترة نفسها من ٣، ٨١١ مليون دولار إلى ٣، ٩٠٩ مليون دولار، وزاد في سوريا من ٨٢٢، ١ مليون دولار إلى ٣، ٣٠٤ مليون دولار، وأما في تركيا فقد زاد من ٦٦٤، ٢ مليون دولار إلى ٨٧٠، ٣ مليون دولار^(١٤).

وإضافة إلى ما تقدم، فإن نهاية الحرب الباردة لم يصاحبها أي تحسن ملحوظ لبعض بؤر التوتر في العالم. فمثلاً على العلاقات الهندية-الباكستانية أي تطور إيجابي وخاصة فيما يتعلق بمشكلة كشمير، كما لم يؤد انتهاء الحرب الباردة إلى الإقلال من سعي باكستان الهندوب من أجل تصنيع وإملاك السلاح النووي. كما أنه

أي انتهاء الحرب الباردة - لم يؤد إلى مزيد من الاستقرار في شبه الجزيرة الكورية، بل حل العكس فلاحظ هو أن حدة التوتر بين دولتي كوريا قد زادت في عام ١٩٩٣ مما جعل كوريا الجنوبية على القيام بعمليات عسكرية مع الولايات المتحدة، وخاصة بعد رفض كوريا الشمالية إخضاع مفاعلاتها ومنشآت النوية للتفتيش من جانب الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

وعلى الإجمال، فإنه أياً كان تقويمنا للنتائج المترتبة على انتهاء الحرب الباردة، فإن الأمر الذي لا سبيل إلى إنكاره في هذا الخصوص هو أن التفاعل بين ما يمكن وصفه بـ «بقوى التكامل» و «قوى التهايز» في إطار العلاقات الدولية سوف يستمر، وستكون النتيجة المحققة هي بلا شك محصلة بين هذين التقيضين في تركيب جديد ذي ملامح خاصة ستبرز بوضوح في اتجاهات رئيسية خمسة هي:

١ - التطور نحو المزيد من الثورة العلمية والتكنولوجية

من المتوقع أن يشهد النظام الدولي في تطوره الراهن وخلال سنواته القليلة القادمة تعميقاً مكثفاً للثورة العلمية والتكنولوجية في جوانبها المتعددة، وعلى الأخص فيما يتصل بالمحاور الأساسية الآتية: المعلوماتية Informatiques ودورها المتزايد في مجالات الحياة المختلفة، والتقنيات الحيوية، وتخليق المواد أو استنباط مواد جديدة وخاصة في مجال الغذاء، والإدارة العلمية، والاعتماد على ما يسمى خطأ في أدوات الإعلام الإنسان الآلي (الروبوت)، أو الإحلال التدريجي للألة محل الإنسان في بعض الأنشطة.

وبطبيعة ما هو مشاهد، فإن هذا التطور نحو المزيد من الثورة العلمية والتكنولوجية، يتصف - بدوره - بعدد من السمات:

أ- فهو، أولاً، تطور يحدث بمعدلات متسارعة للغاية وإلى الحد الذي ضاقت فيه الفجوة الزمنية التي تفصل بين تاريخ الاكتشاف العلمي وبداية تطبيقه عملياً.

ب- ومن ناحية ثانية، توصف هذه الثورة العلمية بأنها ستؤدي - من بين أمور أخرى عديدة - إلى مزيد من الارتباط والتداخل بين مختلف مناطق العالم، وإلى مزيد من الاعتماد المتبادل بين الأطراف الرئيسية لهذه الثورة التكنولوجية حتى ليصبح لنا القول بأنه إذا كان الإنسان قد ظل يعيش على هذا الكوكب منذ ملايين السنين، إلا أنه لم يقدر له إلا خلال حقبة الثمانينيات فقط أن يعيش في مجتمع عالمي Global بالمعنى الحقيقي للاصطلاح. وباختصار، يمكن القول بأن هذه الثورة التكنولوجية العلمية هي التي تتمثل الأيديولوجية الجديدة التي سيتنافس حولها المتنافسون، وذلك بعد أن تراجعت الخلافات الأيديولوجية التقليدية والتي عرفها العالم بشكل خاص خلال الفترة التالية على انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى سقوط دولة الاتحاد السوفيتي (١٥).

ج- كذلك، توصف هذه الثورة العلمية والتكنولوجية من ناحية ثالثة، بأنها أدت وستؤدي إلى مزيد من التركيز على أهمية عامل المعرفة في نطاق العلاقات الدولية المتبادلة. فالسمة الرئيسية لهذه الثورة هي - وكما هو مشاهد حتى الآن - اعتمادها على المعلومات، بما يعنيه ذلك من كونها تؤسس على مصدر متجدد ولا نهائي قوامه هو العقل الإنساني ذاته. ومؤدى ذلك، أن الاستثمار الصناعي في الدول

عالم الفكر

عموماً يتوقع له - بل ويجب أن يتجه من التركيز على مجالات البناء والآلات إلى الاستثمار في مجالات المعرفة والبحث العلمي .

٢- التطور نحو المزيد من الاعتماد الاقتصادي المتبادل

أشار التحليل، فيما سبق، إلى حقيقة أن الثورة العلمية والتكنولوجية المعاصرة قد رتبت نتائج عديدة تمثلت بالأساس في اغتيال حاجز المسافات بين الدول والقارات مع ما يعنيه ذلك من تزايد إمكانيات التأثير والتأثر المتبادلين وإيجاد نوع جديد من التقسيم الدولي للعمل الذي يتم بمقتضاه توزيع العملية الإنتاجية الصناعية بين أكثر من دولة بحيث يتم تصنيع مكونات أي منتج نهائي في أكثر من مكان واحد . وقد انعكس كل ذلك ولاشك في تراجع بعض مفاهيم علم الاقتصاد التقليدي ونظرياته، وتضالول دور الدولة من خلال سياسات الاقتصاد المخطط وإحلال دور القطاع الخاص محل القطاع العام في العديد من الدول .

كذلك، فإن من المشاهد اليوم أن هذه الثورة العلمية والتكنولوجية، وما ترتب بها من تقسيم جديد للعمل الدولي، قد غيرت كثيراً من موازين القوة الاقتصادية وطرحت معايير جديدة لهذه القوة وصفها البعض وبحق «بالميزة التنافسية للأمم في التسعينيات»^(١٦) . فمن المؤكد أنه لأول مرة في التاريخ، يلاحظ أن الموارد الطبيعية لم تعد هي الركيزة الأساسية للقدررة الاقتصادية للدولة على المنافسة في المجال الدولي . وليس أدل على ذلك من حقيقة أن معدلات النمو الاقتصادي العالمية قد تحققت في دول فقيرة نسبياً في مواردها الطبيعية كاليابان وكوريا الجنوبية وبعض الدول الأخرى في منطقة جنوب شرق آسيا، في حين أن معدلات النمو المنخفضة قد وجدت في العديد من الدول التي تتوافر لديها - بمعايير علم الاقتصاد التقليدي - موارده طبيعية كبيرة ومتنوعة كالأرجنتين وباكستان والسودان بل وحتى الاتحاد السوفيتي قبل انهياره .

وعليه، فقد أضحت من المسلمات الآن القول بأن الدول لا تثر رخاها وإثنا تخلفه بأيدي أبنائها من خلال التجديد والإبتكار والتطوير المستمر، وبأن هذا الرخاء لا ينهض فقط على توافر الموارد الطبيعية للدولة، وإثنا ينهض قبل ذلك كله على قدرة المؤسسات الاجتماعية على تنظيم هذه الموارد وتعبئتها، وتبنى السياسات القادرة على التعامل مع الضغوط التي تولدها المنافسة في الأسواق الدولية والعمل لكي يتميز إنتاجها الصناعي بالتجديد والإبتكار .

والواقع، أنه لا يجالينا أدنى شك في أن الأمر المثير بالنسبة لقدرة أية دولة على تحقيق مثل هذه الميزة التنافسية الدولية، إثنا يكمن في كون أن نجاحها - في التحليل الأخير - يتناسب طردياً مع حجم المنافسة المحلية القائمة بين مؤسساتها الإنتاجية . فمعدة المنافسة المحلية يصير إذاً، هو المحك الأكبر لقدرة على المنافسة العالمية، ولعل النموذج الياباني هو الذي يقدم لنا دليلاً أكيداً في هذا الخصوص . ففي اليابان على سبيل المثال تتنافس ١١٢ شركة تعمل في مجال صناعة العدد والآلات، و ٢٤ شركة تعمل في مجال صناعة أدوات الاتصال وأشباه المواصلات، و ٢٥ شركة تعمل في مجال صناعة أجهزة التصوير والكاميرات . ولاشك أنه كلما تركزت المنافسة جغرافياً وزدادت حدتها، أصبحت الصناعة أكثر قوة لاقتحام ميدان المنافسة العالمية .

٣- التطور نحو المزيد من التكتلات الاقتصادية العملاقة

ليس ثمة خلاف بين جمهور الباحثين والمحللين حول أن العالم يشهد الآن انهماكاً واضحاً وقوياً يدفع في طريق التكامل الاقتصادي وإيجاد الأسواق الكبيرة. ولعل من أبرز الأمثلة التي يمكن الإشارة إليها في هذا الخصوص: مشروع أوروبا الموحدة الذي خطا بخطوات واسعة نحو التكامل الأوروبي منذ اتفاقية روما لعام ١٩٥٧ وما أعقبها من خطوات أسفرت عن توقيع معاهدة ماستريخت. وهناك، أيضاً، جماعة الياسينيك الاقتصادية، وكذا منطقة التجارة الحرة التي تجمع بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك. . . والواقع أن هذا الاتجاه العالمي نحو التكتل أو التكامل الإقليمي، إنما يفسر في جانب منه في ضوء طبيعة القضايا والمشكلات التي أصبحت تواجه العالم المعاصر، والتي تتجاوز آثارها ونتائجها الحدود السياسية للدول فرادى^(١٧).

٤- الاتجاه نحو المزيد من التطور الديمقراطي^(١٨)

لا شك أن ثمة حالة غير مسبوقة من التطور الديمقراطي على المستوى العالمي أخلعت نجد تطبيقات متعددة لها في الدول المختلفة، بما في ذلك بعض دول العالم الثالث. ولعل من أهم مظاهر هذه الحالة ما نراه الآن من تزايد ملحوظ في درجة المشاركة السياسية للشعوب في تقرير مصيرها، وذلك على نحو ما حدث مثلاً في الجمهوريات الخمسة عشر التي انبثقت عن دولة الاتحاد السوفيتي في أعقاب انهيارها، وكذا ما حدث بالنسبة لحالة انفصال إقليم أريتريا عن إثيوبيا وتكوين دولة مستقلة. كما لا ينبغي في هذا السياق تجاهل التطورات الديمقراطية التي جرت في دول أوروبا الشرقية منذ نهاية عقد الثمانينات، وهي التطورات التي أتت على نظم الحكم الشيوعية لتجنتها من جذورها وبشكل دموي في بعض الحالات على نحو ما حدث في رومانيا.

ومكثنا، فقد بات أمراً ضرورياً الآن - وكما عبر البعض عن ذلك متهمكاً - أن النظام الدولي «الجديد» يسعى إلى إتاحة الفرصة الكاملة للشعوب للتعبير عن إرادتها بحرية، وأن تصدر قراراتها بنفسها.

٥- تطور النظام الدولي ومزيد من الوفاق في مرحلة ما بعد الحرب الباردة

غني عن البيان أن احتدام الصراع بين قطبي النظام الدولي خلال مرحلة الحرب الباردة قد أدى إلى إرهاق متبادل لكل منهما، وذلك بالنظر إلى الأعباء العسكرية الناجمة عن سباق التسلح الرهيب طيلة الفترة السابقة على منتصف الثمانينات. ومن هنا، فقد كانت مبادرة الرئيس السوفيتي السابق جورباتشوف في أعقاب وصوله إلى قمة السلطة في الاتحاد السوفيتي بشأن ضرورة صياغة أفكار جديدة في هذا الخصوص، أمراً طبيعياً فرضه الإدراك بمدى ثقل هذه الأعباء العسكرية. وقد تأسست هذه الأفكار الجديدة للرئيس جورباتشوف على مقولة أساسية مفادها أن العالم أصبح يشكل الآن وحدة واحدة بفعل تأثير الثورة التكنولوجية والتقدم الرهيب في أسلحة الدمار الشامل.

وقد استجيب ذلك تبلور أربعة مبادئ رئيسية في هذا الإطار هي:

١ - أن الاحتاد المتبادل صار هو القانون الأساسي للعلاقات الدولية.

عالم الفكر

ب- أن التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية لم يعد هو التناقض الرئيسي في النظام الدولي، وإنما توارى ليحل محله تناقض أهم وهو التناقض بين دول الشمال الصناعية المتقدمة ودول الجنوب ذات الأوضاع الاقتصادية المتدنية. كما أن اختفاء هذا التناقض بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي قد ساعد في تكتيل الجهود الدولية من أجل التصدي للمشكلات المشتركة كمشكلات: الإرهاب، والتلوث، والانفجار السكاني، وتزايد معدلات البطالة، ...

ج- أن المبدأ الذي أضحي يحكم العلاقات الدولية الآن أصبح يتمثل في توازن المصالح وليس في توازن القوى على نحو ما حدث طيلة الفترة السابقة على انتهاء عصر الحرب الباردة.

د- بروز نظام إعلامي دولي جديد^(١٩). ومن المتصور أن يتحدد الدور الذي سيلعبه هذا النظام الإعلامي الدولي الجديد في العديد من المجالات مثلاً: إحداث ثورة إدارية ونفسية ستؤدي ولا شك إلى إعادة صياغة القيم والأفكار فضلاً عن إعادة تأهيل البشر بما يتناسب والتحولات التقنية للعالم في تطوره الراهن، التأثير على أنظمة التربية والتعليم وعلى الضاعلات الاجتماعية وعلى نحو يتمثل معه أن يقود إلى تحطيم التوازنات التاريخية في الشمال والجنوب معاً، تدهور مكانة المثقف التقليدي في مقابل المثقف الجديد الذي يستمد معارفه وأفكاره من أجهزة الإعلام المرئي (التلفزيون) وسمعي (الراديو) وشيوع ما اصطلح على تسميته بالكتاب المسموع والمرئي وحلوله محل الكتاب التقليدي، وصياغة نمط جديد وبدل للرأسمال الرمزي والمعنوي أو ما أسماه البعض مثل ماكس نوابيه بالرأسمال الإدراكي... الإعلامي والذي يتطوي على قدر كبير من التقنية، الأمر الذي سيجعله قادراً على المدم والتجديد بسرعة فائقة، وصياغة ذاكرة جماعية وإنسانية جديدة وعقل ووعي سياسي وإدراكات هابرة للقوميات والحدود السياسية، واختيار التقسيم التقليدي للمجاليين العام والخاص في النظام الاجتماعي مع تحول الجهاز الإعلامي ليصبح هو الأداة الأساسية في تشكيل الاتجاهات السياسية وتوجيه السلوك التصويتي وهو ما سيؤدي في التحليل الأخير إلى إضعاف دور الأحزاب السياسية في نطاق هذه الهيمنة المرئية.

ثالثاً: احتمالات المستقبل بالنسبة لشكل النظام الدولي

في ضوء الملامح العامة للنظام الدولي الراهن والتي سلفت الإشارة إليها، ثمة سؤالان مهيان مطروحيان الآن في أوساط الباحثين والمحللين: أما السؤال الأول، فيتعلق بهامية التصورات المستقبلية المحتملة لشكل النظام الدولي في مرحلته القادمة. وأما السؤال الثاني، فيركز على أهم المجالات التي ينبغي إيلاؤها الأهمية الواجبة باعتبارها تمثل المداخل الصحيحة لتشكيل بنية العلاقات الدولية ومنظومتها خلال المستقبل المنظور.

وقد يكون مفيداً أن نعرض، فيما يلي، لكل واحد من هذين السؤالين على حدة:

١ - فيما يتعلق بالتصورات المستقبلية لشكل النظام الدولي

يسود الفكر السياسي المعاصر عدة اتجاهات فيما يتعلق بهذا الموضوع، الاتجاه الأول، ويذهب أنصاره إلى التمسك بمقولة أساسية مفادها أن العالم بسبيله الآن إلى التمرکز حول الولايات المتحدة، التي ستصير هي

القطب الأروحد في نطاق النظام الدولي «الجديد». وبحسب رأي هذا الفريق من الباحثين، فإن الولايات المتحدة ستتأخر دورها العالمي دون أن يكون هناك أي عنصر دولي آخر موازن لهذا الدور. وعليه، فمن المتصور أن يحدث نوع من الاندواجية في المعايير وفي تفسير القواعد القانونية الدولية حسبما يتفق أو يتعارض مع المصالح الأمريكية الوطنية وموقعها في نطاق السياسات الكونية الجديدة^(٢٠).

الاتجاه الثاني، ويميل أنصاره إلى القول بأن ثمة تكتلاً غربياً رأسالياً - تتمثل ركيزته الأساسية في الولايات المتحدة والاتحاد الأروبي واليابان - هو الذي سيشكل ويحقق القوة الضاربة تكنولوجيا واقتصادياً في نطاق النظام الدولي الجديد.

ويستند هذا الرأي إلى عدد من المقولات منها: أولاً أن ما حققته الولايات المتحدة من إنجازات في حرب الخليج الثانية ما كان ليتحقق لولا تلك المواقف الميدانية لعدد كبير من دول العالم ومنها الدول العربية. ومنها - ثانياً - أن العالم أصبح الآن من التعتد والتركيب والتداخل بحيث لم يعد ممكناً معه القول بإمكان أن تقوم دولة واحدة بالتحكم فيه بمفردها. وثالثاً، هناك حقيقة أن الاقتصاد الأمريكي صار مجهداً إلى حد كبير نتيجة لأهبار الحرب الباردة ونفقات سباق التسلح مع الاتحاد السوفيتي طيلة فترة امتدت إلى ما يقرب من أربعة عقود^(٢١).

أما الاتجاه الثالث، فينطلق أنصاره من مقولة أنه يجب التمييز بين مستويين من التحليل للنظام الدولي: المستوى الأول، وهو المستوى الاستراتيجي والعسكري. فهنا يرى هؤلاء أن روسيا الاتحادية والولايات المتحدة ستظلان متممتين بموقعهما المتميز على مستوى العالم بحكم تفوقها العسكري بالمقارنة بباقي الدول الكبرى الأخرى، أما اليابان ودول الاتحاد الأروبي فمن غير المتوقع - في نظر أصحاب هذا الرأي - أن تتحول أي واحدة منها إلى قوة عسكرية منافسة باقتدار للقوة الأمريكية أو الروسية. وعلى ذلك، فإن القطبية الثنائية سوف تتجه إلى الاستمرار على هذا المستوى العسكري والاستراتيجي وإن تغيرت الأوضاع النسبية لكل قوة من هاتين القوتين المشار إليهما: أي القوة العسكرية الأمريكية والقوة العسكرية الروسية.

وأما المستوى الثاني للتحليل فيا يتعلق بمستقبل التطورات الحاصلة في النظام الدولي - لدى أنصار هذا الاتجاه الثالث - فهو المستوى الاقتصادي والمالي. وهنا يرى هؤلاء أن العالم هو بسبيله لأن يشهد نوعاً من تعددية الأقطاب Multi - Polar System الذي ستحتل فيه اليابان وألمانيا خاصة موقعاً متقدماً وتميزاً. وتقديرنا، أن هذا الرأي إنما يبنى على افتراض أساسي موده أن أيّاً من هاتين الدولتين لن تفكر في بناء قوتها العسكرية، وهو افتراض قد يكون من الصعب قبوله حيث من المحتمل جداً - وخاصة بعد انهيار دولة الاتحاد السوفيتي - أن تبادر كل منهما إلى ذلك، وهو أمر تؤكد حقيقة أن ثمة اتفاقاً عسكرياً متزايداً لكل منهما وخاصة اليابان منذ النصف الثاني من عقد الثمانينيات، كما تؤكد مشاركة الدولتين بإرسال قوات عسكرية أو بدعم للعمليات العسكرية في بعض مناطق العالم كما حدث بالنسبة لإرسال ألمانيا بعضاً من وحداتها العسكرية إلى الصومال في إطار ما سمي بالتدخل الدولي من أجل «إعادة الأمن» في هذه الدولة المنهارة.

عالم الفكر

وأما الاتجاه الرابع والأخير في هذا الخصوص، فتقوم فكرته الأساسية على مقولة أنه ربما يكون من المبكر جداً أو من السابق تماماً لأوانه الحديث عن تصور معين لشكل النظام الدولي في تطوراتها الراهنة، وذلك بالنظر إلى ضخامة حجم التغيرات التي باتت تحدث في العالم وسرعتها الفاحشة وتلاحقها المستمر. ولذلك، فإنه من الأرجح - وفقاً لرأي هذا الفريق من الباحثين - أن يمر العالم في حالة سيولة أوروبياً نبع من الفوضى *Anarchy* الدولية ولو لفترة معينة. ومؤدى ذلك - في عبارة أخرى - أن النصف الثاني من عقد التسعينيات قد لا يمثل بالضرورة فترة زمنية متجانسة بالنسبة لتطور النظام الدولي، خاصة وأن قوى التغير وآلياته ستظل على الأرجح وروباً حتى نهاية هذا العقد في حالة تشكل وتبلور وقد لا تتبلور بشكل نهائي إلا مع أوائل القرن القادم.

٢ - وأما فيما يتعلق بالمجالات التي ينبغي إيلائها أهمية خاصة من الآن وخلال السنوات القليلة القادمة، فالمرجح - وكما أثار التحليل فيما سبق - أنها ستتركز في محور أساسي ألا وهو محور المعلومات والاتصالات بوسائلها المختلفة وخاصة الرقمية منها والمسموعة.

وإذا كنا قد تحدثنا سلفاً عن دور المعرفة وما يرتبط بها وينسب عليها من ثورة علمية وتكنولوجية تؤثر في تشكيل بنية النظام الدولي ومنظومة العلاقات الدولية، فإننا نعيد التأكيد هنا على حقيقة أن المنافسة الاقتصادية - والتي ستكون هي أساس كل المعارك والصراعات في المستقبل بين الدول الكبرى والفاعلة في إطار النظام الدولي - ستستند ولائحاً إلى قدرة المعرفة البشرية على الإنتاج والخلق والإبداع، وكذا القدرة على الدخول إلى مجالات العلم المتطورة.

ولذلك، فقد صار من الضروري اليوم التأكيد على أهمية التعليم. كما أنه لم يعد بالأمر الغريب أو غير المألوف أن تردّد في الأدبيات المتعلقة بالتعليم مقولات تحذر من مغبة فشل المؤسسات التعليمية في بعض الدول وعجزها عن مواكبة التطورات العالمية ذات الصلة، فضلاً عن التركيز على إبراز خطورة عدم الاتساق بين مضمون العملية التعليمية واحتياجات المجتمع، الأمر الذي يعني ضرورة المبادرة إلى إعادة النظر في شكل النظام التعليمي ووسائله ومؤسساته بحيث يصير قادراً في النهاية على الاستجابة للظروف والمعطيات الدولية والمحلية المتسجدة. وكل ذلك يحتاج ولا ريب إلى معرفة العلماء وجهود الباحثين، وخاصة فيما يتصل بقضايا المستقبل وعملية إعادة ترتيب الأولويات والاهتمامات.

المواش

- (١) راجع حل سيل المثال فيما يتعلق بمفهوم النظام الدولي الجديد: مارسيل ميلر، أزمة الخليج والنظام العالمي الجديد (ترجمة د. حسن ناعمة)، القاهرة: دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٥٧ وما بعدها، د. حسين تويش، إرلهم، النظام الدولي الجديد: قضايا وتساؤلات، القاهرة: لمعة المصرية العامة للكتاب ودار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١-٨، ص ٥٤-٥٦.
- (٢) مارسيل ميلر، المرجع السابق، وأيضاً:
- Lewis John, Toward The Post Cold War, Foreign Affairs, NO. 2, 1991.
- (٣) انظر مثلاً: د. حن الدين ملال وجيل مطر، النظام الإقليمي العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨.
- (٤) راجع حل سيل المثال: محمد سيد أحمد، التحول إلى القطب الواحد، الأهرام، ١٩٩٢/١/١٦.
- (٥) راجع فيما يتعلق بنظرية الرئيس السليبي السابق جويانثوف حول النظام الدولي الجديد.
- ميخائيل جويانثوف، البرو سترويكيا، (ترجمة حدي عبد الجواد)، القاهرة: دار الشرق، ١٩٨٨، د. نازلي موصى أحد، النظر السوفيتية الجديدة للصراع والتوازن في العالم المعاصر، مجلة السياسة الدولية، عدد ٩٤، أكتوبر ١٩٨٨.
- (٦) انظر بصقة عامة في الملاحم الأساسية للنظام الدولي خلال الفترة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف الثمانينات تقريباً: د. إسمايل صبري مفك، العلاقات السياسية الدولية، الكويت: مطبعة جامعة الكويت، ١٩٨٤، ص ٤٧-٥٢.
- (٧) راجع مؤيد من التفصيل فيما يتعلق بأبرز هذه الملاحم:
- د. أنور عبد الملك، تغير العالم، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٩٤، أكتوبر ١٩٨٥، د. محمد السيد سعيد، اتفاق النظام الدولي في التسعينات، القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، سلسلة بحوث سياسية، أغسطس ١٩٨٩.
- (٨) انظر مثلاً: السيد ياسين، جريدة الاتحاد ١٠/٥/١٩٩٢، د. حسين تويش، إرلهم، مرجع سابق، ص ١٩٥-١٩٦.
- (٩) د. إبراهيم حلمي عبد الرحمن، التطورات الدولية الجارية: فرص وتحديات، القاهرة: كتاب الأهرام الاقتصادي، مارس ١٩٩٢، بوجين ب، سكوليكوف، التكنولوجيا وصالح الخند، (ترجمة مركز التخطيط)، منظمة التحرير الفلسطينية - شئون استراتيجية، عدد ١٩٨٩، ٩.
- (١٠) انظر بصقة عامة في موضوع الحماية الدولية لحقوق الإنسان:
- Carry, J., International Protection of Human Rights, New York: Dobbs Perry, 1968 Joyce, J. The New Politics of Human Rights, London: The Macmillan Press, 1978.
- Joyon, J., oP.cit.
- (١٢) د. نجوى أمين الفوال، اختيار الدولة في الصومال، مجلة السياسة الدولية، عدد يناير ١٩٩٣.
- (١٣) انظر مثلاً في بروز ظاهرة الشركات متعددة الجنسية:
- د. صلاح الدين صابر، قناتون التنظيم الدولي: النظرية العامة، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٤، ص ٤٠-٤٨، ٧٢-٥٩، ١٠٠-١٦٣.
- (١٤) راجع مثلاً في نفس الموضوع:
- Lewis, J., Toward The Post Cold War, op. cit.
- (١٥) محمد سيد أحمد، التحول إلى القطب الواحد، الأهرام، ١٩٩٢/١/١٦.
- (١٦) عبد العزيز الشريفي، الأهرام ١٦/٤/١٩٩٠.
- (١٧) راجع لمزيد من التفاصيل بالنسبة لأساس نشأة بعض التكتلات الاقتصادية الدولية: د. إسمايل صبري عبد الله، نحو نظام اقتصادي دولي جديد، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.
- (١٨) راجع في هذا الحن: د. حسن ناعمة، النظام العالمي الجديد ومستقبل الديمقراطية في الوطن العربي، ورقة بحثية مقدمة إلى ندوة: التطور الديمقراطي في الوطن العربي، القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية (٩/٢٩-١٠/١٠/١٩٩٠)، د. حسين تويش، إرلهم، مرجع سابق، ص ١٩٤-١٩٥.
- (١٩) راجع حول معام هذا النظام الإقليمي الدولي الجديد:
- د. خليل صابات، النظام الجديد للإعالم الدولي، مجلة عالم الفكر، عدد ٤١ يناير-مارس ١٩٨٤، د. محمد المصموي، النظام الإقليمي الجديد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٩٤، أكتوبر ١٩٨٥.
- (٢٠) محمد سيد أحمد، التحول إلى القطب الواحد الأهرام ١٦/١/١٩٩٢.
- (٢١) حول بعض التكتلات الداخلية في الولايات المتحدة والتي قد تمزق إمكانية قيامها بالانفراد برزامة العالم، راجع مثلاً: Kennedy, P., The Rise and Fall of Great Powers, London, Unwin, 1988.
- وأيضاً: جيل مطر، قيادة العالم والنظام الدولي الجديد، الأهرام، ١٩٩٢/٥/٢.

مفهوم النظام العالمي الجديد في الأدبيات الأمريكية

(دراسة مسحية)

د. ومودة بدران

اهتم عدد كبير من الباحثين في مجال العلاقات الدولية بتحليل المرحلة التالية للحرب الباردة، وبينما استخدم البعض اصطلاح نهاية التاريخ^(١) لوصف هذه المرحلة الجديدة التي شهدت وفقاً لهم انتهاء آخر المعارك الكبرى في التاريخ الإنساني في ظل مرحلة سيادة الأيديولوجية الليبرالية والنظام الرأسمالي. التمه الغالبية العظمى من الباحثين لاستخدام اصطلاح النظام العالمي الجديد New World Order لوصف التطورات التي شهدتها وقد يشهد العالم في أعقاب الحرب الباردة. وأوضحوا في هذا الصدد أن التحول الذي يشهده العالم بعد انتهاء هذه الحرب يمثل استمرارية في الأنماط التاريخية حيث تلى نهاية الحروب الكبرى في العالم ظهور تحولات رئيسية في هيكل توزيع القوة والقواعد التي تحكم التفاعلات الدولية. فإفقد شهد العالم مثل هذا التحول خلال القرن العشرين في ١٩١٩ و ١٩٤٥ ونهاية الحرب الباردة لا تمثل استثناء لهذا النمط^(٢)، وإن اختلفت القوة الدافعة لهذا التحول ومظاهره. فإفذا كان التحول الأول الذي شهدته هذا القرن في أعقاب الحرب العالمية الأولى قد جاء نتيجة للتطلعات القومية داخل أوروبا التي كانت غير قادرة في هذه الفترة على السيطرة على العالم وإن استمرت تتمتع بالقدر على إثارة عدم الاستقرار فيه، فإن التحول الثاني في أعقاب الحرب العالمية الثانية تضمن صراعاً أيديولوجياً عالمياً بين قوتين عظميين. أما روح وهيكل التحول الثالث الذي شهدته هذا القرن فيتم تشكيله في إطار التأثير السياسي لانتصار التحالف الغربي في الحرب الباردة^(٣).

وإذا كان هؤلاء الباحثون يتفقون على المفهوم العام للنظام العالمي الجديد بمعنى تغير هرم السلطة والقوة والقواعد التي تحكم العلاقات بين الدول في نظام توجد فيه العديد من الوحدات الدولية إلى جانب الدول. إلا أنهم يختلفون في توصيف المقصود بالجديد في هذا النظام، فبينما يستخدم البعض هذا الاصطلاح ليعكس مفهوماً قيمياً متفائلاً حول ظهور عالم يسوده السلام والأمن، ينتج البعض الآخر لإبراز الفروق الجوهرية مع النظام السابق بصرف النظر عن وصفه بأنه وضع أفضل أو أسوأ، ويتجه فريق ثالث إلى الإشارة إلى أنه بينما يتضمن النظام العالمي الجديد تحولات في هذا النظام، إلا أنه يحمل معه أيضاً بعض ملامح وخصائص ما سبق^(٤). كذلك يختلف الباحثون في تركيزهم على الأبعاد المختلفة للنظام العالمي الجديد. وفي رؤيتهم هذه الأبعاد. فبينما اهتم البعض بهيكل النظام اتجه فريق ثانٍ للاهتمام بمصادر التهديد في هذا النظام، واهتم فريق ثالث بتوجهات التفاعلات داخل هذا النظام. واتجه فريق رابع للتركيز على إمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي، وأخيراً اتجه فريق خامس للتركيز على وضع الدول النامية في هذا النظام*. إن عور اهتمام هذه الورقة هو مراجعة هذه الرؤى للأبعاد المختلفة للنظام العالمي الجديد، كما جاءت في بعض الدوريات الأمريكية التي نشرت منذ ١٩٨٩ وحتى ١٩٩٣^(٥) أو بمثابة أخرى فإن هذه الدراسة هدفها تقديم مسع لبعض وجهات النظر التي نشرت في الولايات المتحدة حول بعض أبعاد النظام العالمي الجديد. ومن ثم تنقسم الدراسة إلى خمسة أقسام يتناول كل منها وجهات النظر المختلفة حول الأبعاد السابق الإشارة إليها.

١- النظام العالمي الجديد: هيكل النظام

يقصد بهيكل النظام توزيع القدرات في هذا النظام وبالتالي ترتيب الوحدات المكونة له بالنسبة لبعضها البعض، ويتم الباحثون بتحليل هذا البعد بالنظر لانعكاسات مثل هذا التوزيع على سلوك الوحدات الدولية^(٦)، وقدرة أحدها أو البعض منها على السيطرة على توجهات الفاعلين الآخرين ومراجعة نظرة الباحثين للبعد الهيكلي في النظام العالمي الجديد يمكن أن نفرق بين توجهين الأول يعطي لميكل النظام دوراً رئيسياً في توجيه التفاعلات ومن ثم يركز أنصار هذا الاتجاه على مفهوم القوة في النظام العالمي، وما إذا كان هذا النظام يمكن أن يوصف بأنه نظام قطب واحد أم تعدد قوى. أما التوجه الثاني فيعمل على التقليل من مدلول هيكل النظام في توجيه السياسة الخارجية للوحدات الدولية، ويشير أنصار هذا الاتجاه إلى أن أنصار المدرسة الهيكلية يغفلون عاملين رئيسيين وهما دور القيادة والعوامل الداخلية في توجيه السياسة الخارجية للدول وتتناول في هذا الجزء من الورقة عرضاً لوجهتي النظر السابق الإشارة إليها.

يتم أنصار إعطاء دور لميكل النظام في توجيه التفاعلات الدولية بدور القوة في هذا النظام. والواقع أن مفهوم القوة في أدبيات العلاقات الدولية ارتبط بمفهومين، حيث استخدم البعض مفهوم القوة بمعنى عناصر القوة (عسكرية، اقتصادية)، بينما استخدمه البعض الآخر بمعنى القدرة على تغيير سلوك الآخرين. مثل هذا الاستخدام المزيج دفع بعض الباحثين مثل Rosenau إلى التأكيد على ضرورة التفرقة بين هذين البعدين، وبالتالي اقترح استخدام اصطلاح القدرة Capability ليشير إلى عناصر القوة، واصطلاح التأثير influence ليشير إلى

* بعض الباحثين الذي تطرق هذه الورقة لمرس أهمهم ركزوا على هذه الأبعاد بينما اتجه البعض الآخر للتركيز على أكثر من بعد واحد من الأبعاد المشار إليها.

القدرة على تغيير سلوك الآخرين^(٧). وفي إطار تناول الباحثين للبعد الميكلي في النظام العالمي الجديد اهتموا بهذين البعدين للقوة، حيث اهتموا بتحديد ماهية عناصر القوة التي تمتلكها القوى الرئيسة في النظام وطلاة هذا بالنسبة لقدرتها على التأثير على سلوك الوحدات في هذا النظام. وفي هذا الصدد يمكن أن نفرق بين توجيهين لرؤية الباحثين للنظام العالمي الجديد. فالباحثون الذين أعطوا للقوة العسكرية دوراً هاماً في توجيه التفاعلات الدولية اعتقدوا أن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تمارس دور القطب الواحد المسيطر على الأحداث الدولية. أما الباحثين الذين اهتموا أيضاً بالعناصر الأخرى للقوة سواء أكانت اقتصادية أم غير اقتصادية فتحدثوا عن نظام تعدد القوى الذي تنتمي فيه إمكانية سيطرة أي منهم منفرداً على مجمل للتفاعلات الدولية.

ويرى أنصار الاتجاه الأول أنه باختيار الاتحاد السوفيتي أصبحت الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة القادرة على تنظيم الأوضاع العالمية دون أن تخشى أي معارضة فعالة. وفي هذا الصدد يوضح Krau thammer^(٨) أن عالم ما بعد الحرب الباردة ليس عالمًا متعدد الأقطاب بل عالم القطب الواحد. فإن مركز القوة العالمية هي القوى العظمى التي لا تواجه أي تحدٍ وهي الولايات المتحدة التي يقودها حلفاؤها الغربيون. ويعتقد Krau thammer أن دور القوى الغربية بما في ذلك القوى الاقتصادية مثل اليابان وألمانيا لا يتعدى قيامها بتنفيذ التوجهات الأمريكية - هذه السيادة الأمريكية مرجعها وفقاً لوجهة النظر هذه هي أنها الدولة الوحيدة التي تتمتع بالقدرة التي تمكنها من القيام بدور حاسم في أي صراع تختار أن تشارك فيه في أي مكان في العالم، ووفقاً لهذا الاتجاه فإن الولايات المتحدة تستطيع إذا أرادت استخدام عناصر قوتها المختلفة لإرساء قواعد النظام العالمي وتنفيذها. وفي ظل هذا التوجه الذي يعكس وجهة نظر بعض المسؤولين الأمريكيين في أول التسعينيات فإن الولايات المتحدة كان عليها مسئولية المحافظة على الاستقرار الدولي وقيادة تحرك عالمي نحو تحقيق الديمقراطية^(٩).

إلا أن مثل هذا المنظور تعرض لثقت من جانب الباحثين الذين تشككوا في إمكانية وجود ذلك القطب الواحد القادر على تنظيم العالم، واستندوا في هذا الصدد على عدد من العوامل التي تؤيد وجهة نظرهم بأن نمط توزيع عناصر القوة والقدرة على التأثير تشير إلى أن هيكل النظام العالمي الجديد هو هيكل يتسم بتعدد القوى، وإن اختلف هذا الهيكل عن هيكل تعدد القوى في ظل نظام توازن القوى الذي عرفه العالم في القرن ١٩. فإما هي الأبعاد التي أسس عليها بعض الباحثين رفضهم لوصف هيكل النظام العالمي بأنه نظام القطب الواحد، وماهي مظاهر اختلاف نظام تعدد القوى الذي وصفوا به هيكل النظام عن ذلك الذي ساد في القرن ١٩؟

ركز الباحثون على عدد من العوامل في رفضهم وصف هيكل النظام العالمي بأنه هيكل القطب الواحد وفي هذا الصدد عملوا إلى إبراز حدود تمتع الولايات المتحدة بالقوة بمعنى القدرة (مصادر القوة) والقوة بمعنى القدرة على التأثير. وفي إطار تناول حدود القوة الأمريكية بمعنى عناصر القوة عملوا إلى بيان حدود القوة العسكرية في توجيه التفاعلات الدولية وتعدد مصادر القوة التي يجب أن تمتلكها الدولة لتتمتع بدور القطب المسيطر على التفاعلات الدولية. فيري Roberts^(١٠) أن التغيرات التي يشهدها العالم في ظل زيادة ظاهرة الاحتياط المتبادل تشير إلى أن احتمال استخدام القدرات العسكرية لتوجيه التفاعلات الدولية أصبح احتمالاً محتملاً وفي نطاق عدد محدد من القضايا. فهناك أنواع أخرى من القدرات التي يجب أن تتمتع بها الدول إذا

كان لما أن تسيطر على مجرى الأحداث الدولية ^(١١). وفي هذا الصدد أشار waltz في تحليله للقوة الأمريكية في قترات سابقة أن تحقيق الولايات المتحدة لزيادة قدرها ٥٪ في معدل النمو الاقتصادي لمدة ٣ سنوات يضيف إلى الولايات المتحدة قوة تفوق تلك التي يمكن أن تتمتع بها في حالة تحالفها مع بريطانيا ^(١٢).

كذلك أشار Nye أن القدرات المادية ليست القدرات الوحيدة التي يمكن أن تتمتع بها الدول وأشار في هذا الصدد إلى ما أطلق عليه Coptive power الذي يعتمد على جاذبية أفكار الدولة والذي يمكنها من التأثير على الأولويات السياسية للوحدات الأخرى فإن ممارسة مثل هذا النوع من التأثير يعتمد على مصادر غير مادية للقوة مثل الثقافة والأيديولوجية والمؤسسات التي تسود في وحدة معينة ^(١٣).

ويشير أنصار تعدد مراكز القوى في هيكل النظام العالمي الجديد إلى أن مراجعة توزيع عناصر القوة بين الوحدات الرئيسية في هذا النظام (الولايات المتحدة، اليابان، أوروبا) يوضح أنه لا يوجد دولة واحدة تتمتع بضيق في جميع عناصر القوة، حتى أن Pfaff في توصيفه للنظام العالمي الجديد أوضح غياب فئة القوى العظمى من هذا النظام ^(١٤). كما أشار Buzan إلى أن اصطلاح القوى العظمى أصبح اصطلاحاً غير ملائم في ظل نظام تعدد مراكز القوى ^(١٥). ويوضح أنصار هذا الاتجاه أن الولايات المتحدة وإن كانت تتمتع بضيق كبير في بعض عناصر القوة العسكرية (الضيق التكنولوجي والقدرة على نشر القوات) والأيديولوجي (جاذبية الأفكار الاقتصادية والسياسية) والدبلوماسية (علاقات صداقة مع العديد من الوحدات الدولية) والثقافية (انتشار Jeans Rock, coca cola)، إلا أنها في المجال الاقتصادي تعاني من مشاكل، فأول مرة تواجه الولايات المتحدة تهديداً اقتصادياً في إطار تندهور أداؤها في هذا المجال، وهو ما يتضح بمقارنة أداؤها بالأداء الأوروبي والياباني حول عدد من المؤشرات مثل نمو الناتج الإجمالي ونمو الإنتاج والتجديد التكنولوجي ومعدلات الادخار ومستويات الاستثمار ونوعية التعليم والموارد التي تخصص للبحث والتنمية Rand D ^(١٦). فضلاً عن هذا، فإن اليابان والجياعات الأوربية تساهمان في تمويل المعجز الأمريكي وكذلك فإن مراجعة الهيكل التجاري للولايات المتحدة في علاقتها باليابان توضح أن الواردات اليابانية من الولايات المتحدة تتضمن أساساً المواد الغذائية والمواد الأولية بينما تستورد الولايات المتحدة من اليابان السلع التي تتسم بالتكنولوجيا المتقدمة الأمر الذي يزيد من المزايا التي تتمتع بها اليابان في مواجهة الولايات المتحدة ^(١٧).

ومن ناحية أخرى فإن مراكز القوى الأخرى في النظام العالمي الجديد لا تتمتع منفردة أيضاً بعناصر القوة اللازمة لقيادة العالم. فعلى الرغم من أن الجاعة الأوربية تمثل تجمعاً تجارياً وصناعياً هاماً إلا أنها لم تصبح بعد فاعلاً سياسياً بل بتشكك البعض في إمكانية تحقيقها لذلك، وفي هذا الصدد أوضحت أزمة الخليج عدم تمتعها بسياسة خارجية موحدة. أما اليابان فبالرغم من قوتها الاقتصادية إلا أنها غير مؤهلة للمقام بدور قيادي في النظام العالمي بالنظر إلى ضعفها العسكري وعدم سيادة ثقافتها وحضارتها في النظام العالمي ^(١٨).

كذلك فإن أنصار وصف هيكل النظام العالمي بأنه نظام تعدد القوى يشككون في احتمال قيام الولايات المتحدة بدور القطب الواحد بالنظر إلى عدم تمتعها بالقوى بمعنى القدرة على التأثير على جميع التفاعلات الدولية. ويشير Nye في هذا الصدد إلى أن الحديث عن وجود قطب واحد مسيطر في النظام العالمي يتطلب التمرس لدى السيطرة التي يمارسها هذا القطب، ففي العالم المعاصر من النادر أن نجد موقفاً استطاعت في ظله دولة واحدة إغلاء الترتيبات السياسية والاقتصادية على مستوى العالم. في أوروبا الشرقية والنفوذ الأمريكي

في منطقة الكاريبي . كذلك يوضح الباحث في هذا الصدد أن مراجعة التاريخ المعاصر توضح وجود حالات استطاعت فيها دولة واحدة أن تسيطر على القواعد والترتيبات التي تحكم قضايا محددة دون الأخرى ، ومن ذلك الدور الأمريكي في مجالات التجارة والتقد في أوائل الفترة التالية للحرب العالمية الثانية (١٩) .

وفي إطار مثل هذا النمط من التحليل يوضح أنصار تعدد القوى أنه من الصعوبة بمكان تصور إمكانية قيام الولايات المتحدة بدور حاسم في مجال تحقيق الاستقرار العالمي والديمقراطية في العالم . فإذا كانت الولايات المتحدة قد اتبعت سياسة تدخلية فعالة في حالة أزمة الخليج فإن هذه الأزمة اتسمت ببعض الخصائص الفريدة التي قد تجعل احتمال تكرارها احتمالاً محدوداً . فهناك عدد من العوامل ساهمت في دعم فعالية التدخل الأمريكي سواء على المستوى الداخلي أو الدولي . فقد تملتقت القضية بمصالح الغرب في البترول ، كما وأن شخصية صدام حسين كان من السهولة بمكان تصويرها على أنه مناهض للمصالح الغربية في إطار تهديداته باستخدام الأسلحة الكيميائية كذلك فإنه من الصعوبة بمكان تصور أن يقف أحد الأطراف الذي يتضرر لاحتلال هجوم موقف المتفرج كما فعل صدام حسين في الوقت الذي انجذبت فيه الولايات المتحدة لدعم قواتها العسكرية في مواجهته . وكذلك فإن الإشارة إلى سابقة تدخل الولايات المتحدة في جرنانا وينا كأحد السوابق التي تشير إلى نجاح الولايات المتحدة في فرض رؤيتها في النظام العالمي الجديد بمساندة وجود الأنظمة الديمقراطية في العالم مقولة مردود عليها بأن ظروف التدخل الأمريكي في هاتين الدولتين قد يصعب تكراره ، فكلتا الدولتين كانت دولاً صغيرة وذات موقع جغرافي تستطيع بصدده الولايات المتحدة أن تدعم قواتها العسكرية بأقل جهد وأكبر فعالية ممكنة (٢٠) ، ومن ناحية أخرى فإنه حتى ولو تدخلت الولايات المتحدة للإطاحة بنظام حكم شمولية أو سلطوية فإن هذا قد لا يترتب عليه بالضرورة وجود نظم ديمقراطية في هذه الدول فالإطاحة بالنظام الشمولي والسلطوية في الثورة الشيوعية في روسيا والشاه في إيران والنظم الحاكمة في العديد من دول أمريكا اللاتينية لم يترتب عليه ظهور نظم ديمقراطية (٢١) .

وفي إطار الحديث عن هيكل النظام العالمي الجديد على أنه نظام تعدد القوى يوضح بعض الباحثين أن مثل هذا النظام يختلف عن نظام تعدد القوى الذي ساد في القرن ١٩ . فإن مراكز القوى في النظام العالمي الجديد تمثل ما أطلق عليه Deutsch (٢٢) المجتمع الأمني المتعدد Pluralistic Security Community أي أن هذه المراكز المتعددة ذات التوجه الرأسمالي تمثل مجموعة يتنوع فيها توقع أو استعداد أي منهم لاستخدام القوة العسكرية في علاقاتهم ببعضهم البعض . إن المخاطر التي كانت تواجه نظام تعدد القوى في الماضي كانت احتمال تغير توازن القوى بسبب النزعات العدائية أو المشاكل الأمنية التي قد يترتب عليها ظهور أنماط غير مستقرة من التحالفات وتدخل الحروب بين القوى الكبرى ، إلا أنه في ظل نظام تعدد القوى الذي يشهده النظام العالمي الجديد والذي تكون فيه القوى الثلاث الرئيسية في هذا النظام (الولايات المتحدة وأوروبا واليابان) مجتمعاً آمناً ، فإن هذا يمثل وضعاً مختلفاً تماماً عن نظام تعدد القوى السابق . وفي هذا الصدد يشير Buzan إلى أنه على الرغم من أنه يمكن وصف هيكل النظام العالمي بأنه نظام تعدد قوى بمعنى وجود عدد من القوى الكبرى التي تتحرك في هذا النظام ، إلا أنه يمكن أيضاً استخدام اصطلاح القطب الواحد لوصف النظام الدولي بمعنى وجود تحالف مسيطر من الدول يؤثر على توجهات الضالع الدولي (٢٣) .

بينما اتجهت المجموعة السابقة من الباحثين (سواء المؤيدين لقول القطب الواحد أو لتعدد القوى) إلى إبراز أهمية هيكل النظام العالمي في توجيه التفاعلات الدولية، انجذب Hoffmann إلى نقد الاعتقاد على المنظور الهيكلية في تحليل النظام العالمي الجديد، حيث أشار إلى أن المنظور الهيكلية يغفل عاملين من العوامل التي تلعب الدور الرئيسي في توجيه الأحداث الدولية: القيادة والعوامل الداخلية وبالرغم من أن دراسته ركزت على دور هذين العاملين في إحداث التغيرات التي شهدتها أوروبا في أواخر الثمانينيات إلا أنه أشار في مثل هذا التحليل إلى حدود مساهمة المنظور الهيكلية في فهم التفاعلات الدولية في النظام العالمي الجديد وأوضح في هذا الصدد أن النظرية الهيكلية تلائم ذلك العالم الذي توجد فيه الدول بصفاتها فاعلة مستقلة تسعى للحصول على القوة أو توازن القوة في ظل لعبة تتضمن احتمال اللجوء للحرب، ومثل هذا الوضع يجد من أهمية التغير في سلوك الدول بسبب النظام الداخلي أو السياسة الداخلية، أما إذا انقضت احتمال اندلاع الحرب أو قل فإن طبيعة قواعد اللعبة مستتيرة، ولا يعني هذا أن الفاعلين سيتوقفون عن البحث عن القوة والتفوق، وإنما يعني ذلك أن طريقة الحصول على المكاسب، وطبيعة المكاسب التي تسعى إليها الوحدات والطرق التي يمكن من خلالها إحداث التغير الدولي مستتيرة جميعاً. ففي ظل السياسة الدولية التقليدية كانت الحرب أوضح وأسرع أدوات التغير. أما إذا لم يكن هناك احتمال للحرب فإن التغير في الشئون الدولية غالباً ما سيأتي نتيجة للتورات أو تغير أهداف وقوة الدولة نتيجة لعوامل داخلية^(٢٤).

٢- النظام العالمي الجديد: مصادر التهديد

إن مراجعة عدد من الكتابات التي تناولت النظام العالمي الجديد توضح اهتمام بعض الباحثين بالتركيز على مصادر التهديد التي تواجه هذا النظام في مجال السلم والأمن والرفاهية الاقتصادية، ويركز أغلب الباحثين في هذا الصدد على الجنوب كمصدر لثل هذه التهديدات وإن عمد البعض أيضاً على إبراز الشمال كمصدر لهذه التهديدات وعلى بعض القضايا التي تسم بطابع عالمي وتمثل تهديداً للنظام العالمي ككل. وفي إطار التركيز على الجنوب كمصدر للتهديدات يتطرق الباحثون إلى ظاهرة استمرار الصراعات في دول العالم الثالث وغياب دور القوى العظمى الذي ساد خلال الحرب الباردة، واستمرار تسليح هذه الدول، وفشل الديمقراطية، والفقر، والهجرة، والمخدرات، والإسلام، فيوضح Carpenter^(٢٥) أن العديد من الصراعات التي تتعرض لها دول الجنوب لن تختفي بانتهاء الحرب الباردة، فعدد من هذه الصراعات يرتبط بالحدود التي فرضتها الدول الاستعمارية على هذه الدول بعرض النظر عن الاعتبارات الإثنية أو السلطوية أو الاقتصادية، وهي الحدود التي قد تسعى بعض دول الجنوب إلى تغييرها. وفي هذا الصدد يشير الباحث إلى أن المطالب العراقية الموجهة للكوييت ترجع إلى سنوات سابقة لتسوي صدام حسين السلطة في العراق، فهي ترجع في الواقع إلى أوائل العشرينات من هذا القرن حينما قامت بريطانيا بفرض حدود تحافظ على المحمية البريطانية في الكويت. وبالتالي فإن فشل العراق في فرض مطالبه في حرب الخليج لا يعني أن مثل هذه المطالب مستحقة، بل يرى الباحث أن الاحتمال الأكبر من أن يضاف مثل هذا الصراع إلى قائمة الصراعات التي تشهدها المنطقة.

إن الصراعات التي يشهدها الجنوب قد تتسم بدرجة أكبر من التصاعد في ظل ما أشار إليه Roberts Tacker^(٢٦) بانتفاء قيام القوى العظمى بدور في تهدئة الصراعات الإقليمية. فبالرغم من أن تدخل القوتين الأعظم خلال الحرب الباردة ترتب عليه في بعض الأحيان تصاعد هذه الصراعات، إلا أنه ترتب على سلوكها

أيضاً ضبط سلوك الدول التابعة لكلا القوتين ، إذا ما بدى أن الصراع الإقليمي سيؤدي إلى مواجهة بينهما ، (مثال ذلك دور القوتين في ضبط سلوك أطراف الصراع في الشرق الأوسط) . إن قدرة الاتحاد السوفيتي السابق على القيام بهذا الدور انتصت بنهاية الحرب الباردة . بل يرى هؤلاء الباحثون أن استعداد الولايات المتحدة للقيام بمثل هذا الدور اتجه للتخفّض ، أو بعبارة أخرى فإن القوى الإقليمية قد تتمتع الآن بحرية أكبر في التحرك على النحو الذي قد يؤدي إلى تصاعد حدة الصراع بينها .

كذلك فإن احتمال تصاعد حدة الصراع بين دول الجنوب يرتبط باستمرار تسليح هذه الدول ، فإنه في ظل تحقيق بعض هذه الدول لتقدم في التصنيع كما حدث في دول مثل العراق والمند أصبحت هذه الدول تتمتع بالقدرة على إنتاج أسلحة الدمار الشامل^(٢٧) فضلاً عن ذلك فإن زيادة القدرات الاقتصادية لبعض دول الجنوب يسمح لها بشراء الأسلحة من الدول الكبرى^(٢٨) ، إن استمرار اهتمام دول الجنوب بالتسليح لا يرتبط بحاجة هذه الدول لمواجهة التحديات الخارجية وإنما قد يكون الدافع الأساسي للحصول على مثل هذه الأسلحة هو مواجهة بعض المشاكل الداخلية^(٢٩) .

إن فشل الديمقراطية في الجنوب يمكن أن يكون أيضاً مصدراً للتهديدات التي قد تواجه النظام العالمي الجديد . فإنه في إطار المواجهة بين الدولة والشعب قد لا يكون الانتصار الشعبي ضماناً لسلوك معتدل خارجياً ، فإن الانتصارات الشعبية يمكن أن تطيح بحقوق الأقليات كما قد يترتب عليها تفجر النزعات القومية . كذلك فإن الثورات الديمقراطية يمكن أن تخفي إذا ركزت النظم الحاكمة على الصراعات الحزبية أو إذا واجهت ضغوطاً خارجية وعدم رضا داخلي ، وبالتالي يثار احتمال إحلالها بقيادات عسكرية أو شمولية الأمر الذي قد تكون له تداعيات سلبية على السلام الإقليمي وحقوق الإنسان^(٣٠) .

وبالإضافة إلى القضايا العسكرية والسياسية التي قد تمثل تهديداً للنظام العالمي الجديد من جانب الجنوب ، يشير الباحثون أيضاً إلى عدد آخر من التهديدات التي قد يفرضها الجنوب على هذا النظام فيشير Galbraith^(٣١) إلى الفقر بصفته المصدر الرئيسي للفروضى العالمية . ويتم Pfaff^(٣٢) بظاهرة زيادة الهجرة من الجنوب إلى الشمال وما يرتبط بها من توترات سياسية واجتماعية في الشمال ، وبالرغم من إشادة الباحث إلى تعرض أوروبا الغربية للهجرة من جانب دول أوروبا الشرقية إلا أنه يوضح أن مثل هذه الهجرة غالباً تستجبه إلى الانخفاض بتحسين الأوضاع الاقتصادية في الدول الشيوعية السابقة ، أو بعبارة أخرى فإن الجنوب سيظل مصدر التهديد الرئيسي في المستقبل فيما يتعلق بقضية الهجرة . ويشير Hoffmann^(٣٣) إلى مشاكل المخدرات والبيئة والتي قد تؤدي إلى مواجهات بين الدول المتقدمة التي تسعى لحماية الصحة وبعض دول الجنوب (بعض دول أمريكا اللاتينية) التي قد تحتاج لزراعة المخدرات ، أو التي قد تحتاج إلى التفاوض على حماية البيئة حتى يمكنها أن تحقق التنمية . وأخيراً يشير Gaddis^(٣٤) إلى ظاهرة الصحوة الإسلامية والتي بالرغم من أنها قد تمثل قوة تدفع نحو اندماج بعض دول الجنوب (الشرق الأوسط) ، إلا أنه يعتبرها أيضاً بمثابة قوى للتفكك في النظام العالمي الجديد حيث إنها تعمل على فصل منطقة معينة عن باقي العالم .

وفي إطار تعرضهم لمصادر التهديدات التي قد تنشأ من الشمال أشار الباحثون إلى الحاجة لوجود مفاهيم أمنية جديدة ، والنزعات القومية ، ومصدر أسلحة الاتحاد السوفيتي السابق بالإضافة إلى بعض التحديات ذات الطبيعة الاقتصادية ، فإن انهيار الاتحاد السوفيتي صاحبه موقف جديد في القارة الأوربية وهو موقف Zielonka^(٣٥) لا يمكن التعامل معه في إطار المفاهيم الأمنية القديمة . وبالتالي يشهد

النظام العالمي الجديد ضرورة الاتفاق على مفاهيم أمنية جديدة تتلاءم مع طبيعة هذا الموقف، فبينما الحرب الباردة قادت السياسة الخارجية الغربية إلى جانب عدوها الرئيسي أحد العوامل التي كانت توجه سياستها الخارجية منذ ١٩٤٥ (٣٦).

كذلك تمثل النزعات القومية أحد مصادر التهديد للنظام العالمي الجديد وتأتي مثل هذه التحديات من جانب الدول الاشتراكية السابقة كما تأتي أيضاً من جانب الدول الغربية. فبالرغم من تحرك المجموعة الأولى من الدول نحو الديمقراطية إلا أن مدى الشمولية لم يتم القضاء عليها تماماً ويعتبر Millar (٣٧) هذه النظم نظم هشة تواجه العديد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية مما يجعل من الصعوبة بمكان مواجهة انفجار النزاعات القومية بطريقة فعالة. ويضاف إلى المشكلة بصفة خاصة في حالة الاتحاد السوفيتي السابق أن انسيار هذه الدول ترك الترسنة النووية السوفيتية السابقة في يد مجموعة من الجمهوريات المتصارعة. وهنا يشير Gaddis (٣٨) أن التحديات التي تواجه النظام العالمي الجديد بسبب النزعات القومية لن يكون مصدرها سيادة مثل هذه النزعات في الدول الاشتراكية السابقة فحسب فإن الدول الغربية تعاني أيضاً من مشاكل قومية. ومن ذلك استمرار المشكلة الأيرلندية ومشاكل Basque في إسبانيا والعداء بين Flemings and walloons في بلجيكا، والمشاكل القومية في كندا، بل يرى الباحث أن قضية القومية أصبحت محل نظر أيضاً في اليابان.

وفي المجال الاقتصادي قد يفرض الشال تحديات على النظام العالمي الجديد بالنظر إلى تبني الدول المتقدمة لاستراتيجيات مختلفة في سبل الحصول على جزء من الأسواق العالمية. وبالتالي تحقيق الرقابة للدول. إن هذا الاختلاف بين الدول المتقدمة قد يؤدي إلى تناقض فيما بينها إذا ترتب على مثل هذه الاستراتيجيات اختلال دائم في التوازن بين هذه الدول. ولعل هذا هو جوهر ما ركز عليه نقاد السياسة اليابانية نظراً لتركيزها على تبني استراتيجية تؤدي إلى توليها دوراً قيادياً في مجال التكنولوجيا المتقدمة والتي قد يترتب عليها تجمع اليابان بمزايا على حساب الدول المتقدمة الأخرى (٣٩).

أما القضايا ذات الطابع العالمي والتي تمثل تهديداً للنظام العالمي الجديد فتشمل نقص رأس المال على المستوى العالمي، وظاهرة التدهول وضعف الدولة القومية وزيادة الفجوة بين الشمال والجنوب وتدهور الأوضاع البيئية وتشير Hartland - Thunberg (٤٠) إلى أن هناك احتمالاً كبيراً أن يواجه المجتمع الدولي نقصاً كبيراً في رأس المال في العقد القادم. وهذا النقص له أهمية بالنظر إلى دلالاته لمعدلات الفائدة والتضخم. فإن زيادة الطلب على رأس المال قد يترتب عليه إما رفع معدلات الفائدة الحقيقية وبالتالي تقليل النمو الاقتصادي أو تعتمد المحافظة على معدل سعر الفائدة منخفض من خلال السياسات النقدية وهو ما يترتب عليه تضخم. إن مثل هذه النتائج لها أهميتها بالنسبة لمستقبل النمو الاقتصادي العالمي وتحقيق التنمية وتشير Thunberg أن هناك أدلة تؤيد هذا المصدر للتهديد والمتمثل في نقص رأس المال، وهي الأدلة المتعلقة بالتحويلات في تدفق رأس المال الدولي منذ أواخر الثمانينيات والتي تمتد لها من المتوقع أن تستمر خلال التسعينيات. وتتضمن هذه التحويلات. تغير وضع بعض دول العالم من مصدر صافي لرأس المال إلى مستورد صافي لرأس المال (أوروبا وأمريكا اللاتينية)، كما تتضمن التحول من وضع يتم بتوازن تدفق رأس المال مستورد صافي لرأس المال (الشرق الأوسط). والتحول إلى درجة أعلى من الاستيراد الصافي لرأس المال (آسيا

باستثناء اليابان)، والتحول إلى درجة أقل من تصدير رأس المال (اليابان) أما الولايات المتحدة فمن المتوقع أن تظل مستورداً لرأس المال.

كذلك يهتم الباحثون بتحليل التهديدات المترتبة على ظاهرة التمويل التي يشهدها العالم اليوم. فخلال الحرب الباردة كانت الدولة تسيطر على العوامل السياسية والعسكرية التي تمكنها من حشد مواردها من أجل تحقيق أهدافها الداخلية والخارجية، أما العالم الذي نعيش فيه اليوم فيشهد تدهوراً نسبياً في دور الدولة. فبالرغم من أن الدولة ما زالت هي الفاعل الرئيسي في النظام الدولي إلا أن قدرتها على تعبئة مواردها يجد منها سيادة ظاهرة التمويل، في النظام العالمي الجديد، فالشركات المتعددة الجنسية والمؤسسات المالية الدولية تتمتع بقوة هائلة تمكنها من الحد من قدرة الدولة على توظيف مواردها لمواجهة التهديدات التي تؤثر على استقرار النظام العالمي الجديد، فعلى سبيل المثال يشير الباحثون في هذا الصدد إلى تدهور قوة الدولة في ظل ظاهرة التمويل في نفس الوقت الذي تتزايد فيه تطلعات الشعوب التي تنتمي إلى هذه الدول. ويوضح Hoffmann في هذا الصدد أن القوى الشعبية تطلع إلى الدولة للمحافظة على مستوى معيشة مرتفع، في نفس الوقت الذي قلّت فيه سيطرتها على اقتصادها بالمقارنة بالماضي. إن فشل الدولة في تحقيق مثل هذه التطلعات يترتب عليه ثورات شعبية قد تعبر عن نفسها من خلال قنوات الانتخاب أو المظاهرات أو الحروب الأهلية^(٤١).

ويعتقد الباحثون أن اتساع الفجوة بين الشمال والجنوب يمثل أيضاً مصدراً هاماً لعدم الاستقرار في النظام العالمي الجديد. فبالرغم من أن بعض الدول النامية في آسيا نجحت في إحراز تقدم هائل في مجال التنمية الاقتصادية، إلا أن الغالبية العظمى من دول العالم الثالث في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية شهدت اتساعاً في الفجوة التي تفصل بينها وبين الدول المتقدمة. هذا الاتساع في الفجوة في مستويات المعيشة يتم في فترة يشهد فيها العالم انتشاراً هائلاً للطغاف الغربية وأنماط الاستهلاك السائدة في الغرب من خلال وسائل الإعلام. ولقد ترتب على هذا الوضع ارتفاع تطلعات الشعوب الفقيرة، الأمر الذي أدى بدوره إلى زيادة حدة التوتر بين الشمال والجنوب والذي انعكس في زيادة الحركات المعادية للغرب في دول العالم الثالث وزيادة في تدفق المخدرات من الجنوب إلى الشمال^(٤٢).

وأخيراً يشير الباحثون إلى التهديدات التي يواجهها النظام العالمي الجديد نتيجة لقضايا البيئة، فإن هذه القضايا تؤدي إلى تدهور الظروف التي يعيش فيها الإنسان، ومن ذلك القضايا المتعلقة بارتفاع الحرارة في العالم ومشاكل طبقة الأوزون والآثار المترتبة على هذه التطورات بالنسبة للإنسان والحيوان والنبات. ويشار في هذا الصدد إلى أنه بالرغم من أنه لا توجد أبحاث كثيرة تركز على انعكاسات تدهور البيئة على العلاقات والتفاعلات داخل الدول ونتائجها، إلا أن بعض البحوث الأولية توضح أن تدهور أوضاع البيئة، وبصفة خاصة في المناطق الفقيرة، سيقرب عليه تصعيد المنافسة والصراع بين الجياعات المختلفة، وسيبلغ أعداداً متزايدة إلى الهجرة إلى المدن التي تنسم بتدرة فرص العمل وعدم الاستقرار الاجتماعي^(٤٣).

٣- النظام العالمي الجديد: توجهات التفاعلات الدولية

يتناول هذا القسم من الورقة عرضاً لبعض الاتجاهات حول موقف الباحثين من توجهات التفاعل في النظام العالمي الجديد فيما اهتم بعض الباحثين بالتركيز على التكتلات الاقتصادية الإقليمية في النظام العالمي

الجديد اهتم البعض الآخر بظاهرة الاعتماد المتبادل كأحد الخصائص التي تميز هذا النظام. وفي هذا الصدد ناقش كلا الفريقين إمكانية مساهمة مثل هذه التفاعلات في تحقيق السلام في النظام العالمي الجديد.

اهتم الباحثون الذين تعرضوا للتكتلات الاقتصادية في النظام العالمي الجديد بثلاث قضايا أولها تعلق بالعناصر التي قد تساعد على دفع ظاهرة التكتلات الإقليمية، أما ثانيها فتتعلق بإمكانية مساهمة هذه التكتلات في دفع السلام العالمي، وأخيراً تعرضوا لبعض المشاكل التي قد تعترض تحقيق مثل هذه التكتلات في النظام العالمي الجديد. فيعتبر بعض الباحثين ومن ذلك Rostow⁽⁴⁴⁾ أن ظهور التكتلات الإقليمية هي أحد الخصائص الهامة التي تميز النظام العالمي الجديد. ويرى أنصار هذا الاتجاه أن نهاية الحرب الباردة وانتهاء الاتحاد السوفيتي قلل من دوافع القوى الكبرى للتدخل في الأقاليم المختلفة، كما ساهم انتهاء هذه الحرب أيضاً في نهاية التحالفات التي كانت تؤدي إلى تقسيم الأقاليم إلى مناطق تابعة لإحدى القوتين الأعظم، أو بعبارة أخرى فإن انتهاء هذه الحرب وفقاً لهذا الاتجاه سمع بظهور مجال أوسع للتحرك على نطاق الإقليم الجغرافي. ومن ناحية أخرى فإن التدهور النسبي في القدرات الأمريكية في المجال الاقتصادي يترك مجالاً أكبر لنمو قوة التكتلات الإقليمية في أوروبا حول السوق الأوروبية وفي آسيا حول اليابان. وأخيراً يشير أنصار هذا الاتجاه إلى أن بعض الاعتبارات الاقتصادية بما في ذلك تحركات الجبهة الأوروبية نحو السوق الموحدة، والصعوبات المستمرة التي تواجهها جولات أوروغواي والتغيرات الهيكلية في الاقتصاد العالمي تدفع كلاً من الدول والشركات نحو درجة أعلى من التعاون داخل الأقاليم الجغرافية⁽⁴⁵⁾.

ولقد اختلف الباحثون في تقييمهم لانعكاسات ظاهرة التكتلات الإقليمية على فرص تحقيق السلام ويستند أنصار الدفء على وجود علاقة إيجابية بين هذين المتغيرين إلى التحليلات التي قدمها Nye⁽⁴⁶⁾، حيث اعتقد أنصار هذا الاتجاه أن التكتلات الإقليمية يمكن أن تساهم في تحقيق الاستقرار والنظام على كل من المستويين الإقليمي والدولي. فعلى المستوى الإقليمي فإن الإطار الإقليمي قد يكون أكثر الأطر فعالية في تحقيق النظام والاستقرار في الأقاليم المختلفة فضلاً عن هذا يشير أنصار هذا الاتجاه إلى أن هذه التكتلات تساهم في تدعيم النظام على المستوى الدولي ويشيرون في هذا الصدد أنه لو تصورنا أن النظام الدولي يتكون من وحدات إقليمية فإن هذا سيساهم في إرساء قواعد واضحة حول الحدود المقبولة لدرجة العلماء السياسي والتنافس الاقتصادي. فضلاً عن هذا فإنه في ظل نظام تسود فيه التكتلات الإقليمية فإن التوصل إلى الاتفاقيات الدولية وتطبيقها سواء تعلقت هذه الاتفاقيات بقضايا الأمن أو البيئة أو الاقتصاد العالمي ستكون أسهل لو أبرمت بين عدد محدود من التكتلات عما لو أبرمت مثل هذه الاتفاقيات بين حوالي 170 دولة.

إلا أن هناك باحثين آخرين يعتقدون أن ظهور التكتلات الإقليمية قد يكون له تأثير سلبي على الاستقرار، حيث يتخوف البعض من انهيار نظام التجارة المتعدد الأطراف وما يترتب عليه من ظهور تكتلات دولية تسيطر عليها اليابان والولايات المتحدة والجبهة الأوروبية، وفي ظل انتفاء بعض القيود التي يفرضها نظام الجات في هذه الحالة فإن هذه التكتلات غالباً ما ستتيح سياسات حمائية ضد الوحدات الخارجية من التكتل نظراً لاهتمامها بدعم التجارة فيما بين الدول الأعضاء، الأمر الذي قد يترتب عليه توترات وممرعات بين التكتلات الاقتصادية التي قد توجد في النظام العالمي. وقد تنعكس مثل هذه التوترات على المجال السياسي بصفة خاصة في نظام يشهد انخفاض استعداد وقدرة الولايات المتحدة على إدارة النظام الدولي وانخفاض اعتماد أوروبا واليابان على الولايات المتحدة في المجالات الأمنية⁽⁴⁷⁾.

وفي إطار اهتمام بعض الباحثين بظاهرة التكتلات الإقليمية عملوا على توضيح بعض المشاكل التي قد تواجه احتمال تبلور مثل هذه الظاهرة. ويركز الباحثون في هذا الصدد على احتمالات تطور الجماعة الأوربية بصفتها التكتل الاقتصادي الذي حقق درجة أكبر من التقدم بالمقارنة باحتالات نجاح التكتلات الأخرى في شرق آسيا وأمريكا الشمالية. فيشار إلى اختلاف مصالح الدول الأعضاء، وإلى المشكلات والعقبات التي تتعلق بالمهدف النهائي لمشروع أوروبا ١٩٩٢ فيبينما يرى البعض أن الجماعة الأوربية مجرد تجمع اقتصادي لدول مستقلة، فإن البعض الآخر يعتبرها طريقاً للوحدة السياسية وتحقيق سياسة خارجية موحدة تجاه العالم الخارجي وهو ما يواجه العديد من الصعوبات كما ظهر خلال أزمة الخليج. أما في شرق آسيا فإنه على الرغم من أن هذه المنطقة تحتل مركزاً هاماً للاقتصاد العالمي إلا أنها تفتقد الهيكل الأمني، ويرى بعض الباحثين أن غياب هذا الهيكل لم يكن يمثل مشكلة طالما كان محور القضية الأمنية هو الصراع الأمريكي السوفيتي، كذلك فإن ظهور الصين كمنافس في ظل النجاح الاقتصادي الذي أحرزته أخيراً يمكن أن يكون له آثار سلبية على احتمالات بناء تكتل في هذه المنطقة، وأخيراً فإن نجاح هذا التكتل قد يعوق من إمكانية تحقيقه الصراعات بين الدول الآسيوية والتي تفوق كثيراً تلك الصراعات التي توجد في أوروبا. أما حالة التكتل الثالث المحتمل في أمريكا الشمالية فيرى الباحثون أن إمكانية التوصل إلى اتفاقية تجارة حرة مع المكسيك واجهت عدداً من المشاكل نظراً لمعارضة بعض القوى الأمريكية ومنهم المهتمين بالبيئة والاتحادات العمالية وبعض الشركات المنتجة للنزول والملابس الجاهزة، والمزارعين الأمر الذي يشير أيضاً إلى المشاكل التي قد تعترض ظهور تكتل يجمع بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك وحوض الكاريبي^(٤٨). وأخيراً يرى بعض الباحثين أن وجود التكتلات الإقليمية يحول دون تحقيقه بعض الاتجاهات التي تميز الاقتصاد العالمي المعاصر، فإن هيكل اقتصاد الاعتماد المتبادل في النظام العالمي والذي نشأ منذ الحرب العالمية الثانية يعتمد على المحافظة على الأسواق العالمية والإنتاج العالمي في ظل شبكة معقدة ومكثفة قد يصعب تغييرها بدون تحمل تكاليف باهظة. فإن هذه التكتلات الإقليمية يمكن أن تعترض اتفاقيات الإنتاج التي تمتد عبر أكثر من إقليم واحد والتي تم إقرارها داخل وبين الشركات المختلفة^(٤٩).

إن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى النوع الثاني من التفاعلات التي عتيم بها الباحثون في إطار تحليلهم للنظام العالمي الجديد. وهي ظاهرة الاعتماد المتبادل، وهنا يشير الباحثون إلى أن العالم ينتجه نحو زيادة اعتماد الوحدات الدولية الواحدة منهم على الأخرى. إن ظاهرة الاعتماد المتبادل لا تقتصر على زيادة حجم التجارة والسياسة والاتصالات والعرضة للاختراق العسكري، وإنما تتعلق هذه الظاهرة أيضاً بإدراك أن الضرورة في النظام العالمي الجديد تقتضي أن يكون هناك درجة كبيرة من التعاون العالمي في استخدام الموارد وحماية البيئة. ويرى أنصار هذا الاتجاه أن مثل هذه القضايا لا يمكن أن تواجهها أي من الوحدات الدولية منفردة، وأنه يتعين على هذه الوحدات أن تتخلق المؤسسات الملائمة للتعامل مع هذه القضايا^(٥٠)، أي بعبارة أخرى فإن الاعتماد المتبادل وإدراك الحاجة للتعاون يمكن أن يؤدي إلى زيادة احتمال السلم في النظام العالمي.

إلا أن هناك باحثين آخرين يجنحون من أن هذا الاعتماد المتبادل لن يترتب عليه تحولات شاملة في النظام العالمي الجديد، ويشيرون في هذا الصدد أنه حتى لو سلمنا أن الاعتماد المتبادل يمكن أن يترتب عليه التقليل من الاختلافات القومية إلا أن هذا لا يترتب عليه بالضرورة انتفاء الصراع، بل إن الاعتماد المتبادل قد يكون ذاته مصدراً للصراع بين الوحدات الدولية^(٥١). كذلك يشير أنصار هذا الاتجاه، أن المدافعين عن قدرة

الاعتدال المتبادل في إحداث تحول في العلاقات بين الوحدات الدولية أو أنه يساهم في خلق البيئة الملائمة لاتضاء الحرب، نادراً ما يشيرون إلى ظاهرة الحروب الأهلية، فإن العديد من الباحثين ينظرون إلى الحرب كظاهرة دولية ولا يولون سوى انتباه محدود للحرب الأهلية^(٥٢) وهي حروب قد لا تتأثر بحجم الاعتدال المتبادل السائد في النظام العالمي.

٤- النظام العالمي الجديد: التحرك الجهازي على المستوى العالمي

يتم فريق رابع من الباحثين بتحليل تداعيات انتهاء الحرب الباردة على إمكانية العمل الجهازي في النظام العالمي. ويشيرون في هذا الصدد إلى تأثير انتهاء الصراع بين الشرق والغرب على إمكانية استخدام الأمم المتحدة للقوة العسكرية وإمكانية التوصل لضبط الأسلحة على المستوى العالمي، وإمكانية تغير طبيعة بعض المؤسسات الغربية لتصبح مؤسسات عالمية. وإلى إمكانية التحرك الجهازي لمواجهة القضايا ذات الطبيعة العالمية (البيئة - حقوق الإنسان). وفي إطار تناوهم لإمكانية استخدام الأمم المتحدة للقوة العسكرية يشيرون إلى الأساس القانوني لمثل هذا الاستخدام ومجالات استخدام هذه القوة والمشاكل التي قد تعترض إمكانية استخدامها فيري Russett and Sutterlin^(٥٣) أن النظام العالمي الجديد تم إرساؤه على أساس حكم القانون ومبدأ الأمن الجهازي، ومثل هذا المبدأ يفترض بالضرورة احتمال استخدام الأمم المتحدة للقوة العسكرية، فإن الميثاق يعطي لمجلس الأمن سلطة المحافظة على السلم والأمن الدولي وأن يفرض إرادة المجلس على الدولة التي تخرق السلم^(٥٤).

إن استخدام القوة العسكرية بواسطة الأمم المتحدة لتحقيق حفظ السلام والإجبار يعد من وجهة نظر أنصار هذا الاتجاه ضرورة أساسية لتحقيق النظام العالمي الذي يعتمد فيه الأمن الدولي بدرجة كبيرة على مجلس الأمن. ويشيرون في هذا الصدد إلى أنه لا يوجد في ميثاق الأمم المتحدة ما يمنع نشر مجلس الأمن لقوات حفظ السلام بدون موافقة كل الأطراف المعنية، وإن أوضحوا أن عدداً من الدول قد تعترض على هذا المبدأ نظراً لتخوفهم من أن مثل هذا المبدأ قد يفتح الباب أمام إمكانية تبني تحرك يتعارض مع مصالحهم القومية. إلا أن أنصار هذا الاتجاه يشيرون إلى أن حرب الخليج ساهمت في زيادة الاهتمام بتحقيق ردع فعال من خلال استخدام الأساليب الجهازية بدلاً من أن يتم مثل هذا الردع من خلال أحد أو عدد قليل من أعضاء الأمم المتحدة. أو بعبارة أخرى يشير الباحثون إلى أنه يوجد الآن اعتراف بأن وجود أساليب ملائمة للردع ستكون جوهرية لتحقيق السلام في النظام العالمي الجديد^(٥٥).

أما الهدف الثاني لاستخدام القوة العسكرية في إطار الإجبار بدلاً من الاقتصار على الردع ويشير الباحثون في هذا الصدد إلى أن مثل هذا التحرك من جانب مجلس الأمن يمكن أن يعتمد على الفصل السابع المواد ٣٩-٤٦ من الميثاق، حيث يكون على الأعضاء أن يوفرُوا لمجلس الأمن بناءً على طلبه وبناءً على اتفاقية أو اتفاقيات خاصة، القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات بما في ذلك من المرونة الضرورية لتحقيق هدف المحافظة على الأمن والسلم. وحيث إنه لم يتم التوصل إلى أي من هذه الاتفاقيات، لم تتوفر لمجلس الأمن القوات للقيام بهذه المهمة. وبالتالي اعتمد مجلس الأمن على استخدام قوات مؤقتة لإعادة السلم في كوريا والخليج. ويشير المهتمون بتحليل هذا البعد للعمل الجهازي في النظام العالمي الجديد، أن هناك بدائل يمكن أن يتبناها مجلس الأمن في المستقبل فمثل هذه البدائل تقدم احتمال الاستخدام الفعال لوظيفة الإجبار

دون أن تعاني من المشاكل التي ترتبت على إعطاء مسئولية هذا الإجراء لأحد الدول الأعضاء منفردة. أحد البدائل المطروحة في هذا الصدد هو اتباع نمط معدل كما اتبع في كوريا حيث يتم وضع القوات القومية بطريقة مؤقتة تحت قيادة موحدة للأمم المتحدة. ويتم تحديد القيادة بواسطة أكبر الدول المساهمة في هذه القوات. وفي هذه الحالة يمكن تفادي بعض المشاكل التي شهدتها حالة كوريا، بأن يفرض على القيادة. أن تتشاور مع مجلس الأمن أو السلطة العسكرية التي يعينها المجلس حول مهمة العمليات العسكرية والاستراتيجية الأساسية التي سيتم اتباعها. ويرى الباحثون أن الدول التي تقدم أجراً مساهمة في هذه القوات قد تتعرض أو تقاوم مثل هذا الإجراء على أساس أنه يحد من حريتها في التحرك وأنه يعرض قواتها لدرجة أكبر من عنصر عدم التأكد من وجهة نظرها^(٥٦).

أما البديل الثاني الذي يشير إليه الباحثون فينتفح مع الإجراء الذي تم تحديده في المادة ٤٢ و٤٣ مع ميثاق الأمم المتحدة والذي وفقاً له يكون على أعضاء الأمم المتحدة أن يوفرُوا لمجلس الأمن بناء على طلبه ووفقاً لاتفاقية أو اتفاقيات خاصة القوات المسلحة والتسهيلات والمساعدة. ولقد كانت علاقات العداء بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي أحد العقبات الرئيسية أمام تحقيق هذا، وبانهار الاتحاد السوفيتي أزيلت هذه العقبة.

ويشير الباحثون إلى أن مثل هذه القوة مستشابهة مع قوة الأمم المتحدة في مجال حفظ السلام وإن اختلفت من حيث المهمة المسندة إليها ونوعية تسليحها وقيادتها. إلا أن مثل هذا التوجه يواجهه عدد من المشاكل. فيشير الباحثون في هذا الصدد، أنه ليس من الواضح ما هو عدد الدول التي ستكون على استعداد لإبرام الاتفاقيات التي أشار إليها ميثاق الأمم المتحدة وماهي الفترة التي تستغرقها إمكانية التوصل إلى مثل هذه الاتفاقيات، كل ما يشيرون إليه في هذا الصدد هو أن الظروف الدولية بعد حرب الخليج تبدو أكثر ملاءمة من أي فترة منذ ١٩٤٥ للتوصل لمثل هذه الاتفاقيات. كذلك فإن الوقت الذي يتطلبه تنظيم وانتشار القوة المتعددة الأطراف بواسطة مجلس الأمن غالباً ما يستغرق وقتاً أطول عما إذا عهد إلى دولة أو أكثر من الدول الأعضاء بالقيام بمهمة الإجراء، خاصة إذا كانت هذه العملية تنسم باتساع نطاقها. كذلك يثار تساؤل حول احتمال نجاح التحرك العسكري في ظل قيادة متعددة الأطراف عما لو تم مثل هذا التحرك في ظل قيادة قومية. وأخيراً تثار هناك تساؤلات حول تمويل هذه التحركات العسكرية، فإن تاريخ تمويل قوات حفظ السلام ليس تاريخاً مشجعاً، أما عملية الخليج فاعتمدت على استعداد وقدرته الدول المشاركة على دفع الأعباء المترتبة على هذه العملية وهو استعداد ارتبط بقدرتهم على السيطرة على توجهات العمليات العسكرية^(٥٧).

وفي إطار الاهتمام بالتحرك الجماعي على المستوى الدولي اهتم باحثون آخرون بمستقبل ضبط التسلح في أعقاب الحرب الباردة. حيث أوضحوا أن ميكانزمات ضبط التسلح على المستوى الدولي ستزداد أهميتها بنهاية نظام الاستقطاب وفي ظل تحقيق بعض الدول النامية لتقدم في المجال الصناعي والعلاقة الوثيقة بين التصنيع والقدرة على إنتاج الأسلحة، خاصة وأن العالم يشهد ارتباطاً وثيقاً بين التكنولوجيا المدنية والعسكرية في مجالات الذرة والأسلحة الكيميائية^(٥٨)، وبالتالي يشهد العالم انتشاراً لتكنولوجيا التسلح والقدرات العسكرية وبصفة خاصة في مجال الأسلحة غير التقليدية ويتم الباحثون هنا بالتركيز على احتمالات استمرار اتفاقية الحد من انتشار الأسلحة النووية وميثاق الأسلحة البيولوجية وإمكانية التوصل إلى اتفاقية لنزع السلاح في مجال الأسلحة الكيميائية.

ويشار في هذا الصدد إلى أن اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية تواجه اختبارات في أوائل التسعينيات في إطار الأحداث التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط وجنوب آسيا والاتحاد السوفيتي السابقة، فإن اكتشاف المجتمع الدولي لانحياز العراق لاتباع برنامج للتسلح النووي حتى في ظل الرقابة التي تفرضها الوكالة الدولية للطاقة الذرية أدى إلى زيادة الاهتمام بالإجراءات التي ترتبط بالتحقق والالتزام باتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية^(٥٩). كما يهتم الباحثون في إطار مناقشة هذه الاتفاقية كأحد أطر العمل الجماعي على المستوى الدولي باحتالات مد العمل بالاتفاقية في ١٩٩٥. ويشيرون هنا إلى احتمال لجوء الدول المعارضة للمحقوق التي تتمتع بها الدول النووية السابقة في ١٩٦٧ إلى التحرك على النحو الذي يثير تشككا حول احتمال استمرار العمل يمثل هذه الاتفاقية^(٦٠). إلا أنهم يشيرون أيضاً أن الغرب يرى أن مثل هذا الاحتمال احتمال ضعيف حيث يعتقد أن أغلب دول العالم ستري أن أمنها يمكن أن يتحقق على نحو أفضل في ظل الاتفاقية حتى وإن لم تكن هذه الاتفاقية اتفاقية مثالية. ويشير الباحثون إلى أن قضايا أخرى قد تظهر في الجدل العالمي حول الأسلحة النووية في السنوات القادمة وبالتالي قد يصعب الآن التوصل إلى رأي مؤكد حول نتيجة الجدل حول مد العمل بهذه الاتفاقية في ١٩٩٥^(٦١).

كذلك يشير الباحثون إلى أن التسعينيات ستشهد اهتماماً بضغط الأسلحة البيولوجية والكيميائية. فهناك اهتمام بميثاق الأسلحة البيولوجية Biological and Toxic weapons Convention الذي أبرم في ١٩٧٢. حيث يوجد تشكك حول مدى التزام الدول بمثل هذا الميثاق فيوجد ما بين ١٠ - ١٥ دولة تمتلك قدرات حرية بيولوجية هجومية. أي بعبارة أخرى أن هذه الاتفاقية تفتقد آليات التحقق والإلزام وبالتالي يتعين تقوية دور هذه الاتفاقية في التسعينيات. إلا أنهم يشيرون إلى أن هناك مشاكل أمام إمكانية أن تتضمن هذه الاتفاقية لميكانيزمات التحقق التي قد تضمنتها الاتفاقيات الدولية الأخرى نظراً لخصائص التكنولوجيا المستخدمة في هذه الأسلحة. وفي إطار تناول الأسلحة الكيميائية يشار إلى أن التسعينيات شهدت اهتماماً بالتوصل إلى اتفاقية شاملة لنزع السلاح في هذا المجال. حل أن تتضمن هذه الاتفاقية ميكانيزمات للتحقق والإلزام وأن تُطَبّق هذه الاتفاقية على جميع الدول سواء الدول المتقدمة أو النامية^(٦٢).

ويوضح الباحثون أن أهمية التحرك الجماعي لضبط التسليح لا ترتبط فقط بدورها في الحد من انتشار الأسلحة غير التقليدية ولكن لها أهميتها أيضاً في إرساء قيم تحكم سلوك الدول في النظام العالمي الجديد، إلا أن مستقبل هذه الجهود يتوقف على إمكانية نجاح هذه الإجراءات في التزام الدول بتنفيذ الاتفاقيات التي يتم التوصل إليها. وهذا الإلزام يتوقف بدوره على الإطار السياسي الذي يتم فيه هذا الالتزام حيث سيكون أكبر في حالة سيادة علاقات سلمية بين الدول عنه في حالة سيادة علاقات عدائية بينها. كما يعتمد أيضاً على مدى اهتمام تلك الدول التي تتمتع بالقدرة السياسية والاقتصادية والعسكرية بضرورة تطبيق مثل هذا الإلزام^(٦٣).

ويعتد الباحثون في تناولهم لإمكانات التحرك الجماعي على المستوى الدولي بإمكانية التحرك الجماعي في إطار المؤسسات التي كانت مقصورة على العالم الغربي. فخلال الحرب الباردة أقامت الدول الغربية شبكة من المؤسسات لتحقيق الأوضاع الاقتصادية والمجتمعية التي كانوا يغيثون تأسيسها في النظام الدولي وتضمنت هذه المؤسسات مثلاً صندوق النقد الدولي. البنك الدولي، المجات، مجموعة الدول السبع. إن إقامة مؤسسات عالمية في هذه المجالات عرقل من إمكانية تحقيقه وجود الحرب الباردة، وبالتالي فإن انتهاء هذه الحرب وانتصار الغرب بطرح إمكانية اتساع مثل هذه المؤسسات لتأخذ شكل مؤسسات عالمية، ويشار في هذا الصدد، أن

اهتمام الدول الاشتراكية السابقة بالمشاركة في مثل هذه المؤسسات دليل على تدعيم السيطرة الغربية على توجهات العمل الجماعي على المستوى العالمي^(٦٤).

وأخيراً يتم الباحثون في إطار تناولهم لإمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي . بإمكانيات التحرك الجماعي لمواجهة القضايا التي تتعدى الحدود القومية للدولة ومنها قضايا البيئة وحقوق الإنسان . فيوضح Falk^(٦٥) أن كثيراً من الكتابات التي تناولت نهاية الحرب الباردة والمشاكل التي ترتبت عليها تتجاهل مدلول الاتجاهات العالمية في الحياة الدولية . فإن هناك تحديات اقتصادية وأخرى تتعلق بالبيئة تتعدى الحدود الإقليمية للدولة ، فتقدم وسائل الاتصال وقوى السوق يربط ما بين شعوب العالم على نحو غير مسبوق . وفي هذا الإطار يشهد العالم تحركاً جماعياً في إطار العديد من المنظمات والجماعات ، ويشار في هذا الصدد إلى تحرك الجماعات المهتمة بالبيئة في « Earth Summit » الذي عقد في ريدي في ١٩٩٢ ، كما شهد مجال حقوق الإنسان تحركاً جماعياً يتعدى الحدود القومية والعنصرية التي تفصل ما بين شعوب العالم . فإن منظمات مثل Human International Helsinki Citizens Assembly Rights watch Groups و Omnesty توضح تعاوناً ما بين الشعوب المختلفة ، أو بعبارة أخرى فإن القضايا التي يتعرض لها النظام العالمي الجديد تفرض الاهتمام بأنماط جديدة من التحرك الجماعي على المستوى العالمي .

٥- النظام العالمي الجديد : وضع الدول النامية

اهتم بعض الباحثين بتحليل وضع الدول النامية في ظل نظام عالمي يتسم بتعدد مراكز القوى وإمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي . وبينما اعتقد البعض أن النظام العالمي الجديد مازال يطرح فرصاً أمام الدول النامية اتجه البعض الآخر لإبراز الآثار السلبية للنظام العالمي الجديد على وضعية هذه الدول في هذا النظام .

ففي إطار تناول Moritan^(٦٦) لوضع الدول النامية في النظام العالمي الجديد أوضح أنه لا يوجد إجابة واضحة حول أثر ظهور الجماعة الأوربية واليابان كقوى اقتصادية هامة في النظام الدولي على مستقبل حركة عدم الانحياز فبالرغم من تأكيد أن دول عدم الانحياز لم يعد بإمكانها استغلال المنافسة بين القوى العظمى للحصول على موارد والتزامات من هذه الدول ، إلا أن هذا لا يعني من وجهة نظره أن حركة عدم الانحياز فقدت قدرتها على المناورة في الهيكل الدولي السائد حيث اعتقد أنه يمكن لهذه الدول أن تحصل على مزايا اقتصادية وسياسية . فلا يوجد من وجهة نظره ما يمنع دول عدم الانحياز من أن تأخذ وضعها بين الأقطاب الجديدة في النظام العالمي . كذلك يوضح الباحث في هذا الصدد أن النظام العالمي الجديد بما يتضمنه من إمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي جعل الوقت مناسباً لإحداث تقدم في إقامة ميكانزمات متعددة الأطراف لتزعم السلاح وتحقيق الأمن في الأقاليم التي تسودها الصراعات ، ومن ناحية أخرى يسمح مثل هذا الوضع بتخطي الانقسامات التي سادت بين الشرق والغرب والشمال والجنوب .

أما الفريق الثاني من الباحثين فيرى أن النظام العالمي الجديد له تداعيات سلبية على الدول النامية سواء في علاقتها بالدول المتقدمة أو في علاقتها ببعضها البعض ، ويشار في هذا الصدد إلى انعكاسات النظام العالمي الجديد بما يتضمنه من تعدد مراكز القوى التي تمثل مجتمعاً آمناً متعلداً وإمكانيات التحرك الجماعي على المستوى العالمي على الأمن السياسي والعسكري والاقتصادي والبيئة بالنسبة للدول النامية ففي المجال السياسي

يتم الباحثون بأربعة تداعيات سلبية فأولاً — يشار إلى أن انتهاء الصراع الأيديولوجي بين الشرق والغرب ترتب عليه التقليل من الأهمية الاستراتيجية لبعض الدول النامية . ففي ظل النظام العالمي الجديد لا يوجد هناك حوافز أيديولوجية أو استراتيجية تدفع بالقوى الكبرى في النظام إلى التنافس للحصول على تأييد أحد الدول النامية ، وبالتالي فقدت هذه الدول أحد وسائل التأثير التي كان بإمكانها استخدامها في ظل الحروب الباردة . وثانياً — يشير أنصار هذا الاتجاه إلى إمكانية فقدان حركة عدم الانحياز لصفحتها كمركز سياسي للدول النامية . ففي أعقاب الحرب الباردة لا يوجد هناك انقسام بين الدول المسيطرة يستدعي تبني مثل هذه السياسة . وثالثاً — يوضح أنصار هذا الاتجاه أن وجود الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى في النظام الدولي جعل من السيطرة المركزية للدولة نموذجاً شرعياً للحكم في المناطق الأخرى من العالم ، كذلك فإنه وفر للدول النامية المعادية للغرب قوى عظمى لمساندتها . إلا أنه مع تسليم هذه القوة العظمى السابقة بمزايا التعددية والسوق العالمي . قلت مجالات التحرك المفتوحة أمام الدول النامية . وأخيراً — يشير أنصار هذا الاتجاه إلى أنه بالرغم من أنه لا يوجد علاقة واضحة بين الحرب الباردة واستمرار التمسك بالحدود التي فرضها الاستعمار على الدول النامية . إلا أن نهاية هذه الحرب تثير قضية الحدود بطريقة مختلفة . فبانتهاى الحرب تم توحيد ألمانيا وبالتالي تم تغيير أحد الحدود التي فرضتها الحرب الباردة ، كذلك تشهد الدول الاشتراكية السابقة بعض الضغوط من أجل إعادة رسم الحدود . وبالرغم من أن هذه التغيرات في الشمال ليس لها علاقة مباشرة بدول الجنوب إلا أن لها تداعيات كبرى لإمكانية تغيير الحدود ، فإذا كان من المقبول إجراء تغييرات في الحدود في دول الشمال فما الذي يمنع من إمكانية تحقيق ذلك في الدول النامية ومثل هذه الإمكانية تثير احتمالات لتصاعد الصراع بين الدول النامية حول قضايا الحدود ^(١٧) .

وفي مجال تحليل التداعيات العسكرية يشير أنصار هذا الاتجاه إلى أن التغيرات التي شهدتها النظام العالمي بانتهاى الحرب الباردة قد تدفع إلى الاعتقاد بأن انتهاء الصراع الأيديولوجي بين مراكز القوة سيترتب عليه تقليل دوافعهم للتنافس حول إمداد الدول النامية بالأسلحة . إلا أن أنصار هذا الاتجاه يشيرون إلى تجارة السلاح بصفتها أحد العوامل التي قد يترتب عليها استمرار تدفق السلاح للدول النامية فإن عالم ما بعد الحرب الباردة سيشهد استمرار تطلع عدد من الدول لبيع منتجاتها من الأسلحة ، ففي ظل المنافسة التجارية الهائلة التي مستهدفا هذه الفترة فإن تصدير السلاح سيكون أحد المجالات القليلة التي يتمتع فيها الاتحاد السوفيتي السابق والصين وتشيكوسلوفاكيا مثلاً بمزايا في ظل هذه المنافسة . وبالرغم من أن مثل هذا المنطق قد يكون أقل دلالة بالنسبة لدول مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، إلا أن هذه الدول الثلاث عليها أن تحوز منافسة حادة مع ألمانيا واليابان في مجال الصناعات المدنية وهي منافسة لا تواجهها في مجال سوق السلاح ، كذلك فإن الدول الكبرى تواجه احتمال انخفاض الطلب الداخلي على السلاح في ظل انتهاء الحرب الباردة وبالتالي سيكون لديها حاجة لتصدير الأسلحة للمحافظة على صناعاتها في هذا المجال فضلاً عن هذا فإن دولاً أخرى مثل إسرائيل والبرازيل والمند وكوريا الجنوبية لديها القدرة والاستعداد للمنافسة في سوق السلاح وبالتالي فإنه في ظل تعدد مصادر السلاح والتنافس بين موردي السلاح وزيادة الطلب على التسليح من جانب الدول النامية يرى أنصار هذا الاتجاه أنه من الصعوبة الحديث عن ضبط عملية تجارة السلاح ^(١٨) .

كذلك يشير أنصار وجود التداعيات السلبية الاقتصادية للنظام العالمي الجديد على الدول النامية إلى ثلاثة

أنواع من التداعيات. قيشرون أولاً إلى أن هذه الدول مستمرة في معاناتها من المشاكل الاقتصادية التي تتمثل في عدم القدرة على توفير الاحتياجات الأساسية للسكان كما هو الحال بالنسبة للسودان وبنجلاديش. كما مستمرة تعاني من آثار تغير أسعار المواد الأولية كما هو الوضع في زامبيا وبيرو، وعدم القدرة على مقاومة الضغوط التي قد توجهها المؤسسات الخارجية كما هو الحال بالنسبة للأرجنتين وتايلاندا. أي يشير أنصار هذا الاتجاه أنه لا يوجد أي سبب يدعو إلى الاعتقاد بأنه في ظل النظام العالمي الجديد سيحدث تغير جوهري لتخطي المشاكل التي تواجهها الدول النامية. بل يرون أن وضع الدول النامية قد يتجه إلى التدهور في ظل انخفاض أسعار السلع الأولية، ووجود خلافات هائلة بين مصالح الدول النامية، ونجاح الدول المتقدمة في التفرقة بين هذه الدول وأزمة الديون^(٦٩). وبالرغم من أن النظام العالمي الجديد قد يتحرك نحو وجود كتلتا إقليمية في ظل سيطرة أوروبا واليابان والولايات المتحدة، إلا أنه لا يوجد ما يشير في ظل هذا الوضع أن احتلال موقف هامش في نظام عالمي مختلف عن احتلال وضع هامش في ظل أحد الكتل الإقليمية. وثانياً يشير أنصار هذا الاتجاه إلى احتمال انخفاض المساعدات الخارجية الموجهة للدول النامية في ظل انتفاء الدوافع السياسية التي حكمت هذه المساعدات خلال الصراع بين الشرق والغرب. إلا أن هؤلاء الباحثين يشيرون إلى أن قضايا البيئة وتحول الدول المتقدمة من الهجرة من جانب الدول النامية قد يدفعها نحو استمرار تقديم مساعدات للدول النامية. وثالثاً يشير الباحثون إلى أنه في ظل انخفاض حساسية الدول النامية للارتباط بالخارج في فترة ما بعد الاستقلال وفي ظل المشاكل الاقتصادية التي تواجه هذه الدول وزيادة دور المؤسسات الدولية الغربية في توجيه اقتصاديات البعض منها، فإن الدول النامية قد تعاني من درجة أكبر من فقدان القدرة على تحديد مسارها الاقتصادي^(٧٠).

وأخيراً يشير الباحثون إلى قضايا البيئة في النظام العالمي الجديد وانكاساتها على الدول النامية ويشيرون في هذا الصدد، أن مثل هذه القضايا أصبحت جزءاً من الحوار بين الشمال والجنوب، حيث يهتم الجنوب الشمال بأنه السبب في مثل هذه القضايا. وهنا يهتم الباحثون بالإشارة إلى أن قضايا البيئة لن تكون محور صراع بين الشمال والجنوب فحسب، بل ستكون أيضاً محور صراع فيما بين دول الجنوب. ويشير البعض في هذا الصدد إلى أن قضايا البيئة وما يتعلق منها بالسيطرة على موارد المياه يبدو أنه سيزرب عليها صراعات بين الدول النامية^(٧١).

الخاتمة

إن هذه المراجعة للأدبيات التي نشرت في بعض الدوريات الأمريكية توضح أن محور اهتمام هذه الأدبيات لا ينطرق للقضايا التي تهم علناً العربي. فإن اهتمامها الأساسي ينصب على توصيف هيكل النظام العالمي، واتجاه التفاعلات الدولية وإمكانية التحرك الجماعي على المستوى العالمي ومصادر التهديد التي تواجه النظام العالمي الجديد وكيفية التعامل معها على النحو الذي يجند مصالح الدول المسيطرة في هذا النظام. وبالرغم من تناول بعض الباحثين للوضع المتدهور للدول النامية في النظام العالمي الجديد إلا أنهم لا ينطرقون للبدائل المطروحة أمام هذه الدول للتغلب على القيود السياسية والاقتصادية والعسكرية التي تواجهها. وبالتالي فإن هذه المراجعة لبعض الأدبيات الأمريكية تثير عدداً من الأسئلة بصفتنا باحثين عرب ننتمي إلى الدول النامية، وهي أسئلة تدور أساساً حول أين نحن من تداعيات هذه القيود؟ وماهي بعض الاستراتيجيات التي يجب علينا اتباعها للتقليل من مدلول هذه القيود؟ وبالتالي تحسين وضعنا في هذا النظام العالمي الجديد.

المهام

- Francis Fukuyama, "The End of History?", *The National Interest* (Summer, 1989). Adam Roberts, "A New Age in (1) International Relations?" *International Affairs*, 67,3 (1991).
- Laurence Martin, "National Security in a New Order," *The World Today* (February, 1992). (2)
- Zbigniew Brzezinski, "Selective Global Commitment," *Foreign Affairs* (Fall, 1991). (3)
- (4) عبد الحميد سعيد الحرب الخليج والنظام العالمي الجديد، مجلة المواقف الاجتماعية، العدد الأول، (ربيع/ صيف 1991).
- (5) تمت في هذا العدد مراجعة الدوريات التالية:
- The National Interest*, *International Affairs*, *The World Today*, *Foreign Affairs*, *Foreign Policy*, *Political Science Quarterly*, *Washington Quarterly*, *Encounter*, *Journal of International Affairs*, *Current History*.
- (6) محمد السيد سليم، تحليل السياسة الخارجية (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1989).
- James Rosenau, "Capabilities and Control in an Interdependent World," in R. Matthews, A. Rubinoff and J. Stein (eds), *International Conflict Management* (Ontario: Prentice Hall, 1989).
- Ted Galen Carpenter, "The New World Disorder," *Foreign Policy*, No. 8 (Fall, 1991). (أ) تحليل
- (8) المرجع السابق
- Roberts, op. cit. (10)
- Rosenau, op. cit. (11)
- Kenneth Waltz, *Theory of International Politics* (Reading, Mass: Addison Wesley, 1979). (12)
- Joseph Nye, "The Changing Nature of World Power," *Political Science Quarterly*, vol. 105 No. 2 (1990) (13) ورد في
- (14) المرجع السابق
- William Pfaff, "Redefining World Power," *Foreign Affairs*, vol. 70, No. 1 (1991). (15)
- Barry Buzan, *New Patterns of Global Security in the Twenty First Century*, *International Affairs*, vol. 67, No. 3 (July 1991).
- Samuel Huntington, "The Economic Renewal of America," *The National Interest* (Spring 1992). (16)
- Pfaff, op. cit. (17)
- (18) المرجع السابق.
- Nye, op. cit. (19)
- Carpenter, op. cit. (20)
- Dan Kwart A. Rustow, "Democracy: A Global Revolution?", *Foreign Affairs*, vol. 61, No. 4 (Fall, 1990). (21)
- Karl Deutsch and S.A. Burrell, *Political Community and the North Atlantic Area* (Princeton, N.J., Princeton University Press, 1957).
- Buzan, op. cit. (22)
- Stanely Hoffman, "The Case for Leadership," *Foreign Policy*, NO. 81 (Winter 1990 - 91). (23)
- Carpenter, op. cit. (24)
- Stanely Hoffman, «A New World and Its Troubles», *Foreign Affairs*, vol. 69, No. 4 (1990) (25) الإشارة إلى
- Tucker (26)
- Pfaff, op. cit. (27)
- Joseph Nye, *Bound to Lead* (New York: Basic Books, 1990). (28)
- Roberto Garca Morlan, "The Developing World and the New World Order," *The Washington Quarterly* (Autumn, 1992). (29)
- John Lewis Gaddis, "Toward the Post - Cold War World," *Foreign Affairs*, vol. 70, No. 2 spring 1991). (30)
- (J.B. Miller, «A New World Order?», *The World Today* January, 1992). (31) الإشارة إلى Gailbraith ورد في
- Pfaff, op. cit. (32)
- Hoffmann, N New, op. cit. (33)
- Gaddis, op. cit. (34)
- Jan Zielonka, "European Security: A Great Confusion," *International Affairs*, 67, 1 (1991). (35)
- Pfaff, op. cit. (36)
- Miller, op. cit. (37)

- Gaddis, op. cit (٣٨)
Hoffmann, A New, op cit (٣٩)
Penelope Hartland - Thunberg, "A capital - Starved New World Order: Geopolitical Implications of a Global Capital," *The Washington Quarterly* (Autumn, 1991).
(٤١) تحليل Hoffmann وارد في (١٩٩٣) *Current History* (April 1993). Michael J. Kiare, "The: New Challenges to Global Security"
(٤٢) المرجع السابق.
(٤٣) المرجع السابق.
Walt Rostow, "The Coming of Age of Regionalism," *Econter* (June, 1990) (٤٤) وارد في
Andrew Hurrell, "Latin America in the New World Order: A Regional bloc of Americas," *International Affairs*, 68 (1992).
(٤٥) المرجع السابق.
Joseph Nye, *Peace in Parts: Integration and Conflict in Regional Organizations* (Boston: Little brown, 1971). (٤٦)
Hurrell, op. cit. (٤٧)
(٤٨) المرجع السابق.
(٤٩) المرجع السابق وانظر بعض هذه الأبحاث في:
De Anne Julia, *Global Companies and Public Policy, the Growing Challenges of Foreign Direct Investment* (London: Panter/RELA: 1990)
Theodore C. Sorensen, "America's, President," *Foreign Affairs* (Fall 1992) (٥٠)
Roberts, op. cit. (٥١)
انظر أيضاً عدم قول مقولة أن زيادة تلوث الأمراء والسلع والتكنولوجيا عبر الحدود القومية سيقتب عليها عالم يتسم بدرجة أكبر من الأمن في Gaddis, op. cit.
(٥٢) Roberts, op. cit.
Bruce Russett and James Satterlin, "The U.N. in a New World Order," *Foreign Affairs*, vol 70, No. 2 (Spring 1991). (٥٣)
(٥٤) راجع مفهوم الأمن الجماعي في أعقاب الحرب الباردة في:
Andrew Bennett and Joseph Leggold, "Reinvesting Collective Security after the Cold War and Gulf Conflict" *Political science quarterly* (Summer 1993).
Russett and Satterlin, op. cit (٥٥)
راجع دور الأمم المتحدة في مجال حفظ السلام والأكثر الترتيب على هذا الدور في
Kim R. Holmes, *New World Disorder: A Critique of the United Nations*. *Journal of International Affairs* (Winter 1993).
Russett and Satterlin, op. cit (٥٦)
(٥٧) المرجع السابق.
Buzan, op. cit. (٥٨)
Brad Roberts, "Arms Control and the End of the Cold War," *The Washington Quarterly* (Autumn 1992). (٥٩)
Buzan, op. cit (٦٠) راجع فرص وعبثات مد العمل بالاتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية في
Brad Roberts, op. cit. (٦١)
(٦٢) المرجع السابق.
(٦٣) المرجع السابق.
Buzan, op. cit (٦٤)
Richard Falk, "In Search of a New World Model," *Current History* (April 1993) (٦٥)
Morison, op. cit (٦٦)
Buzan, op. cit (٦٧)
(٦٨) المرجع السابق.
John Ravenhill, "The North - South Balance of Power," *International Affairs*, 66:4 (1990). (٦٩)
Buzan, op. cit. في وارد
(٧٠) المرجع السابق.
(٧١) المرجع السابق.

النظام الدولي الجديد في الفكر العربي

د. حسين توفيق إبراهيم

مقدمة :

لا شك في أن مفهوم «النظام الدولي الجديد» ، يعتبر من أكثر المفاهيم التي لاقت ذيوماً وانتشاراً في الأوساط السياسية والإعلامية والأكاديمية ، العربية والأجنبية أثناء أزمة - أو بالأحرى - كارثة الخليج الثانية وفي أعقابها . وقد شاع هذا المفهوم بعد أن بدأ الرئيس الأمريكي السابق «جورج بوش» في طرحه منذ الأيام الأولى لحدوث الكارثة ، حيث راح يؤكد في خطبه وتصريحاته على أن هدف إرساء نظام دولي جديد ، يقوم على الالتزام بقواعد الشرعية الدولية واحترام القانون الدولي ومبدأ الأمن الجياحي وتوفير ضمانات الحرية والديمقراطية والتنمية وحقوق الإنسان وحل المنازعات بالطرق السلمية . . . إلخ ، يعتبر أحد الأهداف الرئيسية لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أزمة الخليج الثانية . وقد استمر الرئيس الأمريكي السابق «بوش» وغيره من المسؤولين الأمريكيين وأجهزة الإعلام الأمريكي في التأكيد على هذه المعاني بعد انتهاء أزمة الخليج الثانية^(١) .

ومع شيوع المفهوم وانتشاره تعددت الرؤى والتصورات والتقييمات بشأنه ، بل وقد وصلت إلى حد التضارب والتناقض . ولم يكن المفكرون والباحثون ورجال الإعلام والسياسة العرب بعمز من الجدل الذي أثير حول مقولة «النظام الدولي الجديد» . فكيف يكون ذلك و كارثة الخليج الثانية التي حدثت على أرض العرب شكلت أول تحدٍ حقيقي لما يُعرف بالنظام الدولي الجديد ، كما مثلت في الوقت نفسه مدخلاً رئيسياً لإرساء بعض أسس وقواعد هذا النظام حسبها تصورها القوة أو القوى الدولية الفاعلة والمؤثرة فيه ؟ ! .

والهدف من هذه الدراسة هو رصد رؤى الفكر العربي وتصوراتنه لمقولة «النظام الدولي الجديد»، مع تحليل هذه الرؤى وتقييمها والمقارنة بينها . ومن هذا المنطلق ، فإن الدراسة تسعى للبحث في إجابات الفكر العربي على عدد من القضايا والتساؤلات المرتبطة بإشكالية النظام الدولي الجديد . ويمكن إيجاز أهمها فيما يلي :

١ - هل هناك فعلاً نظام دولي جديد؟ . بلغة أخرى ، هل يمكن الحديث عن نظام دولي جديد في هذه المرحلة من تطور العالم؟ .

٢ - وإذا كانت الإجابة على السؤال السابق بـ«نعم» فما هي العوامل التي ساهمت - وتساهم - في خلق هذا النظام وتشكيله؟ . وما هي طبيعة هذا النظام التي تميزه عن النظام القديم؟ ، أي ما هو الجديد فيه؟ . وما هي ملامح بنية أو هيكل هذا النظام من حيث نمط أو أنماط توزيع مصادر القوة والنفوذ بين وحداته؟ . وما هي القيم والقواعد والأخلاقيات الجديدة التي يستند إليها هذا النظام؟ . وما هي أنماط العلاقات والتفاعلات بين الوحدات المكونة له؟ . وما هي القضايا الرئيسية في هذا النظام والتي تشكل أجندة الاهتمامات الدولية إذا جاز التعبير؟ . وما هو مصير القضايا المرتبطة بالنظام القديم؟ . وما هو موقع بلدان الجنوب على خريطة النظام الدولي الجديد؟ . وما هي آثاره وتداعياته على الوطن العربي من زاوية القيود والفرص؟ .

٣ - وفي حالة نفي وجود نظام دولي في الوقت الراهن ، فما هو إذن التوصيف أو التوصيفات المطروحة للتحولات والتغيرات الكبرى التي حدثت - وتحدث - في البيئة الدولية؟ . وهل هناك مقولات أو مفاهيم أخرى أكثر دلالة في التعبير عن فحوى هذه التحولات والتغيرات من مفهوم النظام الدولي الجديد؟ .

٤ - ما هي انعكاسات التغيرات والتحولات الدولية الجديدة وتأثيراتها على الوطن العربي ، وذلك بغض النظر عما إذا كانت هذه التغيرات تشكل نظاماً دولياً جديداً أم لا؟ . وما هي الإمكانيات والآليات المتاحة للدول العربية للتعامل معها من زاوية تعظيم الإيجابيات (الفرص) وتقليل السلبيات (القيود) من ناحية ، وتمكين العرب من المساهمة بدور مؤثر وفعال في تشكيل وصياغة الأوضاع الدولية الجديدة من ناحية أخرى .

وتأسيساً على ما سبق ، فإن هذه الدراسة ستتناول النقاط التالية :

أولاً: في المصادر والمنهج .

ثانياً: الجدل حول مفهوم النظام الدولي الجديد : هل هناك نظام دولي جديد؟ .

ثالثاً: مصادر التغيير في النظام الدولي : عوامل التحول إلى نظام دولي جديد .

رابعاً: كارثة الخليج الثانية وتدشين مقولة النظام الدولي الجديد .

خامساً: الجدل حول هيكل أو بنية النظام الدولي الجديد .

سادساً: الجدل حول القيم التي يستند إليها النظام الدولي الجديد .

سابعاً: مناقشة بعض قضايا النظام الدولي الجديد وإشكالياته .

ثامناً: انعكاسات النظام الدولي الجديد على الوطن العربي والعالم الإسلامي: موقع العرب والمسلمين في النظام الدولي الجديد.

تاسعاً: كيف يتعامل العرب مع النظام الدولي الجديد؟: الإمكانيات والخيارات.
وتعرض الدراسة لكل من النقاط السابقة بشيء من التفصيل.

أولاً: في المصادر والمنهج

تستخدم هذه الدراسة مفهوم الفكر العربي بمعنى مجموعة الأفكار والروى والتصورات والانتقادات التي طرحها بعض المفكرين والباحثين والكتاب العرب حول موضوع النظام الدولي الجديد. وقد توزع النتاج الفكري العربي المرتبط بموضوع الدراسة والمسجل في هوامشها بين أربعة أنواع من المصادر:

أولها، بعض الكتب والدراسات التي عالجت موضوع النظام الدولي الجديد بشكل مباشر، أو تعرضت لبعض جوانبه ومتغيراته. وهي تعتبر بصفة عامة قليلة العدد عند مقارنتها بالدراسات والبحوث والمقالات المنشورة عن نفس الموضوع في الدوريات والصحف العربية^(١).

وثانيها، البحوث والدراسات المنشورة في عدد من الدوريات العربية. ومن أهمها: مجلة العلوم الاجتماعية (جامعة الكويت - الكويت)، والمستقبل العربي (مركز دراسات الوحدة العربية - لبنان)، والوحدة (المجلس القومي للثقافة العربية - المغرب)، وشؤون عربية (جامعة الدول العربية - مصر)، والتعاون (مجلس التعاون لدول الخليج العربية - السعودية)، والفكر الاستراتيجي العربي (معهد الإنماء العربي - لبنان - توقفت عن الصدور في نهاية عام ١٩٩٢)، والباحث العربي (مركز الدراسات العربية - لندن)، ومنبر الحوار (دار الكوثر - لبنان)، والمجلة العربية للدراسات الدولية (الجمعية العربية للدراسات الدولية - واشنطن)، والسياسة الدولية (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - مصر)، والشاهد (شركة الشاهد للنشر - قبرص)، والفكر العربي (معهد الإنماء العربي - لبنان)، وقراءات سياسية (مركز دراسات الإسلام والعالم - الولايات المتحدة الأمريكية)، ومستقبل العالم الإسلامي (مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا)، والعربي (وزارة الإعلام - الكويت)^(٢).

وثالثها، الأوراق البحثية التي قُدمت إلى بعض الندوات وحلقات النقاش العلمية، التي نظمها عدد من المراكز البحثية والجامعات والمؤسسات السياسية في بعض البلاد العربية، وذلك لمناقشة ودراسة موضوع النظام الدولي الجديد^(٣).

ورابعها، بعض المقالات المنشورة في عدد من الصحف العربية مثل الحنية والأهرام والشرق الأوسط والاتحاد.

ومع التسليم الكامل بتعدد الموضوعات والقضايا التي قد ترد في إطار دراسة واحدة، ومع الاقتناع بوجود درجة من التداخل بين الموضوعات التي تتناولها دراسات مختلفة، إلا أنه ويقدر من التعميم يمكن تصنيف الدراسات العربية في موضوع النظام الدولي الجديد على النحو التالي:

عالم الفكر

هناك أولاً، دراسات تناولت التطور التاريخي للنظام الدولي، وتناقشت لإرهاصات بروز ما يعرف بالنظام الدولي الجديد. بله أخرى عاجلت هذه الدراسات التطورات الدولية الراهنة في إطار سياق تاريخي مرتبط بنشأة النظام الدولي وتطوره^(٥).

وهناك ثانياً: دراسات ركزت على تحليل مقولة النظام الدولي الجديد وتقدها بقصد الكشف عن عناصرها البنائية، ومواطن التحيز فيها، والمحددات القيمية والأيدولوجية التي تقف خلفها^(٦).

وهناك ثالثاً، دراسات اتصبت على تحليل بنية أو هيكل ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد، مع مناقشة موقع الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من القوى الكبرى الفاعلة والمؤثرة في تشكيل هذا النظام وتجهيد توجهاته^(٧).

وهناك رابعاً، دراسات رصدت بعض الرؤى والتصورات إزاء ما يعرف بالنظام الدولي الجديد، وقامت بتحليل هذه الرؤى وتقدها. ومن ذلك على سبيل المثال: الرؤى الأمريكية والغربية لهذا النظام، وكذلك رؤى بعض المفكرين الإسلاميين والحركات الإسلامية له. وهناك من طرح رؤى معرفية للبحث في القيم الفلسفية والأسس المعرفية التي يستند إليها ما يعرف بالنظام الدولي الجديد^(٨).

وهناك خامساً، دراسات اهتمت برصد انعكاسات المتغيرات الدولية الجديدة أو النظام الدولي الجديد على الوطن العربي ككيان متميز أو على العالم الإسلامي أو إفريقيا أو دول الجنوب (العالم الثالث) بصفة عامة. وفي هذا السياق أيضاً فإن هناك دراسات ورصدت تأثير تطورات أو متغيرات دولية بعبئها على الوطن العربي. ومن هذه التطورات على سبيل المثال: التحولات في الكتلة الاشتراكية (سابقاً)، وتفكك الاتحاد السوفيتي، والتطورات في المجموعة الأروبية، والثورة الصناعية الثالثة... إلخ^(٩).

وهناك سادساً، دراسات ركزت على فهم وتحليل انعكاسات النظام الدولي أو المتغيرات الدولية الجديدة على قضايا عربية أو إسلامية أو عالميية معينة مثل: التطور الديمقراطي، والنفس العربي، والوحدة العربية، والثقافة العربية، والإعلام العربي، والقومية العربية، وأزمة لوكربي، والأزمة الصومالية، وحركة عدم الانحياز، ومستقبل العالم الثالث، والعلاقات الإسرائيلية الأمريكية... إلخ^(١٠).

وهناك سابها، دراسات عاجلت قضايا محددة في إطار ما يعرف بالنظام الدولي الجديد مثل: أزمة الخليج الثانية وعلاقتها بالنظام الدولي الجديد وظواهر التفكك والاندماج، والاستقرار وعدم الاستقرار في ظل هذا النظام وموقع استخدام القوة العسكرية في النظام الدولي الجديد، وطبيعة دور الأمم المتحدة والشريعة الدولية فيه. وقضايا الحد من التسلسل ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل وقضايا الإرهاب والبيئة، وتسوية الصراع العربي-الإسرائيلي ومقولة نهاية التاريخ^(١١).

وهناك ثامناً، دراسات حاولت الإجابة على السؤال: كيف يتعامل العرب والمسلمون مع النظام الدولي أو المتغيرات الدولية الجديدة وما تفرضه عليهم من تحديات ومخاطر؟^(١٢).

هذا، وقد راعت الدراسة - قدر الإمكان - اعتبارين أساسيين في اختيار الدراسات والبحوث التي تمكس رؤى الفكر العربي إزاء ما يعرف بالنظام الدولي الجديد. أولهما، الحرص على تمثيل المناطق الجغرافية الرئيسية في

عالم الفكر

الوطن العربي (وادي النيل، المغرب العربي، الشرق العربي، الخليج والجزيرة العربية). وثانيهما، تمثيل التيارات الفكرية الرئيسية في الوطن العربي. وهي تتمثل في: التيارات القومية والإسلامية والليبرالية واليسارية.

ومن الملاحظات الجديدة بالتسجيل أن حجم الاهتمام الفكري والأكاديمي بموضوع النظام الدولي الجديد من قبل المفكرين والباحثين العرب بدأ يتراجع بشكل ملحوظ خلال عام ١٩٩٣، عما كان عليه الحال خلال العامين السابقين له ١٩٩١ و ١٩٩٢. ولذلك يُلاحظ أن أغلب البحوث والدراسات التي اعتمدنا عليها قد أنجز خلال هذين العامين. وربما يمكن تفسير هذا الوضع بأسباب ثلاثة:

أولها، لقد سبق القول بأن مقولة النظام الدولي الجديد شاعت وانتشرت أثناء كارثة الخليج الشانية وفي أعقابها. ومن ثم كان من الطبيعي أن يتزايد اهتمام الفكر العربي بهذا الموضوع في زخم الآثار والتداعيات التي ترتبت على كارثة الخليج الشانية من ناحية. وفي زخم تزايد الاهتمام العالمي بإشكالية النظام الدولي الجديد من ناحية ثانية.

وثانيها، أن شيوع المفهوم ارتبط في جانب منه بالإثارة الأمريكية في عهد الرئيس الأمريكي السابق «جورج بوش». فقد حرصت على أن تتروج تصوراً معنياً للنظام الدولي الجديد. وهو تصور ربط مقولة النظام الدولي الجديد بمجموعة من القيم والمبادئ الإنسانية والأخلاقية العليا مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان واحترام قواعد القانون الدولي والشرعية الدولية وتجنب العنف في إدارة العلاقات بين الدول، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية. إلخ. وبعد أن خسر «بوش» انتخابات الرئاسة التي جرت في نوفمبر ١٩٩٢، تراجعت قوة الدفع التي كانت تمنحها إدارته لمقولة النظام الدولي الجديد، خاصة وأن إدارة «كلينتون» التي أعقبت إدارة «بوش» لم تول هذا الموضوع اهتماماً كبيراً على مستوى الخطاب السياسي والإعلامي مثلاً كان الحال في عهد الإدارة السابقة^(١٣).

وثالثها، أنه مع مرور الوقت بدأت الفجوة تتسع تدريجياً بين مجموعة القيم والمبادئ السامية التي يستند إليها النظام الدولي الجديد حسياً ووجدت له إدارة «بوش»، وبين الحقائق والممارسات على أرض الواقع. ففي أعقاب كارثة الخليج الثانية وتفكك الاتحاد السوفيتي شهد العالم - ولا يزال - موجات من التوتر وعدم الاستقرار والحروب والصراعات. ويُلاحظ أن هذه الظواهر تتركز في الجنوب، وفي منطقة البلقان، وكذلك في وروثة الاتحاد السوفيتي وبعض بلدان أوروبا الشرقية. ومن هنا بدأ يتراجع مفهوم النظام الدولي الجديد، بل بدأ البعض يتحدث عن «اللاتظام الدولي الجديد» أو «الفوضى الدولية الجديدة»^(١٤).

وتعتمد الدراسة على عدد من الأساليب المنهجية لرصد وتحليل رؤى الفكر العربي لإزاء مقولة النظام الدولي الجديد، أهمها ما يلي :-

١ - أسلوب تحليل المضمون الكيفي لعدد من البحوث والدراسات والمقالات المرتبطة بموضوع الدراسة. ويركز هذا الأسلوب على رصد الملامح والاتجاهات العامة لرؤى الفكر العربي وتصورات إزاء النظام الدولي الجديد، دون أن يتخطى في الأساليب والتعقيدات الخاصة بتحليل المضمون الكمي.

٢ - الأسلوب المقارن. حيث تقارن الدراسة كلياً أمكن بين رؤى وتصورات التيارات الفكرية المختلفة إزاء القضية الرئيسية والقضايا الفرعية التي يعالجها البحث.

٣ - مقارنة الفكر بالواقع . وذلك لمعرفة إلى أي مدى يستند الفكر العربي في مواقفه حيال ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد إلى حقائق وتطورات واقعية . فإذا كانت هناك تيارات في الفكر العربي ترفض مقولة النظام الدولي الجديد أو تحتفظ بشأنها ، فهل هذا رفض لمجرد الرفض أو تمحفظ لمجرد إثبات الموقف ، أم أن مبررات واقعية تدعم من حججة هذا الموقف أو ذاك ؟ .

ثانياً : الجدل حول مفهوم النظام الدولي الجديد : هل هناك نظام دولي جديد؟

قد يكون من المنقذ قبل التطرق إلى رصد وتحليل الجدل الفكري والأكاديمي حول مفهوم «النظام الدولي الجديد» إلقاء الضوء على الجذور التاريخية لهذا المفهوم . فعلى الرغم من شيوع استخدام مفهوم «النظام الدولي الجديد» أثناء كارثة الخليج الثانية وفي أعقابها على نحو ما سبق ذكره ، إلا أن هذا لا يعني أن المفهوم جديد تماماً أو هو نتاج مباشر للكارثة ، بل الجديد في الأمر كان الاستخدام الأمريكي لهذا المفهوم وتحديد دلالاته وصياغة معانيه . ومرد ذلك أنه يمكن تتبع جذور هذا المفهوم منذ مطلع السبعينيات من هذا القرن على الأقل ، حين بدأت حركة عدم الانحياز تطالب بقيام نظام اقتصادي عالمي جديد يحقق قدراً من العدالة في توزيع الموارد والثروات بين دول الشمال المتقدم ودول الجنوب المتخلف ، ويحد من مظاهر استغلال ثروات دول الجنوب لحساب الشمال ، ويسمح بتوظيف موارد هذه الدول من أجل تنميتها وتدعيم قدرتها في الاعتماد الفردي والجماعي على الذات^(١٥) . وبعد ذلك بدأت بلدان الجنوب تطرح مطلب إقامة «نظام إعلامي عالمي جديد» يحد من ظاهرة احتكار الدول الغربية لمصادر المعلومات ولوسائل الاتصال ، ويحقق درجة أكبر من الديمقراطية والتوازن في تدفق المعلومات بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة^(١٦) .

هذا وقد تزايد استخدام مفهوم «النظام الدولي الجديد» منذ أن تولى جورباتشوف السلطة في الاتحاد السوفيتي (السابق) في عام ١٩٨٥ ، وتبنيه للبيرسترويكا (إعادة البناء) والجلاسنوست (المصارحة والمكاشفة) . وقد استندت البيرسترويكا إلى رؤية مبنية للنظام الدولي والعلاقات الدولية مفادها : المطالبة بإقامة تأسيس نظام دولي جديد يقوم على القيم الإنسانية العامة وليس على المواجهات والصراعات الأيديولوجية . وإعطاء الأولوية للتحديات المشتركة التي تواجه البشرية مثل مشكلات البيئة والتلوث وغيرها ، وذلك بقصد الحفاظ على الجنس البشري وسلامة البيئة . وتدعيم مجالات الحوار والتعاون الدولي والاعتماد المتبادل بين الدول والمنظمات الدولية وذلك لبناء مجتمع دولي أفضل . وتجنب استخدام القوة لنقض المزاومات بين الدول . وإحلال مبدأ توازن المصالح محل توازن القوى . ووقف سباق التسلح على المستوى العالمي . وقبول مبدأ التعدد والاختلاف في الأنظمة السياسية والاجتماعية واحترام حق كل شعب في اختيار الطريق الذي يلائمه^(١٧) .

وقد كان لتطبيق الجلانوسوت والبيرسترويكا دور هام في تحريك التحولات الكبرى التي جرت في الاتحاد السوفيتي السابق وفي بلدان أوروبا الشرقية - داخلياً وخارجياً - خلال النصف الثاني من الثمانينيات . وقد كان لهذه التحولات التي انتهت بانحلال الاتحاد السوفيتي وتفككه تأثيراتها واتكاساتها المدوية على الصعيد العالمي .

وتأسيساً على ما سبق ، يتضح أن مفهوم «النظام الدولي الجديد» قد ظهر إلى حيز الوجود في إطار مطالبة دول الجنوب بتصحيح الاختلالات والتفاوتات بين الشمال والجنوب على الصعيدين الاقتصادي والإعلامي . كما برز المفهوم أيضاً في إطار حركة الإصلاح والتغيير التي شهدتها الاتحاد السوفيتي (السابق) منذ وصول جورباتشوف إلى

الحكم. ولذلك فإن الجديد الذي حدث مع بداية أزمة الخليج الثانية هو تبني الولايات المتحدة الأمريكية للمفهوم وإعطائه معانٍ ودلالات تتضمن قياً ومبادئ سامية من ناحية، وشيوعه على نطاق واسع من ناحية ثانية. ومكنا بعد أن كانت دول الجنوب هي التي تطالب بنظام دولي جديد، أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تسعى لإرساء أسس هذا النظام وقواعده. وقد حلدها الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش في خطاب ألقاه في قاعدة مونتغمري الجوية في الألباما في ١٣/٤/١٩٩٢، حيث جاء في هذا الخطاب «إن النظام العالمي الجديد لا يعني تنازلاً عن سيادتنا الوطنية أو تخلياً عن مصالحنا. إنه ينم عن مسئولية أملتنا علينا نجاحاتنا. وهو يعبر عن وسائل جديدة للعمل مع الأمم الأخرى من أجل دفع العدوان وتحقيق الاستقرار والازدهار، وفوق كل شيء تحقيق السلام. إنه ينبع من الصلح إلى عالم يقوم على التزام مشترك بين الأمم، كبرها وصغرها، بمجموعة من المبادئ التي يجب أن تستند عليها علاقاتنا، ومنها: التسوية السلمية للمنازعات، والتضامن في وجه العدوان، وتحقیف ترسانات الأسلحة ومراقبتها، والتعامل العادل مع كل الشعوب... هذا النظام الذي يسم بالقدرة على العمل المشترك اجتاز الامتحان الحقيقي في حرب الخليج».

وعلى الرغم من أن هذه المعاني مثلت — بعد انتهاء كارثة الخليج الثانية — أحد ملامح الخطاب الرسمي الأمريكي المتعلق بالنظام الدولي الجديد، إلا أن التساؤل الجوهرى الذي يطرح نفسه هو: إلى أي مدى تم ترجمة هذه المبادئ والشعارات إلى سياسات وممارسات عملية في حركة الولايات المتحدة الأمريكية على المستوى الدولي؟. وإلى أي مدى يلتقي التصور الأمريكي للنظام الدولي الجديد — على مستوى الفكر والممارسة — مع طموحات وآمال بلدان الجنوب التي ضمنتها في الدعوة إلى «نظام اقتصادي عالمي جديد» و «نظام» إعلامي عالمي جديد؟.

وجدير بالذكر أن اهتمام الفكر العربى بالتطورات والتحولات الدولية سابق على كارثة الخليج الثانية. حيث ظهرت خلال حقبة الثمانينيات مجموعة من الكتابات العربية عالجت بعض متغيرات النظام الدولي، وصعى بعضها إلى استشراف مستقبل هذا النظام^(١٨). ولكن كارثة الخليج وما ترتب عليها من آثار وتداعيات أدت إلى تزايد اهتمام الباحثين والمفكرين العرب بإشكالية النظام الدولي من الناحية الكمية والكيفية.

ويستخدم المفكرون والباحثون العرب مجموعة من المفاهيم والمقولات لتوصيف التحولات والتغيرات التي تجري على الساحة الدولية، منها على سبيل المثال: النظام العالمى الجديد والنظام (نظام) دولي جديد، والوضع الدولي الجديد، والتحولات الدولية الجديدة، والمتغيرات الدولية الجديدة، وعالم متغير، وتغيير العالم، وبيئة دولية متغيرة، ومرحلة ما بعد الحرب الباردة، ومرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، والعولمة، وتحديات نهاية القرن، وترتيبات دولية جديدة، وعصر عالمي جديد، وظواهر عالمية جديدة.

وتدل كافة المفاهيم والتعبيرات السابقة على أن هناك اتفاقاً بين الباحثين والمفكرين العرب بشأن وجود تغيرات وتحولات كبرى تجري على الصعيد الدولي، نجم — وينجم — عنها بروز مجموعة من الظواهر والتحديات العالمية الجديدة، إلا أن الاختلاف بينهم يكمن في تكييف طبيعة هذه التحولات، وعلا إذا كانت تشكل في الوقت الراهن نظاماً دولياً جديداً أم لا؟. ولعل تفضيل بعض الباحثين العرب استخدام تعبيرات من قبيل: بيئة دولية متغيرة، وعالم متغير، وتحولات دولية جديدة...، إنها يدل على تحفظه بشأن استخدام

مفهومي «النظام العالمي الجديد» و«النظام الدولي الجديد» باعتبار أن كلاهما لا يزال موضع شد وجذب ولم يستقر بعد.

وهناك ثلاثة اتجاهات بخصوص الإجابة على التساؤل: هل هناك نظام دولي جديد في الوقت الراهن؟ أولاً، يقول بوجود نظام دولي جديد. وثانيها، ينفي وجود ما يعرف بالنظام الدولي الجديد. وثالثها، يرى أنه من السابق لأوانه الحديث عن نظام دولي جديد في الوقت الراهن. وأن هذا النظام لا يزال تحت التكوين أو قيد التشكل والتبلور، ومن ثم لم يستقر معله بصورة نهائية بعد.

وتعرض الدراسة لكل من الاتجاهات السابقة بشيء من التفصيل.

الاتجاه الأول: الإقرار بوجود نظام دولي جديد

قبل التطرق إلى رصد وتحليل المعطيات التي يستند إليها أنصار هذا الاتجاه، هناك مسألتان منهجيتان جديرتان بالانتباه. أولاً، التمييز بين مفهومي «النظام الدولي الجديد» و«النظام العالمي الجديد» فكثير من الكتابات العربية يخلط بين هذين المفهومين ويستخدمهما كمترادفين. وثانيها، أن التسليم بوجود نظام دولي جديد من قبل بعض المفكرين والباحثين العرب لا يعني الاتفاق بينهم بشأن تكييف هذا النظام من حيث طبيعته وأهدافه ومقاصده وآفاقه.

وفيما يتعلق بالتمييز بين مفهومي «النظام الدولي» و«النظام العالمي» يؤكد البعض أن الأول يقوم على أساس العلاقات والتفاعلات وأنماط توزيع مصادر القوة والنفوذ بين الدول القومية التي يتكون منها النظام، فالدولة القومية هي وحدة العلاقات والتفاعلات في النظام الدولي. أما النظام العالمي، فهو أكثر شمولاً من ذلك، حيث يضم إلى جانب الدولة القومية فاعلين آخرين مثل الشركات الدولية النشاط. والمنظمات الدولية غير الحكومية، والحركات أو الظواهر العابرة للقومية، وكل ما هو خارج عن سيطرة الدولة وله تأثير خارج حدودها، وهذا المعنى يعتبر النظام الدولي جزءاً من النظام العالمي. ولعل شيوع استخدام مفهوم «النظام العالمي الجديد» إنما يشير إلى زيادة العوامل والمتغيرات والظواهر التي تتخطى حدود القومية في الوقت الراهن^(١٩). وعموماً فإن أغلب الكتابات العربية لم تميز بشكل حاسم بين المفهومين، بل جرى العمل على استخدامهما كمترادفين في كثير من الحالات، وهو الأمر الذي جعل من الصعوبة بمكان التمييز بشكل واضح بين الكتابات العربية الخاصة بالنظام الدولي الجديد، خاصة وأن الأول يشكل جزءاً من الثاني.

ويجد أنصار هذا الاتجاه أهم خصائص النظام الدولي الجديد في: انتهاء الحرب الباردة. وازوال الاتحاد السوفيتي. وبروز دور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة في عالم ما بعد انتهاء الحرب الباردة. وتدعيم دور الأمم المتحدة باعتبارها تجسد الشرعية الدولية. وتنامي مجموعة من المشكلات والتحديات الدولية الجديدة التي تتطلب تعاوناً دولياً من أجل مواجهتها. منها وعلى سبيل المثال: مشكلات تلوث البيئة والإرهاب والمخدرات والأراض العابرة للحدود. وتراجع مكانة القوة العسكرية في إدارة العلاقات الدولية. وتزايد مشكلة القضايا الاقتصادية على أجندة الاهتمامات الدولية. واتساع نطاق التحول الديمقراطي على الصعيد العالمي. وتزايد حدة الاستقطاب بين الشمال والجنوب^(٢٠).

وهناك وجهتا نظر بين الباحثين والمفكرين العرب بخصوص تكييف طبيعة النظام الدولي الجديد. تركزت وجهة النظر الأولى، على بعض الجوانب والخصائص الإيجابية للنظام الدولي الجديد. يقول الدكتور محمد الرمحي «يتخلق اليوم نظام عالمي جديد له قواعد ونظم ومؤسسات وأهداف. ويصر العرب على التخلف عن هذا النظام... هذا النظام الجديد له قوانين مازال بعضها يرفضها بعنف... وعشية حرب تحرير الكويت وما بعدها نجد أن مجموعة من المفاهيم قد ولدت من بينها سقوط الأيديولوجية بأشكالها المختلفة وخاصة الشمولية وإنحدارها ويزوغ النظام العالمي الجديد والاعتراف بالتعددية وعصر حقوق الإنسان واتسار الليبرالية والديمقراطية على الشمولية والقطعية وصعود مفاهيم العلم والتقنية والاتصال»^(٢١).

ويلاحظ أن وجهة النظر هذه برزت في إطار الزخم السياسي والإعلامي الذي ارتبط بحرب تحرير الكويت. وكانت أكثر نمشياً مع الطرح الأمريكي الرسمي لمفهوم النظام الدولي الجديد. وقد بدأت وجهة النظر هذه تتراجع أمام تزايد المشكلات والتحديات التي واجهت الطرح المثالي لمقولة النظام الدولي الجديد وشككت في مصداقيته^(٢٢).

أما وجهة النظر الثانية، فتقر بوجود نظام دولي جديد. إلا أن أنصارها يتسندون المبادئ والأمس التي يستند إليها هذا النظام. فهو نظام دولي جديد ليس لأن مختلف دول العالم شاركت في صياغته بإرادتها الحرة، أو لأنه يأخذ مصالحها بعين الاعتبار، ولكن نظراً لأن قلة من الدول الغربية المسيطرة. صاحبة المصالح الدولية أو الكونية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية هي التي صاغت هذا النظام وتسعى لفرضه على دول العالم الأخرى. وهناك من يؤكد على أن الولايات المتحدة الأمريكية قد صممت النظام الدولي الجديد قياساً على مصالحها وأهدافها، وطرحته كشعار ضخم لخدمة سياستها في مناطق العالم المختلفة، خاصة بعد أن احتلت مكانة القوة العظمى الوحيدة بعد الانتصار الضخم الذي تحقق في حرب الخليج الثانية من ناحية، وانهيار الاتحاد السوفيتي من ناحية ثانية، كما يؤكد أنصار وجهة النظر هذه على أن النظام الدولي الجديد الذي تم الترويج له أثناء كارثة الخليج الثانية وفي أعقابها هو نظام استعماري، إمبريالي عدواني يسعى إلى إحكام عملية استغلال دول الجنوب واستعبادها وفرض الهيمنة والسيطرة عليها. وهو ما يغطي توجهاته الحقيقية تحت شعارات الشرعية الدولية وحقوق الإنسان والأهداف الإنسانية. وهناك من يؤكد على أن النظام الدولي الجديد يعادي الإسلام والمسلمين، ويتحكم إلى غطرسة القوة، وأن الهدف منه هو وأد مطالب شعوب دول الجنوب بإقامة نظام دولي جديد حقيقي يأخذ مصالحها وأهدافها بعين الاعتبار، ويضمن تحقيق العدالة والاستقرار والتوازن في العلاقات بين الدول.

وتجسد وجهة النظر هذه أنصاراً كثيرين لها بين المفكرين والباحثين الإسلاميين والقوميين واليساريين^(٢٣). وعموماً، فإن وجهة النظر الثانية هي التي أصبحت أكثر رواجاً، خاصة بعد أن بدأت المفجوة تسع تدريجياً بين القيم والمبادئ والشعارات التي طرحها مروجو النظام الدولي الجديد ودعائه من ناحية، وبين المراسم والحقائق على أرض الواقع من ناحية أخرى.

الانحياز الثاني: رفض مقولة النظام الدولي الجديد

ويضم هذا الانحياز راغبين. أولها، يقول بعدم وجود نظام دولي جديد، استناداً إلى حالة الفوضى وعدم الاستقرار والصراعات التي انتابت العالم في أعقاب انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، وهي لاتزال

مستمرة ويصعب معها الحديث عن نظام دولي بالمعنى المتعارف عليه لمفهوم النظام الدولي . فإذا كانت جملة التحولات الدولية الكبرى التي شهدتها العالم منذ منتصف الثمانينات قد قادت إلى انهيار النظام الدولي القديم أو بعض أركانه ، فإن النظام الدولي الجديد لم يولد بعد . وأن ما يحدث في العالم الآن هو أقرب إلى حالة من «القوضى الدولية الجديدة» أو «اللانظام الدولي الجديد» الذي سوف يلزم البشرية لبعض الوقت حتى يتم التوصل إلى ترتيبات دولية جديدة وترسيخها في صيغة نظام دولي جديد^(٢٤) .

أما الرافد الثاني ، فينظر إلى ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على أنه نوع من الخديعة والوهم . فعل الرغم من وجود متغيرات دولية جديدة ، إلا أن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد ليس جديداً في مضمونه أو أهدافه^(٢٥) . يقول أحد الباحثين : «أكدنا علاقة التماثل والاستمرارية بين النظام الدولي الإمبريالي القديم والنظام الدولي الإمبريالي الجديد . . ورغم أنه (أي النظام الجديد) يشكل استمراراً للقديم ، إلا أنه استمرار في عصر جديد له متطلبات جديدة»^(٢٦) .

ويقول باحث آخر : «إن تعبير النظام الدولي الجديد هو وهم آخر مفتعل . فالتعير في حقيقة مطابق حالة سيطرة حلف أحادي أوروبي أمريكي على مجريات اتخاذ القرار بشكل انتقائي وتطبيقه بشكل انتقائي في الهيمنة الدولية ، وذلك عوضاً عن السرية متعددة الأطراف . . هذا النظام الدولي لا يختلف عن النظم السابقة من حيث آلية اتخاذ القرار وإنما يختلف بعدم وجود تلك التعددية ذات المفارقات المتباينة بحكم وجود الاتحاد السوفيتي . . فهو ليس جديداً من ناحية النظام أو آلية القرار ، وليس جديداً من ناحية هيمنة الكبار . فالكبار كانوا يهيمنون بمن فيهم الاتحاد السوفيتي . انه جديد فقط من ناحية الهيمنة الأحادية (الحلف الأوربي/ الأمريكي) وهي هيمنة تحمل بلور فئتها من داخلها»^(٢٧) . ويضيف باحث ثالث ، إن هذا النظام الدولي الجديد ليس إلا تقنياً للأوضاع الدولية الموروثة عن الحرب العالمية الثانية مطروحاً منها شيئين هامين هما : الثورات الوطنية وحركات التحرر في العالم الثالث . غياب دور الاتحاد السوفيتي كطرف مؤثر في الصراع^(٢٨) .

وفي إطار هذا الاتجاه هناك من يرفض مقولة النظام الدولي الجديد ليس استناداً إلى حالة القوضى واللانظام التي تسود العالم في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة ، وليس انطلاقاً من النظر إلى النظام الدولي الجديد باعتباره نوعاً من الوهم والخديعة ، ولكن اقتناعاً بعدم وجود نظام عالمي جديد وآخر قديم ، فحقيقة الأمر تكمن في «ذلك التحول الذي يطرا على الخريطة السياسية للعالم في فترة معينة ليترجم على الواقع طبيعة التغير الذي حدث في مراكز القوى واستتب بالضرورة إعادة ترتيب الأوضاع الدولية وفقاً لذلك»^(٢٩) . وأشار كاتب آخر إلى أن «ما ظهر بعد انتهاء الحرب الباردة لم يكن نظاماً عالمياً جديداً ، وإنما كان أقرب إلى ترتيبات جديدة يستحدثها نظام عالمي قديم يمسد بها تأكيد دوره في ظروف متغيرة»^(٣٠) .

الاتجاه الثالث : النظام الدولي الجديد لأيزال قيد التشكيل

يؤكد أنصار هذا الاتجاه على أنه من السابق لأوانه الحديث عن نظام دولي جديد بالمعنى العلمي في الوقت الراهن . فهذا النظام لا يزال تحت التكوين ، حيث لم تستقر معالنه بصورة واضحة بعد . وسوف يكون هذا النظام من حيث شكله وطبيعته محصلة لجملة التحولات والتغيرات الدولية الكبرى التي شهدتها العالم منذ مطلع الثمانينات من هذا القرن .

عالم الفكر

ويعتبر أنصار هذا الاتجاه المرحلة الراهنة من تطور النظام الدولي بأنها مرحلة انتقالية تشهد اندثار بعض أسس وقواعد النظام الدولي القديم الذي تبلور في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية من ناحية، ويزوغ أسس وقواعد النظام الدولي الجديد من ناحية ثانية. وأن هذه المرحلة الانتقالية قد تستغرق بقية سنوات القرن العشرين، وربما بعض سنوات القرن الحادي والعشرين. ولذلك يفضل أنصار هذا الاتجاه استخدام تعبيرات من قبيل: نظام دولي متغير، وبنيّة دولية متغيرة، وترتيبات دولية جديدة، وضع عالمي جديد، عالم متغير، والنظام العالمي المربو. . . إلخ، (٣١).

وتسمى المرحلة الانتقالية التي يمر بها النظام الدولي في الوقت الراهن بحالة من السيولة الدولية، وما يكتنفها من غموض واضطراب ومظاهر لعدم الاستقرار. فهناك أولاً، السيولة الفكرية التي نجمت عن انهيار الأنظمة الاشتراكية في أوروبا الشرقية، وما ترتب على ذلك من قضايا وتساؤلات حول إشكالية هزيمة الاشتراكية والشيوعية وانتصار الليبرالية والرأسمالية. وهناك ثانياً، حالة السيولة العرقية التي تشهدا مناطق عديدة من العالم وقد كانت إحدى النتائج التي ارتبطت بالتحويلات الدولية الجديدة، وبخاصة في الاتحاد السوفيتي (السابق) وبقية بلدان أوروبا الشرقية. وهناك ثالثاً، حالة السيولة المرتبطة بالأمم المتفككة والاندماج في العالم المعاصر من ناحية، وبروز أنماط جديدة من الصراعات في الشرق والجنوب في ظل التغيرات الدولية الجديدة من ناحية ثانية (٣٢).

ولذلك، يركز أنصار هذا الاتجاه في الغالب على رصد التغيرات الدولية الجديدة التي تمثل الأساس لقيام نظام دولي جديد وتحليلها ومحاولة استشراف تطوراتها المستقبلية. ويتحفظ بعضهم كثيراً بخصوص إطلاق مقولة النظام الدولي الجديد على عوانها.

وينطلق أغلب أنصار هذا الاتجاه من نظرة واقعية إلى عمق التحولات التي حدثت - ونحدث - على الصعيد الدولي. وهي تحولات ألفت - ومستلقى - بتأثيراتها على العرب شاءوا أم أبوا، ومن ثم يتعين عليهم التعامل معها. وهي كما تفرض تحديات ومخاطر على العرب، فإن بعضها يتضمن فرصاً بالنسبة لهم ولو في حدود معينة. ومن هنا يركز أنصار هذا الاتجاه على أهمية الفهم الواعي للتحولات الدولية الجارية مع العمل على بلورة تصورات واستراتيجيات عربية واقعية وفعالة للتعامل معها من منطلق دره للمخاطر وتقليص القيود من ناحية، وتعميق الفرص التي يمكن أن تتيحها هذه التحولات للعرب من ناحية ثانية.

وتأميماً على ما سبق يمكن بلورة عدداً من الملاحظات الهامة:

أولاً، أن الفكر العربي يعاني من الحيرة والاضطراب في فهم التغيرات الدولية الجارية وتحليلها وطرح تصورات لكيفية التعامل معها. وللإلتصاف فإن هذه السمة ليست حكراً على الفكر العربي أو لصيقة به، بل ويعاني منها الفكر الغربي، الأوربي والأمريكي، أيضاً. وكما أن هناك رؤى وتصورات عربية متعددة ومتضاربة بشأن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد، فإن هناك أيضاً رؤى غربية متعددة ومتضاربة بشأنه (٣٣). ولعل ذلك يرجع إلى عدة عوامل من بينها: عمق التحولات الدولية وسرعة حدوثها وتداخلها. وهو الأمر الذي جعل بعض الباحثين أسرى للأحداث المتحركة، والتفاعلات الآتية غير المستقرة.

وثانيتهما، على الرغم من تعدد اتهامات الفكر العربي بخصوص مقولة النظام الدولي الجديد على نحو ماسبق ذكره، إلا أن هناك اتفاقاً عاماً بين الباحثين والمفكرين العرب على وجود متغيرات وتحولات دولية جديدة، جعلت العالم يتعد تدريجياً عن النظام الدولي السابق الذي تبلور في أعقاب الحرب العالمية الثانية. بل إن هذا النظام الذي استند إلى القطبية الثنائية قد انهار مع انهيار الاتحاد السوفيتي، وبذلك دخل العالم مرحلة جديدة، وهي التي يختلف المفكرون العرب حول توصيفها وتحديد ملامحها.

وثالثها، أن الاتجاه الغالب في الفكر العربي يقوم على رفض مقولة النظام الدولي الجديد أو التحفظ بشأنها، وذلك من منطلقات مختلفة. فهناك من يرى أن النظام الجديد ما هو إلا استمراراً للنظام القديم ولكن في ظل ظروف دولية جديدة. وهناك من يقول بأن النظام الدولي الجديد يعادي العرب والمسلمين، بل وبلدان الجنوب عامة. وهناك آخيراً من يرى أنه من الصعوبة بمكان الحديث عن نظام دولي جديد في الوقت الراهن، فهو نظام لا يزال تحت التكوين. وعموماً، فإن هذا الطرح الأخير يلقى قبولاً من قبل قطاع يعتد به من الباحثين والمفكرين العرب.

ثالثاً: مصادر التغيير في النظام الدولي: عوامل التحول إلى نظام دولي جديد

لقد اهتم الفكر العربي برصد وتحليل المتغيرات والتحوليات الدولية الكبرى التي مثلت مقدمات لتداعي النظام الدولي القديم، كما تمثل إرهابات لبروز النظام الدولي الجديد، الذي لا يزال قيد التشكيل والتبلور. وسوف نركز الدراسة على سبعة متغيرات وتحولات كبرى هي: الثورة الصناعية الثالثة. والتحوليات في الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوروبا الشرقية منذ عام ١٩٨٥. وانهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه. والاتجاه نحو إقامة التكتلات الاقتصادية الكبرى على الصعيد العالمي. وتقادم الأزمات في دول الجنوب. وزيادة حدة المشكلات ذات الطابع العالمي. وكارثة الخليج الثانية. ونظراً لأن كارثة الخليج الثانية مثلت منعطفاً هاماً في تطور النظام الدولي، فسوف نقردها الدراسة جزءاً خاصاً.

وقبل رصد وتحليل رؤى الفكر العربي وتصوراتها لكل من المتغيرات الدولية السابقة بشيء من التفصيل، هناك مجموعة من الملاحظات المنهجية التي يطرحها بعض الباحثين والمفكرين العرب للتعامل مع هذه المتغيرات^(٣٤).

أولى هذه الملاحظات، أن التغيير في النظام الدولي لا يحدث فجأة أو بلا مقدمات. بل أن التحول الذي يليه على السطح فجائياً عادة ما يكون محصلة لسلسلة من التراكبات والمتغيرات الجزئية التي حدثت عبر فترة زمنية طويلة نسبياً. وعلى سبيل المثال، فإنه يمكن تتبع جذور التحولات في الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوروبا الشرقية منذ منتصف الستينيات على الأقل. كما أن الثورة الصناعية الثالثة ولدت في رحم الثورة الصناعية الثانية. . . إلخ. ومن هنا تبدو أهمية النظرة المتعمقة في التحولات الدولية الجديدة بقصد الكشف عن جذورها، والعوامل المحركة لها، وأفاقها المستقبلية.

وثانيتهما، أن المتغيرات أو التحولات الدولية الجديدة تشير إلى ظواهر معقدة ومتداخلة، لها أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية. ومن هنا تبدو أهمية تناول هذه المتغيرات وتحليلها من منظور شامل يراعي حقيقة التداخل والترابط والتأثيرات المتبادلة فيما بينها من ناحية، وديناميات كل منها وخصوصياتها من ناحية ثانية.

وثالثها، أن بعض الظواهر والمتغيرات الدولية لم تستقر بصورة نهائية بعد، فهي لا تزال متحركة وتؤتي تأثيراتها وتفاعلاتها في سياق العملية التاريخية الكبرى التي تجرى في الوقت الراهن والتي تشهد انهيار النظام الدولي القديم و بروز نظام دولي جديد. ولذلك يجب التحوط بشأن إطلاق أحكام عامة على هذه الظواهر.

١- الثورة الصناعية الثالثة وانعكاساتها على النظام الدولي^(٣٥)

لاشك في أن كافة المتغيرات والتحويلات الدولية الكبرى التي تجري في الوقت الراهن، والتي تمهد الطريق لبروز نظام دولي جديد تتم في إطار ثورة صناعية ثالثة، تعتبر من المدخلات الهامة لتحديد طبيعة هيكل أو بنية النظام الدولي الجديد. وتتمثل بعض مظاهر هذه الثورة في: التقدم التكنولوجي الهائل في مجالات الاتصالات والغضاء والمعلومات والحاسب الآلي بأجياله المختلفة والإلكترونيات الدقيقة والهندسة الروائية. . . إلخ.

وتستند هذه الثورة إلى إنتاج العقل البشري المتدفق والإلهامي من الأفكار والمعرفة المكثفة، ولذلك فإن الاستمرار في أنشطة البحث والتطوير يعتبر من دعائمه الأساسية. وتأتي كل من اليابان والولايات المتحدة الأمريكية على قمة الدول للمسكة بزمام تلك الثورة، وتليهما في هذا المضمار بعض دول أوروبا الغربية، وإلى حد ما بعض الدول الصناعية الجديدة في شرق آسيا.

ولاشك في أن هذه الثورة - بإنجازاتها - يمكن أن تؤدي إلى إعادة تعريف عناصر قوة الدولة، فضلا عن إعادة تعريف بعض المفاهيم الرئيسية مثل: السيادة والأمن والحدود الدولية. . . إلخ. كما أنها سوف تعيد تشكيل بعض التوازنات الدولية القائمة، لما قد يترتب عليها من آثار متداخلة. وعلى سبيل المثال، فإنه في إطار الثورة الصناعية الثالثة هناك إمكانيات لتخليق واستحداث مواد جديدة تحمل عمل المواد الخام الطبيعية التي تستخدم في الصناعة، واستحداث محاصيل جديدة، وبدائل جديدة للطاقة، وكل ذلك يمكن أن يؤثر في القيمة الاستراتيجية لبعض الموارد الطبيعية التي تمتلكها بعض بلدان الجنوب. وهو الأمر الذي لابد وأن ينعكس في بعض جوانب العلاقات بين الشمال والجنوب. كما أنه قد ينجم عن هذه الثورة تدعيم سيطرة الدول الرأسمالية الغربية واليابان على النظام العالمي، باعتبارها الدول القائدة في هذه المجالات. هذا بالإضافة إلى احتمالات فتح آفاق جديدة للتعاون أو مجالات للتنافس بين تلك الدول.

ولما كانت الثورة الهائلة في مجالات الاتصالات والمعلومات تمثل بعداً هاماً في سياق الثورة الصناعية الثالثة، فإنه بدون شك سوف يكون لهذه الثورة تأثيراتها على صعيد نشر القيم والأفكار، وعدوى الأحداث والتطورات من مكان إلى آخر في مختلف أرجاء المعمورة، وبذلك تستطيع الدول التي تحسك بزمام هذه الثورة أن تنشر قيمها وأطرها الفكرية وتسيغ عليها طابعاً عالمياً، وهذا الأمر يثير العديد من التساؤلات حول الخصوصيات الثقافية والحضارية للشعوب ذات الهويات غير الغربية.

وبإيجاز، فإن الثورة الصناعية الثالثة سوف تؤدي إلى اتساع الهوة بين الشمال والجنوب، من ثم المساهمة في زيادة تهميش دول الجنوب، وبخاصة في ضوء عجز هذه الدول عن استيعاب تلك الثورة أو ملاحظتها أو التكيف مع خرجاتها وتداعياتها. كما أنها قد تساهم في إعادة صياغة العلاقات بين الدول الرأسمالية الكبرى على أسس جديدة من التعاون والتنافس، وأكثر من هذا فإن هذه الثورة ستعيد تشكيل خريطة

العلاقات السياسية والاجتماعية داخل بعض الدول، ومن هذا المنطلق فسر البعض الأحداث الشهيرة التي شهدتها لوس أنجلوس ومدن أمريكية أخرى في نهاية إبريل ومطلع مايو ١٩٩٢، بزيادة معاناة السود من جراء الأزمة الاقتصادية التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي، وذلك نظراً لانعدام أو ضعف قدرة نسبة كبيرة منهم على الانخراط في الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالثورة الصناعية الثالثة لما تتطلبه من مهارات وقدرات عالية لاتوافر لديهم.

٢- التحولات في الاتحاد السوفيتي (السابق) وبقية بلدان أوروبا الشرقية

لا يتسع المجال للدخول في تفاصيل عن جذور هذه التحولات ودينامياتها. فهي وإن كانت قد بدأت بصورة متسارعة مع تولي «جورباتشوف» السلطة في الاتحاد السوفيتي (السابق) عام ١٩٨٥، إلا أنه يمكن تتبع جذورها في فترات تاريخية سابقة عن ذلك. وقد مثلت سياسات «البريسترويكا» و«الجلاسنوست» اللتين طرحهما «جورباتشوف» قوة الدفع للتحولات في بقية بلدان أوروبا الشرقية على المستويين الداخلي والخارجي.^(٣٦)

وجدير بالذكر أن تبني جورباتشوف للبريسترويكا قد جاء كمحاولة لمواجهة الأزمة البنائية التي بدأ الاتحاد السوفيتي (السابق) يواجهها منذ منتصف السبعينيات على الأقل. وهي أزمة شاملة ذات أبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. وجسدت هذه الأزمة ضعف قدرة النظام الاشتراكي على التكيف مع المتغيرات المستجدة على الصعيدين الداخلي والخارجي. وقد عرض «جورباتشوف» في مؤلفه الشهير «البريسترويكا» لبعض مظاهر هذه الأزمة بصورة تفصيلية. ونظراً للطبيعة الارتباط التاريخي والسياسي والأيديولوجي بين الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوروبا الشرقية من ناحية، ونظراً لأن مظاهر الأزمة في بلدان أوروبا الشرقية كانت قريبة من تلك التي كانت قائمة في الاتحاد السوفيتي عشية تولي جورباتشوف السلطة، فإن تطبيق البريسترويكا في الاتحاد السوفيتي قد ساهم في تسريع التحولات السياسية والاقتصادية في بقية بلدان أوروبا الشرقية.

وقد ترتب على التحولات السياسية والاقتصادية والثقافية التي جرت في الاتحاد السوفيتي وبقية دول أوروبا الشرقية منذ منتصف الثمانينيات انبهار الأنظمة الشيوعية في هذه الدول— وهي أنظمة كانت تتمحور حول الحزب الواحد والأيدولوجية المغلفة والدور المركزي للدولة— وانحائها إلى تبني أشكالاً من التعددية السياسية والاقتصاد الحر. وبذلك دخلت الأنظمة الشيوعية في هذه الدول حيز التاريخ. كما ترتب على هذه التحولات تحلل الميكانس التنظيمية للكتلة الاشتراكية سابقاً، وهي الكوميكون وحلف وارسو. وعلى الصعيد الخارجي اتجهت هذه البلدان إلى الاندماج في النظام الرأسمالي العالمي والسعي إلى الاشتراك في المؤسسات الاقتصادية والمالية الدولية.^(٣٧)

كما أدت التحولات في الاتحاد السوفيتي السابق وبقية بلدان أوروبا الشرقية إلى انتهاء المواجهة الاستراتيجية بين القوتين العظميين، وبالتالي تم وضع نهاية للحرب الباردة بمعناها التقليدي. وقد تجلّى ذلك في سلسلة المحادثات والاتفاقيات التي عقدت بين الجانبين بشأن ضبط السلاح والحد من التسلح. فضلاً عن الاتفاق بينهما بشأن فتحه بعض الصراعات الإقليمية وتسوية بعضها الآخر.^(٣٨) ومن المؤكد أن هذه الترتيبات قد

عالم الفكر

تمت بتقديم تنازلات سوفيتية في معظم الحالات . وهو الأمر الذي بدأ يجسد حقيقة تراجع دور الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى على الصعيد العالمي لحساب تصاعد دور الولايات المتحدة الأمريكية .

وعلى الرغم من اتجاه بلدان أوروبا الشرقية إلى تبني أشكالاً من الديمقراطية الليبرالية والاقتصاد الحر ، إلا أن الأوضاع في هذه الدول لم تستقر بعد ^(٣٩) . فهي تسعى لإنجاز التحول السياسي والاقتصادي وسط مجموعة من التحديات الكبرى على الصعيدين الداخلي والخارجي . فالديمقراطية لم تتجذر بعد في هذه الدول ، بل إن إمكانات التراجع عن الديمقراطية في بعضها لا تزال مفتوحة . وتعتبر المشكلات الاقتصادية من التحديات الأساسية التي تواجه هذه الدول وهي في مرحلة التحول . فهي تعاني من ضعف مقومات الانتقال نحو اقتصاد السوق ، خاصة وأن معظمها لم يحقق تقدماً ملموساً على صعيد مواجهة المشكلات الاقتصادية القائمة منذ عام ١٩٨٥ . كما أنها غير قادرة على إقامة التوازن بين تبني آليات السوق من ناحية وتخفيض برامج الضمان الاجتماعي من ناحية أخرى .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن التحولات في الاتحاد السوفيتي (السابق) وبقية بلدان أوروبا الشرقية قد ساهمت في اتبعات مشكلة القوميات داخل بعض هذه الدول من ناحية وفيها بينها من ناحية أخرى . وقد كانت هذه المشكلة أحد العوامل التي ساهمت في تفتت الاتحاد السوفيتي (السابق) ، ويوغسلافيا (سابقاً) ، وهناك دول أخرى مهددة بالتفتت الداخلي . كما كانت هذه المشكلة عاملاً لتضجر صراعات إقليمية بين بعض هذه الدول ^(٤٠) .

٣- انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه

في أعقاب انقلاب أغسطس ١٩٩١ الفاشل ضد جورباتشوف دخل الاتحاد السوفيتي كدولة وككيان سياسي مرحلة التفكك والانهيار بصورة سريعة ، وذلك على أثر اتجاه جمهورياته نحو الاستقلال وقيامها بتشكيل رابطة الكومنولث الجديد على أنقاض الدولة القديمة .

هذا وقد فسر بعض الباحثين والكتاب عملية انهيار الاتحاد السوفيتي بعدد من العوامل منها : وجود بعض المشكلات وجوانب القصور التي شابت إدارة جورباتشوف لعملية التحول السياسي والاقتصادي في الاتحاد السوفيتي ، وقد ترتب عليها استمرار شبح الأزمة الاقتصادية غيباً على الاتحاد السوفيتي من ناحية ، واختلال الصيغة التوازنية الداخلية التي اتبناها جورباتشوف حيال التيار المحافظ الذي ظهر على يساره وبدأ يعارض إصلاحاته من ناحية ، والتيار الليبرالي الذي ظهر على يمينه ، وطلبه بإدخال إصلاحات جذرية في زمن قياسي من ناحية أخرى ، حيث عبر جورباتشوف عن تيار ثالث بين هذين التيارين وهو التيار الإصلاحى المعتدل . وعندما سعى جورباتشوف لتوجيه ضربة للجنح المحافظ الذي كان بعض رموزه يتولى قيادة الجيش والداخلية والمخابرات العامة ، وقع الانقلاب الفاشل الذي عجل بانهيار الاتحاد السوفيتي ^(٤١) .

ولاشك في أن تقاسم مشكلة القوميات في الاتحاد السوفيتي كان من العوامل الهامة التي سهلت عملية تفككه وانهياره . فالالاتحاد السوفيتي السابق كان يشكل إمبراطورية مترامية الأطراف تضم العديد من القوميات واللغات والأجناس التي لم تكن متشابهة من حيث التاريخ والثقافة واللغة والأوضاع الاجتماعية . وقد ضمت بعض هذه القوميات أو أجزاء واسعة منها للإمبراطورية الروسية قسراً في القرن الثامن عشر . وقد شهدت

الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن عمليات واسعة للتجهيز القسري للسكان من مناطقهم الأصلية إلى مناطق أخرى، فضلا عن عمليات الاقتطاع الأخرى من بعض الأقاليم وضمها إلى أقاليم أخرى في عهد ستالين، علاوة على السعي لفرض سياسات «الترويس» بقصد نشر الثقافة واللغة الروسية على حساب اللغات واللغات الأخرى.

ومع تولي «جورباتشوف» السلطة في الاتحاد السوفيتي وانحيازه لتطبيق الجلاسنوتس والبيرسترويكا، بدأت صحوة القوميات في الاتحاد السوفيتي. وقد بدأت هذه الصحوة بالمطالبة من قبل بعض الجمهوريات الاتحادية بتغليب اللغات القومية على لغة الاتحاد، وتطورت إلى المطالبة بضرورة إخراج الروس وبناء القوميات الأخرى، وانتهت بتحقيق الاستقلال والسيادة (٤٢).

هذا وتواجه رابطة الدول المستقلة منذ تأسيسها على أنقاض الاتحاد السوفيتي السابق، مجموعة من المشكلات والتحديات الكبرى التي تجعل منها كيانا هشا غير مستقر. فهناك أولاً، مشكلة عدم وضوح طريق التطور السياسي والاقتصادي أمام دول الرابطة في المستقبل. فبإستثناء بعض المقولات والشعارات العامة حول الديمقراطية الليبرالية والتعددية السياسية، فإن البرامج المطروحة لبناء نظم ديمقراطية واقتصادات حرة تبدو ضعيفة وهشة. وهناك ثانياً، جملة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية وما يترتب عليها من توترات سياسية. وهناك ثالثاً، تضام في مشكلة القوميات داخل بعض دول الرابطة وذلك بالدرجة التي أصبحت تهدد كيانات الدول في بعض الحالات. كما أن ضعف المساعدات الاقتصادية التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية إلى ورثة الاتحاد السوفيتي ساهم في تضام مشكلات هذه الدول. وهناك رابعاً، الاختلافات والتناقضات القائمة بين دول الرابطة، وقد وصلت في بعض الحالات إلى حد الاقتتال المسلح كما هو الحال بالنسبة للصراع بين أرمينيا وأذربيجان حول إقليم ناجورنو - كاراباخ. كما أن بعض دول الرابطة تتخوف من احتمالات السيطرة الروسية.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن هناك مشكلات أخرى تواجه دول الرابطة منها: مشكلة الوحدة والتعدد في القوات المسلحة لهذه الدول. ومشكلة التداخل والترابط بين اقتصادات هذه الدول ومرافقها. فضلاً عن بعض مشكلات الحدود التي يمكن أن تتجذر في المستقبل... إلخ (٤٣).

وهكذا، تبدو رابطة الدول المستقلة كياناً هشاً لم تستقر مؤسساته ودعائه بعد، بل هي تواجه العديد من المشكلات والتناقضات القائمة والمحتملة بين أعضائها، وهو الأمر الذي يحد من شوب حروب بين بعض الدول الأعضاء في المستقبل. ولذلك فمن غير المتوقع أن تصمد الرابطة طويلاً، وإن صمدت لبعض الوقت فمن غير المتوقع أن تستمر بالفعالية.

وقد كان للانهيار الحاد والسريع للاتحاد السوفيتي تأثيراته البالغة على صعيد التوازن الدولي والتوازنات الإقليمية في مناطق عديدة من العالم. فعلى الصعيد الدولي أدى الانهيار السريع للاتحاد السوفيتي إلى تدشين مركز الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة في عالم ما بعد الحرب الباردة. ومن ثم أخذت على عاتقها مهمة إعادة صياغة النظام الدولي بالشكل الذي يضمن مصالحها في المقام الأول.

أما على المستويات الإقليمية، فقد فقدت بعض دول الجنوب الدعم الاستراتيجي والمساندة السياسية التي

٢-١-٢ عالم الفكر

كانت تتلقاها من الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى موازنة للولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي أصبح هامش المناورة وحرية الحركة أمام هذه الدول محدوداً. كما أن غياب الاتحاد السوفيتي كمصدر للخطر والتهديد أفسح المجال أمام بعض دول المجموعة الأوربية واليابان لإعادة صياغة علاقاتها بالولايات المتحدة على أسس جديدة. فحاجة هذه الدول إلى مظلة الحماية النووية الأمريكية لم تعد قائمة كما كان الحال في ظل وجود الاتحاد السوفيتي كمصدر للخطر والتهديد.

٢-١-٣ الاتجاه نحو إقامة التكتلات الاقتصادية الكبرى

ويعتبر تنامي هذه التكتلات من الظواهر الهامة على الصعيد الدولي لما يمكن أن تتركه من تأثيرات على مستقبل الاقتصاد العالمي من ناحية. وعلى العلاقات والتفاعلات فيما بين الدول الرأسمالية من ناحية ثانية. ومن أبرز هذه التكتلات^(٤٤): مشروع أوروبا ١٩٩٢ وما يرتبط به من تطورات على صعيد تحقيق الوحدة الاقتصادية والسياسية بين دول المجموعة الأوربية في المستقبل. وقد شكلت معاهدة ماستريخت نقطة تحول هامة في تطور الجماعة الأوربية. وهناك أيضاً التجمع الاقتصادي الباسيفيكي الذي تقوم اليابان بالدور الرئيسي في تشكيله. أضف إلى ذلك منطقة شال أمريكا للتجارة الحرة، وهي تضم إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية كلاً من كندا والمكسيك.

وتعكس هذه التكتلات درجة عالية من كثافة الاعتماد المتبادل وتقسيم العمل والاستثمارات والتجارة وأنواع التبادل الأخرى. وعلى الرغم من وجود مجالات للتنافس بينها، إلا أن البعض يؤكد على أنه من غير المتوقع أن تكون بينها صراعات حادة نظراً لمنظومة القيم الرأسمالية التي تستند إليها هذه التكتلات، إلى جانب ارتباطها معاً بشبكة معقدة من علاقات التبادل التجاري والمالي والاستثماري. فضلاً عن الروابط التي أوجدتها الشركات متعددة الجنسية بين هذه التكتلات.

وقد اهتم بعض الباحثين والمفكرين العرب بدراسة ظاهرة التكتلات الاقتصادية والبحث في مشكلاتها الداخلية وأنماط العلاقات والتفاعلات فيما بينها، وأفاقها المستقبلية. وفي هذا يلاحظ أن هناك تركيزاً واضحاً على مشروع أوروبا ١٩٩٢، نظراً لاعتبارات عديدة منها: القرب الجغرافي بين الوطن العربي وأوروبا. وعمق الروابط التاريخية والسياسية بين الجانبين. فضلاً عن أن مشروع أوروبا ١٩٩٢ سيكون في حالة اكتماله هو الأكثر تأثيراً على العرب من الناحية الاقتصادية والمالية والاستثمارية وحركة العمالة... إلخ.

٢-١-٤ تفاقم الأزمات في دول الجنوب

لقد كانت تجارب ومحاولات التنمية في أغلب دول الجنوب خلال عقد الثمانينيات متعثرة، بل إنه في بعض الحالات حدث تراجع عن بعض الإنجازات التي تحققت خلال فترات تاريخية سابقة^(٤٥). ومن أبرز المشكلات والأزمات التي تصاعدت في دول الجنوب خلال عقد الثمانينيات: مشكلة الهوية والتكامل القومي. وقد ترتب عليها تصاعد الصراعات ذات الطابع القومي والعرقي والإثني في عديد من الدول. بل إن هناك دولاً أصبحت مهددة بالفتن من الداخل. وهناك أيضاً أزمة التنمية الاقتصادية وسوء الأداء الاقتصادي. وقد عرفت بعض الدول المجاعات وظلت دول أخرى قريبة منها. أضف إلى

ذلك مشكلات عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي بفضل تزايد حدة التناقضات والاختلالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية داخل بعض الدول من ناحية، وانخراط دول أخرى في مواجهات مسلحة ضد بعضها البعض من ناحية ثانية. كما أن الهياكل والمؤسسات التنظيمية لدول الجنوب عانت بصفة عامة من الهشاشة وضعف الفاعلية.

وفي ضوء كافة الأزمات والمشكلات التي تعاني منها دول الجنوب، والتي تجسد عمق الفجوة التي تفصل الجنوب المتخلف عن الشمال المتقدم، يصبح من المشروع التساؤل عن موقع دول الجنوب في ظل ترتيبات ما يعرف بالنظام الدولي الجديد.

٦- زيادة حدة المشكلات ذات الطابع العالمي

وقد برز أغلب هذه المشكلات كأثار جانبية لاتساع الفجوة بين دول الشمال ودول الجنوب من ناحية، وللتقدم التكنولوجي والصناعي الهائل من ناحية أخرى. وهي في معظمها مشكلات عابرة للحدود القومية، أي ذات طابع عالمي وبالتالي لا يمكن مواجهتها إلا من خلال التعاون والتنسيق بين مختلف دول العالم. ومن هذه المشكلات على سبيل المثال: مشكلة التلوث التي امتدت إلى مختلف عناصر البيئة، ومشكلات الإشعاع الذري ومخاطره، ومشكلة احتمال نضوب الموارد الطبيعية، ومشكلات الإرهاب والمخدرات، وبعض الأمراض المنتشرة كالإيدز وخلاها... الخ. وهكذا. فإن هذه المشكلات تشكل أو يجب أن تشكل مجالات للتعاون الدولي في ظل الأوضاع العالمية المتغيرة. فليس بمقدور دولة - أو عدد محدود من الدول - أن تواجه هذه المشكلات بمفردها.

رابعاً: كارثة الخليج الثانية وتدشين مقولة النظام الدولي الجديد

لقد تابعت مواقف المتفكرين العرب تجاه أزمة الخليج الثانية. وقد ظهرت في هذا الإطار عدة دراسات رصدت هذه الظاهرة وحللت خلفياتها وأبعادها^(٤٦). وقد امتدت ظاهرة الانقسام بين الباحثين والمفكرين العرب لتشمل علاقة أزمة الخليج بها يعرف بالنظام الدولي الجديد. وفي هذا السياق، تبلور اتجاهان بارزان في الفكر العربي، نظر أولهما، إلى الأزمة باعتبارها مدخلا لحلق نظام عالمي جديد يقوم على أساس احترام قواعد الشرعية الدولية، وتدعيم دور الأمم المتحدة في إدارة العلاقات بين الدول، والالتزام بمبادئ احترام السيادة الإقليمية للدول، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية. والالتزام بالديمقراطية كنظام سياسي واحترام حقوق الإنسان^(٤٧).

أما ثانيهما، فقد نظر إلى الأزمة باعتبارها مدخلا لتمكين الولايات المتحدة الأمريكية من فرض سيطرتها على العالم، وذلك من خلال إحكام سيطرتها على النفط العربي، وإجهاض كافة عناصر القوة التي تمتلكها بعض الدول العربية والتي قد تمكنها من تحقيق التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل. كما أن هذه الأزمة جسدت معاني سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على الأمم المتحدة وتوظيفها لحساب ومصالح حلفائها^(٤٨).

وبغض النظر عن الجدل بين أنصار كل من الاتجاهين السابقين، فقد سبق القول بأن أزمة الخليج الثانية التي تفجرت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ على أثر احتلال العراق لدولة الكويت وما ترتب على ذلك من

آثار، مثلت أول تحدٍ حقيقي لبعض مقولات وأسس النظام الدولي الجديد حسيما تصوره الولايات المتحدة الأمريكية، كما مثلت في الوقت نفسه مدخلاً لتثبيت بعض أسس وقواعد هذا النظام. فقد تفجرت الأزمة في فترة الوفاق الدولي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، كما أنها حدثت في سياق تحولات وتغيرات كبرى على صعيد أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية، وكذلك على صعيد الوطن العربي. ومن هنا، مثلت عمكا لاختبار علاقات الوفاق بين الشرق والغرب من ناحية، ولقدرة دول الجماعة الأوربية على ممارسة دور سياسي أكثر استقلالية عن الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية ثانية. كما أنها مثلت مدخلاً لتعميق اعتقاد بعض الأقطار العربية على الحارج من ناحية ثالثة.

وليس المهدف من هذا الجزء هو رصد وتحليل مواقف الأطراف الدولية الأساسية من الأزمة، حيث إن هناك العديد من الدراسات التي قامت برصد هذه المواقف وتحليلها^(٤٩)، لكن المهدف هو تحليل دلالات أزمة الخليج الثانية وانعكاساتها على النظام الدولي من منظور ثلاثي النظام القديم و بروز النظام الدولي الجديد.

وفي هذا الإطار أثار الفكر العربي مجموعة من النقاط الهامة: أولها، أن الأزمة وضعت النظام الإقليمي العربي في مواجهة النظام الدولي، وقد تمكن الأخير، بفضل التحرك النشط من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في تشكيل التحالف العسكري والسياسي الدولي المضاد للعراق، من تثبيت دعائمه، بينما عانى الثاني من الانقسام والغرض والتبعثر، حتى أن البعض راح يتحدث عن نهاية النظام الإقليمي العربي.

وثانيها، أن الأزمة وضعت الدولة الساعية لممارسة دور قيادي على المستوى العالمي (الولايات المتحدة الأمريكية) في مواجهة الدولة الساعية لممارسة دور قيادي على المستوى الإقليمي (العراق). وقد مكنت نتائج المواجهة السياسية والعسكرية مع العراق، الولايات المتحدة من الترويج لدورها باعتبارها القوة العظمى الوحيدة القادرة على صياغة النظام الدولي الجديد وحمايته^(٥٠).

وثالثها، أن الانتصار الكاسح الذي حققته قوات التحالف على العراق أدى إلى تدعيم مركز الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القوة العظمى الوحيدة بالمعنى الاستراتيجي في عالم ما بعد الحرب الباردة. فهي من ناحية أولى، تخلصت من عقدة فيتنام. ومن ناحية ثانية، دعمت نفوذها في منطقة الخليج، وهو الأمر الذي يدعم من مركزها في مواجهة أية قوى كبرى منافسة أو قد تكون كذلك في المستقبل، وبخاصة أوروبا الغربية واليابان. ومن ناحية ثالثة، فإن الأزمة كشفت عن استمرار علاقات الوفاق بين الشرق والغرب من جانب، حيث اتفقت الدولتان العظيمتان بشأن إدانة العراق والتأكيد على ضرورة انسحابه من الكويت دون قيد أو شرط. كما أن الأزمة أكدت استمرار تراجع دور الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى على الصعيد العالمي من جانب آخر، فعلى الرغم من بروز اختلافات بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بصدد بعض جوانب الأزمة في بعض مراحلها، إلا أنه لم يستطع في نهاية الأمر إملاء موقف مخالف للتصور الأمريكي^(٥١).

كذلك فإنه على الرغم من وجود بعض الاختلافات في وجهات النظر فيما بين عدد من دول الجماعة الأوربية بشأن بعض أبعاد الأزمة، وكذلك وجود جوانب للخلاف بين بعض هذه الدول والولايات المتحدة الأمريكية، وبالذات فيما يتعلق باستخدام القوة المسلحة لإنهاء الأزمة، إلا أن الأزمة كشفت عن محدودية قدرة دول الجماعة على ممارسة دور دولي مستقل على صعيد السياسة الخارجية، وذلك نتيجة للاختلافات فيما

بينها من ناحية، ونتيجة للقيود التي فرضتها الولايات المتحدة على الدول الأوروبية من ناحية ثانية. وهكذا يبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية لعبت دوراً هاماً في تحديد مواقف الدول الأخرى وأدوارها، وقد استخدمت في سبيل ذلك العديد من الأساليب الضغط والتأثير على هذه القوى، وهو الأمر الذي دعم من مكانة الولايات المتحدة كقطب واحد على المستوى الاستراتيجي^(٥٢).

وربما، أن الأزمة ارتبطت بمتغير حساس وهام، وبالذات في ضوء المتغيرات الدافعة إلى قيام نظام دولي جديد، وهو النفط. ومن المؤكد أن أحد مبررات التحرك السريع للولايات المتحدة حيال الأزمة هو الحيلولة دون هيمنة العراق على نفط الخليج، لأن هذا معناه زعزعة استمرار تدفق النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية واليابان، خاصة وأن المنطقة العربية تحتوي على حوالي ٦٢٪ من الاحتياطي العالمي للنفط. ولاشك في أن بروز الدور الأمريكي في منطقة الخليج من شأنه تدعيم مركز الولايات المتحدة كقطب واحد على الصعيد الدولي في المستقبل المنظور، فدورها في الخليج وسيطرتها ولو غير المباشرة على النفط تمثل أحد المدخل لإعادة صياغة علاقاتها بأوروبا الغربية واليابان على أسس جديدة.

وخامستها، ما ظهر خلال أزمة الخليج الثانية من بروز للدور الأمم المتحدة، وقد تجسد ذلك في سلسلة القرارات التي أصدرها مجلس الأمن، والتي أعطت الشرعية الدولية لتحرك التحالف الدولي ضد العراق، ومن هذا المنطلق أصبح من المشروع التساؤل عن حدود فعالية دور الأمم المتحدة في مواجهة الحالات والأزمات الأخرى التي تتضمن خرقاً للشرعية الدولية.

وسادستها، أن الأمة كشفت عن بعض جوانب الضعف الداخلي في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تثير العديد من التساؤلات حول قدرتها على تحمل تبعات دور عالمي نشط. ومن أبرز هذه الجوانب: أزمة الاقتصاد الأمريكي، وهو الأمر الذي دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى البحث عن مساهمات عينية ومالية من الدول الأخرى لتمويل الحرب في الخليج، وقد استخدمت العديد من الأساليب لتحقيق هذا الهدف. وسابقتها، أن أزمة الخليج مثلت مناسبة لإشهار الثورة الصناعية الثالثة ونمسيده بعض تطبيقاتها، وبخاصة في مجالات السلع والمراقبة والإنذار، وكذلك في مجالات المعلومات والاتصالات، حيث استطاعت شبكة CNN أن تغطي وقائع الحسب بصورة حية ومباشرة. وهذا وقد ساهم الاستخدام الكثيف لتكنولوجيا الثورة الصناعية الثالثة في تقليص زمن الحرب، وتخفيض الخسائر البشرية إلى أقصى حد ممكن. وبفضل ذلك فقد تفجرت في أعقاب الحرب قضية هامة، كانت مثارة من قبل على أجندة العمل الدولي وهي قضية البيئة ومشكلاتها، وبخاصة في ضوء كارثة آبار النفط في الكويت^(٥٣).

خامساً: الجدل حول هيكل أو بنية النظام الدولي الجديد *

ثمة شبه اتفاق بين قطاع يتعد به بين الباحثين المتفنيين العرب على أن النظام الدولي يمر في الوقت الراهن بمرحلة انتقالية، تعتبر حالة السيادة الدولية سميتها الرئيسية. كما تسم هذه المرحلة الانتقالية ببرز دور

* اعتمد الباحث في إعداد هذا الجزء على دراسة سابقة له بعنوان: "النظام الدولي الجديد ومستقبل المعاركات في العالم الثالث". وقد نُشرت الدراسة على ثلاث حلقات في صحيفة البيان بتاريخ ٢١، ٢٢، ٢٨ أبريل ١٩٩٢.

عالم الفكر

الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة في العالم. وثمة خلاف في الرأي حول حدود الاستمرارية الزمنية لهذا الدور وإن كان التيار الغالب هو الذي يرجح بأن هذا الدور مؤقت ولن يستمر طويلاً.

ويقصد ببنية أو هيكل النظام الدولي الجديد تراتبية العلاقات بين الدول الرئيسية في النظام الدولي، طبقاً لنمط توزيع الموارد والقدرات الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية بينها، وقد عرفت الإنسانية في العصر الحديث عدة نماذج لقيادة النظام الدولي هي: نظام القطب الواحد، ونظام القطبية الثنائية، ونظام تعدد الأقطاب وبخصوص الهيكل المتوقع للنظام الدولي الجديد هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية في الفكر الغربي:

الاتجاه الأول، وعمره الانتقال نحو نظام القطب الواحد بزعماء الولايات المتحدة الأمريكية، ويقدم أنصار هذا الاتجاه مجموعة من الحجج والمسوغات لتأكيد وجهة نظرهم، أهمها مايلي^(٥٤):

١- أن اختيار الاتحاد السوفيتي وتفككه، وإنفاس دول «رابطة الكومنولث» بما فيها روسيا الاتحادية في همومها ومشكلاتها الداخلية من ناحية، وفي الصراعات الإقليمية فيما بينها من ناحية أخرى، كل ذلك أفسح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية لتهارس دورها كقوة عظمى وحيدة على الصعيد الدولي، وبخاصة في ضوء احتفاظها بالقوى العسكرية النووي على هذا الصعيد.

٢- أن أباً من القوى المؤهلة للعب أدوار أساسية في النظام الدولي الجديد، وأهمها اليابان والجماعة الأوربية، لا تتمتع في الوقت الراهن كل مقومات القطب الدولي الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية، فضلاً عن التصور الاستراتيجي العالمي والسياسة الكونية، كما أنه من غير المتوقع امتلاكها لكل هذه المقومات في المستقبل المنظور، فكل من اليابان والجماعة الأوربية قوة عظمى بالمعيار الاقتصادي (على الرغم من أن مشروع أوروبا ١٩٩٢ لم يكتمل بصورة نهائية بعد)، أما من حيث القدرة العسكرية التي تعتبر مقوماً أساسياً للقطب الدولي فالمعروف أن اليابان لا تنتج الأسلحة النووية ولا تسمح بدخولها إلى الأراضي اليابانية، كما أن هناك قيوداً دستورية على إنفاقها الدفاعي، أما القدرات النووية لدول أوروبا الغربية مجتمعة فتعتبر محدودة عند مقارنتها بقدرات الولايات المتحدة الأمريكية في هذا المجال.

٣- أن الدور السياسي والعسكري والاستراتيجي الذي قامت به الولايات المتحدة في أزمة الخليج الثانية، قدم حجة قوية لأنصار هذا الاتجاه حيث ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية خلال الأزمة وما بعدها باعتبارها الدولة القادرة على صياغة وترسيخ النظام الدولي الجديد، والأكثر قدرة على الفعل والحركة وبما يضمن الضغط والتأثير. ومن هذا المنطلق اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية أزمة الخليج كبوابة لتثبيت بعض دعائم النظام الدولي حسبما تراه، ولتحلّص احتمالات تبلور نظام متعدد الأقطاب تكون فيه الولايات المتحدة الأمريكية قطباً مساوياً لغيره، وليست قطباً وحيداً مسيطراً^(٥٥). فهي من ناحية أولى، أظهرت لحلفائها الغربيين أهمية القدرة العسكرية في حماية مصالح هذه الدول، كما أن سيطرتها.. ولو غير المباشرة.. على النفط في المنطقة تدعم من مركزها إزاء الدول الكبرى التي تشكل منافسة لها في الوقت الراهن أو في المستقبل. ومن ناحية ثانية، قدمت درساً لكيفية التعامل مع القوى الإقليمية التي قد تسعى للهيمنة في بعض النظم الإقليمية وتتحدى قواعد النظام الدولي الجديد. ومن ناحية ثالثة، دفعت بروح الفاعلية في الأمم المتحدة باعتبارها إطاراً للشرعية الدولية وأثبتت أن الأمم المتحدة تصبح فاعلة، عندما تريد لها الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون كذلك.

وفي إطار هذا الاتجاه رجح البعض احتمال انهيار النظام الدولي ليأخذ شكل النظام الهرمي، بحيث تقف الولايات المتحدة الأمريكية منفردة على قمة الهرم، لفترة مقبلة، وتتلوها أوروبا واليابان ثم بعض المراكز العالية الأخرى. ويقوم جوهر التكوين الهرمي لهذا النظام على القدرة على السيطرة على التناقضات وتوجيهها لصالح التوسع العالمي المطرد للرأسمالية عابرة القومية. وقبل هذا النظام بالتغيير ويتأقلم معه. ولكن في حدود محكومة، وبشرط عدم تعاضده مع مصالح جوهرية لقمم هرم القوة والسيطرة^(٥٦).

الاتجاه الثاني: التحول نحو نظام دولي متعدد الأقطاب، والمقولة الأساسية لهذا الاتجاه هي أن النظام الدولي الذي يتشكل في خلال المرحلة الانتقالية الراهنة سوف يكون متعدد الأقطاب^(٥٧). وينطلق أنصار هذا الاتجاه من عدة منطلقات تحكم تفكيرهم، منها: النظرة التاريخية للتغير والتطور في شكل وبنية النظام الدولي، فالحجرات التاريخية السابقة تقدم إجابات على بعض الأسئلة من قبيل: ماهي العوامل الرئيسية التي تمهد هيكل النظام الدولي؟ وكيف يحدث الانتقال من نظام إلى آخر؟ وبالإضافة إلى النظرة التاريخية يؤكد أنصار هذا الاتجاه على أهمية تحليل واستشراف مستقبل النظام الدولي في الأجل الطويل اعتماداً على نظرة كلية تشمل كافة المتغيرات دون الاقتصار على التحليل في الأجل القصير، ودون الانطلاق من حدث معين (حرب الخليج) أو تطور بذاته (انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه) للوصول إلى أحكام نهائية بشأن هيكل وطبيعة النظام الدولي.

ويستند أنصار هذا الاتجاه إلى عدة اعتبارات:

أولها، حماية الإتيان بين القدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية، فتوافر إحداها فقط لدولة ما لا يكفل لها القدرة على ممارسة دور عالمي فترة طويلة نسبياً. ومن هنا فإن المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي مثل المديونية الخارجية، والمعجز في الميزان التجاري، وتراجع الدولار أمام الين، وضعف القدرة التنافسية في الأسواق الخارجية، فضلاً عن المشكلات الاجتماعية المرتبطة بالاندماج القومي، وارتفاع معدلات العنف والجريمة... إلخ، كل هذه المشكلات لابد وأن تلقي بتأثيراتها السلبية على القدرة العسكرية للولايات المتحدة في المستقبل، فالإقتصاد لا يستطيع تحمل أعباء وتبعات دور عالمي كبير. ومن ناحية أخرى فإن القدرات الاقتصادية الضعيفة لكل من اليابان ودول الجماعة الأوروبية مجتمعة، والتي تحمل منها عملاقين اقتصاديين، تسمح لكل منهما بتدعيم قدرته العسكرية في المستقبل، بالشكل الذي يدعم من مركزهما في النظام الدولي، ويسمح لهما بالوصول إلى مصاف القوى العظمى متى تم التخطيط لهذا الهدف. وهكذا فإن التلازم بين القدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية يفتح المجال لتراجع دور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى، ولتزايد دور كل من الجماعة الأوروبية الموحدة واليابان كقوتين كبيرتين في النظام الدولي، بحيث تصعدان إلى مرتبة القطب الدولي، وعندئذ يستقر النظام الدولي على شكل لتعدد الأقطاب.

وثانيها، أنه مع التسليم الكامل بمحورية الدور الذي قامت به الولايات المتحدة الأمريكية في حرب الخليج، إلا أنها لم تنجز النصر في الخليج بمفردها وإن كانت قد أعلنته، بل تم ذلك في إطار تحالف دولي، شاركت فيه العديد من الدول العربية، عسكرياً ومالياً، بل إن العبء الأكبر في تمويل حرب الخليج لم تقم به الولايات المتحدة، وفي بعض الأحيان مارست ضغوطاً على دول أخرى من أجل المساهمة في التمويل. وإذا

كانت هناك مجموعة من العوامل والاعتبارات الإقليمية والدولية التي أحاطت بأزمة الخليج وساهمت في خلق تكتل دولي ضد العراق، فهل سيكون باستطاعة الولايات المتحدة الأمريكية أن تحشد مثل هذا التحالف إذا وقعت أحداث أخرى مشابهة في مناطق أخرى في المستقبل؟

وثالثها، أنه على الرغم من انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه، وعلى الرغم من المشكلات والتحديات الداخلية والإقليمية والدولية الكبرى التي تواجه دول «رابطة الكومنولث»، فإنه لا يجب الاستهانة بالقدرات النووية للدول الرابطة، فروسيا بمفردها قادرة على خوض حرب نووية كبرى، كما لا يمكن استبعاد احتمالات انتكاسة التطورات نحو الديمقراطية واقتصاد السوق في دول رابطة الكومنولث أو في بعضها، وقد تبرز دكتاتورية جديدة تعيد تجميع أشلاء الاتحاد السوفيتي السابق أو على الأقل تعيد بناء روسيا بمعدل سريع.

ورابعها، أن العمليات الاندماجية والتكاملية التي تحدث على المستوى الدولي، سوف يكون من شأنها تدعيم نظام تعدد الأقطاب، فهناك مشروع أوروبا الموحدة، والتجمع الأمريكي - الكندي - المكسيكي، والتجمع الاقتصادي الباسيفيكي، وهناك العديد من الأفكار والتساؤلات المطروحة حول مستقبل العلاقات بين شطري أوروبا (البيت الأوروبي المشترك) وحول مستقبل العلاقات الصينية اليابانية، بحيث يحدث نوع من التلاحم بين القدرة التكنولوجية لليابان والقدرات العسكرية والبشرية للصين.

ويطرح أنصار هذا الاتجاه عدة أنماط للعلاقات المحتملة بين الأقطاب المتعددة، فهناك من يرجع احتمالات التنافس بين هذه الأقطاب، خاصة وأن هناك عوامل موضوعية مشجعة على ذلك. وهناك من يرجع احتمالات التعاون أو التنافس المحكوم بإطار الانتباه إلى تكتل رأسمالي غربي واحد، خاصة وأن هناك متغيرات موضوعية يمكن أن تساعد على ذلك مثل منظومة القيم الرأسمالية، وتداخل اقتصادات هذه الدول، وإرتباطها بشبكة معقدة من الشركات دولية النشاط التي انجذبت نحو المزيد من الاندماج فيما بينها. ومن الممكن أن تكون العلاقات بين الأقطاب الرأسمالية الكبرى مزيجاً من سياسات وممارسات التعاون والتنافس.

الاتجاه الثالث، ويقوم هذا الاتجاه على أساس التمييز بين مستويين للنظام الدولي، المستوى الاستراتيجي - العسكري، والمستوى الاقتصادي^(٥٨). فعلى المستوى الأول سوف يظل النظام الدولي في الأجلين القصير والمتوسط (من ٥ - ١٠ سنوات) أحادي القطبية، وذلك باعتبار أن الولايات المتحدة الأمريكية هي القوة العظمى الوحيدة على هذا المستوى، أما على المستوى الاقتصادي، فإن النظام الدولي خلال هذه الفترة هو نظام متعدد الأقطاب، وذلك باعتبار أن كلاً من اليابان والجماعة الأوروبية تمثل قوة اقتصادية عظمى بالمعيار الاقتصادي. أما في الأجل الطويل، فإن النظام الدولي قد يتحول إلى نظام متعدد الأقطاب سياسياً واقتصادياً وعسكرياً. وسيبقى ذلك رهناً بالتحويلات والتغيرات التي تجري في القوى الكبرى الرئيسية في النظام الدولي. وترجع الدراسة هذا الاتجاه، حيث يبدو من السابق لأوانه في الوقت الراهن القطع بطبيعة هيكل النظام الدولي، وإن كانت الدراسة أميل إلى ترجيح أن التطورات الجارية في القوى الدولية الكبرى سوف تفرز بعد فترة انتقالية قد تستغرق ما يتبقى من سنوات القرن العشرين، وربما تمتد إلى بضع سنوات في القرن الحادي

والعشرين تعددية قطبية كاملة، تربط بين الأقطاب الأساسيين فيها قضايا تعاونية وأخرى تنافسية، وربما ثلاثة صراعية.

سادساً: الجدل حول قيم النظام الدولي الجديد

نظراً لأن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد لم يستقر بصورة نهائية بعد، حيث لا يزال في مرحلة التشكيل والتبلور، فإن هناك جدلاً عميقاً حول منظومة القيم التي يستند إليها هذا النظام. وهناك اتجاهان أساسيان في الفكر العربي بخصوص هذا الموضوع.

الاتجاه الأول، ويؤكد أنصاره على أن قيم النظام الدولي القديم مستظل هي الأساس الذي يستند إليه ما يعرف بالنظام الدولي الجديد^(٥٩). فهو نظام إمبريالي يسعى لقرصن الهيمنة والسيطرة على بلدان الجنوب واستغلال ثرواتها والتدخل في شئونها الداخلية تحت دعاوى مختلفة. كما أنه نظام عدواني يعتمد ضمن أدوات عديدة... على القوة العسكرية كأداة لتحقيق أهدافه. وبذلك فهو نظام يقوم على غطرسة القوة والاستكبار وتدمير إنسانية الإنسان.

كما أنه نظام يعادي العرب والمسلمين، بل وبلدان الجنوب عامة. وفي هذا الإطار فإن الشعارات البراقة التي يطرحها دعاة النظام كأساس معنوي له، مثل التأكيد على سيادة الشرعية الدولية والالتزام بالقانون الدولي، وحقوق الإنسان والديمقراطية الليبرالية ما هي إلا نوعاً من الخلداع السياسي لإخفاء مسحة أخلاقية على النظام الدولي الجديد، وذلك بهدف التغطية على الأهداف الحقيقية للقوى المهيمنة في هذا النظام.

أما الاتجاه الثاني، فيؤكد على أن هناك قيماً إيجابية يستند إليها النظام الدولي الجديد (الذي هو تحت التكوين). ومن هذه القيم^(٦٠): تدعيم الاتجاه نحو الليبرالية السياسية والاقتصاد الحر كتوجه سياسي واجتاهي على الصعيد العالمي. فضلاً عن قيم الاعتدال المتبادل والأمن الجماعي وحل المنازعات بالطرق السلمية واحترام الشرعية الدولية وعالمية حقوق الإنسان. وهناك من يشير إلى وجود قيم ثقافية يستند إليها النظام الدولي الجديد، أهمها^(٦١): التسامح الثقافي (النسبية الثقافية)، والإطلاقة الإنسانية التي تتضمن القواسم المشتركة بين الصفات المختلفة، والتوفيقية الثقافية، ومبدأ التكافلية، والتوازن بين القيم الروحية والقيم المادية، وإطلاق الطاقات الخلاقة للإنسان في سياقات ديمقراطية، والعودة إلى إحياء المجتمعات المحلية، وتقليص مركزية الدولة. وعموماً فإن القيم ذات الطابع الثقافي التي سبق ذكرها هي أكثر ارتباطاً بمقولة النظام العالمي الجديد، باعتباره أوسع وأشمل من مفهوم النظام الدولي الجديد على نحو ما سبق ذكره.

وقتل بعض القيم الإيجابية للنظام الدولي الجديد شعارات كبرى طرحها الإدارة الأمريكية، وبصفة خاصة خلال أزمة الخليج وفي أعقابها. وهي تمثل في الوقت نفسه طموحات وآمال لبلدان الجنوب ومنها البلدان العربية. وإذا كانت هذه القيم تمثل إطاراً مثالياً وأخلاقياً مقبولاً للنظام الدولي الجديد فإن العبرة ليست بطرح الشعارات أو بالإعلان عن الأمنيات والنوايا فحسب، ولكن بالممارسة على أرض الواقع. فإلى أي مدى حكمت - وسوف تحكم - هذه القيم سلوكيات الفاعلين الأساسيين في النظام الدولي؟ ومن واقع رصد وتحليل بعض جوانب خبرة التعامل الدولي في مرحلة ما بعد كارثة الخليج الثانية، اتضح أن هناك فجوة واسعة بين القيم والشعارات المعلنة من ناحية، والسياسات والممارسات من ناحية أخرى وسيتمتع ذلك على دراسة قضايا النظام الدولي الجديد وإشكالياته.

سابعاً: مناقشة بعض قضايا النظام الدولي الجديد وإشكالياته (*)

لقد اتجه الفكر العربي إلى مناقشة بعض قضايا ما يعرف بالنظام الدولي الجديد وإشكالياته، وذلك من خلال مقاربة المقولات والشعارات التي طرحها - وتطرحها - الولايات المتحدة الأمريكية - وغيرها من الدول - باعتبارها القوة العظمى الوحيدة التي تأخذ على عاتقها مهمة صياغة هذا النظام وحمايته، بالواقع. وذلك للكشف عن مدى ترجمة هذه الشعارات إلى حقائق على الأرض. فهذه النظام الدولي الجديد من وجهة نظر المؤجّين له هو تحقيق الاستقرار الدولي والأمن العالمي، وذلك من خلال أدوات عديدة منها: نزع السلاح، والحد من التسلح، وتدعيم دور الأمم المتحدة، واحترام الشرعية الدولية، ونبذ استخدام القوة في حل المنازعات بين الدول، وتسويتها بالطرق السلمية.

وفي هذا الإطار فقد ناقش الباحثون والمفكرون العرب مجموعة من القضايا والإشكاليات المرتبطة بما يعرف بالنظام الدولي الجديد، من أهمها: ظاهرة عدم الاستقرار في النظام الدولي الجديد، والتناقض بين المبادئ المعلنة والممارسات الفعلية فيما يتعلق بضبط التسلح في دول الجنوب، وطبيعة دور الأمم المتحدة في هذا النظام، وموقع دول الجنوب فيه، وإشكالية الانتصار النهائي للرأسمالية ونهاية التاريخ. وفيما يلي كلمة موجزة عن كل من القضايا السابقة.

١ - ظاهرة عدم الاستقرار في النظام الدولي الجديد

على مستوى الخطاب السياسي، يعتبر عنصر الاستقرار السياسي من العناصر الأساسية لما يعرف بالنظام الدولي الجديد. وعادة ما يقصد به غياب الصراعات والتوترات الحادة في المجتمع الدولي وهو يقوم على أساس تسوية المنازعات بالطرق السلمية ونبذ استخدام العنف، واحترام القانون الدولي، وتحقيق التوازن في العلاقات الدولية. وعلى الرغم من التوصل إلى تسوية لبعض المشكلات الإقليمية القائمة وتهدئة لبعضها الآخر خلال عقد الثمانينيات، كما هو الحال بالنسبة لمشكلات أفغانستان، وناميبيا، وكمبوديا، ونيكاراجوا، وشبه الجزيرة الكورية، والحرب العراقية - الإيرانية، وعلى الرغم من انتهاء الحرب الباردة بمعناها التقليدي وتفكك الاتحاد السوفيتي، وما يمثل هذا من ضعف احتمالات حدوث حرب عالمية إلى حد كبير، فإن ذلك لم يحقق الاستقرار على الصعيد الدولي ولم يمنع من حدوث صراعات إقليمية وداخلية جديدة^(٦٢). وهناك مجموعة من الشواهد الواقعية التي تؤكد ذلك، أهمها ما يلي:

أ- تسجّر العديد من الصراعات والمشكلات الداخلية الجديدة وتصعيد بعض المشكلات التي كانت قائمة في العديد من مناطق العالم، وذلك في ظل التحولات الدولية الجديدة. فهناك دول عديدة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية تواجه في الوقت الراهن صراعات داخلية مرتبطة بعوامل قومية وعرقية ودينية، وتهدد هذه الصراعات في بعض الأحيان كيان الدولة ذاتها، وما يجري في الصومال وأثيوبيا وأفغانستان والسودان وبعض أعضاء «رابطة الدول المستقلة» وغيرها خير شاهد على ذلك.

● اعتمد الباحث في إعداد هذا الجزء على دراسة سابقة له بعنوان: النظام الدولي الجديد: قضايا وتساؤلات (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٢).

ب- نشوب صراعات إقليمية جديدة وتصعيد صراعات كان لها جذورها السابقة، وبخاصة بين بعض الدول الأعضاء في «رابطة الدول المستقلة» وأشهرها هو الصراع بين أرمينيا وأذربيجان حول إقليم ناجورنو - كاراباخ، بالإضافة إلى الصراعات المسلحة في مناطق أخرى من العالم مثل الصراع الدامي في البوسنة والهرسك، إلى جانب استمرار الصراع العربي - الإسرائيلي، وإن كانت هناك جهود جارية لتسويته، انطلقت منذ مؤتمر مدريد (أكتوبر ١٩٩١). وهناك أيضا مصادر قائمة ومحتملة للصراع والتوتر بين العديد من بلدان الجنوب، ومنها مشكلات الحدود، وقضايا الأقليات، والتدخل في الشؤون الداخلية.

ج- أن استمرار تردّي الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في دول الجنوب من ناحية، واستمرار اتساع الفجوة بين الشمال والجنوب من ناحية ثانية، من شأنه أن يجعل الجنوب مصدرا للتوتر وعدم الاستقرار على المستوى الدولي نظرا لتراكم الضغوط والإجباطات لقطاعات واسعة من مواطني دول الجنوب لأنها ستجد نفسها في تناقض موضوعي مع القواعد السياسية والاقتصادية والمالية والاستراتيجية التي تستمد منها الولايات المتحدة الأمريكية سيطرتها العالمية أو محاولتها للسيطرة ويمكن أن يأخذ التوتر القادم من الجنوب أشكالا عديدة منها استمرار أعمال العنف في الجنوب سواء على المستوى الداخلي في العديد من الدول أو على المستوى الإقليمي، فضلا عن تصاعد الأعمال الإرهابية الناجمة عن الإجباطات المزمنة، ناهيك عن استمرار تدفق موجات الهجرة إلى الشمال، وما يمكن أن تخلقه من مشكلات لهذه الدول.

وخلاصة القول: إن المجتمع الدولي يشهد في الوقت الراهن حالة من الفوضى والانفلات، وربما تكون أحد أهم ملامح المرحلة الانتقالية التي يمر بها النظام الدولي. ولذلك فإن مقولة الاستقرار السياسي التي طرحت كأحد مقومات النظام الدولي الجديد لا أساس لها على أرض الواقع، حيث يوجد العديد من مظاهر عدم الاستقرار القائمة، كما أن هناك مصادر محتملة لعدم الاستقرار في المستقبل، ويؤكد هذا الوضع أن عنصر استخدام القوة في إدارة العلاقات الدولية لم يقلص بل لا يزال هو العنصر الحاكم، ومن ثم فإن شعار نبذ استخدام العنف في العلاقات الدولية في ظل النظام الدولي الجديد يفقد إلى المصادقية. ويمثل التحدي الحقيقي في مدى قدرة ترتيبات النظام الدولي الجديد على تصفية أو تحجيم مصادر التوتر والصراع القائمة والمحتملة في دول الجنوب من ناحية، وفي العلاقات بين الشمال والجنوب من ناحية أخرى بصورة فعالة ومؤثرة.

٢- ضبط التسلح في دول الجنوب: التناقض بين المبادئ والممارسات وانقراض وحدة المعيار.

في إطار سعيها لترسيخ بعض قواعد النظام الدولي الجديد حسبما تراه طرحت الولايات المتحدة الأمريكية تصورا لضبط التسلح في دول الجنوب باعتبار أن ذلك مداخل لضبط الصراعات الإقليمية وتحقيق الاستقرار، وقد تجسد هذا التصور في المبادرة التي طرحها الرئيس «بوش» في يوليو ١٩٩١ لضبط صادرات السلاح العالمية إلى دول الجنوب، ولوقف انتشار أسلحة الدمار الشامل وبخاصة في منطقة الشرق الأوسط. وقد عقدت عدة اجتماعات بين الدول الخمس الكبرى المصدرة للسلاح وهي الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن لبحث هذا الموضوع، إلا أنها لم تنق على سياسات وإجراءات فعلية بهذا الخصوص، ويلاحظ أن هناك مجموعة من التناقضات قد شابَت التصورات والمسااعي الأمريكية بهذا الخصوص^(٦٣).

أولها: أن الرؤية الأمريكية الخاصة بضبط صادرات السلاح إلى دول الجنوب لم تهدف في المقام الأول إلى

عالم الفكر

تحقيق السلام العالمي، وذلك من خلال حجب السلاح عن مناطق التوتر والصراع في الجنوب بصورة شاملة ومتوازنة، وخلق الظروف الملائمة للبحث عن حلول جذرية للقضايا والمشكلات التي تمثل مصادر قائمة وعشمة للصراع، بل كان الهدف هو تكوين كارتل عالمي لتجارة السلاح بين الدول الخمس الكبرى التي تساهم بالنصيب الأعظم - بنسب متفاوتة - في التجارة الدولية للسلاح.

وثانيها، أنه في الوقت الذي تطرح فيه الولايات المتحدة هذه الأفكار، فإن مبيعاتها للأسلحة لبعض دول الجنوب لم تتوقف، أو حتى تنخفض، بل والأكثر من ذلك أنها تقوم بتخزين أنواع من الأسلحة الأمريكية في بعض بلدان الشرق الأوسط. وكذلك الحال بالنسبة لبيعات الدول الكبرى الأخرى المصدرة للسلاح. وهكذا فإن وقف سباق التسلح بين الدول الكبرى لم يساعد على وقف سباق التسلح في مناطق التوتر في الجنوب، بل زاده حدة. ومن بين المشكلات المعقدة في هذا المجال مشكلة ارتباط التجارة الدولية للسلاح ببعض التوازنات السياسية والاقتصادية الداخلية في الدول المصدرة للسلاح، حيث إن شركات السلاح تعتبر من مراكز التأثير السياسي والاقتصادي في هذه الدول، فضلاً عن المشكلات المرتبطة بتحويل بعض الصناعات العسكرية إلى صناعات مدنية.

وثالثها، أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الخصوص لا تقوم على معايير واحدة تطبق على جميع الدول، بل هي سياسة انتقائية يتم في إطارها ممارسة التمييز بين الدول طبقاً لطبيعة علاقاتها القائمة والمحتملة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى سبيل المثال يظهر هذا التناقض بوضوح في السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل من ناحية، وتجاه كل من سوريا وإيران من ناحية أخرى، ففي الحالة الأولى لم تشر الولايات المتحدة الأمريكية من قريب أو بعيد إلى مخزون إسرائيل من الأسلحة النووية، وذلك في إطار مبادرة بوش لجعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل، كما أنها مستمرة في تزويد إسرائيل بالأسلحة، وتقوم بتخزين أسلحة أمريكية فيها، كما أعطتها حق إنتاج وتطوير بعض أنظمة الصواريخ الأمريكية مثل «الباتريوت» و«آرو»، وتساهم في تمويل هذه العملية. أما بالنسبة لكل من سوريا وإيران فإن الولايات المتحدة تفرض قيوداً شديدة على صادرات الأسلحة التقليدية لكل من البلدين. ويقوم أسطولها بمطاردة السفن التي يشتبه في أنها تحمل أسلحة لأي من الدولتين.

وهكذا، فإن التصورات والممارسات الأمريكية بخصوص ضبط التسلح في دول الجنوب، وبالمذاق في مناطق التوتر والنزاع تنسم بالانتقائية والتناقض، ومن ثم فإن وقف سباق التسلح بين الدول الكبرى لم يترجم إلى نتائج إيجابية على مستوى مناطق التوتر والنزاع، وهو الأمر الذي يثير العديد من التساؤلات حول مستقبل ظاهرة الاستقرار في الجنوب، ومن ثم في النظام الدولي بصفة عامة.

٣- دور الأمم المتحدة في «النظام الدولي الجديد»

لقد كان تدعيم الأمم المتحدة، حتى تقوم بدور أكثر فاعلية في تحقيق الأمن الجماعي، والحفاظ على السلام العالمي، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية إحدى الركائز الأساسية للنظام الدولي الجديد، كما طرحتها الولايات المتحدة الأمريكية أثناء أزمة الخليج وبعدها. ولقد برز دور الأمم المتحدة، وبالتحديد دور مجلس الأمن في أزمة الخليج، حيث أصدر مجموعة من القرارات السريعة والمتتالية التي مثلت إطاراً للشرعية الدولية

للمعمل السياسي والعسكري الذي قامت به دول التحالف ضد العراق . إلا أنه بعد انتهاء أزمة الخليج بدأت تبرز بعض السليبات المرتبطة بدور الأمم المتحدة في ظل النظام الدولي الجديد، فالولايات المتحدة أصبحت هي القوة الرئيسية المحركة للمنظمة الدولية، ولذلك راحت تطوع دورها لحساب المصالح الأمريكية بصفة خاصة والمصالح الغربية بصفة عامة، وعادة ما يشير بعض الباحثين والمفكرين العرب إلى العديد من الظواهر الواقعية التي تؤكد هذا المعنى، ومنها على سبيل المثال مايلي^(٦٤):

لإعادة هيكلة دور الأمم المتحدة بالشكل الذي أدى إلى تعظيم دور مجلس الأمن على حساب دور الجمعية العامة وبقية أجهزة المنظمة الأخرى، ونظراً لغياب الفيتو السوفيتي، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه فإن قدرة الولايات المتحدة على تحريك مجلس الأمن بالشكل الذي يخدم مصالحها أصبحت كبيرة وهكذا تم تطوير القانون الدولي لحساب السياسة.

بـ قيام الولايات المتحدة بتطبيق الشرعية الدولية بصورة انتقائية، وبالشكل الذي يتفق والمصالح الأمريكية في المقام الأول والغربية في المقام الثاني، فهذه الشرعية كانت فعالة ونشطة إزاء مواجهة العراق على أثر احتلاله للدولة الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠، كما كانت فعالة بخصوص «أزمة لوكربي» بين ليبيا من ناحية وكل من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا من ناحية أخرى، حيث اتهمت الدول الثلاث النظام الليبي بالتورط في تفجير طائرة ركاب أمريكية فوق لوكربي عام ١٩٨٨ وطائرة فرنسية في أجواء النيجر عام ١٩٨٩. كما تحركت الشرعية الدولية بسرعة تجاه الأزمة الصومالية، وإن كان دور المنظمة الدولية والولايات المتحدة الأمريكية، قد أضعف تعقيدات جديدة إلى الأزمة. وفي الوقت نفسه فإن هذه الشرعية لم تكن فعالة، أو لم يرد لها أن تكون كذلك بصدد قضايا أخرى مثل الصراع العربي-الإسرائيلي، حيث إن إسرائيل تتحدى الشرعية الدولية بصورة سافرة، وتمارس انتهاكات بشعة ضد حقوق السكان العرب في الأراضي المحتلة بصورة يومية. كما أن المنظمة الدولية تحركت بصورة متأخرة ومحدودة الفاعلية بشأن أحداث البوسنة والهرسك، وينطبق نفس الشيء على مواقف الولايات المتحدة الأمريكية ودول الجماعة الأوربية بدرجات متفاوتة.

وهكذا، فإن فاعلية المنظمة الدولية أصبحت رهينة مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في المقام الأول، فدورها كأطار للشرعية الدولية يتم إربازه في بعض القضايا وتغيبه بصورة تدعو إلى التساؤل في قضايا أخرى. أليس من الملفت للنظر حقاً أن يتم تغيب الأمم المتحدة عن محادثات السلام التي انطلقت من مؤتمر مدريد لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي؟ وبذلك أصبحت الشرعية الدولية بمثابة غطاء لتبرير السياسات والممارسات الأمريكية، وبخاصة تلك المتعلقة بتصفية الحسابات المتعلقة مع دول أخرى في الجنوب.

جـ- أصدرت المحكمة العليا الأمريكية في يونيو ١٩٩٢ حكماً غريباً وشاذاً مفاده السماح للحكومة الأمريكية باختطاف مواطني الدول الأخرى المشتبه فيهم، وتقديهم للمحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تم استهجان هذا القرار ورفضه من قبل العديد من دول العالم: فهو من ناحية أولى، يعتبر سابقة خطيرة تمثل تجاوزاً للقواعد القانونية الدولية التي تنظم عمليات تسليم المجرمين والمشتبه فيهم بين الدول، وهو من ناحية ثانية، ينطوي على احتمالات استخدام القوة ضد دولة ما بقصد القبض على بعض مواطنيها لمحاكمتهم في الولايات المتحدة، وذلك على غرار غزو الولايات المتحدة لبنما بهدف

عالم الفكر

اعتقال الرئيس نورديجا ومحاكمته . وهو من ناحية ثالثة ، قد يفتح الباب أمام دول أخرى لتصدر قرارات مماثلة ، وبذلك ينخرط النظام العالمي في حالة من القوضى وعدم الاستقرار وتدخل الدول في الشئون الداخلية لبعضها البعض^(٦٥) .

وخلاصة القول ، إن الممارسات الأمريكية المرتبطة ببناء نظام جديد تناقض الشعارات والمبادئ المطروحة في هذا الصدد وبخاصة فيما يتعلق باحترام الشرعية الدولية ، وتدعيم دور الأمم المتحدة ، ومن هنا ارتفعت الأصوات التي تطالب بإصلاح نظام الأمم المتحدة .

٤- موقع بلدان الجنوب في النظام الدولي الجديد : المزيد من التهميش

هناك العديد من المؤشرات التي تدل على أن مصير أغلب دول الجنوب ومنها الدول العربية في ظل المتغيرات الدولية الجديدة سوف يكون «المزيد من التهميش» ، وبالأدات تلك الدول التي تعاني من عدم أو ضعف القدرة على التكيف مع هذه المتغيرات خاصة وأن أغلب هذه الدول خرجت من عقد الثمانينيات وهي تعاني من مشكلات متفاقمة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية^(٦٦) . ولذلك يؤكد البعض انتهاء التناقض بين الشرق والغرب سوف يكون على حساب تعميق التناقض بين الشمال والجنوب ، ويمكن بسلوة أهم المؤشرات التي تكشف عن تزايد احتمالات تهميش أغلب بلدان الجنوب في ظل أوضاع النظام الدولي الجديد فيما يلي :

أ- وجود مجموعة من الاختلالات والتباينات التي تكشف عن غياب العدالة فيما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب ، وقد كشف التقرير الثالث عن «التنمية البشرية ١٩٩٢» الذي أصدره البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة في منتصف عام ١٩٩٢ ، عن حقائق خطيرة ومذهلة بهذا الخصوص أهمها مايلي^(٦٧) :

- أن (٢٠٪) من سكان العالم يحصلون على (٧, ٨٢٪) من مجموع دخل العالم ، بينما الـ (٢٠٪) من سكان العالم الأكثر فقرا يحصلون على (٤, ١٪) من دخل العالم والـ (٢٠٪) الأقل فقرا يحصلون على (٩, ١٪) من دخل العالم ، وهناك (٢٠٪) ثلاثة فقيرة تحصل على (٣, ٢٪) من دخل العالم ، وهذا يعني أن (٦٠٪) من سكان العالم يحصلون على (٦, ٥٪) من إجمالي دخل العالم ، ويكشف هذا عن الفجوة الواسعة بين أغنياء العالم وفقرائه .

- أن الدول الغنية تستهلك حوالي (٧٠٪) من الطاقة العالمية ، و(٧٥٪) من معادن العالم ، و(٨٠٪) من أخصابه ، و(٦٠٪) من طعامه ، وفي الوقت نفسه يوجد في الوقت الراهن حوالي (٢٣٠٠) مليون من البشر يفتقدون إلى خدمات الصرف الصحي ، و(١٣٠٠) مليون لا يستطيعون الحصول على مياه الشرب الصالحة ، ناهيك عن انتشار المجاعات في العديد من الدول الإفريقية في الوقت الذي تعاني فيه بعض دول الشمال من التضخم .

- أن خسارة دول الجنوب نتيجة الأوضاع غير المتكافئة في العلاقات التجارية والمعاملات المالية الدولية تمثل أضعاف ما تحصل عليه هذه الدول من معونات خارجية ، إذ تكلف دول الجنوب حوالي (٥٠٠) مليار دولار سنوياً .

- يشير التقرير إلى أن فوارق الغنى والفقير تتسع معدلاتها بصورة كبيرة. ففي عام ١٩٦٠ كان دخل الفرد بالنسبة للمعشرين في المائة من سكان العالم الذين يعيشون في الدول المتقدمة أكثر من دخل الفرد بالنسبة للمعشرين في المائة الذين يعيشون في الدول الأكثر فقراً بحوالي (٣٠) ضعفاً. وفي عام ١٩٨٩ تزايدت الفجوة ليصبح الفارق بين دخل الفرد في المجموعتين حوالي (٦٠) ضعفاً.

- ذكر التقرير أيضاً أن تخفيض الإنفاق العسكري بنسبة (٣٪) فقط خلال عقد التسعينيات يمكن أن يوفر لجهود التنمية (١٥٠٠) مليار دولار منها (١٢٠٠) مليار دولار للدول المتقدمة و(٣٠٠) مليار للدول المتخلفة، ومن الملاحظات أنه في الوقت الذي تذهب فيه بعض الدول المتقدمة إلى خفض الإنفاق على التسليح، فإن الدول النامية تتجه إلى زيادته، إذ إن حوالي (٧٥٪) من تجارة السلاح في العالم تذهب إلى الدول النامية.

وجدير بالذكر أن استمرار هذه الفجوات والاختلالات بين الشمال والجنوب كفيلة بأن تجعل من الجنوب مصدراً للتوتر وعدم الاستقرار في النظام العالمي، فالاستقرار الدولي رهين بتحقيق تنمية عالمية متوازنة، وبمواجهة جذور المشكلات التي تمثل مصادر للقلق والتوتر في الجنوب. فالشمال لا يمكن أن ينعم بالاستقرار مع وجود جنوب يعاني من مظاهر عدم الاستقرار، لأن هذه الـوضع سوف تساعد على زيادة موجات الهجرة من الجنوب إلى الشمال، فضلاً عن خلق بيئة ملائمة لزيادة أعمال العنف وأشكال الرفض المضادة للشمال، وتقليص قدرة أسواق الجنوب - المتردية أصلاً - على استيعاب قدر أكبر من صادرات الشمال.

ب- أن انتهاء الحرب الباردة بمعناها التقليدي سوف يقلل من الأهمية الاستراتيجية لبعض الدول، كما أن تفكك الاتحاد السوفيتي واختياره يفسح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية للتدخل في شئون دول الجنوب بالشكل الذي يخدم مصالحها، ويمكن أن تستخدم العديد من الأدوات لتحقيق هذا الهدف بما فيها الأداة العسكرية.

ج- أن انتهاء نظام القطبية الثنائية من شأنه تضيق مجال حرية الحركة أمام دول الجنوب، لأن هذا النظام كان يوفر لبعضها مجالاً لممارسة المناورة السياسية، واللعب على التوازنات والتناقضات بين القوتين العظميين. وإذا كان ما يعرف بالنظام الدولي الجديد يقوم - من وجهة نظر المروجين له - على مبادئ الأمن الجماعي والشرعية الدولية والاعتماد المتبادل وتسوية المنازعات بالطرق السلمية، فالأرجح أن هذه المبادئ سوف تطبق فيما بين دول الشمال فقط، وعلى هذا الأساس فإن الصراع بين الشمال والجنوب سيحل محل الصراع بين الشرق والغرب. وفي هذا الإطار، فمن المتوقع أن يظل الجنوب يموج بالصراعات الاجتماعية الممتدة والحروب الأهلية الداخلية والصراعات الإقليمية، وكل ذلك من شأنه تهميش موقع بلدان الجنوب أو معظمها على خريطة النظام الدولي الجديد^(١٨).

د- أن انحراط الدول المتقدمة بدرجات متفاوتة في مجالات الثورة الصناعية الثالثة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من تحريك لمواد خام بديلة، كمثل بآن يؤدي إلى تقليص الأهمية الاستراتيجية لبعض المواد الخام التي تمتلكها بعض دول الجنوب.

هـ- أن هناك عوامل موضوعية تعمد من دور دول الجنوب في عملية تشكيل النظام الدولي الجديد أهمها: زيادة حدة التفاضلات الاقتصادي والاجتماعي بين دول الجنوب، وغياب الحد الأدنى من الاتفاق حول الأولويات الاستراتيجية بين هذه الدول، ناهيك عن ضعف هياكل ومؤسسات التعاون والتنسيق التي تمثل إطاراً للحركة الجماعية لدول الجنوب، فضلاً عن وجود بعض السياسات والأدوات التي تستخدمها بعض الدول الرأسمالية المتقدمة للحيلولة دون تبلور حركة جماعية فاعلة ومؤثرة على مستوى الجنوب أو حتى على مستوى بعض أقاليمه الأساسية

٥- الاضطراب في رؤية الولايات المتحدة الأمريكية لدورها في النظام الدولي الجديد

على الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية تمثل القوة العظمى الوحيدة في العالم في مرحلة ما بعد أزمة الخليج الثانية وانتهاء الاتحاد السوفيتي، وهي التي تأخذ على عاتقها مهمة إرساء أسس وقواعد النظام الدولي الجديد حسبما تتصوره، فإن رؤيتها لحقيقة دورها العالمي في ظل أوضاع ما بعد الحرب الباردة تتسم بنوع من الاضطراب وعدم الوضوح، ويظهر ذلك على نحو جلي في الاختلافات بين الوثائق الأمريكية المتتالية التي تتناول هذا الموضوع.

ففي ٩ مارس ١٩٩٢، نشرت صحيفة نيويورك تايمز والميرالد تريبون مقتطفات مطولة من وثيقة أعدها البتاجون حول الاستراتيجية الأمريكية خلال التسعينيات، ودور الولايات المتحدة في ظل النظام العالمي الجديد (هذه الوثيقة لم تعرض على الكونجرس). ومن أبرز العناصر التي وردت في هذه الوثيقة ما يلي (١٩):

أ- التأكيد على دور الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة في العالم، والحيلولة دون تمكن قوى أخرى من منافستها على هذه المكانة، بما في ذلك الحلفاء التقليديين أي دول أوروبا الغربية.. وبخاصة ألمانيا.. واليابان.

ب- استمرار احتكار الولايات المتحدة للتفوق العسكري النووي في العالم، مع الاحتفاظ بقوات أمريكية في المراكز المتقدمة في أوروبا وإفريقيا وآسيا والخليج والشرق الأوسط، حتى تكون قادرة على التحرك بسرعة لتأمين المصالح الأمريكية في النفط والممرات المائية وخلافه، ومنع تحدي الهيمنة الأمريكية من جانب أي طرف محتمل، وتدمير أي قوة عدوانية تمثل تهديداً للمصالح الأمريكية.

ج- يمكن للولايات المتحدة استخدام القوة العسكرية عند الضرورة لتدمير أسلحة الدمار الشامل في بلاد مثل العراق وكوريا الشمالية والجمهوريات الأعضاء في «رابطة الدول المستقلة» والهند وباكستان. وسوف تتحرك الولايات المتحدة بمفردها عندما يكون التحرك الجماعي صعباً.

د- خلق ترتيبات أمن أوروبية واحدة في إطار الأطلسي وعدم السماح لأوروبا بالاستقلال في مجال الأمن.

وقد أحدثت هذه الوثيقة ردود أفعال حادة من قبل عديد من الدول، باعتبارها تجسد ما يمكن تسميته «بمنظرة القوة الأمريكية» بعد الإنجاز الكبير الذي حققته في أزمة الخليج، وبعد انبهار القوة العظمى الأخرى وتفككها. ولقد كانت وطأة هذه الوثيقة على حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين ثقيلة، ولذلك انتقدتها وزير الخارجية الفرنسي (رولان دوما) نقداً حاداً، على أساس أن الولايات المتحدة لا تمتلك القدرة على القيادة

المفردة للعالم من وجهة نظره وفي أعقاب صدور هذه الوثيقة حدثت تطورات هامة على الصعيد الأوروبي وعلى الصعيد الأمريكي . أما على الصعيد الأوروبي فقد وقعت كل من فرنسا وألمانيا اتفاقية بتشكيل فيلق عسكري مشترك كنواة لجيش أوروبي موحد . وعلى الصعيد الأمريكي وقعت أحداث لوس أنجلوس التي كانت أحد العوامل التي دفعت الولايات المتحدة لإعادة النظر في تقييم دورها العالمي ، ونتيجة لهذه التطورات أصدرت وزارة الدفاع الأمريكية وثيقة أخرى وقعها تشيني وزير الدفاع الأمريكي في ٢٣ / ٥ / ١٩٩٢ ، وقد مثلت هذه الوثيقة تراجعاً عن بعض التوجهات الأمريكية التي تضمنتها وثيقة مارس ١٩٩٢ ، ومن أهم ما جاء فيها الإشارة إلى تخلي الولايات المتحدة عن احتفاظها بالمهيمنة العسكرية على العالم ، والتزامها بدرجة أكبر بالعمل العسكري الجماعي ، وتخفيض استراتيجياتها في المجالات العسكرية ، كما أكدت الولايات المتحدة على عدم وفورها في وجه كل من ألمانيا واليابان لتصبح كل منهما القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية الأولى في محيطها ، كما أكدت الوثيقة على استمرار الترتيبات الدفاعية التي تربط الولايات المتحدة بالدول الديمقراطية . والتزام الولايات المتحدة بالدفاع عن شرق أوروبا ضد أي عدوان محتمل من روسيا ، واحتفاظها بدور قيادي في الدرع الاستراتيجي والتحالفات الإقليمية^(٧٠) .

وهكذا ، يتضح أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تمتلك في الوقت الراهن تصوراً استراتيجياً واضحاً لأبعاد دورها في عالم ما بعد انتهاء الحرب الباردة ، فضلاً عن عدم امتلاكها لكافة إمكانيات القيام بدور عالمي واسع ونشط بمفردها . وقد كشفت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أزميتي البوسنة والميرك والصومال عن مدى حالة الاضطراب والتردد ، التي تعتبر سمة أساسية للسياسة الخارجية الأمريكية في عهد إدارة كلينتون^(٧١) . ومن العوامل التي تساهم في اضطراب الرؤية الأمريكية بهذا الخصوص تنامي تيار انعزالي داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، يؤكد على مقولة «أمريكا للأمريكيين» ، وهذا يعني أنه يتعين على الولايات المتحدة أن تنفض يدها عن مشاكل العالم كله ، ولقد جاءت أحداث لوس أنجلوس الشهيرة لتغذي هذا التيار وتدعم من قوته . فهذه الأحداث أكدت على معنى هام مفاده أن الدولة التي تسعى لترتيب . أوضاع العالم ، عليها أن ترتب بينها من الداخل أولاً . كما أن تورط الولايات المتحدة الأمريكية في الأزمة الصومالية ، وما ترتب على ذلك من تداعيات عسكرية وسياسية كان عاملاً آخر لتغذية هذا التيار .

٦- الانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية ونفي أحد مبادئ النظرية الديمقراطية

في إطار التحولات السياسية والاقتصادية التي حدثت في الاتحاد السوفيتي (السابق) وبلدان أوروبا الشرقية ، والمتمثلة في انحيار النظم الشيوعية والانحياز نحو تبني أشكالاً من الديمقراطية الليبرالية والاقتصاد الحر من ناحية ، ونتيجة للانحياز المدوي للاتحاد السوفيتي كدولة وضكته من ناحية أخرى ، راح بعض منظري النظام الدولي الجديد يطرحون مقولة الانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية ، وأن هذا الانتصار يشكل نهاية للأيديولوجيات ، بل ونهاية للتاريخ ذاته ، وقد كتب (فرانسيس فوكوياما) ، وهو باحث أمريكي من أصل ياباني كتاباً شهيراً تحت هذا العنوان . أكد فيه أن الإنسانية تشهد الآن آخر لحظة في الثورة الأيديولوجية للبشر ، ألا وهي عالمية الرأسمالية والديمقراطية الليبرالية الغربية ، التي تمثل آخر أشكال الحكومات الإنسانية ، وأكد على أن الأنظمة القابلة للتطبيق والبديلة لليبرالية الغربية قد استنزفت تماماً^(٧٢) . وثمة عدة ملاحظات طرحها

عالم الفكر

باحثون ومفكرون عرب حول مقولتي «نهاية الأيديولوجية» و«نهاية التاريخ»، وهي ملاحظات تبين أبعاد إحدى الإشكاليات المرتبطة بعملية تكوين النظام الدولي الجديد^(٧٣).

أولها، أن أحد المبادئ الهامة للنظرية الديمقراطية هو القبول بالتعددية السياسية والفكرية والتسامح السياسي، وبالتالي فإن الحديث عن انتصار نهائي للرأسمالية والليبرالية معناه التسليم بوجود أيديولوجية لا يمكن تخطئها، تمتلك التفوق على ما عددها من أطر فكرية وأيديولوجية في الحاضر والمستقبل (هناك حديث وتساؤلات عن الإسلام والقومية كبدائل أيديولوجية في المستقبل)، ومن ثم يتعين على جميع دول العالم أن تأخذ بها، إن لم يكن طواعية فيجب أن تفرض عليها فرضاً من خلال أدوات ومساكن عديدة (القروض والمعونات، ضغوط مؤسسات التمويل الدولية). ومثل هذا الطرح يعد نفياً لمبدأ هام في النظرية الديمقراطية وهو القبول بالتعدد الفكري والسياسي، كما أن القول بالانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية معناه إغلاق الباب أمام احتمالات ظهور أية أيديولوجيات أخرى ذات طابع كوني قد تمثل تحدياً بشكل أو بآخر للرأسمالية والليبرالية في المستقبل، فضلاً عن أن هذا الطرح يتناقض صراحة مع ما يطرحه البعض من أن إحدى السمات الأساسية للنظام الدولي الجديد على المستوى الثقافي والفكري هي النسبية الثقافية التي تقوم على احترام الخصوصيات الثقافية والحضارية للمجتمعات الإنسانية، وما يمكن أن تطرحه من محددات لأشكال النظم السياسية والاجتماعية التي تلائم هذه المجتمعات. وخلاصة القول إن الحديث عن نهاية الأيديولوجيا و«نهاية التاريخ» هو في حد ذاته طرح أيديولوجي، يتضمن في جوهره نفياً لواحد من أهم مبادئ النظرية الديمقراطية وهو مبدأ احترام التعددية السياسية والفكرية، وهذا الطرح في حد ذاته طرح شمولي، إذ يقوم على اعتبار أن هناك أفكاراً بشرية نهائية لا تخضع للتخلف.

وثانيها، أن وجود الاتحاد السوفيتي (السابق) كمصدر للخطر والتهديد مثل أحد عوامل التماسك داخل المعسكر الغربي سواء على مستوى النظم الداخلية أو على مستوى العلاقات بين الدول الرأسمالية الكبرى، ولذلك فإنه من المحتمل أن تشهد الحياة السياسية في دول أوروبا الغربية تحولات هامة على صعيد الخيارات والتوجهات^(٧٤). أما على صعيد العلاقات بين الدول الرأسمالية الكبرى فإن من أهم نتائج انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه زيادة احتمالات التنافس بينها. ومرد ذلك تحرر اليابان ودول الجماعة الأوروبية من حاجتها إلى مظلة الحماية النووية الأمريكية، وسوف تزداد إمكانات هذا التنافس في ظل ما سبق ذكره عن صعود ظاهرة التكتلات الاقتصادية بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية، وبين اليابان ودول الجماعة الأوروبية، وبين هذه الأخيرة والولايات المتحدة^(٧٥). ولا شك في أن هذه المنافسات سوف تلقي بتأثيراتها السلبية على طبيعة العلاقات بين الشمال والجنوب، ولذلك راح البعض يتحدث عن ضرورة «السلام العالمي الاقتصادي». ولم يقتصر التنافس بين دول الجماعة الأوروبية أو بعضها والولايات المتحدة الأمريكية على المستوى الاقتصادي فقط، بل امتد إلى المجال العسكري.

وفي هذا الإطار تسعى بعض دول الجماعة الأوروبية لتحقيق درجة أكبر من الاستقلال الذاتي في مجال الأمن والدفاع، وقد تجسد ذلك بشكل واضح في الاتفاق الذي أبرمته كل من فرنسا وألمانيا في مايو ١٩٩٢ لتشكل فيلق فرنسي - ألماني مشترك قوامه من ٣٥ - ٤٠ ألف جندي يكون نواة لقوة دفاع أوروبية، وقد وجهتا الدعوة لدول أوروبية أخرى للاشتراك في هذه القوة. وقد أحدث هذا القرار ردود أفعال قوية من قبل كل من الولايات

المتحدة وبريطانيا، حيث واجهتا الاتفاق صراحة، لما يمكن أن يحدثه من آثار سلبية على حلف الأطلسي، إذ مسترتب عليه ازدواجية في الاختصاصات، وهذا من شأنه تعقيد عملية اتخاذ القرار العسكري في أوروبا، خاصة وأن فرنسا رفضت وضع القليق تحت قيادة حلف الأطلسي، بل إن الاتفاق أحدث انقساماً بين الدول الأوروبية الأعضاء في الأطلسي، فانضمت إلى بريطانيا في رفضها للاتفاق كل من هولندا والبرتغال وإيطاليا، بينما أبدت كل من بلجيكا ولكسمبورج وإسبانيا استعدادها للانضمام إلى الاتفاق^(٧٦). ويجسد الاتفاق الفرنسي الألماني رغبة البلدين في بناء أوروبا كقوة عظمى، ولكي يتحقق هذا لا بد وأن تتمتع بدرجة أكبر من الاستقلالية عن الولايات المتحدة الأمريكية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً.

وثالثتها، أن انهيار التجارب الاقتصادية التي كانت قائمة على التخطيط المركزي في دول الكتلة الاشتراكية في أوروبا وفي بعض بلدان العالم الثالث التي سلكت نفس الطريق، لا يعني أن اقتصاد السوق وحده هو القادر على تقديم حلول ناجحة للمشكلات الاقتصادية الهيكلية على المستوى العالمي من ناحية، وبخاصة فيما يتعلق باتساع الفجوة بين دول الشمال ودول الجنوب، أو للمشكلات الاقتصادية الداخلية في دول الجنوب من ناحية ثانية. وقد صدر في منتصف عام ١٩٩٢ تقرير دولي أعدته هيئة التقرير الاقتصادي العالمي التابعة للأمم المتحدة^(٧٧). وقد خلص التقرير إلى أنه ليس بالسوق الحرة وحدها يحيا الاقتصاد العالمي، وأنه من الأهمية بمكان عدم تجاهل أو إهمال دور الدولة في الحياة الاقتصادية، فتمه م هام ووظائف لا يمكن أن تقوم بها سوى الدولة مثل: تحديد الإطار العام لاستراتيجية التنمية وأولوياتها، والرقابة على التزام القطاع الخاص والقطاع التعاوني بهذه الاستراتيجية، وإقامة مشروعات البنية التحتية مثل الطرق والكباري والمنشآت، وبناء الصناعات الثقيلة التي لا يستطيع القطاع الخاص وبخاصة خلال المراحل الأولى أن يقوم بها، وتوفير أساسيات التعليم والصحة، وتحقيق العدالة في توزيع الدخل والثروات.

ورابعها، أن الحديث عن الانتصار النهائي للرأسمالية والليبرالية السياسية، بما يعنيه ذلك من رفض بروز أية أيديولوجيات ذات توجه عالمي، بل والترويج من قبل بعض الدوائر الغربية لفكرة العدو البديل، والإشارة إلى الإسلام في بعض الأحيان باعتباره هذا العدو^(٧٨). قد خلق ردود أفعال مضادة في العالم الإسلامي، إذ ساهم في إنكفاء ظاهرة بروز بعض الجماعات والحركات الإسلامية المسيية التي تطرح الإسلام كبديل حضاري عالمي، وبعضها يرفض الغرب جملة وتفصيلاً كما يرفض النظم الحاكمة في الدول الإسلامية، بل أن بعض هذه الجماعات يتخذ من العنف استراتيجية له للإطاحة بهذه النظم. ولا يتسع المقام هنا لتقييم هذه الظاهرة والبحث عن جذورها واستشراف مستقبلها^(٧٩)، ولكن المؤكد أنها من أخطر التحديات التي تواجه النظم الحاكمة في الدول العربية والإسلامية، كما أن مواقف بعضها إزاء رفض الغرب لاشك فيها.

ولل جانب الإسلام السياسي فإن مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، شهدت تصاعدا ملحوظا للظاهرة القومية في العديد من مناطق العالم^(٨٠). حيث راحت بعض الجماعات داخل بعض الدول تبحث عن هوياتها القومية وخصوصياتها الذاتية، وهناك دول تفككت بالفعل (الاتحاد السوفيتي، يوغسلافيا) على أسس دينية وقومية وعرقية، ودول أخرى مهددة بالتفتت تحت ضغوط نفس العوامل، وما يجري في بعض دول أوروبا الشرقية، وبعض دول الجنوب في الوقت

عالم الفكر

الراهن ليس بعيداً عن الأذهان . وهنا يبدو التناقض واضحاً بين الدعوة إلى نظام دولي جديد أو نظام عالمي جديد يشمل دول العالم قاطبة ، وبين اتجاه بعض المجتمعات إلى التفكك الداخلي ^(٨١) .

وبإيجاز ، فإن الإسلام والقومية يشكلان بدرجات متفاوتة تحدياً من قبل بعض القوى السياسية والاجتماعية في بعض دول الجنوب ، وكذلك في دول رابطة الكومنولث وبعض دول أوروبا الشرقية ، تشكلان تحدياً للطرح الأمريكي للنظام العالمي الجديد . وهكذا ، فإن نظرة الغرب إلى قيمه باعتبارها تمثل الإطار المرجعي العالمي والوحيد ، غالباً ما أدت - وستؤدي - إلى تنامي ظواهر المرفض والاحتجاج في المجتمعات ذات الهويات غير الغربية ، إذ أن بعض القوى الاجتماعية والسياسية داخلها ستعتبر دعوة الغرب هذه بمثابة عدوان صامت على خصوصياتها الثقافية والحضارية . وعلى الرغم من وجود توجه عالمي نحو الديمقراطية حيث شملت رياح الديمقراطية ورثة الاتحاد السوفيتي وبقية بلدان أوروبا الشرقية ، فضلاً عن العديد من بلدان آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، إلا أن هذا الاتجاه لا يدعم مقولة الانتصار النهائي للديمقراطية الليبرالية ، وذلك نظراً لأن الديمقراطية لم تستقر في هذه الدول لعدم توافر متطلباتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من ناحية ، ونظراً لوجود بعض المشكلات والتحديات التي تواجه عمليات بناء الديمقراطية في العديد من هذه الدول من ناحية ثانية . ولذلك ، فإنه لا يمكن استبعاد احتمالات حدوث ردة أو انتكاسة عن هذا الاتجاه في بعض الدول التي أخذت به ، وقد تظهر ديكتاتوريات ذات طابع ديني أو عسكري أو قومي أو طائفي ^(٨٢) .

وخلاصة القول : إن انهيار الشيوعية لا يعني أن الرأسمالية والديمقراطية الليبرالية قد انتصرتا بصورة نهائية ، وبذلك يكون التاريخ قد انتهى حسبما يتصور فوكوياما ، بل إن نياذج التطبيق الرأسمالي تواجه مشكلات حادة في دول الأصل ، كما أن تفكك الاتحاد السوفيتي قد أوجد مجالات جديدة للتنافس بين الدول الرأسمالية الكبيرة ، فضلاً عن بروز التحديات الأيديولوجية ذات الطابع الديني والقومي ، وذلك كردود أفعال لسياسات إضفاء الطابع العالمي على أيديولوجية ظهرت وتبلورت في سياق التاريخ الغربي وهو الرأسمالية على المستوى الاقتصادي والديمقراطية الليبرالية على المستوى السياسي ، وقيم الثقافة الغربية على المستوى الثقافي .

ثامناً : انعكاسات النظام الدولي الجديد على العالم العربي والإسلامي : موقع العرب والمسلمين في النظام الدولي الجديد

اهتم الفكر العربي برصد تأثيرات ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على العالم العربي والإسلامي . وفي هذا الإطار ، فإن هناك نوعين من الدراسات . دراسات ركزت على تناول تأثيرات ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على العالم العربي والإسلامي بصفة عامة ، ^(٨٣) ، ودراسات أخرى ركزت على رصد تأثيرات متغيرات دولية يعينها على الوطن العربي . ومن ذلك على سبيل المثال : التحولات في أوروبا الشرقية ، وانهيار الاتحاد السوفيتي ، وحركة الوحدة والاندماج في أوروبا الغربية ، والثورة الصناعية الثالثة ^(٨٤) .

ومما اتجه غالب في الفكر العربي يؤكد على أن الآثار السلبية المتوقعة لما يعرف بالنظام الدولي الجديد على العالم العربي والإسلامي تفوق آثاره الإيجابية المتوقعة في هذا المضمار . فالتغيرات الدولية الجديدة تفرض مزيداً من القيود على العرب والمسلمين ، ولكن هذا لا يمنع من أنها قد تتيح لهم بعض الفرص . والفاوق في الحالتين

أن الآثار السلبية مؤكدة أو شبه مؤكدة، وبدأت توتّي تأثيراتها بالفعل، بينا الآثار الإيجابية احتيالية، ومشروطة بقدرة العرب على تبني الإستراتيجيات اللازمة لتعظيم الإيجابيات وتقليص السليات. وهناك من يؤكد على أن النظام الدولي الجديد يعادي العرب والمسلمين وأن الدول المهيمنة على هذا النظام لا تستخدم القوة العسكرية إلا ضد العرب. كما أنها تستهدف السيطرة على النفط العربي، وضرب الفكر القومي العربي، وتشويه الثقافة العربية، والحيلولة دون قيام الوحدة العربية. ولذلك فقد ناقش باحثون ومفكرون عرب تأثيرات النظام الدولي على قضايا عربية عديدة مثل: القومية العربية، والوحدة العربية، وقضية الديمقراطية في الوطن العربي، ودور إسرائيل في المنطقة، ودور النفط العربي في الاقتصاد العالمي والثقافة العربية... الخ (٨٥).

ولمّا يتعلق بتأثيرات التحولات في أوروبا الشرقية وانهار الاتحاد السوفيتي على الوطن العربي، ركز الفكر العربي على عدد من الأمور في هذا السياق أهمها: فتح باب هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين المحتلة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من آثار وتداعيات مستقبلية على التوازن الديموقراطي بين إسرائيل والفلسطينيين في الأراضي المحتلة. واتجه دول أوروبا الشرقية لاستئناف علاقاتها مع إسرائيل (٨٦) كما ترتب على انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه فقدان التأييد الاستراتيجي لبعض الدول العربية من قبل قوة عظمى كانت توازن الولايات المتحدة الأمريكية. وبذلك تم تضيق هامش حرية الحركة الذي كان متاحاً لهذه الدول في ظل نظام القطبية الثنائية. وهو الأمر الذي أفسح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية لتقوم بإعادة ترتيب أوضاع المنطقة على النحو الذي يخدم مصالحها ومصالح حلفائها. وهناك من المفكرين العرب من يرى أن انهيار الاتحاد السوفيتي قد أدى إلى تراجع مكانة إسرائيل في الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة. ولكن الذي حدث في مرحلة ما بعد أزمة الخليج الثانية هو تدعيم التحالف الاستراتيجي بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة في ظل الإدارة الأمريكية الحالية، وذلك نظراً لعدة عوامل عديدة ليس هنا مجال الخوض فيها. وأكثر من هذا، فقد ألقت تحولات أوروبا الشرقية بتأثيراتها السلبية على القوى اليسارية في الوطن العربي. ومن المعروف أن اليسار العربي كان يعاني من أزمة متعددة الأبعاد، حتى قبل أن تحدث التحولات في أوروبا الشرقية (٨٧).

أما بخصوص انعكاسات مشروع «أوروبا ١٩٩٢» وأفاقه الوحدوية والاندماجية على الوطن العربي، فالملاحظ أن الباحثين والمفكرين العرب قد أولوا هذا الموضوع أهمية أكبر بكثير من تلك التي أولوها للتحولات في أوروبا الشرقية.

ويرجع ذلك إلى اعتبارات عديدة، منها: عامل القرب الجغرافي من ناحية، واتساع حجم العلاقات الاقتصادية والتجارية بين العرب وأوروبا من ناحية ثانية. وفي هذا الإطار ناقش باحثون عرب - تأثيرات مشروع أوروبا ١٩٩٢ على الوطن العربي بخصوص قضايا عديدة تتعلق بالتجارة والاستثمارات والنفط والمساعدات الاقتصادية وحركة الهجرة، وخاصة من بلدان شمال إفريقيا إلى أوروبا. والنتيجة الأساسية التي خلص إليها الفكر العربي في هذا الصدد هي أن «مشروع أوروبا ١٩٩٢» في حالة اكتماله سوف يطرح على العرب تحديات جديدة، ويضع عليهم قيوداً جديدة كما ناقشوا سياسة الجماعة الأوروبية تجاه عدد من قضايا المنطقة العربية ذات الطابع السياسي مثل عملية تسوية الصراع العربي-الإسرائيلي، والأمن في الخليج، والظاهرة الإسلامية في بعض البلاد العربية. وقد أثبتت خبرة كارة الخليج الثانية عدودية الدور الأوربي في التأثير على القضايا العربية مقارنة بالدور الأمريكي فيها (٨٨). وربما يرجع ذلك إلى أسباب عديدة منها:

انشغال دول الجماحة الأوربية بعمومها الداخلية وبالمشكلات الناجمة عن مشروعها التوحيدي، فضلاً عن انشغالها بالتحولات في أوروبا الشرقية. كما أن عدم تبلور سياسة خارجية موحدة للجماحة الأوربية يعتبر عاملاً هاماً في التأثير على فاعلية دورها تجاه القضايا العربية.

كما تناولت بعض الدراسات العربية التطورات الجارية في اليابان والصين ووصدت إمكانات تأثيرها على المنطقة العربية. وقد أوصت هذه الدراسات بضرورة افتتاح العرب على كل من اليابان والصين، باعتبارهما من القوى الصاعدة في النظام الدولي. ومن ثم فإن مزيداً من الانفتاح عليهما يمكن أن يوسع من هامش حرية الحركة المتاحة للدول العربية على الصعيد الدولي^(٨٩).

أما بخصوص تأثير ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على قضية التطور الديمقراطي في الوطن العربي فقد أكد الفكر العربي على أن بعض المتغيرات الدولية الجديدة تساهم في خلق بيئة ملائمة للتطور نحو الديمقراطية في الوطن العربي. ومن هذه المتغيرات على سبيل المثال^(٩٠): انهيار النظم الشيوعية القائمة على الانساق السياسية المغلقة في أوروبا الشرقية، وبذلك فقد نظام الحزب الواحد حجته التاريخية ومصداقية السياسية. كما أن انهيار الاتحاد السوفيتي حرر الولايات المتحدة الأمريكية من دعم ومساندة النظم الاستبدادية على غرار ما كانت تفعل في ظل نظام الحرب الباردة. وفي هذا الإطار فإن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تستخدم نفوذها الدولي لدعم التحولات الديمقراطية على الصعيد العالمي. ولكن على الجانب الآخر هناك بعض المتغيرات الدولية الجديدة يمكن أن تصب في اتجاه عرقلة التطور الديمقراطي في الوطن العربي، فما يعرف بالنظام الدولي الجديد يتسم باللامركزية في بنية وأنماط العلاقات بين وحيداته على نحو ما سبق ذكره. كما أن الثورة الصناعية الثالثة تساهم في تعميق الفجوة بين الجنوب والشمال وهو الأمر الذي سيؤدي إلى تفاقم المشكلات بين الجنوب والشمال، وما يمكن أن يقرب على ذلك من تداعيات سلبية على قضية الديمقراطية في الوطن العربي. ولهم من هذا كله أن الديمقراطية في الوطن العربي لا تأتي ضمن أولويات الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة. وهناك العديد من الظواهر والمؤشرات الدالة على ذلك^(٩١).

وهناك من يرى أن المتغيرات الدولية الجديدة تتضمن بعض الإيجابيات التي يمكن للحرب استثمارها لتدعيم دورهم في صياغة النظام الدولي الجديد. ومن هذه الإيجابيات على سبيل المثال: أن الثورة الصناعية الثالثة ساهمت في ذبوع الخبرة والمعرفة وتستطيع الدول العربية أن تستفيد منها. كما أن تنامي ظاهرة التكتلات الاقتصادية الكبرى يسمح للحرب بالمزيد من حرية الحركة والمتابعة للحصول على شروط أفضل فيما يتعلق بالعلاقة بين هذه التكتلات. ويرى البعض أن انهيار الاتحاد السوفيتي قد ساهم في تراجع أهمية إسرائيل كحليف استراتيجي للغرب^(٩٢).

وقد اهتم بعض الباحثين والمفكرين العرب بدراسة تأثيرات المتغيرات الدولية الجديدة على بعض مفاهيم ونظريات علم السياسة. فهناك مفاهيم بدأت تذبل وتراجع مثل مفهوم الحزب الواحد ومفهوم العالم الثالث. وهناك مفاهيم وظواهر بدأت معانيتها تتغير، ومن ذلك على سبيل المثال مفاهيم: القوة والحدود والأحلاف والسيادة الوطنية والأمن الجماعي والسلام العالمي. وهكذا، فإن تأثيرات المتغيرات الجارية في النظام الدولي لن تقتصر على العلاقات والتوازنات بين الدول فحسب، ولكنها سوف تحدث تغيرات ولو جزئية في البنية المفاهيمية لعلم السياسة وبخاصة فرع العلاقات الدولية^(٩٣).

تاسعاً: كيف يتعامل العرب مع النظام العالمي الجديد: الإمكانيات والتحديات

لقد طرح الفكر العربي بعض الرؤى والتصورات لكيفية التعامل مع ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد أو المتغيرات الدولية الجديدة على مستويين. أولهما، جزئي، حيث ركز بعض الباحثين والمفكرين العرب على طرح بعض التصورات والأساليب التي يتعين على العرب أن يتعاملوا بها مع متغيرات دولية بعينها. وثانيها، كلي حيث كان التركيز على تقديم رؤى وتصورات كلية وشاملة لكيفية تعامل العرب مع ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد. وعادة ما تنقسم هذه الرؤى بدرجة أكبر من العمومية.

أما فيما يتعلق بكيفية تعامل العرب مع متغيرات دولية بعينها، فقد ركز بعض الباحثين العرب على طرح بعض الأفكار والرؤى التي من شأنها تمكين العرب من التعامل بفاعلية مع أوروبا الموحدة، والثورة الصناعية الثالثة، ووزرة الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة الأمريكية في ظل إدارة كليستون، فضلاً عن بعض القوى الدولية الصاعدة مثل ألمانيا واليابان والصين^(٩٤).

وعلى الرغم من تشعب الأفكار والرؤى التي طرحها باحثون عرب للتعامل مع هذه المتغيرات والقوى الدولية، إلا أنه كان بينهم شبه اتفاق على عدد من الأمور العامة التي تعتبر بمثابة مقدمات ضرورية للتعامل العربي مع هذه المتغيرات. ومن أهم هذه المقدمات: إعادة ترتيب البيت العربي من الداخل أولاً، وذلك بإعادة صياغة العلاقات العربية - العربية على أسس جديدة تقوم على المصارحة والمكاشفة وتصفية مصادر الصراع والتوتر بين بعض الأنظمة العربية والاتفاق على أسس وقواعد لإدارة هذه الصراعات وحلها. يرتبط بذلك ضرورة التقييم الموضوعي والجاد لخبرة العمل العربي المشترك خلال العقود الخمسة المنصرمة، بقصد الوقوف على الأسباب الجوهرية لتعثر العمل العربي المشترك وطرح بعض الرؤى والأفكار الواقعية للتغلب على هذه المعوقات. بالإضافة إلى تطوير استراتيجيات وبرامج عربية للتعامل مع كل من المتغيرات الدولية التي سبق ذكرها على حدة، وذلك بقصد تدعيم قدرة العرب على التكيف مع المتغيرات الدولية الجديدة من ناحية. وتعميم الفرص التي تتيحها لهم بعض هذه المتغيرات من ناحية ثانية، وتقليص السلبات والقيود التي تفرضها عليهم متغيرات دولية أخرى من ناحية ثالثة. ومثل هذه الاستراتيجيات لا يمكن تطويرها إلا في إطار المؤسسة العربية الأم وهي الجامعة العربية بمؤسساتها وأجهزتها المختلفة. ومن هنا تبدو أهمية تطوير الجامعة العربية وإحياء دورها حتى تستطيع أن تنهض بمسئولياتها في دعم العمل العربي المشترك وتفعيل دور العرب في النظام الدولي الذي يمر بمرحلة تحول وإعادة صياغة الوقت الراهن. وفي هذا الإطار أكد بعض الباحثين والمفكرين العرب على صياغة استراتيجية عربية للتعامل مع العلم والتكنولوجيا الحديثة. وثانية للتعامل مع التكتلات الاقتصادية الدولية. وثالثة لتوثيق علاقات العرب بالقوى الدولية الصاعدة، ورابعة للحوار مع الثقافات الأخرى. ويسبق كل ذلك استراتيجية عربية لتحقيق التكامل العربي وتدعيم الديمقراطية وحقوق الإنسان في الأنظمة العربية، فضلاً عن تعميق الأصالة الثقافية والحضارية، وتحقيق التنمية والعدل الاجتماعي.

أما الرؤى الكلية لكيفية التعامل مع ما يُعرف بالنظام الدولي الجديد فقد طرحت بصفة أساسية من قبل بعض رموز قوى التيار الإسلامي والتيار القومي في الوطن العربي. وفي هذا الإطار فقد أكد مفكرون

قوميون على عدة مدخلات للتعامل مع النظام الدولي الجديد منها^(٩٥) : إحياء القومية العربية والسعي لتحقيق الوحدة العربية ، وإحياء النظام العربي ، وإحياء دور الجامعة العربية ، وتدعيم سياسات التنمية المستقلة والاعتداد الفردي والحيادي على الذات في الوطن العربي وتحقيق التعايش والتفاعل الموضوعي بين مختلف التيارات السياسية في الوطن العربي وبخاصة التيارات القومية والتيارات الإسلامية . وتأكيد الروابط التضاللية مع دول الجنوب والحركات السياسية والاجتماعية فيها ، وإسقاط الدعاوى التي تحاول ترسيخ مقولة نهاية حركة عدم الانحياز ، وتدعيم التعاون العربي - الإفريقي ، وتهيئة الأقطار العربية للانفتاح على القارة الآسيوية لتقليل الاعتماد العربي على الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، ونشر الوعي بين دول الجنوب كافة بأهمية حماية حقوقها في المنظمة الدولية وتعزيز التعاون بين المنظمة الدولية والمنظمات الإقليمية .

أما بعض رموز التيارات الإسلامية فقد طرأ رؤية عامة لكيفية تعامل العرب والمسلمين مع ما يعرف بالنظام الدولي الجديد . وقد تمحورت هذه الرؤية حول عدد من الأفكار منها^(٩٦) : إحياء المشروع الحضاري الإسلامي باعتباره يمتلك القدرة على طرح بديل للنموذج الحضاري الغربي ، ووضع الإسلام موضع التطبيق في الدول الإسلامية ، ومقاومة النظم السياسية التسلطية والمعملة في البلدان الإسلامية . فالعودة إلى الله والإيمان والعمل ، تلك أمور تمثل أسساً للحرمة والكرامة في التعامل الدولي . والتحرير على مواجهة ومجاهدة أطمع الكفر والفساد . وهذا وقد أكد بعض المفكرين الإسلاميين على ضرورة إقامة سوق اقتصادية إسلامية مشتركة ، وتدعيم أسس التعاون والتكامل بين الدول الإسلامية في مختلف المجالات ، وترشيد حركة الإحياء الإسلامي ، وتدعيم الروابط بين القوى والحركات الإسلامية في مختلف بلدان المسلمين . فالقوى الإسلامية المسلحة بالعقيدة هي القادرة على رفض كافة صور الهيمنة والاستغلال التي يفرضها النظام الدولي الجديد على المسلمين وتحديها .

وهكذا ، نرى وتصورات التيارات القومية والإسلامية للتعامل مع ما يعرف بالنظام الدولي الجديد على أساس مواجهة هذا النظام ورفض إمكانات التعايش أو التكيف معه .

ومرد ذلك طبيعة وخصوصية رؤية أو رؤية قوى كل من التيارين لماهية النظام الدولي الجديد وتأثيراته القائمة والمحتملة على العرب والمسلمين . فمن وجهة نظر التيارات القومية هو يعادي فكرة القومية العربية والوحدة العربية والتنمية المستقلة ويكرس علاقات السيطرة والهيمنة على العرب من قبل القوى صاحبة السيطرة في هذا النظام وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية . أما من وجهة نظر التيارات الإسلامية ، فإن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد يناسب الإسلام العداء ، بل ويشن حرباً صليبية جديدة على المسلمين . وفي هذا الإطار ، تركز فكرة المواجهة لدى قوى التيار القومي على مقولة إحياء المشروع القومي العربي ، بينما تركز فكرة المواجهة لدى قوى التيار الإسلامي على مقولة إحياء النموذج الحضاري الإسلامي . وهناك بعض الأصوات التي تطالب بضرورة التحالف بين قوى التيار القومي وقوى التيار الإسلامي لمواجهة التحديات والمخاطر التي تستهدف العرب والمسلمين من قبل النظام الدولي .

هذا وقد اتسمت مقولات ورؤى قوى التيار القومي وكذلك التيار الإسلامي فيما يتعلق بكيفية التعامل

مع النظام الدولي الجديد بطابع العمومية والتجريد . حيث طرح بعض رموز التيارين أهدافا وأفكارا عامة - بعضها مطروح منذ عدة سنوات سابقة - وهي أقرب إلى منطق التفكير بالأمان ، خاصة وأن القائلين بها لم يناقشوا بصورة جادة كيفية تحقيق هذه الأهداف أو بالأحرى كيفية إيجاد الشروط الموضوعية اللازمة لتحقيق هذه الأهداف . كما أنهم لم يطرحوا تصورات محددة لما يجب عمله إلى حين أن يتم إحياء المشروع القومي العربي أو المشروع الحضاري الإسلامي . ناهيك عن المسحة الأيديولوجية والعاطفية الفجة التي ميزت طروحات بعض المفكرين المنتمين إلى قوى التيارين المذكورين .

ملاحظات ختامية

وفي ختام هذا البحث يمكن التأكيد على عدد من الاستنتاجات التي تلخص أبرز خصائص الفكر العربي بصدده تعامله مع المتغيرات الدولية الجديدة أو ما يعرف بالنظام الدولي الجديد^(٩٧) .

أولى هذه الملاحظات ، غلبة النظرة الحدية على رؤى وتصورات بعض المفكرين والباحثين العرب المتعلقة بفهم التطورات والمتغيرات التي تجري على الصعيد الدولي في الوقت الراهن . فهناك فريق يسلم بوجود نظام دولي جديد ، ويشير إلى هذا النظام معرّفا ، فيستخدم تعبير النظام الدولي الجديد . وهناك فريق آخر ينفي وجود نظام دولي جديد . وما بين هذين الفريقين يوجد فريق ثالث يؤكد على أن هناك نظاما دوليا جديدا لكنه لا يزال تحت التكوين أو قيد التشكيل . وداخل معسكر القائلين بوجود نظام دولي جديد ، هناك من يؤكد أنه نظام أحادي القطبية ، وهناك من يقول بأنه نظام متعدد الأقطاب ، وهناك من يشير إلى أنه نظام أحادي على الصعيد الاستراتيجي ومتعدد على الصعيد الاقتصادي والمالي .

وتعكس هذه النظرة الحدية من قبل بعض المفكرين العرب في رؤيتهم للنظام الدولي الجديد عدة دلالات منها : غلبة الانحيازات القيمية والأيديولوجية المسبقة في فهم المتغيرات الدولية ، والخلط بين التحليل العلمي والتعبير عن الموقف السياسي ، فضلا عن غلبة النظرة الآنية في تحليل الأحداث والتطورات الدولية وإصدار أحكام نهائية بشأنها . فالمرحوف أن التغير في النظام الدولي لا يكون وليد حدث بعينه ، ولكنه عادة ما يكون نتاجا لمجموعة من التطورات والمتغيرات الجزئية التي تحدث على فترة ممتدة من الزمن ، وتحدث تراكبات يترتب عليها حدوث تغير نوعي في طبيعة النظام . وقد تأتي بعض الأحداث الدولية الكبرى لتعلن أو تكشف عن طبيعة هذا التغير وحجمه .

وثانيها ، غلبة طابع الوصف على الكثير من الدراسات العربية التي تناولت موضوع النظام الدولي الجديد . حيث ركزت هذه الدراسات على رصد بعض المتغيرات الدولية الجديدة دون التعمق في فهمها وتحليلها وتفسيرها .

وثالثها ، غياب المنهجية التاريخية المقارنة عن جل البحوث والدراسات العربية التي عالجت القضية موضع البحث . ومن المؤكد أن هذه المنهجية هي الأكثر ملاءمة لتقديم إجابات على بعض التساؤلات الهامة مثل : متى يحدث التغير في هيكل النظام الدولي ؟ وكيف يحدث هذا التغير ؟ . فمن خلال هذا المدخل يمكن التعمق في تحليل العوامل الأساسية المحركة للتغير في النظام الدولي الراهن ، وديناميات هذا التغير .

ورايتهما ، ضعف اهتمام الفكر العربي بتحليل ورصد واستشراف دور بعض القوى الدولية الصاعدة في النظام الدولي الجديد ، وهي بالتحديد اليابان والصين وألمانيا . فضلا عن بعض القوى الإقليمية الأخرى الهامة في القارات الثلاث . فاهتمامات الباحثين والمفكرين العرب بهذه القوى تعتبر محدودة من حيث الكم والكيف عند مقارنتها بطبيعة اهتمامهم بالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي (السابق) وأوروبا الغربية . وقد أصبح من المؤكد أهمية وضرورة التركيز على فهم القوى الصاعدة في النظام الدولي ، وتحليل رؤى وتصورات النخب الحاكمة فيها لماهية النظام الدولي الجديد ، وطرح بعض الاستراتيجيات والخطط التي من شأنها توثيق علاقات العرب بهذه القوى ، لأن هذا من شأنه منح العرب قدرا من حرية الحركة والمناورة في التعامل على الصعيد الدولي .

وخامستها ، أن الفكر العربي لم يطرح في الغالب أفكارا وتصورات محددة لكيفية التعامل مع ما يعرف بالنظام الدولي الجديد . وقد جاءت أغلب الرؤى والطروحات في هذا المجال عامة جدا وفضفاضة ، أي لم تتضمن اقتراحات عملية في شكل سيناريوهات وبدائل مشروطة لكيفية التعامل العربي الفعال مع المتغيرات الدولية الجديدة بالشكل الذي يدعم من موقع العرب في النظام الدولي الجديد الذي لا يزال تحت التشكيل ، والذي قد تستغرق عملية تكوينه بقية سنوات القرن العشرين وربما بعض سنوات القرن الحادي والعشرين .

وهكذا ، يتعين على الفكر العربي القيام بعملية مراجعة نقدية جادة لمختلف الأفكار والطروحات التي أنتجها حول النظام الدولي الجديد ، وذلك بقصد التوصل إلى فهم أعمق لماهية العوامل الدافعة إلى التغيير في النظام الدولي ، وديناميات هذا التغيير وآفاقه المستقبلية وانعكاساته القائمة والمحتملة على الوطن العربي ، فضلا عن بلورة بعض التصورات والمقترحات العملية التي تمكن العرب من التعامل بفاعلية مع المتغيرات الدولية الجديدة .

الهوامش

- (١) ازيد من التفاصيل حول تحليل الرؤية الأمريكية الرسمية وغير الرسمية للنظام الدولي الجديد:

أحمد عبد الرزاق شكتارة، «الفكر الاستراتيجي الأمريكي والشرق الأوسط في النظام الدولي الجديد»، للسجل العربي، عدد ١٧٠ (أبريل ١٩٩٣)، ص ٥٢-٥٧، «المعبر الثقافي»، «النظام العالمي الجديد: رؤية نقدية»، المجلة العربية للدراسات الدولية، عدد ٤٣-٤٤ (ربيع - صيف ١٩٩٢)، ص ٥-٣٢، د. نادية مصطفى، «النظم الدولي»، في: الألة في عالم (تقرير حولي) (القاهرة: مركز الدراسات الحضرية، ١٩٩١/١٩٩٢)، ص ٩١-٧٥.
- (٢) انظر على سبيل المثال:

د. إبراهيم حليمي عبدالرحمن (عمر)، عالم الغد... عالم واحد أم عوالم متعددة (القاهرة: كتاب الأهرام الاقتصادي، عدد ٤٤، أكتوبر ١٩٩١)، ولغنى المؤلف، التطورات الدولية الجارية... فرص وتحديات (القاهرة: كتاب الأهرام الاقتصادي، عدد ٣٧، مارس ١٩٩١)، السيد يسين، التغيرات العالمية وسواها الحضرية في عالم متغير (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كراسات استراتيجية، عدد ١٤، مارس ١٩٩٣)، أنور عبدالملك، تغير العالم (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد ٥٩، نوفمبر ١٩٨٥)، د. حسن نافع، الأمم المتحدة بعد نهاية الحرب الباردة، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كراسات استراتيجية، عدد ١٠، يوليو ١٩٩٢)، أحمد شرف، مسيرة النظام الدولي قبل وبعد حرب الخليج (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٢)، أحمد الموصلي، الأصولية الإسلامية والنظام العالمي (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتسويق، ط١، ١٩٩٢) الصادق المهدي، الإسلام والنظام العالمي الجديد (دارة الإعلام الخارجي: حزب الأمة، د. ت)، حلدون حسن النقيب ومباركة المدوني، ثورات التغييرات: العالم العربي وحضارات نهاية القرن (القاهرة: الهيئة للدراسة العامة للكتاب، ط١، ١٩٩١)، د. سعد الدين إبراهيم (عمر)، مستقبل النظام العالمي وتحديات تطوير التعليم (عاج: منتدى الفكر العربي، ط١، ١٩٩٢)، د. سعد الدين إبراهيم ود. حسن وسيم (عمر)، أزمة الخليج ومستقبل الشرق الأوسط: رؤية عربية وأفريقية (القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإيجابية، ط١، ١٩٩٢)، د. سيف الدين عبدالفتاح، عقلية الوهن: دراسة لأزمة الخليج: رؤية نقدية للواقع العربي في ضوء النظام العالمي الجديد (القاهرة: دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩١)، د. علي النجدي هلال (عمر)، العرب والعالم (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٨) جلال زورث سعيد، أمتنا والنظام العالمي الجديد (القاهرة: أمة برس للإعلام والفكر، ١٩٩١)، د. د. محمد التميمي، مصر والنظام الدولي في التغييرات (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية - سلسلة بحوث سياسية، عدد ٨١، أغسطس ١٩٨٨)، ولغنى المؤلف، العرب ومستقبل النظام العالمي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٧)، ولغنى المؤلف، العرب والنظام العالمي الجديد: الخيارات الطروحة (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كراسات استراتيجية، عدد ٣، مايو ١٩٩١)، د. عبدالخالق عبدالله، العالم المتأخر والصراعات الدولية (الكويت: للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩)، عمرو موسى، التحولات في النظام الدولي وتأثيرها على العالم الثالث: نظرة مستقبلية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية - سلسلة بحوث سياسية، عدد ٨١، أغسطس ١٩٨٩)، ولغنى المؤلف، (عمر)، الوطن العربي والتغيرات العالمية (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ط١، ١٩٩١)، ولغنى المؤلف، مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط١، فبراير ١٩٩٢)، د. نازلي مومض أحد (عمر)، الوطن العربي في عالم متغير (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١، ١٩٩١).
- (٣) جدير بالذكر أن أكثر الدورات العربية اهتماما بموضوع النظام الدولي الجديد خلال الأعوام الثلاثة لتصره هي: الوحدة، والمستقبل العربي، وشؤون عربية، والسياسة الدولية.
- (٤) من هذه الندوات على سبيل المثال مايلي:

ندوة «العرب والنظام العالمي الجديد» التي نظمها الجمعية العربية للعلوم السياسية في القاهرة خلال فترة ١٣ - ١٤ / ٩ / ١٩٩٢، وندوة مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد التي نظمها مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة خلال الفترة ٢٤ - ٢٧ / ١٢ / ١٩٩٢، وندوة «العرب في عالم متغير» التي نظمها اللجنة المصرية للتضامن في القاهرة خلال الفترة ١٦ - ١٧ / ١ / ١٩٩٣، وندوة «العالم العربي وتحدياته في ظل النظام الجديد» التي نظمها مركز الدراسات العربي - الأوروبي بباريس خلال الفترة ٢٥ - ٢٧ / ١ / ١٩٩٣، وندوة «الوضع الدولي الجديد» التي نظمها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة طرابلس - ليبيا خلال الفترة ٥ - ٧ / ٤ / ١٩٩٣.
- (٥) انظر على سبيل المثال:

عبد فؤاد شعبي، «من مقولة النظام العالمي الجديد إلى تاريخية»، شؤون دولية، عدد ١ (صيف ١٩٩٢)، ص ١١-١٣، محمد الأطرش، «تطور النظام الدولي»، للسجل العربي، عدد ١٧١ (مايو ١٩٩٣)، ص ٢٥-٥٦.

(٦) انظر على سبيل المثال:

حسن سيد سليمان، «تفكير طيبة الأوضاع المالية الجديدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب وبظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، د. سليم الحصن، «في نظام عالمي جديد»، الفكر العربي، عدد ٦٦ (أكتوبر-ديسمبر ١٩٩١)، ص ١٢-٣٥، د. سيف الدين عبد الفتاح، «حول التميز في مفهوم النظام العالمي الجديد»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٨ (خريف ١٩٩٢)، ص ٧-٨٠، محمد السيد سعيد، «أطموح النظام العالمي الجديد بين الاستعداد والمشاركة»، العربي، عدد ٤٠٣ (يونيو ١٩٩٢)، عدد تاج الدين الحسيني، النظام الدولي الجديد بين اليوم والواقع، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٦٨-٧٤.

(٧) انظر على سبيل المثال:

سمير أمين، «المتعة العسكرية الأمريكية في النظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٣٤-٥٠، ولغس المؤلف، بعد حرب الخليج... الحزمة الأمريكية... إلى أين... المستقبل العربي، عدد ١٧٠ (أبريل ١٩٩٣)، ص ٤-٢٢، عزت سيد أحمد، «هل بدأ عصر الميتة الأمريكية»، الوحدة، عدد ٩٨ (نوفمبر ١٩٩٢)، ص ٩٦-١٠٧، د. طه عبدالمليم، «الدور الرئسي في النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره، د. طه عبدالمليم، «الدور الرئسي في النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره، د. محمد السيد سعيد، «احتلالات التطور المستقبل للنظام الدولي»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره، د. با النكاري، «الدور الأمريكي في النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره، د. حالة سويدي، «الفرق الصاعدة في النظام العالمي الجديد: أوروبا واليابان»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي» مرجع سبق ذكره.

(٨) انظر على سبيل المثال:

إبراهيم البيومي غانم «الحركة الإسلامية للصربية والنظام الدولي الجديد»، في د. مصطفى كامل السيد (محرر)، حتى لا تنشب حرب عربية - عربية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط ١، ١٩٩٢)، ص ٢٣-٦٢، أحمد موصلي، «الإسلام والنظام العالمي الجديد من وجهة نظر الأصولية الإسلامية»، منبر الحوار، عدد ١٨ (صيف ١٩٩٠)، ص ١٤٣-١٥٥، الصغير الرحاني، مرجع سبق ذكره، د. حسين توفيق إبراهيم، «الفكر العربي وإشكالية النظام العالمي الجديد»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ٤٩-٦٩، زكي أحمد، «النظام العالمي الجديد في تصور الإسلاميين العرب»، المستقبل العربي، عدد ١٥٧ (ماوس ١٩٩٢)، ص ١٣٦-١٤٢، د. عبد الوهاب المسيري، «النظام العالمي الجديد ودينامية التاريخ والإسلام: رؤية معمورة»، في:

الأمة في عام (تقرير حولي)، مرجع سبق ذكره، ص ٨٠-١٩٩٣، عباد جاد، «قوة العرب للنظام الدولي»، رؤية، العدد ١ (يوليو ١٩٩١)، ص ٨-١٤، د. دودو بدران، «الروى المختلفة للنظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» مرجع سبق ذكره.

(٩) انظر على سبيل المثال:

المختار الطميط، «محاولة في تفسير طبيعة النظام الدولي الجديد وموقع العرب منه»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، أحمد ثابت، أوروبا الموحدة والعرب وتحولات نهاية القرن، «الفكر العربي»، عدد ٦٨ (أبريل -يونيو ١٩٩٢)، ص ٢٠-٢٧، أحمد طه، «نضال إفريقيا والنظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١١٣ (يوليو ١٩٩٣)، ص ٥٠-٦٩، جاسم محمد عبد الله، «المتغيرات العالمية واتكاساتها على الوطن العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٣٩ (سبتمبر ١٩٩٠)، د. حسين توفيق إبراهيم، «التحولات الرهانة في أوروبا الشرقية واتكاساتها على الوطن العربي»، الفكر الاشتراطي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ١٦٩-٢١٢، طه عبدالمليم (محرر)، انبهار الاتحاد السوفيتي وتأثيراته على الوطن العربي (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاشتراكية بالأهرام، ط ١، ١٩٩٢)، د. رجا سليم، «النظام العالمي الجديد وتمكاته على إفريقيا»، السياسة الدولية، عدد ١٠٧ (يناير ١٩٩٢)، ص ١٨٣-١٨٨، عبدالله عبد الغلام، «هل يبدو أبناء العالم الثالث البريرة الجدد في النظام الدولي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٦٠ (يونيو ١٩٩٢)، عبد الإله بلقزيز، «العرب والنظام الدولي الجديد»، شئون عربية، عدد ٦٥ (أبريل ١٩٩١)، ص ١٠٣-١١٢، محمد شوقي عبد المال حافظ، «موقع العرب في النظام العالمي الجديد»، شئون عربية، عدد ٥٧ (سبتمبر ١٩٩٣)، ص ٦٧-٨٨، د. ناصيف يوسف حني، «التحولات في النظام العالمي وآليات الفكر الجديد وتمكاته على النظام الإقليمي العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٦٥ (نوفمبر ١٩٩٢)، ص ٩٢-٥٢، نصير نوري محمد، «العالم الثالث والنظام العالمي الجديد: قضايا تستلزم التحليل الاشتراطي»، الوحدة، عدد ٩٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، د. ياسين سويدي، «موقع الوطن العربي في النظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ١٠٠ (يناير ١٩٩٣)، ص ٧٢-٧٩، وحيد عبد المجيد، «تأثير تفكك الاتحاد السوفيتي على العالم العربي والإسلامي»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٥ (شعب ١٩٩٢)، ص ٢١٢-٢٣٦، ياسين الميروطي، «إفريقيا في عالم ما بعد الحرب الباردة، السياسة الدولية»، عدد ١٠٦ (أكتوبر ١٩٩١)، ص ٢٦-٣٥.

(١٠) انظر على سبيل المثال:

د. إبراهيم سعد الدين، «التنمية للسفلة والتغيرات الدولية المعاصرة»، المستقبل العربي، عدد ١٥٧ (مارس ١٩٩٢)، ص ١٧-٢٧، المختار الطميط، «قضية الصومال والنظام العالمي الجديد الوحدة»، عدد ١٠١-١٠٢ (فبراير -مارس ١٩٩٣)، ص ٩٩-١٠٤، د. براهيم طيرون، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الوطن العربي»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ١ (شعب ١٩٩١)، ص ٧٣-٨٦، حسين توفيق إبراهيم، النظام الدولي الجديد وإشكالية التطور الديمقراطي في الوطن العربي: قضايا وتساؤلات (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ودار سعاد الصباح، ط ١، ١٩٩٢)، خليل أحمد خليل، «الحاجز السوفيتي العربي في ظل النظام الدولي الجديد»، الوحدة،

عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٨-١٥، ولغش المؤلف، «الشروع القومي العربي في مواجهة التحديات المالية الجليدية»، الفوحة عدد ١٠٠ (سباير ١٩٩٣)، ص ٢٥-٣٢، د. عبد الحميد سعيد، «الديمقراطية والنظام المالي الجديد»، الديمقراطية - الكتاب الرابع (أغسطس ١٩٩٢)، ص ٥-١٥، عبدالله عبد النديم، «القومية العربية ومستقبل النظام المالي»، شئون عربية - عدد ٧٤ (يوليو ١٩٩٣)، ولغش المؤلف، «القومية العربية ومستقبل النظام المالي الجديد»، شئون عربية - عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ٢٢-٣٤، عبد الإله بلقزيز، «مستقبل العمل الوطني في الوطن العربي في ضوء التحولات الدولية المستقبل العربي»، عدد ١٤٥ (مارس ١٩٩١)، عبدالمطيف الشواف، «التغيرات في النظام الدولي وقضية الوحدة»، المستقبل العربي، عدد ١٣٣ (مارس ١٩٩٠)، ص ٤-٢٣، ولغش المؤلف، «التغيرات في النظام الدولي وقضية الوحدة... أيضا»، المستقبل العربي، عدد ١٤٤ (فبراير ١٩٩٢)، ص ٤-٢٠، عمر الحامدي، «التحولات العربية والنظام المالي الجديد»، الفوحة، عدد ٩٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، ص ١٠١-١٠٨، د. غالي شكري، «الثقافة والتغيرات المالية»، مجلة القاهرة، عدد ١٢٩ (أغسطس ١٩٩٣)، ص ٥٢-٧٧، مبدل الويس، «التغيرات الجارية في النظام الدولي وأثرها على مستقبل الوحدة العربية»، عدد ٨٩ (فبراير ١٩٩٢)، ص ٥٥-٧٢، محمد رشاد الشريف، «العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية والنظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٥١-٦٣، ميلود الملهدي، «قرارة مناصرة لمصالحات معاصرة، النظام العالمي الجديد والشرعية الدولية وقضية لوكربي»، المستقبل العربي، عدد ١٦١ (يوليو ١٩٩٢)، ص ٤٦-٤٧.

(١١) انظر على سبيل المثال:

إسماعيل القري، «مسألة الخليج: جعلوا التدخل الأمريكي في الوطن العربي»، الفوحة، عدد ٧٧-٧٨ (فبراير-مارس ١٩٩١)، أحمد طه، «التفكك الدولي والنظام المالي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٩ (يوليو ١٩٩٢)، ص ٩٦-١٠٤، أحمد إبراهيم محمود، «ظاهرة القرض والمف السلمي في النظام الدولي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٨ (فبراير ١٩٩٢)، ص ٢٧٧-٢٨٠، ولغش المؤلف، «ظاهرة الصراع الدولي وعالم ما بعد الحرب الباردة»، السياسة الدولية، عدد ١٠٩ (يوليو ١٩٩٢)، أمين مويدي، «فن إدارة الأزمات في ظل النظام العالمي الحالي»، المستقبل العربي، عدد ١٧٢ (يونيو ١٩٩٣)، ص ١٣-٢٣، ولغش المؤلف، «مفهوم استخدام القوة في النظام العالمي الجديد»، العربي، عدد ٣٩٧ (ديسمبر ١٩٩١)، ص ٢٠-٢٥، د. جمال رمضان، «أزمة الخليج في مواجهة النظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٣ (يناير ١٩٩١)، ص ٨٠-١٩٨، د. حسن بكري أحمد، «النظام الدولي الجديد بعد أزمة الخليج»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٣ (صيف ١٩٩١)، ص ٧-٢٩، ولغش المؤلف، «ملاحظة نقدية لنظرية فوكوياما: نهاية التاريخ أم إيديولوجية الرجل الأفعى؟»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٩ (شتاء ١٩٩٣)، ص ١٥١-١٥٩، د. عبد الحميد سعيد، «حرب الخليج والنظام المالي الجديد»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول/ الثاني (ربيع - صيف ١٩٩١)، ص ١٥٣-١٧٤، د. عصام الدين جلال، «تفقد البيت والنظام المالي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ٧٥-٧٨، د. علاء الحندي، «قمة الأرض والعلاقة بين الشمال والجنوب»، السياسة الدولية، عدد ١١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ٨٩-٩٧، د. غسان سلامة، «العرب إسرائيل»، أمريكا والمفاوضات، المستقبل العربي، عدد ١٧٢ (يونيو ١٩٩٣)، ص ١٢-١٤، محمد عاشور مهدي، «ميشاق الأمم المتحدة بين التأويل والتفسير»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٥٧-٧١، محمد الغمري، «الحملة الأمريكية ضد الجماهيرية الليبية في ضوء أحكام القانون الدولي»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٢٠٧-٢٤٦، د. محمد صفور، «كارتة الخليج وأزمة الشرعية في العصر الأمريكي (القاهرة: دار الفاروق العربي، ١٩٩١)، محمد شومان، «فجر الخليج تكشف من زيف وعنصرية الدعوة إلى نية التاريخ»، الجهاد، عدد ٩٨ (فبراير ١٩٩١)، محمد الرميحي، «هل من دور جديد للأمم المتحدة»، العربي، عدد ٤١٢ (مارس ١٩٩٣)، ص ١٢-١٨، د. هشام الكيلاني، «السياسة والحرب في زمن التغير»، العربي، عدد ٤٠٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، ص ٢٤-٢٨، ولغش المؤلف، «منزلة القوة في النظام العالمي الجديد»، العربي، عدد ٤٠٤ (يوليو ١٩٩٢)، ص ٢٧-٣١، ولغش المؤلف، «عسكرة الأمم المتحدة»، العربي، عدد ٤٠٧ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ٢٩-٣٤، وائل حالي، «أفرون نهاية التاريخ»، مجلة القاهرة، عدد ١١٧ (أغسطس ١٩٩٢).

(١٢) انظر على سبيل المثال:

د. أحمد كمال أبو لهند، «المسلمون والنظام المالي المتغير»، العربي، عدد ٣٩٩ (فبراير ١٩٩٢)، ولغش المؤلف، «تأملات في مستقبل العالم وماكانت فيه»، العربي، عدد ٤٠٥ (أغسطس ١٩٩٢)، ص ٤٤-٤٧، عبد الإله بلقزيز، «بعد انهيار الاتحاد السوفيتي: فما العمل»، المستقبل العربي، عدد ١٥٤ (ديسمبر ١٩٩١)، ص ٤-٢٥، د. عصام نعمان، «العرب والعصر: رؤية قومية للخروج من التفرقة»، المستقبل العربي، عدد ١٥٨ (فبراير ١٩٩٢)، ص ٢٢-٣٩، د. محمد سعيد أبو عمرو، «شروط تعامل العرب الناجم مع التغيرات المالية الجليدية»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، مركز دراسات العالم الإسلامي، ما هو دورنا في صنع السياسات الدولية»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ١٣ (١٩٩١)، ص ٢-٦.

(١٣) الصغير الرحاني، مرجع سبق ذكره، ص ١١.

(١٤) انظر على سبيل المثال:

صلاح الدين حافظ، «فوضى النظام الدولي»، الأهرام، ١٩٩٣/٦/٢٣، عاطف الغمري، «هذه السنوات المحطية في اللاتظام الدولي»، الأهرام، ١٩٩٣/٤/١٤، عصام الدين جلال، «العلاقة في اللاتظام العالمي الجديد»، الأهرام، ١٩٩٣/٣/١٨.

(١٥) انظر تاصيلًا لمفهوم النظام الاقتصادي العالمي الجديد في د. إسماعيل صبري، عبدالله، نحو نظام اقتصادي عالمي جديد (القاهرة: لجنة للصحة العامة للكتاب، ١٩٧٧).

(١٦) لمزيد من التفاصيل انظر:

د. خليل صلات، «النظام الجديد للإعلام الدولي»، عالم الفكر، عدد ٤ (أيار-مارس ١٩٨٤)، د. عواطف عبدالرحمن، قضايا التنمية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٧٨، يونيو ١٩٨٤)، د. معصتي المصودي، النظام الإعلامي الجديد (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٩٤، أكتوبر ١٩٨٥)، د. نادية حسن سالم، «النظام الإعلامي العالمي الجديد مع دراسة تطبيقية على الصحافة المصرية»، ورقة قدمت إلى ندوة «النظام الإعلامي العالمي الجديد - رؤية موضوعية ونظرة الدليل التامية»، القاهرة ٢٢-٢٤.

(١٧) لمزيد من التفاصيل انظر:

إبراهيم عرفات، «الإصلاح وحدود التغيير في الاتحاد السوفيتي»، السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، ميخائيل جورباتشوف، البيروستويكا: تفكير جديد لبلادنا والعالم، ترجمة حمدي عبدالمجيد (القاهرة: دار الشروق، ط١- ١٩٨٨)، رشيد شقير، «أيديولوجية البيروستويكا: الديمقراطية والسلام»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، د. تازلي مصور أحمد، «إصلاحات جورباتشوف الداخلية والتغيير في السياسة الخارجية»، السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، وأنتس المولفة، «النظرة السوفيتية الجديدة للصراع والتوازن في العالم المعاصر»، السياسة الدولية، عدد ٩٤ (أكتوبر ١٩٨٨).

(١٨) من هذه الكتابات على سبيل المثال مالي:

د. أحمد عيسى عبدالصديق، «الهدوء ومظاهر التغيير في عتلة المعاصر وتأثير ذلك على السياسة الخارجية بصفة عامة»، في: د. أحمد يوسف أحمد (محرر)، سياسة مصر الخارجية في عالم متغير (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١- ١٩٩٠)، د. إسماعيل صبري مفاد، الاستراتيجية الدولية في عالم متغير (الكويت: شركة كاسطة، ١٩٨٣)، د. أنور عبد الملك، تغيير العالم، مرجع سبق ذكره، د. ملوى شعراوي، جمعة، «مصر والنظام الدولي: سيناريوهات التغييرات»، في: د. علي الدين هلال ود. عبدالمجيد سعيد (محرران)، مصر وتحديات التغييرات (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١- ١٩٩١)، د. عبدالمجيد سعيد، العرب ومستقبل النظام العالمي، مرجع سبق ذكره، وأنتس المولفة، مصر والنظام الدولي في التغييرات، مرجع سبق ذكره، علي الدين هلال (محرر)، العرب والعالم، مرجع سبق ذكره، عمرو موسى، مرجع سبق ذكره، د. محمد السيد سعيد، أفاق النظام الدولي في التغييرات، مرجع سبق ذكره.

(١٩) لمزيد من التفاصيل انظر:

د. سميرة السيد فوزي، «النظام العالمي الجديد وانماطاته على منطقة الشرق الأوسط: رؤية اقتصادية»، أوراق الشرق الأوسط، عدد ٨ (مارس ١٩٩٣)، ص ٢٩-٢٥، د. عبدالمجيد سعيد، «حرب الخليج والنظام العالمي الجديد»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول، الثاني (ربيع/ صيف ١٩٩١)، ص ١٥٣-١٧٤.

(٢٠) انظر على سبيل المثال:

حسن مصباح تيزرة، «جامعة الدول العربية في ضوء النظام العالمي الجديد»، شؤون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ٣٥-٤٨، د. بكر بكر أحمد «النظام الدولي الجديد بعد أزمة الخليج»، مرجع سبق ذكره، د. سيد عليوة، «وظيفة الأمم المتحدة في النظام الدولي الجديد: فاطرة أم مقفورة»، الحاسن العربي، عدد ٣٣ (يوليو-أكتوبر ١٩٩٣)، ص ٤٢-٥٢، د. عبد الباقي المرعسي، «تساؤلات حول دلالة النظام الدولي الجديد، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٤٩-٥٥، عبد الإله بلقزيز، العرب والنظام الدولي الجديد»، شؤون عربية، عدد ٦٥ (أبريل ١٩٩١)، ص ١٠٣-١١٢، د. هشام الكيلاني، «منزلة القوة في النظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.

(٢١) د. محمد الرويشي، سقوط الأوهام، العربي، عدد ٣٩٥ (أكتوبر ١٩٩١)، ص ٨-١٣.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل انظر:

حوار مع د. نبيل العربي (متحدث مصر الدائم في الأمم المتحدة)، لصوره، عدد ٣٥٩١ (٨/٦/ ١٩٩٣)، ص ٢٢-٢٣، د. سعد الدين إبراهيم، «لماذا لا تتحرك أمريكا عسكرياً إلا ضد العرب»، المصدر، عدد ٣٥٨٩ (٧/٢٢/ ١٩٩٣).

(٢٣) انظر على سبيل المثال:

د. أحمد صديقي الدجاني، «فرجة نثر عربية في النظام العالمي الجديد»، شؤون عربية، عدد ٧٤ (يونيو ١٩٩٣)، ص ٣٨-٥٥، د. مرهان غليون، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الوطن العربي»، مرجع سبق ذكره، جواد البشير، «النظام العالمي الجديد... الحلقة للقرعة»، الشاهد، عدد ٧٧ (يناير ١٩٩٢)، ص ٤٦-٥٧، راشد الغنوشي، «الحركة الإسلامية والنظام الدولي»، السفير، الأعداد (١٤، ١٥، ١٦) (يونيو ١٩٩١)، ص ٨٠-٨٩، عادل جيللهدي، «النظام الدولي الجديد وأثره على الوضع العربي والإسلامي»، السفير الأعداد (١٤، ١٥، ١٦) (يونيو ١٩٩١)، ص ٥٢-٦٣، د. عبد الباقي المرعسي، مرجع سبق ذكره، علي العراف، «نظام جديد- فديم للهيمنة وسخط المختلف»، الشاهد، عدد ٨٢ (يونيو ١٩٩٢)، ص ٢٧-٢٧، د. محمد عازرة، «العالم الإسلامي والتغيرات الدولية الراهنة»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٧-٢٥.

(٢٤) انظر على سبيل المثال:

نحسين بشير، «مطامير نظام الفوضى الدولية الجديدة»، الحقبة، ٧/٤/ ١٩٩٣، حسان الدين، «كل هذا النظام وكل هذا التصدم»، الشاهد، عدد ٨٩ (يناير ١٩٩٢)، ص ٢-٧، عبد الله السناوي، «اللاتاتن القاترين الدولي: على يد مصر شرعية التدخل»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٥٧-٧١، قسطنطين زريق، «الامتلان المالي»، الحقبة، ١/٩/ ١٩٩١، ميشيل كليل، «اللاتنظام الدولي الجديد: حيلولة إلى الحرية الثانية»، الشاهد، عدد ٧٥ (سبتمبر ١٩٩٢)، ص ٢٧-٣٩.

عالم الفكر

- (٢٥) انظر على سبيل المثال:
 حسين فهمي، «مستقبل الألفية عن وجه النظام العالمي الجديد»، الأسيوطي القاهرية، ١٩٩٢/٥/٤. د. عبدالوهاب السري، «مصر والنظام العالمي الجديد»، الشعب القاهرية، ١٩٩٣/١٠/٥، محمود رياض، «النظام العالمي الجديد: حقيقة أم وهم؟»، الحياة، ١٩٩١/٣/٥، ولؤيس الخولف، «وضع اسمه النظام العالمي الجديد»، الحياة، ١٩٩٢/١/١٧، محمد زكريا إسماعيل، «النظام الدولي الجديد بين الوهم والخيبة»، المستقبل العربي، ع. ١٤٣ (يناير ١٩٩١)، د. محمد عصفور، «تخليعة النظام العالمي الجديد»، الوفاء، ١٩٩٢/١/١٠، محمد تاج الدين الحسيني، «النظام الدولي الجديد بين الوهم والواقع»، مرجع سبق ذكره.
- (٢٦) د. عبدالوهاب السري، «النظام العالمي الجديد ونهاية التاريخ والإنسان: رؤية معرفية»، مرجع سبق ذكره، ص ٨٨.
- (٢٧) محمد أبو القاسم حاح، «معرفة الجماهيرية والنظام الدولي القديم»، الشاهد-الغريال، عدد ١٧ (مايو ١٩٩٢).
- (٢٨) سعيد عربي حناني، «الوطن العربي وحركات التحرر في ظل المتغيرات الدولية الجديدة»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٥ (يناير ١٩٩١)، ص ١٤٩-١٦٦.
- (٢٩) د. مصطفى الفتحي، الإسلام في عالم متغير (القاهرة: لمحة العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٣)، ص ١٠٣-١٠٥.
- (٣٠) محمد حسن هيكال، حرب الخليج: أزمات القوة والنصر (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط ١، ١٩٩٢)، ص ٥٥، وانظر أيضا: عبدالله الجاسر، «الأزمات العربي والنظام العالمي الجديد»، التعاون، عدد ٢٩ (مارس ١٩٩٣).
- (٣١) انظر على سبيل المثال:
 دار أحمد كمال أبو المجد، «السلام والنظام العالمي لتغيير»، العربي، عدد ٣٣٩ (فبراير ١٩٩٢)، أمين هويدي، «إدارة الأزمات في ظل النظام العالمي للفرق»، السياسة الدولية، عدد ١١٢ (أبريل ١٩٩٣)، ص ١٧٧-١٨٠، تحسين بشير، «تأثير أزمة الخليج على النظام العالمي الجديد»، في: د. سعد الدين إبراهيم ود. حسن وجيه (محرران) مرجع سبق ذكره، ص ١٣-٢٧، جميل مطر، «النظام الدولي تحت التكوين»، الأهرام، ١٩٩١/٨/٢، ولؤيس الخولف، «الصراع بين النظام الدولي الجديد والنظام العالمي القديم»، نازلي معوض أحمد (محرر)، الوطن العربي في عالم متغير، مرجع سبق ذكره، ولؤيس الخولف، «الصراع بين النظام الدولي الجديد والنظام العربي الجديد»، الأهرام الاقتصادي، عدد ١١٣٢ (٢٤/٩/١٩٩٠)، د. سعد الدين إبراهيم، «الأيديولوجية الثقافية للنظام العالمي الجديد»، في: د. إبراهيم حلمي عبدالرحمن (محرر)، عالم اللند... عالم واحد أم عوالم متعددة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤-٢٨، «النظام العالمي الحالي والمستقبل»، شؤون دولية، العدد الأول (صيف ١٩٩٢)، ص ٤-١٠، محمد سيد أحمد، «حول إشكالية النظام الدولي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٠٤ (أبريل ١٩٩١)، ص ٢٤-٢٨، ولؤيس الخولف، «النظام الدولي الجديد: حقيقة ومواقع»، محمد الدينوري في بيروت وآثاره، في: مطبوعات التضامن، العالم العربي والتغيرات الدولية (القاهرة: ط ١، ١٩٩١)، ص ٢٩-٣٦، لعبد السيد سعيد، النظام العربي بعد أزمة الخليج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢١، د. علي الدين هلال، «حول مستقبل النظام الدولي»، في: د. إبراهيم حلمي عبدالرحمن (محرر)، عالم اللند... عالم واحد أم عوالم متعددة، مرجع سبق ذكره.
- (٣٢) مزيد من التفاصيل انظر:
 د. أسامة الفزلي، حرب ١٩٩٢-١٩٩٣: آلام التفكك والانحلال، السياسة الدولية، عدد ١١١ (يناير ١٩٩٣)، ص ٤-٥٥، خالي شكوي، «الثقافة العربية والتغيرات العالمية»، القاهرة، عدد ١٢٩ (أغسطس ١٩٩٣)، ص ٥٢-٧٧.
- (٣٣) د. ودودة بلون، «الرقى المختلفة للنظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.
- (٣٤) د. علي الدين هلال، «حول مستقبل النظام العالمي»، في: د. إبراهيم حلمي عبدالرحمن (محرر)، عالم اللند... عالم واحد أم عوالم متعددة، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٨-١٣٨.
- (٣٥) مزيد من التفاصيل انظر:
 أسامة أمين الحولي، «ثورة للمعلومات ويجمع ما بعد الصناعة»، الهلال (يناير ١٩٩٠)، ص ٢٦-٥١، د. السيد نصر، «ثورة المعلومات والتقوية القوية للمعرفة»، الهلال، (سبتمبر ١٩٩٢)، د. حازم البلاوي، «بعد أن يبدأ الغبار للقاهرة: دار الشرق، ط ١، ١٩٩٠)، ص ٥٢-٦٣، د. عبد النعم سعيد، «العرب ومستقبل النظام العالمي»، مرجع سبق ذكره، ولؤيس الخولف، العرب والتكنولوجيا العالمية، لمجلة العربية للدراسات الدولية عدد ١ (أغسطس ١٩٨٧)، ص ٤-٦٣، د. علي الدين هلال، «الثورة التكنولوجية والنظام الدولي المعاصر»، ورقة قدمت في ندوة «الأثار السياسية والاجتماعية للثورة التكنولوجية المعاصرة» التي نظمتها قسم العلوم السياسية بجامعة قاريوس بلبيا خلال الفترة ١/٩/١٩٩٢، د. مصطفى عبدالله خنيم، «آثار الثورة التكنولوجية على نظام توازن القوى المعاصر» ورقة قدمت في نفس الندوة السابقة.
- (٣٦) انظر على سبيل المثال:
 إبراهيم صريقات، «الإصلاح وحدود التغيير في الاتحاد السوفيتي»، السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، د. طه عبدالعليم، «الإصلاح بين الروماني والواقعية في الاتحاد السوفيتي»، السياسة الدولية، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، ص ٦٦-٧٠، محمود عزني، «الاتحاد السوفيتي تحت قيادة جورباتشوف: هزيمة بلا حرب» الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٢٨ (أكتوبر ١٩٩١)، ص ٥-٢٦.
- (٣٧) انظر على سبيل المثال:
 د. السيد أمين شلي، «في عوالم التجديد ومستقبل أوروبا الشرقية»، السياسة الدولية، عدد ٩٨ (أكتوبر ١٩٨٩)، أسامة محمود فهمي، «عجربة أوروبا الشرقية السياسة الدولية»، عدد ٨٩ (يوليو ١٩٨٧)، ص ٩١-١٠٠، ملف «الاتحاد السوفيتي من المنحلال»

- السياسة الدولية، عدد ٩٤ (أكتوبر ١٩٨٨)، د. محمد عبدالشفيق عيسى، «الأزمة الاقتصادية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي عشية أحداث ١٩٨٩، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ١٠٥-١٣٤، وليد محمود عبد الناصر، التغيرات الاقتصادية في أوروبا الشرقية ولحمكاساتها على الدول النامية»، السياسة الدولية، عدد ١٠٢ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ٢٢٤-٢٢٩، د. رزق رزق، «الصراع السيلبي المحوري في العالم المعاصر والتحول المعاصر في أوروبا الشرقية: جنود الصراع التاريخي وأبعاد التحول الاستراتيجي»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٢ (يناير ١٩٩١)، ص ١٦٧-١٧٧.
- (٣٨) انظر على سبيل المثال:
- د. محمد السيد سعيد، «تحليل مقارن لتجارب التسوية الإقليمية»، السياسة الدولية، عدد ٩٥ (يناير ١٩٨٩)، د. تازلي معرض أحمد، «التصالحية في العلاقات الأمريكية-السوفيتية»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٥ (شتاء ١٩٩٢)، ص ٦٣-٩٤، التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٩٠ (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩١)، ص ١٥-٧٤.
- (٣٩) د. إسماعيل صبري مفلق، «التغيرات في أوروبا الشرقية... إلى أين؟»، مجلة العلوم الاجتماعية، (شتاء ١٩٨٩)، ص ٣٠٥-٣٢٤.
- (٤٠) ضاهر بشارة، «تقويمات تصالحي لقرص الأثر الواقع وتفاذر القرن كيا دخلته»، الشاهد، عدد ٧٧ (يناير ١٩٩٢)، ص ٤٦-٥٧.
- (٤١) مزيد من التفاصيل انظر:
- صلاح بسوي، «المراسل الأحرية لنهضة الإمبراطورية السوفيتية»، القرسان-الكتاب السنوي (١٩٩١)، سلام مسائر، «الاتحاد السوفيتي. امراطورية في طريق الزوال»، قفرسان-الكتاب السنوي (١٩٩١)، د. طه عبدالمعلم (محرر)، إبيار الاتحاد السوفيتي وتأثيراته على الوطن العربي (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ط١، ١٩٩٢)، ملف الانقلاب السوفيتي وتداعياته السياسية الدولية، عدد ١٠٦ (أكتوبر ١٩٩١)، نيل زكي، أحداث الاتحاد السوفيتي وتأثيرها على الخريطة السياسية العالمية، مستقبل العالم الإسلامي، عدد (شتاء ١٩٩٢)، ص ١٥-٦٢.
- (٤٢) مزيد من التفاصيل انظر:
- محمد سيد أحمد «أحداث إبيار الاتحاد السوفيتي»، في: د. طه عبدالمعلم (محرر)، مرجع سبق ذكره، «تأثير الاتحاد السوفيتي وتأثير الإقليمية والعالمية» مستقبل العالم الإسلامي، عدد (شتاء ١٩٩٢)، ص ١٥-٦٢.
- (٤٣) انظر على سبيل المثال:
- د. سامي حجازي، «الحرب الباردة تعود من جديد بين دول الكومنولث الجديد المصور (١/٢٤/١٩٩٢)، ص ٢٠-٢١، د. طه عبدالمعلم، «قوة الاتحاد السوفيتي ومصر الكومنولث»، في: د. طه عبدالمعلم (محرر)، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩-١٢٠، عبدالحليم فتندل، بعد امراطورية الإيديولوجيا: كومنولث الممانعة المشتركة، بالشاهد عدد ٨٠ (فبراير ١٩٩٢)، ص ٤٠-٤٥، د. محمد السيد سليم، «سحر استراتيجية عربية للتعامل مع روية الاتحاد السوفيتي، ورقة قدمت إلى ندوة «الحرب ونظام عالمي جديد» التي نظمتها الجمعية العربية للعلوم السياسية (القاهرة ١٣/١٤/١٩٩٢).
- (٤٤) انظر على سبيل المثال:
- أحمد طه محمد «حول التكتلات الاقتصادية المعاصرة»، السياسة الدولية، عدد ١١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ٢٢٨-٢٣٣، د. أحمد يوسف ود. هناد خير الدين (محرر)، مصر والجامعة الاقتصادية الأوروبية ١٩٩٢ (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩١)، ثناء فؤاد عبدالله، «مستقبل الوحدة الأوروبية وأزمة الخليج»، السياسة الدولية، عدد ١٠٦ (أكتوبر ١٩٩١)، د. محمد السيد سعيد، «التكتلات التجارية واتكاساتها على الوطن العربي»، في: د. محمد السيد سعيد (محرر)، الوطن العربي والتغيرات العالمية، مرجع سبق ذكره، ملف «الحرب وأوروبا ١٩٩٢»، الجيات العربي، عدد ٢٠ (ديسمبر-يناير ١٩٩٢)، ملف (المجموعة الأوروبية ١٩٩٢ السياسة الدولية، عدد ٩٩ (يناير ١٩٩٠)، د. عبد للتم سعيد علي، أوروبا ١٩٩٢ وتأثيراتها الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية على تعامل العربي، الفكر العربي، عدد ٢٦ (أكتوبر-ديسمبر ١٩٩١)، د. نادر فرجاني، «الحرب وأوروبا في نهاية القرن العشرين»، المحلل (سبتمبر ١٩٩٢).
- (٤٥) انظر على سبيل المثال:
- د. بطرس ليكي، «الوضع الراهن ومستقبل التحول الاقتصادي في الدول العربية»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٤٢ (أكتوبر ١٩٩٢)، د. مني المرادي، «تقييم تحديات التنمية في العالم الثالث في التغيرات»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٦ (فبراير ١٩٩١)، ص ١٨٣-٢١٤.
- (٤٦) انظر على سبيل المثال:
- السيد بسين، التحليل الثاني لأزمة الخليج، في: التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٩١ (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٢)، د. حسن وجيه، أزمة الخليج وأزمة الخليج السياسي (القاهرة: طر ابن خلطون، ١٩٩٢)، د. سعد الدين إبراهيم وعبد الحميد صفوت إبراهيم، «دور المتغيرات العرب في أزمة الخليج»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الثالث/الربيع (خريف-شتاء ١٩٩١)، ص ٢٩-٥٠، كمال عبد اللطيف، «عمل هامش قرابة المتطفين العرب لأزمة الخليج»، الوحدة، عدد ٧٨ (فبراير-مارس ١٩٩١)، ص ٣٠-٣٤.
- (٤٧) انظر على سبيل المثال:
- أشرف غريمال، «الولايات المتحدة الأمريكية وقضايا الشرق الأوسط في النظام الدولي الجديد»، الباحث العربي، عدد ٢٨ (يناير-فبراير ١٩٩٢).

(٤٨) انظر على سبيل المثال:

د. أحمد صديقي الدجاني، «وجهة نظر عربية في النظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره، «مجلة الصلح»، الولايات المتحدة الأمريكية ونشأها الشرق الأوسط في إطار النظام الدولي الجديد، الساحت العربي، عدد ٢٨ (يناير-فبراير ١٩٩٢)، ص ٢٣-٢٧، عدد المعلم محمد عبد المليم، «الأمم المتحدة وحرب الخليج: السياسة تلحق على القنوق»، قراءات سياسية، عدد ٢ (ربيع ١٩٩٢)، ص ١٠١-١١٩، مختار عزيز ووجيه كوزلوي، «القطبية العالمية وليفية على مناهج الخط»، مستقبل العالم الإسلامي، (شتاء ١٩٩١)، ص ١١١-١٤٠، منير شفيق، «الاستراتيجية الأمريكية وأقار النظام العالمي الجديد»، قراءات سياسية، السنة الثانية، العدد الأول، (شتاء ١٩٩٢)، نيل عبد الكريم، «دور النفط في تحريك أزمة الخليج»، مستقبل العالم الإسلامي، (شتاء ١٩٩١)، ص ١٤١-١٥٤.

(٤٩) انظر على سبيل المثال:

د. أحمد حسن الرشيد (عمر)، الامتصاصات الدولية والإقليمية لأزمة الخليج (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط ١، ١٩٩١). مجموعة من الباحثين، أزمة الخليج وتناميها على الوطن العربي (بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٩١). ملف «الغزو العراقي للكويت: الأبعاد والتأثير» السياسة الدولية، عدد ١٠٢ (أكتوبر ١٩٩٠)، ملف «أزمة الخليج: التطورات والاختلالات»، السياسة الدولية، عدد ١٠٣ (يناير ١٩٩١)، مجموعة البحوث التي تتناول بعض جوانب الأزمة والتي نشرت في الأعداد الأولى والثاني والثالث والرابع (ربيع، صيف، خريف، شتاء ١٩٩١) من مجلة العلوم الاجتماعية.

(٥٠) د. علي الدين هلال، حول مستقبل النظام الدولي، مرجع سبق ذكره.

(٥١) انظر:

المجلة الخاصة به «النظام الدولي وأزمة الخليج»، التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٩٠ (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩١). د. حسن بكر أحمد، دور القوتين الأعظم في إدارة أزمة الخليج، في: د. نازلي موش أحمد (عمر)، الوطن العربي في عالم متغير. (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩١)، ص ٢٦٧-٣١٨، د. وجودة بدران، «أزمة الخليج والنظام الدولي»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول والثاني (ربيع-صيف ١٩٩١)، ص ٤٥-٧٢.

(٥٢) يزيد من التفاصيل انظر:

د. حادثة شامي، «الوقت الأوبى العربي إزاء أزمة الخليج: الأبعاد - للحدود - النتائج»، في: د. نازلي موش أحمد (عمر)، الوطن العربي في عالم متغير، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٩-٣٨١.

(٥٣) د. عبد الصمد سعيد علي، «حرب الخليج والنظام العالمي الجديد» مجلة العلوم الاجتماعية، عدد ١، ٢ (ربيع-صيف ١٩٩١)، ص ١٥٣-١٧٤.

(٥٤) انظر على سبيل المثال:

أشرف غريال، مرجع سبق ذكره، المختار المعلم، النظام العربي بعد حرب الخليج: «واقع وآفاق الوحدة»، عدد ١٠٠ (يناير ١٩٩٣)، ص ٣٣-٤٣، سبر أمين، «التزعة العسكرية الأمريكية في النظام الدولي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩١)، ص ٣٤-٥٠، موش خليل، «النظام الدولي الجديد: قلب واحد أم تصدع؟»، الشاهد، عدد ٧٠ (يوليو ١٩٩١)، ص ٤٣-٤٧، محمد مود الدين أباية، «الوحدة في النظام الدولي»، الفرسان، عدد ٧٠٠ (٨/٧/١٩٩١)، يوسف الحسن، ٦٥ أسئلة و٦ إجابات حول النظام الدولي الجديد، الشرق، عدد ٩ (١٠/٦/١٩٩٢)، ص ٣٤-٣٥، د. ياسين سويد، مرجع سبق ذكره، عبد المحمد غانم، «أفنية الأمريكية في ظل النظام العالمي الجديد»، الوحدة، عدد ٩٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، ص ١٠٩-١١٣، د. محمد علي مؤخر مدريد، «أين نحن من السلام»، الوحدة، عدد ٩٩ (ديسمبر ١٩٩٢)، ص ٧-١٧.

(٥٥) د. براهيم غليون، حرب الخليج والمواجهة الاستراتيجية في المنطقة العربية، في: مجموعة من الباحثين، أزمة الخليج وتناميها على الوطن العربي، مرجع سبق ذكره، ص ١٧-٣٧.

(٥٦) انظر على سبيل المثال:

د. محمد السيد سعيد، «تحويلات التطور المستل للنظام الدولي»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد» التي نظمتها مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة خلال الفترة ٧٤/٢٧/١٢/١٩٩٢، ص ١٠.

(٥٧) انظر على سبيل المثال:

د. أسامة البار، «مقولة القطب الواحد بين الوم والحقيقة»، الفرسان، ١٦/٩/١٩٩١، د. أنور عبد الملك، «الدول الكبرى الجديدة في مرحلة تغير العالم وصياغة العالم الجديد»، في: د. أحمد يوسف أحمد (عمر)، مرجع سبق ذكره، د. أحمد جاس عبد اللطيف، «القوى السياسية الصاعدة في النظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١١٠ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ١٦٢-١٦٦، حسين معلوم، «القطب الأمريكي»، عوازل الانطلاق وتحديات المنافسة، السياسة الدولية، عدد ١١٢ (إسرائيل ١٩٩٣)، ص ١٧٠-١٧٤، رمزي ركي، «هل انتهت قيادة أمريكا للمنظومة الأسبالية المالية الحالية»، المستقبل العربي، عدد ١٣٨ (أغسطس ١٩٩٠)، ص ٤-٣٤، صدقة يحيى لغزل، مرجع سبق ذكره، عبد الطيف الشواف، «التغيرات في النظام الدولي وقضية الوحدة»، مرجع سبق ذكره، د. عبدالمحمّد المشاط «فيكل النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد التي نظمتها مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة خلال الفترة ٢٤/٢٧/١٢/١٩٩٢، عباد صوري شبيبي، «من مقولة النظام العالمي الجديد إلى تراتيبيه»، شؤون دولية، عدد ١ (صيف ١٩٩٢)، ص ١١-١٣، هم الكاوي، «الدور الأمريكي في النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد، مرجع سبق ذكره، د. هالة سمودي، «القوى الصاعدة في النظام العالمي الجديد: أوروبا واليابان»، مرجع سبق ذكره.

عالم الفكر

- (٥٨) د. مصطفى عاوي، «مصر والقرن الثاني والعشرون في التسعينات»، في: د. علي الدين حلال ود. عبدالمعتمد سعيد (محرران)، مرجع سبق ذكره، د. وليد عبدالمجدي، «التغيرات في النظام الدولي المعاصر على مستقبل الطريقة الإقليمية للكيان الإسرائيلي»، شئون عربية، عدد ٦٥ (أبريل ١٩٩١)، ص ٨٥-٩٠.
- (٥٩) انظر على سبيل المثال:
د. المختار الطبع، «محاولة في تفسير النظام الدولي الجديد وموقع العرب منه»، الورقة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٠)، د. سمير أمين، «بعد حرب الخليج...» لجمعية الأمريكية إلى أين؟، المستقبل العربي، عدد ١٧٠ (أبريل ١٩٩٣)، ص ٤-٢٢، د. عادل عبد المهدي، «النظام الدولي الجديد وإثارة على الوضعين العربي والإسلامي»، للفكر، الأعداد ١٤، ١٥، ١٦ (يوليو ١٩٩١)، ص ٥٢-٦٣.
- عبدالله عبد النديم، «المرحلة الجديدة: حل ينفذ أزمات العالم الثالث البرازيل الجديدة في النظام الدولي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٦٠ (يونيو ١٩٩٢)، د. غانم هتا، «عودة الاستعمار»، الورقة، عدد ٧٧-٧٨ (أغسطس-سبتمبر ١٩٩١)، ص ٦٦-٧٠.
- (٦٠) انظر على سبيل المثال:
أشرف صريال، مرجع سبق ذكره، د. محمد الدين إبراهيم، «الإنجازات الثقافية للنظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.
- (٦١) انظر على سبيل المثال:
السيد أمين، التغيرات المالية وحروب الحصار في عالم متغير (القاهرة): مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، كولمبات استراتيجي، عدد ١٤، مارس ١٩٩٣.
- (٦٢) انظر على سبيل المثال:
د. أسامة الفزلي حبيب، «الولايات المتحدة الأمريكية وضبط التسليح في الشرق الأوسط»، الأهرام، ١١١ (يناير ١٩٩٣)، ص ٥-٤، د. حسنين شوقي إبراهيم، «النظام الدولي الجديد ومستقبل المراهقات في العالم الثالث»، الجا، بتوارينغ ٢١/١٩٩٢، ١٩٩٢/٢٢/٢٣، د. سليم بكات، «زمن الشكك الداخلي في ظل النظام العالمي الواحد»، الوسط، عدد ١٩ (٨-١٤/١٩٩٢)، د. محمد الدين إبراهيم، «حروب الحصار في النظام العالمي الجديد»، المصور، عدد ٣٥٥٥، ٢٧/١١/١٩٩٢.
- (٦٣) انظر على سبيل المثال:
أحمد إبراهيم محمود، «الولايات المتحدة الأمريكية وضبط التسليح في الشرق الأوسط»، الأهرام، ١٩٩٢/٤/٩، أشرف راضي، «النظام الدولي لتجارة السلاح والرقابة على التسليح في الشرق الأوسط»، ورقة غير منشورة، رشاد شريف، «العلاقات الأمريكية الإسرائيلية والنظام الدولي الجديد»، الورقة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٥١-٦٢، فيصل جلول، «الحلال الإسرائيلي... الحرام العربي»، الشاهد، عدد ٧٧ (يناير ١٩٩٢)، ص ٢٥-٣٤، محمد السيد سعيد، «المرحلة الجديدة والاستعداد للحدود»، السياسة الدولية، عدد ٤٣٠ (يونيو ١٩٩٢)، ص ٢٣-٢٧، محمد سيد أحمد، «حول إشكالية النظام الدولي الجديد، السياسة الدولية»، عدد ١٠٤ (أبريل ١٩٩١)، ص ٢٤-٢٨، د. حالة سمودي، «الولايات المتحدة الأمريكية وأوضاع العالم العربي: من أزمة الخليج حتى إسرائيل ١٩٩١»، بحث ودراسات عربية، المركز القومي للدراسات الشرق الأوسط (أغسطس ١٩٩٠).
- (٦٤) انظر على سبيل المثال:
أحمد العالم، «قراءة أولية لقرار مجلس الأمن رقم ٧٣٠»، الورقة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩١)، ص ٩٧-١٠٠، أسامة عبد الرحمن صالح، «الأزمة الليبية-الغربية بين القوة الأمريكية ومعضلة البناء العربي»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٤٢ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ١٣-٤٨، ونسب المؤلف، «الأمن المتحد بعد نهاية الحرب الباردة»، مرجع سبق ذكره، د. حسن ناعمة، «الأمن المتحد والتقسيمات العربية»، المستقبل العربي، عدد ١٧٥ (سبتمبر ١٩٩٢)، ص ٤-٢٨، د. سيد عيسى، «وظيفة الأمم المتحدة في النظام الدولي الجديد»، مرجع سبق ذكره، د. سامي منصور، «الشرعية الدولية للقرن عليها في الوضع الدولي الجديد»، صوت الكويت الدولي، ٣١/٣/١٩٩٢، عمر محمد علي، «العرب والأمم المتحدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد» التي نظمتها الجمعية العربية للعلوم السياسية بالقاهرة خلال الفترة ١٣-١٤ سبتمبر ١٩٩٢، ميلود المهدي، «الشرعية الدولية من قوة القانون إلى قانون القوة»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٤ (نوفمبر ١٩٩١)، ص ٧-١٤، لطفي الخولي، «قراءة في ملف الأزمة الليبية-الغربية»، الأهرام، ١٨/٣/١٩٩٢، مرسى عطالله، «نظام عالمي جديد أم نظام يفسد القرصنة»، الأهرام، ١٢/٣/١٩٩٢، محمد مهدي هاشم، «مناقشة الأمم المتحدة بين التأويل والتفسير»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ١ (ربيع ١٩٩٢)، ص ١٧٩-٢٥٠، د. نبيل المصري، «الأمم المتحدة والنظام العالمي الجديد»، السياسة الدولية، عدد ١٤ (أكتوبر ١٩٩٣)، ص ١٤٩-١٥٥، حوار مع د. نبيل العربي متحدث عصر النظم في الأمم المتحدة، المصور، عدد ٣٥٩١، ٨/١/١٩٩٣، ص ٢٢-٣٣.
- (٦٥) الأهرام ١/١/١٩٩٢، ١٠/١/١٩٩٢.
- (٦٦) د. مكي البرادعي، مرجع سبق ذكره.
- (٦٧) صلاح الدين حافظ، «كيف تصلي الحرب القادمة بين الأغنياء والفقراء»، الأهرام، ٤/٥/١٩٩٢.
- (٦٨) انظر على سبيل المثال:
د. أسامة العزالي حبيب، «تجهيز العالم الثالث واحتلال غميش الوطن العربي»، في: د. محمد السيد سعيد (محرر)، «الوطن العربي والتغيرات العالمية»، مرجع سبق ذكره، د. محمد الدين إبراهيم، «إفريقيا من الاستقلال إلى الإهمال»، المصور، عدد ٣٥٦٢ (١٥/١/١٩٩٣)، محمد صلاح الأديس، «الوطن العربي بين التساهلية والتجهيز في عالم متغير»، الورقة، عدد ٨٦ (نوفمبر ١٩٩١).

عالم الفكر

(٦٩) انظر مقتضعات مطبوعة من هذه الوثيقة في:

Herald Tribune, March ٥, 1992

(٧٠) يزيد من التفاصيل انظر:

شريف الشرواني، «فرنسا - أمريكا لا تتكاثق القدرة على القيادة المنفردة للعالم»، الأهرام، ١٦/٣/١٩٩٢، محمد وهيبي، «استراتيجية واشنطن الجديدة: أمريكا تتخلى عن لفيفة العسكرية على العالم وتلتزم بالعمل الإنساني»، للمصور، عدد ٢٠، ٢٣/٦/١٩٩٢.

(٧١) انظر على سبيل المثال:

حسن صبري، «كليتون: تراجع في الداخل وتردد في الخارج»، للمصور، عدد ٣٥٦٧ (١٩/٢/١٩٩٣)، محمد الدين إبراهيم، «لماذا لا تتحرك أمريكا عسكرياً إلا ضد العرب»، للمصور، عدد ٣٥٨٩ (٢٢/٧/١٩٩٣)، محمد وهيبي، «هزيمة كليتون المتهاوية وهل يمكن إقصاءها»، للمصور، عدد ٣٥٨٩ (١١/١/١٩٩٣)، وأنس للكتاب، «تراجع كليتون في البوسنة والفرسك، فلماذا سيجعل للفلسطينيين»، للمصور، عدد ٣٥٦٧ (١٩/٢/١٩٩٣)، محمد الفتاح عبد السلام، «التدخل الدولي في الصومال: الأبعاد والخطوات»، عشرون دولية، العدد الثاني (شتاء ١٩٩٣).

(٧٢) قرأتيس فوكوياما، نهاية التاريخ وحتمية البشرية، ترجمة حسين أحمد أمين (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣).

(٧٣) يزيد من التفاصيل انظر:

د. حسن بكر، «مطالبة نقدية لنظرية فوكوياما...»، مرجع سبق ذكره، د. فؤاد زكريا، «هل كتبت أمريكا الحروب الباردة»، الهلال (ديسمبر ١٩٩٢)، عبد الله بلقزيز، «أوليدولوجيا نهاية الأيديولوجيا»، الفكر العربي، عدد ٦٨ (إبريل - يونيو ١٩٩٢)، محمد سيد أحمد، «تصانيف فكرية يطرأها الرفاق الدولي في التسعينات»، الفكر العربي، عدد ٦٦ (ديسمبر ١٩٩١)، ص ص ٥٤ - ٦٣.

(٧٤) انظر ملف «الانتخابات الأولية: الظواهر السياسية الجديدة والمسارات المستقبلية»، السياسة الدولية، عدد ١٠٩ (يونيو ١٩٩٢).

(٧٥) انظر على سبيل المثال:

جواد البشتي، «هلال الأقطاب الاقتصادية»، الشاهد، عدد ٨٦ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ص ٥٠ - ٥٥، حسن أبو طالب، «علاقات اليابان والجامعة الأمريكية»، السياسة الدولية، عدد ٩٩ (يناير ١٩٩٠)، وليد عمود عبد الناصر، «أوروبا ١٩٩٢ وتأثيراتها المحتملة على الأطراف الخارجية»، السياسة الدولية، عدد ٩٩ (يناير ١٩٩٠)، د. سامي منصور، «الحروب التجارية العالمية: البديل الجديد للحرب الباردة»، العربي، عدد ٤١٤ (مايو ١٩٩٣)، ص ص ٥٨ - ٦١.

(٧٦) ساري حبيب، «هل جاء الدور على حلف الأطلسي كي يتفكك»، الأهرام ٦/٥/١٩٩٢.

(٧٧) الأهرام، ٢٩/٦/١٩٩٢.

(٧٨) انظر ملف مجلة Time - عنوان:

The Sword of Islam, Time, June 15, 1992, pp. 18 - 28.

وانظر أيضاً:

محمد الوبيسي، «هل يتفكك الغرب للمسلمين؟»، العربي، عدد ٤٠٦ (سبتمبر ١٩٩٢)، ص ص ١٢ - ٢٣.

(٧٩) انظر على سبيل المثال:

د. محمد الدين إبراهيم (عمر)، «الصهوة الإسلامية وهزم الوطن العربي (عنا: منتدى الفكر العربي، ط١، ١٩٨٨).

(٨٠) د. محمد السيد سعيد، مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٨١) د. حليم بركات، مرجع سبق ذكره.

(٨٢) د. محمد السيد سعيد، مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٢ وما بعدها.

(٨٣) انظر على سبيل المثال:

أحمد شوقي الحفني، «العالم الإسلامي والاستراتيجيات الدولية»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد (شتاء ١٩٩١)، ص ص ٨٧ - ١٠٩، بهران خليل، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الوطن العربي»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ١ (شتاء ١٩٩١)، ص ص ٧٣ - ٨١، جاسم محمد عبد الفتاح، «التغيرات العالمية وتمككها على أرض الوطن العربي»، المستقبل العربي، عدد ١٣٩ (سبتمبر ١٩٩٠)، د. سميرة السيد فوزي، «النظام العالمي الجديد وتمككها على منطقة الشرق الأوسط»، مرجع سبق ذكره، عبد القادر عوفي، «الاجتماع العربي والدولي في ضوء التغيرات الدولية»، المستقبل العربي، عدد ١٤٧ (مايو ١٩٩١)، ص ص ٤٠ - ٢٢، عبد الرحمن شاكور، «فتمن والنظام الدولي»، الهلال، (مايو ١٩٩١)، ص ص ٤٤ - ٤٩، د. تاصيل يوسف حني، «التحولات في النظام العالمي...»، مرجع سبق ذكره، ندوة «لغزب العربي والنظام العالمي الجديد»، المستقبل العربي، عدد ١٦٨ (أبريل ١٩٩٣)، ص ص ١٢٤ - ١٤٣.

(٨٤) انظر على سبيل المثال:

طه عبد السلام (عمر)، «انبار الاتحاد السوفيتي وتأثيره على الوطن العربي»، مرجع سبق ذكره، د. عبد التلم سعيد، «الحرب والنظام العالمي الجديد: التحولات المتوقعة»، مرجع سبق ذكره.

(٨٥) خليل أحمد خليل، «المشروع القومي في مواجهة التغيرات العالمية الجديدة»، الوحدة، عدد ١٠٠ (يناير ١٩٩٣)، ص ص ٢٥ - ٣٢، عمر الحامدي، «الثقافة العربية والنظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره، د. عطا زهرة، «أثر النظام الدولي الجديد على الأمن القومي العربي»، ورقة قدمت إلى ندوة «الوضع الدولي الجديد»، التي نظمتها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة بليبيا خلال الفترة ٥/٧/١٩٩٢، د. عبد التلم سعيد، «الديمقراطية والنظام العالمي الجديد»، الديمقراطية، «الكتاب الرابع» (أغسطس ١٩٩٢)، ص ص ٥ - ١٥، د. مبرأ الوبيسي، «التغيرات الجارية في النظام الدولي وأثرها على مستقبل الوحدة العربية»، مرجع سبق ذكره.

(٨٦) انظر على سبيل المثال:

د. أحمد صفدي الدحلجي، «مواجهة عربية شاملة للتجبر الصهيوني لليهود من أولادهم»، شئون عربية، عدد ٦٢ (يونيو ١٩٩٠)، ص ١٦-٧. د. جياب علامدة، «هجرة اليهود السوفيات: خلفية تاريخية ونظرة مستقبلية»، شئون عربية، عدد ٦٢ (يونيو ١٩٩٠)، ص ١٧-٢٢. عبد الحفيظ عابوب، «هجرة اليهود السوفيات: مرحلة جديدة تستدعي موقفاً جديداً»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ٢١٣-٢٣٠. علاء سالم، «هجرة اليهودية السوفيتية والمراع الديموقراطية في السياسة العربية، عدد ٦ (يونيو ١٩٩٠)، ص ٣٨-٥٥. عزالدین سلطان، «هجرة الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي إلى فلسطين للحلقة: منظور عام»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ١٦٩-١٧٦.

(٨٧) انظر على سبيل المثال:

أحمد الجباعي، «آثار الانكفاء السوفيتي على الوضع العربي: الأسباب والتحديات والتحديات»، الوحدة، عدد ٩٠ (مارس ١٩٩٢)، ص ٢٥-٣٣. الحسان بوقطار، «تحولات الكتلة الاشتراكية والحركة الشيوعية للعربية، المستقبل العربية، عدد ١٣٩ (سبتمبر ١٩٩٠)، ص ٥٩-٦٩. د. جلال أمين، «أحدثت أوروبا الشرقية ومستقبل العالم الثالث»، افلال (يناير ١٩٩٠)، حسين توفيق إبراهيم، «التحولات الزمانية في أوروبا الشرقية وتنكاساتها على الوطن العربي»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٣٤ (أكتوبر ١٩٩٠)، ص ١٦٩-٢١٧. عبد الإله بلقزيز، «ماذا بعد انيار الاتحاد السوفيتي؟ ما العمل؟»، المستقبل العربي، عدد ١٥٤ (ديسمبر ١٩٩١)، د. عبد الكيس، «تأثير انيار الاتحاد السوفيتي على النظام الدولي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «الوضع الدولي الجديد»، مرجع سبق ذكره، عدد المجلد نريد، «العرب والتغيرات الجديدة في الكتلة الاشتراكية»، لبحث العربي، عدد ٢٣ (أبريل-يونيو ١٩٩٠)، ص ٣٤-٣٧. ندوة «تأثير التطورات الجديدة في الكتلة الاشتراكية على الوطن العربي»، للمستقبل العربي، عدد ١٣٢ (أبريل ١٩٩٠)، ص ١١٢-١٣٢، يومس صايغ، «دالات التحولات الجندرية في مجموعة البلدان الاشتراكية بالنسبة إلى الوطن العربي، للمستقبل العربي، عدد ١٥٠ (أغسطس ١٩٩١)، ص ٤-١٨.

(٨٨) انظر على سبيل المثال:

أحمد تالت، «أوروبا للوحدة والعرب»، مرجع سبق ذكره، د. أحمد عبد الويس ششاد. أحمد الرشيد، «في دالات الوحدة الأوروبية وتأثيرها المحتملة بالنسبة إلى مستقبل التكامل الإقليمي العربي»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ١٠٠-١١٦. المختار الطبع، «أوروبا الآن عشر وتأثيراتها المحتملة على الأطفال العربية، الوحدة، عدد ٨٦ (نوفمبر ١٩٩١)، ص ٦٥-٧٦. د. حاتم البيلالي، «أوروبا ١٩٩٢ والعرب»، لبحث العربي، عدد ٢٠ (يوليو-سبتمبر ١٩٩٠)، د. ٦١-٤٨. عزالدین شكري، «العرب العربي-أوروبا ١٩٩٣: إعادة صياغة»، السياسة الدولية، عدد ٩٩ (يناير ١٩٩٠)، جمال الدين محمد علي، «أوروبا للوحدة ومستقبل الحوار العربي-الأوروبي»، «السياسة الدولية»، عدد ١٠٠ (أبريل ١٩٩٠)، د. حبة أحمد نصار، أثر قيام السوق الأوروبية للوحدة بعد عام ١٩٩٢ على العلاقات الاقتصادية العربية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، سلسلة بحوث سياسية، عدد ٦١، مكر، يناير ١٩٩٣).

(٨٩) انظر على سبيل المثال:

د. جمال زمران، «العلاقات العربية-الصينية في ظل أوضاع عالمية جديدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، حسين توفيق إبراهيم، «اليابان والنظام الدولي في التسعينيات»، السياسة الدولية، عدد ١٠١ (يوليو ١٩٩٠)، د. خليل درويش، «اليابان والعرب في ظل الأوضاع العالمية الجديدة»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، د. سعد الدين إبراهيم، «الصينيون قلحون»، للصور، عدد ٣٥٩ (٢٥/١٢/١٩٩٢)، ص ٦٠-٦١، د. عبد الحليم سعيد، «الأخوة الأعداء: اليابان والقرى الكبرى»، السياسة الدولية، عدد ١٠١ (يوليو ١٩٩٠)، محمد محمود المشاوي، «اليابان والتغيرات الدولية الجديدة»، السياسة الدولية، عدد ١٠٨ (أبريل ١٩٩٢)، ص ٢٥٣-٢٥٥.

(٩٠) انظر على سبيل المثال:

حسين توفيق إبراهيم، «النظام الدولي الجديد. قضايا وتساؤلات (القاهرة: لجنة العامة للكتاب، ١٩٩٢)، عبد الحليم سعيد، «الديمقراطية والنظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره.

(٩١) انظر على سبيل المثال:

د. حسن زانعة، «النظام الدولي الجديد ومستقبل الديمقراطية في العالم العربي»، في: د. تيفين عيلتمم مسد (محرر) التحولات الديمقراطية في الوطن العربي (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١، ١٩٩٣)، ميلود الجهنجي، «إشكاليات في الديمقراطية المعاصرة والتغيرات الدولية»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٩ (شتاء ١٩٩٣)، ص ١٥٩-١٥٩.

Dr. Walid Kazizh, "The First anniversary of the new world order", Alme Review: A review of middle East and Ecnomy affairs, No. 16 (spring, 1992) pp. 5 - 7.

(٩٢) انظر على سبيل المثال:

د. عبد الحليم سعيد، «العرب والنظام العالمي الجديد... للحياوات المطروحة»، مرجع سبق ذكره.

(٩٣) انظر على سبيل المثال:

أسامة المجدوب، «التغيرات الدولية ومستقبل مفهوم السيادة للطلقة»، السياسة الدولية، عدد ١٠٩ (يوليو ١٩٩٢)، بام أسحبة، «إشكالية مفاهيم العالم الثالث في ضوء انيار العالم الثاني وتبثاق النظام العالمي الجديد»، للمستقبل العربي، عدد ١٥٧ (مارس ١٩٩٢)، جبل مطر، «التغير والتغير في مشكلات ما بعد الحرب الباردة»، الحية، ١٣/٧/١٩٩٣، سمير أمين، «ملاحظات حول

أحدية»، تذكر العربي، عدد ٦٦ (أكتوبر-ديسمبر ١٩٩١)، ص ٣٦-٥٣، عبد القادر عرابي، «التغيرات الدولية الراحنة - أبعادها الهيكلية واقتصادها في مستقبل الخطاب للتجديد العربي»، المستقبل العربي، عدد ٦٦٩ (مارس ١٩٩٣)، ص ٤-٢٠، د. نازلي موصى أحمد، «الأحلاف العسكرية والتطورات الدولية المعاصرة»، المجلة العربية للدراسات الدولية، العدد الأول والثاني، السنة الرابعة (شباط-ربيع ١٩٩٣).

Ali E. Hiliat Dessouki, Globalization and the re-negotiation of security.

مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، سلسلة محوث سياسية، عدد ٦٣ (مارس ١٩٩٣).

(٩٤) انظر على سبيل المثال:

د. جمال زهران، «العلاقات العربية-الصينية»، مرجع سبق ذكره، د. خليل دويش، «أفاق العلاقات العربية-السيابانية: الحدود والامتدادات»، في: د. مصطفى كامل السيد (محرر)، حتى لا تنتهب حرب عربية عربية، مرجع سبق ذكره، د. خالدة شادي، «القوة الألفية الصاعدة: المعطيات والممارسات في إطار النظام الدولي الراحنة»، الفكر الاستراتيجي العربي، عدد ٤١ (يوليو ١٩٩٢)، ص ٢٩-٥٤، د. طه عبد العليم، «الدور الروسي في النظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «مفهوم وآليات النظام العالمي الجديد»، مرجع سبق ذكره، ولعصر المؤلف، مصر والكونغرس الروسي (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - دراسات استراتيجية)، عدد ١٣، (يناير ١٩٩٣)، عفنان عمران، «العلاقات العربية-الأوروبية في ظل التطورات الراحنة»، المستقبل العربي، عدد ١٤٠ (أكتوبر ١٩٩٠)، كاتظم حبيب، «العلاقات العربية-الأوروبية في ضوء الصراع المتصم بين الشرق والغرب»، المستقبل العربي، عدد ٦٦٩ (مارس ١٩٩٣)، د. محمد عبد الشفيق عيسى، «العرب والعالم والتكنولوجيا المتقدمة»، الوحدة، عدد ٨٦ (نوفمبر ١٩٩١)، ص ٤-٥١، د. محمد سعد أبو عامر، «شروط تعامل العرب الناجم عن التغيرات العالمية الجديدة»، مرجع سبق ذكره، ولعصر المؤلف، «الإنجابية العربية الإسلامية الحضارية المطلوبة للتحدي الحضاري الغربي» مستقبل العالم الإسلامي، عدد (شباط ١٩٩٣)، ص ٧-٢٢، مسار الشوري، إدارة كليتون والفضايا العربية (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، دراسات استراتيجية، عدد ١٢، نوفمبر ١٩٩٣)، د. هالة مسعودي (محرر)، الإدارة الأمريكية الجديدة والشرق الأوسط (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ط١، ١٩٩٣)، د. دودة بدولان، «العالم العربي وإمكانية التأثير على الجماعة الأوروبية»، في: د. مصطفى كامل السيد (محرر)، حتى لا تنتهب حرب عربية - عربية، مرجع سبق ذكره، يوسف حلياي، «السياسات العربية في مجال التجارة الحديثة»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ١٣٠-١٤٢.

(٩٥) انظر على سبيل المثال:

سعد عبد الحفيظ، «العرب - حسابات الربيع والحسارة في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد»، ورقة قدمت إلى ندوة «العرب ونظام عالمي جديد»، مرجع سبق ذكره، د. عصام بديان، «العرب والمصر: رؤية قوية للخروج من الخزيمة»، مرجع سبق ذكره، عدل الله بالفرز، «مدن انبعاث الاتحاد السوفيتي: لها العمل»، مرجع سبق ذكره، وانظر أيضاً بيان المؤتمر القومي للربيع، المستقبل العربي، عدد ١٧٢ (يونيو ١٩٩٣).

(٩٦) انظر على سبيل المثال:

زكي أحمد، مرجع سبق ذكره، راشد القسوي، «الحركة الإسلامية والنظام الدولي»، مرجع سبق ذكره، ولعصر المؤلف، «العلاقة بين أمة الإسلام والغرب»، التغيير، العددان ١٠ و ١١ (جمادى الأولى، جمادى الثاني ١٩٩٠)، ص ٣٤-٣٨، عادل المهدي، مرجع سبق ذكره، محمد عارة، «العالم الإسلامي والتغيرات الدولية الراحنة»، مستقبل العالم الإسلامي، عدد ٦ (ربيع ١٩٩٢)، ص ٧-٢٥.

(٩٧) انظر أيضاً:

د. حسين توفيق إسماعيل، «الفكر العربي وإشكالية النظام الدولي الجديد: دراسة تحليلية نقدية»، شئون عربية، عدد ٦٩ (مارس ١٩٩٢)، ص ٤٩-٦٩.

أي هيكل للنظام الدولي الجديد؟

د. ناصيف يوسف حشّي

مقدمة

أول ما يطالع المراقب للأوضاع الدولية غداة انتهاء الحرب الباردة، وجود عدد من المفارقات المثيرة بعضها على الصعيد الميكلي وبعضها الآخر على الصعيد القيمي أو السلوكي. فمن الملاحظ أنه في حين سقطت الإمبراطوريات التي قامت على القوة العسكرية أو استمرت بالقوة العسكرية، أخذت تقوم إمبراطوريات على أساس القوة الاقتصادية. ومن الملاحظ أيضاً أنه بقدر ما يتبلور اتجاه يتخطى الدولة نحو بناء كتلات اقتصادية كبرى عاكسا بلعك من جهة ازدياد عالمية الاقتصاد (*Mondialisation de l'économie*) وتدمجه وعدم قدرة الدولة الوطنية على التناول بشكل منفرد عديد من القضايا الدولية، من جهة أخرى، بقدر ما تترسّ الدولة القائمة إلى مخاطر التفتت من الداخل، وهي مخاطر مصدرها انتعاش أو ثورة الولايات الأصلية من اثنية وملهية ودينية وقومية. ويسود وكأن العالم يتجاذب تيارات، أحدهما يمثل الانشداد إلى المجال الاقتصادي والآخر يمثل الانجذاب إلى المجال الثقافي. وفي حين يسقط جدار برلين الاستراتيجي، تبقى المخاطر موجودة في قيام جدران «برلين»، على أسس ثقافية قد يحدث التفاعل الإيجابي أو التوتر صبرها، وهي بأي حال تميز «النحن» عن «الهم».

وأخيرا هنالك عدد من الإشكاليات في نوع الثنائيات التي أخذت تستقر على الأجنحة الدولية وهي: حقوق الإنسان مقابل حقوق الشعوب، وحقوق الجماعة مقابل حقوق الدولة التي نأخذ أحيانا طابع المواجهة بين الشرعي (Legitimate) والقانوني (Legal) (١). والديمقراطية الداخلية أو ديمقراطية الدولة التي يرفعها «الشبال» مقابل الديمقراطية الخارجية أو ديمقراطية العلاقات الدولية التي ينادي بها «الجنوب» كما حصل مثلا في القمة العاشرة للدول عدم الانحياز التي عقدت في جاكارتا، اندونيسيا في الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٩٢ (١).

إذن، غداة انتهاء الاتحاد السوفيتي بالمفهومين القانوني والجيو سياسي في ٨ ديسمبر ١٩٩١، بدأ العالم منقسما بين المتخالفين بفجر جديد وبين أصحاب «النوستالجيا» إلى عصر كانت قواعد إدارة العلاقات الدولية فيه معروفة وشبه مبرجة وتسهل استكشاف موقف الآخر. وكان أصحاب التنازل نتاج مدرسة التنس، عندها بداية تكون نظام جديد مع الاعتبار بأن هذا النظام قد قام بقواعده وأنهاطه. وقد علمنا التاريخ أن إقامة نظم جديدة تأخذ فترة من الزمن قد تكون عشرية مثلا أو عشرين (٢). ويعتبر زبنيو بريجنسكي أنه لا يوجد نظام عالمي جديد من حولنا ونشأة هذا النظام قد تستغرق عشرات السنين (٣).

فالنظام لا يقوم بالضربة القاضية بل يترسخ في أنماط وقواعد وهيكل جديد نتيجة تفاعلات حادة حيناً ومبتكرة أحيانا. فعلى سبيل المثال لم يتم نظام الثنائية القطبية مباشرة غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية بل أخذ سنوات حتى تم ضبط بريطانيا وفرنسا في إطار حلف بزعامة الولايات المتحدة واستكمل الاتحاد السوفيتي ترسيخ سيطرته في مناطق نفوذه وتبلورت قواعد اللعبة وتأسست مناطق النفوذ المطلق والمناطق الرمادية أو مناطق التنافس، وقبل ذلك في القرن الماضي مرت عشرينان ونيف من الحروب والتوترات التي أطلقتها الثورة الفرنسية قبل أن يتأسس نظام جديد في مؤتمر فيينا. ونحن حاليا نواجه عددا من التحديات. ويقول بيار هسنر إن كلا من نظام يالطا (الثنائية) ونظام فرساي (الحدود والدول التي قامت بعد الحرب العالمية الأولى) وكذلك نظام وستفاليا (سيادة الدول والوحدة الترابية) كل هذه النظم موضوع تساؤل الآن (٤).

إذن، ما يمكن الجزم به حاليا هو أن النظام «الجديد» لم يتأسس بعد وقد يقوم لاحقا على فوضى عالمية (٥) أوقد يكون بمثابة العودة إلى الماضي بسلوكيات أعضائه، إلى «العصور الوسطى» مثلا (٦) ويحذر الاقتصاديين الأمريكي جون كينيث جالبريث من أن الفقر سيكون المصدر الأول للفوضى العالمية وأن المأساة البشرية سيكون مصدرها النزاعات الداخلية أكثر منها النزاعات الخارجية (٧).

وما نعرفه أيضا أن النظام الجديد سيكون عالميا وليس دوليا إذ أن دور الدولة ولو بقي رئيسيا، إنها صار يشترك أطراف أخرى غير الدولة من شركات ومؤسسات اقتصادية ومالية وجمعيات مصالح قطاعية في النوع «عبر الدولة» وكذلك نسق وظيفية. كل هذه الأطراف تؤثر بشكل فعال في قرارات الدولة وكذلك في ترتيب الأجنحة الدولية.

وما نعرفه أيضا أن كثيرا من القواعد الدولية قد سقطت وسقط معها عدد من المفاهيم أو التوصيفات القائمة وسقوط هذه أو إفراغها من مضمونها يدل على حجم التحول الحاصل وعلى السهولة التي تطيح الوضع العالمي حاليا. وفي هذا السياق تتساءل عن ماهو «الغرب» بعد أن زال الشرق الذي كان يعطيه معناه

السياسي. (٨) وإذا انتهى الغرب بالمفهوم الاستراتيجي وهو كذلك فهل يشكل وحدة بالمفهوم الثقافي حتى بسمه بشكل آخر بنفس قوة الدفع. فهل اليابان مثلا جزء من الغرب الأطلسي بشقيه الأمريكي والأوروبي بهذا المعنى، ثم أيضا ما هو عدم الانحياز بعد انتهاء الثنائية القطبية والتجاذب الذي أوجدته أو ليس بحاجة حتى يستمر بالفعل وليس بالمفهوم الشكلي أن يعاد تعريفه وإعطائه مضمونا جديدا أو متروعا جديدا. وهل نستطيع أن نتحدث عن عالم ثالث يكون في عداده كل من البرازيل وأندونيسيا من جهة والصومال وسريلانكا من جهة أخرى مثلا وخاصة بعد أن زال «العالم الثاني». . . وقد ينطبق الشيء ذاته على مجموعة الدول السبع مع تزايد خلافاتها، وحسب افتتاحية للفاينتنل تايمز، فإن المذهب الجديد لمجموعة السبع هو مذهب سيناترا (على اسم المني الأمريكي) وأغنيته كل على طريقه^(٩). ويبدو أن تعريف الشيء كان بواسطة نقيضه، وبسقوط النقيض، سقطت «وحدانية الآخر» واندرت حدوده.

المحددات : مصادر القوة والضعف

إن وجود عوامل جديدة طرأت على بعض المتغيرات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة يعيد طرح موضوع مصادر القوة والضعف عند قياس إمكانيات القوى المرشحة للعب دور قطب دولي في النظام الذي يتكون. ومن ثم اللجوء إلى محاولة استشراف النماذج الممكنة لهيكل هذا النظام، زد على ذلك أن الأجندة التي تحوي هذه المتغيرات تحدد بشكل كبير أطر وطبيعة التفاعلات عبر الدولة بين هذه القوى الأقطاب وبينها وبين دول العالم وتؤثر بالتالي بموقع هذه القوى وقدرتها على الاحتفاظ أو على تجميع أكبر حجم ممكن من الإمكانيات بشكل مطلق أو بواسطة بسط نفوذها عبر إحداث شبكة كثيفة من الترابط غير المتكافئ في العالم وفيها يلي قراءة في هذه المتغيرات.

الدولة :

تبرز تحت هذا العنوان مستجدات ثلاثة : أولاها التغير الحاصل في طبيعة السيادة المحدودة التي كان مصدرها استراتيجي أيام الحرب الباردة وأبرز مثال على ذلك كان مذهب بريجنيف الذي نشأ في ربيع براغ عام ١٩٦٨ وكرس حق التدخل لحماية الاشتراكية وكذلك التدخل الذي كانت تمارسه الولايات المتحدة في شؤون بعض الجمهوريات في أمريكا الوسطى «جمهوريات الموز» كلها شعرت أن هنالك مخاطر تهدد مصالحها في «الحديقة الخلفية» حسب مذهب مونرو.

ولئن تراجع العامل الاستراتيجي في هذا المجال، فلقد حل محله العامل الاقتصادي في صياغة مفهوم السيادة المحدودة، وساهم في هذا ثورة المواصلات والاتصالات والاختراقات العلمية المتتابعة في هذه الحقول، وازدياد الاندماج الاقتصادي العالمي والاختناقات التي تعيشها اقتصاديات الدول النامية بحيث صارت السياسة النقدية أو الاقتصادية لأحدى الدول المدينة تخضع بشكل دوري لامتحان حسن سلوك من قبل نادي باريس أو نادي لندن للدائنين إلى جانب اضطراب هذه الدول على التجاوب مع المقترحات - المضغوطات - التي يقدمها صندوق النقد الدولي. وإذا كان هذا العامل الاقتصادي بغير جديد كمصدر تقييد للسيادة، ولو أن وزنه قد زاد إلى جانب ازدياد انتشاره، فإن الاتجاه الحاصل حاليا هو نحو تقنين السيادة المحدودة أو إضفاء شرعية لفرضها بشكل مباشر بواسطة محاولة بلورة حق أو واجب التدخل الإنساني. ويقول برنار كوشنر في

هذا الخصوص. إنه من الصعب جدا إيقاف حرب في وسط تطورها، فلا بد من اللجوء إلى التدخل الرفاعي وهو أعلى مرحلة في تطور مفهوم التدخل. وصحيح أن هذا المفهوم لم يتم تقنينه بعد وخاصة أنه يلاقى معارضة قوية من مصدرين مختلفين ومتقاطعين أحيانا أحدهما المدرسة الكلاسيكية في القانون الدولي التي تقدس حرمة الدولة وتحظر من مغبة فتح «صندوق العجائب» فيما لو تم تكريس هذا المبدأ، الأمر الذي يؤدي إلى تعميم الفوضى الدولية وخلق مشاكل أكثر من إيجاد حلول لمشاكل قائمة أو محتملة، وثانيها التخوف الرسمي من أن تكريس المبدأ بإعطائه طابعا عالميا قد يؤدي أحيانا إلى فرض قيود ذاتية، وتفضل القوى التي تدعم هذا المبدأ العمل به بشكل انتقائي.

ولكن مقاومة التقنين الناجحة حاليا لا تلقى الإشكاليات والتناقضات التي يشهدها هذا الموضوع ومنها وضع القانون الدولي أحيانا في مواجهة الأخلاقية الدولية، ووضع العاطفة في وجه النص، وأيضا وضع الفرد أو الجاعة في مواجهة حق الدولة، ويفتح هذا كله الباب أمام تساؤلات تحمل تداخلا بين الفلسفي والواقعي وبين السياسي والقانوني من نزع التساؤل حول التدخل لحماية شعب يتعرض للغناء وأعتبره بمثابة حماية حقه في تقرير المصير أو اعتبار أن هذا الحق ينتهي عند قيام الدولة. كما يفتح الباب أمام بلورة حقوق تدخل لفضايا «مشروعة» من منظور عالمي وجديدة مثل حق التدخل البيئي.^(١٠)

وثاني هذه المستجدات التي تهدد المفهوم التقليدي لسيادة الدولة تنبع من ما أسميه بالعالم الثالثية المكسوة التي تحمل تلفها ودعوة من قبل مجتمعات أو قطاعات واسعة في مجتمعات الدول النامية، إلى الدول المتقدمة لتدخل هذه الدول بنية حماية مجتمع من دولته النامية.

ومرد هذا التلف أسباب عديدة منها انتهاء عصر الاستعمار منذ فترة بعيدة نسبيا ودخول صوره السلبية في عالم النسيان خاصة عند الأجيال التي ولدت في المرحلة الاستقلالية للدول النامية. وكذلك الفشل الذريع للعديد من الدول المستقلة حديثا في عملية البناء الوطني والأزمات الاقتصادية مع تداعياتها الاجتماعية والمأساوية أحيانا وإزدياد سياسات التهميش الاجتماعي والفقر وغياب النموذج الأمثل بعد سقوط النموذج البديل عن النموذج الغربي إلى جانب الحاجة في حالات معينة مثل الصومال وكامبوديا إلى بناء السلام الذي يعني عمليا بناء الدولة من اللاشيء مما يستدعي إقامة نظام من الحماية أو الانتداب الجنديد تحت مظلة الأمم المتحدة أو المؤسسات الدولية التي يسيطر عليها «الشمال».

فحالة التعب والشعور بالانهيار التي أصيب بها عدد من مجتمعات الدول النامية نتيجة تراكم الصدمات ولو بدرجات متفاوتة أوجدت التربة الخصبة للنظر إلى الشمال الزاهي بانتصاراته، كأنه «المخلص» من هذه الأوضاع.^(١١) فالتهيب المستمر للمجال السياسي المفاقد مصداقيته بعد مصادره من قبل الدولة في العديد من مجتمعات الجنوب وضع هذه الأخيرة ضد دولتها، متقبلة عن يأس دور المتخذ القادم من بعيد دون التوقف عند المعنى السياسي لهذا الدور.

وثالث هذه المستجدات سقوط حرمانات الدولة وتحديدات الوحدة الترابية للدولة حيث إن القواعد التي كانت تحمى الدولة ضد الانهيار وتحمي حدودها انهارت وشاهدنا سقوط إمبراطوريات من دول متعددة القوميات وولادة دول جديدة ونعيش انتفجارا ضخما في عدد الدول وصار مقبولا إعادة رسم حدود دولة أو تقسيم أخرى

بعدما كانت موازين وقواعد معينة تحمي دولا هشة من هذا المصير. ومع سقوط قديمة الدولة ككيان سقط بالطبع مآهرو أسهل من ذلك وهو قديمة السيادة وصارت هنالك جرة أكبر مع المعطيات الجديدة للتدخل تحت عناوين كثيرة أو لتبرير التدخل وتقييد سيادة الدولة. (١٢)

النزاعات

أول ما يلاحظ عند مقارنة نزاعات الحرب الباردة بتلك المتضجرة والمتشرة حاليا والمحتمل تفجرها أيضا في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، إن النزاعات الأولى كان مصدرها الرئيسي استراتيجي أي تنتمي إلى دائرة المواجهة بين الشرق والغرب والتنافس بين القطبين العظميين وحتى تلك النزاعات التي كانت مستقلة في مصدرها عن العامل الاستراتيجي فإن استمرارها وتطورها وإدارتها وحتى تسويتها كانت متأثرة بشكل كبير بالعامل الاستراتيجي ذاته. فكتنا نلاحظ وجود قواعد للعبة إدارة النزاعات تعمل على ضبطها عند حد معين أو في وقت معين والملاحظ الآن أن النزاعات الجديدة أو المتجددة مصدرها اثني بالمعنى العام للكلمة إذ تتعلق بهوية أصلية تواجه أو تنتفض على أخرى وأن بعض هذه النزاعات من النوع المعروف بالنزاعات الاجتماعية الممتدة Protracted Social Conflict أي التي تغلغل على ذاتها وتعيد إنتاج نفسها بسبب قدرتها التعبوية نظرا للقيم التي تدافع عنها أو تعمل على تحقيقها ومخاطر هذه النزاعات من منظور احتمالات تسويتها أن بعضها يتضمن مواقف تقوم على نفى الآخر وبالتالي لا تحتمل المساومة.

ومن المفارقات المثيرة في هذا الخصوص أن بعض النزاعات التي انتهت نتيجة توقف أو تغير في مصدرها الاستراتيجي مثل حائتي أفغانستان وإفولا قد انتعشت مجددا بواسطة قوة المحرك الاثني. زد على ذلك أنه لم تتبلور بعد قواعد لإدارة هذه النزاعات ولن تتبلور تلك القواعد طالما لم يرس النظام الدولي على هيكل جديد. ويرى البعض أنه من شبه المؤكد أن يكون النزاع الاثني المشكلة الرئيسية في السياسة في القرن الواحد والعشرين. (١٣) ومرد ذلك العوامل التالية :

- ثورة حق تقرير المصير المتضجرة من جديد بعد سقوط الاتحاد السوفيتي فالقومية ربما تكون أكبر قوة سياسية في القرن الواحد والعشرين. (١٤) وسواء كانت مشكلة أو قوة فانفجارها يعود في الأساس ولو بدرجات متفاوتة إلى فشل الدولة في بناء المجتمع الذي يستوعب ولا يلغى أو يطمس الهويات المتعددة إذا وجدت. وفي غياب الاستيعاب الخلاقي يهدد المجتمع Gesellschaft الجماعة Gemeinschaft ويحصل التوتر والانقطاع اللذان سرعان ما يتحولان إلى صدام مفتوح إذا سمحت الظروف السياسية الدولية والمحلية بذلك. وهذا ما يهدد وحدة الدولة عندما تنتصب الحدود الثقافية للجباة في مواجهة الحدود الجغرافية للدولة ولا يعني ذلك بالضرورة أن الانفصال هو التعبير الوحيد الممكن عن الهوية الشائرة ولكن الأجوبة على التساؤلات التي تطرحها ثورة حق تقرير المصير لم تنضج بعد فلم نشهد باستثناء المعايير التي بلورتها ببخجل وعجل الجماعة الأوروبية «معايير عالية» للاعتراف بدولة جديدة أو رفض ذلك. ويقول وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر في هذا الخصوص إنه إذا لم نجد طريقة ما لتعايش المجموعات الاثنية المختلفة في دولة فقد يصبح عندنا خمسة آلاف دولة. (١٥) فانتشار ثورة حق تقرير المصير من أهم السمات الدولية المعاصرة.

- العامل الثاني الهام في هذا الصدد، يتمثل في إشكالية العلاقة بين الديمقراطية والنزاعات الاثنية، خاصة

أنه في المرحلة الأولى من تأسيس اللعبة الديمقراطية في بعض الدول المتعددة الاثنيات، قد تتكون الأحزاب أو التكتلات السياسية على أساس الولايات الأصلية مما يعيد الوحدة الترابية للدولة فيها لو اتخذ العمل السياسي هذا المنحى إذ تتحول أي أزمة سياسية وهذا شيء طبيعي في الإطار الديمقراطي إلى أزمة وطنية. فالديمقراطية قد تؤدي أحياناً وفي بدايتها إلى تأجيج النزاعات الاثنية خاصة إذا كانت هنالك توترات اثنية مغموعة رفع عنها الغطاء فجأة أو إذا كان النظام السابق مرتبط بجماعة اثنية معينة أو إذا كان يحافظ على استمراره من خلال اتباع سياسة اللعب على الاثنيات^(١٦) والأشئلة على ذلك عديدة.

- العامل الثالث يتمثل في الأثر التظاهري للنجاحات التي حققتها بعض الجماعات الصغيرة نسبياً في الانتصار لأهدافها القصوى في الانفصال أو إقامة الدولة المستقلة وهو ما يشجع جماعات تعتقد أنها تعيش أوضاع مشابهة للمضي في رفع أقصى مطالبها داخلية في نزاع مع الدولة المركزية.

- العامل الرابع يتمثل في غياب الآليات المؤسسية في إطار الأمم المتحدة أو المنظمات الدولية الإقليمية للتعاظم مع نزاعات ذات وجه داخلي، وكذلك غياب الآليات السياسية أو القواعد العرفية التي تحترمها مثلاً القوى الكبرى والقادرة بحيث تصلح هذه الآليات كسقف يمنع تفجر النزاعات أو كدالة أحياناً لاحتوائها وإيقافها ولو دون تسويتها.

الديمقرافيا

مشكلتان مترابطتان هما الانفجار السكاني والهجرة تهددان بالتفاقم نتيجة الزيادة النسبية المرتفعة في عدد السكان في المناطق النامية في العالم، فتعداد السكان في العالم اليوم وصل إلى خمسة مليارات إنسان، ومن المرجح أن يصل هذا العدد عام ٢٠٢٥ إلى حوالي ٨ مليارات علماً بأن ٩٥٪ من الزيادة تقع في العالم الثالث.^(١٧)

فالانفجار السكاني والنمو البشري الذي لا يمحض لتخطيط أو لأن التقاليد والظروف الاجتماعية المترسنة أقوى من محاولات التخطيط، ويؤدي إلى هجرتين الأولى داخلية باتجاه المدينة التي تزداد اكتظاظاً. ويشير تقرير لنادي روسيا إلى تهديدات للأمم المتحدة تقول بأن ٦٠٪ من سكان العالم سوف يعيشون في المدن بحلول نهاية هذا القرن.^(١٨) والهجرة الثانية خارجية وقد تأتي عن طريق المدينة أو بشكل مباشر ويرى أحد الباحثين أن هنالك ثلاثة خطوط رئيسية للهجرة تقع على نقاط تماس بين الشمال والجنوب في آسيا والمتوسط وإفريقيا وكذلك في الريو غراندي أو الحدود المكسيكية الأمريكية.^(١٩)

وتثير هذه الهجرة جملة من المشاكل أولها تفاقم الأزمة الاقتصادية الاجتماعية في المدينة فالإنهيار بأغواء المدينة وأحلامها وغيبا عوامل التشجيع على التمسك بالأرض يؤدي إلى إفراغ الريف وتهيش القطاع الزراعي. ومن ثم يؤدي إلى تريف المدينة مع ما يحمله ذلك من توترات اجتماعية. وتثير الهجرة الخارجية مشكلة مزدوجة، فإقبال باب «الشمال» قد يؤدي إلى انفجار في دول «الجنوب» يطال بتداعياته الشمال وعدم إقبال الباب واستمرار الهجرة مع ما تفجره من تناقضات اجتماعية في التقاليد والعادات مع الدول المستوعبة يؤدي إلى خلق توترات تهدد السلم الاجتماعي وتسعر التيارات المتطرفة وتهدد بالتحول إلى صراعات عبر الحدود. ويقول بول كينيدي إن التحدي الرئيسي المطروح في هذا الشأن هو كيفية تغليب قوة التكنولوجيا على قوة السكان.^(٢٠)

وخلاصة القول، إن النمو السكاني السريع والهجرة الناتجة عنه سيزيدان من اختلال العلاقات بين الدول «الطاردة» والدول المستقبلية، إن لم يكن لأسباب اقتصادية فلأسباب استراتيجية، وسيؤدي هذا الوضع إلى زيادة الاعتماد المتبادل بين الطرفين وتعقيد العلاقات بحيث تنفي العلاقة بين الخارجي والداخلي في التفاعلات بينهما. ويسمح ذلك الوضع للدولة المستقبلية بأن تركز وتوسع مجال نفوذها بالدول المصدرة خاصة إذا كانت هذه الهجرة مستقرة عبر الزمن.

سباق التسلح

يشكل الانتشار النووي وفقدان السيطرة على الترسنة النووية السوفيتية خطراً بسبب القوضى والوضع السائد في روسيا بالخصوص إلى جانب المشاكل الناجمة عن تحويل القطاع العسكري إلى القطاع المدني وهو ما يعني كساداً اقتصادياً له تداعيات سياسية على قطاع قوى وعنده القدرة على المقاومة أو المساومة، ويزيد من مخاطر الانتشار النووي استقرار هذا السلاح في مناطق تشهد نزاعات إقليمية مستمرة أو قد تشهد نزاعات محتملة. والتحدى الأساسي كما ذكرنا هو كيفية ضبط أو تقييد حوالي ١٥ ألف سلاح نووي تكتيكي و١٢ ألف استراتيجي على أراضي الاتحاد السوفيتي سابقاً. (٢١)

ولئن كان ميزان الرعب القائم على قدرة التدمير المتبادل هو الحافظ الرئيسي أو الرادع الفعلي طيلة الحرب الباردة من اللجوء إلى استخدام السلاح النووي في بعض الأزمات، فإن الرعب الحالي مرده ديمقراطية الانتشار النووي واحتلال حصول حوادث وكذلك غياب تقاليد لعبة الردع من التخابط بالإشارات وضبط النفس والتصعيد عند القوى الإقليمية مع ما كان عليه الوضع في التفاعل الذي كان قائماً بين القوتين العظميين. ويقول روبرت ماكنار وزير الدفاع الأمريكي في عهدي كينيدي وجونسون إنه من الممكن التنبؤ بثقة أن مزيجاً من الخطأ الإنساني والسلاح النووي لابد أن يؤدي إلى الدمار النووي. ويضيف قائلًا أن هنالك عشرين دولة على الأقل تملك نوعين من أسلحة الدمار الشامل من نووي أو كيميائي أو بيولوجي. (٢٢)

ملاحظتان أخريتان لابد من الإشارة إليهما أيضاً أولاً أن النزاع الاستراتيجي يبقى من الأسهل تقييده وإدارته من نزاع اثني إذ أنه أكثر «عقلانية» بطبيعته في حين أنه في النزاع الاثني قد يجد طرفاً «نفسه» مهدداً «بوجوده» أو إحدى قيمه الحيوية وليس فقط ببعض مصالحه، وثانياً أن استمرار سباق التسلح يشكل مصدراً غير مباشر للتوتر من حيث استهلاكه لحجم كبير من القدرات المادية والبشرية كان يمكن توفيرها للتنمية وعلى سبيل المثال يؤكد تقرير للأمم المتحدة أنه لو تم خفض نسبة ١٠٪ من نفقات الدفاع في العالم على أساس نفقات عام ١٩٩٠ وهي نسبة متواضعة لأمكن توفير ٩٥ مليار دولار أمريكي (٢٣). وكان يمكن استعمال هذه الأموال للتنمية.

خط الشمال - الجنوب

أيّا كان الشكل الذي سيمر عليه النظام العالمي، فإن الخط الرئيسي في السياسة العالمية الذي يرسم «يقف» عند طرفيه واحد في مواجهة الآخر «الشمال» و«الجنوب» وهذا الخط الذي كان بمثابة دعوة أيديولوجية لردم الفجوة أو تضييقها بين الدول المتقدمة والدول النامية يأخذ حالياً مكان خط شرق غرب الذي طبع التفاعلات

الدولية في مرحلة الحرب الباردة، والجديد في «الشمال - جنوب» حاليا أنه يتخطى الاقتصاد ليشمل المجالين السياسي والاجتماعي في تفاعلاته.

وفي حين صار الغرب شمالا وسقط الشرق ليصبح جنوبا، يقف الأول مزهوا بانتصاره الاستراتيجي كغرب وطمع انتصاره الأيديولوجي كنموذج للحكم يقوم على ثنائية اقتصاد السوق والديمقراطية. ويعيش هذا النموذج أقصى درجات الجاذبية أو لنقل أن هذه قد بلغت أقصى درجاتها ودخلنا دائرة التحدي الكبير وهو تحدي تطبيق هذا النموذج بأقصى مرعة ممكنة في بيئات غير مهياة أساسا أو بحاجة لإيجاد شروط موضوعية معينة تستغرق وقتا «وتضحيات» صعبة سياسيا لإجراء هذا التحول الذي يفترض أن يتم ليس على الصعيد الميكلي فحسب بل على الصعيد القيمي أيضا. ونحن نشهد التخططات في التطبيق في دول أوروبا الشرقية سابقا وما تنتجه من تطورات في روسيا مثلا.

ولكن الشمال ليس مرحلا بالطبع بل يعيش تنافسا اقتصاديا متزايدا بين أقطابه يملو جزء منه في الجنوب وكذلك تنازعا بين هذه الأقطاب كما تذكرنا بذلك دائما قمم مجموعة الدول السبع التي من الصعب أن يخفى دائما بيانها الشامل للسياسة والاقتصاد بصياغته العمومية والغامضة وجود خلافات حيوية وتضارب في المصالح الاقتصادية بين دوله. وخير دليل على ذلك المحاولات المستمرة لإنعاش جولة الأوروغواي والخلاف الفرنسي الأمريكي على اتفاقية «بلير هاوس».

ولكن لهذا التنافس قواعده وآليات إدارته ومن ينظر إلى الشمال من بعيد يجد نفسه أمام منطقة سلام وهدوء تحيط بها وتهددها منطقة اضطرابات^(٢٤) تقع في الجنوب الذي يعيش مشاكل كبيرة ومتراصة عناوينها الانفجار السكاني حيث تسبق الديمغرافيا دائما التنمية الاقتصادية وازدياد الفقر ومعها المديونية وكذلك ثورة تقرير المصير وسقوط دول وتفتت أخرى ومحاولات إنشاء أو إعادة بناء دول وسقوط نماذج اعتاد عليها، وتعامله مع النموذج الغربي على الصعيد العملي بشكل متردد ومتخبط وما يحمله هذا الوضع من تداعيات وخاصة على صعيد زيادة اختراق الشمال لهذا الجنوب فالضفك هو عنوان الدينامية السياسية في الجنوب إن كان على المستوى الإقليمي أو الوطني. ويزيد من ذلك الوضع هروب الثروات من بيئة نزاعية إلى منطقة السلام ويقدر البعض أن التحويل المالي الصافي (NFT) سيخسر الدول النامية حوالي ٢٦٦ مليار دولار في الصعوبات.^(٢٥)

يمر ذلك كله ويواكبه نزف فكري وعلمي واستمرار ضغوطات الهجرة أو الهروب من محيط الاضطرابات في حين تزداد الإجراءات الحامية من قبل الشمال مما يهدد بشكل أكبر الأوضاع الداخلية لعدد كبير من دول الجنوب. وي طرح أحد خبراء برنامج الأمم المتحدة للتنمية مقولة مثيرة لوصف هذا الوضع وكيفية الخروج منه ف يرى أن الجنوب يقول «أما بضاعتنا في أسواق الشمال أو مواطنينا على أرضه»^(٢٦) ويدل ذلك على درجة الاعتماد المتبادل بين الطرفين مع اختلاله لصالح مصلحة الشمال ولو أن ذلك لا يعني الشمال من المسؤولية. ليس من زاوية أخلاقية فحسب بل من زاوية استراتيجية حتى لا يتحول الشمال إلى جزيرة في محيط مضطرب. ويساهم ذلك كله في ازدياد التنافس بين أقطاب الشمال في محاولات زيادة اختراقها للجنوب وإقامة مناطق نفوذ فيه وفي زيادة ضغوطه ومطالبه تجاه الجنوب الذي يقف دون أي قدرة على المناورة أو المقاومة.

إعادة ترتيب عناصر القوة

للمرة الأولى في تاريخ النظم الدولية المتتالية ، يحتل عنصر القدرات الاقتصادية مكانة مميزة في قياس قدرات الدول والقوى الكبرى . فالمرآب لمختلف التفاعلات الدولية حاليا لابد أن يلحظ الدور الذي تحتله الدبلوماسية الاقتصادية الثنائية والمتعددة الأطراف كأداة تأثير وبناء نفوذ أو كأداة ردع أو تدخل في سياسات دول والتأثير قد يكون بواسطة القطاع الخاص أو موجهة إلى القطاع الخاص بحيث يأتي التأثير من الداخل ولو أن مصدره ومحركه خارجي فالدور الذي يقوم به نادي باريس أو نادي لندن للدول الدائنة ودور الصناديق الدولية الذي عادة ما يكون قرارها «الاقتصادي» ذات مصدر سياسي وسيطرة المؤسسات الحالية الكبرى على أسواق المال كل ذلك يقدم الأمثلة على كثافة التفاعلات الحاصلة بالنسبة للدبلوماسية الاقتصادية . ومرد هذا الوضع الجديد جملة من العوامل أهمها .

- تدنى منفعة (Diminishing utility) القوة العسكرية بعد انتهاء الحرب الباردة . فالقدرات العسكرية للولايات المتحدة صارت تفوق بشدة ما تحتاجه كقوة ردعية أو ما قد يحتاجه حلفاؤها ، فانهاء الثنائية القطبية أنهى مركزية لعبة الردع النووي والتقليدي المكثف في التفاعلات الدولية ، فبما حصل صعود في دور القوة الاقتصادية وللدلالة على تزايد أهمية الملف الاقتصادي نشر إلى الدعوة التي أطلقها رئيس المفوضية الأوروبية جاك ديلاور من أجل إنشاء مجلس أمن اقتصادي .^(٢٧)

وفي السياق ذاته يمكن الملاحظة . أن قمة الدول السبع صارت بديلا عن القمة الثنائية التي كانت تضم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة كأعلى إطار ممكن للتشاور في المسائل الدولية .

- أنواع النزاعات الجديدة التي لا يمكن إدارتها أو ردع أحد أطرافها بواسطة القدرات العسكرية الضخمة بل قد يكون المطلوب مزيجا من عناصر الردع السياسي والعسكري التقليدي والاقتصادي .

- التحولات التي حصلت أطلقت عمليتين متلازمتين ومتداخلتين تحتاجان بشكل كبير إلى قدرات اقتصادية هائلة وهما عملية البناء الوطني أو إعادة البناء الوطني عند ولادة دولة جديدة أو قيام نظام جديد والعملية الثانية متعلقة بإعادة صياغة علاقات إقليمية أو تأسيس نظم إقليمية إن كان في جنوب شرق آسيا أو في أوروبا أو في الشرق الأوسط ودول المركة السوفيتية .

وقد يكون من المفيد ، التذكير بأن القوة العسكرية ، تبقى بالطبع رئيسية وأساسية وما حصل هو نوع من إعادة التوازن بين دور القوتين في السياسة العالمية . ويفتح ذلك الباب كليا أمام جملة من الأنماط الجديدة في العلاقات الدولية منها مثلا تغييب «الانقباض» والتقييد بسياسة القوة العظمى أو الولايات المتحدة فيما يتعلق بالحلف الغربي بعد فقدان العدو الذي كان يدفع بواسطة المخاطر التي يشكلها إلى عملية الانضباط وراء زعيم الغرب ، مما يعيد خلط الأوراق ، ومنها أيضا أن عنصر القوة المعنوية وفي هذا السياق النموذج الاقتصادي الجذاب يصبح أحد مصادر القوة الرئيسية إذ يجعل من يملك هذا النموذج في موقع يسمح له بممارسة النفوذ دون الحاجة للقوة «No power influence» على دول كثيرة نتيجة اجتذابها إلى هذا النموذج وأخيرا يسمح ذلك كله بزيادة «التدخل» غير المنظور بعكس التدخل العسكري في شئون الدول الصغيرة أو ذات الاقتصاد المكتشف من قبل الدول الكبرى وبوسائل مختلفة ويصعب لمسها مباشرة .

سقوط الأيديولوجي و بروز الثقافي

إحدى المفارقات التي حملها انتهاء الحرب الباردة كان سقوط العامل الأيديولوجي كمحدد للسياسة العالمية وذلك بسقوط الفكر الماركسي اللينيني ومعه النموذج الذي يشر به . ورأى فوكوياما إن ذلك يشكل نهاية التاريخ^(٢٨) ، وفي تقديرنا أن ذلك الانتصار كان جزئياً لأن الصراع الدائر كان في إطار مفهومي واحد من حيث مصدره الثقافي الغربي الذي يركز على القيم المنفعية . . ولم يكن شمولياً قرأنا تصاعد العامل الثقافي بالمفهوم الحضاري ، مجدداً في السياسة العالمية بما يحمله من نسق قيم أصلية ومختلفة وبعضها غريب عن نسق القيم الغربية الذي نشأ في إطاره كل من الفكر الليبرالي والفكر الماركسي . والعنوان الثقافي يعيد خلط الأوراق في السياسة العالمية ويعطيها أبعاداً جديدة إذ قد يقطع الثقافي عبر الدولة أو يضم دولاً عديدة ويملك ديناميته الخاصة من حيث تأثيره الاندماجي أو التبعوي من جهة أو التفكيكي من جهة أخرى على مستوى الدولة وكذلك على مستوى العلاقات الدولية خاصة إذا نشأ توتر أو مواجهة بين ثقافتين.^(٢٩)

ومرد صعود هذا العامل أن الاندماج العالمي الذي خلقه الاقتصاد نشط عملية التفاعل أو التلاقح الثقافي وأحدثت توتراً نتيجة عدم استيعاب قيم ورموز الآخر حيناً وتحمله مسئولية ما يصيبنا أحياناً ونتيجة أيضاً لعدم التكافؤ في العلاقة أو لوجود توتر ذات مصدر سياسي أو اقتصادي سرعان ما يعبر عن ذاته في المجال الثقافي ويتأسس على هذا التوتر ثنائية التحن والهمل التي تعود بدورها لتؤثر في المجال السياسي . وليس من الضروري أن يحصل ذلك في إطار علاقات سياسية متوترة بل قد يحصل أيضاً بين أهل البيت السياسي ذاته ونشير في هذا الصدد إلى الحملة الفرنسية المتصاعدة حول الغزو الثقافي الأمريكي . وإلى التوتر الحاصل بين بعض المجتمعات الآسيوية والمجتمع الأمريكي^(٣٠) . . وفي حين اتسم الصراع الأيديولوجي الذي أنشأ ثنائية الشرق والغرب بمرونة معينة من حيث تأثيره المجتمعي ، فإن الاختلاف الثقافي لا يخضع لهذه المرونة وهو بالتالي أكثر قدرة على التعمية بسبب انفراسه في قيم أصلية بعضها قائم في حال اللاوعي عند الإنسان . فالشعور بالانتماء للثقافة الإفريقية على سبيل المثال لا يخضع لمذ وجزر مثل ما هو الانتماء إلى الاشتراكية الإفريقية أو الليبرالية . فاللعبة الدائرة في هذا المجال لا تتعلق بتنافس مصالح بل بطريقة حياة أو وجود . فشمولية مادة التنازع وعمقها تزيد من مخاطر التوترات على الخط الثقافي . وتقف ديناميية التفاعلات الثقافية في وجه محاولات فرض بعض القيم باعتبارها عالمية وإسقاطها على مجتمعات أخرى مثل قيم الديمقراطية الغربية أو التنمية أو حقوق الإنسان^(٣١) وتعيد هذه الدينامية على المستوى الثقافي طرح «الخصوصية» في مواجهة العالمية ، أو خصوصية الطرف الأقوى عالمياً ، ولئن تخفى هذه الدينامية في كثير من الأحيان لتوترات على المستوى السياسي يرد التعبير عنها على المستوى الثقافي بغية تحصيل المواقع الدفاعية للبعض إلا أنها ليست انعكاساً للسياسي كما يحاول أصحاب المدرسة «العالمية» تصويرها ، ونشير في هذا الخصوص إلى المواجهة التي حصلت في إطار المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان الذي نظمته الأمم المتحدة في الأسبوع الأول من يونيو ١٩٩٣ في فيينا بين من رفع شعار عالمية بعض القيم وأولويتها وبين من رفع شعار النسبية الثقافية أو الخصوصية الثقافية التي لها أولويات أخرى .

الأشكال الممكنة أو المحتملة: أي نموذج للنظام الذي يتكون؟

بعد استعراض مصادر القوة والضعف التي تطبع التفاعلات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة ويشكل بعضها حافزاً أو قناة لبناء نفوذ لإحدى الأقطاب الدولية فيما قد يشكل بعضها الآخر عوامل طاردة للنفوذ يمكن إدراج أربعة نماذج للنظام العالمي المستقبلي هي:

النظام الأحادي القطبية

تنتقل المدرسة التي تعتنق أو تبشر بهذا النموذج من فرضية تبلى بسيطة ومفادها أن الولايات المتحدة خرجت منتصرة من المواجهة الحادة التي شكلت السمة البارزة لعلاقتها مع الاتحاد السوفيتي طيلة أكثر من أربعة عقود. وزاد من حالة هذا الانتصار أنه كان بمثابة الضربة القاضية التي أخرجت الاتحاد السوفيتي من الملعب. إذن بقيت الولايات المتحدة وحيدة^(٣٢) بالقوة العسكرية التي تملكها إلى جانب الطاقات الاقتصادية الهائلة التي عندها والتي، كما يعترف أصحاب هذه المدرسة قد لا تكون مستغلة أحسن استغلال. ويستدل هؤلاء على أحادية هذا النظام من حدين هامين أولهما قيادة الولايات المتحدة للتحالف الذي نشأ غداة غزو العراق للكويت وثانيهما موقع الولايات المتحدة في عملية السلام العربية الإسرائيلية. وبالنسبة للرد على هذين المثلين بالتأكيد على أن الأزمة التي نشأت باحتلال القوات العراقية للكويت هي فريدة من نوعها من حيث طبيعة وحجم الحدث ولا تندرج في إحدى أنماط العلاقات الدولية القائمة وأن موقع الولايات المتحدة أصلاً في الخليج مقارنة مع الأطراف الخارجية الأخرى إلى جانب ردود الفعل التي أحدثتها هذه الصدمة على الصعيد الدولي، كل ذلك مساهم في صياغة أهداف التحالف وكذلك دوره وتدعيمه بقيادة الولايات المتحدة ولا يمكن التأسيس على هذه الأزمة بغية التعميم حول السلوكية الدولية مستقبلاً نظراً لفرادتها^(٣٣). ومن جهة أخرى فإن الخاصية الأمريكية في عملية السلام مردها علاقاتها المميزة مع أحد طرفي الصراع وتحديدًا الطرف الأقوى والرهان الكلي من الطرف الآخر على الدور الأمريكي بسبب هذه العلاقة المميزة. وهذا أيضاً لا يمكن التعميم فيه. فالسياسة العالمية تتشكل من شبكات معقدة ومتداخلة من التفاعلات تندرج في أنساق مختلفة كل منها له أنماطه وتحالفاته وأطرافه الفاعلة من دول وغير دول وقواعده وكذلك قيمه التي تحكم أيضاً هذه القواعد. والولايات المتحدة ليست موجودة بالقوة ذاتها في كافة هذا الانساق أو على الأقل ليست موجودة بهذه القوة في الأنساق الرئيسية.

والجدير بالذكر أن الحديث عن النموذج الهرمي جاء في خضم حولين شهدتهما الولايات المتحدة، وازداد حدة بسبب التطورات المتعلقة بالدور الأمريكي المستقبلي. وهذان الحوران أحدهما أكاديمي المصدر وثانيهما سياسي، ولو أنها يصبان سوية في التساؤل حول الموقع المستقبلي للولايات المتحدة.

فالحوار الأول قائم بين الذين يقولون بصعود قوة الولايات المتحدة وهم أصحاب النموذج الهرمي أو الذين يلامسون هذا النموذج دون أن يتبنوه كلياً وبين الذين يقولون بسقوط الولايات المتحدة وهو سقوط تتسم به كل الامبراطوريات في لحظة معينة من تاريخها بعدما تتسمح المفجوة بين التزاماتها الكونية من جهة، وإمكاناتها المتقلصة أو التي لم تواكب توسيع الالتزامات من جهة أخرى وعادة ما ينعكس هذا التقلص في تراجع القدرة على الإنتاجية وعلى التنافس الاقتصادي^(٣٤). ويذهب البعض مثل ادوارد لستوك، والذي كان من أهم مستشاري رونالد ريغان إلى التساؤل «في أي تاريخ تصبح الولايات المتحدة دولة من العالم الثالث؟»^(٣٥).

وثاني الحولين، يقوم بين أصحاب المدرسة التدخلية الذين يريدون من الولايات المتحدة أن تقوم بدور شرطي العالم وبين الاتجاه الانعزالي الداعي إلى انسحاب الولايات المتحدة من هذه المسؤوليات العالمية المكلفة دون مردود، وبالطبع هنالك اتجاه وسطي أميل إلى التدخل، وبالتالي أكثر تكيّفًا مع الواقع السيامي الذي يفرض على الولايات المتحدة مسؤوليات عالمية دون أن يطرح هذه المسؤوليات بالمطلق. ويبدو أن الإدارتين الأمريكيتين بعد الحرب الباردة تعتقدان هذا المذهب الذي تفرضه ظروف موضوعية متعلقة بالثوابت التي تحكم السياسة الخارجية لأي قوة كبرى، ولو أن «الحوار» قائم ضمن هذا المقرب حول حجم الدور التدخلية نسبيا أو حجم الانكماش. وهذا لا يعني بالطبع الانسحاب، إنما التدخل غير المباشر أو بالكلفة الأدنى في قضية معينة بواسطة الأمم المتحدة أو تأييد قيام سياسة متعددة الأطراف. ويتقل عن وارن كريستوفر، وزير الخارجية، قوله إن في القضايا التي تتعلق بمصالح حيوية نلجأ إلى مقرب أحادي إذا كان ذلك ضروريا أما المصالح فتعامل معها بمقرب متعدد الأطراف (٣٦).

وتحدث البعض عن «مذهب كليتون» أو «التدخل المحدود» ونشأ ذلك بعد كلام بيتر تارنوف نائب وزير الخارجية عن قواعد التدخل الأمريكي وعن طبيعة الالتزام ومداه وضرورة أن يتناسب ذلك مع حقائق القدرات الأمريكية ولو أن هذا حسب تارنوف، يبقى أقل أحيانا مما يريد البعض ويتمناه البعض الآخر (٣٧). وينشأ عن هذه القيود الواقعية، مبدأ التدخل الانتقائي الذي يتحدث عنه وزير الدفاع في اسبن (٣٨) وذلك بواسطة تحديد ماهو حيوي وما هو غير حيوي. ويتخذ بعض أصحاب الاتجاه المحافظ الاعتدال الأمريكي على الدفاع عن مصالح الولايات المتحدة بواسطة السياسة المتعددة الأطراف باعتبار أن ذلك يؤثر سلبا على المصالح الأمريكية وعلى الدور الأمريكي في العالم (٣٩).

وفي معرض استعراض الأهداف الأمريكية والقدرة على ترجمتها عمليا في ثلاثة مجالات استراتيجية يمكن التوصل إلى فهم صعوبة قيام النظام الهرمي. ففي المجال الاستراتيجي الأمني يبرز الاهتمام الأمريكي بإقامة الاستقرار في روسيا بشكل خاص لأسباب بالطبع تتعدى روسيا لتصل إلى المسرح الأوربي والاستقرار العالمي. وتبدو الولايات المتحدة غير قادرة على التحكم بالتطورات هنالك بالرغم من خصوصية علاقاتها مع القيادة الروسية نظرا لمحدودية الإمكانيات الأمريكية للمساعدة المالية وكذلك لعدم قدرة الولايات المتحدة على الإمساك بالأوراق الرئيسية كلها في روسيا. وعلى الصعيد الاستراتيجي الأمني أيضا لم تستطع الولايات المتحدة حتى الآن بلورة مفهوم جديد للحلف الأطلسي أو للحائلف عبر الأطلسي والمقصود من أوروبا «الغربية» (٤٠). كما أنها لم تستطع أن تبلور وحدها من منظور النظام الهرمي هيكلأ أمنيا جديدا في منطقة آسيا-المهادي.

وعلى الصعيد الاستراتيجي الاقتصادي لا تستطيع الولايات المتحدة فرض توجهاتها في مفاوضات الأوروغواي. كما لا تستطيع أن تدبر أعمال مجموعة الدول السبع بشكل يعبر عن مصالحها. وكذلك الأمر على الصعيد الاستراتيجي السياسي حيث أن رفع شعار «كومنزالت الديمقراطية» والتعبير لوزير الخارجية السابق جيمس بيكر (٤١) أو مذهب التوسيع للرئيس الأمريكي كليتون وهولمذهب الذي يحمل تقريبا المعنى ذاته، يواجه العديد من الثغرات والعوائق في طريق التطبيق بنية توثيق العلاقات حول الولايات المتحدة بين الدول الديمقراطية وزيادة هذه الدول أيضا ومرد عدم النجاح أن التحول من مجتمعات اقتصاد موجه إلى

عالم الفكر

مجتمعات ديمقراطية يحتاج إلى كثير من الإمكانيات المالية والفنية والبشرية إلى جانب وجود القرار السياسي الضروري بغية الإقلاع بعملية التنمية لتأسيس الأرضية الضرورية لأهالي الديمقراطية وهو هدف يتطلب قدرات أكبر من طاقة الولايات المتحدة. ولا يكفي الانبهار بالنموذج الأمريكي أو ربط المساعدات الأمريكية التي تبقى محدودة نسبيا بتنفيذ سياسات معينة حتى يتم التحول بنجاح.

ويمكن تعداد جملة من الأسباب تقف حائلا دون قيام هذا النظام الأحادي الذي يتطلب أن يكون القطب المتربع على قمة الهرم المحور الأساسي في الأنساق الرئيسية للتفاعلات وهذا ليس حال الولايات المتحدة للأسباب التالية :

١- افتقاد الإمكانيات الاقتصادية لذلك ويبدو الاقتصاد بمثابة «كعب أخيل» في القوة الأمريكية. ويقول الرئيس كليتون حول القيود الاقتصادية وذلك قبل أن ينتخب رئيسا للجمهورية ما يلي : «إن السياسة الخارجية والسياسة الداخلية لا يمكن فصلهما في عالم اليوم، فإذا لم تكن أقوياء في الداخل، فلا يمكننا أن نقود العالم الذي فعلنا الكثير لصنعه»^(٤٧)، والمشكلة الاقتصادية تندرج تحت عناوين تراجع الإنتاجية والقدرة على التنافس في الأسواق الدولية. كما ينعكس ذلك في الميزان التجاري وازدياد تمركز الشرة في الداخل وزيادة الفروقات الاجتماعية.^(٤٨)

٢- هنالك حالة من التعب تصيب القوى الكبرى إذا فقدت القدرة على التمسك بهدف استراتيجي يعمل بمثابة محرك لتنشيط وتعبئة مختلف القدرات المجتمعية وتأتي هذه الحالة أيضا إذا اختفى عدو حقيقي كان يحدد هذه القوة وفي كلا الحالتين يشكل ذلك حافزا لتوظيف الإمكانيات في إطار مشروع استراتيجي موجه للخارج. ويبدو أن الولايات المتحدة تعيش حاليا مرحلة تحبط تشهد لحظات خروج إلى العالم ولحظات تساؤل حول الأولويات الوطنية^(٤٩) ويشير بعض النقاد إلى حالة التعب هذا والاتصاف للداخل وبمحاولة الانسحاب من مسئولية صياغة العلاقات الدولية كقوة عظمى وكذلك تخفيض الموازنة العسكرية وهو ما يعطي رسالة سلبية للعالم حول مستقبل الدور الأمريكي^(٥٠). ويشير هنري كيسنجر إلى إشكالية مهمة في هذا الصدد قوامها أنه في الوقت الذي تود فيه الإدارة الأمريكية تركيز جهودها على إعادة الهيكلة الداخلية فإنها تعيش في مرحلة فوضى دولية كبرى^(٥١) يصعب بالتالي تلافي التدخل فيها.

٣- لئن كان هنالك بريق للنموذج السياسي الأمريكي، فإن النموذج المجتمعي الأمريكي بسبيلياته وتفككه وانهاره الخلقي ويؤسه الثقافي غير قادر أن يشكل عامل جذب، وبالتالي بناء نفوذ. فالثقافة الأمريكية تبدو غريبة في قيمها وتقاليدها وتسامحها عن الكثير من المجتمعات، وتشكل تهديدا لقيم ومفاهيم وأنساق تفكير متروخة في العديد من المجتمعات. وفيما ينتقد جون كينيث غالبريث ما يسميه «الافتناء» (Contentment Culture)^(٥٢) يرى زيجينو بريجنسكي أن الانكشاف الرئيسي لأمريكا يكمن في الخطر غير الملموس الذي تشكله ثقافتها^(٥٣).

٤- إن القوة العسكرية كما أثرننا سابقا في ترتيب عناصر القوة ليست كافية في أن تؤسس للور القطب الرئيسي فكل التفاعلات لا تخضع لمنطق الردع العسكري أو لا تتطلب حجم الردع العسكري الموجود في الولايات المتحدة وبالتالي تكلفته.

النموذج الهرمي

يقرب هذا النموذج من الوضع الذي كان ساقدا في العشرة الأخيرة من الحرب الباردة عندما اتسم النظام الثنائي القطبي بالمرونة وشهد صعود القوة الاقتصادية لليابان وبداية تبلور الوزن الأوروبي وقيام مسافة سياسية بين الحلفاء الغربيين وافتتاح الاعتماد السوفيتي ومجاوبه مع الضغوطات و الإغراءات الغربية نظرا لاحتياجاته وضعفه الاقتصادي وتعاقد قوة الصين الشعبية . وقد أدى تراجع إمكانيات القطبين الرئيسيين مقابل ازدياد إمكانيات القوى الكبرى إلى وضع صار يتسم ببيكل قوى مركب حيث يبرز على المستوى الاستراتيجي الأمني والعسكري الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يليهما على المستوى الاستراتيجي السياسي والاقتصادي كل من اليابان والجماعة الأوروبية ومعهما الصين الشعبية . وكان هنالك أحيانا تقاطع في المواقف يؤدي إلى تحالفات غير ثابتة وأخرى في قضايا أو مسائل معينة .

وتتطلب العودة إلى هذا الوضع الذي كان يتطور في الثمانينيات تحقيق بعض الشروط غير المتوفرة حاليا مثل النهوض السريع والقوى لروسيا بدرجة أولى أو للصين الشعبية بدرجة ثانية فإحدهما يجب أن يكون شريك الولايات المتحدة على المستوى الأعلى في هيكل القوى لتشكيل الثنائية القطبية التي ليس بالضرورة بالطبع أن تقوم على انقسام أيديولوجي . فالصين الشعبية بعيدة عن تحقيق وضع الشريك الاستراتيجي للولايات المتحدة أو المرجعية التحالفية الأخرى غير الولايات المتحدة بالنسبة للقوى الكبرى ، وبالطبع تبقى روسيا أبعد بكثير من الصين عن تحقيق هذا الوضع في المدى المنظور.

النظام المتعدد الأقطاب

يشبه هذا النظام ما كان قائما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية من حيث وجود عدد من القوى الكبرى الرئيسية المتنافسة بين بعضها البعض . وقد يتسم النظام فيما لو استقر على هذا الشكل بغياب العامل الأيديولوجي كصانع ومحسن للتحالفات حتى لو استمرت الصين الشعبية في أيديولوجية مختلفة إذ كان يلعب هذا العامل دورا فاعلا أو حادا في التفاعلات الدولية . وقد يتسخ هذا النظام بشكل مشابه للنظام الذي قام في أوروبا بعد المرحلة النابليونية . . منذ مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ من حيث بلورة قواعد لإدارة العلاقات بين أطرافه وقيم مشتركة أو توافقية يجري احترامها والعمل بها دون أن تقتن بالضرورة وهذه تتعلق عادة باحترام مصالح الغير ومنع قيام نظام هيمنة قد يهدد الاستقرار وشروط قيام هذا النظام غير مستبعدة وبعضها قائم أو في طريق التبلور ومنها الانتشار واللامركزية التي تتسم بها السياسة العالمية ويساهمان في دعم الاستقرار من حيث غياب احتمال حصول حرب شاملة على المستوى العالمي وبقاء النزاعات على مستوى محلي غير قادر على الانتشار. (١٩)

ويتطلب ترسيخ هذا النظام مايلي :

- مزيد من تراجع دور القوة العسكرية الأمريكية مع سياسة تخفيض التسلح الأمريكي ليصبح حجم قدراتها أكثر انسجاما مع قدرات الأطراف الأخرى ولو بقيت في المقدمة .

- تثبيت المسافة السياسية إلى حد معين بين الأطراف «الغربية» بحيث يعمل كل منها كقطب وكمرجعية

ولا يعني ذلك بالطبع غياب احتمال التحالف فيما بينها ويكون ذلك مرتبط بنسق معين ومتغير ولا يكون التحالف هو الأساس والاختلاف أو التمايز هو الاستثناء بحيث تقوم العلاقات بين الأقطاب الرئيسية على دينامية التعاون والتنافس .

— تعاقب روسيا وتطبيع وضعها وعودتها إلى لعب دور متناسب مع قدراتها الكامنة .

— استقرار الدور الصيني في التحول الذي يجري بحيث لا تحدث خضعات قد تترك الصين وتشغلها داخليا .

— يعتمد بالطبع عدد الأقطاب على المسار الاندماجي للجماعة الأوروبية فبما لو تعطل ذلك وهو مستبعد في الأفق المنظور، وقد تظهر أقطاب أوربية عندئذ فرنسية وبريطانية وألمانية كل منها يعمل في إطار مجال إقليمي معين لبس بالضرورة أن يكون مجازا جغرافيا .

ويضيف هذا النموذج قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على محاولة فرض مفاهيمها الثقافية باعتبارها مفاهيم عالمية وشمولية، إذ قد يؤدي فيها لو ذهبت الولايات المتحدة هذا المنحى في نظام يتسم بالطبع بتنوع الثقافات وتعديدها إلى خلق توترات ثقافية قد تنعكس في تداعيات سياسية سلبية حتى في ظل غياب عامل الاختلاف الأيديولوجي وتأسيس العلاقات بين الأقطاب على نوع من التوازن الدينامي . . . وإلى جانب الولايات المتحدة، نستعرض فيما يلي القوى المهمة للعب دور قطب في هذا النظام والتمخضات التي تعيش هذه القوى .

الجماعة الأوروبية

لا عجب أن مسيرة اندماج الجماعة الأوروبية التي انطلقت مع اتفاقية ماستريخت بعد التوقيع النهائي عليها في السابع من فبراير ١٩٩٢ والتي ترمي إلى إنشاء وحدة اقتصادية وتقنية ومصرف مركزي أوربي وعملة موحدة في بداية عام ١٩٩٩ إلى جانب بلورة سياسة أمنية وخارجية مشتركة لا عجب أن تواجه هذه المسيرة لمجموعة إقليمية تعتبر عن حق سباقة في التعاون الإقليمي، جملة من التعقيدات والعوائق . فعملية الاندماج التي انطلقتها ماستريخت تأتي في خضم تحولات هيكلية انطلقت من أوروبا وأصابت تداعياتها العالم أجمع . فالزلازل كان مصدوره موسكو ومر في برلين ونحو إلى بون ووصل إلى سراييفو، فكيف لا تتأثر بروكسل عاصمة الجماعة وهي في وسط هذا الزلزال . فكثير من المسلمات التي تأسست عليها سياسات أوربية صارت جزءا من ماضي يبتعد . وعاد تاريخ أوروبا ما قبل الحرب الباردة «مع ما يحمله من مخاوف عند البض وفرص وأحلام عند البعض الآخر يلقى بظلاله على المستقبل الأوربي . ولذلك تبرز إشكاليات غنية بالتحديات تشكل في مجموعها أجندة أوربية مستحكمة مسيرة الجماعة كقطب دولي منها .

الإشكالية المؤسسية

تبرز مسافة واضحة بين طموحات المفوضية الأوروبية حول حجم العملية الاندماجية وسرعتها من جهة وبين مقاومة وحذر الدول الوطنية من جهة أخرى . ويختصر شعار «العجز الديمقراطي» مخاوف المعارضة من أن تحكم الجماعة الأوروبية بواسطة جهاز بيروقراطي في بروكسل لا يخضع لألية مساءلة على الصعيدين الوطني والأوربي . وتحاول المفوضية الأوروبية حل هذا التناقض بواسطة مبدأ (Subsidiarite) الذي يقول بتوزيع

سـ عالم الفكر

صلاحيات اتخاذ القرار بين بروكسل والدول والأقاليم على أساس معيار الموقع الأنسب للقرار فلا داعي مثلاً لنقل موقع القرار إذا كان مناسباً حيث هو حالياً . وقد يكون الحل سهلاً على الصعيد النظري . إنما سيلاحي صعباً جمة على الصعيد العملي حيث إن الفكرة الأوروبية قائمة على صعيد النخب السياسية أكثر مما هي منتشرة على صعيد المجتمعات ككل ويزيد تعقيدات تنفيذها ازدهار القوميات مجدداً في أوروبا . ولا عجب إذا استمرت الجماعية في مسيرتها ولكن بسرعات مختلفة .

إشكالية تحصيل البيت

من ينظر إلى الصورة الأوروبية في بروكسل يبدو له مشهد يغيب عنه التناؤل ، فالانكماش الاقتصادي والبطالة التي وصلت إلى ١٨ مليون شخص هذا العام ويزور التيارات المتطرفة التي تهدد السلم الاجتماعي كلها عوامل رئيسية على الأجندة الأوروبية ويزيد الوضع تعقيداً بعد حسم ثنائية التوسيع مقابل التعميق لمصلحة الثانية ، بروز تور في عرك القاطرة الأوروبي المتمثل بمحور فرنسا لألمانيا لأسباب أهمها ازدياد القوة الاقتصادية الألمانية وإعادة توجيه أولوياتها نحو البناء الداخلي والبناء في محيطها الوسط أوروبي التقليدي وهو ما يقلق فرنسا نتيجة هذه الاستقلالية في الأولويات الألمانية وهذه القوة الصاعدة ، هذه كلها عوامل تحايل القيم الأوروبية معالجتها من أجل إصلاح الداخل قبل بلورة العلاقات مع الجوار وعلى الصعيد العالمي .

إشكالية السياسة الأمنية الدفاعية

من أهم مظاهرها الفشل في بلورة سياسات فعالة تجاه أزمة توصف في وسط أوروبا وهي أزمة البوسنة والهرسك . ومن أهم أمثلة القلق والتخبط الأوروبي عدم النجاح في بلورة دور اتحاد أوروبا الغربية الذي يفترض أن يكون الذراع الدفاعي لأوروبا واستمرار الاختلاف بين الاتجاه الأطلسي والاتجاه الأوروبي أو استمرار الارتباط الدفاعي مع الولايات المتحدة في إطار الحلف الأطلسي مقابل بلورة استقلالية أوروبية على الصعيد العسكري وبشكل نسبي وليس بالمطلق .

إشكالية السياسة الخارجية

بدأ يظهر على الساحة الأوروبية عملية تجاذب بين الأطراف الرئيسية في الجماعة مع عودة نوع من لعبة ميزان القوى كانت دائماً سائدة في المسرح الأوروبي حتى بداية الحرب الباردة التي يبدو أنها شكلت استثناء . . فبعض القوى الأوروبية تحاول إعادة صياغة تحالفات ، بعد انفتاح المجال الأوروبي الشرقي ، لما أرضيتها التاريخية وهو ما يحدث بعض التوترات المقلية بين الأطراف الرئيسية في الجماعة .

وبالرغم من هذه الإشكاليات تبقى حقيقة أساسية وهو أن الجماعة الأوروبية تشكل قطباً منطاسياً لدول أوروبا من الأطلسي إلى الأورال ، وتلك من إمكانات هائلة ورصيد علاقات متراكمة مع محيطها المباشر الإفريقي والآسيوي وتحديداً العربي ما يسمح لها أن تؤسس لنور عالمي ذات وزن .

الصين الشعبية

بصف البعض نظام الصين الشعبية «بالرأسمالية الكلية»^(٥٠) للدلالة على التغيرات التي حصلت والتي

نؤسس لكثير من التناقضات يتم استيعابها حالياً ولو أنه من غير المؤكد تلافي انتقاجها مستقبلاً. فالصين استفادت من التجربة الغورباتشوفية بأن عكستها فهي بدأت بالريستوريكا على أن تأتي الغلاسنوست (الشفافية) لاحقاً أو قد تفرض ذاتها في المستقبل. فمن جهة يجري التخلي عن التخطيط المركزي وتحويل مدن ومناطق إلى «جزر اقتصاد حر» تشكل مفخرة ونموذجاً للتحويل الذي يعيشه المجتمع الصيني بشكل عام نظراً للقيم الاجتماعية الجديدة التي تنتجها هذه الجزر. ويجري هذا التحويل في إطار الحفاظ على ما يسميه الصينيون «بإشراك السوق» التي هي مزيج من اقتصاد السوق مع الحفاظ على دور تدخل في توجيه الدولة في حين مازال القطاع العام بالطبع قوياً. فالدولة مثلاً تحت المصدرين على زيادة مبيعاتهم في الخارج وتعمل على تحقيق زيادة ٨, ١١٪ بنسبة الصادرات عام ١٩٩٣. ^(٥١) وتشهد الصين أسرع نمو اقتصادي في العام فالتأثير الداخلي الإجمالي ينمو بنسبة ٩٪ سنوياً في السنوات الثلاث عشرة الأخيرة ^(٥٢). ولكن هذا كله وبالرغم من وهن العامل الأيديولوجي لم يمنع أن تستمر المؤسسات التي قامت على الأيديولوجيا في الدفاع عن مصالحها ومكاسبها ويبقى الحزب قوياً بين تلك المؤسسات ولو أنه فقد زخه العقائدي وبريقه التعبوي.

والصين المنشغلة بالتحويلات الداخلية وصراعات السلطة مهتمة أيضاً بالمشاركة في صياغة النظام العالمي الذي يتكون بشكل يتناسب مع وزنها. ويمكن إدراج عدد من الملاحظات التي ستحكم عملية التطور في الصين كما يلي:

- إلى أي مدى يستطيع الحزب بعد السقوط الأيديولوجي والحاجة إلى إيجاد خطاب جديد، أن يحافظ على قوته من خلال العمل على الإصلاح الاقتصادي، دون أن يقوض ذلك الإصلاح بواسطة القوى الاجتماعية الجديدة التي يفرزها سلطة الحزب مستقبلاً. فالقيادة الصينية أسيرة هذه المفارقة.

- ازدياد الفروقات الاقتصادية بشكل كبير على الصعيد الداخلي بين المدن المحيطة مثل شانغهاي وغوانغزو من جهة والداخل الفلاحي من جهة أخرى، ويزيد في تسعير التوتر الاجتماعي عاملاً للتضخم ويزور طبقة رأسمالية.

- قد تكون الأهمية الاستراتيجية للصين الشعبية بالنسبة للولايات المتحدة قد تراجعت كموازن للاتحاد السوفيتي بعد انهيار هذا الأخير. ولكن الصين صارت القوة العسكرية الرئيسية في أي ميزان قوى في آسيا. والمطلوب إما إحداث توازن من الخارج مع الصين أو اتباع سياسة تهدئة وتوثيق العلاقات معها بنية التأثير في ميزان القوى الإقليمي وحفظ استقراره.

- إن مصدر تهديد الاستقرار الداخلي في الصين قد يأتي من ازدياد الفروقات الاقتصادية في ظل بقاء مناطق خارج عملية التنمية أكثر مما يتأتى هذا التهديد من غياب الديمقراطية أو وجود قوى تطالب بالديمقراطية.

- التوجه الناشط لبناء الصين الكبرى التي تضم تايوان وهونغ كونغ وهذه ستعود إلى الصين عام ١٩٩٧ مع الحفاظ على خصوصية معينة في حين تعمل الصين بواسطة سياسة «العصا والجزرة» على محاولة استيعاب تايوان. ويلاحظ ازدياد الاختلاف المتبادل على الصعيد الاقتصادي بين هذه الأطراف الثلاثة. ^(٥٣)

- وبالرغم من غياب الحدة الأيديولوجية التي طبعت الخلافات الصينية الغربية في الماضي واختزال الصراع على الصعيد الفلسفي إلى قضايا حقوق الإنسان، فإن هنالك خلافات مستمرة مع الولايات

المتحدة ازدادت تعقيدا مؤخرا بسبب النشاط النووي الصيني . وبجالات الخلاف كبيرة وتعكس حسابات المصالح الاستراتيجية الصينية ، التي لا يمكن إخضاعها للتوجه الأمريكي ومن هذه المجالات كامبوديا وتسليح كوريا الشمالية وسياسة بيع السلاح إلى كل من إيران وباكستان مثلا والعمل على الحصول على تكنولوجيا عسكرية متقدمة من روسيا وإسرائيل . فعملية بناء القوة العسكرية الصينية مازالت مستمرة . وتقول مصادر المخابرات الأمريكية أن الإنفاق العسكري زاد بنسبة ٦٠٪ منذ عام ١٩٨٨ في الصين وهي تصطدم بالسياسة الأمريكية كما تصطدم بها أيضا على الصعيد الإقليمي في نطاق إقامة (٥٤) تحالفات معينة تشكل مصدر قلق للولايات المتحدة .

- وتحاول الصين جاهدة تنويع علاقاتها الاقتصادية مع دول العالم ومحاولة صياغة علاقات دولية جديدة على أساس المصالح الاقتصادية مع الدول التي كانت ترتبط معها بعلاقات ايدولوجية أو تسليحية من منطلقات ايدولوجية أيضا .

- وتحاول الصين أيضا أن تقدم نفسها كنموذج ناجح للتنمية لدول الجنوب وأن تكون قطبا لهذه المجموعة بغية بلورة سياسة تعاون اقتصادي تساعد في تحسين التفاوض مع دول الشمال .

- وخلاصة القول أن الديمقراطية والصين تعد حاليا أكثر من مليار ومائتين مليون إنسان والقدرات النووية وبرنامج التسليح الناشط والعضوية الدائمة في مجلس الأمن والنجاح الاقتصادي الداخلي ، كلها عوامل تسمح للصين بأن تكون قطبا عالميا فاعلا في صياغة نظام جديد .

اليابان

تعيش اليابان أزمة البحث عن دور يتناسب مع قدراتها الاقتصادية الكبيرة مع تصاعد أهمية الدبلوماسية الاقتصادية في صياغة العلاقات الدولية . فسياسة الانكفاء والوقوف وراء الولايات المتحدة وتمويل سياسات هذه الأخيرة في الأزمات الدولية وهي السياسة التي انتهجتها اليابان خلال الحرب الباردة صارت عرضة للانتقاد في أوساط المؤسسة الحاكمة . وأخذ الحوار يدور حول ضرورة بلورة «سياسة سلمية ناشطة وإيجابية» . والتوصيف هو ما توصل إليه تقرير أعدته مجموعة من الشخصيات وعرف بتقرير «أوزاوا» . نسبة إلى رئيس المجموعة الذي كان الأمين العام للحزب الحاكم . ويطرح التقرير للمرة الأولى إمكانية تعديل المادة التاسعة من الدستور أو إعادة تفسيرها للسماح باشتراك القوات اليابانية في عمليات حفظ سلام دولية ، وقد أثار التقرير جدلا حول بعض المحرمات في السياسة اليابانية مثل مستوى التسليح ودور القوات العسكرية وكذلك البحث عن دور دولي دون التخوف من الاتهام بإعادة عسكرة المجتمع الياباني ، وهو اتهام يوجه دائما إلى اليابان في محيطها المباشر الممثل بالتاريخ الإمبراطوري الياباني ويقول ياسوهيرو ناكاسونو رئيس وزراء اليابان السابق إن علينا أن نتخطى العوائق القانونية ونهضى للاشتراك بشكل كلي في الجهود الدولية المستقبلية للحفاظ على السلام. (٥٥)

وفي هذا السياق يظهر الإصرار الياباني على الحصول على عضوية دائمة في مجلس الأمن للمشاركة في شكل أكثر تناسبا مع وزن اليابان في صناعة القرارات الدولية كما يظهر أيضا التوتر الحاصل في إطار العلاقة الاستراتيجية التي تربط اليابان بالولايات المتحدة . وما يسمح لليابان بهذه «الجرأة» الجديدة هو غياب الخطر السوفيتي والعلاقات الجيدة التي استطاعت اليابان أن تبلورها مع الصين الشعبية .

وبأني انتهاء الحرب الباردة وسقوط المفاهيم التي كانت سائدة في إطارها ليعيد طرح مفهوم الانتباه إلى الغرب في اليابان خاصة بعد سقوط المفهوم الاستراتيجي لهذا الحرب. وأمام استمرار المفهوم الثقافي الأوربي النشأة لهذا الغرب يصبح الحديث جائزا عن يابان خارج هذا الغرب الثقافي بيقمها ومفاهيمها ويعود التركيز على النموذج الياباني المختلف والقائم على القدرة على التحديث والتكيف مع متطلباته من جهة، مع الحفاظ على التقاليد اليابانية التي تثنى الجماعة على حساب الفرد من جهة، وهو ما يميز النظام الرأسمالي الياباني عن النظام الغربي والأمريكي بشكل خاص.

وتواجه اليابان إشكالية ذات مصدر أمريكي، فالإيابان تحركت في الماضي لزيادة نسبة موازنتها العسكرية والقيام بدور أكثر فاعلية وظهورا في محيطها المباشر حفاظا على خطوط الملاحة أو خطوط نقل النفط وذلك بناء على تشجيع الولايات المتحدة لتولي هذه المسؤولية في محيطها المباشر وتقف اليابان اليوم في مواجهة قلق أمريكي من توجه يهدف إلى زيادة هذا الدور وتغطي المستوى الإقليمي ليصل إلى المستوى العالمي.

كما أن اليابان التي أنشأت علاقات اقتصادية وثيقة مع النمرور الأربع والدول الواقعة في محيطها المباشر كما يدل على ذلك حجم الاستثمارات اليابانية في هذه الدول وكذلك حجم التبادل التجاري معها تشعر من جهة أخرى بمخاوف هذه الدول من تصاعد الدور الياباني.

وبأني الاعتذار الرسمي الذي قدمه رئيس وزراء اليابان الجديد موريجيرو هوسوكاوا عن السياسة العدوانية لبلاده خلال الحرب العالمية الثانية لمساعد في تخفيف التوتر والحذر القائمين في المحيط الآسيوي لليابان تجاه هذه الأخيرة. ويبقى هنالك مصدر إقليمي رئيسي وراء اهتمام اليابان بتطوير قدراتها وتمثل في السياسة النووية لكوريا الشمالية وانعدام الاستقرار في روسيا وبداية تخفيف الالتزام العسكري في تلك المنطقة من آسيا وهو ما يلقي على اليابان أعباء دفاعية كبيرة في ظل اختلال التوازن الإقليمي. ويأتي تردد اليابان في إعطاء التزام غير مشروط في التوقيع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية التي سيجري تجديدها عام ١٩٩٥ ليلقى الشك على النوايا اليابانية خاصة وأن وزير الخارجية الياباني السابق كابون موتو قد صرح بأن على اليابان أن تكون مستعدة للنظر في تطوير أسلحة نووية إذا فعلت كوريا الشمالية ذلك^(٥٦).

ولكن كما استطاعت اليابان أن تتخطى عقدة المكان، المتمثلة بصغر المساحة والبعد، لتركز على الصناعة التكنولوجية المتقدمة وسياسة تصدير هجومية فلا بد أن تتغلب مع الوقت على عقدة الزمان ومعالجة اليراسب العالقة في محيطها تجاهها ويدعو رئيس الوزراء الجديد في هذا السياق إلى ما يشبه ثورة فكرية فيما يتعلق بالمفاهيم «السياسية والاقتصادية والتعليمية والثقافية» السائدة، ويقول إن اليابان بحاجة إلى انفتاح ثالث^(٥٧).

وإذا كان غياب الخبرة التاريخية بمثابة عامل سلبي في علاقات اليابان مع المناطق المختلفة في العالم، فإن غياب الصورة الاستعمارية لليابان في تلك المناطق البعيدة عن المحيط المباشر لطوكيو وبروز صورة الدولة المانحة للمساعدات وكذلك صورة نموذج التحديث الناجح والخلق، يشكل هذا كله عوامل جذب لبناء علاقات قوية على أساس التعاون والتبادل الاقتصادي بين اليابان وهذه المناطق. وتستطيع اليابان بالطبع من أجل تدعيم وجودها في هذه المناطق وتوظيفه سياسيا واقتصاديا استخدام نفوذها المتزايد في مؤسسات التنمية والاقراض الدولية.

روسيا :

تشكل روسيا التي يصلح تسميتها «برجل العالم المريض» العقدة الرئيسية في إعادة بناء نظام عالمي جديد . فإذا كان سقوط الاتحاد السوفيتي شكل نقطة التحول بين نظامين فإن الشكل الذي سترسو عليه روسيا بعد انتهاء التمهضات التي تعيشها وسرعة الخروج من هذا الوضع الانتقالي يحكمان بدرجة كبيرة الشكل الذي سيتخذه النظام العالمي الجديد .

فروسيا تعيش وضعا وصفه رئيس الحكومة في أغسطس الماضي بأنه توازن غير مستقر (٥٨) وحجم المساعدات التي أقرتها «الدول السبع» في طوكيو في إبريل الماضي والتي بلغت ٤ , ٤٣ مليار دولار (٥٩) تدل على ضخامة المشكلة وحياة المصلحة التي يمثلها الاستقرار في روسيا لدول الشمال . ولو أن هذه المساعدات لاتدل قطعاً على الفترة الزمنية الضرورية للوصول إلى هذا الاستقرار إذ بالرغم من أهمية المساعدات المالية فإن هنالك أبعاداً أخرى للمسألة الروسية مطلوب معالجتها للولوج إلى الاستقرار ومن غير المستبعد أن تأخذ الأزمة ذات الأبعاد المختلفة والمتشابكة في روسيا عنواناً معينا في كل مرحلة من مراحل تطورها . إذ قد يظن في مرحلة معينة وجه خاص مثل الصراع الدستوري يخفي ولا يلغي الأوجه الأخرى كما حصل في الأسابيع الأولى من أكتوبر عندما انفجر صراع دستوري في مظهره ومتشعب في مصادره ومضامينه بين الرئيس والبرلمان .

ويمكن إدراج التحولات الروسية تحت عناوين خمسة (٦٠) :

أولاً: التحول من نظام شمولي إلى نظام ديمقراطي على الطريقة الغربية وإلى جانب مقاومة هذا التوجه من قوى لها مصلحة في الحفاظ على الأمر القائم ومنع التغيير فإن الصعوبة في التغيير تعود إلى سببين أساسيين أولهما غياب ثقافة ديمقراطية في مجتمع انتقل من نظام قيصري سلطوي إلى نظام الحزب الواحد ، وثانيهما الانشغال من مخاطر الدخول في فوضى سياسية تشهد صراعات على السلطة وتشل قدرة القيادة السياسية على إيلاء الاهتمام لأمر حيوي وهو إصلاح الاقتصاد .

ثانياً: التحول من نظام اقتصادي موجه إلى نظام اقتصاد السوق . والمطروح في هذا السياق بين الذين يؤيدون التحول هو السرعة التي يجب أن يجري بها ذلك والبعض يدعو إلى سياسة الصدمات ذات الأكلاف الاجتماعية والمخاطر السياسية الجمة والبعض الآخر يدعو إلى سياسة تدريجية في حين أن قلة الموارد المتوفرة لمواكبة التحول والمسائل الضاغطة في هذه المرحلة تخلق هذا الاضطراب والتخبط (٦١) .

ثالثاً: التحول من العقيدة الامبراطورية أو منطق الهيمنة كوريث شرعي لروسيا القيصرية وللإتحاد السوفيتي الشيوعي إلى محاولة بلورة منطق «دولة كبرى أخرى» والمطلوب نوع من التطبيع النفسي للمؤسسة السياسية الجديدة للقبول بدور يتناسب مع الواقع الروسي المتغير ويشكل هذا الوضع المتأزم وضرورة التكيف مع المعطيات الجديدة مصدراً أساسياً لتفجير المشاعر الوطنية الحادة وهو ما يؤدي إلى سياسات قد تحمل توتراً في العلاقات مع دول الزكة السوفيتية بشكل خاص أو مع المحيط الدولي بشكل عام . ويغذي هذا التوتر الشعور بأن المصالح الروسية التقليدية لا تؤخذ بعين الاعتبار وقد ظهر ذلك بالخصوص في الموقف الروسي من أزمة البوسنة والهرسك نتيجة التأييد التلقائي الروسي للصرب والذي يجد أساسه في علاقات استراتيجيّة

تاريخية، كما ظهر في معارضة توسيع الحلف الأطلسي ليضم دول أوروبا الشرقية سابقا وهو موقف يدعمه العسكري في موسكو ولكن له أساسه الجيوسياسي في التراث الروسي.

رابعا: التحول من الاقتصاد العسكري مع ما أفرزه من قوى اجتماعية مهيمنة في الداخل ووضع مميز في العلاقات مع الخارج إلى بناء الاقتصاد المدني، ويثير هذا التحول مخاوف المؤسسة العسكرية التي قد تجد لها حليفا موضوعيا في التيار القومي. زد على ذلك أن روسيا بالرغم من برنامج الدعم الأمريكي للمساعدة في هذا التحول ما زالت تتبع سياسة ناشطة في بيع السلاح ويقترح أحد مستشاري الرئيس يلتسن في هذا الصدد أن يجري تخفيض سعر السلاح وبيعه بكميات أكبر وهو ما يعطي مردودا يصل من ١٠ إلى ١٢ مليار دولار سنويا في تقديره^(٦٣).

خامسا: التحول من القطب العالمي الآخر في نظام ثنائي القطبية إلى قوة كبرى أخرى ويدعو أن سياسة اللحاق بالولايات المتحدة وما لقيته من معارضة في الداخل بعضها ميدلي وبعضها الآخر مصدره «قومي» أو استراتيجي أخذت تخفف من سرعتها وبدأت موسكو بمحاولة إعادة رسم سياستها الخارجية من منطلقات لا تكتفي كلها بالضرورة مع الموقف الأمريكي مثلبديل على ذلك مثلا معارضة فرض العقوبات على ليبيا، التميز عن الغرب، في موقف حديد من العراق. سياسة بيع السلاح إلى إيران والصين الشعبية. فهناك محاولة لرسم مسار لسياسة خارجية يبدو أنه يخضع لتجاذب بين «الأمريكية» و«الاستقلالية».

ومن غير المستبعد قبل أن يستقر الوضع في روسيا أن تمر هذه الأخيرة أيضا بمزيد من التوتر ومحاولات التفتيت من الداخل ولكن مستقبل روسيا يجد أمامه ثلاثة احتمالات أولها: القيام بلعبة الموازن Balancer في إطار دول التركة السوفيتية وبعطيتها ذلك العديد من المكاسب في محيطها المباشر ويتطلب هذا الدور التدخل لوقف نزاعات بين هذه الدول الجديدة ولوقف نزاعات داخلية تراجعتها. وثانيها: إقامة حلف بقيادة روسيا للدول السلافية يكون ذات وزن أساسي على الساحة الأوروبية إذ قد يضم لاحقا صربيا وثالثا وهو الاحتلال الأبعد ويقوم على إعادة صياغة علاقات كوفنبرالية على أساس تعاون اقتصادي وأمني بين روسيا ودول التركة السوفيتية وذلك بعد أن يبدأ غبار الصجر الوطني والاستقلالي ليكون حافزه الرئيسي عدم القدرة على معالجة المشاكل الاقتصادية المستعصية بشكل منفرد والحاجة بالتالي إلى انتهاج سياسة تعاون إقليمي قد تبدو طبيعية مع الاطمئنان إلى ترسيخ الدول الجديدة واستقرار علاقاتها الخارجية ووضعها الداخلي.

والخديث عن نظام متعدد الأقطاب يقودنا إلى إدراج الملاحظات التالية:

- إن هذا النظام الذي يبدو أنه خماسي الأقطاب قد يتحول في المستقبل إلى سداسي القطبية مثلا في حال انضمت إليه الهند.

- في ظل غياب العامل الأيديولوجي الحاد، لن تكون هنالك تحالفات ثابتة أو قوى مهيمنة بل سيقوم هذا النظام على تنابك المصالح وتقاطعها مما يحدث تحالفات حسب القضايا أو الأنساق الوظيفية القائمة.

- يبقى المسرح الرئيسي لنشاط هذه القوى في محيطها الإقليمي المباشر حيث قد تحاول أن تقفل هذا المحيط تجاه الخارج وذلك لصلحتها ثم تنجبه للتنافس مع القوى الأخرى في الأنظمة الإقليمية «الحررة» التي لا ترتبط كليا بقوى كبرى.

— يقدر ما تستطيع هذه الأقطاب من توثيق علاقاتها مع الأطر الإقليمية الناشئة أو المتجددة بقدر ما تستطيع أن تقدم في التنافس على الأقطاب الأخرى .

— يبقى أن هذا النظام مرشح للتحويل إلى نظام ثلاثي الأقطاب القارية فيما لو تحققت جملة من العوامل يبدو أن بعضها أخذ في التبلور وفي دفع النظام في ذلك الاتجاه .

النظام الثلاثي الأقطاب القارية

إن نظرة سريعة إلى العلاقات الاقتصادية والتجارية الدولية وهيكل تمرركزها واتجاهاتها خاصة من حيث حجم هذه الاتجاهات تقود إلى ملاحظتين أولهما أن هنالك بداية لنظام هيمنة مثلث PAXTRIADICA وهو حسب البعض يأتي في السياق التاريخي لنظم الهيمنة البريطانية ثم الأوروبية والأمريكية . فعلى سبيل المثال هنالك ٩٢٪ من أصل ٤٢٠٠ تحالف استراتيجي بين الشركات العالمية في الثمانينيات عقد بين أطراف «الثلاث»^(٦٣) ، وثانيها ازدياد حجم المبادلات التجارية ضمن كل مجموعة ينتمي إليها كل قطب .

ومرد هذه ، التوجه لقيام كل من الولايات المتحدة واليابان والجماعة الأوروبية بدور القطب القاري ، عوامل عديدة يمكن إدراجها كما يلي :

— بروز الإقليمية الجديدة كمستوى ناشط وفصل في السياسة العالمية «ما بعد الحرب الباردة» وتشمل ورشات البناء الإقليمي الاقتصادي والأمني الجارية في العالم ويشجع هذا الاتجاه غياب الثنائية القطبية ، التي كانت تضغط لمنع تبلور هذه الأطر ، إذا لم تكن مرتبطة بها أو تدور حولها . كما يدفع في هذا الاتجاه أيضا ازدياد السياسات الحماية حدة وبرزوا والتعثر الذي أصاب مفاوضات جولة الأوروغواي وعدم حصول نتائج ملموسة لقمع الدول الصناعية . ويدفع بالاتجاه ذاته أيضا قناعة تبلورت عند الدولة الوطنية ، حيث إن حل كثير من مشاكلها يجب أن يتم على مستوى أشمل من المستوى الوطني .

— محاولة كل من هذه القوى تحصيل ذاتها في محيطها المباشر . فالجماعة الأوروبية مثلاً نجحت في إقامة أكبر منطقة تجارة حرة مع انضمام «الافتا» بدولها السبع إذ تمثل هذه المنطقة ٤٦٪ من التجارة العالمية كما أن الجماعة على أهمية استقبال أعضاء جدد بشكل تدريجي وعدد المرشحين للدخول يزداد حتى أنه قد يشمل في المستقبل كل الدول الأوربية ولو أن ذلك لا يعني بالطبع الاستعداد لقبولها إذا لم تتوفر شروط معينة . ويمكن قول الشيء ذاته عن تبلور منطقة التجارة الحرة في أمريكا «النافتا» حتى يلاحظ ازدياد حجم التجارة بين الولايات المتحدة وكل من كندا والمكسيك ثم تحول الولايات المتحدة إلى محاولة إحداث علاقات اعتماد متبادل أكثر وثوقاً مع دول أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية ويساعد على ذلك التحولات السياسية والاقتصادية الحاصلة في هذه الدول والتي تشجعها الولايات المتحدة وكأنها الأخيرة تلبس مبدأ مونرو ثوباً اقتصادياً . وفي آسيا يلاحظ ازدياد حجم الاستثمارات اليابانية في دول منظمة دول جنوب شرق آسيا وكذلك ازدياد حجم التبادل التجاري الياباني مع هذه الدول ومع الصين الشعبية وأيضاً مع النمرور الأربعة ، ويذكر تقرير للبنك الدولي أن اليابان أخذت تحتل مكان الولايات المتحدة كالشريك الأساسي في تنمية شرق آسيا .^(٦٤)

- ما أشرنا إليه سابقا من أن سقوط العدو الاستراتيجي لحلفاء الأسس الاستراتيجيين قد رفع الضغط عنهم وغير مجرى اللعبة السيامية وديناميتها ويزر التنافس الاقتصادي ليحل مكان التلازم الاستراتيجي بينهم وهو ما أوجد نوعا من الحرب الباردة الاقتصادية .

- استمرار المسائل العالقة والتي تشكل مصدر توتر بين هذه الأقطاب وهي مشاكل هيكلية قبل موضوع العجز التجاري الأمريكي في العلاقات مع اليابان والحواجز الجمركية اليابانية في العلاقات بين هذه الأخيرة والجماعة الأوربية وفتح الأسواق والسياسة الزراعية رغم الاتفاق الأخير بين الولايات المتحدة والجماعة الأوربية وقد أدى هذا كله إلى إعطاء حوافز لكل طرف لتحسين مواقفه الإقليمية .

وفي تقديرنا أنه بقدر ما يحدث تقارب ياباني صيني، وتندمج الصين في الاقتصاد العالمي، ويقدر ما يحسم الموقف في روسيا ويتجه هذه إلى أوروبا، بقدر ما قد يشد التنافس مستقبلا على كافة الأصعدة بين هذه الأقطاب القارية الثلاثة ويزداد التنافس على إقامة مناطق نفوذ اقتصادية فيما بينها في المناطق النامية . ويزيد من احتمال تحول النظام من التعددية القطبية إلى الثلاثية القطبية، إن كلاً من الولايات المتحدة في القارة الأمريكية والثلاثي الألماني الفرنسي في أوروبا وكذلك الثلاثي الياباني الصيني مستقبلا، يتمتعون كأقطاب قارية بقدرات هائلة ودينامية كبيرة للتعنت على الصعيد الإقليمي وللتنافس على الصعيد العالمي .

المهامش

The Jakarta Message: A Call for Collective Action and the Democratization of International Relations, Jakarta: Nac 10(1) Dec. 12, 1992.

Intervention Council, The Search for Global Order: The Problems of Survival (Petersberg, 7-8 January 1992), p. 1, (٢)

Zbigniew Brzezinski, "Order, Disorder and U.S. Leadership", Washington Quarterly, Spring 1992, pp. 5-13, (٣)

Pierre Hassner, "Beyond Nationalism and Internationalism: Ethnicity and World Order", Survival, vol. 35, No. 2, (1) Summer 1993, p. 53.

(٥) من أهم ما كتب في هذا الخصوص الكتاب التالي:

Jean-Yves Carfman, Le Grand Desordre du Monde, Paris, Seuil, 1993.

Un Entretien avec Pierre Hassner, Le Monde, 27 Octobre, 1992, p. 2 (٦)

The Guardian, 27 March, 1991, p.3 (٧)

Owen Harries, "With the cold war over, West is no longer west", International Herald Tribune, (IHT), 14 September, (A) 1993, p. 6.

"New Doctrine for the G7", Financial Times, 26 September, 1993, p. 11, (٨)

Carfman, op. cit., pp. 54-55, (١٠)

Huano, "New patterns of Global Security in the Twenty First Century" International Affairs, Vol. 67, 3, July 1991, p. (١١) 440.

وكذلك:

Paul Johnston, Colonialism's Back and Not a Moment Too Soon, the New York Times, April, 18, 1993

(١٢) حول هذا الموضوع انظر مقالات:

ناصريف حتي "الدولة القومية بعد انتهاء الحرب: القيادة الحليمة" - ١٩٩٢، ص: ١٤.

IHT, 30 August, 1992, p. 5 (١٣)

William pfaff, The Wrath of Nations (New York, Simon and Shuster, 1993), p. 13, (١٤)

The New York Times, 7 February, 1993, (١٥)

Ronde de Nevers, "Democratization and Ethnic Conflict," Survival, Vol. 35, N. 2, Summer 1993, pp. 31-48, (١٦)

Anthony Lewis, "Where will we put the Next Three Billion?" IHT, 30-21, February, 1993, p. 4 (١٧)

(١٨) الثورة المالية الأولى: تقرير نادي روما ص: ٥٠ (ميريت: ترجمة مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢).

Carfman, op. cit., pp. 61-68 (١٩)

Paul Kennedy, Preparing for the Twenty First Century (London: Harper Collins, 1993), p. 12, (٢٠)

Intervention Council, op. cit., p. 4 (٢١)

Robert S. McNamara, Yes, Do our Best to Return to a Nonnuclear World, IHT, 24, February 1993, p. 6, (٢٢)

Aspects Economiques du Désarmement: le Désarmement en tant qu Investissement (New York: UNIDIR, 1993), p. 83, (٢٣)

Mus Singer, Zones of Peace, Zones of Turmoil: A New Order of Hope, IHT, 2 September, 1993, p. 4, (٢٤)

Richard E. Feinberg, et al. Debt Reduction and North-South Resource Transfers to the Year 2000 (Washington D.C.: (٢٥) Overseas Development Council, 1992, p. 1)

Le Salut sans le FMI (interview), Jeune Afrique N1646, 23-29 Juillet 1992, pp. 30-33, (٢٦)

IHT, 30 August, 1993, pp. 1 and 9, (٢٧)

Franché Pakoyama, The End of History and the last Man, New York: The Free Press, 1992, (٢٨)

Samuel Huntington, The Clash of Civilizations? Foreign Affairs, Summer 1993, pp. 22-49, (٢٩)

George Yong-Bonn Yoo, "Cultures in Competition", IHT, 18 February 1993, p. 4, وليفاً (٣٠)

James, Walsh, "A New Different Drum", Time, 14 June, 1993, pp. 48-51 (٣١)

(٣١) يقول ريس وزده سغافرة السابق لي كول بوني في رده على سؤال حول نموذج أسيري للتسمية إن لنا أفضلية مشتركة.

k' Monde, 12 Juin, 1993. وتالياً نقاباً يركز على المصلحة العامة ويضعها فوق مصلحة الفرد ويقول إن لنا وصفاً سيكولوجياً مختلفاً أيضاً.

Charles Krauthammer, The Unipolar Moment: Rethinking America's Security Beyond the Cold War ed., Graham (٣٢) Allison and Gregory, F. Tieverton (N.Y., W.W Norton and Company, 1992), pp. 295-306.

- Joseph Nye, *La Guerre du Golfe et l'interet national Americain*, Liberation, 2 Aout, 1991, p. 5 (٣٣)
- Joseph Nye, *Bond to Lead: The Changing Nature of American Power*, N.Y.: Basic Books, 1990 Paul Kennedy, *The (٣٤)*
- Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000 N.Y., Random House, 1987.
- Commentary, March 1992, (٣٥)
- Stephen Rosenfeld, «Multilateralism as a Dodge» *The Washington Post*, 18 June 1993, (٣٦)
- Heinz A. J. Klein *The Clinton Doctrine: A New Foreign Policy*, *The Christian Science Monitor*, June 18, 1993 pp 19-20, (٣٧)
- The Washington Post*, 28 June, 1993, (٣٨)
- Jean Kirkpatrick, «Clinton does have a Clear Foreign Policy: Just Ask Butros Ghali» *IHT*, 28-29 August, 1993, p. 6, (٣٩)
- Ronald Asmus, Richard Kugler and F. Stephen Larrabee, *It's time for a New US European Strategic Bargain* *IHT*, (٤٠)
- 28-29 August 1993, p. 6.
- William Pfaff, *Bakers Commonwealth of Democracies* *IHT*, 26 June, 1991, p. 8, (٤١)
- United States Information Agency, *Wireless File*, November 12, 1992, p. 6, (٤٢)
- Maire-France Trialet, «Comment les Etats-Unis ont perdu les moyens de leur hegemonie», *Le Monde Diplomatique*, (٤٣)
- Jun 1992, pp 14-15.
- Adrian Katsenky, *America is turning inward*, *IHT*, 24 August, 1993, p. 4, (٤٤)
- Alan Tonchon, «Superpower without a sword», *Foreign Affairs* Vol. 72, No. 3, Summer 1993, pp 166-180, (٤٥)
- Henry Kissinger, *Clinton and the World*, *Newsweek*, 1 February 1993, pp 12-14 (٤٦)
- John Kenneth Galbraith, *The Culture of Contentment* New York: Houghton Mifflin Co., 1992, (٤٧)
- Zbigniew Brzezinski, *Out of Control* (N.Y.: Charles Scribner's Sons, 1993) p. 146 (٤٨)
- Philip Corney «Pharlatism: Structural Differentiation and Functional Conflict in the Post-Cold war World Order», (٤٩)
- Millemum*, Vol. 22, No. 1, 1993, pp 27-51.
- Nicholas D. Kristof, «Deng's Pattern Takes Shape», *IHT*, 20 October 1992, p. 1, (٥٠)
- IHT*, 28 July, 1993, p. 14, (٥١)
- USIA, *World Bank is upbeat about Chinas progress*, *Wireless File*, 25 March 1993, pp 9-10, (٥٢)
- Barber Conable J.R. and David Lampton «China: The Coming Powers», *Foreign Affairs* Winter 1992/93 pp 142 and after (٥٣)
- IHT*, 31 July - 1st August 1993, p4 (٥٤)
- Yasuhiko Nakano, *Japan Must End its «One Nation Pacifism»*, *Jerusalem Post*, 22 April, 1991, p. 4 (٥٥)
- IHT*, 31 July - 1 August, 1993, p.4, (٥٦)
- (٥٧) موريو هوسوكاوا اليابان مطالبة بفتح ثلاث على العالم، الشرق الأوسط ٨ أغسطس ١٩٩٣، ص ٩.
- (٥٨) الحيلة، ٧ أغسطس، ١٩٩٣، ص ٦.
- (٥٩) الحيلة، ١٦ أبريل، ١٩٩٣، ص ٨.
- (٦٠) يتخذ هذا الجزء بشكل كبير على مقالتنا التالية:
- تاميف «تي»، *فروسيا: صراع على السلطة وصل المستقبل*، الحيلة ٢٦ مارس، ١٩٩٣، ص ١٧.
- Jude Wanniski, «Go-GO Gradualism», *The New York Times*, 1st October, 1993, PA 31. (٦١)
- Quoted in Alexander N. Rozovino «Post-Soviet Nuclear Threats are even Bigger», *IHT*, 15-16 June, 1993, p. 6, (٦٢)
- Ricardo Petrella, «PAX TRIADICA...» *Le Monde Diplomatique*, November 1992, p. 32, (٦٣)
- IHT*, 20-21 February, 1993, p 55, (٦٤)

الأدب والعلوم الإنسانية

- الرواية الأنثروبولوجية بين الواقع الأثنووجرافي والخيال الإبداعى
- التفسير الاجتماعى للظاهرة الأدبية: التراث وإشكاليات المنهج
- الدراسات النفسية والأدب
- القارئ والنص: من السيميوطيقا إلى الهيرومينوطيقا
- السقوط والخلاص: قراءة في رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ

تحرير وتقديم: د. شكري محمد عياد

الأدب والعلوم الإنسانية

د. تكري محمد عياد*

تمهيد

مهمة «المحرر الضيف» تنحصر في أنه يقترح الموضوعات والكتاب ويتابع إنجازها ثم يكتب لها «تمهيدا» ما .

مهمة تبلى هيئة، وهي كذلك حقا إذا لم يواجه «المحرر الضيف» باعتلاء متأخر عن أوانه، فيكون عليه أن يمثل بدوره لرئيس التحرير، وقد يضطر أيضا إلى أن يعدل خطة العدد. ولكن الأمور تستقر أخيرا على أي حال، وعندما يجلس «المحرر الضيف» لكتابة التمهيد، يجد نفسه إنسانا سعيد الحظ، لأن أمامه مجموعة ثمينة من المواد التي اشتاق إلى أن يقرأها من أقلام هؤلاء الكتاب بالذات، وكأنها كتبت خصيصا له! وهذه الأثنية أو الترجسية لا ينفرها إلا شيء واحد: أن يكون قد تمثل في نفسه، حين دعا هؤلاء الكرام الكاتين، شوق جميع القراء المهتمين.

ولعل المهتمين بالأدب أكثر عددا من المهتمين بالعلوم الإنسانية. فالأدب في ثقافتنا ينصرف إلى كل كتابة من شأنها جمال النفس، أو إمتاع العقل، هكلنا نلذ الكلمة باشتغالها وبقبولها العام، ونظيرتها في اللغات الأوربية مشتقة من «الحرف» ومرتبطة، صوتا ومعنى، بفعل القراءة، وفعل القراءة لذات القراءة لا يقصد به إلا جمال النفس أو إمتاع العقل. أما «العلوم الإنسانية» فحديثة الميلاد، لم تبرز من دوحه الفلسفة - أم العلوم - إلا منذ قرن ونصف القرن تقريبا. وقد سلكت مسلك العلوم الطبيعية في الابتعاد عن كنف الأم، ولم تكف بمحاولة الفهم. أو الضرب في جنبات المجهول في الأرض والساء، بل توخأت أغراضا عملية في علاقة الإنسان بالإنسان، واصطنعت من الوسائل لتعيين الظواهرات الاجتماعية وتحليلها وقياسها واكتشاف العلاقات بينها إجراءات شبيهة بتلك المتبعة في العلوم الطبيعية. وطبعي أن يكون المشتغلون بهذه العلوم الإنسانية فئات من التخصصيين.

* أستاذ سابق بآداب القاهرة، صاحب مؤلفات هامة في النقد، وحاصل على جائزة الدولة للتقنية للآداب عام ١٩٨٨.

ولكن الإمساك بـ «الإنسان» ليس بالأمر السهل، وآية ذلك أن التنبؤ بسلوك فرد ما، أو جماعة ما، ينطوي — إذا تحدثنا بلغة العلم — على نسبة عالية من احتمال الخطأ. أما إذا نظرنا إلى المسألة بمنظار التأمل الفلسفي فقد يمكننا القول بأن مشكلة الحضارة المعاصرة هي الاختيار بين طريقين لـ «صنع القرار» (ذلك على جميع المستويات: من مستوى الفرد العادي إلى مستوى الدولة العظمى): فلما أن يتخذ القرار بناء على «تقديرات علمية» خالصة، وإما أن توضع مع هذه التقديرات، أو قبلها، معايير مطلقة قد نسميها الحق أو العدل أو الأخلاق أو الدين. وقد يقول «العلميون» الخلقص: إن العلوم الإنسانية بوسائلها في القياس والتحليل لا تزال في طور النشأة، وإنما حرية أن تبلغ — يوماً ما — ما بلغت العلوم الطبيعية من دقة وإحكام. وهذه حجة وجيهة، ولكن قبولها ينطوي على مخاطرة كبرى، قد تكون نتيجتها فناء البشرية، فلا أحد يجهل أن الخيار الذي أشرنا إليه لن يدوم طويلاً، فإذا تكررت القرارات الخاطئة، اعتاداً على «العلم» المظنون، فقد يمجز «العلم» عن إصلاح أخطائه. وما أظنني أبالغ إذا قلت إن العالم يزداد اقتراباً من هذه «الملحظة الحرجة» يوماً بعد يوم. والأشئلة واضحة للعيان، ابتداء من مرض «الايذز» إلى فظائع الحروب المحلية والأعمال الإرهابية التي أوجدتها التقدم العلمي بما استلزمه من تناقضات، وغذاها بما ابتكره من أسلحة، ثم هو اليوم عاجز عن كبج جاحها إلا بأعمال تفوقها فظاعة. وقد لا «يوفق» إلى ذلك دائماً.

لهذا أشعر، ولعل الكثيرين يشاركوني في هذا الشعور، ان استئثار «العلم» بتوجيه الحياة البشرية لم يعد في مصلحة البشر. ولا شك أن العلوم الإنسانية، بموقفها المتوسط بين عالم الشعور والوجدان والقيم من ناحية، وعالم التجربة العلمية والإنتاج المادي من ناحية أخرى، قد أصبحت — حتى ولو لم يشعر أصحابها — هي المنطقة التي يجب أن تنقز فيها نتيجة هذا الخيار. ولا أعني — بطبيعة الحال — أن العلوم الإنسانية ينبغي — أو يمكن — أن تتخل عن طموحها العلمي نحو دراسة السلوك الإنساني دراسة منضبطة، ولكنني أعني أنها قد تمجد من الضروري أن تعدل مناهجها، وأهم من ذلك — في نظري — أن تقلل من ادعائها الذي يتجلى في اسمها نفسه، وهو أنها السبيل الوحيد الموثوق لمعرفة الإنسان بنفسه.

وثمة موقف لبعض المشتغلين بالعلوم الإنسانية وبعض دارسي الأدب أيضاً، يرى أن الدراسة العلمية للأديب يجب أن تستقل عن الأدب نفسه، أي عن الشعر والنثر الفنين، ومعها الكتابة التي تتناولها مباشرة، والتي نسميها النقد. وبعض هؤلاء يسقط الحوار بين النقد والكتابة الفنية، وبذلك تزداد الهوة بين الأدب ودراسة الأدب اتساعاً، لتصبح دراسة الأدب قسماً من العلوم الإنسانية: فأما أصحاب العلوم الإنسانية الأخرى، ولا سيما علم الاجتماع وعلم النفس، فكلاهما يخضع دراسة الشعر والنثر لمناهجها، باعتبارها نتاجاً اجتماعياً تارة، أو تعبيراً عن كفيات نفسية تارة أخرى. وأما أصحاب «علم الأدب» فيحصرون أنفسهم في دائرة الملة الأدبية، باعتبارها تركيبات لغوية، يقصدونها بالتصنيف تارة، وبالتحليل تارة أخرى.

ولكننا إذا أخذنا «العلم» بمعناه الواسع، الذي يتجاوز المعرفة المنضبطة عن طريق التجريب ويوسائل القياس، إلى «المعرفة» عموماً، فهل يسعنا أن ننكر أن مجرد «قراءة» الأدب من أجل متعة العقل وجمال النفس، تتضمن نوعاً من «المعرفة»، معرفة الإنسان بذاته وبمكانه في الكون؟ وإذا كانت

هذه «المعرفة» غير قابلة لأن تصاغ في نتائج محددة، من حيث إنها لا تشير إلى «موضوع» محدد، كما تشير الدراسة العلمية للأدب إلى موضوع محدد وهو الأدب، فهل يسمح لنا هذا الفرق بأن نستبعد هذه المعرفة من حقل «العلم» بمعناه الموسع، لمجرد أن وسائلنا العلمية لا تستطيع الإحاطة بها؟ بعبارة أخرى: إذا كانت خاصية الأدب هي أنه يشير إلى شيء وراء حدود اللغة، أي وراء حدود العالم المسوك باللغة، فهل يستطيع دارسو الأدب بل عامة قراء الأدب، أن يتجاهلوا هذه الخاصية؟ وأي قيمة تبقى للأدب إذا هم تجاهلونها؟ أليس المنتظر، في هذه الحالة، أن ينحدر الأدب إلى إنتاج شكلي محض، أو أن تختزل «المعرفة» الأدبية الكلية التي تتجاوز حدود اللغة وحوادث العالم، إلى مضمون محدد يمكن أن يكشف عنه علم النفس أو علم الاجتماع، أو أن تكون الدراسة الأدبية مزيجاً من هذين العنصرين، ومن ثم يصبح الإبداع الأدبي نفسه محصوراً في حدود فهمنا القاصر للأدب؟

كانت هذه الأسئلة المقلقة تساورني عندما أتحدث في الفرصة لأن أكتب عدداً من الباحثين حول موضوع الأدب والعلوم الإنسانية. وأحسب - بناء على تجربتي في النقد - أن مثل هذه الأسئلة تشغل الكثيرين من قراء الأدب أيضاً. قد لا يوافقنا الكثيرون - بالطبع - على تعريفنا للأدب هنا بأنه نوع من استعمال اللغة يتجاوز حدود اللغة، وهو تعريف متواضع لأنه تعريف بالخاصة، وليس تعريفاً بالمعامية، ولكننا نقول إنه تعريف علمي لأنه مبني على خبرة واقعية بالمادة الأدبية، خبرة عبر عنها بلاغياً القدماء حين تحدثوا عن نوع من التشبيه سموه «التشبيه الوهمي» ومثلاً له بالآلة: «طلعها كأنه رؤوس الشياطين» ويقول امرؤ القيس في وصف السهام: «ومسونة زرق كأنها أضواء»، وحام حولها رتشاردز نفسه، وهو الناقد المتأثر بالوضعية المنطقية، حين يتحدث عن الاستعارة بأنها اختراع أو اختراق معنوي يتجاوز دلالة المستعار منه والمستعار له، وذهب بها السير يالون إلى أقصى مداها حين قصروا فهمهم على تعظيم العلاقات «الطبيعية» بين الأشياء والعلاقات النحوية بين الألفاظ.

ولذلك فالسؤال الذي يطرحه دارسو الأدب اليوم، أو ينبغي أن يطرحوه، هو: هل يمكن أن يبنى على هذه الخبرة «علم»؟ إذا كان العلم عبارة عن صيغ، تمثل علاقات، ويمكن أن تأخذ شكل قوانين، مستقرة من هذه الخبرة، فإن معرفة نوع «الخبرة» وكيفية أو كفاياتها ووسائل تحسينها، هي الشرط الضروري لاستخلاص النتائج منها، وهذه المعرفة هي مانسبه المنهج. وقد كانت دراسة الخبرة الأدبية، أو الفنية عموماً، أو الخبرة الجمالية بتعبير أشمل وأدق، ولا تزال، موضوعاً من موضوعات الفلسفة، أي أنها كانت تقوم على التأمل في ذاتها، أو الاستبطان المقترن بملاحظة الموضوع الخارجي، ولكننا في هذا العصر الذي تتراجع فيه الفلسفة أمام العلم، أو تراجع نفسها طبقاً لمعطياته، نتساءل: ماذا تستطيع العلوم الإنسانية أن تعطينا لتساعدنا على فهم هذه الخبرة؟ ولأنسى مع ذلك أن «الخبرة» أوسع وأعمق وأعمش وأشد تنوعاً من كل محاولة لفهمها. وإذا كنا نولي وجهتنا - مؤقتاً - عن الفلسفة القائمة على الملاحظة والتأمل، لتتوجه بأستلانتنا إلى العلوم الإنسانية التي تصطنع وسائل التجريب والقياس، فليس السبب في هذا أن فلسفة القرن «فشلت» في مهمتها، وإن كانت قد قدمت تفسيرات كثيرة، ومتعارضة أحياناً، للخبرة الفنية، فمن الطبيعي أن يكون هذا شأنها إذا لاحظنا خصائص هذه الخبرة، ولكن لأن الفلسفات الفنية على اختلافها تقوم بمغامرة كبرى: وهي البحث عن «جوهر»

الحبرة الفنية، وهذه المغامرة تنطوي على خطرين: فهي من جهة تفرد خاصة واحدة بمكان الامتياز (المحاكاة أو التعبير مثلا) ومهما حاولت بعد ذلك أن تخضع سائر الخواص لهذه الخاصة المتميزة فإن الصورة العامة تظل متأثرة بمزاج الفيلسوف أو بأحوال عصره، وهي من جهة أخرى، وفي سبيل تأكيد هذه الصفة المتميزة، تنفي من دائرة الحبرة الفنية ألوانا أو أحوالا كثيرة يمكن القول إنها تقع على الدرجات الدنيا من سلم القيمة، ولكنها تصنف تحت هذا الجنس من الحبرة. فالعلوم الإنسانية، كقنبلة بسد هذا النقص، نظرا لأنها تبنى على ظواهر عامة لا على تأملات فردية. فعلم النفس - على سبيل المثال - يمكنه أن يدرس بوسائله العملية تأثير الإقناع أو المشكلة اللفظية، باعتبارهما عنصرين في الحبرة الفنية، مع أن الحبرة الفنية لا تتم بهما، وكذلك تختلف طبيعة الحبرة الفنية - أو التلوق - باختلاف الأنواع الأدبية: فتلوق الرواية الواقعية يختلف عن تلوق الشعر الغنائي: الأول أشبه بجولة في نهار مشمس، والثاني أشبه بهزة باطنية لمنظر برق يلمع، أو بضوء ساطع في ليلة حالكة الظلام، وقد تجعل الفلسفة الفنية إحدى الحبرتين مقدمة على الأخرى، أما علم الاجتماع فإنه يعني بالترعين على قدم المساواة، مركزا جهده في البحث عن العوامل التي أدت - مثلا - إلى رواج أحدهما أكثر من الآخر، أو الوظيفة التي يقوم بها أحدهما أو كلاهما في مجتمع ما.

وبفضل هذه النظرة الواسعة إلى الحبرة الأدبية بمختلف أنواعها يمكن أن تساعد العلوم الإنسانية «علم الأدب» على بناء منهجه، وسيكون من أولى مهام هذا المنهج ملاحظة الارتباط بين الحبرة الأدبية ومعرفة الحياة الإنسانية، أي أن «علم الأدب» سيحاول بدوره أن يمتد إلى العلوم الإنسانية، ولكن من منطلق الحبرة الأدبية. وليس هذا بالشيء الجديد، فقد كان سنت ييف، رائد الدراسة العلمية للأدب، يقول إن هدفه من هذه الدراسة هو كتابة «تاريخ طبيعي للأرواح»، وفي ذلك الوقت (أواسط القرن التاسع عشر) لم يكن علم النفس أو علم الاجتماع قد وجدا كعلمين مستقلين بموضوعاتهما ومناهجهما عن الفلسفة. فإذا كانت الدراسة الأدبية لم تأخذ شكل العلم حتى اليوم، بينا الذي يلوح لنا بإمكان معرفته دون أن نستطيع القول في وقت من الأوقات إننا عرفناه.

وإذا كانت هذه هي الصفة المميزة للخبرة الأدبية، فهل يمكن أن يبنى عليها علم؟ وهل ثمة ضرورة مثل هذا العلم؟

أعيد القارئ إلى صدر هذه الكلمة

وقد رأينا أن رؤية فلسفية لنص أدبي قد تلقي بعض الضوء على هذه المشكلة الأخيرة. والنص هو رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ، وصاحب الرؤية هو الدكتور حسن حنفي. وقد أراد أن يجرد مقاله تجريدًا تامًا من كل ما عدا المشكلة الفلسفية، وهي في نظره مشكلة «السقوط والخلاص» (وعندي أنها وجه من وجوه الجزئي والمطلق).

ولا غبار على مسلكه هذا لولا تعليقه إياه بأن «الأسلوب الروائي عند نجيب محفوظ أسلوب واضح وسهل وخال من التراكيب المتعقدة. فهل يظن أن التحليل الأسلوبي لا يعرف إلا «التراكيب المتعقدة»، ولا شأن له بالافتكار؟ الواقع أن الدكتور حسن حنفي قام فعلا بنوع من التحليل الأسلوبي الإحصائي

عالم الفكر

لبدع فكرته عن وجود أكثر من مفهوم واحد لله في الرواية . وهو ينتمي على بعض نماذج «التقيد الأدبي المهنى» أنها تشغل بتقنيات العمل الأدبي عن مضمونه . وهو يحق في ذلك ، ولكن هل يكون العلاج بنقد فلسفي تكون مهمته - حسب رأيه - تحليل المضمون مباشرة دون الوقوف على تحليل الألفاظ ، والكشف عن الموضوع وراء اللغة والتركيب اللغوية بالعودة إلى الأشياء ذاتها . . . إلى آخر ما قاله في المقدمة ؟

لقد حاول الدكتور حسن حنفي جاهدا أن يقدم عرضا سمبوطيقيا لرواية نجيب محفوظ ، فقرأها في ضوء عدد كبير من النصوص التي تناولت الموضوعات نفسها ، وحلل بنيتها الفكرية - لا بنيتها الروائية - على أساس الإنشائية البنوية المعروفة : فهناك السقوط والحلاص ، وهناك الدين والعلم ، وهناك الدين والسلطة السياسية . ثم حاول في ختام مقاله أن يبين أن هذه التقابلات ظاهرية فقط ، وأن هناك تقابلا واحداً أساسيا : الحياة (الحارة) والموت الذي يضع نهاية لكل شيء (ولكن الدكتور حنفي لا يصرح بهذا التقابل تحديداً) .

إن الذي يزعجنا أكثر من تدفق الأسلوب في هذه المقالة هو رؤية الدكتور حسن حنفي المهمة النقد الفلسفي على أنها «العودة إلى الأشياء ذاتها» وأنها «الفهم والتطوير والتغيير» ومشاركة الروائي في الهدف وبالتالي إعطاء أبعاد جديدة للنص الأدبي . فهذا المزيج من الفلسفة البنوية وفلسفة الظواهر يقهر النص الأدبي حتى يعبر عن أفكار الناقد ونظيرته إلى «موضوع» النص ، أو إلى «الأشياء ذاتها» لا إلى النص كموضوع للمعرفة من ناحية ، وكطريق إلى المعرفة من ناحية أخرى .

ولعل الدكتور حسن حنفي قد نجح في إظهار أن «أولاد حارتنا» لا يهاجم الدين كما اتهمها المتشددون ، ولكنه وضعنا أمام مشكلة جديدة ، وهي أن بعض النقد الفلسفي لا يبحث عن حقيقة الأدب ، بل يبحث عن نفسه في الأدب .

أخذ علما النفس والاجتماع يتواعدان عن المناهج النظرية ويحاولان أن يلحقا بالعلوم الطبيعية التجريبية ، فلا يبعد ، إذا نجح علم الأدب في تطوير مناهجه ، أن يصبح له نوع من التأثير في هذين العلمين ، يحقق توازنا واعتدالا في العلوم الإنسانية بوجه عام ، بين النظر والتجريب .

وقد تكون التجربة الفنية في تاريخ شعرنا العربي أقرب إلى الخطفة المفاجئة ، بينما هي في الثقافة الغربية أقرب إلى الرؤية الممتدة . ولكننا يجب ألا نبالغ في تأكيد الفروق ، كما يجب ألا ننسى أن إلحاح المنظرين العرب على بلاغة البيت قد ألهمهم عن النظر في بلاغة القصيدة ككل ، أو - من باب أولى - بلاغة القصيدة أو الرسالة الشعرية . ولذين السببين مجتمعين يجب أن يشمل المنهج الأدبي هذين النوعين من الخبرة .

ونحن نعرف - مثلاً - أن الرواية الواقعية الأوروبية في القرن التاسع عشر قد اقتربت كثيرا من الكتابة العلمية ، إذا اعتبرنا التاريخ ، بأسلوبه في تقرير الوقائع وتعليقها ، والتاريخ الطبيعي ، بطريقته في وصف الأشياء ، والتمييز بينها ، وبيان تأثير العوامل البيئية فيها ، النموذجين الأساسيين للكتابة العلمية في الموضوعات الإنسانية في ذلك العصر . إن الرواية البلاغية يمكن أن تعد تاريخاً اجتماعياً لعصرها ، والكثير مما كتبه زولا يمكن أن يعد وصفاً أنثروبولوجياً - قبل أن يوجد علم الأنثروبولوجيا -

لغات من قاع المجتمع . على أن النهاذج البشرية التي يصورها كل منها، بين ضغوط اللحظة التاريخية والبرغبات الإنسانية الطبيعية، ترك في النفس انطبعا بأن حياة الإنسان على الأرض ليست إلا مزيجا تراجيديا كوميديا من الاندفاع والجشع والغرور والقهر . ولهذا فإن نوع «الرواية الواقعية» يقوم أساسا، في إبداعه وتلقيه، على الخبرة الأدبية .

وفي مقابل هذا نرى الكتابات الأنثروبولوجية، من بذورها الأولى قبل تأسيس هذا العلم إلى أحدث اتجاهاته المنهجية، شديدة القرب من الأدب . فنحن نجد متعة أدبية في قراءة «تحقيق ما للهند» أو «رحلة ابن بطوطة»، لأن الخروج من عاداتنا الفكرية والاجتماعية لنجرب بعض الوقت حياة الآخرين تجربة تهب نفوسنا بالدهشة، وتفتح عيوننا على الداخل حين تدفعنا إلى المقارنة بيننا وبين الآخرين، وهذه حالات شعورية شديدة الالتصاق بالخبرة الأدبية . إن المبدأ المرحي لدى الأنثروبولوجيين الإنجليز على وجه الخصوص من ضرورة الاندماج في حياة الجماعة البشرية التي يدرسها الباحث، هو في الحقيقة جزء من الخبرة الأدبية . لا يمكن تصورها بدونها، وكان الأنثروبولوجيين استعاروها من هذه الخبرة، كشرط ضروري للمعرفة . ولكن هذه المعرفة، الصميمة، في إطارها الأدبي، ليست «معرفة» مجردة، بل هي بالدرجة الأولى «فعل» نفسي غايته التواصل بين الذات والغير . وهنا تكشف لنا الروايات الأنثروبولوجية التي حللها الدكتور أحمد أبو زيد عن موقفين مختلفين : تأكيد الذات في مواجهة الآخر، وتجاوز الذات لرؤية الآخر . على أن هذه المواقف لا تخضع لتقسيمات سهلة وفاصلة . ف «الآخر» ليس نمطا واحدا، و «الذات» أيضا ليست صنفًا واحدا، وتبادل المواقف أمر ممكن بل طبيعي، فالذات «آخرة» بالنسبة للآخر، والآخر - على العكس - ذات لها موقفها من الآخرين . والنماذج القليلة المتبقية التي يحللها الدكتور أحمد أبو زيد تشير إلى هذا التنوع، وربما كانت رواية «قمر القتي ذي الدثار»، وهي لكاتب من جنوب إفريقيا، عملا نموذجيا في تصويره لموقف إنسان متم إلى حضارة بدائية من حضارة الرجل الأبيض، على عكس ما كرسته عقود كثيرة من الدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها غربيون لحضارات بدائية . لاشك أن مثل هذا العمل أهمية علمية كبيرة في دراسة التغير الحضاري من وجهة نظر إنسان يعاني هذا التغير، ولكن له أيضا قيمة فنية لا تقل عن هذه لأن هذه المعاناة في ذاتها، أي بصرف النظر عن نتيجتها، هي تجربة إنسانية عميقة لما تنطوي عليه من مشاعر «الاتصال والانفصال» التي نلعبها من خواص الخبرة الأدبية . وإذا كان لهذه المجموعة من الخبرات دلالات مهمة أيضا على مستوى التحول التاريخي الشامل في عالم اليوم، من الهيمنة (المركزية الأوروبية) إلى المشاركة (الوحدة العالية) فإن لها أيضا انعكاساتها على مستوى المنهج، في كل من الأنثروبولوجيا والأدب المقارن .

وليس من السهل وضع الحدود بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وإن كان من الممكن أن يقال إن الفرد يدرس ممثلا لحضارة، أي لمجموعة من القيم الفكرية والسلوكية التي يتسمك بها مجتمع ما، كما يدرس بها هو وحدة داخلية في مجموعة من المؤسسات التي ينظم بها المجتمع حياته . فالوضع الأول هو الغالب على الدراسات الأنثروبولوجية، والوضع الثاني هو الغالب على الدراسات الاجتماعية . وبما أن الأدب، من وجهة النظر الاجتماعية، هو إحدى هذه المؤسسات (يعرف ذلك من وجود الجمعيات الأدبية، ودور النشر والصحافة الأدبية، والسلاسل التي تجمع التراث الأدبي المعاصر في لغة ما، إلخ) .

فطبيعي أن يدرس علم الاجتماع الأدبي علاقة المبدع الفرد بالمؤسسة الأدبية، كما يدرس علاقة هذه المؤسسات بسائر المؤسسات الاجتماعية. وفي المجتمع المعاصر بالذات، الذي تتحدد فيه علاقة المبدع بقراءه طبقا لقوانين عامة تربط بين المنتجين والمستهلكين، نجد علم الاجتماع نفسه ملزما بدراسة تأثير «نظام السوق» في شكل الإنتاج الأدبي ومحتواه.

وفي مجال علاقة كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع بالأدب، يمكن القول إن الأولى مبنية على التناظر، والثانية على التشابك. فكل من الأنثروبولوجيا والأدب موضوعه الإنسان، وكلاهما يحاول أن «يفسر» الحياة الإنسانية، ولكن الأولى تستخدم الوصف بطريقة مقننة بناء على الخبرة الموضوعية (العقلية)، والثاني يستخدم الوصف بطريقة مقننة بناء على الخبرة الجبالية. ومن ثم لا يزعم أحدهما أن يقين للآخر، بينما يمكن أن يستفيد أحدهما من الآخر. وأوضح ما يظهر ذلك في موضوع الأساطير حيث يدرسها لغوي سترووس - مثلا - باعتبارها نصوصا أدبية، لأنها محملة بنفس الدلالة الكثيفة التي لهذه النصوص، وفي الوقت نفسه يمكن أن يتخذ تحليل للأسطورة نموذجا لتحليل قصيدة مثلا.

اتفاق الأنثروبولوجيا والأدب في الموضوع، وهو «الإنسان» بمطلق معنى الكلمة، مع اختلافهما في طريقة تناول، يترتب عليه إمكان التعاون بينهما، حين يستفيد أحدهما من طريقة الآخر، أو من النتائج التي تحققت بفضل هذه الطريقة: فيتخذ العالم الأنثروبولوجي النص الأدبي، بشروط خاصة، مصدرا من مصادر الدراسة، ويستفيد الأدبي المبدع من الدراسات الأنثروبولوجية في تصويره للعالم، وبذلك تزداد «الخبرة الأدبية» لديه عمقا وغنى، كما تستفيد الدراسة الأنثروبولوجية، في جانبها النظري التفسيري، من الدراسة الأدبية لتفسير تلك الجوانب من التراث الفكري للمجتمع، التي لا ترتبط بغايات عملية واضحة، بل تعبر عن موقف من الكون، وفي الوقت نفسه تستفيد الدراسة العلمية للأدب من الدراسة الأنثروبولوجية هذه الجوانب بالذات، فتقتبس منها المنهج العلمي الذي طور من خلال النماذج الإبداعية الأساسية.

أما علم الاجتماع فرغم قرب من الأنثروبولوجيا إلى درجة عدم إمكان الفصل بينهما أحيانا فإن علاقته بالأدب مختلفة لأنها لا يعملان في نفس المادة. نعم، كلاهما مشغول بحياة الفرد في المجتمع، ولكن المجتمع هنا، وهو المجتمع المدني، أصبحت له كينونته الخاصة، ولم يعد الفرد ممثلا لهذه الكينونة، بل أصبحت له كينونته الخاصة كذلك، ومن ثم فالظواهر الاجتماعية في هذا المجتمع المدني، وهي موضوع علم الاجتماع (وهي غالبا «مشكلات» تتطلب الحل، مثل: الطلاق - جناح الأحداث، إلخ) إنها تدرس بمعزل عن معاناة الفرد التي هي مادة الأدب. والاختلاف أوضح فيما يتعلق بالدراسة العلمية للأدب، فعلم الأدب يدرس نصوصا متشكلة، في حين أن علم الاجتماع يدرس ظواهر متناحلة، عليه أن يميز بينها ويعطيها شكلا علميا بواسطة التحليل والقياس والإحصاء.

ولمنا نقرا في مقالة الدكتور فتحي أبو العينين كلاما مهما حول الخبرة الاجتماعية والخبرة الأدبية، والمراد بالأولى رؤية الباحث الاجتماعي للظواهر التي يدرسها وطريقته في التعامل معها، وبالثانية تعبير مبدع الأدب أو تفسير قارئه لتأثير هذه الظواهر في حياة الأفراد. ويقرر الدكتور أبو العينين أن الخبرتين

متنايزتان، وإن كانت الدراسة العلمية للمجتمع يمكن أن تساعد الروائي، كما أن الشواهد الأدبية يمكن أن تزيد البحث الاجتماعي ثراء. ولكننا إذا سلمنا باختلاف الحبرتين فقد نلاحظ أيضا أن العكس يمكن أن يحدث: فكون الدراسة العلمية للمجتمع عاملا في جفاف العمل الروائي من حيث هو رواية، ويكون الاعتماد على الشواهد الأدبية سببا في ابتعاد البحث الاجتماعي عن الدقة العلمية، وإذا كان في مقلود عالم الاجتماع أن يضع الضوابط لاستخدام النصوص الأدبية في أبحاثه، فإن الإشكال يظل قائما بالنسبة إلى مبدع الأدب، لا يمكنه أن يحل إلا بالحدس الفني وحده، فعلم الاجتماع الأدبي لم يجعله أكثر وعيا بما تعنيه «الحبرة الأدبية» وهل يمكن أن تكون لها علاقة جوهرية بالحبرة العلمية بالمجتمع.

والعلاقة بين علم الاجتماع والدراسة العلمية للأدب، كما يجب أن نتوقع، أقل غموضا، فقد يكون من الضروري أن نبحت عن علل الظواهر الأدبية - سواء ما يتعلق بالمضمون أو الشكل - في الظروف الاجتماعية، ولكن السؤال الجوهرى يظل قائما، أعني: ما قيمة المعرفة بالعلل الاجتماعية في تطوير الحبرة الأدبية لدى النقاد؟ إن وجود فرع من علم الاجتماع يسمى «علم الاجتماع الأدبي» (مثل «علم الاجتماع القانوني»، و«علم الاجتماع الديني» إلخ). لا يستتبع بالضرورة أن يكون لهذا الفرع جدواه على الدراسة الأدبية، فقد تظل ثمرته مقصورة على أغراض علم الاجتماع، كما أنه مفيد في أدواته وإجراءاته بما يتبع في مسائر فروع هذا العلم، وإن كانت مادته مأخوذة من النصوص الأدبية. لذلك نجد ذلك الفريق من علماء الاجتماع اللذين يتمسكون بالمنهج التجريبي ورافضين أن يكون لعلم الاجتماع الأدبي علاقة ما بالنقد الأدبي، كما نجد النقاد المتمسكين بمقولة «استقلالية الأدب» ورافضين لهذه العلاقة أيضا. ونجد الفريق الثالث الذي يقول بتكامل المدرسين (وفي مقدمتهم لوكتاش وتلميذه جولدمان) يهجمون منهجا نظريا، متأثرا بالتحليل الماركسي للمجتمع، ويستعدون عن المنهج التجريبي باختياراته وقياساته وإحصاءاته، معتمدين على التحليل الفني للأعمال الأدبية (الموضوعات والشخصيات والأسلوب إلخ). ليصلوا من خلاله إلى «الرؤية» التي تصل لإبداع الأدب الفرد بتوجهات فئة اجتماعية ما. ولكن «نقطة الوصل» هذه هي التي تحتاج إلى إيضاح أكثر، وهي لب الحبرة الأدبية التي لا يمكن حصرها في الشكل الفني وحده، حتى لا يكون الشكل خالياً من المعنى، وهذا، منطقيا، محال.

وإذا كانت الأسئلة الأساسية التي يجب طرحها ليقوم عليها فرع من فروع المعرفة نسميه «علم الأدب» متعلقة كلها بالحبرة الأدبية، فمن الطبيعي أن تنتج إلى علم النفس لفهم هذه الحبرة. وسنجد من رواد مذهب «الجشطلت» من قاموا بتجارب على الحاسة الفنية، ولكن تجاربهم ظلت منحصرة فيما يمكن اختياره بالوسائل المعملية، فلم تتجاوز أشياء أولية مثل الألوان والأصوات المجردة. ثم استأنف علم النفس التجريبي حياة جديدة متوسعا في معنى «التجريب» بحيث يشمل أداتين مهمتين من الأدوات المستخدمة في علم الاجتماع وهما «الامتبار» و«تحليل المحتوى»، وإستطاع بفضل هذا التوسع في أدوات البحث مع تطويعها لأغراضه أن يتناول الأشكال الفنية الراقية (الشعر، الرواية، المسرحية، القصة القصيرة) وأن يلقي أضواء كاشفة مهمة على «الحبرة الأدبية» في كل منها (بما تشتمل عليه هذه

عالم الفكر

الخبرة من عناصر مشتركة وعناصر نوعية). وقد استطاع الدكتور مصطفى سوييف، بمجهود شاق، أن يرسم دعائم هذه المدرسة في مصر وأن يتوصل هو وتلاميذه، ومنهم الدكتور شاكر عبد الحميد كاتب مقالة «الدراسات النفسية والأدب» إلى نتائج مهمة حول النشاط الإبداعي بوجه خاص، وقد يكون من أهمها دور المخزون النفسي في عملية الإبداع، وتأثير الإطار الثقافي، ووظيفة العمل الفني في إعادة الاستقرار بين الفرد ومجتمعه.

إن حصيلة هذه الدراسات - وقد تقبلت تقليدا تاما بالمنهج النفسي ولم تحاول الدخول في تحليل الأعمال الأدبية بوصفها تركيبات لغوية فنية - يمكن أن تساعد الناقد الأدبي - بل والمبدع أيضا - على فهم النشاط الذي يقوم به، وبذلك يكون أقدر على تحليله بوسائله الخاصة. على أن هناك قسما آخر من الدراسات النفسية التي تتناول الأدب، لا يمكن الاستهانة به لا كيا ولا كيفا، وأعني ما تقوم به مدارس التحليل النفسي المختلفة. وهناك شبه إجماع على أن نظرية فرويد كان لها تأثير مباشر في نشأة السبريالية، وأن نظرية يونج كان لها مثل هذا التأثير في نشأة التفسير الأسطوري للأدب. ومع أن النظريتين تقومان على «اختزال» للنشاط الإبداعي، مرة إلى عمليات تحويلية شبيهة بما يجري في الأحلام أو أحلام اليقظة، ومرة إلى «نماذج أصلية» مفترضة، فإن كثيرا من الدراسات التي تناولت نصوصا أدبية كبرى، في محاولة لتفسيرها على ضوء إحدى هاتين النظريتين، يمكن أن تؤدي إلى اكتشافات مهمة حول اقتران «الخبرة الأدبية» بنوع من المعرفة الحدسية التي استطاع علم النفس، في مرحلة تالية، أن يثبت صحتها بوسائله الأقرب إلى الموضوعية. وفي الوقت نفسه ترحي آراء «الكان» حول التوترات النفسية الناشئة عن استعمال اللغة بإمكانية استعمالها لتفسير «الخبرة الأدبية» كمحاولة لاستعادة التوازن بين الذات والحارج.

وهنا تنتهي، كما انتهت العلوم الإنسانية في الوقت الحاضر، إلى اللغة كعنصر مشترك، أو «مفتاح» أستاذ يجمع بين هذه العلوم كلها.

وقد جاء تركز العلوم الإنسانية حول اللغة نتيجة لعوامل كثيرة مشتركة، في مقدمتها الدراسات الأثنويولوجية اللغوية (مدرسة بواس وسابير)، ونظرية سوسير في البناء التزامني للغة، ونظرية الظواهر (أو الظاهراتية كما تسمى أحيانا) في رد المدركات بمختلف أنواعها إلى الذات المدركة، بدلا من القول بأن لها وجودا في ذاتها. ووراء ذلك كله فلسفة هيغل في وحدة الثقافة. فاللغة هي أساس هذه الوحدة. وهي الجهاز الذي ندخل فيه كل أنواع النشاط البشري، لتخرج «مصنعة» في شكل لغة. هي أدانتنا للتحليل والتركيب ووسيلتنا لتحديد قيم الأشياء. وعلى ضوء اللغة وقوانينها يمكننا أن نفهم سائر الوسائل التي تقوم بدور مشابه، وإن يكن أقل شمولاً. وبمجموع هذه القوانين هو ما نسماه السميولوجيا، أو علم الأدلة.

وبين أن هذا العلم الذي يبحث في نظم العلاقات لا شأن له بكيفية ظهور هذه النظم أو ابتداعها ولكن يصنفها، ليضع في أيدينا أداة صالحة لفهم كل عمل فردي أنتج وفقا لها. وطبقا للمنهج الظاهراتي لا يكون لهذا العمل المنتج أو المخلوق أو القائم خارج ذواتنا قيمة أو معنى إلا حين نقوم

نحن، القراء أو المستقبليين، يلتصق به. ولذلك فإن السميولوجيا قد جاءت في ركابها بعلم آخر، وهو علم التفسير أو الميرمينوطيقا، أو على الأصح أحيت من تراث المصور الوسطى، حيث كان فهم النص الديني مسئولية المفسر.

لا يخفى تأثير هذين العلمين في النقد الأدبي المعاصر، الذي نقل مركز الثقل في دورة العمل الأدبي من المبدع إلى القارئ/ الناقد، مع أن نشاط هذا الأخير يمكن تحديده بـ «حل شفرة» العمل الأدبي، ولابد له من الاستعانة بنصوص أخرى مشابهة لأنه لا يوجد - في الحقيقة - نص قائم بذاته، فكل نص جديد هو إعادة تركيب لشفرات سابقة، وهذا هو ما يعبرون عنه بـ «التناص» أو تداخل النصوص. وهكذا يصبح النقد عملاً ذهنياً يحل الكليات المتقاطعة، وتصبح «التجربة النقدية»، وهي كما قلنا مركز الثقل الآن، نموذجاً للإبداع، وأحسب أن السميولوجيا لو أرادت أن تختار نموذجاً للإبداع الأدبي لما وجدت أفضل من الرواية البوليسية. ولعل أومبرتو إكو، وهو واحد من أعلام السميولوجيين، قد أراد أن يرشدنا إلى إمكان استخدام النموذج البوليسي في كل أنواع الكتابة الروائية، حتى الرواية التاريخية، حين كتب روايته «اسم الورد».

لقد غاصت الدكتور سيزا قاسم في خضم كبير من الدراسات الشارحة لما هي السميولوجيا وما هي الميرمينوطيقا. ولكننا إذا رجعنا إلى سؤالنا الأساسي وهو: أي جديد استفدناه من الخبرة الأدبية، وجدنا أن هذين العلمين يدورهما محوران: إلى مهارة عقلية محض، بل يمكن أن تكون عبثية أيضاً، طالما أن القارئ أو الناقد لا يعترفان بوجود شيء اسمه الحقيقة.

نحن لا ندعي أن هذه المقالات الأربع قد استوفت كل ما يمكن أن تضيفه العلوم الإنسانية إلى الدراسات الأدبية، كما أننا لا نهون من قيمة الإضاءات التي قدمتها لفهم الخبرة الأدبية. ولكننا نعود إلى ما بدأنا به من أن خاصة التجربة الأدبية هي أنها تستخدم اللغة لتجاوز حدود اللغة والعالم المعروف الذي تدل عليه اللغة. وقد أقمنا الدليل على ذلك من اللغة الأدبية نفسها. ونزيد الآن أن اعتراف الميرمينوطيقا بتعدد القراءات للنص الأدبي الواحد يعني ضمناً أنه لا توجد قراءة واحدة تستوعب معنى النص، وهذا يستوجب أحد أمرين: إما أن لا يكون للنص معنى، ونحن نستبعد ذلك بداية. وإما أن يكون للنص معنى فوق المعاني ولا تحيط به المعاني التي نعرفها. ونحن لا نتكلم هنا، بالطبع، عن كل نص يسمى في التصنيفات البيولوجرافية أجبا، بل عن التجربة الأدبية التي لا تتحقق إلا في عدد قليل من النصوص.

فإذا كان هذا هو المعنى الذي تختص به النصوص الأدبية العليا، فهو بالضرورة معنى مطلق، بل هو «المطلق» الذي يستوعب كل المعاني الجزئية. ونحن - مرة أخرى - بين إحدى اثنتين: إما أن نقول إنه «الشيء» في ذاته، وإته خارج عن حدود معرفتنا، ومن ثم فلا شغل لنا به، وإما أن نقول إنه متحقق - بصور ودرجات مختلفة - في جزئيات المعاني، ومن ثم يظل هو المجهول.

الرواية الأنثربولوجية

بين الواقع الاثنوجرافي والخيال الإبداعي

د. أحمد أبو زيد

على الرغم مما قد يبدو من تعارض بل وتناقض بين مجالي الكتابات الأنثربولوجية والروائية على أساس أن الأنثربولوجيا في بعض أبعادها على الأقل تنتمي إلى العلوم الدقيقة المضبوطة التي تحكمها محكات ومعايير وقواعد ومناهج وقوانين صارمة ، بينما تعتبر الرواية شكلاً من أشكال الإبداع الفني الذي يدخله كثير من الخيال والعوامل العاطفية والانفعالية الذاتية ، فإن ثمة منطقة مشتركة بين المجالين ، تتمثل في اهتمام كل منهما بإعادة بناء «العالم الإنساني» الذي يدور حوله البحث الأنثربولوجي أو العمل الروائي ، وإن اختلفت أساليب كل منهما في فهم ذلك العالم والتعبير عن ذلك الفهم . ومع أن كلا من العالم الأنثربولوجي والكاتب الروائي يستمد المادة الأولية التي يصوغ منها عمله وإنتاجه العلمي أو الأدبي من عالم الواقع الذي يعيش فيه ، أو من الأحداث التاريخية التي وقعت في هذا العالم في فترة زمنية سابقة فإن كلا منهما ينظم بطريقته الخاصة تلك الأحداث والوقائع ، ويمجد لنفسه المساحات الزمانية والمكانية التي يختار منها تلك العناصر الأولية ، سواء أكانت هذه العناصر هم الأشخاص أو الموضوعات أو الأشياء التي يتناولها بالوصف أو التحليل .

يظهر هذا التقارب بشكل واضح في بعض الأعمال الأنثروبولوجية الضخمة الرائدة في القرن التاسع عشر، وأهمها على الإطلاق من هذه الناحية كتاب سير جيمس فريزر Sir James Frazer النعنع السذهي The Golden Bough فالكتاب في جوهره دراسة عميقة عن السحر والدين ويضم قدراً كبيراً من المعلومات الأنثروبولوجية التي عكف على جمعها خلال ما يقرب من عشرين سنة واستمدّها من عدد كبير جداً من المجتمعات والثقافات في مختلف العصور. ولكن طريقة القص أو الحكى وأسلوب الكتابة الأدبية الرفيع والخيال المبدع الذي يتمتع به فريزر والذي يجعله يربط بين مختلف العناصر والموضوعات والقصص والأساطير والمادات والتقاليد جعلت من هذه للدراسة العلمية العميقة الصعبة رواية ضخمة شائقة، تدور رغم تعقّد الأحداث وتشعبها حول موضوع رئيسي واحد هو قصة الصراع على السلطة بين الأجيال المتعاقبة، وجمع حول هذا المحور الأساسي مئات القصص والحكايات التي قد تختلف في التفاصيل ولكن يربطها كلها خيط واحد. وأفلح فريزر في صياغة هذا كله في قالب روائي على مستوى عالٍ جداً من دقة الصنعة وإجادة العرض بحيث تحول أبطال هذه القصص الأسطوريين، إلى شخصيات حية تنبض بالحياة وتتفاعل فيها بينها، بكل ما يحمله هذا التفاعل من انفعالات وصراعات ومؤامرات وفضيات سامية أو مشاعر دينية. وبذا يكاد قارئ هذا العمل الأنثروبولوجي الضخم ينسى أنه أمام دراسة علمية معقدة وعميقة لولا مئات الهوامش والمراجع والتعليقات التي يحرص فريزر على تسجيلها حتى يتذكر القارئ، أن ما يقرأه هو في الحقيقة عمل إثنوجرافي جاد يدور حول موضوع إنساني أصيل وخطير.

وليس من شك في أن فريزر هو الذي حدد لنفسه «العالم الإنساني» الذي يتحرك فيه ويحاول اكتشافه من جديد من زاوية خاصة هو الذي اختارها وعمل على عرض تلك المعلومات وتحليلها باستخدام «منهج وطرق هو الذي حددتها أيضاً كما أنه هو الذي اختار أسلوب العرض وطريقة الكتابة الأدبية المحكمة». وهذه كلها جوانب ذاتية إبداعية تقوم على مزيج من الجهد الذهني والخيال الخصب الطليق الذي لا تقف دون انطلاقه أية قيود أو عراقق أو حدود سوى تلك التي وضعها هو نفسه لنفسه. وكانت نتيجة هذا كله ذلك الكتاب الضخم الرائع الذي تتألف فيه آلاف العناصر وتتسبك في وحدة كلية متكاملة كما هو الحال تماماً بالنسبة لحبكة روايات القرن التاسع عشر، وهو العصر الذي ازدهر فيه فن الرواية في الغرب، وبخاصة في بريطانيا⁽¹⁾ التي هي مهد الدراسات الأنثروبولوجية، بالمعنى الذي نفهم به كلمة «أنثروبولوجيا» هنا والتي تشمل الدراسة العلمية المتكاملة للإنسان والنظم الاجتماعية والثقافية في المجتمع الإنساني بشكل عام، والمجتمعات التقليدية والحديثة التي تؤلف العالم الثالث بشكل خاص.

فالقاص أو الحكوي عنصر هام في العمل الأنثروبولوجي والعمل الروائي على السواء، وفيه يمثل الجانب الإبداعي الذاتي الذي يلعب فيه الخيال دوراً لا يستهان به حتى في البحوث الأنثروبولوجية على الرغم من كل ما يُقال عن (موضوعية) هذه البحوث وعن (وصفية) الأنثروبولوجية كعلم. وهذا أمر يمكن رصد ملاحظته في كثير من الكتابات الأنثروبولوجية التي تحتل مكاناً رفيعاً في تاريخ هذا العلم، كما هو الحال مثلاً في كتابات مارجريت ميد Margaret Mead والذات كتابها عن البلوغ في جزر ساموا، الذي يصفه الأستاذ إيفانز بريتشارد E.E.Evans - Pritchard بأنه «كتاب أنثوي بمعنى الكلمة، فيه كثير من الجدل والاستطراد اللذين يلغيان حد الثرثرة، كما يتّبع إلى تصوير الأشياء في صورة زاهية خلاصة، ومن هذه الناحية يتمتع الكتاب إلى ذلك

النوع الخفيف المين من الكتابات الأثنولوجية التي كان المايونفسي أول من بشر بها^(٢). بل إن بعض أعمال المايونفسي نفسه يظهر فيها فن القص والحكي على درجة عالية من الإتقان كما هو الشأن في كتابه المهم عن سكان جزر التروبريان^(٣) وهو كتاب . يقول عنه إيفانز برتشارد أيضاً «إن المايونفسي يرسم لنا لوحة واقعية نابضة بالحياة لمجتمع التروبريان. تعدد إلى الأذهان روليات إميل زولا»^(٤). بل إن بعض أعمال إيفانز برتشارد نفسه وكتابات غيره من العلماء الذين اشتهر عنهم العلاقة بل والمبالغة في التمسك بالمنهج العلمي الوضعي في كتاباتهم والذين يعتبرون الأثنولوجيا تخصصاً (علمياً) بالمعنى الدقيق للكلمة يظهر في كتاباتهم ذلك الميل القوي للقص والحكي بحيث يكاد المرء يشعر في بعض الأحيان أنه أمام عمل روائي شائق وجذاب^(٥).

يعتمد القص أو الحكي في كل من العمل الأثنولوجي والرواية على وجود «حبكة» Plot في كل منها وإن كان ذلك أكثر ظهوراً بطبيعة الحال في العمل الروائي . ولكن بدون هذه «الحبكة» في العمل الأثنولوجي يهبط ذلك العمل إلى مستوى السرد الإثنوجرافي البسيط الساذج الذي يكاد يخلو من التحليل القسام على الفهم والذي يؤدي أيضاً إلى مزيد من الفهم . فالعمل الأثنولوجي الحق يشترط أن تكون فيه نقطة محورية أو موضوع رئيسي تدور حوله كل الوقائع والظواهر التي يتناولها الباحث الأثنولوجي بالدراسة والتحليل بحيث يربط بين كل تلك الوقائع والظواهر والمعلومات ويقدم في ضوءها وبالإشارة إليها صورة متكاملة عن المجتمع الذي يدرسه . وهذه (الحبكة) الأثنولوجية هي التي يهدف العمل الأثنولوجي إلى إبرازها، كما أنها هي التي تتحكم في عملية الوصف والتحليل وإن كانت تظهر في الدراسات الأثنولوجية تحت أسماء مختلفة مثل «التساؤل الرئيسي» أو حتى «الفرض» . ويصرف النظر عن اختلاف التسميات فالفهم هو أن ثمة في العمل الروائي والعمل الأثنولوجي المحكم الدقيق (الموضوعي) نقطة محورية تربط بين أحداث الرواية أو المعلومات الإثنوجرافية التي يقوم الباحث بجمعها من المجتمع موضوع الدراسة ويضمونها بحته^(٦) فالأحداث محكومة إذن بتصور كل من الأثنولوجي والروائي للعمل الذي يقوم بإنجازه، وذلك إذا استثنينا بعض الاتجاهات الحديثة في الرواية من ناحية والعرض الإثنوجرافي السري من ناحية أخرى . وهذا هو ما نقصده حين نقول إن كلاً من الرواية والدراسة الأثنولوجية تحاول تفسير جانب من التجربة الإنسانية أو إعادة تركيب العالم الإنساني وعرضه وتفسيره من وجهة النظر الخاصة بكل منها وضمن الإطار العام الذي يحدده كل منها لنفسه منذ البداية . فالعالم الذي يقيمه الروائي أو الأثنولوجي عالم متمايز وقائم بذاته بحيث نجد الباحث الأثنولوجي الملباني مثلاً يقطع لنفسه في العادة مجتمعاً علياً محدداً ومحدوداً وواضح المعالم ويركز فيه بحته، دون أن يسقط من الاعتبار العلاقات المتبادلة بين هذا «العالم الجزئي الخاص» والعالم الخارجي ككل .

ويهتم الباحث الأثنولوجي بدراسة الواقع المعاش ويسجل الوقائع والظواهر كما يلاحظها بنفسه أو كما يشارك في صنعها، ولكنه في أحيان أخرى يدرس الواقع كما سجلته الوثائق أو المصادر في فترات تاريخية سابقة ويقوم في هذه الحالة بدور المؤرخ ولكن مع اتساع النظرة وشمولها بحيث يلم بكل جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية . ولكن هذا التسجيل للأحداث لا يلبث أن يتحرر من قيود الزمان والمكان المفروضة على تلك الأحداث الجزئية التي يشاهدها ويعاينها بحيث يرتفع البحث إلى مستوى أعلى من التجريد الذي لا يرتبط بشخص معين أو بنظر عدد، وبذلك تكتسب تلك الأحداث أو المعلومات الإثنوجرافية المحسوسة طابعاً عاماً كلياً شاملاً . وهذا هو ما كان يقصده رولان بارت Roland Barthes في الأغلب حين يقول في كتابه

«الكتابة عند درجة الصفر» إن القصة أو الحكاية يقلص التجربة الإنسانية ويركزها في نقطة زمنية ترتفع عن الوجود المحسوس الملموس المتقيد بالعوامل والقيود المادية^(٧). فهو يرتفع إذن عن الأحداث الجزئية المشخصة المعينة ولكنه لا ينفصلها تماماً عن المجتمع الإنساني، فمن الصعب جداً أن يدرك المرء مختلف العلاقات والارتباطات إذا لم يرتفع بتفكيره عن مستوى الوقائع المعينة المحسوسة. وهذا يصدق - في رأينا - على الرواية التي تصني على الواقع المعين المحسوس غلالة أو قناعاً رقيقاً شفافاً من الخيال لإيكاد يخفي ما تحته. فالخيال لا يرتبط بالواقع أو يستمد عناصره منه فحسب، وإنما هو يكشف في الوقت ذاته عن ذلك الواقع ولكن بأسلوب فيه قدر من الذاتية قد لا تتوفر بنفس الدرجة في العمل الأثرولوجي. وإذا كان بول ريكور Paul Ricoeur يقول في معرض حديثه عن الرواية والتاريخ إنه إذا كان التاريخ يوصلنا إلى معرفة الممكن ويفتح أمامنا أبواب هذه المعرفة وبجالاتها، فإن الرواية الخيالية حين تعرض علينا ما هو غير واقعي أو غير حقيقي تكشف لنا في الوقت ذاته عما هو جوهري من ذلك الواقع أو تلك الحقيقة^(٨)، فإن هذا القول يصدق تماماً على العلاقة بين الأثرولوجيا والرواية.

وعلى أي حال، فالذي يمتنا هنا هو أن نقرر أن القصة أو الحكاية هو عنصر أساسي في كل من العمل الروائي والعمل الأثرولوجي الأكاديمي وأن كلاً منهما هو قصة في آخر الأمر وإن كانا يمثلان شكلين متميزين من القصة أو الحكاية على أساس أن لكل منهما طريقته الخاصة في تصوير الواقع وفي اختيار وترتيب العناصر التي تساعد على إبراز هذا التصور، وهذا هو القدر الذاتي في الأثرولوجيا على وجه الخصوص.

ومحاول إيفانز برتشارد أن يبين ذلك القدر، أو الجانب الذاتي (الإبداعي) في الدراسة الأثرولوجية الميدانية فيقول (وأنا أنقل هنا النص الطويل لأهميته).

«يتعين على الأثرولوجي الذي يريد أن يفهم المجتمع البدائي أن يتمثل ذلك المجتمع في نفسه هو ولا يكتفي بتسجيل ظواهره ووقائمه في مذكراته، ولو أن من الصعب أن يستطيع الإنسان أن يفكر ويمس مثلما يفعل الرجل البدائي أو الرجل الأوروبي بحسب الظروف، إن أمكنه أن يكسب تلك القدرة على الإطلاق.

ولكي يتجس الباحث في ذلك لابد أن يكون قادراً على أن ينسى نفسه ويتخل عن مقومات شخصيته بغير تحفظ، كما يكون متمتعاً بقدرة فائقة على التحسس وحين يصل الأمر إلى محاولة معرفة ما إذا كان مثل هذا الباحث يستطيع الوصول بدراسته إلى مستوى من الفهم والإدراك أعمق من مجرد الوصف، فإن أشياء أخرى تدخل في الاعتبار غير مجرد الكفاية العقلية والتدريب الفني اللذين لا يمكنهما وحدهما خلق العالم الأثرولوجي الكفء، كما لا يمكنهما وحدهما أيضاً خلق المؤرخ الماهر. فالتأثير الذي يصل إليها الباحث من دراسة أحد الشعوب البدائية لا تتوقف فقط على انطباعاته الفعلية عن الحياة البدائية، بل تتوقف كذلك على تأثير هذه الحياة في شخصيته كلها، أي في الملاحظ من حيث هو إنسان كامل. ولكن لكي يحقق ذلك النجاح يجب أن يشعر أولاً بالاهتمام والانطواء نحو موضوع دراسته»^(٩).

وقد يعترض بعض الوصفين على هذه النظرة، ولكن الأستاذ إيفانز برتشارد يعطي «للمزاج الملازم أهمية كبرى في نجاح الدراسة الأثرولوجية باعتبارها إحدى الإنسانيةات». «فالأثرولوجي لا ينقل ما يلاحظه نقلاً حقيقياً أميناً، وإنما يحاول أن يبين معنى المظاهر التي يلاحظها، وأن يبرز هذا المعنى بوضوح في ضوء تجاربه

الأخرى. وهذا يقتضي منه القدرة على إدراك وتمييز الصيغ والتأذج، بل وأن يكون على خط معين من التبوخ (صفحة ١٢٥).

ثم يقول بعد ذلك:

«إن كل الأنثروبولوجيين يتفقون على أن جانباً كبيراً من الدراسة الحقلية الأنثروبولوجية يتوقف على نفس الشخص الذي يقوم بها. ولكن هذا يثير السؤال - بحث - عما إذا كان اختلاف شخص الباحث يترتب عليه أي اختلاف في نتائج البحث. وهذا سؤال صعب للغاية، ولكنني أعتقد أن الجواب الصحيح الذي تؤيده كل الدلائل والشواهد هو أنه إن يكون هناك اختلاف جوهري في الحقائق الواقعية التي يقوم الباحثون المختلفون بتسجيلها، وإن كان هذا لا يمتنع بالطبع من وجود بعض الاختلافات الفردية في مستوى الإدراك الحسي» (صفحتا ١٢٥-١٢٦).

ثم يقول مستمراً:

«ولكن إذا كانت الحقائق التي يقوم العلماء المختلفون بملاحظتها وتسجيلها من مجتمع معين بالذات تأتي على درجة عالية من التشابه والاتفاق. فالأغلب أن تأتي كتاباتهم عن هذا المجتمع المعين على درجة كبيرة أيضاً من الاختلاف. إذ رغم خضوعهم جميعاً للقيود التي تفرضها قواعد العلم ذاته وإمكانيات الثقافة التي يدرسونها، فإن تعيين البحث أو الموضوع وانتقاء الوقائع واختيار الأمثلة التوضيحية وترتيبها والحكم على بعض المسائل بأنها تتصل - أو لا تتصل - بالبحث أو الموضوع تتأثر كلها بموامل ذاتية تختلف من باحث لآخر تبعاً لاختلاف شخصياتهم وتفاوت تعليمهم وتباين مركزهم الاجتماعي وأرائهم السياسية ومعتقداتهم الدينية. وغير ذلك.

ولا يستطيع المرء تأويل الأشياء التي يراها إلا في حدود تجربته الخاصة وتكوينه الشخصي. . . . فشخصية الأنثروبولوجي تؤثر بالضرورة في عمله كما تؤثر شخصية المؤرخ في عمله سواء بسواء فالدراسة الأنثروبولوجية الاجتماعية ليست مجرد وصف دقيق أمين للحيلة الاجتماعية في مجتمع معين، وإنما هي في نفس الوقت انعكاس لشخصية صاحبها نفسه» (صفحة ١٢٦-١٢٧).

وواضح من هذا النص الطويل الذي نقلناه بأكمله عملاً أن نتائج الدراسة الأنثروبولوجية (الموضوعية) تتوقف إلى حد كبير على بعض العناصر والموامل الذاتية التي يشير إليها إلفنور برينشارد. فإذا أضفنا ذلك كله إلى ماسبق أن ذكرناه من أن الكتابة الأنثروبولوجية هي شكل من أشكال القص أو الحكى وأنه لا بد من وجود ما يقابل الحكاية الروائية بها، أمكن تقريب ما نتصوره عن الأرض المشتركة بين العمل الروائي والعمل الأنثروبولوجي بوجه عام، وأن هذه الأرض المشتركة أوسع في الحقيقة مما يظنه الكثيرون، وإن الباحث الأنثروبولوجي هو قاص عملاً مثل الكاتب الروائي وإن اختلفت نقطة الانطلاق والمناهج والأساليب وطريقة العرض.

(١)

ربما كان وجود هذه الأرض المشتركة بين العمل الروائي والكتابة الأنثروبولوجية هو أحد الموامل التي شجعت عدداً من الأنثروبولوجيين على ارتداد مجال الرواية والتأليف القصصي وبالتالي ظهور ما نسميه هنا بالرواية الأنثروبولوجية، التي احتل بعضها مكانة طيبة - بل ومرموقة في أحيان قليلة - في فن القص الروائي في التأليف الأدبي بشكل عام.

وهذه الروايات الأنثروبولوجية هي دراسات أنثروبولوجية في المحل الأول، صدرت في الأغلب عن باحثين أو أساتذة ومتخصصين في الأنثروبولوجيا، ولكنهم يملكون إلى جانب الإعداد العلمي الحس الأدبي والفني والقدرة على التخيل الإبداعي اللازم للإنتاج الروائي الراقي، وتسخير هذه القدرات والمواهب لتشكيل معلوماتهم الإثنوجرافية وصياغتها في قالب روائي شائق بحيث تجري الأحداث والوقائع في المجتمعات التي يلصقونها، وهي في الأغلب مجتمعات قبلية (بدائية) - أو كما تقول مؤلفة إحدى هذه الروايات - شعوب (متوحشة (Savage)، وإن كان علماء الأنثروبولوجيا يرفضون الآن استخدام مثل هذه الألفاظ والمصطلحات التي كانت شائعة في القرن الماضي وحتى الثلث الأول من هذا القرن بحيث استخدمها مالفينسكي نفسه في عناوين بعض كتبه^(١٠). وإذا نحن أغفلنا أساءة شخوص هذه الروايات وتقاضينا عن أسلوب الحكيم وعن القصة ذاتها ولجانبا الخيالي فيها، فإن هذه الروايات كلها تصلح لأن تكون مراجع أنثروبولوجية على درجة عالية جداً من الدقة عن المجتمعات والثقافات التي دارت فيها أحداث هذه الروايات، وإن تفاوتت قدرات هؤلاء المؤلفين الأنثروبولوجيين الروائيين بطبيعة الحال في مزج الجانبين معاً، أعني جانب الوقائع الأنثروبولوجية المتخصصة المعينة التي يقوم الباحث الأنثروبولوجي بجمعها من المجتمع (أو من الوثائق والمصادر التاريخية) وجانب الحكاية المتخيلة التي تصاغ حول هذه المعلومات الإثنوجرافية، ويقول آخر فإن الوقائع والظواهر، التي تقوم عليها الرواية الأنثروبولوجية هي مادة إثنوجرافية صحيحة ودقيقة ويمكن الاستشهاد بها في الأحوال العلمية الأكاديمية، وإن كانت الأحداث وتتابعها والشخصيات التي توصف خلالها هذه المعلومات الأنثروبوجرافية أحداث وشخصيات متخيلة وإن كانت عناصرها الأولية مستمدة هي أيضاً من الواقع الإثنوجرافي، أو أنه تم تركيبها من معلومات واقعية وحقيقية. وهذا هو - كما ذكرنا من قبل - القدر من الخيال الإبداعي في تلك الروايات الأنثروبولوجية.

وحضور الباحث نفسه طيلة الوقت في هذه الروايات الأنثروبولوجية - أو معظمها - أمر ملموس وله أهميته ومغزاه. فالباحث المؤلف هو الذي يرى ويلاحظ ويجمع المعلومات ويسجلها كما أنه هو الذي تدور حوله معظم الأحداث أو يشارك فيها بشكل أو بآخر وهو الذي يتولى قصصها وحكايتها حسب خطط تصوري ذهني معين وقلما يتوارى وراء الأحداث. ولذا فإن هذا الباحث الكاتب الأنثروبولوجي الروائي يقوم في معظم الأحيان بلور بطل الرواية أو على الأقل أحد شخصياتها الرئيسية. وقد اتبه رولان بارت إلى هذه الحقيقة ويذهب في ذلك إلى أن الرواية التي يقوم فيها التكلم بلور أساسي أي تكتب بصيغة المتكلم ليست مجرد تجربة أدبية، وإنما هي فعل إنساني عميق ويربط عملية الخلق والإبداع بالتاريخ أو بالوجود^(١١).

ورواية مثل «العودة إلى الضحك Return to Laughter» التي كتبها أستاذة الأنثروبولوجيا في إحدى جامعات أمريكا وهي الدكتورة لورا بوهانان Laura Bohannan وأصدرتها أول الأمر تحت اسم مستعار هو إليونور سميث باون Elenore Smith Bowen دراسة أنثروبولوجية جيدة لنظام ممارسات السحر والشعوذة والمعتقدات التي تدور حولها، وموقف الإنسان (المتوحش) منها وخوفه من السحر ومن العين الشريرة، في ضوء البناء الاجتماعي والثقافي الكلي السائد في ذلك المجتمع القبلي الذي درسته والذي لا تشير إليه صراحة، وإن كان المتخصصون يعرفون أنه مجتمع التيف Tiv في نيجيريا في الخمسينيات. وربما كان إغفال اسم القبيلة عن عمد يوضح لنا ما نعينه حين قلنا إن الكتابة الأنثروبولوجية الروائية تتم (رغم إشاراتها إلى شخصيات

عالم الفكر

وأحداث بعينها) على مستوى من التجريد يلخص التجربة الإنسانية حول (ذلك الموضوع المعين بالفنات . فثمة أوجه شبه كبيرة بين عقائد وعمارسات التيف حول السحر والشعوذة والعين الشريرة وبين كثير مما ورد في كتاب الغصن الذهبي بل وأيضاً موقف ونظرة قبائل الأزاندي مثلاً في الجنوب الغربي من السودان كما يظهر من دراسة إيفانز برتشارد لهذا الموضوع في كتابه القيم «الشعوذة والمتنبشون والسحر عند الأزاندي» Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande .

وقد تتخذ بعض الروايات الأنثروبولوجية شكل اليوميات أو المذكرات أو على الأصح سرد الذكريات مادامت عناصرها الأولية تعتمد على المادة التي تم جمعها أثناء البحث الميداني القائم على المعيشة في المجتمع ومعايشة الأهالي ومشاركتهم في مختلف أوجه النشاط اليومي . وقد يفتقر بعض كتاب هذه «الروايات» إلى فن الصنعة في التأليف الروائي المتناسك المتسق ، ولذا تأتي «روايتهم» أقرب إلى اللوحات الفنية المتفرقة وإن كان يجمعها كلها مع ذلك إطار واحد من وحدة المكان والزمان . وقلما تدور هذه الروايات حول موضوع أو محور خيالي أو متخيل تماماً ، وإنما هي ترتبط بالواقع ارتباطاً شديداً ، سواء أكان هذا الواقع هو الواقع المعاصر أو المعاش أو الواقع التاريخي كما تسجله الوثائق والمراجع والمصادر التاريخية . ولذا نجد بعض الروايات ذات العمق التاريخي والتي تهتم بسرد أحداث ماضية تحيل القارئ إلى بعض الوثائق أو حتى المخطوطات القديمة أو تشهدها بأراء بعض العلماء والمؤرخين اللذين كتبوا عن الوقائع والأحداث التي تناولها هذه الروايات . ويمثل الجانب الإبداعي في هذه الحالة في القدرة على تصنيف المعلومات وتبويبها وترتيبها حسب نسق ذهني متصور قد يختلف كثيراً أو قليلاً عن التسلسل الحقيقي لتلك الأحداث كما وقعت بالفعل وإعطائها أبعاداً غير تلك التي كانت عليها في الحقيقة والواقع . بل قد يذهب بعض الأنثروبولوجيين الروائيين في مثل هذه الحالات إلى أبعد من ذلك بكثير فيضيفون إلى رواياتهم صفحات مطولة من المذكرات والتعليقات والتوضيحات والهوامش والتذييلات كما هو الشأن مثلاً في رواية الأنثروبولوجي الروائي الهندي أميتاب غوش Amitav Ghosh عن «في بلاد عتيقة In an Antique Land» حيث اضطر – كما سنرى فيما بعد – إلى الرجوع إلى المحفوظات والمخطوطات اليهودية التي تعرف باسم (الجنيزة) والتي يوجد معظمها الآن في جامعة كيمبردج . ولم ينس الكاتب أنه باحث أنثروبولوجي ، ولذا فإنه ينظر إلى الرواية ، ليس على أنها عمل من أعمال الخيال الصرف ولكن على أنها تعبير عن علاقة حقيقية وصادقة بين أشخاص الرواية من ناحية وبينه وبين هؤلاء الأشخاص أو تلك الشخصيات من الناحية الأخرى ، وأنه حتى في المواقف التي تتراجع فيها عناصر الحقيقة والواقع فإنه يعين عليه أن يلبس الأمور الخيالية أو المتخيلة ثوب الحقيقة بحيث تبدو الأمور كما لو كانت واقعية أو استمدتها من الواقع بحيلها فمرها .

وعلى أي حال فإن الأعمال الروائية لهؤلاء الكتاب الأنثروبولوجيين الروائيين التي سوف نعرض لبعض منها هنا تكشف عن أنهم يجمعون بين الإعداد العلمي والأكاديمي بكل ما يفرضه ذلك الإعداد من قيود وقواعد ومبادئ منهجية صارمة ، وبين القدرة والموهبة على تصور أحداث يستمدون عناصرها الأولية من الواقع دون أن توجد هي ذاتها برمتها في ذلك الواقع وإن يكن ثمة احتمال لوجودها . فهي بذلك أشباه حقائق Pseudo Racts لو استعرتنا التعبير الذي يستخدمه أيفانز إيفانز لذلك (صفحة ١٣٨) . كذلك تتمثل قدراتهم الإبداعية في تنظيم المادة الأنثروبوجرافية وعرضها في شكل قصصي جذاب ومعكم ، ومع الاهتمام في الوقت ذاته

بالضاميل وحسن الأسلوب ورشاقة العبارة وصباغة الحقائق الواقعية المحسوسة الملموسة في قالب فني جميل، وإن كان بعض هؤلاء الكتاب يقع في خطأ محاولة الوعظ والنصح والإرشاد والدعوة من طرف خفي - ولكنه مفضوح على أية حال - إلى محاسن الأخلاق والقيم الدينية والأخلاقية السامية التي ينبغي للمجتمعات والشعوب التي يدرسونها والتي تدور حولها رواياتهم أن يمتنعوها لأنها قيم المجتمع الغربي الذي يتمي إليه هؤلاء الكتاب.

(٢)

فكرة «العودة إلى الضحك» هي السخرية من كل شيء نظراً لما بين مواقف الحياة المختلفة من تعارض وتباين وتناقض، سواء فيما يتعلق بتقابل الثقافات وتعارضها، أو بتقابل الشخصيات وتصارعها، أو صعوبة التضام حين تعدد أداة التواصل الرئيسية وهي اللغة وحين تختلف المفاهيم التي تكمن وراء اللغة ووراء الثقافة ككل وما ينشأ عن ذلك من توتر أو تنازع الناس من أجل إثبات الوجود والاحتفاظ بالكيان والمكانة والهوية الزائفة، أو تعارض الناس واستعلاهم بعضهم على بعض بسبب اختلاف الألوان وتمايز الأحرار والأصول وتفاوت درجات التعليم وتباين الانتباهات إلى الحضارات والمذنبات. وما ينشأ عن كل هذه الاختلافات من مواقف متناقضة ومن مفارقات كثيراً ما تثير السخرية وتنفذ الأطراف المتصارعة وهي في قمة التوتر إلى إدراك ما في مواقفهم وأوضاعهم من عبث يدعو إلى الضحك. وعلى الرغم من كل ما تمر به المجتمعات الإفريقية (المتوحشة) من ظروف مؤلمة ومن فقر ومرض وأوبئة، فإن الضحك هو الطابع الغالب على حياة الناس، وهو ضحك يشور وينطلق من كل شيء ومن لاشيء، ثم هو ضحك صاخب فيه سداحة وفجاجة وكثيراً ما يكون فيه قسوة بالغة - على الأقل في نظر الإنسان الغربي الغريب عن هذه المجتمعات والثقافات. فليس من الضروري أن يكون الضحك صادراً عن الشعور بالسعادة أو الراحة أو الأمن والأطمئنان، وإنما هو ضحك هستيري أبليه في كثير من الأحيان ولذا ينتشر ويتنقل كالمعلوى من شخص لأخر مثلاً ينتقل وياء الجندري الذي يلعب دوراً هاماً في هذه الرواية.

وربما كانت «العودة إلى الضحك» هي الرواية الوحيدة التي ينص عنوانها على أنها «رواية أنثروبولوجية An Anthropological Novel» كما أنها في الأغلب هي الرواية الوحيدة التي تصدر إحدى طبعاتها عن مؤسسة علمية عظمى لها مكانتها بالنسبة لعلوم الإنسان وهي «المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي the American Museum of natural History» إذ يشرف على إصدارها ضمن مجموعته المعروفة باسم «مكتبة التاريخ الطبيعي the Natural History Library» كما يكتب لها مقدمة أحد كبار علماء العلوم الاجتماعية وهو الأستاذ ديفيد ريسان David Riesman الذي كان يشغل كرسي هنري فورد للعلم الاجتماعي بجامعة هارفارد ويؤلف واحد من أهم وأشهر كتب علم الاجتماع وهو كتاب the Lonely Crowd.

وقد ظهرت الرواية عام ١٩٥٣ حين كانت لورايوهانان تدرس مع زوجها بول بوهانان الأنثروبولوجيا في جامعة أكسفورد، وأتيح لي معرفتها عن كتب أثناء دراستي هناك وتعتبر «العودة إلى الضحك» من أكثر الروايات الأنثروبولوجية نضجاً وانتشاراً حتى بين الأنثروبولوجيين المتخصصين نظراً لذلك القدر الهائل من المعلومات الإثنوجرافية عن المجتمع وعن الناس والأحداث والظواهر الاجتماعية والثقافية المحلية، وذلك

فضلاً عن وجود حبكة روائية أو موضوع محوري يعتبر من أهم موضوعات الأنثروبولوجيا، وهو الخوف الشديد من السحر والعين الشريرة اللذين يسيطران على حياة الناس هناك، بعكس المجتمع الغربي الحديث، ثم للاقتناع البالغ في القصة والحكي والأسلوب الأدبي الرفيع الجلاب. وربما كان لصله لورا بوهانان وزوجها بالكتاب الأمريكي السنجي الشهير ريتشارد وايت Richard Wright صاحب اثنين من أهم الروايات عن زنوج أمريكا وهما رواية ابن البلد Native Son ورواية الفتى الأسود the Black Boy دخل كبير في صقل مواهبها الفنية الأصيلة وشهد قدراتها على الكتابة الأدبية وعلى التحليل في الخيال الأدبي وإتقان الصنعة إلى حد غير مألوف في معظم الروايات الأنثروبولوجية.

ولقد عاشت لورا بوهانان بين التيف جانباً كبيراً من الفترة بين عامي ١٩٤٩، ١٩٥٣ كما تجري بحوثها الميدانية المركزة، تبعاً للتقاليد الأنثروبولوجية الرصينة التي تتمسك بها المدرسة البريطانية في الأنثروبولوجيا. ووراء هذه الإقامة الطويلة للعمل الميداني - والتي لا تقل عن ستة بأي حال - حكمة بالغة بغير شك، وهي إتاحة الفرصة أمام الباحث الأنثروبولوجي الغربي للتعلم في فهم المجتمع والثقافة موضوع الدراسة، وذلك عن طريق الاتصال المباشر والملاحظة والمعايشة والمشاركة في مختلف أوجه النشاط اليومي، وتوطيد العلاقات الحميمة بينه وبين أعضاء المجتمع المحلي بحيث يتقبلون إقامته بينهم كمضو في مجتمعهم. والإحاطة الشاملة العميقة بأحوال وظروف المجتمع ونظمه وثقافته وعاداته وأساطيره وأوهامه وتحيلاته وآماله ونظرتهم إلى ذاته وإلى الآخرين هي التي تساعد الباحث الأنثروبولوجي على إنجاز دراسته التفصيلية التي تعطي صورة متكاملة عن ذلك المجتمع، كما أنها هي التي تتيج له الفرصة إذا كانت لديه الموهبة الأدبية والفنية الخلاقة وكانت تتوفر لديه في الوقت ذاته الرغبة والإرادة لاستغلال هذه الموهبة في صياغة عمل أدبي فني من هذه المعلومات أو بعضها يقدم لنا فيه صورة جديدة لذلك المجتمع أو بعض أحواله وشخصه تجمع بين الحقيقة والخيال. ومن هنا يمكن اعتبار الرواية الأنثروبولوجية - بهذا المعنى - امتداداً بلى واستمراً واتصالاً للكتابة الأنثروبولوجية العملية الدقيقة، أو هي صورة أخرى من الكتابة الأنثروبولوجية بعد تغليف الظواهر والحقائق الاجتماعية والثقافية بنسلاف رقيق من الخيال لا يخفي حقيقة تلك الوقائع وبذلك تكون الرواية الأنثروبولوجية - من زاوية معينة - وسيلة للتعريف بذلك المجتمع أو تلك الثقافة.

وفي المقدمة التي كتبها ديفيد ريسان للرواية يقول إن عدداً كبيراً من العلماء الاجتماعيين هم في الحقيقة كتاب روايات دون أن يدروا، كما أن عدداً كبيراً من الروائيين يلتصقون بالتصاق وثيقاً بالوثائق والمستندات بحيث يكادون يصبحون - هم وقراءهم - عبيداً لتلك الوثائق والمستندات، ويحرص هؤلاء الروائيون على أن يملأوا رواياتهم بكثير جداً من التفاصيل المتداخلة المتشابكة مثلما يفعل العلماء الأكاديميون تماماً، ويعترف بأن «العودة إلى الضحك» كتاب يأخذ شكل الرواية وأن شخصياتها - كما تقول الكاتبة نفسها - تم تركيبها بمعرفتها هي، أي أنها لا توجد في واقع الحياة على تلك الصورة التي تبرزها في الرواية، كما أن أحداثها ووقائعها يمكن أيضاً تصويرها من خلال المخيلة التي اعتمدت رغم ذلك على المذكرات واليوميات الخاصة بالدراسة الميدانية - (١٧). كذلك يلاحظ - ريسان أن هذا الكتاب - من حيث هو رواية - يشير بشيء من الرقة والرفق إلى أسلوب الحكم غير المباشر الذي كان يعتمد عليه الإنجليز في إدارة مستعمراتهم، ولذا فإنه يعتبرها من الروايات الاستعمارية، وأنه إذا كانت لورا بوهانان ركزت على نيجيريا وغرب إفريقيا بدرجة أقل من

تركيزها على ذاتها وعلى مشاعرها ووجداناتها وآرائها الخاصة ونظرتها الذاتية إلى المجتمع الذي درسته فإن هذا الموقف هو الذي يمثل الجانب الإنشائي الحقيقي في هذا العمل الأنثروبولوجي الروائي خاصة وأنه نابع من التجربة الذاتية القاسية التي مرت بها في أول عهد لها بذلك المجتمع ، وهي تجربة يمر بها على أية حال كل الباحثين الأنثروبولوجيين حين ينزلون إلى مجتمع غريب للإقامة فيه ودراسة عن قرب . وسوف نرى كيف أن أميتاب غوش مر بتجربة مماثلة إلى حد كبير حين جاء إلى مصر ليدرس بعض المجتمعات القروية المحلية ويتابع تاريخ بعض اليهود الذين عاشوا في مصر في القرن الثاني عشر وتركوا وراءهم بعض رسائلهم التي تم العثور عليها ضمن مخطوطات وثائق الجيزة .

والواقع أن كثيراً من مواقف «العودة إلى الضحك» تفضح نوايا وأفكار ومشاعر الكاتبة إزاء المجتمع الذي تدور فيه أحداث الرواية ، وهي مشاعر لا تخلو من الإحساس بالاستعلاء وازدراء الأفاقة الذين عاشت بينهم والذين تفتقر أصول البحث الأنثروبولوجي التعاطف معهم وإقامة تلك العلاقة الحميمة Rapport التي يعطيها المنهج الأنثروبولوجي أهمية قصوى لنجاح الدراسة والتغلغل إلى أعماق المجتمع والثقافة .

يظهر هذا الشعور بالاستعلاء في أكثر من موقف . . . فالذين يعرفون المجتمع القبلي في إفريقيا يدركون تماماً أنه بمجرد أن تتقبل إحدى الجماعات القبلية الشخص الغريب بينهم بعد أن تزول الشكوك والتحفظات الأولى إزاءه يسقطون كل الحواجز الاجتماعية وكل مظاهر الكلفة في المعاملات اليومية معه باعتباره أصبح عضواً في تلك الجماعة ، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب «الخصوصية» والفردية والحرية الشخصية التي يحرص الإنسان الغربي عليها أشد الحرص . فليس لدى معظم هذه الجماعات القبلية ما يمكن اعتباره حياة شخصية أو شئونها خاصة بالمعنى الدقيق للكلمة ؟ كما أن فكرة الانعزال عن الجماعة والرضا في الاختلاء بالنفس أو الانفراد بالذات أمور غير واردة أصلاً . وقد عانت لورا بوهانان - كما عانى غيرها من الأنثروبولوجيين الآخرين - من ذلك أشد المعاناة ، وإن اختلفت استجاباتهم باختلاف شخصياتهم . ولكنها هي لم تستطع أبداً أن تتقبل هذه الحقائق على أنها جزء من ثقافة المجتمع الذي تدرسه وتحاول فهمه . وربما كان من أهم مظاهر - وفي الوقت ذاته دلائل ومؤشرات - انعدام فكرة الخصوصية لديهم هو عدم وجود أبواب للأكواخ يمكن إغلاقها بإحكام بحيث يعزل من في داخل الكوخ تماماً عما في الخارج ، وإنما كل ما يغطي مدخل الكوخ هو ساتر رفيع خفيف يمكن لإزاحته بسهولة . وقد يكون ذلك رمزاً أيضاً على قوة العلاقات الاجتماعية أو الحياة الجماعية على حساب الحرية الفردية . ويقول هذا الوضع يعني في آخر الأمر تنازل الباحث الأنثروبولوجي - ولو مؤقتاً - عن جانب من قيمه الأساسية وأبناط السلوك التي اعتاد عليها في مجتمعه الأصلي وأساليب التفكير التي نشأ عليها وإن كان يشير في الوقت ذاته إلى توحده مع للمجتمع القبلي ، أو على الأقل لثقافته فيه .

ويدور أن لورا بوهانان ، على الأقل كما يظهر من الرواية - لم تغلح في تحقيق ذلك الاندماج على الرغم من أنه من المطالب الأساسية للعمل الأنثروبولوجي الميداني . ويكتفي أن نشر هنا إلى حادثة واحدة ذكرتها في الرواية ، وتدور حول سلوك أهل القرية إزاء شخص أعمى ووجود الفعل التي كانت تصدر منه إزاء ذلك السلوك فقد شامت ذات مرة عدداً كبيراً من الأهالي يلتصقون حول ذلك الرجل الفقير الضعيف وهم يتجادلون في كل الاتجاهات ويضحكون من حركاته ويثيرون في نفسه الرعب والفرع بأن يجذروه مثلاً بأن تحت قدميه أفعى فيقفز إلى أعلى في رعب وعدم اتزان وخوف واهلج . كانت تثير في نفسها الأسى والإفصاق بينما تثير في

عالم الفكر

فإنهم البهجة والسرور والضحك، ووجدت نفسها تترن وتغضب لضحك الأهلالي من ذلك الجوس البشري والتعاسة الأكسية وأخذت تقارن بين قسوة هؤلاء (المخوشين) وبين الشفقة والرأفة. والخنو التي يأخذ الغريون بها أنفسهم إزاء (الحيوان).

إلا أن لورا بوهانان كانت تترك مع ذلك طبيعة الدور الذي يقوم به الأنثروبولوجي، إلا الذي ينبغي أن يقوم به في الدراسة الأنثروبولوجية العلمية - وليس الرواية، وتناولت ذلك في الفصل الرابع عشر من الرواية حيث تتكلم عن التمزق النفسي الذي يعانيه الباحث الأنثروبولوجي في بعض المواقف حين يصعب عليه الملاءمة والتوفيق بين متطلبات النظرية الموضوعية وبين عواطفه وجداناته الخاصة، وعرضت لبعض المواقف التي لعب الخيال الإبداعي والأسلوب الرشيق دوراً كبيراً فيها، كما هو الحال مثلاً في وصفها لمشهد احتضار إحدى صديقاتها من الأهلالي واسمها (أمارا) وكانت حاملاً وعلى وشك الوضع حين جاءه الموت، وتقول في ذلك: «لقد وقفت عند رأس أمارا، وحاولت هي أن تبسم لي ولكنها كانت أضغف من أن تفعل ذلك بسبب شدة المرض. وكنت على ثقة من أن هؤلاء النسوة لن يستطعن مساعدتها وأنها سوف تموت ولابد. لقد كانت صديقتي. ومع ذلك فإن كل ما سجلته عنها في مذكراتي لم يتعد بعض ملاحظات لا شخصية وبمحايدة كتبها بسرعة في كراسي، وبذلك ظلت عمقولة في أرشيف الأنثروبولوجي، وتقول هذه الكلمات: الموت أثناء الوضع/ السبب: الشعوة/ حالة أمارا (صفحة ١٨٤).

وتلخص لورا بوهانان حالة التمزق هذه التي يعاني منها الأنثروبولوجي حين يدرس مجتمعاً له ثقافة مغايرة تماماً للثقافة لمجتمعهم هو فتقول:

«لقد جئت من عالم غير هذا العالم لكي أعيش فيه، وهما علان مختلفان كل الاختلاف وبكل المقاييس بحيث يستحيل اللقاء والتضاهي في كثير من الأحيان. وقد ترتب على ذلك، وكذلك بسبب عملي ومهنتي، أنه كان يتحتم علي أحياناً أن أنظر بقبول ما يحدث بينا الحقيقة غير ذلك. إذ لن يستطيع الباحث أن يقوم بدراسته الميدانية إذا هو صارح الشخص الذي يعتقد نفسه ساحراً أن من المستحيل أن يحول المرء نفسه إلى حيوان. . . . فأني تشكك في أن مثل هذه المعتقدات هي موضع سخرية (من الباحث) سوف تدفع ذلك الشخص إلى الصمت، تماماً وإلى الأبد» (صفحة ٢٣).

«العودة إلى الضحك» في ظاهرها تسجيل لرحلة باحثة أنثروبولوجية أمريكية ناشئة وتجربتها الأولى وانطباعاتها المبدئية عن المجتمع الذي تدرسه، وفي هذه الرواية أو هذا (التسجيل) تمزج ذكرياتها وملاحظاتاتها بتعلمه على أيدي أساتذتها في أكسفورد عن قواعد المنهج الأنثروبولوجي وأصول البحث الميداني، وتخلط هذا بإحساساتها وانفعالاتها وآرائها الخاصة ثم تترجم ذلك إلى مجموعة من الأحداث التي تقع لعدد من أعضاء ذلك المجتمع وتعتبر عن ذلك في عبارات رشيقة وأسلوب شائق على مراعاة أن تكون هذه الأحداث والشخصيات مستمدة - على ما تقول - من الخبرة الواقعية وأن يربطها كلها خيط واحد أو على الأصح موضوع واحد من أهم موضوعات الأنثروبولوجيا وهو السحر والشعوة والخوف من العين الشريرة، وكيف يؤثر هذا الثلاثي في حياة الناس بحيث يتخللون منها أساساً لتفسير كل ما يلحق بهم من أذى وضرب، وهذا كله من وجهة نظر الباحثة الأمريكية، أي من وجهة نظر ثقافة أخرى مختلفة تقوم

على أسس ومبادئ عقلية مغايرة تماماً لتلك التي تسود في ذلك المجتمع الإفريقي الذي يوصف بأنه مجتمع متوحش. ولابد إزاء هذا كله أن يتوقع القارئ أن يسيطر على أحداث الرواية جو من التشاؤم والغموض ورائحة الموت والمرض والأوبئة، ولكن أثناء ذلك تقوم بعض المفارقات الغريبة التي تدعو إلى الضحك المستيري الخالي من المعنى في كثير من الأحيان.

من خلال هذا المناخ الغامض الغريب تحاول الكاتبة أن تعبر عن نظرتها الخاصة إلى الفوارق بين الحضارة الغربية والأمريكية من ناحية، وهي الحضارة التي تقوم على التفكير العقلاني العلمي الوضعي، وبين الثقافة الإفريقية التقليدية التي يغلب عليها التفكير الغيبي بكل ما يتعلق به من أوهام وخرافات. . . فحين تمرض أمارا أو تواجه الموت مثلاً تحاول الباحثة نقلها إلى المستشفى في المدينة بينما يرفض الجميع ذلك، ويرون أن مرضها ناتج عن السحر والعين الشريرة ويوصلون في طلب ساحر يفك الطلسم ويقدم العلاج. . . وحين تموت أمارا يردون ذلك إلى أن سحر العين الشريرة كان أقوى من سحر الساحر المطلبب المعالج. . . وحين يتشر وباء الجدري أو (الماء) كما يسمونه، يفرون أمامه من مكان لآخر خشية أن تصيبهم اللعنة التي جاءت من العين الشريرة، ويعتقدون أن عدم خوف الباحثة الأمريكية من المرض لا يرجع إلى أنها سبق تحصينها بالتطعيم ضد المرض منذ صغرها، ولكن لأنها ساحرة، ذات قوة فعالة ونافذة. . . وحين تهاجم أسراب البوم القرية يرون في ذلك نذر الشر والموت والحرب بينما ترى الباحثة أن البوم هي مجرد طيور كغيرها من الطيور وأنه يمكن إخماتها وطردها بعيداً عن القرية، وحين تغلب بالفعل في ذلك باللجوء إلى حيلة بسيطة وسهلة بل وساذجة كانت تلجأ إليها وهي طفلة لطرد الطيور بإصدار بعض الأصوات العالية من قطع من المعدن (الصفائح) التي تعلق بفروع الأشجار، كان الناس يردون ذلك إلى قوة وفعالية تأثير سحرها ويرفعونها بذلك إلى مصاف كبار السحرة والمشعوذين، وهكذا.

وسط هذا الجو المشحون بالتشاؤم والسواد ورائحة الموت ومظاهر البؤس والفاقة تقوم أحداث ومواقف وعلاقات تبعث الضحك المالح الصاخب الذي لا يتخلو في بعض الأحيان من قسوة. . . ففي ليلة مطيرة عاصفة - مثلاً - هاجت الأبقار في القرية وخرجت من حظائرها المكشوفة واقتحم بعضها أكواخ الأهالي للاحتباء. واستيقظت الباحثة من نومها على أنفاس بقرة تلفح وجهها وقد دست رأسها داخل (الناموسية) التي تغطي فراشها. ولكنها سمعت في الوقت ذاته هرجاء شديداً في القرية فخرجت تستطلع الأمر، ووجدت جمعاً غفيراً من الأهالي يقفون حول أحد الأكواخ وهم يتصايحون ويصرخون ويضحكون في آن واحد. وعرفت أن بقرة أحد شيوخ القرية اقتحمت أحد الأكواخ، ولكن مدخل الكوخ كان أضيق من أن يسمح لجسمها بالمرور، (وانحسرت) في المدخل لاستطيع الدخول أو الخروج والأهالي يسحبونها إلى الخارج من ذيلها وهي تقاوم بشدة. ولكن المفارقة القاسية في الموقف هي أن البقرة اقتحمت ذلك الكوخ في الوقت غير المناسب، فقد كانت الزوجة تستغل في الكوخ عشيقها فقطعت البقرة على العاشقين خلوتها وإساءهما العاطفي والجنسي. وبينما كان الزوج المخدوع الذي خرج على الأصوات من كوخ إحدى زوجاته الأخريات يهدد بقتل العشيق ويرفع سلاحه استمداً لقتله، كان صاحب البقرة يصرخ ويولول خشية أن يصيب السلاح بقرته بدلاً من العشيق أو الزوجة الخائنة، وبينما كان بقية الجموع يتضاحكون ويتصايحون ويشدون ذيل البقرة وهي تقاوم وترفس، كان العاشقان يرتجفان من الخوف ومن الفضيحة لاكتشاف أمرهما بهذا الشكل البالغ القسوة،

وكانت الباحثة ذاتها تعجب لتصاريف القدر التي تجعل من مصائب بعض الناس مصدر مرح وتندر وابتهاج للآخرين، وتتساءل لماذا إذا كان من نصيب المرء أن يقامي ألا يسمح له القدر بأن يقامي بطريقة أساسية محترمة بدلا من هذه الطريقة المهزلة التي تزيد من قسوة المأساة.

بطلة رواية «العودة إلى الضحك» هي الكاتبة الباحثة ذاتها، وبذلك جاءت الرواية في صيغة المتكلم، شأنها في ذلك شأن معظم الروايات الأثربولوجية، وتجري أحداث الرواية في مجتمع غلي إفريقي متخلف أيام سيطرة الاستعمار البريطاني، وبالذات في أوغندا الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، وهي فترة شاهدة بواحد احتضار ذلك الاستعمار وتراجعه.

حين تصل الباحثة بطلة الرواية بالطائرة إلى عاصمة الإقليم يقابلها الحاكم الإداري للمنطقة، وهو نموذج للشخصية الإنجليزية الاستعمارية التي تجمع بين الفطرسية والحفظ والقدرة العملية على التصرف بسرعة وبرود وحزم، فيزود الباحثة بنصائحه ويختار لها من بين الأهالي الذين جاءوا لاستقبال الطائرة الأشخاص الذين سوف يتولون خدمتها ومعاونتها أثناء فترة الدراسة، ثم يقدم لها سائق السيارة التي سوف تنقلها بأمتعتها وحياتهامها وخدمتها إلى القرية التي اختارها لها لأنه يعرف زعيمها القبلي، ولم يستغرق ذلك كله سوى وقت قصير. ثم يتركها لشأنها وينصرف لعمله. وتطلق السيارة المهالكة بالباحثة عبر الغابات والمستنقعات مع الخدم والمساعدين، ولم يكن فيهم من يعرف الإنجليزية سوى واحد يعرف كلمات قليلة متفرقة. وتصل السيارة إلى القرية، ويقام خيمتها، ويأتي من يعلن وصول الزعيم كاكو Kaku لزيارتها والترحيب بها، ويصل موكب الزعيم الذي يضم مجموعة من الشيوخ شبه العراة إلا من دثار يتنبدل من أحد الكتفين كما يضم بعض النسوة اللاتي يحملن شيئا من الطعام ودجاجتين وصبيا صغير الحجم يحمل كرسيًا أكبر من جسمه ليجلس عليه الزعيم بينما يجلس الجميع على الأرض. ولم تكن هناك وسيلة للتفاهم والتواصل سوى تبادل الإبتسامات وفجأة ينهض الزعيم ورجاله ويتصرفون بنفس الطريقة التي جاءوا بها، ولكن بعد أن أفهمها بالإشارات وبعض الكلمات المتفرقة أنه سوف يهيئ لها كوخاً خاصاً بالقرب من مساكنه حتى تكون تحت رعايته وفي حمايته وكان هذا اللقاء أول فرصة لظهور التعارض والتفاوت والاختلاف ومن بعدها الصدام والصراع لأن الفتاة الأمريكية الصغيرة لم تكن مستعدة لأن تكون تحت وصاية أو حماية زعيم إفريقي متخلف.

ولا تخرج أحداث الرواية بعد ذلك عن محاولات الفتاة الباحثة ارتياد أكبر قدر من الأماكن والتعرف على أكبر عدد من الأهالي وجمع أكبر كمية من المعلومات الإثنوجرافية عن أكبر عدد من الموضوعات، وبخاصة المعتقدات المتعلقة بالمعالم الغيبية، ثم محاولات الزعيم كاكو السيطرة عليها وإخضاعها لإشرافه وحجبها عن الناس بحيث يكون هو حلقة الوصل والاتصال الوحيدة بينها وبين المجتمع ومحاولات الفتاة التخلص منه ومن سطوته وسلطته (الأبوية) وفي إطار هذا الصراع بين الشخصيتين اللتين تمثلان ثقافتين متباينتين كل التباين تعرض الفتاة الباحثة لعدد من الشخصيات الأخرى اللذين يمثلون نماذج بشرية مختلفة والذين ارتبطت بهم بروابط قوية لم تكن تتخلو مع ذلك من الشعور بالاستعلاء والازدراء والترفع عن كثير من تصرفاتهم وقيمهم.

كانت هناك مثلاً الفتاة أتاكيا Atakapa ابنة يابو Yabo ، وهما يمثلان شخصيتين متناقضتين تماماً ، فالأب بسيط اللسان لاذع السخرية وشديد الامتهان للأخريين بما يفهم الزعيم كاكو نفسه ، وبذلك فهو يمثل الشخصية الكريمة المكروهة المنبوذة من الجميع مما جعله يعيش في شبه عزلة ، وانعكس ذلك في إهماله لنفسه وبيته الذي كان بذلك أقدر بيت في القرية القذرة ، واتهمه الناس لعزلته وقسوته ومخبرته بممارسة السحر والشعوذة والعين الشريرة ، وزاد ذلك من خوف الجميع منه وابتعادهم عنه ، كما كانوا ينسبون إليه كل الشرور والأذى والمصائب التي تحمل بهم وبالقرية . وعلى العكس من ذلك كانت أتاكيا ذات شخصية مرحة ومنطقية ومتحررة من قيود المجتمع القبلي وثائرة على أبيها نفسه وعلى كثير من التقاليد وبخاصة فيما يتعلق بحياتها العاطفية والجنسية بحيث إنها خرجت من تقاليد المجتمع وهربت مع الرجل الذي أحبه وتزوجته رغم معارضة الأب . وهذه الروح المتحررة الطليقة هي التي جعلتها قريبة إلى قلب الفتاة الأمريكية .

وكانت هناك أمارا Amara ابنة عم أتاكيا ، وقد ذهبت الفتاة الأمريكية بطلة الرواية لزيارتها في مرضها وكانت ذات شخصية رقيقة وناعمة وودعة بحيث تصفها الفتاة الأمريكية بأنها ألطف إنسان قابلته في إفريقيا خاصة وأنها كانت دائماً تراضي مشاعر الآخرين ، وهو أمر كان يبدو غريباً في نظر الفتاة الأمريكية باعتبارها سلوكاً مهلباً وراقياً وضرباً مألوف بين الأفارقة ، أو حسب تعبيرها : «إنه أمر نادر الحدوث في ذلك العالم» وكانت أمارا حاملاً في ثلاثة شهور حين أصيبت بمرض عضال كان من شأنه أن تضخم الثديان بدرجة كبيرة جداً بحيث كانا يتدليان إلى ما تحت الحصر . وكان الجميع يدركون أن ذلك المرض سوف يؤدي بحيلة الأم والجنين معاً ، لذا قرر الزوج أن يرسلها إلى بيت عمها يابو حيث تتلقى عناية السحر والطب الشعبي ، وإن كان هناك من الناس من اتهموا يابو نفسه بأنه كان السبب في مرض أمارا وموتها وأنه هو الذي استخدم السحر والعين الشريرة لإيذائها .

كل ذلك كانت هناك أحداث ذات أثر بالغ وخطير في حياة المجتمع ، ولكن ربما كان أهم هذه الأحداث هو انتشار وباء الجدري الذي فلك بالناس ودفعهم إلى الحروب فراراً من اللعنة دون أن يدركوا أنهم يساعدون بذلك على انتشار الوباء في مناطق أوسع وبين عدد أكبر من الناس ، ولكنهم كانوا يعتقدون أن المرض لم يكن ليتشر على هذا النطاق الواسع إلا بفعل السحر الأسود وأنه لن ينحسر إلا إذا تم العثور على صاحب هذه العين الشريرة ووقع عليه العقاب .

فالسحر الأسود كان أكبر مصدر للرعب والفرع . ولكن السحرة مع ذلك كانوا مجرد أشخاص من عامة الناس . وكان لابد لكل شخص أن يصارع من أجل البقاء والحياة . وهناك قدر من القلق والشعور بالخطر وعدم الأمان في كل المجتمعات . وقد يجئ إلينا أن من السهل أن تتقبل الزيجة على يد القدر أو قهره . أما حين يعتقد المرء أن الخطر يأتي من غيره من بني البشر فلن يكون ثمة مفر من العمل على هزيمة هؤلاء الآخرين . ومن هنا لا ينبغي للمرء أن يفقد الأمل . ولقد ساعدتني غيالي المتعبة المكسوة على أن أتبين وأدرك أن سيطرة السحرة ، إنما تأتي من سيطرة الرعب .

وحين وصلت إلى هذه النتيجة أحسست بالراحة والإطمئنان (ص ١٦٧) .

وكان لابد من العثور على شخص يمكن أن يعتبر مسؤولاً عن هذه اللعنة . ولم يكن هناك من هو أفضل

عالم الفكر

من بابو الذي يسخر منهم ويتعبد عنهم في غير قليل من التعالي والاعتداد بالنفس دون أن يتم بأن يرفع عن نفسه التهمة . بل لعله كان رغباً في أن يؤمن الناس بأن له ميزة القدرة على الإلقاء .

وعلى الرغم من موقف المجتمع من بابو لم تمتنع الفتاة الأمريكية عن زيارته ، وهذا في حد ذاته يكشف عن روح التحدي والرفقة في تأكيد الاستقلال الشخصي عن كاكو زعيم القبيلة . وزادت هذه العلاقة يبابو من شكوك الأهالي حول ممارستها للسحر ، وقابلت هذا الموقف منهم بنفس السلوك الذي اتخذه يبابو من المجتمع والذي تعترف هي ذاتها بأنه كان سلوكاً خاطئاً : «لقد لجأت مثل يبابو إلى نوع من العزلة والانطواء الداخلي والاستعلاء على العالم الفضي ، وإذن فلتترك الناس يخافوني ويخشوني» وإن كانت تعترف في الوقت ذاته بأن هذا الموقف كان له بعض الفائدة لأنه ساعدها من جهة أخرى على إنجاز بعض الأعمال وعلى الاختلاء بنفسها حين تريد وأنه «طالما لم يكن هناك ما يعرفني عن العمل فلن أهتم بشيء» . لقد تجاوزت حد الضحك (صفحة ٢٥) . ولم يكن في استطاعتها على أي حال الابتعاد عن يبابو لأنها كانت في حاجة إليه «من الناحية المهنية البحتة» لأنه كان مصدراً جيداً للمعلومات ، كما كانت تعتقد أن من الجين بل ومن النالقة التخلي عنه في الوقت الذي يتعرض فيه لهجوم الناس .

وإزداد وضع الفتاة في المجتمع سوءاً حين قبلت من يبابو هدية من اللحم ذات يوم بعد أن كانت قد سمعت من أكل الدجاج . وتبته حينذاك إلى أن الناس يعتقدون أن الساحر لا يأكل لحم البشر وأنها ما دامت قبلت منه تلك الهدية من اللحم فهي إذن ساحرة وتعين عليها رد الهدية بمثلها وأنه لن ينسى لها ذلك إلا عن طريق أحد الضحايا الأدمية . والغريب أنها اتخذت إزاء هذا الاعتقاد نفس الموقف وفضلت أن يظن الناس على اعتقادهم في ممارستها للسحر «جزاء لهم على سوء ظنهم» .

ثم جاء اليوم الذي هاجمت فيه أسراب اليوم القرية وسكنت أعالي الأشجار وتصدر صرخاتها المربعة أثناء الليل التي تحمل نذر الموت والحرب . وكان الناس يعتقدون أن تلك اليومات ليست سوى ساحرات يتأدين الساحرة الأمريكية لكي تقدم لها طعاماً من اللحم الأدمي . حتى كانت الليلة التي ضاقت هي ذاتها بنصيب اليوم وداخلها إحساس شديد بالخوف والشوم يتسرب إلى قلبها وقلوب الخدم . وأرادت أن تتجاهل ذلك النعيب وتلجأ إلى فراشها وقد صممت على النوم ولكنها لم تفلح ، فلم تكن تدري «أن التصميم هو أعلى أعداء النوم والنعاس» واستسلمت رغباً عنها للخوف واستقرت إحدى اليومات على شجرة المانجو الوحيدة القائمة أمام كوخها وهي تصرخ بصوتها المائل المخيف كما هي كانت تتلذذها . ووجدت نفسها تخرج إلى الشجرة وتصرخ في هيسرية «ابتعدي . . . أنا لا أدن لك بشيء ولا بأي لحم . . . أنا لم أكل أحداً من أقاربك فأرحلي عني» والغريب أن اليومة طارت وابتعدت . وفي الصباح جاء رجالها وأخبروها صراحة أنهم يعرفون تماماً أنها ساحرة ، ولكنهم يعتقدون أيضاً أنها سوف تستخدم سحرها لحمايتهم . ومادامت أفلحت في طرد اليومة عن بيتها فيجب أن تقتنع كاكو الزعيم ويابو الساحر بأن يعيد اليوم كله عن القرية . وأحست أن عليها أن تحقق انتصاراً آخر في هذا المجال حتى يتوقف كاكو عن الإساءة إليها والتحرير عليها . ولجأت إلى تلك الحيلة التي تعلمتها منذ الصغر لإبعاد الطيور عن طريق وضع قطع المعدن الرفيع بين أفرع الشجر حتى إذا هزت الرياح الشجرة صدرت الأصوات وأقزعت الطيور ونجحت الحيلة ، وفي الصباح حين كانت قطع المعدن تعكس أشعة الشمس الباهرة كان الأهالي يعتقدون أن ذلك هو ضوء السحر ، وأنه ليس من المستغرب أن ما يسمعون به بالليل يمكن رؤيته بالنهار .

ثم جاءت النهاية المأساوية حين وفد إلى القرية أحد المرضى من حاملي الجندري فأشاع فيها الخوف والكرهية ومما من أكبر أعداء الإنسان والإنسانية . ومع عدم خشيتها من انتشار المرض إليها فإنها تحاذلت عن زيارة الرجل المريض المبوذ وابتعدت عنه وتركته مثلهم لوحده ومرضه ولكنها كانت تدرك طيلة الوقت أنها تنتكر هذا السلوك للقيم الإنسانية الرفيعة التي نشأت عليها في ثقافتها الغربية الراقية التي تنادي بضرورة مساعدتهم لمحتاج . ولكن ليس هناك على أية حال ما هو أقوى من الخوف .

وعلى الرغم من أن هذه الصور المختلفة تستمد عناصرها من المجتمع الإقليمي المحلي ومن التجربة الذاتية الواقعية فإن الخيال الإبداعي هو الذي أعاد صياغتها وتركيبها في شكل رواية متماسكة . . . ولكن المعلومات الإثنوجرافية التي تضمها هذه الرواية من الحياة في القرية وعن النظم الاقتصادية والاجتماعية وتوازن العلاقات والخوف من السحر وعن المعتقدات الغيبية التي تسيطر على أذهان الأهالي ومقارنته ذلك كله بالتفكير العلمي العقلاني السائد في المجتمع الغربي، كل ذلك يجعل من هذه الرواية مرجعاً إثنوجرافياً هاماً، بحيث إن بعض الجامعات قامت بتدريسه لطلاب الأنثروبولوجيا في مراحل دراستهم الأولى .

(٣)

رواية أميتاب غوش Amitap ghosh «في بلاد عتيقة وعريقة»^(١٣) تختلف اختلافاً جذرياً عن «العودة إلى الضحك» سواء في بناء العمل الروائي ذاته أو في زمن الأحداث أو مكانها . فبينما تجري كل أحداث «العودة إلى الضحك» في مجمع قروي بدائي محدد المساحة وتم كلها في فترة زمنية محدودة لاتتعدى المرحلة الأولى من فترة الدراسة الميدانية ، تغطي رواية «في بلاد عتيقة وعريقة» مساحات واسعة جداً من المكان والزمان . . . المكان هو مصر برمتها واتساعها ، بل إن جانباً من الأحداث يقع في اليمن وبعض بلاد الشرق الأقصى كلها بلاد عتيقة وعريقة ، كما تنتقل الأحداث أو بعضها إلى إنجلترا وأمريكا ، مما يجعل القارئ يلهث أحياناً في تتبعها ويكاد يفلت الخيط منه في مواضع قليلة . . . أما زمن الرواية فهو أيضاً مساحة طويلة جداً يمكن التمييز فيها بين فترتين متبايزتين تفصل بينهما ثمانية قرون كاملة . الفترة الأولى هي السنوات المعاصرة التي زار فيها المؤلف الأنثروبولوجي الروائي مصر (في أوائل الثمانينيات) ليقوم بدراسته الميدانية في قرية مصرية ويجمع المعلومات الإثنوجرافية التي سوف تقوم عليها رسالته للدكتوراه من جامعة أكسفورد أيضاً ، تماماً كما هو الشأن بالنسبة للروبو هاتان . بينما تمتد الفترة الثانية أو الأولى بحسب مرور الزمن وتسلسله - فكانت في القرن الثاني عشر، وإليها يعود المؤلف بمخيلته الإبداعية ، كما يرجع بشأنها إلى كثير من المخطوطات والمراجع . ومن هذه الأحداث القديمة والمعاصرة ينسج أميتاب غوش روايته التي تمكس في الوقت ذاته أسلوباً في البحث العلمي الأنثروبولوجي ووسائله وتطورات ودخلت عليها بعض التعديلات التي استلزمها على أية حال الاختلافات بين طبيعة مجتمعي الدراسة الميدانية : القرية الإفريقية البدائية ذات البعد التاريخي الضحل ، والقرية المصرية التي يكمن وراءها تاريخ طويل وتراث عريق .

وإنما كانت لروا بو هاتان قد اكتسبت شيئا من المهارة والخبرة التي صقلت مواهبها من اتصالها بالكاتب الزننجي الأمريكي ريتشارد رايت ، وكانت «العودة إلى الضحك» هي روايتها الأولى - ولعلها الوحيدة - وتبعته فيها الأحداث بدقة من واقع مذكراتها الميدانية ، فإن أميتاب غوش على الرغم من أنه باحث أنثروبولوجي

عالم الفكر

بالتدريب والتخصص فإنه في الوقت ذاته كاتب روائي متمرس، له خبرة سابقة بالصناعة أو تكتيك الفن الروائي والكتابة الأدبية، وسبق أن صدرت له روايتان هما *The Circle of Reason* و *The Shadow Line*، وقد صادفنا قدراً لا بأس به من النجاح والانتشار، بحيث إن شهرته كروائي تفوق شهرته كأثنولوجي، وذلك على العكس تماماً من لورا بوهانان.

وقد صدرت «في بلاد عتيقة وعريقة» عام ١٩٩٢ م، وتقوم على حكاية اثنين من المنود في مصر. وأحد هذين المحدثين هو الكاتب نفسه الذي جاء إلى مصر عام ١٩٨٠ لإجراء دراسته الأنثولوجية الميدانية. بينما الشخص الآخر هو عبد هندي جاء إلى مصر مع سيده التاجر اليهودي في وقت ما من القرن الثاني عشر. وصادف أن الباحث الهندي كان قد اطلع على مقال جاء فيه ذكر المعبد الهندي فأثار ذلك المقال خياله وعزم على تتبع قصته وبذلك جاء إلى مصر ليقوم بدراسته الأنثولوجية الميدانية من ناحية ويعرف أصل قصة ذلك المعبد المواطن من ناحية أخرى، ويكتب بعد ذلك كل هذه الرواية التي ينتقل فيها القصة أو الحكى بشكل رتيب ومتنظم بين أحداث الحاضر والماضي بحيث تسير سلسلتا الأحداث في خطين متوازيين إلى حد كبير دون افتعال، مما يكشف عن قدرة الكاتب على استيعاب الموضوع والتمكن من فن القص.

فالرواية إذن عبارة عن حكايتين يقصهما الكاتب الأثنولوجي الروائي الذي يلعب دور القاص وبذلك يستخدم في القص صيغة المتكلم. وطريقة القص والحكي تكشف عن أسلوبين مختلفين لجمع المعلومات الأنثولوجية سواء باتباع طريقة الملاحظة المباشرة والمعايشة والمشاركة. وذلك فيما يتعلق بالمادة الخاصة بالمجتمع القروي المصري المعاصر، أو الرجوع إلى المراجع والمصادر بل وبعض المخطوطات القديمة والتنقل وراء هذه المصادر من مجتمع لآخر، بل ومن دولة لأخرى لجمع المادة المتعلقة بالأحداث التاريخية المتصلة بحياة ذلك المعبد الهندي الذي عاش في القرن الثاني عشر. وإذا كان الكثيرون يتهمون المنهج الأثنولوجي بأنه منهج استاتيكي لأن معظم البحوث الأثنولوجية تجري في مجتمعات صغيرة، ذات تاريخ ضحل وبدائية ولم تعرف كثيراً من التغيرات الجذرية العميقة، فإن دراسة المجتمعات ذات الثقافات العريقة القديمة تقتضي من الباحث الرجوع إلى التاريخ للتحقق من أصول وتطورات هذه الأحداث. وما يفعله الباحث الهندي في تتبعه لحياة المعبد الهندي مثال لما يفعله الأثنولوجيون في تتبعهم للأحداث التاريخية وتطور النظم والأنساق الاجتماعية والثقافية، وإن كان أمتاب غروش يصوغ ذلك في قالب روائي فيه قدر من الخيال الذي يضيفه على الواقع^(١٤) بحيث يبدو ذلك الواقع التاريخي القديم نابهاً بالحياة.

في بحثه عن الحياة المعاصرة في القرية المصرية جاء الباحث الهندي كما قلنا إلى مصر عام ١٩٨٠ واتصل بجامعة الإسكندرية لأنها الجامعة الوحيدة التي بها قسم للأثنولوجيا مستقل ولأن اثنين من أساتذة القسم وهما المرحوم الأستاذ الدكتور علي أحمد عيسى وكاتب هذه الدراسة الحالية من خريجي معهد الأثنولوجية الاجتماعية بأكسفورد، وهو المعهد الذي درس فيه الباحث الهندي والباحثة الأمريكية لورا بوهانان. وقام قسم الأثنولوجيا باتخاذ المخطوطات اللازمة لإقامة الباحث واختيار القرية التي تجري فيها الدراسة الميدانية وتقديم الباحث للمجتمع، وذلك على العكس مما فعل الإداري الإنجليزي مع الباحثة الأمريكية، كما كان القسم وأساتسته على اتصال مستمر بالباحث الهندي أثناء فترة الدراسة.

تدور أحداث الرواية الأنثروبولوجية المعاصرة في قريتي اللطيفة (نسبة إلى عائلة عبد اللطيف) والنشاي من أعمال دمهور، وهذان اسمان مستعاران لقريتين يعرفهما تماماً الأنثروبولوجيون من جامعة الإسكندرية، كما أن أشخاص الرواية أو الحكاية المعاصرة هم من صنع الخيال وإن كانت الملامح الأساسية لشخصياتهم مركبة من عناصر واقعية وحقيقية.

ويواجه الباحث الهندي في هاتين القريتين نفس المشكلات التي صادفتها الباحثة الأمريكية حين وصلت لأول مرة إلى القرية الإفريقية من ارتياب وشكوك وتحفظ وتساؤلات حول سبب وجود هذا الشاب الغريب في قرية بعيدة عن المدن الرئيسية التي تجذب إليها الأجانب في العادة. ولكن العلاقات التي قامت بينه وبين أهالي القريتين كانت مع ذلك على النقيض تماماً من تلك التي كانت بين الباحثة الأمريكية والمجتمع القروي الإفريقي، فقد كانت بطله ومولفة «المعودة إلى الضحك» تشعر بالاستعلاء والتميز إزاء الأهالي الأفارقة، بينما في القريتين المصريتين كان الأهالي هم اللذين يشعرون بالتميز ويشعرون من الاستعلاء. فعل الرغم من عدم وجود عائق حقيقي يقف ضد التواصل والتفاهم لأن الباحث كان يعرف اللغة العربية التي سبق له دراستها في تونس فإن الفلاحين المصريين كانوا يشعرون طيلة الوقت أنه (هندي) - وهذا تعبير له مغزاه في أوساط معينة من مصر ويرمز إلى أن صاحبه لا يعرف كثيراً من شئون الحياة التي يدرها الفلاح المصري البسيط العادي. وقد ساعد الباحث الهندي عمداً على ترسيخ هذا الاعتقاد حول سبلجته وعدم فهمه لكثير من أمور الحياة مثل الحياة الجنسية أو انعكاس ضوء القمر على صفحة الماء في التربة وما إلى ذلك. وبنا يكون اتخذ نفس الموقف الذي تعلمت أن تأخذه الباحثة الأمريكية حين تركت الأفارقة على اعتقادهم بأنها ساحرة، ولكن مع اختلاف في الأهداف. فبينما يعكس موقف الباحثة الأمريكية اختلاف الثقافة الأمريكية المتسلطة المتغصنة ويهدف إلى توكيد ارتفاع وسمو مكانتها إزاء هؤلاء الأفارقة المتوحشين وإلى إبراز استقلال شخصيتها وفرديتها، يعكس موقف الباحث الهندي بساطة وسهولة الثقافة الهندية ويهدف إلى الدخول إلى قلوب الأهالي عن طريق النزول إلى ما دون مستوهم الفكري المتواضع واتخاذ موقف التلميذ من الأستاذ والمعلم.

وتتناول أحداث الرواية الأنثروبولوجية المعاصرة عدداً من العلاقات اليومية العادية بين الأهالي بالوصف والتحليل وتعرض لما تتضمنه هذه العلاقات من صراع وتعاون وأحقاد ومكائد صغيرة حول أمور تافهة بسيطة بساطة حياة أهل القرى في مصر، ولكن يجثم على الرواية مع ذلك جو من التسامح والطيبة والتفاؤل على الرغم من الفقر الشديد الذي يلف كل شيء. ولم يكن يشغل بال الناس جميعاً إلى جانب فقرهم سوى مشاكل الدين والسياسة وهي المشاكل التي تدور حولها حياة معظم الناس وأفكارهم وهمومهم في العالم الثالث، وبخاصة في البلاد ذات الحضارات العريقة القديمة والتي خضعت للاستعمار الغربي لفترة من تاريخها كما هو شأن مصر والهند. ولكن ربما كان حاجس الدين واختلاف الأديان وما يخلفه ذلك من مرارة وأحقاد ناجمة عن سوء الفهم وانعدام التفاهم والثقة هو أخطر ما يواجه هذه المجتمعات. فالقوالب الدينية والمذهبية هي أهم أسباب العداء بين أبناء الأمة الواحدة اللذين يتقنون في اللغة والعادات والتقاليد والتاريخ بل والعرق والترك. وكان اهتمام الأهالي في القريتين المصريتين بالحديث مع الباحث الهندي عن الدين تثير في نفسه كثيراً من مشاعر الغيظ المكبوت خاصة حين كانوا يتحدثون معه عن عبادة البقر وإحراق الموتى وعدم ختان المنود ومدى إيمانهم بالله وتصوره للكون وفكرة الخلق بطريقة لا تخجل من سبلجة - من وجهة نظره على الأقل - ثم محاولات البعض (هلايته) إلى الإسلام حتى يدخل الجنة.

ويقابل الباحث الهندي نماذج مختلفة من القرويين، وكان له مع كل منهم قصة صغيرة ولكنها توفى مآ
لوحه فنية متكاملة عن حياة القرية بكل ما فيها من قوة وضعف بشريين.

كان هناك أبو علي التاجر الجشع الضخم الجثة المرتفع الصوت... وهو صاحب البيت الذي أقام به بعض
الوقت في بداية دراسته الميدانية. وكان أبو علي قد أخذ على نفسه عهداً منذ البداية. بأن يضع يده على كل
قرش في جيب الطالب الباحث الهندي وينقله إلى جيبه هو بوسيلة أو بأخرى عن طريق الغش والخداع
والفهلولة والمخالاة في تقدير إيجار الحجارة التي يسكنها الطالب فوق سطح البيت والتي كانت تستخدم في
الأصل لتربية الدواجن، أو أن يتولى هو بنفسه شراء كل ما يحتاج إليه الباحث الهندي وعدم ترك الفرصة له
للتزلل إلى السوق حتى لا يعرف الأسعار الحقيقية للأشياء، أو عن طريق إقناعه بأن يتناول طعامه مع العائلة
على أن يدفع نصيبه في تكاليف الوجبات ويبالغ في تقدير هذه التكاليف وهكذا. وكان الباحث الهندي يدرك
أن أبا علي يستغله أسوأ استغلال، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً حتى لا يؤثر ذلك على علاقته به، فقد
كان يدرك تماماً أن أبا علي قادر على وضع العراقيل أمامه وإفساد كل شيء أمام مواصلة البحث.

وكان هناك الشيخ موسى وهو نقيض لأبي علي تماماً، فقد كان يمتاز بالطيبة والساحة وكرم الضيافة
والقناعة، كما كان بيته مفتوحاً في كل وقت للباحث الهندي الذي وجد فيه مثلاً للتسامح العائلي الذي يميز
العائلة القروية في مصر. ولكن كان في حياة الشيخ موسى مأساة مزدوجة، نجمت الأولى منها عن وفاة
زوجته وأم أولاده وزواجه من فتاة كانت في عصر أولاده، بل إنها كانت تلعب في طفولتها مع بعض أبناءه من
الصبيان فإذا بهم يجلبونها في مكانة أهم، وترتب على ذلك كثير من التوتر والتحفظ وعدم الثقة والارتباك
المكبوت مع محاولات الجميع للتظاهر بأن الأمور تسير في طريقها الطبيعي من أجل الحفاظ على التماسك
العائلي الذي يحرصون عليه، بينما تمثلت المأساة الثانية في موت أحب أبناء الشيخ إليه وأقرهم إلى قلبه وكان
الابن مجنداً في الجيش، وقد أدى فقده إلى تدهور صحة الشيخ واعتزاله الناس وإن كان يخفف من لوعته
الإيمان القوي الذي يميز عامة المصريين فيها يتعلق بأمور الحياة والموت والعالم الآخر.

وكان هناك الأستاذ مصطفى الذي تلقى دراساته العليا في القانون في الجامعة وأصبح يمثل الصفوة المثقفة
المنتشرة في القرية بيا تعلمه في الجامعة وما قرأه في مختلف فروع الثقافة، ولكنه كان يبالغ في فهم الدين وتفسيره
وتأويله ويأخذ من أموره القشور دون أن يتعمق في الفهم ويحرص على نقاء ثوبه من أن يناله شيء من تراب
القرية وحواريها وأزقتها أكثر من حرصه على التعمق في فهم تعاليم الدين على الوجه الصحيح، كما كان
يحرص على أن يدعو الباحث الهندي على اعتناق الإسلام حتى يأمن على نفسه من غلاب النار أكثر مما يحرص
على فهم تعاليم ومبادئ الهندوكية والحكمة التي يراها الهندوس في إحراق الجثة أو أن يدرك أن ثمة مبادئه
عامة تشترك فيها كل الأديان.

وكانت هناك نماذج بشرية أخرى كثيرة لا داعي للتعرض لها هنا ولكنها في مجملها تعطي صورة واضحة عن
حياة القرية المشابهة بين أعضاء القرية التي تبدو هادئة ولكنها تخرج في الحقيقة بمختلف المشاعر والأحاسيس
التي تعبر عن نفسها في أنماط السلوك والعلاقات المشابهة بين أعضاء القرية والتي حرص الباحث على تسجيلها
بالتفصيل لتعطي الجانب الإثنوجرافي الذي تقوم عليه أحداث الرواية، أو على الأصح لوحاتها الفنية.

في قرية النشاي، وهي ثاني القريتين اللتين أقام فيها الباحث الأنثروبولوجي الهندي في الثمانينيات مع فاصل بين الزيارتين قدره سبع سنوات أمضاها الباحث إما في أكسفورد وإما في وطنه، وجد الباحث الهندي أنباطاً جديداً من الحياة لم يكن للقرية التقليدية عهد بها من قبل، بل إن بعض التغيرات الجذرية كانت قد طرأت على قرية اللطافية ذاتها بعد أن عرف شبابها الهجرة إلى بلاد الخليج ودخلت الكهرباء والماء والتلفزيون، كما ظهر إلى جانب الفقر والبؤس التقليديين مظاهر طارئة من الثراء الفج عند بعض الأمر والأفراد الذين لم يكن لهم ذكر أو مكانة محترمة في القرية ووجد في النشاي عائلتان تتنازعان المكانة الاجتماعية والسياسية على أساس الأصل أو للمال وهما عائلة أبو كنكة وعائلة البدوي، وكانت العائلتان قد قدمتا معاً أو في وقت متقارب إلى القرية منذ عهد بعيد، ولكن رئيس عائلة أبو كنكة كان رجلاً ورعاً يعمل بالحلاقة ولا تزال ذريته يتمتعون نفس المهنة ويعتزون بها ولم يكونوا يتمتعون بامتلاك الأرض أو تنمية ثروتهم وإن كانوا دائماً يعطون معظم جهودهم لأموال الدين، وذلك بعكس البدوي الذين يدل اسمهم على أصولهم البدوية ولكنهم استقروا في الأرض وعملوا على امتلاك أكبر مساحة منها وغولوا إلى الزراعة واكتسبوا مكانة عالية في المجتمع بفضل ثراهم ولكنهم لم يكونوا يتمتعون مع ذلك بنفس الاحترام التي يتمتع بها عائلة أبو كنكة. ويعطي الباحث الهندي كثيراً من التفاصيل حول الصراع الخفي أحياناً والعلني في أحيان أخرى بين ما يمكن تسميته - بقدر من التجاوز - السلطة الدينية متمثلة في أولاد أبو كنكة، والسلطة الزمنية متمثلة في أولاد البدوي، ووصف بعض المواقف بحيث يلبس تحليله ثوب الرواية وينسب العلاقات والتصرفات إلى أشخاص بعينهم لكي يتلاءم ذلك مع القصص الروائي دون أن يلجأ إلى التجريد الذي يتمسك به الأنثروبولوجيون في دراساتهم لئلا هذه الموضوعات، فيتعاملون مع علاقات ونظم وأنساق مجردة بعيدة عن الأفراد على الرغم من أن معلوماتهم الإثنوجرافية مستمدة من ملاحظاتهم للسلوك اليومي للشخص العياني الملموس.

وجانب كبير من القصص الروائي هنا يدور حول الصراع الديني والسياسي والاختلاف بين الأديان، ويعجب الباحث الهندي لاهتمام الناس الذي لا يتخلو من المغالاة والمبالغة والتزمت وضيق الأفق بأراء ومعتقدات وعبادات الآخرين ورغبتهم في تغييرها أو تحويل الآخرين عنها إلى مايعتقدون هم فيه، ويذهب في ذلك إلى أن يعتبر الرموز الدينية والتمسك بها والتشبع لها هي من أهم أسباب الفتنة بين الطوائف الدينية وبين الأديان المختلفة مع أن كل هذه الرموز لو فهمت على حقيقتها، تعبر عن الوحدة الإنسانية والتعاطف البشري، وأن هذه الوحدة والتعاطف كثيراً ما يظهران وقت الأزمات ويتغلبان على كل أسباب الفكرة والنزاع. ويقارن بين الموقف في مصر فيما يسمى بالفتنة الطائفية الدينية والموقف في الهند، ويعود بذاكرته إلى الوراء حين كان طفلاً وكان أبوه - وهو من عائلة هندوكية عتيقة ومحترمة - يقيم في ذلك الحين في دكا. ثم حدث الانفصال الكبير أو الانقسام في شبه القارة الهندية وظهرت دولتان هما الهند وباكستان وما ارتبط بذلك من عداءات دامية بين الهندوس والمسلمين. وكانت عائلته تعيش في قصر كبير ومحيط بها آلاف العائلات المسلمة. وشاهد كيف أن عشرات الهندوس كانوا يلجأون إلى بيت عائلته للاحتباء وراء أسوار القصر من القتل. وذات يوم حاصر آلاف المسلمين بيت العائلة وبأيديهم الحرايب والمشاعل وكل أدوات التحطيم والهدم والتخريب والقتل والإحراق ومرت أوقات عصيبة ثم فجأة تفرقت هذه الجماهير الغاضبة هاربة، فقد حضرت جميع من الشرطة ورجال الجيش لضريقتهم وحماية الأسرة الهندوكية. وكان بعض المسلمين هم الذين استدعوا هذه القوات لحماية

وإنقاذ من يخالقونهم في العقيدة، ولكن يشاركونهم في الإنسانية. وفي الوقت ذاته حدث شيء مشابه لذلك تماماً في كلكتا مع اختلاف في الأدوار، فقد حاصر الهندوس مئات من العائلات المسلمة يريدون ذبحهم وإحراقهم وتخريب ديارهم ولم ينقذهم من هذا المصير إلا تدخل بعض الهندوس الذين طلبوا التجدة من الشرطة والجيش لإنقاذ من يخالقونهم في الدين أيضاً ولكن يشاركونهم في الإنسانية. ومن يومها أدرك الفتى الهندي معنى التعاطف الإنساني الذي يعلو ويرتفع فوق كل الفوارق والاختلافات السلالية والدينية وإن الإساءة إلى الرموز الدينية مثل قتل بقرة في معبد هندوكي أو وضع خنزير في مسجد إسلامي كثيراً ما تنتج عنه مذابح بشعة يقتل فيها مئات الأبرياء الطيبين. ولكن الباحث الهندي لا يزال نفسه مع ذلك حين يقارن هذا الواقع بما يحدث في مصر من أن يحكم لصالح الإنسان المصري في هذه الصراعات ويؤكد طيبة أهل مصر ووداعتهم وتسامحهم وتعاطفهم رغم كل شيء وعمل الرغم من كل مايلدو من قسوة الظروف التي يعيشون تحتها، وعمل الرغم من كل مظاهر التطرف الديني، وإن «عالم المصريين عالم أكثر رقة وإنسانية وأكثر يراعة وطمحاً من وطني» (صفحة ٢١٠).

ولكن ماذا عن «العبد الهندي» الذي تشغل قصته جانباً كبيراً من هذه الرواية؟

في أثناء دراسته في جامعة أكسفورد اطلع الباحث الهندي بالمصادفة البحتة على مقال قديم نشرته باحثة يهودية اسمها E. Strauss عام ١٩٤٢ في مجلة zion التي كانت تصدر في القدس وكان عنوان المقال «مصادرة جديدة عن تاريخ اليهود في الشرق الأوسط (New Sourscrfor He History of Middle Eastern Jews) أشارت فيه إلى عدد من وثائق القرون الوسطى، وكان من ضمنها خطاب مخطوط يحمل رقم MS. H.6 موجود في مكتبة الجامعة بالقدس، وقد كتبه في صيف عام ١١٤٨ تاجر اسمه خلف بن اسحق كان يعيش في عدن لصديق له اسمه ابراهيم بن إبيجو كان يعيش في متجالور، وهي ميناء على الساحل الجنوبي الغربي للهند وجاء فيه ذكر العبد الهندي. وعام ١١٤٨ له أهميته في تاريخ المنطقة، إذ يقع في الفترة التي كانت فيها فلسطين مسرحاً لجهوش الصليبية الأوربية، ولكن وسط هذه الحروب كان خلف بن اسحق يركز كل اهتمامه بأمور التجارة بعيداً عن هموم السياسة والحرب، شأنه في ذلك شأن غيره من المشتغلين بالتجارة مع بلاد الشرق ولما لم تكن رسالتهم تحمل أية أخبار عن سير الحروب الصليبية رغم أهميتها لمنطقة الشرق الأوسط ككل. وقرب نهاية الرسالة التي أصبحت تحمل رقم MS. H.6 جاءت الإشارة إلى ذلك العبد الهندي حيث يرسل إليه خلف بن اسحق تحياته الكثيرة الخاصة، ولم يكن الخطاب يحمل أية معلومات أخرى عنه. وكانت تلك الإشارة السريعة المقتضبة تحمل بعض المفارقات في نظر الباحث الهندي، إذ ليس من المألوف أن يرسل شخص سلامه وتحياته إلى عبد مملوك وبخاصة في رسالة تدور حول التجارة والعمل، ولذا كان التساؤل عن الأسباب التي تكمن وراء هذه التحيات التي ينفرد بها ذلك العبد دون غيره من عشرات الآلاف من العبيد الهنود الذين كان يمتلكهم التجار اليهود وغيرهم في ذلك الحين، وعن الظروف التي أدت بذلك العبد الهندي دون غيره إلى أن يدخل التاريخ من خلال تلك المخطوطة المحفوظة في مكتبة الجامعة، وبحيث يجد بعد ثمانية قرون من هيم بشأنه ويبحث عن قصته ويخرجها من الوثائق المحفوظة إلى نور الحياة الواقعية.

ويبدو أنه كان مقدراً لقصة ذلك العبد الهندي أن تطفو على السطح مرة أخرى. فبعد ذلك المقال الأول يلحدي وثلاثين سنة ظهرت القصة للمرة الثانية عام ١٩٧٣، وكان هذا الظهور الثاني، مثل

الظهور الأول، في شكل رسالة أصبحت ضمن مجموعة من الوثائق نشرها الأستاذ جوتين S.D. goitein من جامعة برنستون تحت عنوان *Letters of Medieval Jewish Letters*. وكان هذا الخطاب موجهاً أيضاً من خلف بن اسحق إلى إبراهيم بن ابيجو في منجاولور ولكنه كان يرجع إلى عام ١١٣٩ (أي قبل الخطاب الذي سبق الإشارة إليه بتسعة أعوام) وكان مليئاً بأخبار شحنتات الحرير والحديد والفلفل والخبثان وغرق إحدى هذه الشحنتات في البحر الأحمر، ثم كانت هناك أيضاً عبارات الود والمحبة مع التحيات الخاصة لذلك العبد الهندي الذي يشير إليه الخطاب باسمه ولكن بعض حروف الاسم طمست فلم يبق منه إلا ثلاثة أحرف فقط هي ب م A B M A ومن هذا الخطاب نعرف أن ابن ابيجو كان تاجراً يهودياً من تونس ولكنه رحل إلى الهند عن طريق مصر حيث مكث بها بعض الوقت وأنه كان يتمتع بمواهب وقدرات فذة وكان يهتم بالعمل والشعر ثم عاد إلى مصر مرة أخرى بعد أن أفلح في تكوين ثروة كبيرة من التجارة وعاش بقية حياته في مصر، ووجدت أوراقه طريقها إلى معهد اليهود في القاهرة ثم تم حفظها بعد ذلك ضمن الوثائق الهائلة التي تعرف باسم الجنييزة . . . وحين أطلع الباحث الهندي على هذا العمل الذي نشره الأستاذ جوتين وكان ذلك في مكتبة أكسفورد عام ١٩٧٨ أثار الكتاب خياله وعزم على كشف سر ذلك العبد الهندي، وحمله ذلك العزم إلى مصر عام ١٩٨٠ لجمع المادة الأنتوجرافية الخاصة برسائله للدكتوراه . ومن مصر ظهرت هذه الرواية التي تدور أحداثها حول هذين الهنديين اللذين تفصل بينهما ثمانية قرون .

وكان لابد للباحث الهندي لكي يتتبع قصة العبد الهندي من أن يرحل من مكان لاخر لكي يجمع شتات القصة ويبحث عن حقيقة الاسم الذي لم يبق منه سوى تلك الحروف الثلاثة . وبقيّة هذا الجزء من الرواية مزيج من البحث العلمي الجاد، والمخاطرات والرحلات ثم محاولة الاستعانة بالخيال لتكريب قصة متممة توجد بعض عناصرها في تلك المخطوطات، وفي كتب التاريخ والرحلات حول العصر الذي عاش فيه ذلك العبد الهندي .

وتذهب الرواية كما يقصدها أميتاب غوش من واقع الوثائق ومن بعض الإبداعات الخيالية به هو كما يتصور سير الأحداث إلى أن حياة ذلك العبد الهندي كانت قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحياة سيده ابن ابيجو الذي يبدو وأنه ذهب إلى اليمن حين غادر مصر وعاش فيها بعض الوقت إلى أن صدرت منه بعض الأعمال التي استجوبت إيعاده من اليمن فرحل إلى منجاولور حيث ترك لشهوته العنان إلى أن وقع في حب سيدة . وتذهب الرواية إلى أنها إحدى الجوارى الهنديات، فتزوجها وأنجب منها، وأدى ذلك إلى إغفال الناس أمره ووقوفهم ضده . فقد كان في استطاعته أن يتزوج من إحدى اليهوديات أو من أي امرأة حرة أخرى، ولما كان ابن ابيجو يعاني بعض الوحدة الاجتماعية . وتصور الرواية العبد الهندي المخلص لسيدة وقد تولى أمر تجارته بل والإشراف على شئون بيته وأولاده، وتصريف أمور مولاه بكثير من التعقل والحكمة حتى وثق فيه وقرره إليه وجعله وكيلاً لأعماله وبدأ بذلك يجتاز مكانة محترمة ليس فقط في بيت مولاه ولكن في المجتمع كله وبين التجار الذين يتعاملون مع سيده كما يستدل على ذلك من بعض المراسلات التي عثر عليها ضمن وثائق الجنييزة، لدرجة أن بعض تلك المراسلات كانت تلتكر ذلك العبد باسم الشيخ ب م أ . وحاول الباحث الهندي أن يجعل هذه الرموز ويعرف اسم ذلك العبد بالضبط، فقد تشير هذه الحروف إلى الاسم براما ولكنه كان يعرف أن ذلك

اسم لا يطلق أبداً على العبد، وكذلك الحال بالنسبة لاحتالات أخرى، ولم نجد متصفاً من أن يرحل هو نفسه إلى منجالتور ليتصل بالأهالي ويجمع قائمة بالأسماء التي يدخل في تكوينها تلك الحروف الثلاثة . وتتخذ الرواية هنا شكل التحقيق العلمي من ناحية والرواية القائمة على الرحلات والمخاطرات من الناحية الأخرى حتى استقر رأيه في آخر الأمر على أن اسم العبد كان بوما Bomma، وهو اسم لا يزال موجوداً ولكن إلى حد قليل في بعض المناطق الساحلية النائية والتي تعمل بصيد السمك، ومن مثل هذه الجاهات النائية المنزلة الفقيرة يمكن أن يقع بعض الأفراد في رقة العبودية والرق.

وليس ثمة ما يدعو إلى الدخول في تفاصيل الخطوات التي اتبعتها الباحثة الأنثروبولوجية ليتحقق من أصل بطل هذا القسم من الرواية وهو العبد الهندي . فهذه كلها تفاصيل قد تهتم الباحث الأنثروبولوجية المتخصصة وبالذات المتخصصة في الأنثروبولوجية اللغوية لأنها تشير إلى طريقة التحقق من الاسم وتفرجاته وتفرعاته، كما أن هذا القسم من الرواية يكشف أيضاً عن الأصول والمبادئ المنهجية التي يتبعها الباحثون الأنثروبولوجيون حين يتعرضون لبعض المعلومات التاريخية التي حدثت في أزمان سابقة، وبوجه أخص حين نموزهم بعض التفاصيل، والدور الذي يلعبه الخيال في إكمال هذا النقص وكيف تتم الموازنة بين الوقائع الأنثروغرافية المشخصة وبين العناصر المتخيلة بحيث تولف كلها وحدة متكاملة منطقية لا تتعارض مع إمكان تحققها في الواقع المعاش.

وإذا كانت رواية «العودة إلى الضحك» لها مقدمة كتبها أحد كبار أساتذة العلم الاجتماعي وهو - كما ذكرنا - أمر غير مألوف في الروايات العادية فإن رواية «في بلاد عريقة وعريقة» لها ملاحق وهوامش وتعليقات تشغل حوالي أربعين صفحة (من صفحة ٣٥٧ - ٣٩٣) وتتلئ بتعليقات وتوضيحات وإحالات إلى المراجع والمصادر وهي أمور لا نجدها في غير الكتب العلمية الأكاديمية الجادة . وبذلك يمكن للمقارئ المثقف المعادي أن يقرأ الكتاب على أنه رواية تجمع بين الحقيقة والخيال وينظر إليه على أنه عمل روائي أدبي على درجة عالية من طلاوة الأسلوب وجمال التعبير وتنوع الأحداث وتباين الشخصيات التي تمكس جوانب مختلفة من الطبيعة البشرية الخصبة العميقة المعقدة . كما يمكن للباحث الأنثروبولوجية المتخصصة أن يقرأه على أنه دراسة أنثروبولوجية لمجتمع قروي معاصر من ناحية، وتحقيق أنثروبولوجي تاريخي لبعض الأحداث التي حدثت في مجتمعات وثقافات مختلفة ويخرج من ذلك بحصيلة وافرة من المعلومات الأنثروغرافية، والأهم من ذلك كله أن هذا القارئ المتخصصة يرى بوضوح كيف يمكن تطويع المناهج وطرق البحث الأنثروبولوجية المختلفة في دراسة المجتمعات التقليدية ذات التاريخ الطويل والتراث العميق ويخرج بذلك عن تلك الدائرة الضيقة التي حصر كثير من الأنثروبولوجيين في الغرب أنفسهم فيها، حين قصروا معظم جهودهم على دراسة المجتمعات البدائية أو (الموحشة) كما تشير إليها لورا بوهانان.

(٤)

إذا كانت رواية «العودة إلى الضحك» تسجيلاً إلى حد كبير للتجربة الذاتية التي خاضتها الباحثة الأمريكية في مجتمع قروي محلي بدائي في إفريقيا، وإذا كانت رواية «في أرض عريقة وعريقة» عرضاً لبعض الصور واللوحات الفنية والجمالية التي تمكس تفاصيل بعض المواقف والشخصيات وبعض أحداث التاريخ

بأسلوب قصصي تمتع بجمع بين الحقيقة والخيال، فإن ثمة نموذجاً آخر للرواية الأنثروبولوجية لا يعتمد القص أو الحكوي فيها على تجربة الباحث الأنثروبولوجي الغريب بقدر ما يصدر عن أحد الأهالي أنفسهم وبذلك يعكس صورة للمجتمع من الداخل كما يراها الناس أنفسهم أو يتخيلونها، وكثيراً ما يصوغون هذه الرؤية في حكاية متخيلة تماماً أو في أسطورة انتقلت إليهم عبر الأجيال ودخلتها كثير من العناصر الخيالية، ومن هنا فإن معظم الروايات التي تتبع هذا النموذج تكون أقرب من النموذجين السابقين إلى الأعمال الروائية بالمعنى الدقيق للكلمة وتقابل معظم متطلبات الفن الروائي في الوقت الذي تعرض فيه لتفاصيل الحياة اليومية ولكن كثير من القيم وأصاليب التفكير التي تحكم سلوك الناس.

وللمثال الذي تقدمه هنا لهذا النموذج من الرواية الأنثروبولوجية مثال يتسم ببعض الغرابة التي تظهر حتى في عنوان الرواية نفسه وهو «قمر الفتى ذي الدثار» Blanket Boy's Moon وهذا عنوان يحتاج لشيء من التفسير والتوضيح.

فالدثار هو تلك الرقعة من القماش التي يضعها كثير من الأفارقة القبليين فوق أحد الكتفين فيتدل من الكتف لكي يستر معظم الجسم، وهو يشبه بذلك ملابس الإحرام التي يرتديها المرء أثناء الحج ويميز الدثار الأفارقة الوطنيين الذين لا يزالون يحفظون بطابع الحياة التقليدية ولم تهرم حياة المدن والحضارة الغربية ولم يستبدلوا به الثياب الأجنبية الحديثة وقد يكون ارتداء الدثار مقبولاً في المناطق القبلية البعيدة عن الرجل الأبيض حيث يحفظ الناس بمقومات حياتهم وتقاليدهم، ولكن ارتدائه في المدينة يضع صاحبه تلقائياً في مكانة دنيا على اعتبار أنه رمز للقبيلة المخلفة وبذلك يكون دائماً موضع شك وعمل ازدراء.

وكما نعتقد كثير من الشعوب بوجود علاقة بين النجوم والكواكب من ناحية وحياة الناس ومصائرهم وأقدارهم من الناحية الأخرى، فإن بعض قبائل جنوب إفريقيا بالذات تعتقد أن القمر يلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع وحياة الناس على السواء، كما أن حياة الفرد في العادة تمر بنفس المراحل التي يمر بها القمر منذ أن يولد هلالاً ثم يكبر وينمو حتى يكتمل بلباً ثم يبدأ في التقصان حتى يبلغ المحاق والأفول. وقد مرت حياة بطل الرواية بهذه المراحل التي تمثل منازل القمر وأوجهه المختلفة. ومن هنا فإن الرواية، كما يدل عنوانها تدور حول حياة شخص من الأهالي ومصيره وقدره، وهي من هذه الناحية تشبه حياة عشرات الناس من الأهالي وإن اختلفت التفاصيل من شخص لآخر.

تختلف رواية «قمر الفتى ذي الدثار» عن الروايتين السابقتين في عدة نواح. فهي أولاً تدور حول بطل من أوساط الناس في إحدى قبائل جنوب إفريقيا، وبذلك فالكتاب يستخدم صيغة الغائب وليس صيغة المتكلم كما هو الحال في الروايتين الأخريين بل وفي معظم الروايات الأنثروبولوجية التي لاداعي للتعرض لها هنا. ثم إن هذه الرواية مؤلفين اثنين وليس مؤلفاً واحداً. وأحد هذين الاثنين، وهو صاحب القصة الأصلية إفريقي وطني من جنوب إفريقيا موبيلي بارولوس Mopeli- Paulus وهو سليل الزعيم الإفريقي الكبير موشوشو Mo-shoeshoe زعيم الباسوتو وبذلك فهو يعتبر عضواً في العائلة الحاكمة في باسوتولاند، وقد عهد إلى كاتب عترف هو بير لانهام Peter Lanham^(١٥) بمهمة الصياغة الأدبية والفنية. ولقد تلقى موبيلي بارولوس - مثل الكثيرين من أبناء الزعماء والرؤساء الأفارقة الوطنيين تعليماً عالياً ولذلك فهو يجمع بين الثقافة القومية

التقليدية والثقافة الغربية الحديثة . فقد درس الطب في جامعة Witwatersraud كما أنه يتمتع ببعض المواهب الأدبية والفنية التي ساعدته على تأليف عدد من الكتب بلغة القومية ، فضلاً عن بعض قصائد الشعر التي من أهمها قصيدة يسجل فيها فاجعة غرق ناقلة الجنود مندي Mendi التي غرقت في الحرب العالمية الأولى وهي متجهة إلى فرنسا وعلى ظهرها ٦٠٠ جندي إفريقي . وقد جعل من بطل روايته ابناً لأحد هؤلاء الجنود الغرقى . وقد شارك موبيلي بارولوس نفسه في الحرب العالمية الثانية في شرق إفريقيا ومصر . وظهرت الرواية عام ١٩٥٣ كما أن بها بعض الوقائع والأحداث التي يردّها هو نفسه إلى عام ١٩٤٩ . أما بيتر لانهام الذي قام بصياغة الرواية ووصفها في صورتها الأخيرة فهو من أصل بريطاني ولكنه عمل في إذاعة جنوب إفريقيا منذ بداية الإرسال عام ١٩٢٥ ، ولما فأن له من الخبرة ما ساعده على هذه الصياغة الفنية الرائعة .

هنا معناه أن أحداً من المؤلفين الاثنين لم يتخصص في الأنثروبولوجيا على عكس الحال في الروائيين السابقين ، ومع ذلك فإن «قمر الفتي ذي الدثار» تدخل في باب الرواية الأنثروبولوجية ليس فقط لأن أحداثها تدور في مجتمع إفريقي قبي من المجتمعات التي عثم عليها الأنثروبولوجيا بدراساتها بل لأن هذه الأحداث تعطي لنا صورة تفصيلية واضحة عن كثير من أنماط الحياة الوطنية بحيث تصلح لأن تكون مرجعاً أنثروبولوجياً دقيقاً كما أن صاحب القصة الأصلي هو إفريقي وطني ! وإذا لم يكن متخصصاً في الأنثروبولوجيا فإنه يحكم نشأته وتكوينه وتعليمه وثقافته على علم ودراية وخبرة بأحوال القبيلة والمجتمع القبلي وظروف الحياة ونظمها وتقاليدها وتراثها وقيمها . كذلك إذا لم يكن صاحب الرواية الأصلي أنثروبولوجياً متخصصاً فهو مثال نموذجي لما ينبغي أن يكون عليه الشخص الذي يطلق عليه في الكتابات الأنثروبولوجية اسم «الإخباري» Informant وهو الشخص الذي يتميز بالمعرفة الدقيقة العميقة بأحوال المجتمع والذي يعتمد عليه الباحث الأنثروبولوجي القريب للحصول على كثير من المعلومات الأنثروجرافية ، التي يصعب الحصول عليها عن طريق الملاحظة ، بل إنه هو الذي يفسر للباحث كثيراً من المظاهر السلوكية التي يصعب عليه فهمها . فدوره الإخباري ليس دوراً سلبياً بل إنه دور المشارك الإيجابي في البحث ، ويتوقف نجاح البحث إلى حد كبير على نوع الإخباري ومدى علمه ومعرفة ودرايته وإيجابيته وصدقه وتعاونته . وهذه كلها مبادئ أولية يعرفها الباحثون الأنثروبولوجيون . وعلى ذلك فإذا كان القصة والحكي في الروائيين السابقين جامداً على لسان الباحثين الأنثروبولوجيين فإن القصة والحكي في هذه الرواية يمجىء على لسان الإخباري الذي هو المقابل الأكاديمي في البحث الأنثروبولوجي للباحث الميداني .

وتحقق رواية «قمر الفتي ذي الدثار» كثيراً من متطلبات الفن الروائي من حيث وجود قصة لها حبكة وبطل وأشخاص ومساعدون يقوم بينهم حوار منطقي ومتصل ويهدف إلى الوصول إلى ذروة العمل الدرامي ، كما أن الأحداث ذاتها تقوم على الخيال المبدع المحصب وإن كانت كل عناصرها مستمدة من الثقافة ، أو الثقافات السائدة في جنوب إفريقيا بكل تعقيلاتها وتنوعها وتباينها .

موضوع «قمر الفتي ذي الدثار» هو بشكل عام وطأة الحضارة الغربية — أو حضارة الرجل الأبيض ، على إنسان إفريقي وطني عادي يتعرض أثناء حياته لكل ما في هذه الحضارة من خير وشر . ويعيش هذا الرجل — بطل الرواية مونير Monair في إقليم ليموننتسا Lemontsa في بلاد الباسوتو ، ومع أنه كان يتمتع بسمعة طيبة ومكانة محترمة وكان مقرباً من الزعيم وله عائلة صغيرة يرعاها ، فقد قرر مثلياً فعل غير من أبناء القرية والقبيلة

وإنشاء جيله بوجه عام أن يذهب إلى جوهانسبرج - مدينة الذهب - ليجرب حظّه في الحياة وجمع المال بحيث يستطيع أن يشتري علداً من الأبقار، على اعتبار أن البقر هي أداة ومعيار المكانة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية معاً، وفي جوهانسبرج يحقق كثيراً من النجاح وقدراً لا بأس به من المال ولكنه يعاني في الوقت ذاته من عداء الرجل الأبيض والبلات وجن الشرطة الذي يخلق ويلحق له بعض التهم ليلقي به في السجن، ولكن الأدلة لم تكن تكفي لإفلاته، ويساعده في الإفلات من التهمة وإثبات براءته أحد أصدقاء الطفولة (كوتو Koto) الذي كان قد حقق نجاحاً باهراً في التجارة وأصبح ذا مال وجاه، ويعود مونير إلى موطنه القبلي عازماً على الاستقرار مع أهله وجماعته القبلية بعيداً عن المدينة وعن شرور الرجل الأبيض. ولكن الأقدار تلدغه في السير في طريق غير الذي رسمه لنفسه، إذ يحدث أن يقع عليه اختيار الزعيم للمشاركة مع عدد من رجال القبيلة المجرمة بعض الشعائر والطقوس السحرية الخاصة بوضع أساس قرية جديدة يتولى ابن الزعيم إدارتها، وتتضمن هذه الطقوس قتل شخص غريب من غير أعضاء القبيلة، وذلك فيما يعرف باسم «القتل الشعائري» اعتقاداً منهم أن هذه الأضحية البشرية سوف تضمن نجاح المشروع وإزدهار القرية. وتتضمن عملية القتل الشعائري بعض الطقوس الروحية مثل قطع شفة الضحية المخشاة واقتلاع عينيه وتزريق بعض أجزاء جسمه الأخرى قبل الإجهاز عليه ودفن الجثة في مكان مجهول بينما تدفن تلك الأجزاء المقتطعة من الضحية في مكان إقامة المشروع. ويلعب (قمر) دوره القاسي، فقد كان الضحية المختارة هو نفس الصديق الذي ساعد مونير على الإفلات من التهمة، ويحاول مونير أن يتخذ صديقه من هذا المصير الرهيب في آخر لحظة ولكن أوامر الزعيم وقوة التقاليد كانت تفرض عليه المشاركة في تلك العملية وتنفيذها على الرغم منه. ويتملكه الأسى والحزن والندم ولم يكن أمامه إلا أن يفر من المنطقة كلها ومن جوهانسبرج ذاتها لأنه كان يدرك أن الشرطة لابد أن تشر في يوم من الأيام على الجثة وتتصرف على الجثة وتتبعهم أينما كانوا، وبذلك يرحل إلى ديربان Durban أو مدينة السكر حيث يعمل في البناء ضمن عمال الشحن من الزنوج ويصادف مرور أحد رجال الدين المسلمين (الشيخ عبدالواحد) وهو من أصل باكستاني بأحد الأرصفة أثناء عملية شحن السكر فبقلت أحد الأجرلة المحملة بالسكر من الرفاعة ويكاد يسقط فوق رأس الشيخ لولا يقظة مونير الذي يبعده بقفزة واحدة في آخر لحظة، ويشعر الشيخ أنه مدين له بحياته فيقره إليه ويقدمه إلى عائلته ويحمل إليه بعض الهدايا من الملابس والطعام من حين لآخر. ثم تقوم بعض الاشتباكات السياسية العنصرية بالمدينة، ويهاجم الزنوج السود السكان الملونين (الآسيويين) ويساعد البيض على اشتعال الموقف، ويهاجم جموع العمال الزنوج بيت الشيخ باعتباره أحد هؤلاء الملونين ولكن مونير يتصدى للدفاع عن صديقه وعائلته ضد أبناء سلالاته العرقية وكان شبح جريمته الأولى كان يطارد، ويفلح في صد هجوم المهاجمين الثائرين حتى يأتي رجال الشرطة فيقتلون الشيخ وعائلته، وتشيد الصحافة ببطولة مونير وتنتشر صورته ويكون ذلك نقطة تحول أخرى في حياته، إذ لابد أن تعرف شرطة جوهانسبرج أين يختفي، وتأتي لمطارده والقبض عليه وتقديمه للمحاكمة بعد أن أفلحت في العثور على جثة كوتو والقبض على معظم الذين اشتبكوا في عملية القتل الشعائري، وبذلك يهرب مرة أخرى من ديربان إلى لورنسو ماركيت التابعة للبرتغال، وذلك بمساعدة الشيخ عبدالواحد الذي يدرك تماماً أنه ليس ثمة ما يبرر ارتكاب جريمة قتل ولكنه يدرك في الوقت ذاته مدى سيطرة التقاليد والأفكار الغيبية من قوة تفوق قوة وسلطان القانون والدولة على الإنسان الإفريقي القبلي، ثم هو يدرك أن باب الندم والتوبة مفتوح وأن الله هو الذي يحاسب الناس في آخر الأمر. ولكن قدر مونير أو (قمره) يسوق مرة أخرى

وأخيرة تحت ظروف عائلية قهريّة إلى العودة إلى جوهانسبرج وإلى القرية لكي يقع في أيدي الشرطة ويقدم للمحاكمة حيث يحكم عليه بالإعدام، ويجد في ذلك الحكم خلاصه وراحة ضميره.

فهذه إذن رواية محكمة تقوم على قصة أو حكاية خيالية وإن كانت عناصرها مستمدة من الحياة، بل ويمكن أن نحدث كل أحداث الرواية في الحياة الواقعية. ولكن المعلومات الأنتوجرافية التي ترد في سياق الرواية هي تقرير أنتوجرافي على درجة عالية من الدقة والتفصيل. وهي معلومات يدلي بها «إخباري» إفريقي وطني يعرف خبائيا الحياة في موطنه الأصلي ومعنى الأحداث والأسباب الكامنة وراءها والأهداف التي تهدف إليها ويقدم لنا ذلك كله إزاء خلفية اجتماعية مستمدة من واقع الحياة في جنوب إفريقيا بكل ما فيها من تشابك وتعقد العلاقات وما يترتب على ذلك من صراع قائم بين السلالات والثقافات المختلفة، يستوي في ذلك الصراع بين البيض والسود الزنوج، وبين السود والملونين المتحدرين من أصل آسيوي والذين يشكلون نسبة لألباس بها في بعض المناطق وبخاصة في المدن، أو الصراع بين البيض المتحدرين من أصل بريطاني والبيض البوير المتحدرين من أصل هولندي والذين يعرفون عموماً باسم الأفريكاترز، والصراع بين هؤلاء جميعاً وبين (البيض) الخلاسين الذين تجري في عروقهم بعض الدماء الزنجية نتيجة للاتصالات الجنسية غير المشروعة وموقف هؤلاء الخلاسين من المجتمع ككل حيث يمثلون مكاة هامشية يشعرون فيها بالجزء والعار بالنسبة للبيض بينما يشعرون بالاستعلاء المشوب بشيء من القسوة والحجل إزاء السود، ويسودون لو كان في استطاعتهم التخلص من تلك الدماء الزنجية التي تجري في عروقهم. بل إن المعلومات الأنتوجرافية التي ترد في سياق الرواية تعرض لأمر الحياة اليومية العادية التي قلما نجدها في غير الدراسات الأنتوجرافية الوصفية مثل وصف أنواع المساكن المختلفة وترتيب حجرات البيت وتوزيعها واستخداماتها، ومكاة المرأة في المجتمع الوطني المحلي التقليدي والدور الذي تلعبه في حياة الأسر، وتشئة الأطفال، بل ويجالس شرب البيرة الوطنية وطريقة صنعها، وذلك فضلاً عن التفاصيل الكثيرة المتعلقة بالخرافات وأنماط التفكير الغيبي وعوامل الانحلال الذي يتسلل إلى جلود وتقاليد المجتمع الإفريقي الوطني بتشجيع من البيض الذين يسلكون في سبيل تحقيق ذلك طرقاً عجيبية وملئونة ليس من أقلها خطراً تسهيل الحصول على المخدرات والعمل على نشرها بين الأمارة دون أن يقرّبوها هم أنفسهم. بل إن الرواية تزود القارئ بمعلومات أخرى دقيقة عن الملابس والطعام وطرق تحضيره، وعن أساليب المغازلة والعلاقات الجنسية ومكاة الأبقار في النسق الاقتصادي والاجتماعي، وعن الصراع بين الأديان السابوية وبين الوثنية التي لا تزال مبادئها وعقائدها وشعائرها تختلط بتعاليم هذه الأديان السابوية وبخاصة الإسلام والمسيحية على أساس أن اليهودية قاصرة على بعض اليهود الذين يتتبعون في الأصل إلى جنسيات غربية وأحدة منذ الاستعمار.

فهذه الرواية/ الدراسة سجل أنتوجرافي دقيق وحافل بالمعلومات التي صيغت في أسلوب أدبي رفيع وفي إطار قصصي جذاب به كثير من الخيال الإبداعي وتلور أحداثه في فترة زمنية حاسمة في تاريخ الشعوب الإفريقية بوجه عام، وهي فترة كانت تمرّج بالصراعات والعلاقات بين الأهالي الأصليين والمستعمرين البيض، وبالتحالي بين قيم الحضارة الغربية ونظمها وقوانينها وتصورتها النابعة من الشعور بالاستعلاء وبين الثقافة الوطنية التقليدية وأعرافها وتقاليدها ومعاولات الأهالي الاحتفاظ بهويتهم الثقافية الأصلية مع ثورتهم على القيود المفروضة عليهم والتي تمنعهم من الاختلاط بل والاتصال في كثير من الأحيان بهذه العناصر الوافدة وحرمتهم من كثير من الحقوق والمزايا التي تتمتع بها هذه العناصر الدخيلة.

كل هذه العوامل الاجتماعية والثقافية تتفاعل معاً وتتصارع في ذهن الإنسان الإفريقي العادي الذي يعتبر (مونير) - في الرواية - نموذجاً له ، بحيث يجد هذا الإنسان الإفريقي نفسه موزعاً بين مختلف التيارات المتلاطمة التي تفقده توازنه وتكاد تفقده هويته الثقافية والاجتماعية الإفريقية . إلا أن هذه الرواية / الدراسة تكشف لنا في الوقت ذاته عن بعض الجوانب الإيجابية الإنسانية الرقيقة التي تتمثل بوجه خاص - في معظم الروايات الأنثروبولوجية التي لم نعرض هنا إلا لأمثلة قليلة لها - من رجال الدين ونظرتهم السمحة إلى فكرة الدين وجوهه بعيداً عن الفوارق والاختلافات الشكلية والظاهرية . وربما كان موقف الشيخ «عبدالواحد» في رواية (قمر الفتى ذي الدثار) يوضح لنا هذا الشعور التسامحي وتلك النظرة العميقة إلى الدين والوظيفة السامية التي يضطلع بها رجل الدين في المجتمع والتي تعلق في كثير من الأحيان على القوانين الوضعية . ومثل هذه المواقف تعبر عن عمق وحقيقة التجربة الإنسانية التي تعلق فوق الأحداث الجزئية .

وعلى الرغم من المرض والفقر والبؤس الذي يسيطر على أحداث الرواية / الدراسة والتي تعكس الجو القاتم الذي يقيم على جنوب إفريقيا ، وعلى الرغم من الفجوة الحضارية الهائلة التي تفصل بين شرائح السكان المتباينة والشكوك العميقة النابعة من اختلاف المذاهب والأديان والمعتقدات ومن القهر الإنساني المتمثل في طغيان الرجل الأبيض وتسلطه ، كانت معظم الروايات الأنثروبولوجية تعكس بعض الأمل والرجاء من التطلع إلى المستقبل وتعقد كثيراً من الآمال على رجال الدين بالذات والدور الذي يمكن لهم أن يلعبوه في تبوير أذهانهم وتخليصهم من كثير من الأفكار الغيبية التي تدور في معظمها حول السحر والشعوذة لتحل محلها الأفكار والتعاليم الدينية الساهوية التي تدعو إلى الرقي والتقدم وإزالة فوارق اللون والسلالة بين البشر . وهذا عنصر هام تعبر عنه الروايات الثلاث التي عرضنا لها بطرق مختلفة وبدرجات متفاوتة من الوضوح والمعالجة الصريحة أو المستترة .

ففي فقرة مؤثرة وعميقة في رواية «قمر الفتى ذي الدثار» تلخص كل فلسفة هذه الروايات الأنثروبولوجية الثلاث بل وكثيراً من الروايات الأنثروبولوجية الأخرى التي لم نعرض لها والتي يدور معظمها على أية حال حول صراع الثقافات والحضارات ، وفي هذه الفقرة المعبرة يقول (مونير) وهو يسترجع في ذهنه شريط حياته :

«إذا كان هناك وقت للتذكر، فهناك أيضاً وقت للعمل . فالحياة في الماضي ليست هي الحياة في الحاضر، ومن الخير للشخص الذي يموت حاضره أن يدفن تماماً . وإذا كان مذاق (الطبخة) أكثر ملوحة مما يجب فلن يمكن إزالة مائها من ملح ، ولن تكفي كل دموع المرء في أن تخفف من حدة ذلك المذاق اللاذع . ولن يكون ثمة مفر إلا من إفراغ الإناء من كل ما فيه وتجهيز (طبخة) جديدة تماماً ، وإسإ إضافة مزيد من اللحم والمرق والحضر الجديدة الطازجة حتى يمكن تقبل الطعم حين تتلوق الشفلة الطعام من جديد .» (صفحة ٨٣) .

الهوامش

- (١) انظر في ذلك عل سبيل المثال
C. Ilian Beer, *Darwin's, Plot: Evolutionary Narrative in Darwin, George Eliot and Nineteenth century Fiction*, Ariz. London 1985.
- (٢) Margaret Mead, *Coming of Age in Samoa*, 1929. (٣)
ونظر في ذلك كتاب الأستاذ إيفانز برنشارد *Social Anthropology* واللغات الترجمة العربية التي قمت بها للملك الكتاب وظهرت، تحت عنوان: «الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو علم الإنسان الاجتماعي»، منشأة المعارف الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٥٨، صفحة ١٤٣ ثم الطبعة الثانية.
- Bronislaw Malinowski, *The Argonauts of the Western Pacific*, 1923. (٤)
(٤) إيفانز برنشارد، المرجع السابق ذكره، صفحة ١٤٠.
- (٥) انظر مثلاً
E.E. Evans - pritchard., *Witchcraft, Oracles and Magic among The Aznads*, Oxford U.P. 1937. Monica Hsiner, *Reaction to Conquest*, London, 1936 etc.
- (٦) في مجموع مصطلحات، الأدب يقول بجدي وفيه من «الحبكة»
ينص أرسطو في كتابه فن الشعر؛ على أن الحبكة هي قلب التراجيديا. فقد ذكر الحبكة في الفصل السادس من كتاب يقول فيه «القصّة هي الحبكة إذن هي نواة التراجيديا، والتي تنزل منها جميع الفروع، وتليها الأخلاق (ترجمة الدكتور شكري محمد عياد).
فوحدة الحبكة في نظره نتيجة لملازمة الضرورة والسببية بين أحداث المسرحية. ولانتميز وحدة الشخصية الأساس في الترابط... وفي الوقت الحالي نجد الرواية والمسرحية تراوحتان بين التزم الحبكة وعدم التزامها لأفراض جمالية. (جدي وفيه: مجموع مصطلحات، الأدب: إنجليزي، فرنسي، عربي- مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٤، صفحة ٤١١-٤١٢).
- Roland Barthes, *Le Degre Zero de L'écriture*, paris 1953 English Translation, *Writing Degree Zero*, Jonathan Cope. (٧)
London. 1967. P. 24
- Paul Ricoeur, *Hermeneutics and the Social Sciences* (Translated into English by John b. Thompson). Cambridge U.P. (٨)
1981, P. 296.
- (٩) إيفانز برنشارد، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، صفحة ١٢٤-١٢٥.
- (١٠) من ذلك مثلاً:
Bronislaw Malinowski, *Crime and Custom in Savage Society* Routledge, London 1926, Sex and Repression in Savage Society, Routledge, London (2nd Printing) 1937.
- Rol and Barthes, Op. Cit. P. 31. (١١)
وفي كتابه القصير القيم عن تاريخ الأدب الإنجليزي، يقول الأستاذ أيفانز *For Evans*: إن فن الرواية فن واسع وعريض ويتناول كل جوانب الحياة في كل زمان ومكان، ولا يعتمد على الوصف البحت وحده وإنما كثيراً ما يلجأ إلى الحوار فحاشاً كما هو الحال في الأعمال الدرامية، لدرجة أن الكثيرين يرون أن الرواية هي الشكل الأدبي الذي استطاع أن يتغلغل في اكتشاف أممات حياة الإنسان بطريقة أفضل من غيره من أشكال الأدب الأخرى. ويذهب الأستاذ إيفانز إلى أن الرواية ترى أن حياة الفرد المعاصر جديرة بأن تكون موضوعاً للعرض والدراسة والتحليل من خلال العمل الروائي، وفي هذا موقف يتفق مع ما نذهب إليه هنا فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا انظر في ذلك:
For Evans, A Short History of English Literature. A Pelican Book, London 1953, P. 129.
- David riesman, Introduction, to *Returns I to Laughter*, Op. cit, P.X (١٢)
Amirav Ghosh, in *An Antique Land*, Grants, Books, London 1992. (١٣)
John B. Thompson, . Editor, s introduction. To Paul Ricoeur, op. cit., pp. 15 - 17 (١٤)
Peter Latham and A. S. Mopell Benbas ; *Blanket Boys*, Moon, Collins, London 1953. (١٥)

التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية: التراث وإشكاليات المنهج

د. فتحي أبو العيين

استهلال

لا أعتقد أننا في حاجة إلى أن نستهل دراستنا هذه بالتليل — أو التأكيد — على مشروعية التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية. فإمام الآفاق الرحبة التي كشفت عنها الدراسات الحديثة في هذا المجال، والجهود العلمية المبذولة، والتي لا تزال تبذل، يصبح الحديث عن الطبيعة الاجتماعية للأدب، أو عن أهمية النظرة السوسولوجية في دراسة الأدب، رجوعاً إلى أوليات تجاوزتها الممارسات العلمية منذ فترة ليست بالقصيرة. لقد صار طلاب الأدب ويأخضونه — في معظمهم — لا يجادلون في الفكرة التي مؤداها أن الأدب، بوصفه إبداعاً فنياً وممارسة إنسانية، لا ينهض على أفكار وقضايا جمالية فحسب، بل يقوم أيضاً على أفكار وقضايا، ويستخدم وسائل، ذات صلة بالسياقات التاريخية والاجتماعية التي يظهر فيها. وحتى في حالات الكتاب الذين يخوضون مغامرات وتجارب أدبية جديدة يتمردون فيها على التقاليد الفنية السائدة، ويتكبرون وسائل جديدة (وهي حالات توجد في كل عصر)، فإن فهم التقاليد السائدة والعوامل التي أدت إلى التمرد عليها، والتجليات الفنية — الجمالية لهذا التمرد، لا يمكن تحقيقه دون توفر المعرفة العلمية حول الشروط الاجتماعية والثقافية التي تتم فيها هذه المغامرات والتجارب.

إن النظرة الاجتماعية للأدب هي التي نمكنا من أن نفهم - مثلاً - لماذا كتب ثيوفانتيس روايته «دون كيشوت» بالصورة التي كتبت بها؟ ولماذا كانت الرواية هي الجنس الأدبي المرشح للبروز والازدهار مع نشأة وتطور المجتمع البيروجرزاي؟ وما هي الشروط الاجتماعية والثقافية التي لولا توفرها لما ظهرت رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل بوصفها أول رواية فنية عرفها الأدب العربي الحديث؟ وبدون النظرة الاجتماعية لن تتمكن من فهم الرواية العربية الجديدة في بعدها، المضموني والشكلي، كتعبير عما يسميه البعض «الحساسية الجديدة»^(١)، أو من فهم التغيرات التي طرأت على بنية القصيدة العربية. وبإمكاننا أن نضيف هنا قائمة طويلة بالقضايا والموضوعات المتعلقة بعمليات إبداع الأدب وتلقيه، والتي يصعب طرحها ومعالجتها في غياب النظرة الاجتماعية. ولعل الوعي المتعاظم بأهمية هذه النظرة على مدى القرنين الماضيين هو الذي أسهم في تأسيس علم اجتماع الأدب كنظام معرفي يتحدد مساعده في فهم طبيعة الصلة التي تربط بين الظاهرة الأدبية وبين المجتمع. ولم تكن مسيرة هذا الميدان العلمي سهلة، بل اكتفتها صعوبات عديدة، وكثيرا ما كانت الإسهامات الجديدة فيه تواجه بالتحفظ والرفض، ويوجد أعمال مضادة. لقد شهد حقل الدراسات الأدبية عدداً من الانعكاسات التي كانت تعلن عدم قبولها تفسير الأدب في ضوء العوامل الاجتماعية، وتشدد على أن فهم الأدب ينبغي أن يتم بالنظر إلى بنيتة المكتفية ذاتياً والمغلقة على عناصرها الأدبية والنحوية (مثل الانعكاسات الشكلية والبنوية والسيميولوجية)، بيد أن هذه الانعكاسات كانت تنحو في تطوراتها اللاحقة إلى الاعتراف بعدم عزلة وقائع التعبير الأدبي عن سياقاتها الاجتماعية والتاريخية، ومن ثم كانت تعود لتندرج - بصورة أو بأخرى - تحت التيار العام، ذي الروافد المتعددة، الساعي إلى تفسير النص في صلته بالمجتمع.

إن هذا لا يعني أن ميدان علم اجتماع الأدب قد اكتملت مقوماته العلمية تماماً، أو أنه قد وصل إلى مرحلة التوضيح التام، فهذا الميدان يشهد قدراً ملحوظاً من التباين، وحتى التناقض، في تحديد موضوع الدراسة، وفي التوجهات النظرية والمنهجية، مما يفضي، بالضرورة، إلى اختلافات، عميقة أحياناً، في النتائج التي يتوصل إليها الباحثون، وكيفي أن نشير هنا - كمثال - إلى الاختلافات البنية بين المرجعيات «الاجتماعية» التي يستند إليها الباحثون كأطر تفسيرية في دراساتهم. فـ «الاجتماعي» قد يعني بنية المجتمع ككل، وقد يعني الطبقات الاجتماعية، أو اتجاهات وأصول الكتاب، وقد يعني أشكال الاتصال في المجتمع، أو تكنولوجيات وآليات إنتاج الكتب وتوزيعها، أو جماهير القراء، أو الأيديولوجيا... إلخ، وبسبب وجود هذه الاختلافات وغيرها، فإن المجال لا يزال عملياً بإشكاليات نظرية ومنهجية.

والهدف المحوري لهذه الدراسة هو تتبع أهم هذه الإشكاليات. وقد اخترنا أن تفعل ذلك من خلال تتبعنا للمراحل الهامة والتقلبات النوعية في مسيرة هذا العلم. وقبل أن نشرع في ذلك يبعنا الوقوف عند مسألتين، تتعلق أولاً بطبيعة الصلة بين الأدب من ناحية وعلم الاجتماع من ناحية أخرى، وتتصل الثانية بما يدور من مناقشات حول مهمة كل من الناقد الأدبي وعالم الاجتماع في دراسة الظاهرة الأدبية وتفسيرها.

عالم الأدب وعالم السوسيولوجيا: التشابه والتمايز والتفصيل

فما ينطوي عالم الأدب - كفن - على صيغ شتى من التصورات والخيالات والرموز، والتشكيلات اللغوية والجمالية، يتميز عالم السوسيولوجيا - كعلم - بقدر من الصرامة في المنهج، والدقة في نسيابة المفاهيم وأدوات

علم الفكر

البحث وأساليب الوصف والتحليل . ويسبب من هذا الاختلاف بين العالين ، يظهر بين الحين والآخر بعض الآراء التي تنكر وجود أية صلة بين الأدب وعلم الاجتماع غير أن هذا الإنكار لا ينبغي أن يعوق الباحث ذا البصيرة النافذة عن سعيه إلى استكناه تلك الصلة . فمثل هذا الباحث - كما يقول آلان سوينجورد (2) - يكون قادراً ، بما يتوفر لديه من بعد نظر ومنهج علمي وحاسة اجتماعية ، على إدراك العلاقات القائمة بين ظواهر وأمر مختلفة ، قد يرى البعض من ذوي النظرة الضيقة أنها غير موجودة أصلاً .

إن علم الاجتماع والأدب يشتركان - على صعيد المحتوى - في بعد أساسي يميز كلا منهما ، وهو : النظرة العامة الشاملة . فعلم الاجتماع هو في جوهره الدراسة العلمية للإنسان في المجتمع ، أي دراسة النظم والعمليات والطرق التي يسعى من خلالها إلى التكيف مع ظروف مجتمعية معينة ، والأساليب التي يواجه بها المشكلات الاجتماعية ، وكيفية اعتراف الأفراد والجماعات بالسلطة السياسية القائمة في المجتمع ، وعوامل نجاح النظم الاجتماعية وفشلها في تنظيم أشكال الصراع أو التعاون بين الجماعات والطبقات الاجتماعية . ويسعى علم الاجتماع كذلك إلى معرفة ، ووصف آليات عمليات التنشئة الاجتماعية والتعلم الثقافي وعلاقتها بالقيم السائدة في المجتمع ، أو بتلك التي يسعى المجتمع إلى ترسيخها ، وكيفية توزيع الأدوار على الأفراد في البناء الاجتماعي ، وكيف تصبح هذه الأدوار مقبولة . كما يتم هذا العلم أيضاً بدراسة أنماط الفكر والإبداع ، وما يطرده الناس خلال حياتهم وتفاعلاتهم من رؤى للعالم ، وأساليب للتعبير عن هذه الرؤى .

ولا يدرس علم الاجتماع كل هذه العمليات والنظم والعلاقات والتلجات الفكرية والإبداعية في حالة استقرارها وثباتها (النسبي) فحسب ، بل هو يتم كذلك ، وبصورة أساسية ، بالكشف عن العوامل التي تقف وراء تغير المجتمعات وتبدلها ، الذي قد يحدث بصورة تدريجية ، أو على نحو مفاجئ . وعين كما في حالة بعض الثورات التي قد تشهد لها للمجتمعات في مراحل معينة من تاريخها ، وما يصاحب هذا التغير أو ينتج عنه من تطورات أو تعديلات في مجالات الحياة المختلفة .

وعلى ذات المستوى ، أي مستوى المضمون ، يتم الأدب بالعالم الاجتماعي أيضاً ، ويصور ، على نحو رائع ، محاولات الإنسان الدائمة للتكيف مع العالم ورغبته في تغييره ، وضروب الفشل والتجارب التي يلاقها ، والسعادة والتعاسة التي يشعر بها ، والحلم والمواقف التي تلم به ، والأمال والأحلام والطموحات التي يصوغها لنفسه . فلو نظرنا إلى الرواية - مثلاً - كجنس أدبي ، فسوف نجدها تجسد محاولة لإعادة خلق العالم الذي تجسّد فيه علاقات الإنسان وأدواره في مختلف النظم والجماعات ، وأنماط الصراعات والتوترات بين الأفراد والجماعات والطبقات ، وفي حين قد يبدو العالم الاجتماعي بالنسبة لأي شخص مفتتاً ومشتتاً ولا رابط بين عناصره ، فإن الروائي الفنان يتمكن من إدراك العلاقات بين عناصر هذا العالم والملمة شتاته .

ألا تتبين هنا وجه شبه بين علم الاجتماع والأدب ؟ ألا يقترب عمل الباحث الاجتماعي من عمل الأديب المبدع ؟ إن الباحث الاجتماعي في سعيه إلى فهم واستيعاب ما يدور حوله في العالم الاجتماعي والثقافي ، وإلى تنمية قدرته على إدراك العلاقة بين ما هو ذاتي وما هو تاريخي في مجتمعه ، لابد وأن يكون في حاجة إلى ما يطلق عليه المفكر وعالم الاجتماع الأمريكي س . رايت ميلز C.W. Mills «الخيال السوسيولوجي» Sociological Imagination ، ويعني به نوعاً من العقل والفكر يساعد الإنسان عامة والباحث الاجتماعي خاصة على

استخدام المعلومات وتطوير التفسير والاستبطان^(٣). والأديب الفنان يؤسس عمله على الخيال (الأدبي) الذي يكثف الخبرة الإنسانية ويصوغها جمالياً من خلال رؤية للعالم (على ما يذهب جولدمان L. Goldman).

غير أن هذا التشابه يقابله نوع من التباين والاختلاف على صعيد النظرة والأدوات. فعلم الاجتماع يوظف المنهج العلمي في درسه للظواهر الإنسانية والاجتماعية، ويتوسل بأدوات دقيقة للوصول إلى حقائق العالم الاجتماعي. والباحث الاجتماعي يستخدم في الوصف والتحليل لغة علمية ومفاهيم متعارفاً عليها، ويلتزم بقواعد مقننة في الحصول على بياناته وفي عرضها وفي تفسير ما يتوصل إليه من نتائج، أما الأدب فغير ملتزم بالوصف الموضوعي أو التحليل العلمي، ولا يقف عند المظاهر الخارجية للحياة الاجتماعية، بل ينفذ إلى عمق الأشياء والظواهر حين يصور كيفية تشكل خبرة الإنسان بالمجتمع، وطرق تحول هذه الخبرة إلى مشاعر إنسانية، وكيفية نشأة وتطور المواقف والمشكلات الحياتية. وهنا تتجلى قدرة الأدب المحدودة على الكشف عن خصوصية وبراء الواقع، وعن تعقد علاقة الإنسان بهذا الواقع. وهنا، بالتحديد، يتفوق الأدب على علم الاجتماع.

إن هذا التباين لا يؤسس بالضرورة طلاقاً بين عالم الإبداع الأدبي وعالم التحليل والفهم الاجتماعي بقدر ما يدعير إلى السعي نحو اكتشاف مواقع التماثل بينهما، درءاً لمحاولات تكريس الحواجز بين الفاعليات الإنسانية، ولدينا في هذا الصدد مجموعة ملاحظات مستمدة من بعض الشواهد، نسوقها باختصار:

١- علم الاجتماع هو أحد العلوم الإنسانية التي أخذت منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان تقدم إسهاماتها في فهم المجتمعات، البدايات وغيرها، وتوسع من اكتشافاتها في النفس البشرية. وقد مثل، إلى جانب علوم الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي والتاريخ رصيدها هائلاً من المعرفة التي كان لها أثرها في تنامي وعي المبدعين الأدباء بطبيعة سيكولوجية الأفراد، وطبيعة التحولات الاجتماعية، وحركة التاريخ. ولسنا في حاجة إلى ذكر أثر هذا الوعي في ظهور الاتجاهات الأدبية الحديثة.

٢- إذا كانت للأعمال الأدبية قدرة غير محدودة على الوصف الثري للمشاعر الإنسانية، وإذا كان هذا الوصف يمنح المتلقي العادي خبرة أكثر ثراء بالحياة والمجتمع، وفيها أرحب للنفس البشرية بجوانبها المختلفة، فإن الباحث الاجتماعي، الذي يمثل فهم الإنسان والمجتمع واستكناه العلاقة بينهما جوهر عمله، هو أحوج ما يكون إلى تلك الخبرة، ولعل ذلك هو ما جعل أحد المفكرين المعاصرين، وهو ريتشارد هوجارت R.Hoggart يؤكد أنه «بدون الشواهد الأدبية الحسنة، يفقد الباحث الاجتماعي شعوره ببراء وخصوصية للمجتمع»^(٤).

٣- ثمة «حالات» أدبية تجسد، أكثر من غيرها، فرصة لطرح التساؤلات حول مواقع التماثل بين الأدبي والسيكولوجي، وأقصدها هنا نمطيناً حالات بعض المفكرين الاجتماعيين وعلماء الاجتماع الذين يمارسون كتابة الأعمال الأدبية (الروائية خاصة). وكأمثلة على هذه الحالات في أدبنا العربي نذكر حلیم بركات وعبد الله العروى ومبارك ربيع وهشام شرابي. ففي التجارب الروائية لهؤلاء المفكرين تتداخل نزعته القصص وتوظيف أدوات التعبير الأدبي مع الميل إلى التحليل العلمي للظواهر المجتمعية. وأياً ما كان حكمنا على هذه التجارب، فهي تشهد على أن الفهم الأدبي والفهم الاجتماعي يمكن أن يقارب كل منهما الآخر.

عالم الفكر

٤- ضمن الإنجازات الفكرية والعلمية المعاصرة، ثمة مناخ نظرية تؤسس للدراسات بينية Inter-disciplinary في حقل علم اجتماع الأدب، ويسهم في تطوير هذه المناخل منظرون تقديرون يجمع بينهم - رغم اختلاف مواقفهم الفلسفية - الاهتمام بالعمليات المعقدة للغة وسياسات التفسير. والفكرة المحورية في هذه المناخل هي أن الخبرة الأدبية والخبرة السوسولوجية يمكن النظر إليهما كواقعتين لصياغة معنى Making meaning، وأن الأساس الذي يجعل هاتين الواقعتين قابلتين للمقارنة هو اللغة، وبالتالي فإن البحث ينبغي أن ينصرف إلى تحليل عمليات صنع المعنى النصي بوصفها مناظرا أو مقابل لعمليات صنع المعنى الاجتماعي. وحسباً يذهب هانز-جورج جادامر Hans-Georg Gadamer، فإن العمليات التفسيرية، ووقائع الفهم كافة، سواء تعقلت بنصوص أدبية، أو بالتفاعل بين أشخاص، أو بمواقف اجتماعية، هي عمليات ووقائع تنهض على اللغة. إن الواقع المجتمعي، بكل ما يعضه من قوى ملموسة، يتبدى في وهي متعقّبة لغوية - وهو - أي الواقع - لا يحدث «من وراء ظهر» اللغة، بل يحدث فداخل «اللغة» (٥). وإذا كان جادامر ينطلق من منهج تأويلي فلسفي، فإن مفكري ما يعرف بـ«البنوية» Post-Structuralism - رغم تشابههم مع التقاليد التأويلية - هم أيضاً يعالون بين فهم العالم الاجتماعي وفهم عالم النصوص، انطلاقاً من أهمية اللغة، والطرق التي تقوم من خلالها بإثراء المعنى أو تشويهه. فاللغة عند جاك ديريدا J. Derrida نسق من اندوالات إرادته الخاصة، ويتمس بعدم الانغلاق ويتحدد التاريخي، وبالتالي ثمة دائماً إمكانيات للمعاني وتفسيرات إضافية. وعند بول ريكور P. Ricoeur يمكن مقارنة الفعل الاجتماعي Social action بالخطاب Discourse، وبالتالي فإن فهم الظواهر الاجتماعية يناظر فهم النص، وفي النظرية المعاصرة عموماً تمثل بنية اللغة نموذجاً لأي نسق من أنساق المعنى، سواء أكان هذا النسق مجموعة من علامات الطريق، أو مجموعة من الأفعال الاجتماعية، أو تشكيلة من العلامات اللغوية في صورة قصيدة (٦). ألا تشير هذه الإسهامات الفكرية إلى مساحات واسعة مشتركة ومواقع قوية للتمفصل بين الخبرة الأدبية والخبرة السوسولوجية؟

الصلة بين علم الاجتماع والنقد الأدبي: عزلة أم تعاون؟

يلاحظ المرء، في بعض الكتابات المتعلقة بالتفسير الاجتماعي للأدب، اهتماماً واضحاً بمناقشة طبيعة الصلة بين مهمة الباحث الاجتماعي ومهمة الباحث الأدبي في دراستها للظاهرة الأدبية، وتكشف المتابعة الفاحصة لهذه المناقشات عن وجود ثلاثة اتجاهات.

يميل أصحاب الاتجاه الأول إلى الفصل التام بين عمل الناقد الأدبي وعمل الباحث الاجتماعي. ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه عالم الاجتماع الألماني للمعاصر هانز نوربرت فوجن H.N. Fuegen الذي يشدد على أن لكل من النقد الأدبي وعلم اجتماع الأدب مجاله الخاص والمستقل تماماً، وحدوده التي لا ينبغي أن يتجاوزها. ويكرس فوجن فصلاً كاملاً في أكثر كتبه أهمية وشهرة لترسيم الحدود الفاصلة بين النقد الأدبي وعلم اجتماع الأدب. فمهمة الباحث الاجتماعي هي - حسب فوجن - دراسة ما يتصل بالعلاقات الإنسانية المحيطة بالتأصيل الأدبي، خاصة علاقة الكاتب - القارئ، وليست دراسة هذا العمل ذاته، لأن دراسة النص وما يحمله من قيم أدبية وجمايلية، وإصدار حكم على هذه القيم، هي أمور أو مهمات تدخل في نطاق عمل الناقد الأدبي فحسب وليس للباحث الاجتماعي أن يقترب منها (٧). ويشترك مع فوجن في هذا المنحى قطاع واسع من

أصحاب النزعة الوضعية الإمبريقية في مجال سوسولوجيا الأدب، والتي منعرض فيها بعد لأهم قضاياها ومناهجها. وينهض هذا الفصل الحاد بين مجالي النقد وعلم الاجتماع على النظرة التقليدية التي ترى العمل الأدبي بوصفه كيانا مستقلا، لا تربط بين جوانبه الجمالية وبين الواقع الاجتماعي أية صلة، وترى أن معايير الحكم التي تستند إليها الدراسة الأدبية ينبغي أن تستمد من علم الجمال فحسب، ولما كان علم الجمال - لدى أصحاب هذه النظرة - علما معياريا مستقلا، فإنه لا ينبغي أن يرتبط بعلم الاجتماع، باعتبار أن هذا الأخير علم وصفي دقيق. ولا يدرك أصحاب هذه النظرة أن المعايير الجمالية ذاتها مشروطة اجتماعيا، وأن الأمر الذي صار يلقى اعترافا من علماء الجمال أنفسهم هو أنه من غير الممكن فصل أي «علم جمال خالص» عن الفهم السوسولوجي للفنون^(٨).

إن هذا الميل إلى العزل بين الدراسة الأدبية والدراسة الاجتماعية للأدب هو تكريس لقطيعة بينهما، لا تنضي إلا إلى خسائر أبسطها ضياع فرصة الفهم الأعمق لطبيعة الظاهرة الأدبية بكل أبعادها وتعقيداتها.

ويرى أصحاب الاتجاه الثاني أن الصلة بين علم اجتماع الأدب والنقد الأدبي تنطوي على شكوك متبادلة أحيانا، وتعصب أحيانا أخرى. وقد تنطوي هذه الصلة على تهديد يمارسه علم الاجتماع على النقد الأدبي والتعليم الأدبي. فالشكوك المتبادلة تنشأ عن خوف الناقد الأدبي - كدراس للإنسانيات - من النزعة الكمية لدى علم الاجتماع، والتي تمحو ما هو جوهري في الأدب وتختزل النص الأدبي أو تفرض عليه تفسيرات متسفية، ومن خوف علم الاجتماع واستخفافه - من ناحية أخرى - بالنزعة الانطباعية لدى الناقد الأدبي. وقد تصاعد الشكوك المتبادلة وتصل إلى درجة العداء أو الصراع العنيف بين التخصصات الأكاديمية. وينشأ التعصب عن إساءة فهم وتقديم كل طرف للطرف الآخر. فهناك من نقاد الأدب من يشيع تمعيا مزعوما مؤداه أن علماء اجتماع الأدب يعتقدون أن الأعمال الأدبية ناشئة عن عوامل حتمية، بيئية أو طبقية، وأنها لا تفسر إلا بهذه العوامل. وهناك علماء اجتماع يهتمون نقاد الأدب التقليديين بأنهم يعزلون الأدب في عالم محلق من الحقائق الداخلية، وينكرون أية صلة تربطه بالمجتمع وحيية الإنسان التاريخية. ويرى جيفري سامونز J. L. Sammons أن هذه المزايع من جانب الطرفين تتسم بخصوص التعصب الأعمى، حيث يقطع كل طرف بعض المظاهر وأوجه القصور من الطرف الآخر. ويقدمها كأنها تسم الكل. وهذا المسلك يتجاهل القاعلة التي تفرض ضرورة تمحيص المقدمات ومتابعة منطق الطرف الآخر، ويعتمد على الاقتباس من السياق فحسب^(٩).

أما القول بأن علم الاجتماع يمارس تهديدا إزاء النقد الأدبي، فيرجع - في جزء كبير منه - إلى قدرة علم الاجتماع على تغدي بعض الأفكار والتقاليد الأدبية التي طلما مثلت أهمية خاصة بالنسبة للمشتغلين بالدراسة الأدبية والتعليم الأدبي. ففي المجتمعات (الغربية) الحديثة، يلاحظ أن نسبة كبيرة من المنتج الأدبي تزول بسرعة من الذاكرة وأن النسبة الباقية لانهم إلا قطاعا ضئيلا فقط من السكان، ويرجع ذلك - حسبما يذهب سامونز^(١٠) - إلى التضخم الذي أصاب المجتمع الحديث. وقد قدمت بعض الدراسات السوسولوجية عددا من الشواهد التي تشير إلى أن كل الأدب الذي يغطي بالتبجيل هو في النهاية سريع الزوال، ويختفي من الذاكرة الثقافية مع اضمحلال السياق الاجتماعي الذي ارتبط به - ويشير سامونز في هذا الصدد إلى أبحاث عالم الاجتماع الفرنسي روبرت اسكاربيت R. Escarpit التي كشفت عن أن الناس في أي عصر يعرفون عن كتب عصرهم، القدر نفسه الذي يعرفونه عن كتب الماضي، مما يدل على التراجع المستمر للأعمال الأدبية عن

الذاكرة الثقافية ودخولها في مناطق النسيان، وأن العمل الأدبي يبقى حياً فقط إذا ظل يخاطب شريحة أدبية، وهي عموماً شريحة ضيقة تمثل أقلية في المجتمع. كما يشير سامونز إلى أبحاث عالم الاجتماع السويسري كارل إيريك روزنجرين K. E. Rosengren التي تركزت على الجوانب السوسولوجية للنقد الأدبي، والتي خلصت إلى نتائج مشابهة لتلك التي توصل إليها إسكاريست. ويرى سامونز أن التحدي الذي يمثل علم الاجتماع يتجسد فيما تعنيه هذه النتائج من أن كبار الأدباء في تاريخ الثقافة الغربية هم - من وجهة نظر المجتمع - غير مهمين، أو أنهم يشكلون موضوعاً للاستحواذ المظهري لدى أقلية من أعضاء المجتمع. ويشير هذا التحدي تساؤلات حول مكانة الأدب وأهميته في الخبرة الإنسانية ككل، وحول جدوى الجهود التي يبذلها نقاد الأدب والناقدون على التعليم الأدبي من أجل ترسيخ الثقافة الأدبية. ويخلص سامونز إلى أن استجابة النقد الأدبي لهذا التحدي ينبغي ألا تقتف عند مجرد إزداراء النزعة السوسولوجية المقرطة Sociology التي تمثلها تلك البحوث، أو مجرد التركيز على فقرة التفاويز على استقلال الفن وقيمه السرمدية^(١١).

أما الاتجاه الثالث، فيرى أصحابه أن إقامة الفواصل العازلة بين النقد الأدبي وعلم الاجتماع أمر صعب، بل مستحيل، وأن العلاقة بين المجالين لا ينبغي أن تنطوي على شكوك أو صراعات أو عداء أو تهديد، بل العكس هو الصحيح تماماً، ونحن نميل إلى هذا الرأي. فالأدب إبداع إنساني تصوغه كائنات بشرية تعيش في ظل تأثيرات اجتماعية معينة، وبالتالي فالأعمال الأدبية تكون متجذرة في واقع اجتماعي وثقافي معين، وتشكل بنيتها - جزئياً - من خلال التصورات الجمعية التي تميز جماعات أو طبقات معينة أو عصرًا محددًا. ولذا، فإن الأثر الأدبي يعد مكاناً فريداً تتجلى فيه، على نحو معقد، الصراعات التاريخية الخاصة بعصر ما، ويتجسد ذلك في محتوى الأثر، وفي لغته، وفي أسلوب تشكيله، مما يجعل العلاقة الجدلية بين دراسة الأدب ودراسة للمجتمع أمراً ضرورياً^(١٢). فهذه العلاقة الجدلية من شأنها أن تشرى المنابع، وتزيد من دقة الأدوات البحثية وكفاءتها. ولا يعني التأكيد على ضرورة وجود هذه العلاقة حلاً توفيقياً أو تبسيطاً غفلاً للأمور أو تجميعاً للحدود بين المجالات المعرفية، بقدر ما يعني إدراكاً لإحدى الحقائق البارزة في عصرنا، والتي تتمثل في التراكم المتسارع للمعرفة، وظهور نظم معرفية جديدة باستمرار، وتحقق تمايزات نظرية ومنهجية داخل النظام المعرفي الواحد. وهذه التمايزات مفيدة بلا شك، لكنها يمكن - إذا لم ندرك أبعادها - أن تقضي على نوع من القوضى والتشتت في المجالات البحثية، وإلى التجزئة التعسفي للظواهر، وأن تخلق حالات من العزلة والمخاوف والشكوك المتبادلة بين النظم المعرفية المختلفة، خاصة تلك التي تشترك في دراسة ظاهرة أو مجموعة ظواهر معينة. ولعل إدراك هذه الحقيقة هو الذي دفع المفكرين والعلماء المعاصرين إلى الاعتراف بأهمية ما أصبح يعرف بالداخل البينية (أو التكاملية). Interdisciplinary approaches القائمة على التعاون بين النظم المعرفية المهمة بموضوع ما.

وإذا كانت الظاهرة الأدبية تمثل مجالاً واسعاً تتداخل فيه، وبصورة عميقة، دراسة الأدب مع دراسة المجتمع، فإن درس هذه الظاهرة أحوج ما يكون إلى التعاون والإخصاب المتبادل بين النقد الأدبي وعلم الاجتماع بعيداً عن مشاعر الحرف أو العداء أو التهديد من جانب أي طرف. والأجدى هو أن نتصرف بالجهود المشتركة إلى التعامل مع الإشكاليات التي برزت عبر مسيرة التفسير الاجتماعي للأدب، وهي الإشكاليات التي سنسعى إلى توضيحها في هذه الدراسة.

التفسير الاجتماعي للأدب: الجذور

للعودة إلى جذور الأفكار والنظريات فوائده، لعل أبسطها التعرف على الدور الذي لعبته الفكرة في الماضي، وما طرحه من قضايا وإشكاليات، ثم معرفة التطورات التي لحقت بها، والسلطات التي مارسها في مجال أو مجالات فكرية أو علمية معينة، وكيف تعامل الباحثون، على مر العصور مع هذه الفكرة، وما أدخلوه عليها من تعديلات أو تحويرات أو إضافات. . إلخ، وفي مجال التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية تبدو العودة إلى فكرة «المحاكاة» Mimesis في الفلسفة اليونانية، خاصة عند كل من أفلاطون Plato (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) وأرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) ذات قيمة، لأنها - أي الفكرة - تمثل جذرا بعيدا لمفاهيم ونظريات عديدة، تاريخية ومعاصرة، لها شأنها في حقل الدرس الاجتماعي للأدب.

كان أفلاطون يرى أن كل الفنون تقوم على التقليد، فالفنان أو الشاعر يحاكي وقائع موجودة حوله في العالم الطبيعي المادي المحسوس، وإن كان هذا العالم ذاته هو محاكاة أو صورة شائقة ومزيفة لعالم المثل أو الأفكار أو الحقائق المطلقة. ونحن نعرف أن أفلاطون - كفيلسوف مثالي - كان يؤمن بأولية العالم المثالي وبأسبقيته على الوجود، وبأن العالم الطبيعي هو صورة ناقصة لعالم المثل الأول الذي هو من صنع الخالق الأول (الله)، لذا، فالشاعر حين يحاكي الواقع، فإنه يقوم بمحاكاة للمحاكاة، ويصبح عمله بمثابة «المرآة» التي «تعكس» الظواهر. والأشياء للمحاكاة بصورة حرفية. حتى ولو كانت هذه الظواهر والأشياء مزيفة وغير حقيقية^(١٣). وقد أخذ أرسطو فكرة المحاكاة من أفلاطون، لكنه انجذب في فهمها إنجذابا مغايرا، بل لعله مناقض. فهو لم يفهم المحاكاة على أنها تصوير مرآوي لما هو موجود في الطبيعة، بل رأى أن الشاعر أو الأديب أو الفنان حين يحاكي، فإنه يطمح إلى تحقيق شيء لم تستطع الطبيعة إنجاده، وفي طمرحه هذا يحاول محاكاة ما يمكن أن توجده الطبيعة فيها لو تمكنت من إنشائه. وحين ذكر أرسطو عبارته الشهيرة: «فشعر الملاحم وشعر التراجيديا، وكذلك الكوميديا والشعر النثوري، وأكثر ما يكون من الصغر في الناي والمعب بالقيثار - كل تلك، بوجه عام، أنواع من المحاكاة»^(١٤)، فإنه لم يكن يقصد إلى أن الشاعر أو الموسيقي يقدم فنه في صورة مكررة للطبيعة، وإنما هو يعبر عما كانت الطبيعة ستعمله احتمالا، أي أنه يعيد خلق الواقع وفقا لمفهوم محدد أطلق عليه أرسطو «الرجحان أو الضرورة» الذي يعني تنظيم العمل الفني بصورة تجعله مقبولا من جانب العقل الإنساني. يقول أرسطو إن «عمل الشاعر ليس رواية ما وقع بل ما يجوز وقوعه وما هو ممكن على مقتضى الرجحان أو الضرورة»^(١٥).

لم يعدد أرسطو إذن بفهم أفلاطون للمحاكاة بوصفها نقلا مرآويا أو حرفيا للطبيعة، بل نقض هذا الفهم، ومنح الفنان حرية التصرف في النقل، وفقا لمبدأ الضرورة الذي يجعل الفنان - كبدع - مكتملا ما في الطبيعة من نقص، بشرط أن يكون الفنان قادرا على إقناع الناس بما يقدمه لهم من محاكاة، خاصة أن الفنان أو الشاعر لا يحاكي أشياء محسوسة، بل يحاكي أشياء معنوية أو نفسية تتصل بحيات الناس وعواطفهم. ولكي يتمكن من تحقيق هذا الإقناع، ينبغي له أن يؤثر «استعمال المستحيل المقول على استعمال الممكن غير المقول»^(١٦). وهنا يضع أرسطو أول قاعدة في جماليات التلقي، مثلما وضع أول قاعدة منتظمة في آليات الإحالة إلى الواقع مؤسسة على فكرة المحاكاة.

وقد مارس مفهوم المحاكاة الأرسطي سلطة واسعة وقوية على عقول المفكرين والفلاسفة وبارسي الأدب لعدة قرون، كما استخلم مفهوم الضرورة (الذي هو من مضمّنات المحاكاة) بصورة واسعة في النقد الأدبي الأوربي، خاصة من جانب أصحاب المذهب الكلاسيكي في فرنسا، واعتبر من المفاهيم الحاكمة لعلاقة الشعر بالواقع، والعمل الأدبي بالطبيعة^(١٧). وشهدت التنظيرات النقدية الأوربية مجموعة من المفاهيم التي كانت تمثل إضافات إلى مفهوم المحاكاة، أو تنويعات عليه، أو إعادة إنتاج له، مثل:

الانعكاس، التمثيل، المصارقة، مشابهة الحقيقة، التوافق، الرؤية، المرأة، الاستعارة الحية، التماثل أو التجانس، الإحالة الاجتماعية^(١٨). ونقل كتاب الشعر لأرسطو إلى العربية في أوائل القرن الرابع الهجري، ومثله الفلاسفة والبلاغيون، سواء بالتلخيص والتفسير أو باقتباس بعض القواعد والمبادئ، واستخدامها في جهودهم النقدية التي انصبّت غالباً على دراسة الشعر العربي في ضوء قوانين الصنعة الشعرية، بعبارة أخرى، كان تأثير النقد الأدبي العربي القديم بالجوانب المنطقية والفنية أوضح منه بالجوانب النفسية لفكرة المحاكاة، أو للأليات التي تتم من خلالها عملية المحاكاة. ويتضح ذلك في شروح الفارابي وابن سينا وابن رشد لكتاب الشعر، وتعاملهم مع فكرة «التخييل» التي تبناها كبديل لمفهوم «المحاكاة»، كما يتضح في أعمال نقاد كبار من أمثال قدامة بن جعفر وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني الذين شغلهم قضايا اللفظ والمعنى والكذب الفني والنظم وغيرها من القضايا الفنية^(١٩)، ولم تشغلهم محاولة فهم تأثير حياة الشعراء الشخصية أو النفسية أو حياة القبائل والجماعات العربية على إنتاج الشعراء. صحيح أننا نجد في بعض الآثار النقدية العربية القديمة بعض الإشارات التي توحى بالربط بين الشعر وبين البيئات التي عاش فيها الشعراء، مثل تلك التي وردت في أعمال ابن سلام الجعفي، وعبد الله بن المعتز، والأصدي، إلا أن هذه الإشارات لا ترقى إلى مستوى المبادئ أو النظريات إلا إذا حملت ما لا يطبق من استنتاجات^(٢٠). ونحن لا نجد في الفكر العربي القديم أو الوسيط من سعى إلى الربط بين الأدب أو الأدباء وبين واقعهم وما يصيب هذا الواقع من تحولات، سوى عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦ م) الذي يرى البعض أنه «أعظم ناقد» في عصره، رغم أنه لم يمنع النقد الأدبي من جهله الشيء الكثير^(٢١). إذ أنه كان مشغولاً بتطوير نظرية عامة عن «العمران البشري» والقوانين التي تحكم عمليات التغير الاجتماعي والسياسي.

في فكر ابن خلدون نجد جلوساً للنظرة الاجتماعية للظاهرة الأدبية، وتمثلت هذه الجلوس في أمرين: الأول هو نظرة ابن خلدون للشعر بوصفه نشاطاً إنسانياً، يوجد في كل لغة، وله أساليب تخصه وشرط لإحكام صناعته. والمرة يتحصل على الملكية الشعرية - أو الشعرية - من خلال عملية التعلم التي تنمي لديه ما يطلق عليه ابن خلدون «الذوق» والعنصر الأهم في عملية التعلم هو الحفظ. فيحفظ الشعر تنشأ الملكية الشعرية، ويحفظ الأسجاع والترسيل تنشأ ملكة الكتابة، وعلى مقدار جودة المحفوظ أو السموح تكون جودة الاستيعال من بعده ثم إعادة الملكية من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقة من الكلام ترتقي الملكية الحاصلة لأن الطبع إنها ينسج على منوالها. وتنمو قوى الملكية بتفخيضها. وذلك أن النفس وإن كانت في جبتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات. واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكفيها من خارج، فبهذه يتم وجودها، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها^(٢٢). ومن هنا يفسر ابن خلدون تفوق العرب الإسلاميين في البلاغة على الجاهليين. فالذين «أدركوا الإسلام سمعوا

الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها، كونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فتهضمت طباعهم وارتقت ملكاتهم على البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها» (٢٢).

الأمر الثاني هو معارقة ابن خلدون بين وضع الأدب والأدباء وبين أطوار الدولة؛ نشأها وازدهارها ثم اضمحلها. ففي فصل بعنوان «في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول» يذهب ابن خلدون إلى أن الحاكم يكون أشد حاجة للسيف في كل من المرحلة الأولى والمرحلة الأخيرة من مراحل عمر الدولة، حيث يكون أهل السيف شركاء في المعونة في بداية نشأة الدولة، وشركاء في الحماية في حالة ضعفها وهزيمها. وفي المرحلتين يكون للسيف وأهله مزية على القلم وأهله (الأدباء) فيصير أرباب السيف «أوسع جاهاً، وأكثر نعمة وأسمى إقطاعاً». أما في المرحلة الوسطى، حيث يستغنى صاحب الدولة ببعض الشيء عن السيف، يكون القلم هو المعين له في إرساء دعائم الاستقرار وفي مبالغة الدول، ويكون أرباب القلم هم الأوسع جاهاً والأعلى رتبة والأعظم ثروة والأقرب إلى السلطان (٢٤). في هذه الفكرة التي تربط بين النظام الأدبي والنظام السياسي بذور قابلة للتنمية والتطوير، خاصة أن ابن خلدون كان يصوغ أفكاره بالتأسيس على تجربة ميدانية عاشها من خلال حياته ومغامراته في المغرب العربي، ورحلاته إلى المشرق العربي. لكن هذه البذور لم تثمر لأنها لم تجد من بعد ابن خلدون من يتعهدا، إذ كانت المنطقة العربية قد دخلت عصراً من الركود الاجتماعي والثقافي الذي سد الطريق أمام أي إبداع فكري. ولم يشهد التراث الفكري الإنساني ظهوراً لبذور جديدة مبشرة في مجال الضمير الاجتماعي للظاهرة الأدبية إلا في عصر النهضة الأوروبي.

إرهاصات علمية مبكرة

لم يكن التفكير في الإبداع الأدبي في ظل شروطه الاجتماعية مسألة ممكنة قبل بداية القرن السابع عشر. فالأبنية الاجتماعية الثابتة، والقيم الغيبية التي هيمنت على الحياة في العصور الوسطى لم تكن تسمح للإنسان بالنظرة العقلية تجاه النظم والأشياء. غير أنه مع اضمحلال تلك العصور، وبداية ما عرف بعصر النهضة الأوروبية، بدأ وهي الإنسان بالمجتمع ونظمه يتبلور، وبدأت تدور بين المفكرين نقاشات حول مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية. وكشفت تلك النقاشات، في مجال الأدب والنقد الأدبي، عن أهمية بعض العوامل التشريعية والاجتماعية في صياغة الأدب، وبدأت تظهر بعض المصطلحات النقدية في أوساط المفكرين الذين ازداد اهتمامهم بالمقارنة بين آداب الشعوب المختلفة، وآداب الحقب المتباينة. وقد ساعدتهم هذه المقارنات على تقديم بعض الأفكار الهامة التي كانت بمثابة إرهابات علمية مبكرة لتحليل الأدب في ضوء العوامل الاجتماعية.

ويعد المؤرخ والفيلسوف الإيطالي جامباتيستا فيكو Giambattista Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) واحداً من أبرز مفكري القرنين السابع عشر والثامن عشر في أوروبا، حيث أجرى عدداً من الدراسات الأدبية والفلسفية واللغوية والقانونية عدت إرهاباً لنظرية كبرى في المجتمع البشري قدمها فيكو فيها بعد في مؤلفه الهام «العلم الجليد» New Science الذي نشر لأول مرة عام ١٧٢٥، لكنه لم يلق الشهرة الجليدة به آنذاك، رغم ما كان يتميز به العصر من انتشار الجهود الساعية إلى بحث العلاقة بين العقل

عالم الفكر

الإنساني باعتباره أداة التفكير، وبين الكون المادي من حوله، وتقدم في العلوم التجريبية، وتبلور نظرة علمية جديدة في دراسة التاريخ والظواهر الإنسانية^(٢٥).

في كتاب «العلم الجديد» يفسر فيكو التاريخ في ضوء فكرة اللبورات، ويشدد على ضرورة أن تكون نظرتنا لإبداعات الإنسان في مجالات العلوم والفنون نظرة نسبية تعالقي بين هذه الإبداعات وبين الواقع الذي عاش فيه صاحبها، وما يتميز به هذا الواقع من خصائص مكانية وسياسية، كما تعالقي بين الإبداعات، وبين الزمن أو الحقبة التاريخية التي ظهرت فيها. وأهم للمسلات التي يتعاض عليها العلم الجديد (وعدها مئة وأربع عشرة مسلمة) هي أن الإنسان هو صانع تاريخه، وأن طبيعة التنظيمات الاجتماعية وخصائصها تتحدد وفق أسلوب نشأتها وزمن هذه النشأة وتطورها، وأن العقل الثري لديه ميول فطرية تخلق الأساطير وإبداع الشعر^(٢٦).

أما الأطروحة الرئيسية التي تشكل قوام فلسفة فيكو برمتها فهي أطروحة «الحكمة الشعرية» التي مؤداها أن تاريخ الشعوب الأول قد بدأ بلباية شعرية، وأن الشعراء هم أول من تغنى بأحداث التاريخ، ومن ثم كانوا هم مؤسسي الشعوب والنظم البشرية، وكانت حكمتهم، كشعراء، حكمة شعبية عملية. وهذه الحكمة الشعرية هي البدايات الأولى والفجة للعلوم والفنون، وتطورت مع تطور المجتمعات وتطور العقل البشري جنباً إلى جنب، فبدأت بلباية دينية، ثم بطولية، وانتهت إلى حكمة بشرية - ألا وهي حكمة الفلاسفة.

وفي ضوء هذه الأطروحة درس فيكو حكمة هوميروس الشعرية، وخصص لها كتاباً من مؤلفه «العلم الجديد»، كرمه لاكتشاف حقيقة شخصية هذا الشاعر التي كانت تعبيراً عن الشخصية اليونانية، أو هي مثال للعقلية اليونانية، بعبارة أخرى كان هوميروس مترجماً لمعادن وصفات البيئة اليونانية، التي استمد منها حكمته الشعرية. ولما كان العصر الذي عاش فيه هوميروس عصراً بطولياً له صفات خاصة فإن شعره كان شعراً بطولياً، فالشخصيات في «الإلياذة» تتصرف مدفوعة بعواطفها ولا تفكر تفكيراً عقلانياً، حيث كان العصر مشحوناً بالانفعالات السامية وكان الشعب معتداً بنفسه، وكانت قيم الشرف والشجاعة هي السائدة في مجتمع قادر اقتصادياً. أما «الأوديسا» فقد كتبها هوميروس بعد ذلك بوقت طويل، أي في فيسخوته، وبعدما كانت العقلية اليونانية قد تطورت، وكان المجتمع اليوناني قد اكتسب خصائص جديدة، حيث كانت الانفعالات والعواطف قد خمدت إلى حد ما، ولذا جاءت شخصية بطلها «أوديسيسوس» مختلفة عن بطل الإلياذة «أخيل» فهذا الأخير هو بطل الشجاعة والعنف والاندفاع، أما أوديسيسوس فهو بطل الحكمة المرتبطة بالشيخوخة. وفي كل من العمليين (الإلياذة والأوديسا)، كانت أشعار هوميروس تتناول عادات الشعوب الإفريقية، وترتبط في محتواها بالثقافة اليونانية التي كانت تتشكل في ضوء تطور البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية^(٢٧). ولم تقل تحليلات فيكو من الربط كذلك بين طبيعة شعر هوميروس وبين سيكولوجية الشعب اليوناني وتطور عقليته ونظمه^(٢٨)، مما جعل البعض يرى أن فيكو في إقامته للصلة أو التناظر بين الإبداع الأدبي خاصة والإنجازات الثقافية عامة وبين الأنساق الاجتماعية قد أسهم في وضع الأسس الأولى لما أصبح يعرف فيما بعد بعلم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge^(٢٩)، وهو أحد تخصصات علم الاجتماع، يتم بدراسة النظم المعرفية في صلتها بأطرها الاجتماعية والتاريخية.

كانت تفسيرات فيكو في مؤلفه «العلم الجديد» شيئا جديدا غير مألوف من قبل : قراءة الأدب وتحليل عناصره في ضوء محددات مادية قائمة في البيئة الحضارية، وليس في ضوء مسائل غيبية وميتافيزيقية غير ملموسة. وكانت لتفسيراته آثار فيا جاء بعد ذلك من محاولات، خاصة تلك التي اهتمت بإقامة تناظر بين الصيغ والأشكال الفنية وبين البنى الاجتماعية والسياقات الثقافية التي ظهرت فيها هذه الصيغ والأشكال.

في ألمانيا كان للفيلسوف يوهان جوتفريد هررد J. G. Herder (١٧٤٤-١٨٠٣) أفكار تشبه أفكار فيكو، مما جعل بعض الباحثين يرجعون أن هررد قد تأثر بفيكو، رغم عدم وجود دليل مادي على ذلك، ورغم أن هررد قد ذكر أنه لم يعرف فيكو إلا بعد عشرين عاما من وضعه لفلسفته التاريخية التي ضمنها كتابه «أفكار عن فلسفة تاريخ الجنس البشري» الذي بدأ وضعه عام ١٧٨٤، وصدر عام ١٧٩١^(٣٠). كانت دراسات هررد مركزة في معظمها على اللغة وفلسفة التاريخ الإنساني وعلم الجمال. وكانت له زيارات متعددة للمدن الأوروبية من بينها روما التي مكث فيها حوالي أربعة أشهر، وناپولي - مدينة فيكو - حيث مكث فيها ثمانية أيام^(٣١)، وهناك جمع عددا من الوثائق التي أفادته في صياغة أفكاره حول فلسفة التاريخ. وربما كانت رحلته هذه إلى إيطاليا هي التي تدهم الرأي القائل بتأثره بفيكو.

كان اهتمام هررد موجها إلى دراسة اللغة بوصفها الشكل الأولي للتعبير البشري، والشرط الأساسي للإنجاز الثقافي لدى أي شعب، «فأي شعب لن يكون لديه أية فكرة إن لم يكن لديه كلمة يعبر بها عن هذه الفكرة»^(٣٢). ومن خلال تعمقه في دراسة اللغة توصل إلى رفض مقولة Apriorismus العقلية عند كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) الذي كان مهتما بالذات العارفة، والذي ذهب إلى أن الجمال والحكم الجمالي يخضعان للملكة مستقلة لدى الإنسان هي مصدر الإحساس والشعور بالجمال، وأسمائها «ملكة الحكم» وأن تلذوق الإنسان للجميل لا يتم وفقا لاستخدام أية تصورات عقلية ولا يرتبط بأي غرض أو منفعة معينة، أو بأي خبرة سابقة على هذا التذوق.

لقد كانت القضية الأساسية عند هررد هي : لماذا تتطور آداب معينة في مناطق معينة، بينما تفشل في تطوير نفسها في مناطق أخرى؟ وفي تعامله مع هذه القضية اهتم بالتشديد على تاريخية الظاهرة الجمالية، وربطها «بالمصر والظروف» ويتنوعه من الشروط الملموسة^(٣٣). فقد رفض النزعة الميتافيزيقية المثالية لدى كانط، كما رفض الفصل بين الفن والواقع والخبرة الإنسانية، وألح على ضرورة تأسيس علم إمبيريق للجمال ينهض على العلم الطبيعي والتاريخ وعلم النفس، وذهب إلى أننا لسنا في حاجة إلى أحكام قيمية، فكل شيء وجد لأنه ينبغي أن يوجد.

هذه الأفكار تكتسب أهميتها بالنظر إلى كونها كانت جديدة في عصرها، وبالتالي تعد تمهيدات لأفكار أخرى جاءت بعدها لتتمي اتجاهها متميزا في دراسة الأدب من حيث علاقته بالواقع والتاريخ. لكن هذه الأفكار، من ناحية ثانية، حملت معها أول وأهم الإشكاليات التي واجهت ومازالت تواجه هذا النوع من الدراسة، وأقصده إشكالية المنهج. ولعل ذلك يميز إلى أن هررد لم يتجاوز - فيها خلاص إليه - حدود الوصف (غير الفنتي)، والتعميمات المبهمة، رغم اجتهداه في استخدام مفهومات معينة مثل : المناخ المتغير، والظروف السياسية، والعادات. ففي كثير من الأحيان عندما كان يطبق هذه المفهومات، كان يتوصل إلى استنتاجات ذات طابع ميكانيكي مباشر، يعدها كثير من الباحثين غيبة للكمال^(٣٤).

وعلى صلة بأفكار هردر، كانت الكاتبة الفرنسية آن لويس نكر A. L. Necker أو مدام دي ستال Mme De Staël (1717-1817) تؤسس لأول محاولة في فرنسا لجمع مفهومي الأدب والمجتمع في دراسة منهجية واحدة. فقد كتبت في مقدمة مؤلفها المعنون «الأدب» حيث صلاته بالنظم الاجتماعية De la littérature. فقد كتبت في المقدمة مؤلفها المعنون «الأدب» حيث صلاته بالنظم الاجتماعية. كتبت تقول: «أريد أن أدرس تأثير كل من الدين والمعادن والقوانين على الأدب، وكذلك تأثير الأدب على الدين والمعادن والقوانين» ويبدو أنها كانت تريد البحث في «روح الأدب»، مثلاً بحث معلمها الروحي مونتسكيو Montesquieu (1689-1755) في «روح القوانين»، كما يبدو أنها كانت متأثرة بمفهومي «روح العصر» Zeitgeist و«روح الشعب» Volksgeist الذين نشأ وتطورا في ذلك الوقت في دوائر المفكرين الألمان الذين كانوا على صلة صداقة بالكاتبة الفرنسية^(٣٥).

ربطت مدام دي ستال بين طبيعة الأدب وبين الظروف المناخية فذهبت إلى أن أدب الأمم الشمالية يسوده الحزن الانفعالي أو العاطفي لأن هذه الأمم تتميز بغلبة العيوس والمزاج المتقلب بسبب قسوة التربة وخشونتها، في حين تسود في أدب الأمم الجنوبية مشاهد الحب المتزج بالظلال الوافرة، لأن تلك الأمم تتميز بالبرودة المعتدلة والنسبات الهوائية اللينة التي تجعل الطقس لطيفاً ومعتدلاً. وإلى جانب عامل الطقس تضيف دي ستال عوامل أخرى جمعتها تحت مفهوم «الطابع القومي» الذي يعد في رأيا -نتاجاً لتفاعل معقد بين عدد من النظم القانونية والدينية والسياسية. وفي إطار شرحها لهذا المفهوم تبدي دي ستال ملاحظة هامة مؤداها أن الرواية كجنس أدبي تتطور فقط في المجتمعات التي يكون للمرة فيها مكانة مرموقة ومحترمة من جانب الأفراد والعائلات، والتي تحترم فيها الحياة الخاصة للناس وما تتضمنه هذه الحياة من علاقات اجتماعية وعاطفية. كما لاحظت أيضاً أن الطبقة الوسطى تلعب دوراً هاماً في تطور الأدب، لأنها تفرض الحرية والفضيلة، وهي قيم أخلاقية هامة ومثل شرطاً ضرورياً لتقدم الفن.

بهذه الملاحظات والأفكار تجاوزت مدام دي ستال ما قدمه السابقون عليها في مجال التفسير الاجتماعي للأدب، مما يجعل بعض الباحثين يعتبرون دي ستال الرائدة الحقيقية الأولى لسوسيولوجيا الأدب^(٣٦) والحق هو أن أفكار هذه الكاتبة الفرنسية لا تخلو من أهمية، وإن كانت لم تتخلص من النزعة السببية المباشرة، كما أن مفاهيمها، وخاصة مفهوم الطابع القومي، لم تكن لها معانٍ واضحة ومحددة.

في نهاية القرن الثامن عشر كانت هناك أفكار أخرى جديدة تنمو في اتجاه مغاير تماماً لاتجاه أفكار هردر ومدام دي ستال وغيرهما من اتسمت أعلامهم بالطابع الختمي، وبالبحت عن ارتباطات سببية مادية بين حقائق كالمناخ والجغرافيا وبين الأدب ونهضت تلك الأفكار الأخرى الجديدة على أساس الربط بين تعاطف الانجاء نحو أشكال متعددة من الانقسام الاجتماعي، وبين التفتت الذي أصاب الآداب والفنون. وقد ارتبط ظهور تلك الأفكار باسم كل من آدم سميث Adam Smith (1723-1790) وأدم فرجسون Adam Ferguson (1723-1816). فقد ذهب سميث في أحد كتبه «محاضرات في البلاغة والأدب» إلى أن فنون الشعر والرقص والموسيقى كانت في الأصل كلا موحداً، لا يتفصل أي منها عن الآخر، وكان رؤساء القبائل يجمعون بين ممارسة الفن وممارسة التشريع، أي وضع القواعد المنظمة للعلاقات بين أفراد القبيلة. وذهب فرجسون إلى أن الإنسان كان بطبعه شاعراً، لأن الشعر كان يعبر عن عواطفه العميقة وجدلاته ومشاعره، وأن التاريخ

الميكرو لآلام كان مرحلها بالنظر إلى وحدة الفنون . لقد كان الكهنة والفلاسفة ورجال الدولة في العصور اليونانية يلتقون تعاليمهم وقراراتهم شعراً ، وكان التجار يمزجون الشعر بالموسيقى وقصص البطولات المحمية ، باختصار ، كان الشعر جزءاً من عواصم الناس وحياتهم ، غير أن تلك الوحدة في الفنون أخذت في التلاشي والتبدد تدريجياً تحت وطأة النمو المتزايد للتباين الاقتصادي والاجتماعي الذي بدأت تشهده المجتمعات بعد تلك العصور الأولى ، حيث ظهرت التخصصات في النشاطات الاقتصادية والاجتماعية ، وفي الممارسات الفنية كذلك ، صحيح أن تقسيم العمل أفضى إلى زيادة في الثروة وفرة في الإنتاج نتيجة للتقدم التكنولوجي في عمليات إنتاج السلع والثروات ، لكنه أدى في الوقت نفسه إلى انهيار الوحدة العضوية التي كانت تتميز بها مجتمعات ما قبل الصناعة ، التي تحول الناس فيها إلى موضوعات للعملية التاريخية بعدما كانوا هم النوات الفاعلة في هذه العملية . إن ظهور التمايز والانقسام بين أفراد الجماعة الإنسانية وتعدد الأدوار بينهم قد جعل الإنسان يفقد وحدته ، وكتيجة - غير مقصودة - لتطور تقسيم العمل ، صار الأدب وظيفة وعملًا متخصصًا تمارسه جماعة منفصلة عن بقية الجماعات الأخرى ، صار مهنة يجترعها البعض ولا يقومون بعمل آخر سواه . ومع تعاملهم التجارة تحول الأدب إلى سلعة تباع وتشتري في السوق ، وخضع بالتالي لقوانين التجارة وقواعدها .

إن فكرة تقسيم العمل ، وتعاظم دور هذا التقسيم في إحداث الانشطار والتفتت الذي أصاب وحدة الإنسان وكياله الأول ، وفي تحول الفن إلى ميدان للتخصص ، وفي تعدد أشكال الفنون وأنماطها في مجتمع يزداد فيه الألقام نحو الصناعة والتجارة - هذه الفكرة وجدت تعبيراً لها في فلسفة التاريخ عند هيجل G. W. F. Hegel (1770-1831) التي اكتسبت مكانة خاصة في التراث الفكري نظراً لتأثيرها على نظريات تاريخ الفن ، فقد ذهب هيجل إلى «أن الفنون والأدب ، مثل القوانين والنظم ، ماهي إلا تعبير عن المجتمع ، ومن ثم فهي مرتبطة ارتباطاً لا تنفصم عراه بسائر عناصر التوسع الاجتماعي» (٢٧) ، وأنه إذا كانت الملحمة تعبيراً كاملاً عن «العصور البطولية» ، فإن العالم المعاصر بفرديته وتخصصه قد نزع الإنسان من علاقته الوثيقة بالطبيعة ، وهي العلاقة التي كان يقوم عليها الفعل الملحمي ، ووجد هذا العالم المعاصر - بما يضمه من نظم بيروقراطية وقوى سياسية ، وما يتميز به من تقسيم شديد للعمل - بديلاً للملحمة متمثلاً في الرواية التي تعد «ملحمة الطبقة الوسطى» ، إن وعي العالم المعاصر هو «العقل اللشري» Prosaic Mind الذي يعبر عن نفسه في شكل الرواية ، ويعكس بصدق تفتت العالم وقلدان الوحدة (٢٨) .

إذن ، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانت هناك حركتان فكريتان ، لكل منهما موقف محدد من طبيعة العلاقة بين الأدب والمجتمع . الحركة الأولى يمثلها فكر هرذر ومدم دي سنال ، وتسمى إلى إقامة صلات علنية بين الأدب وبعض الوقائع المادية ، وتحاول إخضاع الأدب - كواقعة - للتحقق العلمي باستخدام مناهج ووسائل تشبه تلك التي تستخدم في العلوم الطبيعية . والحركة الثانية يمثلها فكر سميت وفرجسون ، وترى أن الأدب ينبغي النظر إليه ليس بوصفه انعكاساً بسيطاً للمجتمع أو لوقائع مادية (مناخية أو جغرافية) ، ولكن بوصفه تجسيدا لنضال الإنسان من أجل الأصالة Authenticity ، ومحاولة لإدراك معنى عالم أفرغ من القيم الحقيقية بسبب الغزو لمتلائي لتقسيم العمل ، وطوال القرنين التاسع عشر

عالم الفكر

والعشرين تنازعت علم اجتماع الأدب هاتان النظرتان: الوضعية التي برزت أسسها بصورة أوضح من خلال أعمال ماركس وإنجلز، ثم أعمال بليخاتوف ولوكاتش وغيرهما، وإن كانت كل نظرة منها قد شكلت تيارا واسعا تعددت روافده وتماقبت أمواجه.

التأسيس على مسلمات وضعية

في منتصف القرن التاسع عشر، كانت الوضعية قد أخذت تهيمن على الكثير من مجالات البحث والعلوم، خاصة العلوم الاجتماعية التي كانت في مرحلة التأسيس آنذاك، ويرجع ذلك إلى التقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية، والدقة التي وصلت إليها أدواتها البحثية، فأراد العلماء الاجتماعيون، في دراستهم لتطوُّر الإنسان والمجتمع، أن يتبنوا مناهج العلوم الطبيعية وأدواتها في بحثهم طموحا إلى رفع مستوى الدقة في علومهم تشبها بالعلوم الطبيعية. وكانت أفكار الفيلسوف أوجست كونت (1798-1857) الذي ارتبطت باسمه نشأة علم الاجتماع، هي التي شجعت علماء التاريف والأثنولوجيا والأخلاق والجبال والفن على توظيف الرؤية الوضعية في دراساتهم.

ولعل الدوافع التي حلت بدلا من الفن والأدب إلى تبني الوضعية هو رغبتهم في التخلص من النزعات المثالية في تفسير الأعمال الأدبية، ومحاولتهم الاعتماد عن الأحكام الأخلاقية وتأسيس بحثهم على منهج دقيق يمكنهم من الكشف عن القوانين التي تتحكم في النظم الفنية والجالية. وفي هذا المجال برز عدد من الباحثين منهم هانت بيف Sainte - Beuve (1804-1869)، وهيروليت تين H. Taine (1828-1893)، وجان ماري جويو Jean-Marie Guyan (1854-1888).

اهتم سانت بيف بجمع الحقائق عن حياة الأدباء وعن خصائصهم (الأسرية والعقلية والأخلاقية... إلخ)، وعن آرائهم، وحاول أن يصنفهم في أنماط، وأن يقيم علاقات بين خصائص كل مجموعة منهم وبين أعمالهم الأدبية، وكان يرى أن هذه هي الطريقة العلمية لفهم الأدب، وأطلق على هذه الطريقة، طريقة «الصورة الأدبية»^(٣٩). وعلى الرغم من قوله إنه يريد أن يؤسس «تاريخاً طبعياً أدبياً» وفقا للأسلوب العلمي، إلا أن أعماله لم تشكل أهمية واضحة في هذا المجال إذا قورنت بأعمال معاصريه تين.

كان تين مشغولا بتحديد العوامل التي تقف وراء ظهور الأدب العظيم والفن الخلاق، وتعتبر محاولته في هذا الصدد أهم محاولة لتأسيس سوسولوجيا الأدب في القرن التاسع عشر، وذلك في ضوء تأكيده على ضرورة الملاحظة العلمية المنظمة لتقاليد العصر وتأثيرها على ظهور الفن، وهو تأكيد يدل على الرغبة في تقنين الإجراءات البحثية على غرار العلم الوضعي (الطبيعي) الذي كان تين معجبا بنجاحاته^(٤٠). غير أن تين كان يرى - من ناحية أخرى - أن ظهور الفنان هو نتاج لعمليات «انتقائية»^(٤١)، مما يعكس تأثره بالنزعة التطورية الثقافية التي كانت تتعاظم منذ اكتشافات داروين في علم الحياة. وثمة محاولة في كتابه «فلسفة الفن» لتطبيق قانون الاختيار الطبيعي على الفنون^(٤٢). ومن ناحية ثالثة ثمة شواهد عديدة تشير إلى اقتراب تين من فكر الفيلسوف الألماني هيجل، ورغبته في ترجمة أعمال هذا الفيلسوف إلى «المصطلحات العلمية الحديثة»^(٤٣). كانت هذه الروافد الفكرية الثلاثة (الوضعية التجريبية، والتطورية، والهجلية) مؤثرة في فكر تين، وإن كان لم يتأثر بها بصورة صرفة وكما هي، بل كان يحاول أن يمزج بينها في معادلة خاصة تميز منهجه. وربما كان ذلك هو ما دفع ناقلا ومؤرخا أدبيا مثل ريتيه ويليك إلى القول إنه «ليس من السهولة وضع تين في تاريخ الأفكار»^(٤٤).

اقترح تين ثلاثة مفهومات تصور أنها تشكل الأسس التي تشمل كل الأسباب الحقيقية والممكنة للحركات الأدبية والفنية. وهذه المفهومات هي: العنصر (أو العرق) Race، والبيئة Milieu، والزمن (أو العصر) Mo-ment. وذهب إلى أن التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة ينتج إما «بناء عقليا عمليا» أو «بناء عقليا تأمليا»، وإذا ما أمكن قياس هذه العناصر والكشف عن معناها بالنسبة لكل حضارة، لأمكننا أن نفهم تطور الأفكار الخلاقة التي تعبر عن نفسها في الفن والأدب العظيم عبر العصور. غير أن الغموض الذي أحاط بهذه المفاهيم، وعدم قدرة تين على تحديد الوزن النسبي لكل منها في الحالات التي درسها، وقد عرض نظريته للتدقيق، وقلل من قدرتها على الإقناع.

فمفهوم «العنصر» لديه يشير إلى «الاستعدادات الروائية المتأصلة التي يجيء بها الإنسان معه إلى العالم، والتي تكون أساسا متحدة مع الاختلافات الملحوظة في مزاج الجسم وبنية»^(٤٥). وذهب تين إلى القول بأن هذه الاستعدادات الفطرية، رغم اختلافها من شعب لأخر، تنسم بالاستمرارية. ويعطي مثلا على ذلك بالجنس الآري القديم Old Aryans الذي احتفظ بوحدة الدم والفكر التي تربط بين فروع السلافية، والتي تجعل في لغاته وأقايه وفلسافته وديانته، رغم ما تعرض له هذا العرق من توزيع وانتشار وتبدل وثورات عبر ثلاثين قرنا. وهذه الاستمرارية ناجمة - حسب قوله - عن عدة عوامل أهمها أن العنصر يكتسب خصائصه من التربة والغذاء، ومن الأحداث الكبرى، ومن تجدد الحاجات والنشاطات، وبحالات التكيف المستمرة مع الظروف المتجددة التي تقضي دائما عادات جديدة، بحيث يمكن القول إن طابع أو «شخصية شعب ما هي إلا اختزال أو تكيف لكل أفعاله وأحاسيسه السابقة»^(٤٦). هكذا نلاحظ أن مفهوم العنصر قد صار فضفاضا واتسع ليشمل عوامل اجتماعية وثقافية ومناخية. وقد حاول تين تطبيق المفهوم على تاريخ الأدب الإنجليزي وذهب إلى أن هذا الأدب بساته (الجديدة - الواقعية - النزوع إلى الهجاء السياسي) هو انعكاس لصمود العرق الأصلي للإنجليز - الساكسون ضد الثقافة النورماندية التي وفدت على إنجلترا مع الفايكنج الإسكندنافيين - القرنين في القرن الحادي عشر الميلادي. غير أن مصطلحاته العنصرية بالصورة التي استخدمها قد جعلت ما كتبه يعاني من الخلط والتشويش^(٤٧).

ومفهوم «البيئة» لدى تين هو المفهوم الذي احتفظ بفألكته وظل باقيا، واستخدمه كثيرون ممن جاءوا بعد تين، وإن كانوا - حسبنا ملاحظ توماس مونرو - لم يعترفوا بفضلها^(٤٨). وللمفهوم عند تين معنى واسع يضم عناصر عديدة ومختلفة: المناخ - التضاريس - التربة - المواد الخام - الطرق - الميراث الثقافي، سياسة الدولة، التصورات والأفكار، وعوامل اجتماعية واقتصادية أخرى^(٤٩). وقد سعى تين في دراسات عديدة له إلى الربط بين ظروف البيئة الطبيعية أو البيئة الثقافية وبين سمات معينة تميزت بها أدب وفنون أهم معينة. فالصحافة في التصوير في بدايات عصر النهضة ترجع إلى طبيعة الجو والضوء والريف الكثير التلال في إيطاليا، والبراعة في استخدام الألوان في فن التصوير في فينيسيا ترتبط بالأضواء والألوان الفعلية في تلك المنطقة المائية، والميراث الفني عصى جانباً من البيئة لاستيلاء فن جديد، والنزول الآري لآسيا أحدث ظملاً لا يحتمل، وأشاع بأساً تاماً، مما خلق حالة سيكولوجية أدت إلى نمو الأساطير، وتاريخ النحت اليوناني يدل على تكيف الفن مع الحياة. . إلخ. ومن الجدير بالذكر أن تين قد وضع مصطلحا معنا جعله وسيطا بين البيئة كعامل فاعل وبين الفن كتنتاج متأثر. وهذا المصطلح هو: «الحالة المعنوية» أو «المناخ السيكولوجي». فالبيئة (الفيزيائية والاجتماعية)

عالم الفكر

تخلق حالة عامة للعقل هي التي تحدّد، وبصورة حتمية، سيات العمل الفني من جهة، والاستعداد لتلقي هذا العمل من جانب الجمهور من جهة ثانية، ورغم وجود هذا المصطلح الوسيط، فإن معظم تفسيرات تين كانت ذات طابع ميكانيكي، رغم محاولته التخلص من هذا الطابع. وهناك ملاحظة يسجلها الآن سوينجود مفادها أن تحليلات تين تقتصر إلى أية ارتباطات بين أجزاء معينة من النصوص وبين حقائق خارجية محددة. ففي مقالة من بلزك، وهي التي يعتبرها ويليك ذروة النقد الأدبي عند تين، يذهب تين إلى أن الأساس الكلي للكموبلدا الإنسانية ينهض على فشل بلزك في تحقيق طموحاته، وتربط المقالة بين بلزك «رجل الأعمال المظل بالديون» والجشع، والمنغمس في الشهوات الحسية، والقادر على تحريف العمل، وبين مجتمعه وعالم شخصياته وأسلوبه وفلسفته، لكن الربط بيني بنزعة مادية تعجز عن التخلص من السببية المباشرة، رغم اختلاط طريقة تين بنكهة هيكلية.^(٥٠)

أما مفهوم «الزمن» فيعرفه تين بصورة لا تخلو من، غموض. فهو يرى أن الزمن هو «الزخم المكتسب» أو «القوة الدافعة المكتسبة» Acquired momentum التي هي نتاج لعمل كل من قوى الداخل وقوى الخارج. وهذه القوة ذاتها هي التي تسهم في إنتاج مجيء بعدها. فالطابع القوي والظروف البيئية لا تمارس تأثيراتها على لوح أمّس خالي من أية انطباعات Tabula rasa، وإنما على أرضية سبق لها أن تلقت علامات، فأتار المرء تختلف حسب مسلكه على الأرض في فترة زمنية أو أخرى. ويدلو أن تين كان يقصد ما تمارسه الحقب التاريخية الماضية، وما يمارسه التراث الفني من تأثير على الفنانين في الحاضر، وما يمكن أن يمارسه الحاضر على فسافي المستقبل، أي تولي الأجيال واختلافها بحكم اختلاف اللحظة الزمنية التي يعيشها ويستج فيها كل جيل، ويحكم اختلاف درجة التطور وسرعته. وهو يعطي مثالا على ذلك بعصرين مختلفين من عصور الأدب والفن: التراجييديا الفرنسية لدى كورنيي Comeille ولدى فولتير Voltaire، والدراما اليونانية لدى إسخيلوس Aeschylus ولدى يوربيديس Euripides، والتصوير الإيطالي لدى دا فنش Da Vinci ولدى جودو Guido، فالفكرة العامة - حسبها يذهب تين - لم تتغير عند أي من هاتين المرحلتين المختلفتين تمامًا، حيث النمط الإنساني هو نفسه موضوع التمثيل أو التصوير ذاتها، وحيث يبقى القلب الشعري، والبناء الدرامي، فيشكل الجسد، إلا أن قمة اختلافًا أساسيا، وهو «أن أحد الفنانين هو السلف أو السابق، والثاني هو الخلف أو اللاحق»، وليس لدى الأول نموذج، في حين أن الثاني لديه نموذج، والأول يرى الأشياء أو الموضوعات وجهة لوجه، أما الثاني فيراها من خلال الأول، وأن فروعا عظيمة كثيرة من الفن لم تعد تمارس، وتفصيلات عديدة تم إتقانها، وتضاءلت سلاجة الانطباع وفخامته، وتزايدت الأشكال السارة والمصقولة، باختصار مارس العمل الأول تأثيرا على العمل الثاني، فالأمر مع الناس كما هو مع النباتات، إذ تنتج العصارة الواحدة، في درجة الحرارة نفسها، وفي التربة ذاتها، وفي مختلف مراحل تطورها المتتالية، تشكيلات وبراغم وزهورا وثمارا وأغلفة بذرية مختلفة، بحيث إن الذي يجيء لاحقا ينبغي أن يكون مسبوقا بسلف، وينبغي أن ينبثق من موته^(٥١).

ويثير هذا المثال التوضيحي مسألة التقاليد الأدبية التي يرثها الكتاب عن سبقهم، وهي مسألة حيوية في الدراسة السوسيوولوجية للأدب، لأنها تمس قضية العلاقة بين جاليات العمل الأدبي والعصر الذي يتم إبداع هذا العمل فيه، وهي علاقة ذات متضمنات اجتماعية وثقافية وفنية عديدة، وكان تين الفضل في طرحها حين طرح مفهوم «الزمن»، وإن كان طرحه لما قد اتسم بالغموض تارة وبالتبسيط تارة أخرى.

هكذا نجد أن مفاهيم تين الثلاثة: العنصر والبيئة والزمن قد جمعت بين أسباب عدة، وعوامل متنوعة تؤثر في العمل الأدبي، وهي مسألة تتفق مع طموحات تين العلمية كما أوضحنا من قبل. إلا أنه قد واجه معضلة رئيسية، وهي التناقض بين رغبته في تطبيق نظريته المادية على الفن والأدب من جهة، ورغبته في الاعتراف بالاستقلالية النسبية للروح المبدعة من ناحية أخرى. ولعل وعيه بهذه المعضلة، التي مازالت تمثل إحدى الإشكاليات الأساسية في علم اجتماع الأدب، هو ما دفعه في بعض تحليلاته إلى التخلي عن غخطه المادي والنزوع إلى تفسير سيكولوجي لا يرجع فيه التغيرات الكبرى إلى البناء الاجتماعي، وإنما إلى روح الإنسان. وهنا يتجلى اقترابه من فكر هيجل، وهو اقتراب لا يعني بالضرورة استيعاب تين لجوهر الفلسفة الهيجلية. بل إن مفكرا مثل ليوكوفلر Leo Kofler يرى أن تين قد أساء فهم عالم هيجل الفكري، وإذا كان قد تأثر به، فإن هذا التأثير كان سطحيا أو ظاهريا فقط، لأن استخدام النواحي الوضعية في فكر هيجل هو الذي يوضح في تحليلات تين^(٥٢). لكن يبقى لتين الفضل في أنه قد ابتعد بالدراسة الأدبية عن التصورات أحادية البعد، التي تربط بين الإبداع الأدبي وبين شخصية الفنان فحسب، وتوجه إلى تصور سوسيولوجي ينهض على مسلمات تتصل بالشروط الاجتماعية والثقافية التي تؤثر في الأدب، بصورة تجعلنا نتفق مع ما يذهب إليه سوينجود^(٥٣)، من أن تين قد نجح في تطوير نظرية، وإن كان لم ينجح بالقدر نفسه في تطوير منهج لتطبيق هذه النظرية على نحو منظم.

التأسيس على مسلمات ماركسية

اكتسب المدخل السوسيولوجي الذي أسسه تين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على مسلمات وضعية موقفا رئيسيا في مجال دراسة الفن والأدب، وكان الاعتراف به بوصفه المدخل الشرعي في هذا المجال مسألة تناسب المناخ العلمي (الوضعي) السائد في ذلك الوقت غير أن تعدد العوامل السورالية والبيئية، واختلاطها ببعضها البعض بصورة غامضة، واللبس الذي أحيط به مفهومه للتاريخ أو للزمن، قد أضعف من دعائم نظريته. وفي المقابل، كان هناك تيار جديد يسمى إلى تأسيس نظرة اجتماعية للفن والأدب تنهض على مسلمات مادية - تاريخية مستمدة من فكر مؤسسي الماركسية: كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-١٨٨٣)، وفريدريك إنجلز Frederick Engels (١٨٢٠-١٨٩٠). والواقع أن الماركسية لم تطرح نفسها في بداية ظهورها كاتجاه نقدي أدبي، أو كمشروع في فلسفة الفن، وإنما ظهرت كنموذج بديل لعلم الاجتماع الوضعي، وكنظرية مادية - تاريخية تفسر حركة المجتمعات في التاريخ في ضوء الصراع الطبقي. وينهض النموذج المجتمعي الذي قدمته على الأساس Base والبناء الفوقي Superstructure مع ما بينها من علاقة جدلية. ووفقا لهذا النموذج تبدو ظواهر الوعي والفكر والمعرفة، كما يبدو الإنتاج الثقافي ككل لا بوصفه انعكاسا لحقائق خارجية متأثرة، عرقية كانت أم بيئية، وإنما بوصفه انعكاسا لطبيعة القوى والعلاقات الإنتاجية في المرحلة المعينة من تطور المجتمع، وإلحق أن قراءة أعمال ماركس وإنجلز لا تكشف عن وجود نظرية متأسكة في تفسير الظاهرة الفنية أو الأدبية، لكن هذه الأعمال تضم مجموعة من الإشارات، التي قد لا تتجاوز الانطباعات العامة، عند معنى الفن عموما، أو التعليقات على بعض الأعمال الشعرية والروائية. ويلاحظ على هذه الانطباعات والتعليقات أنها أولا متناثرة في ثنايا مؤلفات ماركس وإنجلز^(٥٤)، وثانيا، يغلب عليها الاهتمام برسالة الفن والأدب أكثر من الاهتمام بآليات العملية الإبداعية ووسائلها،

وثالثا، التأثير بفكرة آدم سميث وآدم فرجسون... التي أثرتنا إليها من قبل... والتي تتعلق بالآثار الضارة لتقسيم العمل والتوسع فيه على الإنسان الحديث وعلى حالة الفن والأدب، مع التركيز على فكرة الاستلاب Ent-fremdung (Alienation).

وتعكس كتابات ماركس وإنجلز تأرجحا بين نزعة حتمية وحماطيقية تربط بين البناء الاقتصادي للمجتمع كعامل أساسي ووحيد يحدد طبيعة بنية الفكر والأيدولوجيات والفنون والأدب، ونزعة مرنة تعترف باستقلالية عناصر البناء الفوقي، بما فيها الفن والأدب، وبقدرة هذه العناصر على التمتع بالحرية والتخلص من العلاقة المباشرة مع الأساس المادي للمجتمع، وعلى أية حال، فقد أثارت تعليقاتها مجموعة من القضايا الهامة، ولفتت الأنظار إلى بعض المفاهيم التي اهتم بها جيل لاحق من النقاد الماركسيين. فماركس، مثلاً، يثير في تعليق له (عام ١٨٤٤)، نشر في المخطوطات الاقتصادية والفلسفية) على مسرحيته «فاوست» لجوته، و«ثيمون أثينا» لشكسبير، مسألة قدرة الأدب على عكس الدلالة الاجتماعية للنقد كقوة تتحكم في السلوك الاجتماعي للإنسان، رغم أنها - أي النقد - من صنع الإنسان نفسه الذي أوجدها لخدمته، لكنها، في وقوفها خارج الإنسان وتحكمها في سلوكه، تمثل «القدرة المبدعة (أو المغترة) للإنسانية Das entausseterte Vermoegen der Menschheit»^(٥٥). وفي خطاب له إلى إنجلز (عام ١٨٦٩) كتب بعض الملاحظات حول رواية يدور «Neveu de Rameau» بنى فيها الوصف الذي كان هيجل قد قدمه لبطل هذه الرواية، باعتباره يمثل حالة واعية ومعبرة من حالات «تفريق الوعي» Zerrissenheit des Bewusstseins، وحلل ماركس الشخصية الرئيسية في الرواية في ضوء مفهوم «الذات المغترة» التي تناضل من أجل صيغة للموعي الذاتي^(٥٦)، وهو مفهوم سوف يجدها فيما بعد مكانا محوريا في تحليلات جورج لوكاتش.

أما إنجلز، فقد أبرزت تعليقاته مصطلح «الانعكاس»، إذ نجد الفكرة المهيمنة في بعض أجزاء كتابه «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» (١٨٨٤) هي أن الأدب يصور العلاقات الاجتماعية تصويراً مرآوياً. ويستعين إنجلز بأشعار هومروس اليوناني بوصفها مرآة للظروف السكانية والاقتصادية التي كانت سائدة في العصر الذي ظهرت فيه^(٥٧). وفي خطابه (عام ١٨٨٥) إلى الكاتبة الروائية الألمانية مينا كاوتسكي Minna Kautsky وخطابه (عام ١٨٨٨) إلى الكاتبة البريطانية مارجريت هاركنس Margaret Harkness، يطرح إنجلز مجموعة من الإشكاليات الجوهرية المتصلة بالواقعية في الأدب مثل: القصصية أو الهدف، الصدق الفني، فكرة «النبط» أو «الشخصيات النموذجية» في الأعمال الأدبية^(٥٨).

لم يقدم ماركس وإنجلز، إذن، نظرية خاصة في الفن والأدب، وإنما أوضحا، من خلال ملاحظتهما وتعليقاتهما، إمكانية الرؤية للمادية التاريخية، والمنهج الجدلي، في تفسير الظواهر الفنية والأدبية بوصفها تشكل جزءاً من عناصر البنية القوقية للمجتمع. وقد حاول باحثون ماركسيون جاءوا بعد ماركس وإنجلز، توظيف تلك الرؤية وذلك المنهج من أجل تأسيس موسيولوجيا أدبية ماركسية، تقف على التقصص من السوسيولوجيا الأدبية الوضعية، وربما كانت أعمال الفكر الروسي جورج بليخانوف G. Plekhanov (١٨٥٦-١٩١٨) - الذي كان ينظر إليه على أنه رائد النظرية الثقافية الماركسية في الفترة الواقعة بين موت ماركس عام ١٨٨٣ وحتى الثورة الروسية عام ١٩١٧ - هي أهم هذه المحاولات التأسيسية. صحيح أن تلك الفترة قد شهدت أسماء لامعة لفكرين ونقاد مثل فرانتز مرنينج F. Mehring، وأنطونيو لابريولا A. L. Abriola، وكارل

كاوتسكي K. Kautsky، وأنتوني لوناشارسكي A. Lanacharsky من أخذوا على عاتقهم بلورة النظرية الثقافية الماركسية، إلا أن تعدد أعمال بليخانوف وكثافتها وطابعها العلمي، جعلت مفكرا وناقدا مثل لوناشارسكي يطلق على بليخانوف صفة «مؤسس النقد الماركسي»^(٥٩).

حين كان بليخانوف يكتب حول قضايا الفن والأدب، لم تكن كتابات ماركس وانجلز حول هذه القضايا قد جمعت بعد، وإذ كانت لا تزال متناثرة في أعمالهما وخطابتهما، إلا أن بليخانوف قد ألم بها واستوعبها بصورة مذهشة، حسبما يذهب هانز-ديتريش زاندر، وكان اعتناقه لهذه الأفكار، كاعتناقه للماركسية صموما، اعتناقا علميا، على عكس معاصره لينين Lenin الذي كان اعتناقه لها أيديولوجيا وأداتيا^(٦٠). وقد صاغ بليخانوف موقفه من مسألة العلاقة بين الأدب والفن من ناحية وبين المجتمع من ناحية أخرى في عدد من الدراسات التي يكشف عنها من نوع من التطور والتضج في أفكاره^(٦١)، كما يكشف عن محاولته الإفادة من مفاهيم ومقولات بعض المفكرين مثل هيغل، وبلينسكي، وتين، ودارون، وميخائيلوفسكي.

ونقطة الانطلاق عند بليخانوف هي أن الفنون والأدب هي في الأساس تعبير عن ميول المجتمع وأحواله النفسية، وإذا كان المجتمع منقسما إلى طبقات، فإن الفنون والأدب تكون تعبرا عن الميول والأحوال النفسية لطبقة معينة، وتتمثل مهمة الناقد في ترجمة الأفكار التي يعبر عنها الفنان في إنتاجه من لغة الفن إلى لغة علم الاجتماع، أو بعبارة أخرى - في تحديد ما يسميه بليخانوف «المعادل السوسيولوجي» Sociological Equivalent للظاهرة الأدبية المعطاة^(٦٢). وتحتل ظاهرة «الطبقة» والصراع الطبقي مكاناً محوريا في تحليلات بليخانوف، أو هي بالأحرى جوهر المعادل السوسيولوجي الذي كان يبحث عنه في الأعمال التي درسها. ففي مناقشته للأدب المسرحي في فرنسا في القرن الثامن عشر (١٩٠٥) يذهب إلى أن تفوق المأساة Tragedy على المسرح الهزلي (الفارس) Farce كان تعبرا عن الهيمنة الثقافية والاقتصادية للطبقات العليا في المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر، فبينما كانت المهزلة هي الشكل الفني المرتبط بالطبقة الدنيا، كانت المأساة، التي هي من ابتكار الأرستقراطية، تعبرا عن آراء الطبقات العليا ومطامعها وذوقها. وتتناسب تماما مع رؤيتها الاجتماعية والسياسية. فشكل المأساة القائم على قاعدة الوحدات الثلاث، وطريقة إلقاء الممثلين اللذين يجب أن يأخذوا ظاهرا من العظمة والرفعة، والشخصيات الرئيسية في المأساة التي كانت غالبا شخصيات ملوك «أبطال» وذوي المقامات الرفيعة - كل ذلك كان استجابة لحاجات أرستقراطية البلاط الملكي - ولم يكن باستطاعة أي مؤلف لا يضع في أعماله المقدار المطلوب من «الرفعة» الأرستقراطية أن يحصل على استحسان الجمهور لأعماله أو تصفيقه له، مهما كانت موهبته وعبقريته. ومن هنا يمكن تفسير الأحكام التي صدرت على شكسبير من جانب النقاد في فرنسا (وفي إنجلترا أيضا بتأثير من النقاد الفرنسيين) فبوب Pope يعرب عن أسفه لأن شكسبير «كتب للشعب، لا لعلمة القوم»، وهيوم Hume يتوجس خيفة من تضخم عبقرية شكسبير، حتى فولتير Voltaire، كان يرى شكسبير عبقريا لكنه كان يرى فيه أيضا «بربريا» فقط^(٦٣). غير أنه مع نشأة الطبقة البورجوازية في نهاية القرن، بدأ نموذج مسرحي جديد في الظهور، وهو «الكوميديا العاطفية» Sentimental Comedy^(٦٤) التي يعتبرا بليخانوف الشكل الدرامي البورجوازي الذي يصور «الإنسان المتوسط الحال»، وليس «الكائن المتفوق».

هكذا يرى بليخانوف أن ظهور شكل درامي ما وأقوله هو مسألة ترتبط بالنضال الطبقي في المجتمع، ويصعد طبقات معينة وتحلل طبقات أخرى. وفي مقالاته حول «الفن والحياة الاجتماعية» (١٩١٢-١٩١٣) - وهي المقالات التي أثرت تأثيراً واضحاً على جيل كامل من النقاد للماركسيين الروس، وكانت تمثل بالنسبة لهم النص الماركسي الأصلي حول الفن - حلل بليخانوف الحركة المعروفة باسم «الفن للفن» art for art's sake بوصفها تعبيراً عن حالة من الخصام بين الفنان وبين بيئته، مما يفضي إلى نوع من الاغتراب يتمكس في تصور بعض الكتاب أن الظاهرة الفنية مستقلة كلية ومنفصلة تماماً عن الحياة الاجتماعية. ويعطي بليخانوف مثالا على ذلك بحالة بعض الروائيين الفرنسيين مثل فلوير G. Flaubert (١٨٢١-١٨٨٠)، وإدموند جونكور E. Goncourt (١٨٢٢-١٨٩٦) وجولي ألفريد جونكور J. A. Goncourt (١٨٣٠-١٨٧٠) اللذين هاجما الطبقة الوسطى (وهي الطبقة التي يتبعون إليها) بسبب تعصبها ضد الفكر التقدمي، والتقدم عامة، وتزمتها وضيق أفقها، لكنهم في الوقت نفسه لم يكونوا قاصرين على الترحد مع الطبقة العاملة. هذا الموقف الموزع بين المعارضة الواعية للبورجوازية والعجز عن تبني الموقف البروليتاري يفضي بهما إلى رؤية للحياة الاجتماعية ذات نزعة تشاؤمية يائسة. فليس ثمة انسجام مع المجتمع أو الاندماج فيه، وهذا الموقف هو الذي يقف وراء ظهور حركات «الفن للفن»^(١٥). ويذهب ما ينارد سلومون M. Solomon^(١٦) إلى أن تحليل بليخانوف يتفق تماماً مع إصرار ماركسي على التناجات الفكرية ببنفي أن تفسر بالنظر إلى الانقسامات داخل المجتمع، وإن كان منهج بليخانوف قد غاب عنه الجانب الجملي الذي يعني أن الوعي نفسه يصبح قوة دافعة تنزع الحجاب الأيديولوجي عما يبدو وكأنه حقيقي في الوجود. وربما كان ذلك هو ما يجعل بعض الكتاب ينظرون إلى تحليلات بليخانوف على أنها ذات نزعة سوسيولوجية اختزالية، أو أن تحليلاته لا ترقى إلى المستوى الذي يجعلها تشكل نسفاً متكاملًا للبحث الأدبي، غير أن ذلك ينبغي ألا يجعلنا نغفل النواحي الإيجابية البارزة في إسهاماته التأسيسية.

أولاً، لم يعزل بليخانوف البحث الاجتماعي عن البحث الجمالي للنصوص، وإثنا اعتبر الباحثين بمثابة عطلتين في عملية واحدة هي عملية النقد. وذهب إلى أن «علم الاجتماع لا يجوز أن يغلق الباب في وجه علم الجبال، بل يجب على العكس أن يفتح أمامه على مصراعيه»، وأن الناقد للمادى إذا رفض القيام بتقييم الخصائص الجبلية للأثر موضوع الدراسة، بحجة أنه سبق له العشر على المعادل السوسيولوجي لهذا الأثر، «فسيكون قد أثبت أنه لا يفهم وجهة النظر التي يريد أن يعمل انطلاقاً منها. فخصائص الخلق الفني في كل عصر ترتبط على الدوام وثيق الارتباط بالسكولوجيا الاجتماعية التي يعبر عنها الخلق الفني. والسكولوجيا لكل عصر مشروطة على الدوام بعلاقات ذلك العصر الاجتماعية. وهذه واقعة، يقدم عليها البرهان تاريخ الفن والأدب برمته»^(١٧) ويحمل هذا القول دليلاً على وجود فرق أساسي بين رؤية بليخانوف ومنهجه، وبين رؤية أصحاب المنهج الوضعي والنزعة الإمبريقية القائمة عليه، والتي لا تعدد بالجوانب الجبلية في العمل الأدبي.

وثانياً، كان بليخانوف ميالاً إلى التقليل من شأن عنصر «الإرادة» في الإبداع الأدبي، وربما يخفق ميله هذا - على ما يذكر سلومون^(١٨) - مع نزعة «الجنين السياسي» Political timidity لديه، وعدم رغبته في الانتقال إلى الفعل التاريخي قبل أن تكون الأرضية مهيأة لذلك. ولذا فإن القوة البيوتوية والفراسندلتالية للأدب والفن كانت بمثابة كتاب مغلق بالنسبة له، فقد ظل أساساً عالم اجتماع فن، قدم حلولاً لعدد من القضايا، كما أثار عدداً آخر من القضايا التي لم تحل بعد.

وثالثا، كان موقفه واضحا من مشكلات «الأدب المهادف» فقد انتقد كلا من تشرنشفسكي - Chernyshevsky، ودوبروليوف Dobrolibov، وبيزارى Pisarey في دعوتهم إلى ضرورة وجود شكل «مساعد» من الفن، كما أضاف رواية «الأم» لكسيم جوركي M. Gorky بسبب هادفتها، ورفض قبول مبدأ «الالتزام» اللينيني الذي صار فيها بعد واحدا من دعائم «الواقعية الاشتراكية»^(٦٩)، وظل ملتزما بالتأكيد على أن وظيفة النقد الأدبي هي أساسا الشرح والتفسير وليس التوصية أو وضع الأهداف للفن أو للفنان.

ورابعا، كان موقفه واضحا لا لبس فيه من مسألة مدى اعتداد الأدب على «البناء الفوقي» أو «أساس» ظروف الإنتاج، فقد كان يرى أنه من النادر ملاحظة تأثير مباشر للاقتصاد على الفن أو على «الأيديولوجيات» الأخرى، خاصة في الأشكال المتقدمة من المجتمع، وقد صار بليخانوف - برأيه هذا - هو المدافع عما يسمى مدرسة البناء الفوقي في النقد الأدبي الماركسي، والتي كان عليها أن تدافع عن نفسها - خاصة خلال سنوات العشرينيات - ضد النقاد الذين كانوا يصرون على اعتداد الأدب اعتيادا مباشرا على الأساس الاقتصادي^(٧٠).

الجدال المنهجي

إذا كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد شهد أهم الجهود لتأسيس حقل الدراسة الاجتماعية للظاهرة الأدبية، على مسلمات وضعية من ناحية، ومسلمات ماركسية من جهة أخرى، فإن كلا من الانحامين، الوضعي والماركسي، قد أثار من المشكلات بقدر ما أسهم في وضع مسلمات. وكانت المشكلات التي برزت تتصل، في معظمها، بالجوانب المنهجية. كما أثار كلا الانحامين ردود أفعال متباعدة في الساحات الفكرية عموما، وفي مجالي علم الاجتماع والنقد الأدبي خصوصا، في كل من شرق أوروبا وغربها، وفي روسيا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وتروحت ردود الأفعال هذه بين مواقف متعصبة ضد، أو متعاطفة مع، أي من الانحامين، أو مواقف تسمى إلى تطوير منهجيات جديدة تتجاوز بها أوجه القصور التي عانى منها كل منها. وقد شهدت العقود الثلاثة الأولى، خاصة سنوات العشرينيات من هذا القرن جدالات منهجية على درجة كبيرة من التعارض والحدة، وإن كانت أيضا على درجة كبيرة من الخصوصية، وكانت لها آثارها الهامة في تشكيل ملامح الميدان الناشئ فيها تلا ذلك من عقود، وربما حتى اليوم. ومن هنا، فإن الوقوف على أهم علامات وتحليلات ذلك المد المنهجي أمر تقتضيه أهداف دراستنا هذه.

١ - كرد فعل فكري ومنهجي إزاء النزعة الوضعية المهيمنة، سعى بعض علماء الاجتماع الكلاسيكيين، مثل ماكس فيبر M. Weber، وفيلهلم دلتى W. Dilthey، وجورج زيمل G. Simmel، إلى التمييز التقني بين المناهج الملائمة للعلوم الطبيعية، وتلك التي تلائم العلوم الاجتماعية والثقافية، وانتقلت مقولة «الفهم» Verstehen التي كانت غائبة عن النزعة الوضعية في القرن التاسع عشر إلى قلب التحليل السوسيولوجي، ولم يعد التفسير السببي عموما وحيدا للبحث، وبالتالي تولد شعور بأن ظواهر الثقافة والفن والأدب في حاجة إلى منهج جديد يتجاوز التفسيرات الميكانيكية الوضعية.

٢ - في محاولة لتطوير الفكر الماركسي ظهرت بعض الأعمال (مثل أعمال جرامشي A. Gramsci، وروزا لوكسمبرج R. Luxemburg، وتروتسكي L. Trotsky) التي اتجهت إلى إعادة تصريف الثقافة كعملية فعالة تشمل الوعي والإرادة والمهدف، وليست كرد فعل أو انعكاس لتي لمعامل اقتصادية، وكان

عالم الفكر

لتلك المحاولة تأثيرات هامة على نظريات ثقافية ماركسية، ظهرت فيها بعد في أعمال لوكاتش وجولدمان ومدرسة فرانكفورت.

٣- خلال العشرينيات ثارت (في روسيا خاصة) قضية هامة تتعلق بالإجراء المناسب لتطوير منهجية ميسو- أدبية، هل هو الإجراء الاستدلالي Deductive أم الاستقرائي Inductive. ففي عام ١٩١٠ كان روباكين N. A. Rubakin قد أعلن أن الأسلوب الاستدلالي هو أسلوب القرون الوسطى وأن البحث يجب أن ينهض في عمارته على الأسلوب الاستقرائي الذي يقتضي الجمع المنظم للحقائق الأدبية - الاجتماعية. وفي عام ١٩٢٧ اشتكى إينجنباوم B. M. Eichenbaum من أن علماء اجتماع الأدب مازالوا يشغلون أنفسهم بالبحث الميتافيزيقي عن مصدر وأساس التطور الأدبي والأشكال الأدبية، في حين أنهم يجب أن يقدموا تفسيرات جديدة في ضوء دراسة الوقائع^(٧١).

٤- في ارتباط بالزعزعة الختمية في الماركسية ظهرت في روسيا (قبل ثورة ١٩١٧) جماعة أطلق عليها اسم «مدرسة الأساس» The Basis School. ومن أبرز أعضائها الناقد ف. م. شولياتيكوف V. M. Shuliatikov (١٨٧٢-١٩١٢) الذي كان يرى أن الأيديولوجيا تعتمد مباشرة على ظروف الإنتاج والمصالح الطبقية، وأن مهمته كنقاد هي السعي إلى توضيح الزوايا الممتدة لعالم الأيديولوجيات الفنية، ومصالح المؤلفين الطبقية، عن طريق «تحليل اجتماعي - تكويني» Social-genetic analysis وقد انتقد كل من بليخانوف ولينين. وضممت للمدرسة نقاداً آخرين مثل فريشه V. M. Friche، وكوجان P. S. Kogan. وبريفيرزيف V. Pereverzev الذي اهتم بشكل العمل الأدبي، وكان يحلل الشكل في ضوء بيانات عن الكتاب، وفي ضوء الحالة الاقتصادية للمجتمع. ورغم الانتقادات التي وجهت إليه وإلى زملائه، فإنه كان يعلن أن طريقته هي السوسيولوجيا الأدبية الماركسية الوحيدة.

وفي مقابل هذه المدرسة، وجدت «مدرسة البناء الفوقي» Superstructure School التي كان بليخانوف يعتبر المدافع الأول عنها، كما ذكرنا من قبل، وضممت هذه المدرسة نقاداً مثل فورونسكي A. Voronsky، وزايلين A. Zeilin، وجورباتشيف G. Gorbachev وترونسكي. كما يمكن اعتبار لوناتشارسكي أيضاً من أعضائها. وعلى العكس من مدرسة الأساس، كانت هذه المدرسة تقبل القول بأن تطور الأدب يعتمد على الأيديولوجيا، ونادراً ما يعتمد على قوى اقتصادية أو اجتماعية. وكان أصحابها على استعداد لمنح بعض عناصر البناء الفوقي، كتاريخ الفن والبيئة الأدبية، بعض الأهمية في تطور الأشكال الأدبية^(٧٢).

٥- ربما كانت أهم التطورات الفكرية - المنهجية في تلك الحقبة هو ظهور الشكلية الروسية Russian Formalism، التي قادها في البداية جاكوبسون R. Jakobson، وشلوفسكي V. Shklovsky، وإينجنباوم، والتي تبلورت في العقد الثاني من هذا القرن كحركة مناهضة لكل الاتجاه ينظر إلى الأدب بوصفه وثيقة اجتماعية أو نفسية أو سياسية أو فلسفية أو أيديولوجية أو دينية، وليس في ضوء خصوصيته الجمالية، وفي ضوء كونه مستخدماً خاصاً للغة.

وقد حددت الحركة مسعاها في تشييد علم للأدب له موضوعه الخاص ومفهوماته الخاصة، وكانت القضية المحورية لدى الشكليين الروس هي قضية الخصوصية، أي تمييز الأدب عن اللاأدب، وكتب جاكوبسون،

قائلا إن المجال الحقيقي للعلم الأدبي هو «الأدبية» Literariness التي تجعل عملا معينا أدبيا. ومن هنا استبعد البحث الشكلي أية فروض سابقة عن علاقة الأدب بالفكر أو للجمع، وتركز أساسا على دراسة المستويات الصورية والنحوية والدلالية والصورية في العمل الأدبي بوصفه «بنية» تتألف داخلها هذه المستويات متمحورة حول عنصر أسامي هو الشكل الأدبي^(٧٣).

وفي منتصف العشرينيات، كانت الحركة الشكلية مجبرة على تحديد علاقتها بالماركسية، خاصة في ضوء الجدل الذي دار بين التيارين، كانت أطروحة الشكلين الرئيسة ضد الماركسية هي أن هذه الأخيرة قد فشلت في إدراك مبدأ «الأدبية» الجوهرية الذي يميز اللغة الشعرية عن اللغة العادية. أما الماركسيون، فقد رد بعضهم ردودا سلبية، إذ وصفوا الشكلية بأنها «واسط ثقافي» من روسيا ما قبل الثورة، وأنها «أبيدولوجيا هروبية منطحة». أما البعض الآخر (الأنثودكسي) فقد كان رده هو أن الأدب الاجتماعي، ومرتبط سببيا بالطبقة وبالساسة، ويعد إنتاج «الواقع» التاريخي^(٧٤).

وعلى الرغم مما أظهرته المدرسة الشكلية خلال مسيرتها من ديناميكية تجملت في تجاوزها لمفهوم «الشكل» الاستاتيكي الذي ينظر إلى العمل كحاصل جمع أساليب الأدبية واتجاهها إلى مفهوم تطوري للشكل، كما تجملت في تجاوزها للبحث المنزول للواقعة الأدبية واتجاهها نحو ربط الأدب بالسلسلة الثقافية المتاحة له، فإن هذه الديناميكية نادرا ما أخذت بعين الاعتبار من جانب خصوم الحركة الماركسيين خلال سنوات العشرينيات^(٧٥). والواقع أن ديناميكية الحركة قد قادتها فيما بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٨ إلى قبول بعض المناهج البحثية السوسيولوجية، مما شكل تحولا حاسما في مسار الحركة، جاء نتيجة لتطور منطقي لمنهجها البحثي من ناحية، وكشف عن ضعف الماركسي عليها من ناحية ثانية، ففي مقالة بعنوان «في الدفاع عن المنهج السوسيولوجي» (١٩٢٧) طالب شكوفسكي - وهو أحد رواد الحركة - بضرورة البحث عن طريقة مناسبة لدراسة الأسس الاجتماعية للتغيرات الهامة والسريعة التي تطرأ على التكنولوجيا الأدبية، وعبر أجناباوم عن اقتناعه بضرورة تطوير نظرية ماركسية أولا ثم القيام باستخدامها بعد ذلك. ووضع مخططا لدراسة ما أطلق عليه «ظروف الحياة الأدبية» أو «السنن الأدبية» Literary Mores. ودعا إلى البحث في موضوعات مثل: نشأة الاحتراف في الأدب الروسي، تأثير النوريات على الحياة الأدبية، العلاقة بين المؤلف والناشر، وبين المؤلف والقارئ، أي العلاقة بين الوقائع الأدبية وظروف الحياة الأدبية^(٧٦).

أما أهم تحولات الشكلية الروسية، فقد بدأ يتحقق من خلال جهود «مدرسة باختين» Bakhtin School التي استهدفت تجاوز عجز الشكلين عن الاعتراف بأن عمالا اجتماعيا خارجيا يمكن أن يصبح عاملا داخليا للأدب، أي عاملا من عوامل تطوره للمحايث، من ناحية، وتجاوز تحليل الماركسيين لدور السوسيولوجيا في دراسة البنية الخارجية، وإثباتهم إمكانية وجود شعرية سوسيولوجية، من ناحية أخرى، وكان مسمى هذه المدرسة هو القضاء على ما انتجته تعارض الموقف الشكلي مع الموقف الماركسي من ثنائية للبنى الداخلية والبنى الخارجية، وبالتالي ثنائية لتسمولوجية. وفي القلب من هذا المسعى كان التأليف بين الشعرية الشكلية والسوسيولوجيا الماركسية. وكانت قناعة باختين هي أن التحليل السوسيولوجي ينبغي أن يكشف عن الطبيعة الاجتماعية للأدب من داخل البناء الشعري الكلي. وهنا يتحول البحث إلى شعرية سوسيولوجية، مهمتها تحليل تحول المادة الاجتماعية التاريخية (أي: الحبرة والأحداث والأفعال) إلى شكل شعري، أي إلى عمل أدبي

من نوع معين . وينظر باختين إلى العمل الأدبي بوصفه بنية من الكلام على درجة عالية من التنظيم ومشبعة بالأيدولوجيا^(٧٧) . وقد كانت التحليلات العديدة التي أجراها لتصوص مختلفة بمثابة نماذج عملية لمحاولة التأليف الإبداعية من أجل إحداث نقلة نوعية هامة في مجال الدرس السوسيلوجي للأدب .

٦- وجدت المدرسة الشكلية الروسية صدى لها في الولايات المتحدة الأمريكية فيها عرف هناك بحركة النقد الجديد New Criticism . وقد بدأ هذا النقد في الظهور ثم التبلور من خلال أعمال كل من ت . س . إليوت T. S. Eliot (الغاية المقصودة ١٩٢٠)، P. P. ريتشاردز I. A. Richards (مبادئ النقد الأدبي ١٩٢٥)، وليم إمبسون W. Empson (سبعة أنماط من الغموض ١٩٣٠)، بروكس ووارين Brooks and Warren (فهم الشعر ١٩٣٨)، وجون كرو رانسون J. C. Ransom الذي وضع الاسم لهذه الحركة بعمله المعنون «النقد الجديد» (١٩٤١) . وتمثل إحدى الاستراتيجيات الأساسية للنقد الجديد في أمريكا في التخلص من ثلاثة مجالات كانت موجودة في الدراسة الأدبية، وهي: سيرة المؤلف، محتوى العمل الأدبي، استجابة القارئ . وبدلاً من هذه المجالات صار الموضوع المبدئي لهذا التيار النقدي هو: شكل العمل الفني نفسه . وهكذا انصرف البحث إلى الاستغراق في النص بالتركيز على الوحدة الجليالية والتناقض والغموض فيه^(٧٨)، مما أفضى إلى إغلاق الطريق أمام نمو تقاليد سوسيلوجية أدبية بمعناها المعروف في غرب أوروبا وشرقها، أو في الاتحاد السوفيتي، وإن وجد نوع آخر من البحث السوسيلوجي المعتمد على أسلوب «تحليل المضمون» الذي يتعامل مع النص كوثيقة تحمل معاني أو قيا معينة يتم استخراجها إحصائياً في غالب الأحيان .

٧- مثلاً رفضت الشكلية، في بداياتها، كل أشكال الضمير الاجتماعي والنفسي والفلسفي للأدب، وركزت على بنيتها الداخلية، كانت هناك نظرية أخرى معاصرة لما تقدم صياغات مشابهة، ولكنها تخص اللغة، وأقصده نظرية عالم اللغة السويسري ف . دي سوسير F. de Saussure الذي ذهب إلى أن اللغة عبارة عن «بنية» شكلية متساكة، أو هي نسق مكثف ذاتياً ومحكوم بأعراف وقواعد داخلية . وقد شكلت أفكار سوسير نموذجاً معرفياً جديداً في حقل اللغة، إلا أن تأثيره امتد إلى علوم إنسانية أخرى ومن بينها النقد الأدبي . وكان هذا النموذج أيضاً موضوعاً للجدال المنهجي في تلك الحقبة الثرية بالفكر^(٧٩) .

ونحن نعرف أن كلا من الشكلية الروسية، والنقد الجديد في أمريكا، واكتشاف سوسير لمفهوم «البنية» في علم اللغة كان له تأثيرات ملحوظة على التطورات المنهجية التي شهدتها البحث الأدبي لاحقاً، إذ شكلت معا روائد تاريخية هامة لما عرف بالبنوية Structuralism كحركة فكرية مارست سلطة قوية منذ أواخر الخمسينات ولقرابة ربع قرن من الزمان في مجال النقد والعلوم الإنسانية .

٨- شهدت الساحة الألمانية، هي الأخرى، حوارات هامة حول الموضوع والمنهج في علم اجتماع الفن والأدب، ولم تكن تلك الحوارات غريبة على هذه الساحة . فالجدال، العنيف أحياناً، سمح بميزة للحيحة الفكرية الألمانية عموماً . ومن بين تلك الحوارات ذات الدلالة ذلك الذي دار بين كل من ليوبولدفون فيزه L. Von Wiese من ناحية، وروثاكر E. Rothacker من ناحية أخرى، وبرز خلال المؤتمر السابع لعلماء الاجتماع الألمان عام ١٩٣٠ . كان فون فيزه يرى ضرورة وجود «علم اجتماع خاص» يدرس الفن والأدب ويرتبط في رؤيته ومنهجه بعلم الاجتماع العام، ويكون متميزاً عن كل من فلسفة التاريخ وعلم

الثقافة وعلم الأخلاق الاجتماعي، ولا يشغل نفسه بمحتوى العمل الفني أو الأدبي، أو بما يجعله هذا المحتوى من معنى. فالباحث هنا ينبغي أن يبقى في المجال السوسولوجي الذي هو مجال العلاقات الإنسانية، ولا يقيم نفسه في مسائل قيمة ومعيارية، ويقول فون فيزه إن «الفن بالنسبة لنا مجال يرتبط فيه الناس بعضهم البعض، أو يفترون عن بعضهم البعض، وهو يحتمل فقط بالنظر إلى هذه الوظيفة». وهدف عالم اجتماع الفن هو بالتحديد فهم الفن كملاقة إنسانية معقدة وككيان اجتماعي. ويطرح فون فيزه موضوعات للبحث مثل: دور الفنان في المجتمع، التأثيرات الاجتماعية على دوره، تأثير الفن على التلقي، العلاقة بين الفن ككيان اجتماعي وبين كيانات أخرى مثل الدولة والكنيسة والاقتصاد والجمعيات والاتحادات. . إلخ، ويرفض أن يكون العمل الفني أو الأدبي نفسه، من حيث جوانبه الشكلية الجمالية ومضمونه موضوعا للبحث في علم الاجتماع.

أما روتباكر، فقد اتخذ موقفا معاكسا تماما، إذ انطلق من رؤية فلسفية - ثقافية، مؤكدا على أن أحصص مدخل للقضايا السوسولوجية هو ذلك الذي ينظر إلى أساليب الحياة والثقافة والفنون بوصفها متعددة ومختلفة. ومن هنا فإن المسألة التي ينبغي أن تطرحها سوسولوجيا الفن هي: إلى أي مدى تؤثر العوامل الاجتماعية في نشأة هذه الأساليب وتغيرها. أما موضوع البحث في علم اجتماع الفن فهو «الواقع الفني» *Kuensterische Wirklichkeit* ويعني هذا المفهوم عند روتباكر «العمل الفني»، وهو يؤكد: «بدون الانطلاق من العمل الفني لا يكون ثمة علم اجتماع»^(٨٠).

كانت تلك هي أهم التطورات الفكرية والمنهجية التي شهدتها العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن، وقد جاءت الجهود اللاحقة في مجال الدرس الاجتماعي للمظاهرة الأدبية حاملة، بصورة أو بأخرى، لآثار تلك التطورات - ومازال الميدان يشهد طرحا لمفاهيم وأساليب جديدة، ومحاولات لحل الإشكاليات، وتحديد مواقف ورؤى ناقدة للتراث أو لعناصر منه، أو متجاوزة له. ولا يسمح المقام هنا بعرض تفصيلي أو شامل لتلك الطروحات والمواقف، فهذه مهمة تستلزم عملا مستقلا. لكننا سنحاول تصنيف أهم الجهود وعرضها بإيجاز، ويستند هذا التصنيف على ما لاحظناه من خلال عرضنا للجهود التأسيسية والمجالات المنهجية من اختلافات بين الاتجاهات المتعددة في مسألتين هامتين، الأولى هي تحديد موضوع الدراسة، هل هو النص الأدبي معزولا، أم هو النص في علاقته بمتغيرات خارجية، أيأ كانت طبيعتها، أم هو وقائع كاتبة حول النص، والمسألة الثانية هي طبيعة المنهج أو الإجراء الذي يستخدم في دراسة الموضوع كما حلده هذا الاتجاه أو ذلك.

ويمكننا، بصورة عامة، وبالنظر إلى خصائص أهم الجهود العلمية في مجال التفسير الاجتماعي للمظاهرة الأدبية، التمييز بين ثلاثة تيارات أساسية، أولها هو ما يمكن تسميته بالتيار الوتائقي. ويتحدد موضوع الدراسة لديه في النص بوصفه وثيقة تحاكي المجتمع أو جانباً منه. والثاني موجه بمسلمات وضعية - إمبريقية، ويتم أساساً بمسائل وعلاقات خارج النص الأدبي، والثالث ذو طابع فلسفي - تاريخي - جدلي - أهم سماته هو أنه يتخذ من النص محورا لصياغاته النظرية وتحليلاته التطبيقية.

التيار الوثائقي

تستند الدراسات التي تنتمي إلى التيار الوثائقي إلى فكرة المحاكاة أو فكرة الانعكاس بمعناها التبسيطي الذي صار غير مقبول، أو على الأقل أدخلت عليه تعديلات جوهرية، وثمة نوعان من هذه الدراسات الوثائقية.

النوع الأول يمثله بعض المؤلفات المدرسية Textbooks التي تهدف إلى لفت نظر الطلاب، خاصة طلاب علم الاجتماع، إلى أن الأدب يعد مصدرا هاما للمعرفة السوسولوجية، لأنه يتميز بالقدرة على عرض العالم من حولنا، وإلى أننا يمكن أن نعيد من الأعمال الأدبية في تشكيل المفاهيم وبلورتها في أذهاننا. ولعل من أشهر تلك المؤلفات كتاب لويس كوزر «علم الاجتماع من خلال الأدب»، الذي يقول في مقدمته إن «الأدب» رغم أنه قد يكون أشياء أخرى كثيرة - هو شهادة أو دليل، وهو تعليق مستمر على العادات والأخلاقيات، يحتفظ لنا بسجل دقيق لأنماط الاستجابات لظروف اجتماعية وثقافية معينة^(٨١). ويقسم كوزر كتابه إلى ستة عشر قسما، يضم كل منها مجموعة مختارة من النصوص الأدبية (الرواية غالبا) التي تسمى في معظمها إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، والتي يرى كوزر أنها تسهم في توضيح أحد المفاهيم الرئيسية في علم الاجتماع^(٨٢). كما يمكن اعتبار كتاب جين داباجيان Jane Dabaghian للمعنوان «مرأة الإنسان» مثلا على هذا النوع من الدراسات، حيث تنطلق المؤلفة من فكرة أن النصوص وثائق اجتماعية يتحقق فيها التناغم بين المفاهيم السوسولوجية وبين العصور، وأن الأدب عموما يعد وسيطا شفافا ينقل العالم الاجتماعي للقراء^(٨٣).

والنوع الثاني من دراسات هذا التيار هو الذي يقوم أصحابه باختيار نصوص معينة (قصصية غالبا) وتحليلها باستخدام ما يعرف باسم تحليل المحتوى Content analysis، بهدف الكشف عن جوانب معينة من البناء الاجتماعي أو ظواهر أو مشكلات معينة يفترض أن النص يعكسها، مثل العلاقات الأسرية، أو التمييز العنصري، أو الصراع الطبقي، أو الجرائم والانحرافات... إلخ. وفيما يلي أمثلة ثلاثة على هذا النوع:

١- دراسة بيرلسون ومولتر^(٨٤)، التي انطلقت من ملاحظة أن الأمريكيين الأغلبية (أي البيض البروتستانت المنحدرين من أصول ساكسونية والمحتفيين بالإنجليزية) يارسون تمييزا عنصريا ضد جماعات عديدة كالزنجير الأمريكيين والمكسيكيين واليهود، والأمريكيين ذوي الأصول الإيطالية أو اليابانية أو الأيرلندية. واستهدفت الدراسة الكشف عن طبيعة المعاملة التي يلقيها أعضاء الجماعات السلالية المختلفة كما يصورها الأدب المنشور في المجلات الجماهيرية واسعة الانتشار، وذلك من خلال اختبار مجموعة من الفروض التي تتعلق بمدى تكرار ظهور الجماعات المختلفة في قصص المجلات، وخصائص هذه الجماعات، وإسهاماتها الثقافية، وأوضاع المكانات الخاصة بها، وطبيعة التفاعل بينها، واعتمد البحث على عينة من القصص المنشورة فيما بين عام ١٩٣٧ وعام ١٩٤٣، والتي حلت في ضوء «الشخصية» كوحدة للتحليل، وفي ضوء السباق الكلي للقصص. وانتهت الدراسة إلى مجموعة من النتائج التي جاءت في معظمها مؤيدة للفروض التي انطلق منها الباحثان.

٢- دراسة ميلتون البرشت^(٨٥)، التي سعت إلى استطلاع الإمكانية التي يعكسها الأدب القيم والمعايير الثقافية في المجتمع الأمريكي، خاصة القيم الأسرية، وذلك من خلال تحليل القصص القصيرة التي ظهرت

في المجالات واسعة الانتشار التي تمثل الشرائح الاجتماعية الدنيا والوسطى والعليا التي ينتمي إليها القراء في المجتمع الأمريكي. وانطلق البحث من فرض مؤداه أن القصص القصيرة تعبر أساساً عن بعض القيم والمثل الرئيسية السائدة بين الأمر الأمريكية، وقام البرشت بتحليل عينة من القصص بلغت ١٥٣ قصة موزعة على مجالات المستويات الثلاثة في ضوء قائمة تحتوي على عشرة قيم للأمر الأمريكية، باحثاً عن مدى القبول المباشر والإيجابي لتلك القيم، مستعيناً بعبارة المؤلف، وبسلوك الشخص، وبالصرع الأسامي كما هو موصوف في القصة، وبالحبكة القصصية. وعرض نتائج بحثه على نحو كمي بالأرقام والنسب المئوية. وقد جاءت هذه النتائج مدعومة الاستخلاص الذي مفاده أن المعايير والقيم السائدة في الأمر الأمريكية تتأكد بصورة قوية في القصص المنشورة على اختلاف مستويات قرائها.

٣- دراسة بول هولاندر^(٨٦)، الموجهة بفكرة أن أدب المجتمعات الشمولية يعد مصدراً رئيساً للمعلومات حول نظم تلك المجتمعات وأهدافها ومثلها العليا التي لاتسمع الظروف بنداستها موضوعياً. وقد استهدفت هذه الدراسة الكشف عن القيم الرسمية وأساليب الضبط في مجتمعين شموليين هما الاتحاد السوفيتي والمجر، كما يكشف عنها الأدب والتقد الأدبي الذي يميزه المجتمع رسمياً، وذلك بالتركيز على الأنماط الأدبية التي تجسد الخير والشر من خلال نموذجين أدبيين هما: البطل الإيجابي Positive Hero، والبطل السلبي Negative Hero بوصفهما نموذجين للسلوك مرتبطين بنسق القيم الرسمية من خلال الإطار النظري للواقعة الاشتراكية في المجتمع السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية. وحلل هولاندر مجموعة من الأعمال الأدبية المنشورة في الاتحاد السوفيتي خلال الحكم الستاليني (١٩٣٠-١٩٥٣)، وبمجموعة أخرى منشورة في المجر في الفترة من ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٣، أخذاً في الاعتبار تنوعها بالنظر للأئمة والأماكن والأنماط الاجتماعية التي تصورها، ومعتمداً على «الشخصية» كوحدة للتحليل. وقد أبرزت نتائج الدراسة أن خصائص البطل الإيجابي هي: الميل إلى الانحياز للحزب، حب الوطن، النشاط، حب العمل، الاستعداد الطبيعي للكرامة، الحذر، الانضباط، التواضع، التضائل، النزعة التطهرية، في حين أن خصائص البطل السلبي هي: انعدام الضمير، اللاأخلاقية، الجبن والتفائق، الانسياق وراء اللذة، الفسوق الجنسي، والعمل ضد النظام. وهذه السمات والقيم الإيجابية والسلبية تعكس - على ما يستخلص هولاندر - ما كان مرغوباً فيه وما كان مستهجناً من جانب الجهات الرسمية في ظل النظام السائد في كلا المجتمعين إبان حكم ستالين.

والقاسم المشترك بين دراسات كل من النوع الأول والنوع الثاني هو أنها جميعاً تسعى إلى الحصول على أدلة من الأعمال الأدبية تشير إلى قدرة تلك الأعمال على تسجيل الوقائع الاجتماعية والثقافية المختلفة، وتتنظر إلى النصوص الأدبية كنافذة أمين لظروف المجتمع وحقائق التاريخ، وتصبح مهمة الباحث، خاصة في نظر أصحاب دراسات النوع الثاني، هي تحويل ما يسميه ليولوفثال Lowenthal إلى «المعادلة الخاصة، Private equation» إلى «معادلة اجتماعية» Social equation^(٨٧)، أي تطويع الموضوعات والطرق والأساليب التي يستخدمها الكاتب لكي تلائم فروضا ونظريات معينة تتصل بمسائل اجتماعية عامة. والمشكلة هنا هي أن مثل تلك الدراسات تغفل تماماً العمل الأدبي بوصفه بناءً خيالياً معقداً قائماً على استخدام لغة أدبية، وتتنظر إليه باعتباره مجرد مستودع معلومات سوسيلولوجية، وهذه نظرة اختزالية وبسيطة تفقد الأدب طبيعته. ولذلك فإن الأعمال التي يتم تحليلها في هذا النمط من الدراسات غالباً ما تختار في ضوء خصائص معينة تجعلها

متناسبة مع ما يتناوله الباحثون من أفكار ونظريات، وما يطرحونه من فروض يسعون إلى إثبات صحتها، ولا يتناقض انتقادنا لفكرة الانكماش والشفافية بالمعنى السائد عند أصحاب هذا التيار مع اعترافنا بأن الأدب يمثل مصدراً خصباً يمكن للباحث الاجتماعي الاستعانة به في الاستبصار بخصوصية الحياة والواقع.

التيار الوضعي - الإمبريقي

تمثل الخاصية الرئيسية التي تنتمي إلى التيار الوضعي - الإمبريقي في أن هذه الدراسات تهتم بوصف الظواهر المحيطة بالنص الأدبي، والتي تتصل بإنتاج الأدب، ولؤضع الكتاب الاجتماعية والاقتصادية، وعمليات نشر الكتب وتوزيعها، وخصائص الجمهور القارئ. وغالباً ما تكون هذه الدراسات موجّهة بتساؤلات وفروض مستمدة من مجال علم الاتصال، وتستخدم مناهج وضعية تعتمد فيها على الأدوات التي يشيع استخدامها في البحوث الاجتماعية مثل المقابلة والاستبيان ودراسة الحالة... إلخ، وتُبلّغ إلى عرض نتائجها في صورة كمية كلما أمكنها ذلك، ويمكن القول إن أهم مثل هذا التيار هم روبرت إسكاربيت وزملاؤه وتلاميذه من أعضاء ما يعرف بمدرسة بورديو Bordeaux في فرنسا، وكل من هانز نوربرت فوجن، وألفونس زلبرمان الذي يعد رائداً لما يعرف بمدرسة كولونيا Koeln في ألمانيا.

يرى إسكاربيت R. Escarpit في كتابه المعنون «علم اجتماع الأدب»^(٨٨) أن وجود الواقعة الأدبية يشترط توفر ثلاثة أطراف هي: المبدعون، والأعمال الأدبية، والجمهور القارئ. وبين هذه الأطراف ثمة علاقات متبادلة تتم من خلال عمليات اتصالية معقدة ذات طبيعة فنية، وتقنية، وتجارية، وتحدث كلها داخل دائرة شاملة، ويتجعد عنها العديد من القضايا والمشكلات. فالمبدعون كطرف أول يطرحون مشكلات تتصل بالتأويل النفسي والأخلاقي والفلسفي، والأعمال الأدبية، كطرف ثان، تطرح مشاكل جمالية وأسلوبية ولغوية وتقنية، والجمهور القارئ، كطرف ثالث، يطرح مشاكل ذات طابع تاريخي وسيميائي واجتماعي واقتصادي.

وفي المخطط الذي يضعه لمجال الدراسة الاجتماعية للظاهرة الأدبية، يؤكد إسكاربيت بصورة قاطعة على أن مهمة علم اجتماع الأدب ليست هي دراسة الجانب الجمالي والفني في العمل الأدبي، وإنما هي، تحليداً، دراسة جوانب الإنتاج والاستهلاك والتوزيع في الظاهرة الأدبية، على اعتبار أن الكتابة قد أصبحت في يومنا هذا مهنة تمارس في إطار التنظيم الاقتصادية، وأن الكتب قد صارت إنتاجاً مصنعاً، يتم توزيعه تجارياً وتخضع لقوانين العرض والطلب، وأن القراء هم الفئة المستهلكة لهذا الإنتاج^(٨٩).

وقد أجرى إسكاربيت عدداً من الاستقصاءات الوصفية حول بعض الجوانب الإنتاجية والتوزيعية والاستهلاكية للواقعة الأدبية. ففي الجانب الإنتاجي، درس إسكاربيت ظاهرة تتابع الأجيال الأدبية، واجتهد في وضع الأسس المنهجية والمنهجية لدراسة هذه الظاهرة، وحاول أن يطبق هذه الأسس على تتابع الأجيال الأدبية في الأدب الفرنسي منذ منتصف القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن العشرين، وحساب النسبة المئوية لما أنتجته الجماعات الأدبية خلال تلك الفترة من الأجناس الأدبية (شعر - مسرح - رواية)^(٩٠). وأجرى استقصاء حول الأصول الإقليمية للكتاب الفرنسيين المنتجين للأدب خلال ثلاثة قرون، ودور العاصمة باريس في تقديم النسبة الكبرى من هؤلاء الكتاب^(٩١)، وتتبع الأصول الاجتماعية والأسرية والمهنية لكتاب القرن التاسع عشر في كل من فرنسا وإنجلترا، وقدم بعض الشواهد المستمدة من تاريخ الأدب على

نظام الرعاية الأدبية Patronage، وعلى مشكلات التمويل وحقوق المؤلفين ومشكلة «المهنة الثانية» التي يمارسها الكتاب لإشباع حاجاتهم وتسيير أمور معيشتهم^(٩٢).

وفي الجانب التوزيعي درس إسكارييت عملية النشر، متتبعا الأصول التاريخية لنشأة المؤسسات التجارية التي أخذت تعني بنشر الكتب، وموضحا كيف أن النشر أصبح يقوم اليوم على عمليات ثلاث هي الاختيار والصناعة والتوزيع، وأن العملية الأخيرة هي الأهم، لأنها ترتبط بالدوائر المستهلكة للادب، أي بجمهور القراء الذين تختلف خصائصهم وقدراتهم الشرائية وإقبالهم على القراءة^(٩٣).

وإهتمام إسكارييت الأكبر موجه إلى الجانب الاستهلاكي المتمثل في عملية القراءة. وهنا يستند إلى أفكار الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر P. Sartre. عن العلاقة الجدلية بين الكاتب والقارئ، وينطلق من التسليم بأن الكاتب يكون دائما موجها بـ«آخر» هو القارئ الذي تشكل بينه وبين القارئ علاقة تاريخية من خلال وسيط هو الكتاب^(٩٤). وينظر إسكارييت إلى الأدب على أنه «اتصال مزدوج» Two-Way Communication بين المؤلف من خلاله رسالة إلى القراء الذين تأخذ استجاباتهم للرسالة صورة الأكار والكلمات والأفعال والرسائل الأخرى التي تتفاعل مع بعضها البعض ومع الكاتب نفسه^(٩٥). ويفرق إسكارييت بين «الجمهور النظري» الذي يفترض أن الكاتب يوجه إليه رسالته، وبين «الجمهور الحقيقي» الذي يعتمد عليه الناشر، كما يفرق بين مستويات متعددة من «النجاح» الأدبي، أي مدى انتشار العمل واستهلاكه من جانب القراء^(٩٦).

وثمة أوجه عديدة للتشابه بين مشروع فوجن H.N. Fugén ومشروع إسكارييت، حيث يؤكد فوجن في مقدمة كتابه الشهير «الانتماءات الرئيسية لعلم اجتماع الأدب ومناهجه» أن الفكرة الرئيسية الموجهة لمشروعه هي استبعاد التصورات القيمة الجمالية كمعايير للتعامل مع الأدب^(٩٧) فطالما أن علم اجتماع الأدب هو «سوسيولوجيا خاصة»، فينبغي إذن أن يكون مرتبطا، في موضوعه ومنهجه، بعلم الاجتماع العام، ولما كان هذا الأخير يتخذ من الفعل الاجتماعي (أي التفاعل الإنساني بين الأفراد) موضوعا للدراسة، فإن سوسيولوجيا الأدب لا يجب أن تهتم بالعمل الأدبي كموضوع جمالي، بل كموضوع ترتبط به، وتوجه إليه، أفعال إنسانية. ومن هنا، فإن موضوع الدراسة في علم اجتماع الأدب هو ذلك «التفاعل بين الأشخاص المشاركين في الأدب»^(٩٨). ويذكرنا هذا الموقف بموقف ليوبولدغون فيزة الذي اتخذه في حواره مع إيريك روتباكر في بداية الثلاثينيات، والذي أشرنا إليه قبلا.

وفي دراسة أخرى له، يستعمل فوجن مفهوم «السلوك الأدبي» Literarisches Verhalten لتمييز الفعل الإنساني المتصل بالأدب، ويقدم محاولة منهجية يحدد فيها الإجراءات التي يرى ضرورة اتباعها عند دراسة هذا السلوك، فيميز بين أربعة أنماط من التحليل هي:

١- تحليل العناصر (ويقصد تحليل الأدوار والعلاقات بين أصحاب هذه الأدوار، وخاصة بين المؤلف والجمهور).

٢- تحليل البنية (أي دراسة العلاقات القائمة بين المؤسسات الأدبية)

٣- تحليل العوامل (ويقصد تأثير النسق الاجتماعي على الأنساق الأدبية وبالعكس).

عالم الفكر

٤- تحليل الوظائف (ويعني وظيفة مؤسسة أدبية ما بالنسبة للمجتمع ككل، وتأثير ردود الأفعال المجتمعية على نسق المؤسسات الأدبية)^(١٩٩).

ورغم أن فوجن لم يوضح كيف يمكن إجراء هذه الأنماط التحليلية على حالات محددة، إلا أن عرضه لها يشي باقترابه من المناهج السوسيولوجية في تحليل عمليات الاتصال، خاصة الاتصال الجمعي. وهنا بالذات نلاحظ نقاط التلاقي بين رؤيته ومنهجه، وبين رؤية إسكارسيت ومنهجه. ويدعم هذه الملاحظة المخطط المقترح الذي يقدمه فوجن لدوائر المشكلات البحثية في علم اجتماع الأدب، وهي: دائرة الكتاب (المؤلفين) ودائرة الوسطاء الفكريين والماديين (النقاد، المسرح، محلات بيع الكتب، المكتبات)، ودائرة القراء^(٢٠٠).

ويمنح ألفونس زلبرمان A. Silberman، أيضا، في أعماله، أهمية عورية لوسائل الاتصال والتفاعل في الظاهرة الأدبية. وهو أيضا يتناول في مفهومه لعلم اجتماع الأدب، موضوعا ومنهجيا، من منطلق وضعي-إمبريقي، يستبعد «الجمالي»، ويركز فقط على «الاجتماعي»، وخاصة مسألة تأثير المجتمع على قضايا إنتاج الأعمال الأدبية وتلقيها. ومن هنا نجد أنه يهاجم الاتجاهات النقدية عند كل من لوكاتش وجولدمان وأدورنو، ويصفها بأنها لا تمت لعلم الاجتماع بصله، ولا ينبغي أن تضع نفسها تحت هذا النظام المعرفي، لأنها تعد فلسفة فنية أو استبطاناً سوسيولوجية^(٢٠١). وقد دخل زلبرمان في حوار شهر مع أدورنو، دافع فيه عن الموقف الوضعي-الإمبريقي، وانتقد المتطلعات الفلسفية والجمالية والطروحات السوسيولوجية في أعمال هذا الأخير.

في رأي زلبرمان أن الفنون والخبرات المرتبطة بها تجسد عملية اجتماعية يطلق عليها: «عملية الفن» Kunst-prozess. ويعني هذا المفهوم لديه التفاعل والاعتماد المتبادل بين الفنان، والعمل الفني، والجمهور، وتحدث عملية الفن حين يبدأ الفنان عمله، وتستقبل البيئة الاجتماعية والثقافية هذا العمل وتستجيب له. فمن خلال عملية التلقي ورد الفعل يمارس العمل الفني تأثيرات معينة على جماعات معينة، وتلعب مواقف هذه الجماعات وسلوكها إزاء العمل دورا هاما في تحديد وضع العمل نفسه في إطار الموقف الثقافي الشامل، كما تتحكم أيضا في النشاط الإبداعي للفنان وتنظمه. ومن هنا فالبحوث في سوسيولوجيا الفن تتجه إلى دراسة التفاعل بين الأفراد والجماعات والمؤسسات، أي دراسة ما يسميه زلبرمان «العمليات الفنية»^(٢٠٢). وفي مقال له عن «الفن» يؤكد زلبرمان أن علم اجتماع الفن بنأى بنفسه عن دراسة أي شيء يتصل ببنية العمل الفني أو بأسلوبه، أو بالمستويات الفنية والجمالية فيه، وأن نقطة الانطلاق ونقطة العودة في البحث السوسيولوجي هي دائما «خبرة الفن» Kunstserlebnis، لأن هذه الخبرة فقط هي التي تنتج دوائر التأثير والتفاعل بين أطراف عملية الفن^(٢٠٣). وحسب المصطلح الوضعي-الإمبريقي الذي يتبناه زلبرمان، تصبح المداخل الإجرائية الوحيية لدراسة هذه الخبرة هي-كما يذكرها هو نفسه-

١- التجربة: وهي طريقة تسمح بضبط الموقف واختبار الفروض.

٢- الإحصاء، بكل أنواعه (الوصفية، والاستدلالية، والتحليل العاملي... إلخ)

٣- الطريقة البينية Interdisziplinäres Vorgehen، ويقصد بذلك الإفادة من البيانات والمفاهيم والنظريات التي تتيحها نظم معرفية قريبة من علم الاجتماع، مثل الأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والإثنولوجيا، والتاريخ، والاقتصاد، بل وأحيانا القانون والطب^(٢٠٤).

ونحن لا نود أن ندين الاتجاه الإمبريقي في دراسة الظاهرة الأدبية إدامة مطلقة. فلاشك أن مشروعات باحثين مثل إسكارييت وفوجن وزليرمان، وجهودهم في وضع خططات للدراسة في مجال علم اجتماع الأدب، ودراساتهم هم أنفسهم لأوضاع الكتاب أو لاتجاهات القراء، أو لعمليات النشر. . إلخ، قد انطوت على بيانات ومعلومات لا تخلو من فائدة، وربما كنا في حاجة إليها من أجل فهم أشمل للظاهرة، غير أن القصور المنهجي الرئيسي الذي يعاني منه هذا التيار هو تلك النظرة التصنيفية الجامدة لجوانب الظاهرة الأدبية، التي تقسمها إلى مجالات تبدو وكأنها مستقلة: إنتاج - توزيع - استهلاك، وذلك الولع (الشديد في بعض الأحيان) بإظهار الصرامة المنهجية والحلق في جمع البيانات، بحيث يبدو وكأن ذلك هو الهدف من البحث، لإضفاء الطابع العلمي الرصين عليه، في حين يغيب عن معظم الممارسات البحثية أية تصورات نظرية متسقة ومتسقة، وأي تعامل مع النص الأدبي ذاته.

التيار الفلسفي - التاريخي - الجدلي

السمة المميزة للتيار الفلسفي - التاريخي - الجدلي، هي تعدد روافده، وتبوع موجاته، وتقاطعها مع بعضها البعض، ووجود تداخلات وتمايزات بين الاتجاهات التي يضمها. غير أن القاسم المشترك بين هذه الاتجاهات هو اتخاذها النص الأدبي محوراً للبحث، لا بوصفه وثيقة أو سجلاً، أو باعتباره مناظراً لمفاهيم سوسيولوجية، أو انتمكاساً مرآوياً مباشراً لجانب أو آخر من جوانب الواقع كما هو الحال لدى أصحاب التيار الوتافقي، وإنما بوصفه فضاء جازماً - أدبياً - تتموضع وتتبلور فيه، جدلياً، ومل نحن معقد، رؤى فكرية، وبنى، وعلاقات، وأيديولوجيات. ومن هنا، فإن المشكلات والقضايا التي تطرحها البحوث التي تنتمي إلى هذا التيار، هي، في معظمها، ذات طبيعة فلسفية وتاريخية.

ولما كانت الإنجازات العلمية لهذا التيار قد صارت في السنوات الأخيرة تتراكم بصورة واضحة، وتقدم كشوفاً فكرياً على درجة كبيرة من الأهمية، فإن الإحاطة التفصيلية بها تصبح أمراً تضيق به حدود بحثنا الراهن. ومن هنا فإن ما سيلي هو عرض موجز لبعض أهم الاتجاهات التي يضمها هذا التيار. وزاوية النظر التي تحكم هذا العرض هي موقف كل اتجاه من النص الأدبي.

١ - النص ورؤى العالم (لوكتاش وجولدمان)

ينهض التفسير الاجتماعي للأدب عند لوكتاش (١٨٨٥-١٩٧١) على أسس مادية تاريخية، مستلهاً في الوقت نفسه، مفهوم «الكليّة» Totalitnet عند هيجل. ويعد لوكتاش أول مفكر ماركسي - بعد بليخانوف - يسعى بصورة جذبية إلى ترسيخ رؤية ماركسية متسقة للواقع الأدبية، وإلى وضع الأسس لاتجاه الواقعية في النقد الأدبي، وإن كان لوكتاش لم يبدأ حياته الفكرية ماركسياً. فقد كانت أفكار كل من جورج زيمل عن «فلسفة التقود»، وأفكار ماكس فيبر عن «البروتستانتية» هي - على ما يذكر هو نفسه - نموذج، والجسر الذي عبر عليه إلى سوسيولوجيا الأدب (١٠٥). إلا أنه تحول، بعد الحرب العالمية الأولى، إلى الهيغلية، ومن خلالها استوعب الماركسية، وانخرط في تنظيمات حزبية في بلده المجر، وتولى بعض المناصب السياسية والثقافية الهامة، وظلت النظرة الهيغلية إلى التاريخ مهيمنة على أعماله.

وفي مقال مبكر له حول «تاريخ تطور الدراما الحديثة» (١٩٠٩) انتقد لوكاتش ذلك النوع من سوسولوجيا الأدب الذي «يسعى إلى إثبات أن العلاقات الاقتصادية لعصرها هي العامل السببي الأخير والأعمق وراء العلاقات الاجتماعية، وبالتالي هي السبب المباشر للظواهر الفنية»^(١٠٦)، وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك وأهم، «حيث ذكر أن الأخطاء الكبرى التي تقع فيها الرؤية السوسولوجية للفن تتمثل في أن هذه الرؤية تبحث عن المحتويات في الإبداعات الفنية، وتدرسها، وتجد خطأ مستقيماً بينها وبين علاقات اقتصادية معينة، في حين أن الاجتماعي في الأدب فعلاً هو: الشكل. فالشكل يجعل خبرة الفنان مع الآخرين، ومع الجمهور، رسالة، وعن طريق هذه الرسالة «المتشكلة» وعن طريق إمكانية التأثير، والتأثير الفعلي للحادث، يصير الفن اجتماعياً»^(١٠٧).

وقد طور لوكاتش هذه الأطروحة الهامة فيما بعد في كتابه «نظرية الرواية» الذي ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٢٠، والذي هالج فيه تطور الرواية الغربية، موضحاً كيف أن تحول الكتابة من الشكل الشعري الذي كان سائداً في المجتمع اليوناني إلى الشكل الثري السائد في الحياة الحديثة، ليس سوى نتيجة لتبدل محتوى العلاقة بين الفرد والمجتمع. فحينما كان الإنسان في الماضي مندمجاً مع جماعته، كان الشعر هو الشكل الفني الذي يعكس هذا الاندماج، وحين أخذت العلاقة بين الذات (الفرد الإنساني) والموضوع (المجتمع) تنطوي على تناقض، صار الشعر هو الشكل الذي يفرض نفسه كتعبير عن تحطم الانسجام بين الإنسان وعالمه^(١٠٨).

والمتمتع بكتابات لوكاتش في مجال الأدب يمكنه ملاحظة أن الموضوع الرئيسي الغالب على هذه الكتابات هو: انهيار الواقعية البورجوازية، أي الواقعية النقدية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحلول مايسميه لوكاتش الأدب التكنيكي الخادع محلها. ويقصد بذلك التيارات الحديثة المتمثلة خاصة في الحركة التجريبية أو الطليعية. وفي دراسته الهامة عن الواقعية المعاصرة، يرى أن أعمال كاتب مثل كافكا، وجويس، وأوبل، وبروست، وبيكيت، تعد نموذجاً على إخفاق الأدب البورجوازي في سعيه نحو وصف الإنسان في كليته. وينطلق لوكاتش في نقده لأعمال هؤلاء الكتاب وغيرهم من مفهوم محوري هو «رؤية العالم» *Weltanschauung* الذي سبتهه فيما بعد لوسيان جولدمان، ويرى لوكاتش أن «رؤية العالم» هي «العقلانية التي تكمن تحت عمل الكاتب. ومحاولة الكاتب أن يعيد خلق هذه النظرة إلى العالم هو ما يشكل «قصده»، وهو المبدأ التكويني الذي يرتكز عليه أسلوب عمل معين. وإذا نظرنا إلى الأسلوب بهذه الطريقة فإنه لا يصبح مجرد خاتمة شكلية، بل الأخرى أنه متأصل في المضمون. فهو الشكل المحدد لمضمون محدد. إن المضمون يحدد الشكل، وليس هناك من مضمون إلا وكان الإنسان ذاته نقطة البؤرية. ومنها تنوعت معطيات الأدب.. فالسؤال الأساسي هو، وسيظل: ما هو الإنسان؟»^(١٠٩). هنا يعود لوكاتش إلى قضية الشكل، ويربط بينها وبين مفهوم رؤية العالم.

فالأدب الحديث ينكر وجود هذه الرؤية للعالم «والتي غالباً ما ترتبط - في نظر لوكاتش - بطقعة معينة» من ناحية - ويسعى إلى الإيحاء بأن رؤيته موضوعية من ناحية ثانية، ومن هنا جاء هذا الأدب بدون موقف معين، وعاجزاً عن تمييز ملامح الواقع الهامة، والتي من أهمها وأعمقها: الصراع الطبقي الذي أحدثه المجتمع الرأسمالي، وبرزت الطبقة العاملة بوصفها التقيض للبورجوازية، وظهور الاشتراكية كتقيض للرأسمالية وسعيها إلى استعادة كليات الإنسان، والفضاء. على النتائج المدمرة واللاإنسانية التي

أقصى إليها النمو المتعاطف للتقسيم الاجتماعي للعمل الذي صاحب التطور الرأسمالي. وقد تجلّ فقدان الموقف الإنساني النازع إلى الاشتراكية في إبداع أدب سياته الرئيسية هي الإغراق في الذاتية، وتصوير الإنسان على أنه مغترب ومنعزل، وغير سوي، وفاقد لأيّة علاقة ذات معنى بالعالم الاجتماعي. وهي السمات التي تميز أعمال أولئك الكتاب المحدثين.

ومثلاً غابت «الكلية» عن الأدب الحديث، غابت عنه «الأنباط». فالكتاب العظيم فقط هم - في نظر لوكاتش - الذين يبدعون في أعمالهم «أنباطاً» بشرية خالدة، كتعبير فني عما يسميه لوكاتش «الإنسان المنسجم»^(١١٠). ويتصور هذه الأنباط يعيد هؤلاء الكتاب للإنسانية وحدتها الشاملة. ومثل هذه الأعمال هي الأعمال الواقعية. ومن هنا يعجب لوكاتش بأعمال كتاب مثل بلزاك وتولستوي وجوركي، بل يمتد إعجابه أيضاً إلى اليونانيين، وكذلك دلتاي وشكسبير، لأن هؤلاء جميعاً: «هم الصور الملائمة لمراحل كبيرة متميزة على طريق التطور الإنساني، وللمرشدون في الصراع الأيديولوجي من أجل بلوغ كلية الإنسان»^(١١١).

لقد نقل لوكاتش - باهتمامه بقضية الشكل / المجتمع، ويطرحه مفهومي، «رؤية العالم» و«النمط»، ويأتمجه إلى التعامل مع نصوص عديدة، موجهها برؤية جدلية - نقل الدرس السوسيولوجي للأدب نقلة نوعية ساهمت في تحليله من بعض المضامين المنهجية التي كانت تتمثل عند كل من أنصار الوضعية وأنصار الماركسية الجامدة في النزعة الميكانيكية الانعكاسية المباشرة، ولأول مرة صار عنصر الوعي / الرؤية يدخل كوسيط في عملية تفسير النص الأدبي.

ويجمل مفهوم «رؤية العالم» مكانة محورية في المنهج النقدي عند لوسيان جولدمان L. Goldmann (١٩١٣-١٩٧٠)، وهو المنهج الذي يطلق عليه «البنوية التركيبية» Genetic Structuralism نظراً لأن هذا المنهج يدرس «بنى» فكرية واجتماعية، في ضوء أصولها وتطوراتها. وتتمثل الممارسات البحثية في أعمال جولدمان التطبيقية في الكشف عن مدى تجسد «رؤية العالم» الخاصة بجماعة ما - هي دائماً عنده كما عند لوكاتش طبقة اجتماعية - في النص الأدبي الذي يبدعه الكاتب المتمي إلى هذه الجماعة. وتنهض هذه الممارسة البحثية على فرضية أساسية هي أن «كل حالة من حالات السلوك الإنساني هي محاولة الاستجابة الدالة لموقف معين، وبالتالي فإنها (أي الحالة السلوكية) تميل إلى خلق نوع من التوازن بين الذات الفاعلة وبين الموضوع»^(١١٢) (أي البيئة). وفي ضوء هذه الفرضية، يعد الإبداع الثقافي بأشكاله المختلفة سلوكاً خاصاً، يتمثل في إبداع بنية ذات معنى ومتناسكة بقدر الإمكان، وفي السعي إلى الاقتراب من الهدف الذي يطمح أعضاء جماعة إنسانية ما إلى تحقيقه^(١١٣). ويقدر ما ينتج العمل الأدبي في إبداع هذه البنية، وتحقيق هذا المسعى، بقدر ما يكون معبراً عن «رؤية العالم» لدى الجماعة المعنية. وعلى الرغم من أن العمل الأدبي إبداع فردي، إلا أن الفاعل الحقيقي في تشكيل الرؤية للعالم التي يتضمنها العمل هو «فاعل جماعي» أساساً. «فتجربة الفرد الواحد أنصر، بل أضيق، من أن تخلق مثل هذه البنية العقلية، إذ لابد لهذه البنية من أن تكون نتيجة نشاط مشترك لعدد كبير من الأفراد»^(١١٤)، يسميهم جولدمان «الفاعل الجماعي».

وهمة الباحث في التحليل البنوي التركيبي هي الكشف عن البنى الدالة والروية للعالم في النص موضوع التحليل، وذلك من خلال إجرامين منهجين، أولهما هو الفهم Comprehension، أي التعرف على

عالم الفكر

الارتباطات الداخلية للنص، ولا شيء غير النص ككل، دون إضافة أي شيء إليه، والبحث عن البنية الدالة الشاملة فيه، وثانيها هو الشرح *Explanation*، أي البحث عند ذات فردية أو جماعية، تمتلك من أجلها البنية العقلية المهيمنة في العمل الأدبي خاصية وظيفية دالة. وحسب جولدمان، تكون هذه الذات جماعية، فالفهم عملية ذاتية داخلية *Immanent* موجهة نحو النص، في حين تستدعي عملية الشرح عوامل خارجية عن النص^(١١٥). وتعد دراسة جولدمان المعنوية «الإله المخفي»^(١١٦) نموذجا بارزا على تطبيقه للمنهج البنيوي التكويني. وموضوع الدراسة الرئيسي هو رؤية العالم المأساوية في فلسفة باسكال وفي مسرح راسين، حيث خلص جولدمان إلى أن البنى الدالة في أعمال كل من هذين المفكرين تعبر عن رؤية للعالم تتفق مع جماعة دينية اجتماعية متطرفة هي طائفة الجانسينست. *Les Jansénistes*، ومع طبقة اجتماعية معينة هي طبقة «ارستقراطية الرداء» *La Noblesse de robe*.

ويبدو أن جولدمان قد تحول فيها بعد عن الربط بين رؤية للعالم وطبقة اجتماعية ما. ففي عمله للوسوم «نحو علم اجتماع للرواية»^(١١٧) ينطلق من مسلمة جليدية هي أن الحياة الاقتصادية تنعكس في الإبداع الثقافي عامة، وفي الشكل الأدبي بصفة خاصة. لم يعد «الوعي الجمعي» يستخدم هنا، بل حل محله الربط السببي بين الشكل الروائي (في روايات مالرو، وروب، جرييه، وناتالي ساروت) وبين البناء الاجتماعي ككل، والمبرر لهذا التحول هو -حسبما يذهب جولدمان- أن الوعي الجمعي لم يعد له دور في المجتمعات الحديثة القائمة على الإنتاج للسوق، والتي يسود فيها النشاط الاقتصادي. فمعد صمود البورجوازية، صار الشكل الروائي معبرا عن الاختلال بين الذات والموضوع، فالرواية البورجوازية المبكرة (الواقعية) في البنية المجتمعية الليبرالية، والتي كان لوكتاش مهتما بها، قد تميزت «بالبطل الإشكالي» الباحث عن القيم في عالم متدرج. وفي بداية المرحلة الرأسمالية الاحتكارية، كان شكل الرواية الطليعية تعبيرا عن تفكك الفردية وتحللها، أما شكل الرواية الجديدة *Nouveau Roman* الذي ظهر مع بداية هيمنة رأسمالية الدولة الاحتكارية، فهو تعبير عن عدم الاهتمام بالشمسية الفردية، وعن تشييل الفرد. وقد تعرض تحول جولدمان النظري والمنهجي هذا، خاصة فكرة التناظر بين الشكل الروائي وبنية المجتمع، للنقد^(١١٨)، ومع ذلك تظل إسهاماته، ومن قبلها إسهامات لوكتاش، خاصة الربط بين رؤية العالم وبين النصوص، علامات هامة في تطور سوسيولوجيا الأدب.

٢- النص (الشكل) كتنفي للهيمنة (أدورنو)

حين أنشئ «معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي» عام ١٩٢٣ في ألمانيا، بقيادة عالم الاجتماع ماكس هوركهايمر *M. Horkheimer* (١٨٩٥-١٩٧٣)، وأثناء هجرة أعضائه القسرية من جراء الحكم النازي، وحتى بعد عودتهم من المهجر، وإعادة نشاط المعهد عام ١٩٥٠ بقيادة هوركهايمر وتيودور أدرنو *Theodor Adorno* (١٩٠٣-١٩٦٩)، كانت إنجازاته موجهة أساسا نحو صياغة «نظرية نقدية للمجتمع». ولم تكن الروافد الفكرية والعلمية لمن ارتبطوا بها عرفت بـ«مدرسة فرانكفورت» (مثل هيربرت ماركوزه وإيريك فروم، وفالتر بنيامين، ويرونو بتلهاييم، وهانز ماير، وإرنست بلوخ وغيرهم) واحدة، بل كانت متعددة. وقد قامت صياغة النظرية على دعمتين، وهما -حسب عبارات دافيد مايز- «هيجلة الماركسية» *Hegelianizing of Marxism* (أي إحلال مصطلحات فلسفية مثل «الاستلاب» محل الاقتصاد)، و«مركسة فرويد

Marxianizing of Freud (أي تطوير مفهوم «القمع» مثلاً، واستخدامه في السياقات السياسية)^(١١٩). ورغم أن الإسهامات الأساسية للمدرسة لم تكن في مجال سوسيولوجيا الأدب، بل كانت في ميادين الفلسفة الاجتماعية وفلسفة الثقافة، إلا أن هذه الإسهامات قد غدت المناقشات الدائرة حول الأدب، خاصة في الدوائر الأكاديمية، بأفكار جدلية هيجلية، وتاريخية، كما أن بعض أعضاء المدرسة قد اهتم بالأدب بصورة واضحة. وسوف نقتصر هنا على واحد منهم هو أدورنو.

من البديهي، في ضوء خلقه الفكرية، أن ينطلق أدورنو من موقف مناقض تماماً للموقف الوصفي الإمبريقي الذي يمثلته مواطنه زلبرمان في تحليله لموضوع الدراسة في علم اجتماع الفن. ففي مقاله المعنون «مطروحات في علم اجتماع الفن» يؤكد أدورنو أن علم اجتماع الفن يضم كل جوانب العلاقة بين الفن والمجتمع، ولا يمكن أن يقتصر على جانب واحد فقط مثل التأثير الاجتماعي للفن. وذلك لأن هذا التأثير نفسه هو مجرد عنصر في كلية هذه العلاقة، ويرتبط بآليات كثيرة تتصل بالتوزيع والضبط الاجتماعي والبناء الاجتماعي. كما يرى أدورنو أن مفهوم «خبرة الفن» عند زلبرمان لا يشير إلى شيء محدد^(١٢٠). ويعترض بقوة على استبعاد تحليل العمل الفني كقيمة جمالية من الدراسة السوسيولوجية، ويقول إنه على الرغم من اعتراف زلبرمان أن إحدى مهام علم اجتماع الفن هي أن يكون نقدياً اجتماعياً، إلا أن هذا الاعتراف يبدو غير صادق، إذ كيف يمكن أن تحقق هذه المهمة طالما أن محتوى الأعمال الأدبية وقيمها الجمالية تستبعد من عملية البحث؟ إن التحرر من القيمة مسألة لا تتفق مع الوظيفة الاجتماعية التقليدية. والسؤال الجوهرى في عملية البحث السوسيولوجي عند أدورنو لا يتعلق بوضع الفن أو بممارسته التأثير في المجتمع بقدر ما يتعلق بكيفية «موضوع» المجتمع في الأعمال الفنية^(١٢١).

هنا نجد أدورنو مناهضاً لنظرية المحاكاة. ويبدو أنه كان قد فهم الواقعة عند لوكاتش على أنها واقعية تقوم على المحاكاة، فأنجبه إلى مهاجتها، كما اعترض على التناظرات التي أقامها جولدمان بين بنى متوازنة (بنى النص وبنى المجتمع). وهو - أي أدورنو - لا يرفض الواقعية بإطلاق، بل هو يقدر الواقعية، ولكن بمعنى معين. فالواقعية لا تبدى في تصوير الواقع فوقوغرافياً، وإنما في تباعد الفن عن الواقع. فمن خلال هذا التباعد، تختفي العناصر التقريرية من الكتابة، سواء أكانت هذه العناصر مباشرة، أو نقدية، أو أخلاقية، وتبرز دلالة خاصة في النص تكشف عن قدرة على نقد الواقع ونفيه. من هنا يقدر أدورنو أهمية العناصر «ضد الواقعية» *Antirealistische Momente*، خاصة في الكتابات الحديثة^(١٢٢)، ويرجعه لها بحوثه. ونحن نعرف عن أدورنو أنه صاحب التفسيرات النقدية للكتابات القصصية والشعرية، وللأعمال الموسيقية الحديثة التي تتسم برقبتها «التواصل» مع الأيديولوجيات القائمة، وتطوّر على طاقة كبرى لمقاومة الهيمنة الفكرية والتجارية^(١٢٣).

لقد كان أدورنو مهتماً ببيئة الإنتاج الفني في فترات تاريخية مختلفة، وبالوظائف المختلفة للفن، وبتحول العمل الفني إلى سلعة، ويتعاطف ما يسميه «الصناعة الثقافية» *Kulturindustrie*.

وهو لا يخفى هذه المسائل كمثيرات سوسيولوجية خارجية، تغير من سياق إنتاج الفن وتوزيعه فحسب، بل هو معني أساساً بالكشف عن الكيفية التي يعاد بها إنتاج هذه للتغيرات «الخارجية» كعناصر متوترة وعدائية داخل البنى الشكلية للأعمال الأدبية. وهنا بالتحديد تكمن أهمية إسهاماته. فالرابط بين العناصر

عالم الفكر

الجمالية للعمل الفني (الذي يؤكد أدورنو دائماً على استقلاله) وبين المجتمع، وعلى النحو الذي يظهر في أعمال أدورنو، هو الشيء المميز لتحليلاته الجمالية السوسيولوجية. ولعل أكثر أعماله أهمية في هذا المجال هو كتابه «النظرية الجمالية» الذي لا يخلو من بعض الغموض والصعوبة الناشئة عن خصوصية مفردات أدورنو وصياغاته اللغوية.

في هذا الكتاب أفكار ثرية من أهمها تأكيد أدورنو على أن ثمة جدلية تنشأ من كون الفن واقعة اجتماعية من ناحية، وكونه مستقلاً من ناحية ثانية، وهذه الجدلية هي التي تحدد «الطابع المزوج للفن» der Dop-plecharacter der Kunst فإذا كان الاستقلال الجمالي هو السمة المميزة للفن البورجوازي، فإن هذا الاستقلال في حد ذاته هو واقعة اجتماعية. والفن «يتنقد المجتمع من خلال وجوده (أي وجود الفن) المحض... وما يبدو لا اجتماعياً في الفن إنما هو نقي معين لمجتمع معين». هذا الطابع المزوج للفن هو ما يبنى أن يكون موضوع التحليل في أي سوسيولوجيا أدبية^(١٢٤). ومنهج أدورنو هو دائماً الكشف عن الطبيعة الانشطارية والناقصة والعدائية للأعمال الأدبية التي قد تبدو متأسكة وكاملة وتامة. والبدأ الرئيسي عنده هو أن العنصر الاجتماعي الحاكم الذي ينشأ عنه العمل الأدبي، يمكن الاستدلال عليه عن طريق «شكله» للتحقق في النص أكثر منه عن طريق عتوى النص أو بنيته التصويرية. من هنا كان أدورنو مهتماً تماماً بالشكل، ريباً أكثر من لوكتاش.

وإذا كان أدورنو يستخدم فكرة «التوسط» Mediation الميجالية، فإن استخدامه لها يختلف عن استخدام كل من لوكتاش وجولدمان. فهذان الأخيران يستخدمانها بمعنى «طبقة اجتماعية» أو «فوقية العالم» أو «تماسك النص»، في حين يستخدمها أدورنو بمعنى الطاقة السالبة أو المقاومة النافية في النص «والفن ليس اجتماعياً فقط بالنظر إلى طريقة نشوئه، إذ يجسد قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، ولا بالنظر إلى الأصول المجتمعية لمحتواه، وإنما هو اجتماعي أساساً بالنظر إلى موقفه المضاد للمجتمع... وهو يتنقد المجتمع حين يتطور ويتجسد هو نفسه كشيء في حد ذاته «مفيداً اجتماعياً»^(١٢٥).

من هنا يتحدث أدورنو عن حساسية الشعر الحديث المفرطة ضد القوة المتعاطمة «للأشياء»، وضد مآشئ هذه العصور الحديثة من هيمنة السلع على الإنسان، وضد «المصالح الكبرى» التي تحرك ما يسميه أدورنو «الاتصال» أو «التواصل»، والتي تؤسس كلها أيديولوجيات (أي وعياً زائفاً وكتلاً)، وهذا الشعر يمتلك طاقة نقدية تتسم بالقدرة على مقاومة تلك القوى والمصالح والأيديولوجيات^(١٢٦). وسوف يبقى الفن طالما ظل مملكتنا القدرة على مقاومة للمجتمع. أما إذا «شيء» نفسه، أي تحول إلى شيء، فسوف يصير ملعقة. فالإسهام الذي يقدمه الفن للمجتمع ليس هو التواصل مع هذا الأخير، بل هو المقاومة التي من خلالها يعيد التطور الاجتماعي إنتاج نفسه جمالياً، ودون عاكلة^(١٢٧).

ورغم الانتقادات التي وجهت لأدورنو والتي يتركز معظمها على غموض معالجته، وعلى رومانسيته، أو على الطابع الذاتي الانطباعي لتفسيراته^(١٢٨)، إلا أن أهمية علم اجتماع الأدب عنده تبدو في معالجته الجمالية لسألة التحول الجمالي كموضوع سوسيولوجي.

٣- إشكالية النص - الأيديولوجيا (الأتوسيرية : ماشيري مثالا)

لم يكن الفيلسوف الفرنسي أتوسير Louis Atocher (١٩١٨ - ١٩٩٠) وهو يؤسس مشروعه الفكري، يقصد إلى صياغة نظرية نقدية أدبية، أو بناء جمالية ماركسية، فإسهامه الرئيسي هو بلورة رؤية ماركسية تناهض حركة الإحياء الهيجلي داخل الماركسية نفسها، اقتناعاً منه - أي أتوسير - بأن فكر ماركس العلمي هو ذلك الذي ظهر بعد أن أنجز ماركس «قطعا علميا نظريا» *Wissenschafts Theoretischer Einschnitt* مع الهيجلية (١٢٩)، وأن ما تحتاج إليه الماركسية اليوم هو إبراز خطابها العلمي وتمييزه عن خطابها الأيديولوجي المبكر، من خلال تحليل بنيتها النظرية (ومن هنا يصنفه البعض ضمن فلاسفة البنيوية، وإن كان هو نفسه يرفض ذلك) أولاً، واستكمال بنائها الفلسفي ثانياً. وقد قام هذا المشروع على أساس «قراءة» ماركس، بمنهج جديد طوره أتوسير مستفيداً من أسلوب التحليل النفسي عند فرويد، وهو الأسلوب الذي عتّم به «لايقال» بقدر - أو ربما أكبر من قدر - اهتمامه به «يقال»، وذلك من أجل الكشف عن عناصر «اللاوعي» المتعددة والمتضادة، والكامنة وراء ما هو بادي من أعراض. ومن هنا أطلق على هذه القراءة «القراءة التشخيصية» *Symptomatische Lektüre* (١٣٠)، بوصفها تسعى إلى تشخيص العناصر اللاشعورية الكامنة وراء ما هو شعوري، والتي هي على درجة كبيرة من الأهمية لفهم الحالة موضوع التحليل / القراءة، والحالة هنا هي فكر ماركس من خلال كتاباته.

وقد أفضت قراءة أتوسير لماركس إلى بناء صيغة فكرية ماركسية وجدت لنفسها مكاناً متميزاً بين الصيغ الماركسية الأخرى، والتف حولها مجموعة من الفلاسفة والباحثين في العلوم الاجتماعية والنقد الأدبي فيما يعرف بـ «الأتوسيرية». وحسب هذه الصيغة تعد الماركسية علماً للتشكيلات الاجتماعية، مهمته تحليل المنطق الداخلي لهذه التشكيلات، وتحليل المستويات المختلفة للبنى المكونة لها. والتشكيلات الاجتماعية (المجتمع) عبارة عن وحدة كلية مركبة من عناصر أو مستويات متعددة (اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، ودينية، وفنية، وأيديولوجية)، وتتميز كل مستوى منها بنوع من الاستقلال الذاتي، كما يرتبط، من ناحية أخرى، بالمستويات الأخرى وبالبنية الكلية. وهذه المستويات أو الممارسات تحكمها أشكال من «التبني» النوعي، لكنها مثبتة في المستوى الاقتصادي بوصفه المحدد الأخير (١٣١). ويرفض أتوسير القول بأن التشكيلات الاجتماعية نتاج للفعل الإنساني، كما يرفض ما يذهب إليه هيجل ولوكاتش وغيرهما من أن «الكلية» تعبر عن مبدأ أو جوهر ضمنى أو داخلي، ويؤكد على أن الكلية بنية «غير مركزية»، تدخل مستوياتها المتعددة في شبكة من التناقضات والصراعات المتبادلة، تصبح فيها الهيمنة، في هذه المرحلة أو تلك، لهذا المستوى أو ذاك، كما قد يكون هذا التناقض أو ذاك هو السائد، فالأمر يتوقف على الظروف الملموسة التي تمر بها العلاقات داخل التشكيل، غير أن الاقتصاد هو الذي يحدد آخرها - وبصورة غير مباشرة - أي المستويات تكون له الهيمنة، وأي التناقضات يسود - وبهذه الصيغة - حق التفسير أمرين :

أ- تلخص من الصلة المباشرة التي تقيمها بعض الصيغ للماركسية بين الأساس والبناء الفوقي، لكنه لا ينفي هذه الصلة بإطلاق، فقصده هو إبراز هرمية البنية وتدرجها، مع تغير العنصر الذي يحتل موقع القمة ويهيمن في مرحلة ما. ولذا فالبنية عنده هي بنية «ذات هيمنة» *Struktur mit Dominante* يمكن أن يلعب فيها أي عنصر من عناصر البناء الفوقي (كالثقافة أو السياسة أو الأيديولوجيا أو الفن أو الأدب) دوراً هاماً في إحداث التغير.

ب- استبعد تماماً مفهوم التناقض الميجيبي الذي يختزل «كل» العناصر التي تشكل الحياة للمفهوم لأي عالم تاريخي في مبدأ واحد وحيد، تعتبره الميجيبي (والتراعات للاركسية الإنسانية) هو العصر المحدد لكل المكونات الأخرى، وللכל الاجتماعي نفسه. وبدلاً من ذلك شدد ألتوسير على تعدد العناصر التي تتقاطع مع بعضها وتتصافر في مركب غير مركزي. ويستخدم ألتوسير لوصف هذا المركب مفهوماً فرويدياً هو: Überdetermination (بالفرنسية Surdetermination) التي يترجمها البعض إلى العربية بـ «التصافر» (١٣٢).

وهذه الصيغة أيضاً، التي قصد بها ألتوسير فض الاشتباك بين العلمي والأيدولوجي في فكر ماركس، فتحت ألتوسير آفاقاً جديدة لدراسة علاقة الفن والأدب بالمجتمع. ويؤثر الدراسات الألتوسيرية للفن هي: صلته بالأيدولوجيا. يقول ألتوسير: «إنني لا أدرج الفن الحقيقي في الأيدولوجيات، بالرغم من أن للفن علاقات في غاية الخصوصية مع الأيدولوجيا... وخصوصية الفن هي منحنى الإحصاء والإدراك» و«الشعور» بشيء ما يقوم بالتلميح عن الواقع... وهذا الشيء هو الأيدولوجيا التي ولد منها، والتي يسمح فيها، والتي يفصل عنها بوصفه فناً» (١٣٣).

وثمة صلة تربط بين أفكار ألتوسير هذه وبين بعض الدراسات التي أجراها باحثون مثل تري إيجلتون (إنجلترا)، وكلاوس — ميشايل بوجلال، وروتا كولكتريك نيس، ويورجن لوك، وأولريك هير (ألمانيا)، وبير ماشيري، ورييه باليار (فرنسا). ولعل كتاب ماشيري P. Macherey المعنون «نظرية في الإنتاج الأدبي» (١٩٦٦) يبرز هذه الصلة أكثر من غيره.

يرى ماشيري أن العمل الأدبي لا يمدد لإبداعاً Creation لكاتب أو لعبقية أو لقدرة خاصة ملهمة، بل هو «إنتاج» Production آثار أيدولوجية (١٣٤). والكاتب إذ ينتج نصاً، فإنه يفيد من التجارب البشرية العادية، التي هي تجارب أيدولوجية، ويتخذ منها مادة لعمله، ويمنحها شكلاً خاصاً أو بنية خاصة. ولما كانت الأيدولوجيات، بطبيعتها، ناقصة دائماً ومتناقضة (عكس العلم)، فإن النص الأدبي الذي «يستخدم» الأيدولوجيا (ويكشفها أيضاً بالضرورة) هو نص ينتج بعض عناصر الواقع فقط، ولا ينتج كل الواقع. فبنية العمل إذن هي بنية «غير مركزية» وناقصة، لأنها قائمة على مواقع صمت ومرورة، وهي لا تضيء الواقع أو توائمه أو تعكسه، كما أنها لا تعبر عن وعي طبقة ما أو رؤية ما للعالم (كما هو الحال عند لوكاش وجولدمان)، بل هي بنية لها زمانها الخاص واستقلالها الذاتي، وفيها اشتغال ومعالجة (من خلال رموز وأدوات وجيل أدبية) لمادة اجتماعية (أيدولوجيا) تتشكل على نحو بيتك زيفها وتنقصها هي ذاتها. ويكشف طبيعة صلاتها مع شروط الوجود الاجتماعي. يقول ماشيري: «ولكي نخرج من دائرة المغالطات التقليدية، يجب أن نقترح فرضاً نظرياً: إن العمل لا يحتوي على معنى ما يخفيه من خلال منحه شكله المتجزئ. فاهمية العمل تتأسس على تعددية معانيه. وتفسير العمل يعني التعرف على مبدأ التعدد هنا وتغيّره. والآن يجب شجب الوحدة المفترضة للعمل، والتي لازمت النقد الأدبي بصورة واضحة إلى حد ما. إن العمل لا يتم لإبداعه عن قصد، بل يتم إنتاجه في ظل ظروف محددة» (١٣٥).

ومن انديجي أن يكون رفض ماسيري لفكرة أن الأعمال الأدبية تمهد كليات متماكة موحدة، وإصراره على مفهوم «النص غير المركزي»، نابعا من الطبيعة غير المركزية للسياق الإنتاجي وممارساته الأيديولوجية، ومن طبيعة العلاقات المعقدة بين النص والأيديولوجيا. فالنص ليس أيديولوجيا، وهو ليس مرآة لقيم أيديولوجية تخص طبقة ما، وإنما هو يؤسس نفسه «ضد أيديولوجيا ما» مثلما يتأسس هو نفسه من أيديولوجيا ما. ومن هنا، فإن المعرفة التي يمكن أن نستمدّها من دراسة النص الأدبي، هي معرفة حول التصورات الأيديولوجية. ولا يعني ذلك أن الأيديولوجيا هي «حقيقة» نص ما، لأن النص يدم بنى الأيديولوجيا ويفككها لكي يعيد تكوينها، ثم تحويلها في شكل جمالي. ومن خلال الأدوات الأدبية يؤسس النص علاقة متحوّنة بين نفسه وبين الأيديولوجيا التي يتطور عنها، ويرتبط بها أصلا. ومن ثم، فالجالية في هذه الحالة يمكن أن تصير - على ما يذهب سوينجورد^(١٣٦) - فرعا من فروع النظرية الأيديولوجية.

والقراءة التي يقتضيها النص هي إذن - حسب رؤية ماسيري - وبالضرورة قراءة «تشخيصية» أو «كشفية» Symptomatic، تحلل الحيل والأدوات التي يتجهها النص لكي «يخفي» تناقضات وصراعات أيديولوجية. فالنص إذ يشغل على الأيديولوجيا، من الضروري أن يكشف عن، ويضفي، ما هو «غائب» في هذه الأيديولوجيا، ويأخذ في «إنتطاق» ما هو صامت فيها. وهنا ليس ثمة وجود لأي «كتمال للمعنى» في النص، بل ثمة «غيابات» Absences متعددة... تنجدل وتتضافر دلالاتها أو مغزاها المختلفة في صراع وتناقض. وهذه العناصر الغائبة هي بالتحديد - وليس «ما يقال» في العمل الأدبي - ما يرتبط بالأيديولوجيا. ومن هنا، فإن النقد الأدبي ينبغي - حسبنا يشدد تري إيملتون - أن يركز على عدم اكتمال النص الأدبي، وينسج حوله نظريته، لكي يفسر الضرورة الأيديولوجية لما هو «غير مقول» الذي يشكل البليدا الخاص بقوة العمل^(١٣٧).

إن ماسيري يرى أن العمل الأدبي لا يعبر عن أيديولوجيا متماكة لطبقة ما، بل هو إنتاج للتناقضات والصراعات الأيديولوجية التي تمثل جزءا من ممارسات الواقع. ومن خلال القراءة التشخيصية يقف الناقد - الباحث على حدود الأيديولوجيا التي نشأ فيها العمل، ولكنه انفصل عنها بوصفه أدبا. وهكذا يصير النقد الأدبي كشفا منهجيا علميا للمواقف الكامنة وراء النص. ويعطي ماسيري أمثلة على ذلك من تاريخ الأدب الروسي في الفترة ما بين ١٨٦٢ وحتى ١٩٠٤، وما قدمه الأدباء الروس من توصيفات يمكن للناقد الأدبي أن يبينها، «فدمستوفسكي يقدم لنا روسيا الإقطاعية، وتشيكوف يصور نشأة البورجوازية، وتولستوي يصف الفلاحين، وجوركي يصف بلديات البروليتاريا الحضرية»^(١٣٨).

وترجع أهمية ممارسة ماسيري البحثية إلى كونها قد أبرزت، وبصورة معينة، طبيعة العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا من ناحية، وخاصية التناقض والالتفاف واللامركزية في العمل الأدبي من ناحية ثانية، غير أن عمارته تبدو فيها الأيديولوجيا وكأنها من عمل اللاوعي فقط، وتبدو فيها ممارسة الكتابة وكأنها عمل «لاشعوري» يقوم به الكاتب دون إرادة ودون أي اختيار. كما أن تقصيلات عملية القراءة «التشخيصية» لا تنضح بدقة فيما قدمه ماسيري من تحليلات، مما يجعلنا نقول إن الجماعة الاتوسيرية - التي طالبت بتقديم المزيد من القراءات/ البحوث النقدية حتى يتضح منهجهم.

خاتمة

لا تزعم هذه الدراسة أنها قد استوعبت كل الاتجاهات الهامة التي تسمى إلى تفسير الظاهرة الأدبية تفسيراً اجتماعياً، ولعل القارىء قد لاحظ أن اهتمامنا الرئيسي قد انصب في معظمه على المرحلة التأسيسية التي شهدت صياغة المسلمات الوجودية والمسلمات للماركسية، وعلى ما تلا ذلك، تاريخياً، من جدال منهجي يبرز معه، بصورة أوضح، أهم الإشكاليات المنهجية في الدراسة الاجتماعية للأدب.

وإذا كنا قد حاولنا بعد ذلك أن نرصد أهم التيارات الحديثة في هذا المجال، فإن رصدنا لم يكن شاملاً. فثمة تيارات أخرى غير التي عرضنا لها هنا لا تقل أهمية من حيث منطلقاتها من رؤية نظرية ومبادئ منهجية. ويحتمل أن أشير هنا بصفة خاصة إلى ثلاثة تيارات. الأول هو التيار «التأويلي» الذي يستند إلى تقاليد فلسفية فينومينولوجية، ويفترض قبول أي نص لتفسيرات متعددة يمكن أن تكون كلها صالحة، وليس شرطاً أن يرتبط أي منها بنسق نظري أو منهجي من جانب القارىء/ المؤلّف. ويرتبط هذا التيار بأسماء مفكرين مثل هانز جورج جادامر. H.G. Gadamer في ألمانيا، وإ. د. د. هيرش E. D. Hirsch في الولايات المتحدة الأمريكية.

والتيار الثاني هو ما أصبح يعرف بـ «جماليات التلقي»، وهو يرتبط، بصورة أو بأخرى، بالتيار الأول، لأنه يطرح إشكاليات تتصل بدور القارىء، ومتضمنات عملية التلقي، في اكتساب النص لمعاني ودلالات معينة. وقد تراكمت في العقدين الماضيين مجموعة من الدراسات في إطار هذا التيار، أنتجت أهمها باحثون مرتبطون بما يعرف بمدرسة «كونستانس» في ألمانيا التي من أبرز أعضائها هانز روبرت ياوس H. R. Jauss، وفولفجانج إيزر W. Iser. كما أن جاك لينهارت J. Lenhart في فرنسا يطور مجموعة من الطروحات الهامة في هذا المجال تنهض على دراسات واقعية «إمبريقية» يقوم بها في موضوع «القراءة».

أما التيار الثالث فيسمى إلى ترسيخ ما يطلق عليه «سوسيلوجيا النص»، وذلك من خلال التعامل مع المستويات السردية والدلالية والتركيبية للنص الأدبي، والكشف عن مخوض مشكلات ومسائل اجتماعية في هذه المستويات. وتعد اجتهادات الباحث التشيكي الأصل بيير زيبا P. Zizek مثالا على هذا المسمى.

وثمة نقطة أخرى ختامية نود أن نشير إليها، وهي أن دراستنا هذه، بما عرضته من تقاليد علمية في مجال الدرس الاجتماعي للأدب، تثير بالضرورة تساؤلات في ذهن القارىء حول موقف البحوث العربية من القضايا النظرية والإشكاليات المنهجية التي تطرحها هذه التقاليد. ولأشك أن النظرة الاجتماعية للأدب قد وجدت اهتماماً بها من جانب بعض الدراسات العربية التي تفاوتت فيما بينها من حيث تأثيرها بهذا التيار أو ذلك، ومن حيث مدى توظيفها في توظيف أطر نظرية أو مناهج وأدوات بحثية في معالجتها. وهذه قضية يحتاج النظر فيها إلى دراسات، لاستقصاء ما تتضمنه من أبعاد تاريخية وفكرية.

الهوامش والمصادر

- (١) لهذا المصطلح جذور في النقد الأدبي الغربي (الإنجليزي خاصة). وحديثاً أخذ بعض النقاد العرب يستعملونه في دراساتهم التطبيقية من الأعمال القصصية والروائية، خاصة الجدلالية، التي أبدعها كتاب الستينات والسبعينيات. ومن بين هؤلاء النقاد نذكر عل وجه الخصوص إدوار الخراط، ومصري حافظ، مع اختلاف بينها فيما يجعله المصطلح من معنى، وفي منهج توظيفه في التحرس التطبيقي. فالخراط لا يحدد كثيراً بالرجع الاجتماعي في تفسير التطورات الفنية في أعمال كتاب الحساسية الجدلالية، حين تفسر معالجات حافظ للرموز السوسولوجية ودورها الفاعل في تحولات الوعي الأدبي وتبدلات قواعد الإحاطة إلى الواقع كما تكشف عنها كتابات الحساسية الجدلالية. انظر: إدوار الخراط، «مشاهد من ساحة القصة القصيرة في الستينيات»، فصل، المجلد ٢، العدد ٢ (يوليو-سبتمبر ١٩٨٢)، ص ١٣٣-١٥٠.
- مصري حافظ، «الحساسية الجدلالية: دراسة في آليات تغير الحساسية الأدبية»، المثار يونيو ١٩٨٥، ص ١٠٢-١٢٣، «معالجات الحساسية والتغير الثقافي»، فصل، المجلد ٦، العدد ٦ (يوليو-سبتمبر ١٩٨٦)، ص ٦٥-٩٤، «الرواية والواقع: متغيرات الواقع العربي واستجابات الرواية الحالية»، العدد ٩، السنة ١ (أكتوبر ١٩٩٢)، ص ٣٣-٤٤.
- (٢) Alan Swingswood, "Theory," in Diana L. Laurensen and Alan Swingswood, *The Sociology of Literature*, London: (٢) Mac Gibbon & Kee, 1971, p.11
- (٣) م. رابت ميز، الخيال العلمي الاجتماعي، ترجمة عبد الباسط عيبلالمطي وعادل غنار الملواري، الإسكندرية: دار للمعرفة الجامعية، ١٩٨٧، ص ١٤
- (٤) Alan Swingswood, op. cit., P. 13.
- (٥) Hans-Georg Gadamer, *Philosophical Hermeneutics*, edited and translated by David Linge, Berkeley: Univ. of California Press, 1976, p. 35.
- (٦) Alice Templeton and Stephen B. Groce, "Sociology and Literature: Theoretical Considerations," *Sociological Inquiry*, (٦) vol. 60, No. 1 «February 1990», pp. 40-44.
- (٧) Hans Norbert Fuenen, *Die Hauptrichtungen der Literatursoziologie und ihre Methoden*, Bonn: Bouvier Verlag Herbart (٧) Grunndmann, 6. Aufl., 1974, S-13-21.
- (٨) جانيث وولف، «النقد السوسولوجي لعلم الجبال»، ترجمة وتقديم فصي أبو العينين، إيداع، السنة ٩، العدد ١ (نولمبر ١٩٩١)، ص ٤١.
- (٩) Jeffrey L. Sammons, "The Threat of Literary Sociology and What to do About It," in: Joseph P. Sreika «ed.», (٩) *Literary Criticism and Sociology*, London: The Pennsylvania State University Press, 1973, pp. 30-31.
- (١٠) Ibid., P. 32.
- (١١) Ibid., pp. 32-35
- (١٢) جان لوي كاكس، النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، ترجمة فهد عكام، ط ١، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٢، ص ٦٣.
- (١٣) جمهورية أفلاطون، دراسة وترجمة لؤي زكريا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ (الكتاب المنشأ)، ص ٥٢٩-٥٣٢.
- (١٤) أرسطوطاليس، في الشعر، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية، شكري محمد عياد، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٢٨.
- (١٥) المصنف نفسه، ص ٦٤
- (١٦) المصنف نفسه، ص ١٤٠
- (١٧) انظر: أمية رشيد، «المحاكاة وتصوير الواقع في الوعي الكلاسيكي القرضي»، مجلة الفكر العربي، السنة ٤، العدد ٢٥ (يناير/فبراير ١٩٨٦)، ص ٤١-٥٥.
- (١٨) محمد حافظ دياب، «سوسولوجيا الأدب: مساهمة نقدية»، المثار، السنة ٥، العدد ٥٧ (سبتمبر ١٩٨٩)، ص ٢٤.
- (١٩) حول كيفية تمثل البيئة الفلسفية والبلاغية العربية لكتاب أرسطو في الشعر انظر البابين التالي والثالث من: أرسطو طاليس، في الشعر، مصدر سبق ذكره.
- (٢٠) حسين الرائد، في متاهات الفلسفات الأدبية، تونس-مراسل للنشر، ١٩٨٥، ص ١٩-٢٤.
- (٢١) إحسان عباس، «تأريخ النقد الأدبي عند العرب»، ط ٥ بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٦، ص ٦٦.
- (٢٢) مقدمة ابن خلدون، القاهرة: دار الشعب، د. ت، ص ٥٤٢.

- (٢٣) المصدر نفسه، ص ٥٤٤.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.
- (٢٥) عن حياة فيكر وعصره انظر: عطيات محمد عبد الباق السعوي، فلسفة التاريخ عند فيكر، رسالة ماجستير من مشرونة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٥، ص ١-١٥.
- (٢٦) المصدر نفسه، صفحات ٢١، ٢٧، ٤٦.
- (٢٧) المصدر نفسه، ص ١٣-١٣٣.
- (٢٨) انظر: A Robert Capoen, *Time & Mind: The Theory of History in Giambattista Vico*, London: University of Notre Dame Press, 1968, pp. 188-201.
- (٢٩) Peter Hamilton, *Knowledge and Social Structure*, London: Routledge & Kegan Paul, 1974, pp. 4-8.
- (٣٠) عطيات محمد عبد الباق السعوي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٧-٢٠٥.
- (٣١) عن حياة هردر وأعماله: انظر الكتيب الذي صدر بمناسبة مرور ١٧٥ عاماً على ولادته، وهو: Johann Gottfried Herder, 1803/1978, Bonn-Bad Godesberg: Inter Nationes, 1978.
- (٣٢) Ibid., p. 26.
- (٣٣) Dietrich Steinbach, "Grundlagen einer theoretisch-kritischen Literatursoziologie – Die Dialektische Theorie und Methode," in: Joachim Burk «Hrsg.» *Literatursoziologie I: Begriff und Methodik*, Stuttgart: Kohlhammer, 1974, S. 39-80.
- (٣٤) Alan Swingewood, op. cit., p. 26.
- (٣٥) Robert Escarpit, *Das Buch und der Leser: Entwurf einer Literatursoziologie*, Köln: Westdeutscher Verlag, 1961, (٣٥) S.11.
- (٣٦) Alan Swingewood, op. cit., pp. 26-28.
- (٣٧) نقلاً عن توماس مونرو، التطور في الفنون، نقلاً إلى العربية محمد علي أبودرة، لويس إسكندر جرجس، وعد الميزن ترليق جلود، حيا: القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص ١٢٩.
- (٣٨) Alan Swingewood, op. cit., pp. 28-30.
- (٣٩) كارلوس ويلز، الفن الأدبي، ترجمة كتي مائل، بيروت: هويلفت، ١٩٨٤، ص ٣٩.
- (٤٠) في المقدمة الشهيرة لكتابه الملمح من تاريخ الأدب الإنجليزي (١٨١٣-١٨١٤) يقول تين: «إن الروائع، سواء أكانت فيزيقية أو أخلاقية، لها أسبابها. فهناك سبب للفنوع والشجاعة والمصدق، مثلاً هناك سبب للهوس والحركة العضلية والبرجة حموة الحيلون. إن النفسية والروائية متجذرات، مثلها مثل الحماض والسكر. وكل ظاهرة مننشأة عن ظاهرة أخرى أكثر سلاسة». انظر: Hippolyte Taine, *History of English Literature*, trans. by H. Van Lann, vol. 1, Philadelphia: Henry Altemus Company, 1908, pp. 10-11.
- (٤١) Hans Peter Thurn, *Soziologie der Kunst*, Stuttgart: Kohlhammer, 1973, SS 11-12.
- (٤٢) توماس مونرو، التطور في الفنون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٧-٢٧٣.
- (٤٣) René Wellek, *A History of Modern Criticism. 1750-1950*, vol. 4 (The Late Nineteenth Century), London: Jonathan Cape, 1966, p. 36, 290 (note 55).
- (٤٤) Ibid. P. 35.
- (٤٥) Hippolyte Taine, op. cit., P. 17.
- (٤٦) Ibid., P. 18.
- (٤٧) Alan Swingewood, op. cit., P. 34.
- (٤٨) توماس مونرو، مصدر سابق، ص ٢٧٥.
- (٤٩) Hippolyte Taine, op. cit., pp. 19-21.
- (٥٠) السلسلة Catch التي تجري خيطاً من كل شيء ويمكن أن يصل بالأدب. René Wellek, Op. cit. P. 27.
- (٥١) Alan Swingewood, op. cit., P. 37.
- (٥٢) وكما عبر عنها تين هنا، كانت فكرة جدلية في ذلك الوقت، وروا كانت موجبة للمعالجات التي قدمها فيها بعد مفكرين، مثل فيلهلم ديشر، ولترتيجا إلى جازيت، وكان ملهمهم، لسلسلة الأجيال الفكرية والفنية والأدبية.
- (٥٣) انظر: Leo Kofler, "Hippolyte Taine «1828-1893»," in: Alphon Silbermann «Hrsg.», *Klassiker der Kunstsoziologie*, München: C.H. Beck, 1979, SS. 17-20.
- (٥٤) Alan Swingewood, op. cit., P. 39.
- (٥٥) ثمة أكثر من محاولة لتجميع أقوال وتلميحات ماركس وتنجاز حول الفن والأدب، ولعل أهم محاولة هي تلك التي قام بها كل من ميخائيل ليفشيتز Michael Lifschitz وف. ب. ب. شيلر F. P. Schiller، حيث حووا كتاباً بعنوان ماركس وتنجاز: عن الفن والأدب،

- سُري برين عام ١٩٩٢. ثم قام بإصداره بتوسيع الكتاب: وصارت له طبعات متعددة قبا بعد وفي عام ١٩٩٧ حو. جران فريفل *Jean Fretelle* كتابها نشر في باريس بعنوان «فن الأدب والفن» وثمة عشرات بالإنجليزية أصدرتها دار النشر العالمية *International Publishers* في نيويورك عام ١٩٩٧ بعنوان «ماركس واتجار: الأدب والفن»، واعتمدت أساسا على كتابي ليفشت و فريفل. وفي عام ١٩٩٧ صدرت في برلين أوسع مجموعة بعنوان «حول الفن والأدب» حررها سافيريد كلير *Manfred Klier*، وبلغ حجمها ١٥٠٠ صفحة. ولا يزال صدر عام ١٩٧٥ جلد شامل حوره وقدم له هانز كوخ *Hans Koch*، وضمت، بجانب كتابات ماركس واتجار، أيضا كتابات لينين، ونشر بعنوان «ماركس، اتجار ولينين: حول الثقافة وعلم الجمال والأدب». هذا فضلا عن كتب أخرى عديدة حرة تقيم بين مختاراتها نصوصا مختارة من أعمال ماركس واتجار حول الفن والأدب. ومن الجدير بالذكر أن هناك ترجمة عربية لبعض الأجزاء من كتاب فريفل قام بها عبد الحميد الحفني ونشرها بعنوان: «كلارك ماركس: الأدب والفن في الاشتراكية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط ٢، ١٩٧٧.
- (٥٥) انظر: Marx, Engels, Lenin, Ueber Kultur, Aesthetik, Literatur, Hing. von Hans Koch, Leipzig: Reclam, 1975. Sa. 591-597.
- Ibid.*, SS. 617-618 (٥٦)
Ibid., SS. 571-584 (٥٧)
Ibid., SS. 432-437 (٥٨)
Hans-Dietrich Sander, "G.W. Plechanow 1856-1918", in: Alphon Silbermann, op. cit., S. 61. (٥٩)
Ibid., S. 48. 52 (٦٠)
- (٦١) في عام ١٩٠٥ نشرت مجموعة من هذه الدراسات في مجلد بعنوان «خلال عشرين عاما»، وثمة ترجمة عربية للأجزاء من هذا المجلد، قام بها جورج طرابيشي، ونشرت بعنوان: «الفن والتصور للمادي للتاريخ، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٧٧.
- (٦٢) جورج بايخاتوف، «الفن والتصور للمادي للتاريخ»، ترجمة جورج طرابيشي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.
- (٦٣) للتصديق، ص ص ٨٤-٨٩.
- (٦٤) ترجمها طرابيشي، بالكتابة العلمية، المصدر نفسه، ص ٩٠.
- (٦٥) انظر: G. Plekhanov, Unaddressed Letters, Art and Social Life, Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1957, pp. 161-167.
- (٦٦) *Marxism and Art: Essays Classic and Contemporary, selected and with historical and critical commentary by Maynard Solomon*, New York: Random House, 1974, pp. 121-122.
- (٦٧) جورج بايخاتوف، «الفن والتصور للمادي للتاريخ»، مصدر سابق، ص ٦٠.
- (٦٨) *Marxism and Art*, op. Cit., p. 122.
- (٦٩) Peter Brang, «Sociological Methods in Twentieth Century Russian Literary Criticism», in: Joseph P. Swick, (ed.), «Literary Criticism and Sociology», p. 214.
- Ibid.*, p. 214. (٧٠)
Ibid., pp. 215-216 (٧١)
Ibid., pp. 216-221 (٧٢)
- (٧٣) انظر: زلمان سلات، «النقد الأدبي المعاصرة، ترجمة وتقديم جابر عصفور، ط ١، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩١. ص ص ٢٢-٣٦، تيري إيجتون، مقدمة في نظرية الأدب، ترجمة أحمد حسان، القاهرة: الهيئة العامة لتصور الثقافة، ١٩٩١، ص ص ١٢-١٩، فريش أحمد، «الاشكال»: ماذا يبقى منها. ٩٢، فصول، جلد ١، المجلد (يناير ١٩٨٨)، ص ص ١٦٠-١٩٦٧.
- Alan Swingewood, *Sociological Aesthetics and Aesthetic Theory*, London: Macmillan Press, 1986, p. 17 (٧٤)
Hans Günther «Brang», *Marxismus und Formalismus*, München: Ulstein Buch, 1976, S. 10 (٧٥)
Peter Brang, op. cit., pp. 225-226. (٧٦)
Alan Swingewood, *Sociological Poetics*, ... pp. 17-19. (٧٧)
- (٧٨) David H. Miles, «Literary Sociology: Some Introductory Notes», *The German Quarterly*, vol. 48, No. 1 (1975), p. 2.
- (٧٩) ثمة قراءة متعمقة لنظرية موسس بجورجيا المختلفة في: حنون مبارك، مدخل للسانيات موسس، «الدراسات»: دار توفيق للنشر، ط ١، ١٩٨٧.
- (٨٠) عرضنا هذا الجول، ونقدم من الجولات الأكاديمية، وأنها حوار أدويو- وإيمان الذي دار في عامي ١٩٦٦، ١٩٦٧ في:
- Fathi Abut-Enein, *Gesellschaftliche Stellung junger Schriftsteller in heutiges Ägypten: eine Literarsoziologische Untersuchung*, Bielefeld: Kleine Verlag, 1984.
- Lewis A. Cover, *Sociology Through Literature: An Introductory Reader*, Englewood Cliffs: Prentice Hall, 1965, P. 2 (٨١)
- (٨٢) لتقديم التي تركز عليها أقسام كتاب كوز الست عشر هي: الثقافة، الفيلسوف الاجتماعي، التثنية الاجتماعية، الأنا والآخر، الكائن والآخر، التدرج الاجتماعي، القوة والسلطة، البيروقراطية، علم الاجتماع السياسي، علم الاجتماع الحضري، الحرة، علم اجتماع الدين، العلاقات العصرية، الحشد، السلوك التعريف، والديمقراطية (الأنومي).

- Jane Dabughian, *Mirror of Man: Readings in Sociology of Literature*, Boston: Little Brown, 1970, PP VII-VIII. (A7)
- Bernard Berelov and Patricia J. Saler, "Majority and Minority Americans: An Analysis of Magazine Fiction," (A8) *Public Opinion Quarterly*, «Vol X» Summer 1946, pp. 168-190.
- Miron C. Albrecht, "Does Literature Reflect Common Values?" *American Sociological Review*, vol. 21, No. 6 (A9) «December 1956», pp. 722-729.
- Paul Holander, "Models of Behaviour in Stalinist Literature: A Case study of Totalitarian Values and Controls," (A1) *American Sociological Review*, vol. 31 «June 1960», pp. 352-364.
- Leo Lowenthal, *Literature and the Image of Man*, Boston: Bacon Press, 1957, P.X. (A2)
- (A3) ثمة ترجمة عربية لبعض أجزاء هذا الكتاب بعنوان «موسولوجيا الأدب» قامت بها آمال أنطوني، ونشرتها دار عويكات، بيروت، ١٩٨٣. وإحالاتنا في هذه الدراسة هي للترجمة الأصلية للكتاب، والتي نشرتها دار النشر الأتينية الغربية، كولونيا، ١٩٦١. بعنوان «الكتاب والفكر»: خطط لعلم اجتماع أدبي.
- Robert Escarpit, *Das Buch und der Leser*, Ss. 9-10. (A4)
- (A5) *Ibid.*, SS. 36-41. (A6)
- (A7) *Ibid.*, SS. 52-57 (A8)
- (A9) *Ibid.*, SS. 59-68 (A10)
- (A11) *Ibid.*, SS. 69-92 (A12)
- Robert Escarpit «et al.» *Elemente einer Literatur Soziologie*, Stuttgart: Enke Verlag, 1977, S. 8f. (A13)
- Robert Escarpit, "The Sociology of Literature," in : J.D. Sills «ed.» *International Encyclopedia of the Social Sciences*, vol. 9, 1968, p. 414. (A14)
- Robert Escarpit, *Das Buch ...*, SS. 104-120 : فكري (A15)
- Hans Norbert Frenge, *Die Hauptrichtungen der Literatursoziologie ...*, op. cit., S.4. (A16)
- (A17) *Ibid.*, S. 14. (A18)
- Hans Norbert Frenge «et al.» *Wege der Literatur Soziologie*, Neuwied: Luchterhand, 1971, S. 20-32. (A19)
- Hans Norbert Frenge, *Die Hauptrichtungen...*, SS. 105-109. (A20)
- Alphons Silbermann, "Hilfen zur Philosophie, Soziologische Literaturkritik oder Literatursoziologie," *Koelner Zeitschrift fuer Soziologie und Sozialpsychologie*, 18. Jg., SS. 139-148. (A21)
- A. Silbermann, *Empirische Kunstsoziologie : Eine Einführung mit kommentierter Biographie*, Stuttgart: Enke (A22) Verlag, 1973, Ss. 20-21.
- A. Silbermann, "Kunst," in: R. Koneig «hrsg.» *Soziologie, Fischer Lexikon*, Frankfurt/M: Fischer Taschenver., Ss. (A23) 166-170.
- A. Silbermann, *Empirische Kunstsoziologie ...*, S. 23. (A24)
- Georg Lukacs, *Schrifttumskritik und Politik*, ausgewählt u. eingeleitet von Peter Lutz, Neuwied: Luchterhand, 1967, SS. 323-325. (A25)
- G. Lukacs, *Schriften zur Literatursoziologie*, ausgewählt u. eingeleitet von Peter Lutz, Neuwied: Luchterhand, (A26) 1977, S. 71.
- (A27) *Ibid.*, SS-71-72. (A28)
- G. Lukacs, *Die Theorie des Romans*, Darmstadt: Luchterhand, 1982, كاتر: (A29)
- (A30) جورج لوكاتش، معنى الواقعية المعاصرة، ترجمة أمين السويدي، القاهرة: دار للمطالعة، ١٩٧١، ص ١٨.
- (A31) انظر: جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، ترجمة ناهي، بوز، ط ٢، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٢، الفصل الأول والثاني.
- (A32) جورج لوكاتش، براك والواقعية الفرنسية، ترجمة محمد علي يوسف، ط ١، تونس، المؤسسة العربية للنشر، ١٩٨٥، ص ٩.
- (A33) لوسيان جولدمان، «البنية التكوينية وتاريخ الأدب»، ترجمة علي الشرق، الأدب الأجنبية، السنة ١٤، المجلد ١-٥٠ (A34) (شماره ١٩٨٧)، ص ٣٠٤-٣٠٥.
- Lucien Goldmann, "Der gesellschaftliche Strukturismus in der Literatursoziologie," *Alternative*, Bd. 13, Nr. 71, S. 50. (A35)
- (A36) لوسيان جولدمان، «علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات للتجديد»، مقال مترجم، فصل، المجلد ١، العدد ١ (يناير ١٩٨٨)، ص ١٠٢.
- L. Goldmann, "Ideology and Writing," *The Times Literary Supplement*, Nr. 3422 (September 28, 1967), London, (A37) 1964.
- L. Goldmann, *Der verborgene Gott: Studie über die tragische Weltanschauung in den Pannosca Faustus und in Theater Racines*, Neuwied: Luchterhand, 1973. (A38)

- L. Goldman, *Towards a Sociology of the Novel*, London, Tavistock Publications, 1975. (١١٧)
 (١١٨) كمال علي هذا النقد اقتل:
- Miriam Glucksmann, "Einwände gegen Goldmanns Position," *Alternative*, Bd. 13, Nr. 71, SS. 74-87.
- David H. Miles, "Literary Sociology ..." op. cit., p. 6 (١١٩)
 وثمة دراسات متاحة الآن، بلغات مختلفة، حول مدرسة فرانكفورت. ومن بين الدراسات العربية التالية تشير إلى:
 - علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابermas، بيروت، مركز الأبحاث القومي، ط ١ (د. ت).
 - عبد الغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: تمهيد ونقيب نقدي، حولية كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ١٣، الرسالة ٨٨٤ (١٩٩٣).
 - رمضان بسطوي، محمد، علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت أدورنو وبرنشتاين، القاهرة (د. د)، ١٩٩٣.
- Theodor Adorno, "Thesen zur Kunstsoziologie," in Adorno, *Okne Leitbild: Prima Aesthetica*, Frankfurt/M. (١٢٠)
 Suhrkamp, 1967, Ss. 94-96.
- Ibid., SS 100-101. (١٢١)
 Th. Adorno, "Standort des Erzählers im zeitgenössischen Roman," in Adorno, *Notizen zur Literatur*, Frankfurt: (١٢٢)
 Suhrkamp, 1981, SS. 41-46.
- (١٢٣) بير زيبا، النقد الاجتماعي: نحو علم اجتماع للنص الأدبي، ترجمة عائدة لطفي، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١٩٩١. ص ص ١١٠-١١١.
- Th. Adorno, *Aesthetische Theorie*, Frankfurt/M: Suhrkamp, 1973, S. 335. (١٢٤)
 Ibid. S. 335 (١٢٥)
 Th. Adorno, *Notes* ..., Ss. 51-53 (١٢٦)
 Th. Adorno, *Aesthetische Theorie*, SS. 335-336. (١٢٧)
 (١٢٨) كمال علي هذا النقد: D. H. Miles, op. cit., pp. 6-7. بير زيبا، مصدر سابق، ص ١١٠-١١٢.
- (١٢٩) يانكر ألتوسير أنه استعار هذا المفهوم من الفيلسوف الفرنسي جاستون بشارل G. Bachelard للإشارة إلى التحول الذي بدأ معه تأسيس نظام معرفي علمي (ماركسي) يقدم على المادة التاريخية والمادية الجدلية. ويحدد ألتوسير النقطة الأولى في هذا التحول بمصدر كتاب «الديالوجية الألفانية» لماركس وانجلز، ومقالة ماركس «الفرق بين الفكر والواقع» في الفترة ما بين عامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦. انظر.
- Louis Althusser, *Pour Marx*, Frankfurt/M: Suhrkamp, 1974, SS. 31-33
- وثمة ترجمة عربية لأحد فصول هذا الكتاب عن الأصل الفرنسي الصادر عام ١٩٦٥: لري ألتوسير، «البنية ذات اليمين: التناقض والتضاد»، ترجمة وتقديم، فريال جيروني غزول، مجلد ٥، عدد ٥ (أبريل/ مايو) يونيو ١٩٨٥، ص ص ٤٠-٥٦.
- Klaus-Michael Bogdal, "Symptomatische: Lektüre und historische Funktionsanalyse «Louis Althusser»," in (١٣٠)
 K.M. Bogdal (hrsg.), *Neue Literaturtheorien: Eine Einführung*, Opladen: Westdeutscher Verlag, 1990, Ss. 82-106.
- (١٣١) لويس ألتوسير، قراءة رأس المال، ص ١، ترجمة تيسير شيخ الأهرس، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٥، ص ٥١.
- (١٣٢) لري ألتوسير، «البنية ذات اليمين: التناقض والتضاد»، مصدر مذكور.
- (١٣٣) داسير ألتوسير، «رسالة في معرفة الفن»، ترجمة وتقديم فريال جيروني غزول، مجلد ألف، العدد ١٠، ١٩٩٠، ص ١٥٩.
- Pierre Machery, *A Theory of Literary Production*, London: Routledge & Kegan Paul, 1978, pp. 66-69. (١٣٤)
 Ibid., P. 78 (١٣٥)
 Alan Swingewood, *Sociological Poetics and Aesthetic Theory*, P. 96 (١٣٦)
 Terry Eagleton, *Criticism & Ideology: A study in Marxist Literary Theory*, London, Verso, third impression, 1982. (١٣٧)
 P. 89.
- Pierre Machery, op. cit., p. 111 (١٣٨)

الدراسات النفسية والأدب

د. شاكر عبد الحميد

مقدمة

يشتمل الأدب على موضوعات وأفكار علمية يمكن أن تستفيد منها الدراسات النفسية. كما يشتمل علم النفس على دراسات ونظريات علمية يمكن أن يستفيد منها الأدب، إنشائها ونقداً. لكن ما حدث في واقع الأمر أن هذا التفاعل الحبيب المثمر للأمر قد تأخر كثيراً. فقد وجه علم النفس بشكل عام عبر تاريخه، في شكله القديم والمعاصر، اهتماماً قليلاً للموضوعات الجمالية عموماً، وللأدب خصوصاً. وقد حدث هذا التأخر في الاهتمام العلمي بالأدب من جانب علم النفس نتيجة عدة عوامل نذكر منها:

١- ذلك الاعتقاد الذي ساد المراحل المبكرة من نمو علم النفس بأن الموضوعات الجمالية هي من الموضوعات غير القابلة للتناول التجريبي المحكم، فهي تروغ من التحليل، ومهرب من التكميم.

٢- أن هذا النظام العلمي الجليد - أي علم النفس - كان يجاهد من أجل وضع أسسه المنهجية القوية كعلم موضوعي ينتمي إلى العلوم الطبيعية «الصارمة» ومن ثم شعر العديد من العلماء المبكرين بضرورة عزل هذا النظام الجليد عن مجال الإنسانيات والجماليات بما فيها من نمومة وتعبيرات فضفاضة وذاتية مفرطة. وقد نتج مثل هذا التصنيف المتعسف عن ذلك التضاد الذي أطلق عليه سنو Snow تعبير «أزمة الثقافتين» أو «التضاد بين الثقافتين» أي ذلك التضاد بين ثقافة العلم الصارمة، وثقافة الفن والأدب الفضفاضة والزنيقة والراوغة، بين ثقافة العقل وثقافة الحس العاطفي والانفعال، بين الموضوعية والذاتية، وهو تصنيف زائف، كما هو واضح، ولا يتفق مع ما أشارت إليه دراسات علمية من وجود جوانب فنية كثيرة في العلم ومن وجود جوانب علمية كثيرة في الأدب والفن^(١).

عالم الفكر

٣- يوجد عامل ثالث يتعلق بطبيعة المادة الأدبية وخصوصيتها، وهي طبيعة وخصوصية مثلت صعوبة في التناول الموضوعي للأدب من الوجهة النفسية، بينما عولجت مجالات أخرى كالرسم والتصوير والنحت والموسيقى بشكل أكثر بساطة وتكراراً.

٤- هناك عامل رابع يتمثل في حالة من اللامبالاة من قبل علماء النفس تجاه الجاليات عموماً والأدب خصوصاً نتجت عن ذلك الاتجاه السلبي الذي تراكم عبر تاريخ هذا العلم والذي يربط بين الأدب وبين التحليل النفسي، وقد كان التحليل النفسي - ومازال - ضعيفاً من الناحية المنهجية، ومن ثم تصور بعض الباحثين أن هذا الضعف لا يرتبط بالتحليل النفسي فقط، بل وبالموضوعات التي يدرسها أيضاً، ومن بينها الأدب والجاليات.

٥- هناك عامل آخر أدى إلى تأخر الدراسة النفسية العلمية للأدب أو تعثرها في حالات كثيرة، ويتعلق هذا العامل برفض نقاد الأدب، بل والأدباء أنفسهم، المعاونة في البحوث النفسية العلمية للأدب، وتحمل هذا الرفض مثلاً في قول اثنين من أشهر النقاد المعاصرين هما «ويليك» و«وارين»: إن الفن العظيم يتجاوز معايير علم النفس، وإن الاستبصارات النفسية بالأدب يمكن الوصول إليها بطرائق أخرى غير المعرفة النظرية بعلم النفس، وإن أهمية علم النفس هي أهمية تمهيدية أو أولية فقط بالنسبة للإبداع، وأنه خلال العمل نفسه تكون الحقيقة النفسية ذات قيمة فنية فقط، إلى آخر هذه الأقوال المحبطة التي نجد مثلاً أيضاً لدى الروائي الأمريكي الشهير وليم فوكنر والذي تحمل لديه ذلك الخلط الواضح الشائع بين التحليل النفسي (كما قدمه فرويد وأتباعه) وبين علم النفس (كعلم منهجي موضوعي منظم)، فقال «في أي شيء تم العقد النفسية الموجودة لدي؟ إن عملي فقط هو الذي ينبغي أن يوضع في الاعتبار. - إنني - كشخص - غير هام» (٢).

عل كل حال، فإن الدراسة الحالية تحاول توضيح بعض أبعاد هذه الصورة الزائفة، رغم تأخر ظهورها بالأفكار والمناهج والاتجاهات.

خلفية تاريخية

من الممكن أن يدخل علم النفس إلى مجال الأدب من خلال طرق ثلاثة:

يتعلق الأول منها بخص الأديب المبدع خلال نشاطاته الإبداعية المختلفة وما تشتمل عليه هذه النشاطات من عمليات معرفية ووجدانية ودافعية وغير ذلك من العمليات.

ويؤدي بنا الطريق الثاني إلى دراسة الناتج الإبداعي، سواء كان قصة أو قصيدة أو مسرحية أو رواية أو غير ذلك من النواتج الأدبية الإبداعية، ثم إننا نستطيع من خلال فحصنا لهذه النواتج سواء كانت في صورتها الأولية، على هيئة مخطوطات أو مسودات، أو في صورتها النهائية، أن نتوصل إلى بعض النتائج حول العملية الإبداعية من حيث مراحلها والعوامل المساهمة فيها.

أما الطريق الثالث فيوصلنا مباشرة إلى المتلقي، أو قارئ الأدب، ذلك الذي يستجيب للأعمال الأدبية والإبداعية بطرائق واستجابات مختلفة.

وبالطبع يمكننا أن نكتشف وجود مسارات فرعية صغيرة تربط بين الطرق الثلاثة الكبيرة السابقة، وهي مسارات قد نهم خلالها مثلاً بدراسة موضوعات مثل: علاقة شخصية الكاتب بإبداعه، أو علاقة سياث شخصية قارئ الأدب بتفضيلاته الأدبية، أو تعبير مسودات الكاتب عن حالات اضطراباته النفسية أو غير ذلك من الموضوعات.

لقد استأنثر هذا البعد النفسي الخاص من الأدب باهتمامات الفلاسفة والمفكرين عبر التاريخ، ولسنا في موضع يسمح لنا باستعراض كل هذه الاهتمامات، كل ما نستطيع أن نقدمه هنا هو مجرد إشارات عابرة لهذه الاهتمامات، ثم نكسر كل جهلنا بعد ذلك لموضوع مقالنا الرئيسي وهو «الدراسات النفسية والأدب» مع التركيز بدرجة ما على الجهود الحديثة في هذا المجال.

لقد كان أرسطو كما يقول «فيدف دايشتز D.Diasches» أقل اهتماماً بكيفية كتابة البشر لأعمال التراجيديات وأكثر اهتماماً ببنيّة وتكوين وخصائص هذه التراجيديات، أما أفلاطون فقد كان أكثر اهتماماً بالتفسير النفسي للإبداع الأدبي خاصة في محاورته «أيون»^(٣).

كذلك فلنأخذ نجد أن تلميذنا من أبرز تلامذة أرسطو هو «ثيوفراستوس» قد قدم في عمله المسمى «شخصيات» Characters مجموعة من التخطيطات الأدبية (أو الاسكتشات) لبعض الشخصيات المتهايزة، فقدم صوراً عامة لشخصية البخيل الجشع، وشخصية المنافق، وشخصية التزاور، وشخصية المنحط أخلاقياً، وكل واحدة من هذه الشخصيات كانت تتميز بوجود سمة مهيمنة غالباً عليها تكشف عن نفسها في اتجاهات الشخصية وسلوكياتها المختلفة^(٤).

ازداد اهتمام النقاد والشعراء الرومانتيكيين بعد ذلك بهذا الجانب النفسي في كتاباتهم حتى أننا نجد شاعراً مثل «وردزورث» يؤكد في مقدمة ديوانه «مواويل غنائية Lyrical Ballades» وجود فروق في النوع، وليس في الدرجة، بين الشاعر وغيره من البشر، فالشاعر في رأيه يكون «أكثر حساسية، وأكثر حماساً، وأكثر رقة، ولديه معرفة أعظم من غيره بالطبيعة البشرية، كما أن روحه تكون أكثر اتساعاً وشمولاً وقدرة على التفكير وعلى الشعور بما يحتمل في باطن الروح الإنسانية من انفعالات»^(٥).

في بداية القرن العشرين بدأ ظهور إسهامات التحليل النفسي في ميدان الأدب، فظهرت كتابات فرويد ويونج ووساخس وجوزر وغيرهم الخاصة في هذا الشأن. وقد تباينت استجابات نقاد الأدب والفن وعلماء النفس إزاء ما قدمه التحليل النفسي، بين المؤيد تماماً لهذا الاتجاه أو المعارض تماماً له وبين هؤلاء وهؤلاء وقف البعض الثالث في مرحلة المتزلزلة بين متزئتين! بين التأيد والمعارضة، كما سنعرض لذلك فيما بعد.

خلال العديدين أو العقود الثلاثة الأخيرة بدأ الإسهام التحليلي النفسي في ميدان الأدب يشح بدرجة واضحة وبدأ الإسهام الخاص بها يسمى بالثنحي الموضوعي (أو الاميريقي) في دراسة الأدب بتزئيد ويقدم إسهاماً متميزاً نال الآخر، ومثل كتابات ودراسات مارتن لندلور M. Lindamer عالم النفس الأمريكي، أبرز الإسهامات في هذا الميدان.

توجد، على المستوى العربي، منذ زمن طويل، اهتمامات واضحة من قبل النقاد والأدباء بالبعد النفسي للأدب. وقد تجلّت هذه الاهتمامات في كتابات «عبد القاهر الجرجاني» (خاصة في أسرار البلاغة وطلاقة

الإعجاز) ولدى «لبن تينة» (في الشعر والشعراء). ولدى «الفارابي» و«ابن مسكويه» «وأخوان الصفا» و«حازم القرطاجني» وغيرهم، إشارات وتصورات عديدة حول الإدراك والصور الذهنية والذاكرة والحيال والإبداع^(٦).

وقد اعتبر «محمد خلف الله أحد» عام ١٩١٤ تاريخاً لميلاد فكرة الاهتمام العلمي بالبعد النفسي في الأدب، ففي ذلك العام حصل طه حسين على الدكتوراه في الأدب عن أبي العلاء المعري ووردت في هذه الدراسة وغيرها من دراسات طه حسين إشارات واضحة عن اهتمامه الملحوظ بالبعد النفسي في الأدب وتجلي ذلك في كتبه «حافظ وشوقي» و«مع المتنبي» ودراساته عن «بشار» و«أبي تمام» و«ابن الرومي» في «حديث الأربعماء» وغيرها^(٧).

ثم بدأ هذا الموضوع يأخذ مكانه في جدول الدراسات العليا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة في أواخر الثلاثينات من هذا القرن، وقام بالجهود الكبيرة في هذا الشأن «أمين الخولي» و«خلف الله أحد» وقد كتب «أمين الخولي» عام ١٩٤٥ في العدد الأول من مجلة علم النفس مقالاً بعنوان «علم النفس الأدبي» أشار فيه إلى العلاقات المشتركة والمهمة بين علم النفس والأدب^(٨).

إضافة إلى ما سبق هناك أيضاً الإسهامات المهمة في هذا السياق والتي قدمها «حامد عبد القادر»^(٩) والشجي^(١٠) و«العقادة» خاصة في دراستيه الشهيرتين عن «ابن الرومي» و«أبي نواس»، التي وضع فيها تأثره الكبير بالكتابات التحليلية النفسية^(١١).

من الأئمة الشهيرة أيضاً في هذا السياق ذلك الإسهام الذي قدمه «عز الدين إسماعيل» في كتابه «التفسير النفسي للأدب» والذي أكد فيه أن «العلاقة بين الأدب وعلم النفس لا تحتاج إلى إثبات، وكل ما تدعو الحاجة إليه هو بيان هذه العلاقة وشرح عناصرها، وأن النفس تصنع الأدب، كذلك يصنع الأدب النفس»^(١٢) وقد قام «عز الدين إسماعيل» في كتابه هذا بالاستفادة من كتابات «فرويد» خاصة الكتب والاشعور والتناقض وعقدة أوديب وغيرها في تفسير بعض الأحوال الأدبية وأشهرها رواية «السراب» لنجيب محفوظ و«هاملت» لشكسبير و«أهم بلا نهاية» ليوجين أونيل وغير ذلك من الأحوال.

هناك أيضاً تلك الجهود الخاصة في هذا الشأن والتي قدمتها «نبيلة إبراهيم» في تفسير الأدب الشعبي استغدت من مفاهيم «يونج» عن اللاشعور الجمعي والنماذج الأولية^(١٣) ودراسة «عبد المجيد حسن» عن الأدب العربي القديم التي عرضها في كتابه «الأصول الفنية للأدب»، وكتاب «مصطفى ناصف» «رمز الطفل»: «دراسة في أدب المازني» وكتاب «محمد زكي العشماوي» «قضايا النقد الأدبي والبلاغة» وكتاب «بدي طيانه» «التيارات المعاصرة في النقد الأدبي» وكتاب «إبراهيم سلامة» «تيارات أدبية بين الشرق والغرب» وكتاب «أصول النقد الأدبي» لأحمد الشايب ودراسة «محمد خلف الله أحد» حول «الموهبة الشعرية ووظيفة الشعر عند شوقي»^(١٤).

تتعلق الدراسات السابقة بما قدمه الأدباء ونقاد الأدب من إسهامات في مجال اكتشاف الأبعاد النفسية للأدب أي بذلك الاتجاه الذي كان يسير من الأدب ويتجه نحو علم النفس، فقد كان أصحابه من المشتغلين بالأدب لكتهم حاولوا أن يتوصلوا إلى فهم أكبر للظاهرة الأدبية كما تتجلى في بعدها النفسي وفي مقابل هذا الفريق هناك فريق آخر أصعبه من المشتغلين بعلم النفس لكتهم انجهم من مجال دراستهم إلى مجال الأدب أملاً أيضاً في الوصول إلى فهم أكبر للظواهر النفسية كما تتجلى في الأدب ولدى الأدباء. وقد بدأ هذا الاتجاه

علم الفكر

في أواخر الأربعينات من هذا القرن على يد «مصطفى سويف» خاصة في دراسته الشهيرة «الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة»^(١٥) وأيضاً على يد بعض تلاميذه خاصة «مصري حنونة» في دراسته عن الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية^(١٦) وفي المسرحية^(١٧) وكتب هذا المقال في دراسته عن الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة خاصة^(١٨)، كما أننا نجد اهتمامات أخرى بالأدب على يد «فرج أحمد فرج» وهي اهتمامات تمت من خلال القيام بالفحص التحليلي النفسي لبعض الأعمال الأدبية لمؤلفين عرب أمثال «نجيب محفوظ» و«غادة السمان»^(١٩).

سوف نركز في الدراسة الحالية على عرض الاتجاهين الرئيسيين اللذين سادا مجال الدراسات النفسية والأدب: وهما التحليل النفسي والمنحى الموضوعي، ونناقش بعض المطلقات والافتكارات الخاصة بكل منهما.

المنحى التحليلي النفسي

كان لظهور التحليل النفسي على يد «فرويد» في بداية هذا القرن آثاره الكبيرة على الفن والأدب لدرجة أن ناقداً شهيراً مثل «هربرت ريد» يقول: «إنني أشك أن السريالية كان يمكن أن توجد في صورتها الراهنة لولا «سيجموند فرويد» فهو المؤسس الحقيقي للمدرسة، فكما يجد فرويد مفتاحاً لتشابكات الحياة وتعلقاتها في مادة الأحلام، فكذلك يجد الفنان السريالي غير الهام له في نفس المجال، إنه لا يقدم مجرد ترجمة مصورة لأحلامه، بل إن هدفه هو استخدام أية وسيلة تمكنه من التفاضل إلى عتريات اللاشعور الكبيرة، ثم يخرج هذه العناصر حسبها يترامى له بالصور الأقرب إلى الوعي، وأيضاً بالعناصر الشكلية الخاصة بأنماط الفن المعروفة»^(٢٠). كذلك كان لظهور أفكار «يونج» عن اللاشعور الجمعي والنماذج الأولية ودراساته الخاصة عن الأساطير آثارها في كتابات فلاسفة أمثال «سوزان لانسج»، وعليه أنثروبولوجيا أمثال «ليني ستروس» و«نقاد أدب أمثال» هربرت ريد» و«تورثروب فراي».

وقد اشتمل تطور تاريخ التحليل النفسي من حيث اهتمامه بالأدب على ثلاث مراحل متميزة، ولكنها متداخلة في نفس الوقت، وذلك لأن المفاهيم القديمة كان يعاد النظر إليها في ضوء تصورات جديدة، كما أن الهيمنة الطاغية للرواد أمثال «فرويد» و«يونج» يبدو أنها تراجعت لصالح بعض الباحثين المتأخرين أمثال «ميلان كلاين» و«كريس» و«أرونزفاج» و«لاكأن» وغيرهم. كذلك فإن هناك بعض الجهود التي حاولت أن تتلافى العيوب المنهجية التي عانت منها الدراسات المبكرة في هذا السياق، ومن ثم ظهرت حركة حاولت أن تعتمد على أساليب البحث الحديثة في دراسة تلك المفاهيم القديمة ومن ثم يمكننا أن نقول إن المراحل التي مر بها التحليل النفسي من حيث اهتمامه بالأدب هي:

١- المرحلة المبكرة: وهنا يمكننا أن نتحدث عن بعض أفكار ودراسات «فرويد» و«يونج» و«ساخس» و«جوزو» و«فينكل» و«فروم» بوجه خاص، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة بالمرحلة الكلاسيكية.

٢- المرحلة الوسيطة: هنا حدثت محاولة للمزاوجة بين أفكار التحليل النفسي التقليدية وبين بعض مناهج البحث الحديثة، ويطلق على المنحى الخاص بهذه المرحلة اسم «المنحى الإكلينيكي الموضوعي» وأشهر أصحابها «سميرز» و«ماكوردي» و«مارتنديل».

٣- المرحلة المتأخرة: وهنا حدث ما يشبه النكوص (بلغة التحليل النفسي) إلى المرحلة الأولى السابقة حيث تم التخلي عن استخدام الأساليب المتهيجة الحديثة وتم التركيز على التحليل شبه النقدي للأعمال الأدبية بوجه خاص، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة «مرحلة المحللين النفسيين النقاد»، وأشهر أصحاب هذه المرحلة «موريس تشارني» و«جوزيف ويستلند» و«جان هنلي».

والآن إلى التفاصيل:

أولاً: المرحلة الكلاميكية

وأشهر مثليها «فرويد» و«يونج» رغم أن لهما بها بالأدب كان بطريقة غير مباشرة، ومن أجل أهداف أخرى لا تتصل في جوهرها بالظاهرة الأدبية، أي أهداف فرضية علاجية أو «باتولوجية» في المقام الأول.

فقد رأى «فرويد» في الفن وسيلة لتحقيق الرغبات في الخيال، تلك الرغبات التي أحبطها الواقع إما بالموافق الخارجية أو المثبطات الأخلاقية، فالفن إذن نوع من الحفاظ على الحياة، والفنان هو إنسان يتنهد عن الواقع لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن إشباع غرائزه التي تتطلب الإشباع، وهو يسمح لرغباته الشبقية العطوثة أن تلعب دوراً أكبر في عمليات التخلي، وهو يجد طريقة ثانية إلى الواقع، عاكساً من هذا العالم التخلي، بأن يستفيد من بعض الموهب الخاصة في تعديل تخيلاته إلى حقائق من نوع جديد يتم تقويمها بواسطة التكرين على أنها انكاسات ثرية للواقع، وهكذا فإن الفنان، بطريقة ما، يصبح هو البطل، والملك، والمبدع، والمحجوب، الذي يرغب أن يكونه دون أن يتبع ذلك المسار الطويل الشاق الخاص بإحداث تغييرات في العالم الخارجي^(٢١).

والفنان اللبدع في رأي «فرويد»، هو إنسان عبط في الواقع لأنه يريد الثروة والقوة والشرف وحب النساء، لكنه تقصه الوسائل لتحقيق هذه الإشباعات ومن ثم فهو يلجأ إلى التسامي بهذه الرغبات وتحقيقتها خيالاً^(٢٢).

تعتمد مقاربة «فرويد» التحليلية النفسية للأدب على عديد من المفاهيم الخاصة بالأكليات أو الميكانزمات الدفاعية والتي من بينها الكبت والتسامي والنكوص والتناقض الوجداني وغير ذلك من المفاهيم وتكشف هذه المفاهيم بشكل مباشر عن اهتمام «فرويد» بالبحث عن عمليات الإبدال والتعويض الخاصة بالمشكلات شديدة العمق والمتعلقة بنمو الشخصية، وقد ساءى كثيراً بين فهمه للمرض النفسي وفهمه للإبداع الأدبي^(٢٣).

قضية «فرويد» الأساسية - كما أشرنا - مفادها أن نتاج الإبداع الأدبي مماثل لأي منتج آخر من منتجات الخيال، وخاصة الأحلام، فالنواتج الإبداعية هي تجليات وإشباعيات رمزية للرغبات والتخيلات أو أحلام اليقظة اللاشعورية. ويقال كذلك في هذا السياق أن قرأه الأدب والمثقفين له بشكل عام يستجيبون لا شعورياً للضمير الخفي المتكرر في شكل منتجات إبداعية، إنهم يستجيبون للإشباعيات وعناصر السرور التي يستثيرها الأدب، والتي يجدد أيضاً أن تكون هي وسائل المؤلف في شق طريقه للعودة من عالم الخيال إلى عالم الواقع. وقد ناقش «فرويد» من خلال هذه المصطلحات الدينامية حياة وأعمال العديد من المؤلفين والفنانين

أمثال : «شكسبير» و«دستوفسكي» و«إيسن» و«ليوناردو دافنشي» و«ميكيل انجلو» و«هاني» و«جوت» و«هوميروس» و«بلزك»، كما أنه استخدم أيضا للمسرحيات والأساطير والحكايات الخرافية والملاحم الإغريقية كأمثلة موضحة لأفكاره^(٢٤).

ولأنه يصعب الإحاطة بكل دراسات وإشارات «فرويد» في هذا المقام نكتفي فقط بالإشارة إلى دراسته الخاصة عن «دستوفسكي» باعتبارها تمثل على نحو واضح اتجاهه الخاص في هذا الشأن.

أشار «فرويد» في دراسته عن «دستوفسكي» إلى أنه يصعب أن نرجع إلى محض الصدفة أن ثلاثة من الأعمال الإبداعية العظيمة عبر التاريخ كانت تتعامل مع نفس الموضوع وهو جريمة قتل الأب. وهذه الأعمال هي «الملك أوديب» و«سوفوكليس» و«هاملت» و«لشكسبير» و«الإخوة كارامازوف» و«لستوفسكي»، وفي هذه الأعمال الثلاثة كلها كان هناك أيضا ذلك الدافع للقيام بأعمال ومآثر عظيمة، وأيضا ذلك التنافس الجنسي الواضح حول امرأة ما^(٢٥). وقال أيضا بأن هناك أربعة جوانب أساسية يمكن تمييزها داخل شخصية دستوفسكي: الخصبة المتنوعة، فهناك: الفنان المبدع وهناك العصبي، وهناك رجل الفضيلة والأخلاق، ثم هناك الخاطئ، المعاصي، وأن الجانب الخاص بالفنان المبدع أمر مؤكد لا يحتاج إلى نقاش، أما الجوانب الأخرى فهي الجدليرة بالاهتمام.

تشتمل دراسة «فرويد» هذه عن «دستوفسكي» في رأينا على جزأين متميزين، في الجزء الأول تتعامل «فرويد» مع «دستوفسكي» على أنه رجل مضطرب مريض مصاب بالماسوشية والرغبة الشديدة في عقاب الذات وإلحاق الأذى بها، وعلى أنه شخص تسيطر عليه مشاعر ذنب مرضية وأن نوباته العصبية كانت نوبات مدحاة ومزعومة وغير حقيقية، وأنها كانت تعبيرات هستيرية عن صراعات عصابية داخلية ناجمة عن علاقة «دستوفسكي» غير السوية وصراعاته التي لم تحل حتى موته، مع فكرة الأب والسلطة والله. ومن ثم كان ذلك الاتجاه المزدوج المميز لعقدة أوديب لدى «دستوفسكي» الذي استفاض «فرويد» في تفسيره وقال عنه بلغة غامضة وهكذا يمكننا أن نفهم أعراض النوبات الشبيهة بالموت لديه باعتبارها تمهايا (أو توحدا) مع الأب، تقوم به الأنا. هذا التماهي تسمح به الأنا العليا كنوع من العقاب للأنا «إنك تريد أن تقتل أبك من أجل أن تحل محله، ولكن أنت أبوك، لكنك أب ميت»، هذا هو الميكانيزم المنظم للأعراض الهستيرية، وإضافة إلى ذلك يقوم أبوك الآن بقتلك، وبالنسبة للأنا فإن عرض الموت يكون بمثابة التعمية للرغبة الذكورية، ويكون في نفس الوقت إشباعا ماسوشيا (بالنسبة للأنا) وإشباعا عقابيا بالنسبة للأنا العليا (أي إشباعا مساويا) وكلا الاثنين، الأنا والأنا العليا، يقومان بتنفيذ دور الأب^(٢٦).

أما القسم الثاني من دراسة «فرويد» هذه فيتناول نقطة خاصة في حياة «دستوفسكي» وشخصيته، وهذه النقطة تتعلق بسلوك المقامرة لديه. وقد لجأ «فرويد» من أجل تفسير هذا الجانب من شخصية «دستوفسكي» إلى القيام بتحليل قصة قصيرة كتبها الأديب النمساوي «ستيفان زفايج» عنوانها «أربع وعشرون ساعة في حياة امرأة» وقد تحرك هذا التحليل متوجها من خلال مفاهيم «فرويد» المعروفة في هذا الشأن كالدوافع الكامنة وعقاب الذات والإبدال والكسل الجنسي وما شابه ذلك من المفاهيم الفضاضة والمراوغة.

لقد تحدث «فرويد» في دراسته كما ذكرنا عن الجوانب الأربعة المتميزة في شخصية «دستوفسكي»: المبدع - العصامي - رجل الفضيلة - الخاطئ. ونلاحظ بشكل واضح، أن الجانبين السلبيين من هذه الشخصية: العصامي والخاطئ، هما اللذان استأثرا بعجل اهتمام «فرويد»، بينما لم يوجه فرويد اهتماما يذكر إلى الجانبين: الإيجابيين المبدع ورجل الفضيلة، من شخصيته «دستوفسكي» مكتفيا بالقول بأن مكانة «دستوفسكي» الفنية ليست موضعاً للشك مطلقاً، وأنه يقف في تاريخ الأدب على قمته وبجوار «شكسبير» ثم يحاول نقيضه عن الحقائق الخاصة بالجانب الأخلاقي في حيلة «دستوفسكي» ويتفرغ بعد ذلك لإظهار، واكتشاف، والتوسع في إلصاق الخصائص السلبية وحيلة هذا المبدع الكبير، وتفتقر تفسيراته بدرجة واضحة إلى التناقص، كما تشتمل على الكثير من التسرع والقفز المرتفع السريع من المقدمات إلى النتائج على نحو متعسف في كثير من الحالات رغم ذلك الغلاف اللغوي البراق الذي يحيط به «فرويد» قراءاته وتفسيراته الخاصة لحياة «دستوفسكي» وبعض أعماله.

اعتقد «يونج» (١٨٧٥-١٩٦١) أن «نيتشه وفرويد» عبرا عن الموضوعين الكبيرين في الحياة الغربية: القوة والجنس. لكنه شعر أيضاً أن الرجلين قد استغرقا في هذين الموضوعين الحيويين حتى سيطرا عليهما وأغنياهما عن موضوعات أخرى في الحياة الإنسانية^(٢٧). لذلك قرر «يونج» أن يمتد بعقله إلى آفاق جديدة، فقدم مفهوم اللاشعور الجمعي Collective Unconsciousness كي يشير به إلى ذلك الجانب من اللاشعور الذي يشترك فيه كل البشر، وقد افترض «يونج» أن هذا اللاشعور الإنساني موروث، وينتقل عبر الأجيال، ويترك آثاره على شكل مضمون المخ الإنساني، وأنه غير فردي ولا شخصي، بل جمعي ويتكون من المادة المتبقية عبر التطور الإنساني. وأن المكونات الأساسية لهذا اللاشعور الجمعي هي الصور أو النماذج البدائية Archetypes التي هي الأفكار والصور اللاشعورية الموروثة من تراث الأسلاف وعبر الأجيال، مثل تلك الصور والأفكار الخاصة حول الأب والله والشيطان والحجر والشر. إلخ^(٢٨).

في ضوء ما سبق ميز «يونج» بين نوعين من الإبداع أو الفن هما:

١- الفن السيكلولوجي أو النفسي: وهو الفن الذي يتعامل مع المواد المشتقة من واقع الشعور الإنساني أو مع دروس الحياة، أي مع خبرات الحياة في الواقع مثل موضوعات الحب والأسرة والبيئة. إلخ.

٢- الفن الكشفي: وهو الفن الذي يشق وجوده من الأرض المجهولة في عقل الإنسان، ومن الزمن الأسطوري الذي رجع حتى عصور ما قبل الإنسان، عصر بداية الخلق وتضاد النور والظلمة. واهتم «يونج» بشكل خاص بالنوع الثاني من الفن واعتبر رواية «عموي ديك»، «لهرمان ميلفيل» أبرز مثال عليه وذلك لأن صراع الإنسان مع المجهول والقدر يحكي فيها على نحو بارز وعميق^(٢٩).

سبب الإبداع الفني الممتاز وقسا لما أشار إليه «يونج» هو تقلقل اللاشعور الجمعي في فترات الأزمات الاجتماعية مما يقلل من اتزان الحياة النفسية لدى الفنان ويدفعه للحصول على اتزان جديد. وبالطبع يمكننا القول هنا بأنه ليست الأزمات الاجتماعية فقط هي التي تعمل على قفلة اتزان الحياة النفسية للفنان، فالأزمات النفسية الخاصة بالفنان أيضاً، بصرف النظر عن الأزمات الاجتماعية، قد تعمل أيضاً على هز استقراره واتزانه النفسي مما يدفعه إلى استعادة ذلك الاتزان المفقود. وقد أشار «يونج» أيضاً إلى أن الفنان

الأصيل يطلع على مادة اللاشعور الجمعي بالحنس ولا يلبث أن يسقطها في رموز والرمز هو أفضل صيغة ممكنة للتعبير عن حقيقة مجهولة نسياناً^(٣٠).

أكد «يونج» أيضاً على أهمية الأحلام في الإبداع الفني والأدبي، فالأحلام في رأيه هي المادة الثرية التي تتجسد فيها الأنماط الأولية لللاشعور الجمعي في أبلغ صورها. فالأحلام كالرموز تحلّت بعفوية ولا تبتدع، وهي - أي الأحلام - المدخل الرئيسي لكل معرفتنا عن الرمزية والرموز. العمل الفني عند «يونج» إذن أشبه بالحلم، على الرغم من وضوحه الياقي^(٣١).

ثانياً: المرحلة التحليلية النفسية شبه الإمبريقية

الجدير بالذكر أنه جرت محاولات لتقوية الأساس المنهجي المش للتأليل النفسي الكلاسيكي فظهر منحنى سمي بالمنحنى الإكلينيكي الموضوعي؛ في اعتراف ضمني بأن المنحنى السابق عليهم لدى «فرويد» «يونج» وأتباعهما لم يكن منحنى موضوعياً تماماً، وهو منحنى يتسم على عكس التأليل النفسي التقليدي - بأنه أكثر تنظيماً، فالبيانات يتم جمعها وتحليلها في ضوء الشروط الكمية. وهكذا فإن «ماكورد» McCurdy قام بجدولة الموضوعات المتكررة في عديد من الأحوال الروائية والمسرحية الكلاسيكية (روايات الأخوات «برونتي» ومسرحيات «شكسبير» مثلاً) وذلك من أجل توسيع حدود أفكار «فرويد» حول الدافعية وحول العمليات الأولية والعمليات الثانوية. كذلك قام «مارتندال» Martindale باستخدام مفهوم «كريس» Kris حول «النكوص في خدمة الأنا» (كشكل من أشكال النشاط النفسي المشابه لتفكير الأطفال لكنه متمم بالانضباط في نفس الوقت) في دراسة أجيال عديدة من الشعراء الأنجليز والفرنسيين ومن خلال بعض الأفكار الإحصائية التي اعتبرها مناسبة^(٣٢).

كذلك تعتبر تلك الدراسة التي قام بها سيرز Sears وزملائه حول أحداث الطفولة والرشد الخاصة «ببارك توين» وتأثيرها على أدبه مثلاً جيداً على ذلك المنحنى للتوجه من خلال أفكار التأليل النفسي التي تمت تقويتها من خلال الأساليب الإمبريقية وقد كانت الخطوة الأولى في هذه الدراسة هي القيام بالفحص الموضوعي من خلال الاستعانة بالمحكمين للمادة السيرية الخاصة «ببارك توين» (خطاباته وملكراته مثلاً)، ثانياً تم استخلاص تسعة أحداث أو موضوعات شخصية رئيسية ظهرت في حياته (كالعزلة أو النبذ مثلاً).

ثالثاً: تم تقسيم رواياته بطريقة موضوعية من خلال المحكمين إلى مجموعة من الأحداث المستقلة. رابعاً: تم وضع درجات لهذه الأحداث في ضوء الأحداث أو الموضوعات الشخصية الرئيسية التسعة في حياة «بارك توين» على سبيل المثال فإن «سيرز» قد استنتج في ضوء علاقة «توين» بأمه أنه كان يخاف من فقدان الحب، ولذلك فإننا نجد أن الموضوع الرئيسي الخاص بقلق الانفصال Separation Anxiety يتكرر في أعماله، بل وفي حياته الخاصة في مرحلة الرشد أيضاً حيث كان يعاوده هذا القلق كلما ولد طفل جديد له^(٣٣).

هناك أيضاً دراسات «أدموند ويلسون» E. Wilson عن «هاوسمان» و «ديكنز» و «كبلنج» والتي حاول فيها الربط بين إلهاعات هؤلاء الكتاب وبين أحداث حياتهم الخاصة، فمثلاً كانت حادثة وضع والد «ديكنز» في السجن نتيجة عجزه عن سداد بعض الديون المتركمة عليه مؤدية إلى أن يعمل «تشارلز» الصغير في مصنع للأصبغ السوداء وقد كانت هذه الأحداث هي مفتاح خيال «ديكنز» الإبداعي كما يقول،

«ويسلون» وقد تعقب هذا الباحث آثار تلك الأحداث المبكرة في حياة «ديكنز» وما ارتبط بها من معاناة وشقاء وذلك وامتهان على مؤلفاته بعد ذلك (٣٤).

لقد أكد «ويسلون» أنه من المهم في حالة «ديكنز» أن ننحصر حالته كإنسان كي نستطيع أن نتذوقه كفنّان «وأن أعمال «ديكنز» خلال دورة حياته الإبداعية كلها كانت بمثابة المحاولة لأن يتمثل الصدمات والمشقات المبكرة، وأن يقوم بتفسيرها لنفسه أولاً، وأن يفهم معنى وجوده في علاقته بهذه الأعمال» (٣٥).

إن الآلية التي كان «ويسلون» يعمل من خلالها كانت تتم من خلال الحركة من حياة المبدع إلى أعماله، ثم العودة إلى تلك الحياة من أجل تفسير هذه الأعمال، وعادة ما تم إهمال جانب التشكيل الفني وعناصر النص البنائية من أجل فهم مضامينه النفسية.

على أننا ينبغي أن نتعامل مع مثل هذا الانحياز بحذر شديد، وذلك لأن العلاقة بين حياة الكاتب وإبداعه قد تكون علاقة غير مباشرة، وأكثر تركيباً من علاقة التناظر التي تحاول تلك الدراسات أن تقيمها بينهما، فليس هنالك من نمط ثابت للعلاقة بين تفاصيل حياة المبدع وبين المظاهر المختلفة لإبداعه وإن كان هذا لا يعني مطلقاً عدم وجود علاقة بين هذين الإطارين، فالعلاقة موجودة دون شك، لكنها قد تكون علاقة مركبة وغير مباشرة كما سبق أن أشرنا.

ثالثاً: المحللون النفسيون النقاد

في كتاب «المناحي التحليلية النفسية حول الأدب والفيلم» الذي صدر عام ١٩٨٧ وقام بتحريره «موريس تشارني» M. Charney وجوزيف Reppen (٣٦) استخدم عدد من الباحثين المفاهيم والأساليب التحليلية النفسية لاكتشاف بعض النصوص الأدبية وبعض الأفلام. وقد اختص في هذا الكتاب بدرجة واضحة ذلك التوجه التحليلي النفسي القديم خاصة قيامه بمحاولات مستمرة لإعادة بناء أو تركيب خبرات الطفولة المبكرة داخل العمل الفني. لقد أصبح التخيل أو أحلام اليقظة أمراً وثيق الصلة بالخيال. وأصبح التركيز الأساسي في تحليل العمل الأدبي يتم على الموضوعات الرئيسية في العمل وعلى الصور العقلية وعلى بنية العمل ذاته. فقد أصبح النقاد التحليليون النفسيون الجدد أمثال «ريتشارد تشيزك» R.Chessick و«هربرت ليفوفيتز» H. Levavitz و«جولين جابارد» G. Gabbard و«أندريه جرين» A. Green وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم فيما بعد أكثر تحمراً من أسر القبضة الفرويدية وأكثر ميلاً إلى الاستفادة من أفكار ومفاهيم محللين نفسيين آخرين أمثال «يونج» و«كريس» و«جاك لكان» J. Lacan و«ميلاي كلاين» M.Klein و«فيليس جريناكر» P. Geonacre و«كارين هورني» K. Horney وغيرهم ولكن، ورغم هذا التحرر من تلك القبضة الفرويدية، فإن ظلال «فرويد» ومفاهيمه تظل تتسلل إلى هؤلاء النقاد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وجه هؤلاء الدارسون معظم اهتماماتهم إلى مؤلفين أمثال «برجسون» و«بروست» و«استانداي» و«ديكنز» و«شريبر» Schreber ورغم أن المؤلف الأخير ليس مؤلفاً هاماً في تاريخ الأدب العالمي، ورغم أنه يتم ذكره فقط من خلال دراسة «فرويد» المشهورة عنه التي ظهرت عام ١٩١١ فإن الباحثة «ميجريت جانز» M. Ganz قد نظرت إلى حالة هذا المؤلف باعتبارها تمثل نمطاً أولياً أو نموذجاً أولياً (إشارة إلى مفهوم يونج الشهير) لعملية الإبداع الأدبي. خاصة لدى المؤلفين المضطربين انفعالياً وعقلياً. لقد اعتبرت هذه الباحثة كتاب «شريبر»

ذكريات مريض العصبي *Memories of my nervous illness* الذي ظهر عام ١٩٠٣، كتابا يتتمي إلى الأدب وإلى الأسطورة، ويسمى بجذوره إلى أعماق الصور الفنية الرومانسية التي يمكن أن نجدها لدى «مولفن أمثال «كولريدج» و«جوتة» و«بيرون» وغيرهم. لقد كان ما قدمه «شيري» في رأى هذه الباحثة يمثل تعبيراً مشروحاً عن الجوانب النفسية الداخلية والمحرومة في شكل رمزي وأدبي.

كان «فرويد» قد رأى في هذه الشخصية مثالا واضحا لحالة تلبس القناع الشعري للشخصية المضطربة كي تعبر عن الارتدادات العميقة لخيالها اللاشعوري. أما «مرجريت جاتز» فقد اعتبرت أن ما قام به «شيري» هو مجرد استتار الشكل الأدبي للتعبير عن آلياته النفسية الدفاعية. إن الفن والباراتويا (كمعرض نفسي) قد يستخدمان نفس المواد الرمزية لكنهما يسيران في اتجاهين متعارضين. لقد تحولت عملية الانتهاك والحطية لدى «شيري» من خلال الأدب إلى عملية تضحية^(٣٧).

يشتمل نشاط التأليف الأدبي على معان عديدة بالنسبة للمؤلف، وأحد هذه المعاني أن هذا النشاط يعتبر - في ضوء التحليل النفسي - بمثابة الإشباع التعويضي. إن نشاط التأليف يشتمل على الموضوعات الرئيسية التي يكون المؤلف شديد الانشغال بها. وقد اجتذب تركيز تشارلز ديكنز «على شخصيات المحتالين انتباه باحثين أمثال «جين هاريس» و«فيليس جريناكر»، وقد نظرا إلى هذا الاهتمام باعتباره شكلا من أشكال الرغبة العارمة في قتل الأب. فالابن يعتقد أن أباه قد حرّمه من عطف أمه ورعايتها له ومن ثم فهو يسعى لأن يزيمه ويحل محله كي يستعيد مكانته لدى المرأة التي حرّم منها (وهي صورة أخرى من صور عقدة أوديب) وقد قدم «ديكنز» سلسلة كبيرة من الشخصيات المحتالة في روايته أوراق بيكويك *Pickwick papers* وهي شخصيات تسم كلها بالطفولية الشديدة والاعتدال الواضح على الآخرين. ويقال إن هذا يتفق تماما مع ما هو معروف من تفاصيل عن حياة «تشارلز ديكنز» ذاته^(٣٨).

كانت رواية «مارسيل بروست» الشهيرة «تذكر الأشياء الماضية» *Remembrance of things past* عبارة عن شكل من أشكال العلاج الذاتي الذي حاول «بروست» من خلاله أن يبرأ من ذلك الإحساس المهيمن عليه بتفكك الذات. وقد ربط «ريتشارد تشيزك» في دراسته الخاصة حول «بروست وبرجسون» بين شخصية «بروست» وفلسفة «هنري برجسون» الحيوية، مؤكدا أهمية الواقعية الروحية والقبض على الاندفاع الحيوي للحظات التي تمر. لقد لجأ «بروست» إلى الفن بعد موت والدته كي يستعيد ذلك المتكسك. وكان النشاط الخاص بكتابة الرواية خبرة أكثر واقعية لديه من ذلك العالم الاجتماعي الخارجي الذي انسحب منه. وقد كانت هذه الرواية ذاتها بمثابة المثال الذي أوضح للعالم الخارجي كيف يمكن لشخص عصابي أن يعلو ويتجاوز ذلك التفكك الموجود في حياته الشخصية. وقد افترض «تشيزك» أن البحث عن الذات الحقيقية هو دائما محاولة لرأب الصدع ومظاهر التفكك الموجودة في هذه الشخصية. لقد أعطى كل من «برجسون» و«بروست» أهمية كبيرة لعملية الإسك بالانطباعات الحاضرة ولعملية إحداث الترابط بين سلاسل الأفكار والذكريات التي قد تتعلق بهذه الانطباعات^(٣٩).

قام «ليفيفيتز» بمحاولة لإيجاد أواصر قوية بين التحليل النفسي والنقد الأدبي من خلال دراسته لحالة «مستانال». وقد أشار هذا الباحث إلى أن مواقف التأليف الأدبي لدى «مستانال» كانت مواقف معبرة عن

عمليات الإشباع التعويضي بشكل واضح. فحيلة «ستاندال» يمكن إعادة تركيبها من خلال كتاباته. كما أن كتاباته تنمك بشكل واضح حاجاته وخوافه واهتماماته المسيطرة عليه. ومثله مثل «بروست»، عانى «ستاندال» من الحرمان من الأم، وقد أدى موت أمه، بينما كان في السابعة من عمره، إلى أن يعاني فترة طويلة من الإهمال والحرمان والتجاهل. لقد تخلص «ستاندال» من سطوة أبيه وحاول التعويض عن حالة الحرمان قبل الألفية من الأم من خلال الاهتمام بحالات الاتصال الجنسي غير الشرعي. وقد امتلأت أعماله بعمليات مقارنة بين النساء المحظوظات في سلوكهن الجنسي المهتمات بتربية أطفالهن وبين النساء الشهوانييات المتحذات كثيرا عن الفضيلة، وعلى كل حال، فإن محاولة «ليفوفيتز» لإيجاد جوانب كثيرة مشتركة بين حياة «ستاندال» وأعماله محاولة تعاني من التعسف الواضح رغم وجود الكثير من الجوانب المشتركة - ظاهريا - بين أعمال «ستاندال» وقاصيل حياته^(١٠).

وجه التحليل النفسي اهتمامه الكبير منذ بداياته المبكرة لأعمال «شكسبير» المسرحية والشعرية. وذلك بسبب براعة هذا المبدع الواضحة في تصوير الشخصيات والانفعالات والصراعات الإنسانية.

وهكذا فإننا نجد في كتاب «تشارني» «ورين»، سالف الذكر، دراسات عن خبرات الطفولة والحرمان من مشاعر الأم العاقبة والخوف من فقدان الحب أو الانفصال عن المحبوب وتأثير ذلك كله على سلوك الشخصيات في الرشد، كما نجل ذلك مثلا في مسرحية «ليلة الثانية عشرة»^(١١) ونجد أيضا دراسة «هاينلي»، J. Hinely التي تم فيها تحليل أحلام الشخصيات في مسرحية «حلم ليلة صيف» خاصة في علاقة هذه الأحلام بالخوف الفطرية التي تستثيرها هذه الأحلام لدى هذه الشخصيات. ومن ثم فقد تم الاهتمام بتحليل أحلام الانتقام، وأحلام الحب، والأحلام الجنسية، وغيرها من الأحلام سواء كانت هذه الأحلام تنسم بالهدوء والوضوح النفسي أو كانت تتجلى بالصور العنيفة والأفكار الغامضة والمشاعر شديدة الاضطراب^(١٢).

كذلك استفاد «جوزيف ويستلند» J. Westlund من مقالته عن بعض مسرحيات «شكسبير» الكوميديّة من بعض مفاهيم «ميلاني كلاين» وذلك من أجل فهم الوظيفة التعويضية أو الترميمية reparative والمشيائية والمجددة أو الشافية للكوميديا الشكسبيرية. فالكوميديا تقدم صورا متخيلة خاصة من صور تحقيق الرغبة تتعلق بالعالم الذي نحب أن نجاهد. فصور الحب الرومانسي مثلا تشتمل على نرجسية مفيدة. فمن خلال رؤيتنا للمحبيب في صورة مثالية نقوم بوضع أنفسنا في صورة مثالية أيضا. «وكما زاد احتياك وسمو الصورة التي نعطها للمحبيب كلما زاد ما تنسم به من الغفء النرجسي الخاص بهذا الكائن غير العادي» ويؤكد «ويستلند» أن الحب كان دوما من الموضوعات المهمة في التحليل النفسي، ذلك الذي ركز على الغريزة الجنسية بعد أن نزع منها إطارها الرومانسي. كذلك يستلقت «ويستلند» انتباهنا إلى الأساليب التي تتحرك الكوميديا من خلالها إلى ما وراء الصراعات الظاهرة كي تعمق تصوير قضية العلاقة بين الذات والآخر. فالشخصيات تشعر بالذنب بسبب نزعتها التدميرية، كما أنها تكون قادرة على رأب الصدع الحقيقي أو المتخيل الذي تكون قد تسببت في حدوثه. وأخيرا فإن «ويستلند» يشير هنا أيضا إلى أن شخصية الأم - أو المرأة عموما - في مسرحيات «شكسبير» الكوميديّة (وقد يكون هذا صحيحا في مسرحياته الأخرى أيضا) هي شخصية تنسم بالقوة وأحيانا بالتسلط بينما شخصية الرجل هي شخصية تنسم بالثالب وأحيانا بالضعف والتردد^(١٣).

أما «برنارد باريس» B. paris فقد نظر إلى شخصيات «بروتس» و«كاسيوس» وقصر في مسرحية «يوليوس قيصر» لشكسبير باعتبارها تمثل مثلثاً تدمرياً وذلك في ضوء مفاهيم «كارين هورني» وفئاتها التصنيفية للشخصية. وعلى عكس ما هو سائد في الدراسات النقدية والدراسات التحليلية النفسية من النظر إلى شخصية «بروتس» باعتبارها شخصية إيجابية. فإن «باريس» يعتبرها شخصية سلبية وشريرة مثلها في ذلك مثل شخصية «ماكبت». «فبروتس» ليس أحد المثاليين اللذين تم تضليلهم كما هو شائع، لكنه شخصية تم تضليلها بما يتفق مع محاولتها المستمرة لخداع نفسها وعدم اعترافها صراحة بعطشها المائل إلى القوة والعظمة. لقد كانت مشكلة «شكسبير» الكبيرة في هذه الشخصية هي أن يقدم شخصية تكون لديها حاجة قوية تماماً لخداع نفسها بطريقة لا يستطيع المشاهدون اكتشافها. وقد تم حل هذه المشكلة بطريقة جزئية فقط، فهناك جوانب مشتركة كثيرة بين «قيصر» و«كاسيوس»، لكن «كاسيوس» قام بتدمير ذاته تدريجياً من خلال صراعاته الداخلية ومن خلال توفقه الشديد إلى أن يحظى بإعجاب «بروتس»، لقد كان سعيه للحصول على تقبل «بروتس» غير المشروط له يئأس حاجة الطفل ومطالبه بالنسبة لوالديه. وقد حظي «كاسيوس» بتعاطف أكبر عندما أصبح أكثر ضعفاً وأكثر اعتمادية. ويلاحظ على هذه الدراسة أن «باريس» أهمل القضايا السياسية التي تدور حولها هذه المسرحية من خلال تركيزه على الصراع النفسي فقط^(٤٤).

في دراسته الخاصة حول النكوص المستمر في شخصية «هاملت» استفاد «تشارني» من مفهوم الإحلال أو الإزاحة Displacement في التحليل النفسي، وقد نظر إلى انتقام «هاملت» باعتباره صورة متخيلة يعاد تصورها والتهويم حولها بشكل دائم، بحيث تصبح هي ذاتها نوعاً من العمل الفني. إن تأجيل الانتقام في رأي هذا الباحث يئأس أنواع الإرجاء المرتبطة بالجنس. إنه نوع من اللعب الأولي دونياً لية رغبة مباشرة في الاكتمال أو الإنجاز أو التحقق. ويبدو أن «هاملت» كان يتجنب إنجاز مهمته، لأن هذا الإنجاز سيضع نهاية لتخييلاته وتوحياته التي كان يستمتع بها والتي اشتملت على عمليات كثيرة من تكلف في الحركة والكلام، وعلى تمثيل مصطنع لا نهاية له. لقد حدث ما يشبه الوثبة في هذا السلوك، أو بعيداً عنه، بعد رحلة «هاملت» الحاسمة إلى إنجلترا، ولأولى مرة منذ بداية المسرحية يبدو مستعداً لإنجاز مهمته، لكن إنجاز المهمة يعني نهاية التخييل والتهويم وأحلام اليقظة ومن ثم الموت والدمار. ويشارك «هاملت» مع «بروتس» ومع ماكبت كما يشير «تشارني» في أنهم جميعاً استطاعوا أن يتصوروا سلفاً مصيرهم المحتوم^(٤٥).

في دراسة بعنوان «الجنسية والزنا بالمحامد في أعمال برتولد بريخت» قام «سامي ماكليين» S.McLean باختزال الإنجاز الكلي «لبرتولد بريخت» في مجال المسرح إلى ثلاثة مراحل من الارتقاء في التعبير عن الجنس على النحو التالي:

- ١- المرحلة الأولى وتمتد من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٤ وهنا قام «بريخت» باكتشاف السلوك الجنسي الغيري والمثلي لدى الذكور في مسرحيات مثل «بعل» Bael و«غابة من اللذات».
- ٢- المرحلة الثانية وامتدت من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٢٩ وهنا قام «بريخت» بوضع أسس نمط الشخصية الخاص بالأم البطلة وأيضاً تلك الثنائية الخاصة بعلاقة الأم بالابن في مسرحيات مثل «الرجل هو الرجل» و«صعود وهبوط مدينة ماهوجني».

٣- المرحلة الثالثة وتعد من عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٤٥ ، وهنا قام «بريخت» بالتسامي بمشاعر الجنسية الثلية (أو السحاق) لدى الإناث من خلال تحويل هذه المشاعر إلى نوع من المثالية الثورية المتميزة المتوجهة نحو الخير والحق والملاذلة .

ورغم هذه الفئات التصنيفية فإن صورة الأم في أعمال «بريخت» تظل كما يقول «ماكاي» صورة غامضة ، فهي تتسم بالقوة والعطف ، كما تتسم بالشر والتدمير أيضا ، وأبرز مثال على ذلك هو شخصية الأم في مسرحية «الأم شجاعة» (٤٦) .

في دراسة «الجيري فلايغر» J. Flyger بعنوان «بودلير وفرويد: الشاعر كمنزّاح» قام هذا الباحث بالربط بين أفكار «فرويد» ونصوات الشاعر الفرنسي الشهير «بودلير» حول الكوميديا . وقد كان «بودلير» قد كتب أفكاره الثيولوجية (اللاهوتية) والشيطانية Satanic (أو التي فيها تأكيد فطري على غريزة الشر) قبل أن يكتب «فرويد» مشروعه الخاص في التحليل النفسي . وقد كشف «فلايغر» في دراسته هذه عن عدة جوانب مشتركة بين المعاني اللاهوتية والمعاني التحليلية النفسية للمزح أو النكات ، وأن «بودلير وفرويد» يتفان على أهمية الدور الكبير الذي يلعبه اللاشعور في سلوك الشخص الضاحك أو المحب للنكات ، كما أنها اتفقا في أن المزاح وحكي النكات غالبا ما يشتملان على انتهاك ما للمعايير الاجتماعية . فالتنكيت هو تعبير عن أشواق ورغبات غير مشبعة . وقد ميز «فرويد» بين النكات الموجهة نحو هدف ، وبين النكات البريئة أو المنزهة عن الغرض ، واعتبر «فلايغر» أن هناك مفارقة ما في هذا الشأن . وذلك لأن النكات الموجهة نحو هدف في رأي «فرويد» تكمن وراءها بعض مشاعر الذنب تكون موجودة في نفس ملقيها ، بينما تكون بريئة المقصد ، أي أنه لا يقصد من رواها إحداث أثر معين يتسم بالشر ، أي أنها تكون ملنية المقصد بريئة الأثر ، لكن النكات البريئة كما يعلق «فلايغر» غالبا ما لا تكون بريئة ، كما أن النكات الموجهة نحو هدف غالبا ما لا تحقق الهدف الذي وجهت من أجله . كذلك فإن هناك بعض الجوانب الشعرية والجمالية العيشية أو التي لا تهدف من رواها في النكات ، مما يجعلها أحيانا تعبيرا مقصودا في ذاته أكثر من كونها تعبيرا يتوجه نحو هدف معين ، إنها هنا تبدو على أنها شكل من أشكال اللعب اللفظي والعقلي ، ومن ثم تبدو قسرية من النشاط التلقائي الذي أكد فلاسفة وياحثون ومبدعون عديون أهميته في الإبداع .

ويقول «فلايغر» إن الضحك هو علامة على النفس المتعشة التي أوصد في وجهها باب اكتمال أو كلية عملية الإدراك ، إنه يرمز إلى حالة سقوط الإنسان وإلى غريزة الحياة (الليبدو) المتأججة لديه بشكل لا يهدأ ولا يخف هزاه (٤٧) .

كان «لينج» تأثيره الواضح كما أشرنا على الناقد والمؤرخ البريطاني «هربرت ريد» وعلم فيلسوفة علم الجبال الأمريكية «سوزان لانجر» وعلم الناقد الأدبي الشهير «توزيروب فراي» صاحب الاتجاه الأسطوري في النقد الأدبي ، كما كان له تأثيره الواضح على الباحثة الإنجليزية «مود بودكين» M. Bodkin . كتبها الشهير «الأنباط الأولى في الشعر» الذي ظهر عام ١٩٣٤ والذي حاولت فيه اكتشاف بعض الإحساسات والمعاني البدائية والقديمة والمتكررة في الصور والرموز والمواقف الشعرية .

نقد وتعقيب

ظهر عمل «فرويد» الأول المتصل بالأدب عام ١٩٠٨، ومنذ إشارته الأولى للأدب عام ١٩٠٠ والتي كانت تتعلق بمسرحية أوديب «السوفوكل»، ورغم التعديلات التي طرأت على التحليل النفسي بشكل عام (كما في حالة إعطاء أهمية أكبر للعقل الشعوري أو للأنا في مقابل الجو اللاشعوري لدى بعض الدارسين) فإن الجوهر ظل كما هو.

وتعتبر دراسة «جونز» حول «هاملت» نموذجاً كلاسيكياً للعلاقة بين التحليل النفسي والأدب وقد حاج «جونز» في دراسته هذه قائلا إن حالة التردد التي أصابت «هاملت» كانت ترجع في المقام الأول إلى أن أفكار القتل والزنا بالمحارم، التي تتعلق بوالديه، والتي سبق له كتبها، قد اتبعت أو أثرت من جديد. وقد أعيد إيقاف هذه الرغبات الطفلية نتيجة موت والده وزواج أمه مرة أخرى. وهكذا فإن جوهر هذه المسرحية في رأى «جونز» يكمن في الصراع الأوديبي. وأرجع «جونز» الإعجاب الكبير الذي حظيت به هذه المسرحية عبر الزمان والمكان إلى قدرتها على تحقيق قدر من التنفيس (التطهير) يتسم بالأمان ويتعلق بالقوى الأدبية اللاشعورية التي يشترك فيها القراء والمشاهدون، فالمسرحية كالحلم، طريق آمن للتعبير عن تمحيصات الطفولة دون إثارة صراعات أو آليات دفاعية معارضة لتذكر هذه التخيلات. وقد أشار «جونز» أيضاً إلى أن جذور مسرحية «هاملت» تكمن في حياة «شكسبير» نفسه، في موت أبيه (ثم بعد ذلك موت رابعه) ثم فقدان عشيقته (١٨).

وهكذا بالنسبة للتحليل النفسي فإن استجابة المتلقين للأدب ولغيره من الفنون هي نتيجة للتنشيط الخاص بأحداث الطفولة اللاشعورية، وبالنسبة للمبدعين فإن النواتج الإبداعية تكون هي المحصلة لهذا التنشيط.

وبشكل عام يمكننا أن نلاحظ أن التحليل النفسي، بأفكاره وتياراته ومراحله المختلفة، يقرر أن منبع الإبداع هو اللاشعور، تلك المادة التي تُصنع منها أحلام ليلنا وأحلام يقظتنا وما بينهما، والشعراء.. والمبدعون عموماً - يغيصون فيها، ويخرجون منها يرموز يشعرون فيها باللذة الجاهلية، دون إدراك لمعناها الحقيقي (١٩).

ويمكننا أن نلاحظ أيضاً أن مراحل التحليل النفسي للأدب، المختلفة، (القديمة والوسيلة والحديثة) والتي تحدثنا عنها لم تختلف كثيراً في مطلقاتها الأساسية وإن اختلفت أحياناً في نقاط التركيز: فالتحليل النفسي التقليدي، لدى «فرويد» و«يونج» مثلاً، لم يتم بالمادة الأدبية، أو بالأديب في حد ذاتها، ولكن من أجل إكمال الصورة الخاصة في أذهانها عن الشخصية الإنسانية، فالحقيقة الهامة «أنه لا «فرويد» ولا «يونج»، قد بدأ بدراسة النشاط الفني، وحقيقة الأمر أنها حاولا تعرف طبيعته من خلال مذهبها ليسدا بذلك ثغرة من شأنها أن تشوه البناء، وهما في ذلك يشبهان «كنت» و«هيجل» اللذين تكلمتا في الاستطيقا إكمالاً لمذهبيهما الفلسفيين (٢٠). وبذلك كان اهتمامها بالأدب اهتماماً عابراً أو غير مقصود للمآة.

ويمكننا قول الشيء ذاته عن الاتجاه الثاني أو المرحلة الثانية من مراحل التحليل النفسي للأدب، وكما تمثلت مثلاً في دراسات «ماكورد» و«مارتنيل» و«شيرز». فهذه الدراسات رغم اتباعها المنهج الموضوعي، إلى حد ما، ظلت أسيرة المفاهيم التحليلية النفسية، وهي مفاهيم تقتصر كثيراً إلى ما يسمى في العلم بالتعريفات الإجرائية Operational Definitions أي تعريف المفاهيم من خلال العمليات والإجراءات المستخدمة في ملاحظة وقياس هذه المفاهيم، وهي عملية تؤدي إلى توفّر صفة الدقة والتحديد في المفاهيم

والإجراءات، ومن ثم إمكانية الاتفاق بين الباحثين المختلفين، أي أنها تؤدي بالضرورة إلى ما يسمى بقابلية الدراسة لإعادة الإنتاج Reptibility وهو شرط أساسي من شروط الضبط العلمي.

فمثلا ليس هناك تعريف إجرائي لفهوم «النكوص في خدمة الأنا» Regression in the service of the Ego كما قدمته «كريس» وكما استخدمه «مارتنديل» في دراسته، كما أنه ليس هناك من تعريف إجرائي محدد لفهوم «قلق الانفصال» أو «الخوف من فقدان الحب كما استخدمها «صيرز».

تنطبق هذه الانتقادات أيضا على المرحلة الثالثة من مراحل التحليل النفسي للأدب، وهي المرحلة التي اهتم فيها أصحابها بشكل خاص بالتركيز على الأفعال الأدبية والعكوف عليها، والرجوع منها أحيانا إلى شخصية المبدع، مع التركيز على البعد الخيالي في العمل الأدبي والاهتمام، بدرجة أقل، بخبرات الطفولة. لكن المفاهيم ظلت هي هي، على ما فيها من غموض وتناقض وانقراض وانقراض للتحديد أو التعريف الإجرائي، ومن ثم ظلت مفاهيم النكوص، وعقدة أوديب والرغبة في قتل الأب والإشباع التعويضي، والزنا بالمحارم، والنبد والمضمون الكامن والمضمون الصريح للحلم، هي المهيمنة على هذه الدراسات، وإن كان قد تم تطعيم هذه الدراسات بمفاهيم أخرى من محللين آخرين أمثال «كرين» و«كلاين» و«هورلي» كما سبق وأن ذكرنا.

وقد عارض بعض الباحثين أمثال «كارميكيل» Carmichael تلك التبسيطات الزائدة للأمر الموجودة في التحليل النفسي، والتي تنقص من قدر الجهد الأدبي، بتفسيره باعتباره شيئا آخر غير ماهو عليه، فتقييم العمل الأدبي باعتباره تخيلا أو أحلام يقظة فقط، أو باعتباره شيئا غير واقعي، أو عقلانية متكررة، معناه إنكار الإمكانية الخاصة بالأدب والتي تمكنه من التفسير الصادق للعالم، ومن الإدراك الواقعي لهذا العالم. أما «روزنبرج» فنظر إلى التحليل النفسي باعتباره محددا، ومتكيفا، وجامدا، بسبب إهماله النظر في الخصائص الأدبية للعمل الأدبي. «فالتأكيد الخاص على الصراع الأوديبي فقط هو فعلا مجرد «أكليسيه» نفسي أدبي، فالصراع غالبا ما يتم اعتباره الطريق. والمهدف الكلي، المفسر لكل شيء في العمل الأدبي، كما يتم إغراء القارئ والناقد بالذهاب بعيدا عن تلك التفاصيل المرفقة الخاصة والخصبة، وبعبدا عن العمليات المعرفية الخاصة داخل العمل الأدبي»^(٥١). وقال باحثون آخرون إن هناك أشياء أخرى في الحياة غير الصراعات الطفولية، وأشياء أخرى في العمل الأدبي أكثر أهمية من صراعات المؤلف وفحص أحشاء العمل الأدبي.^(٥٢)

رغم كل ما قلناه سائفا، فإن الأمر الجليلير بالذكر أن التحليل النفسي غالبا ما يختلط في أذهان العديد من القراء، بل وبعض نقاد الأدب بعلم النفس فيصبحان شيئا واحدا، ورغم الفروق الكبيرة بينهما، فعندما يذكر علم النفس، فإنهم يتحدثون عن التحليل النفسي ومن (فرويد) و«أدلر» و«فيونج» رغم تلك الخاصية الأساسية المميزة لعلم النفس الحديث باعتباره علما يدرس السلوك الإنساني الخارجي والداخلي، ومن بينه السلوك الأدبي والفني، من خلال أساليب دقيقة ومضبوطة وكعية.

المنهج الموضوعي في الدراسة النفسية للأدب

تستخدم كلمة «موضوعي» هنا كي تشير إلى كسل ماهو واقعي، أي كل ما يكون قابلا للملاحظة والقياس والتحديد، قابلا للتحقق منه وقابلا لإعادة إنتاجه، ومستقلا - قدر الإمكان - عن الخبرات الداخلية أو الذاتية للباحث، متحررا من التحيز الذي قد ينجم عن الجوانب الانفعالية أو الأيديولوجية للدراس.

عالم الفكر

وتستخدم هذه الكلمة أيضا بشكل متطابق إلى حد كبير مع كلمة «إمبريقي» التي تعني التعامل المحدد مع حقائق الواقع من خلال إجراءات واضحة محددة، ودون الالتصاق الأعمى بنظرية محددة، وهي إجراءات تتعلق بملاحظة الواقع ووضع الفروض وجمع البيانات وتحليلها بأدق طرائق متاحة أو ممكنة^(٥٢).

يمكن أن يتم التعامل الإمبريقي مع الأدب من خلال مدخل عدة منها:

١- محتوى النصوص الأدبية: أي ما تشتمل عليه من دوافع لدى الشخصيات في الرواية، والانفعالات والصور في الشعر، والقيم في القصة القصيرة وما شابه ذلك من الموضوعات.

٢- شخصيات المؤلفين: كالاتهام مثلا بمصادر الإبداع لديهم، وتأثيرات مرحلة الطفولة، مثلا، على إبداعاتهم، وأيضا الفروق بين كاتب الرواية، وكاتب المسرح، والشاعر... إلخ.

٣- تفضيلات القراء: كالفروق بين صغار السن والراشدين، أو بين الذكور والإناث، في تفضيلهم لأعمال أدبية معينة أكثر من غيرها.

٤- دور السياق الاجتماعي الذي يدع فيه المبدعون إبداعاتهم أو الذي يقوم فيه القراء بالاختيار والتفضيل الأدبي: وأيضا كيف يمكن أن تتغير الأساليب الأدبية عبر الزمن وبين الثقافات المختلفة.

٥- عملية الإبداع: بما تشتمل عليه من نشاطات وعلاقات وعوامل نفسية وأسلوبية واجتماعية.

والجزء المتبقي من هذه الدراسة مكرس للتعامل مع بعض هذه الموضوعات وقد ظهر أن معظم هذه الموضوعات قابلة للتعامل الإمبريقي معها. ورغم الفائدة الواضحة التي يمكن أن ننجيها من الربط بين الأدب وعلم النفس من خلال المنحى الإمبريقي، فإن هذا المنحى في حالات كثيرة منحى غير معروف بدرجة كبيرة، أو غير مرحب به، أو تمت إسائة فهمه، وغالبا ما سادت الدراسات النفسية للأدب الأساليب اللدائية والحلمية، أكثر من الأساليب الإمبريقية الموضوعية، كما هيمنت على هذا المجال التأملات أكثر من الحقائق، والمفاهيم التاريخية والنقدية والفلسفية أكثر من المفاهيم العلمية. وقد كان يتم تمثيل علم النفس في مجال الدراسات النفسية للأدب من خلال التحليل النفسي، وعن طريق دراسات الحالات الفردية التي تشق توجهاها من «علم نفس العمق» وثيق الصلة بالتحليل النفسي والذي يقف غالبا في عزلة واضحة عن المنحى الموضوعي، بل قد يكشف أصحابه عن عداوة واضح لكل ما هو موضوعي أو كمي أو قياسي أو منهجي^(٥٣).

المنحى الموضوعي في دراسة الأدب هو إذن ذلك المنحى الذي يعتمد على إجراءات واضحة ومحددة، كما أنه يقدم بيانات معينة وقابلة للتحديد، فهنا المنحى يتعامل مع الحقائق ويتبنى الوسائل المناسبة للوصول إليها.

غالبا ما ظهرت في مواجهة العلماء الذين يتبنون هذه الوجهة من النظر اعتراضات كثيرة بعضها ضمنى عابر، وبعضها واضح وصريح ومساخر ومتكرر لمنحى إمكانية استخدام مثل هذا المنحى في دراسة الأدب، الذي هو، في رأيهم مادة شديدة الرهافة، خاصة عندما تتعلق هذه المادة بانفعالات مثل الحب والكراهية، وقيم مثل الحرية والعدالة. فكيف يمكن ملاحظة هذه الانفعالات والقيم؟ وكيف يمكن جعلها قابلة للملاحظة، ومن ثم كيف يمكن دراستها موضوعيا؟

يمكن بالطبع حل هذه المعضلة من خلال وسائل عديدة:

١- كثيرا ما نجد كتابات مدونة أو أحاديث لفظية مسجلة للمؤلفين والقراء حول خيرايم العقلية أو التفاعلية الخاصة خلال إنتاجهم أو تلقيهم للأدب وتفاعلهم معه. ومثل هذه الكتابات والأحاديث يمكن ملاحظتها أو تسجيلها ثم تحليلها بالوسائل المناسبة.

فمثلا قام «سوفي» في دراسته عن الإبداع في الشعر بتحليل كتابات عدد كبير من الشعراء والفنانين والنقاد والفلاسفة حول الإبداع الفني عامة والإبداع الشعري خاصة^(٥٥) وقام «حنورة» في دراسته بتحليل مواد كثيرة من بينها كتاب كامل كتبه «توماس مان» عن تأليفه لرواية «الدكتور/ فاوستوس»^(٥٦) وقام كاتب هذه الدراسة بشيء مماثل في دراسته عن القصة القصيرة^(٥٧).

٢- كذلك يمكن جعل المعنى النفسي للعمل الأدبي، وهو المعنى الذي يكون أكثر خفاء من مجرد الاستجابة الصريحة بالتفضيل أو عدم التفضيل للعمل الأدبي، يمكن جعل هذا المعنى قابلا للتناول الموضوعي من خلال الاهتمام بدراسة أحكام القراء حوله، أي تلك المعاني المختلفة، أو المشتركة التي يقدمونها لنا بعد تعرضهم المناسب لهذه الأعمال، بل إن ظواهر الصور العقلية والانجذابات وسائط الشخصيات يمكن دراستها أيضا من خلال هذا الأسلوب غير المباشر، إننا هنا ندرس البدع من خلال المثلقي أو القاريء، مثلما ندرس المنتج من خلال المستهلك، وبناء على استجابات هذا المستهلك نعرف تلك الانجذابات والأهداف والصور المختلفة التي أراد المنتج أن يصورها، أو يعبر عنها، أو يقدمها لنا. ومن أمثلة ذلك دراسة «سوفي» وزملائه عن صورة المرأة كما تقلمها وسائل الإعلام^(٥٨).

٣- من خلال التعريفات الإجرائية للمفاهيم المستخدمة في الدراسة أي من خلال التحديد الواضح للإجراءات المستخدمة في ملاحظة وقياس الظواهر موضع الاهتمام، يمكن الربط بين الجوانب غير القابلة للملاحظة وبين الجوانب القابلة للملاحظة. فمثلا عرف الذكاء بأنه ما تقيسه اختبارات الذكاء، وعرف أيضا أنه القدرة على حل المشكلات والقدرة على التفكير المجرد. وهذه كلها جوانب يمكن ملاحظتها أو قياسها. والاستدلال من هذه الملاحظة وهذا القياس على وجود مستويات مختلفة متزايدة أو متناقصة من الذكاء. كذلك الحال مثلا بالنسبة للصور العقلية في الأدب يمكن ملاحظتها وإحصاؤها في بعض الأعمال الأدبية ومن ثم الاستدلال منها على أنماط الصور العقلية (بصرية - سمعية - لمسية . . . إلخ) التي يفضلها بعض الكتاب بدرجات متفاوتة في أعمالهم. ومن أمثلة ذلك دراسة «لندلور» عن الصور العقلية في بعض أعمال الكاتب الأمريكي هرمان ملفيل^(٥٩).

قال «لندلور» في تقديمه لدراسته هذه إن شهرة «هرمان ملفيل» - الكاتب الأمريكي الشهير - ككاتب تستند على استخدامه للعديد من الصور الوصفية والحية، وقد تمت هذه الدراسة باستخدام أسلوب تحليل المضمون على اثنين من أعماله الروائية هما «موبي ديك» و«بير»، وقد كتب في فترتين مختلفتين من حياة «ملفيل»، فقد كانت حياته المبكرة مليئة بالمغامرات والبحيرات الحية في البحار والمحيطات وفي تلك الفترة كتب «موبي ديك»، أما فيما بعد وفي فترة متأخرة من حياته فقد أصبح «ملفيل» أكثر تأملا وأكثر اعتنادا على استبطانته للذاته في كتاباته، وخلال ذلك كتب روايته «بير»، وهي الرواية الوحيدة لديه التي لا تستند على البحر كإرضية

أو خلفية لها . تم اختيار صفحة من كل عشرين صفحة من رواية «موي ديك» وصفحة من كل خمس عشرة صفحة من «بيير» (والاختلاف في العينة للمختارة يرجع إلى اختلاف الحجم الكلي لكل رواية على حدة) وتم تحويل الجمل الموجودة في هذه الصفحات إلى رموز تشير إلى الإحالات الحسية (البصرية – السمعية – اللمسية . . . إلخ) للمختلفة الموجودة في الروايتين ، وتم وضع علامات على الجمل التي تشير على أكثر من غيرها في هذه الصفحات ، إلى الإحساسات المختلفة الخاصة بالتلوق ، والإبصار ، والرائحة ، واللمس ، والصوت . وتم تصنيف هذه الجمل وإحصاؤها من خلال اثنين من المحكمين ، وعندما كان يتم ذكر أكثر من صورة حسية في الجملة الواحدة ، كان يوجه الاهتمام الأكبر إلى خصائص الصور التي ترد وتتكرر أكثر من غيرها في نفس الجملة . وتم من خلال ذلك حل بعض الخلافات بين المحكمين فيها عدا حوالي ٤٪ من الجمل موضوع الدراسة ، حيث لم يتحقق اتفاق مناسب بينها حول كيفية تصنيف هذه الجمل ، ومن ثم استبعدت هذه الجمل من التحليلات . ومن أمثلة الجمل التي خضعت للتحليل «القرية . . لم يكن لها طعم مقبول» أو «الحيتان ذات الرائحة الكريهة» من رواية «موي ديك» وكذلك «لم يجر الخطاب أية إجابة دافئة» وكذلك «هبة الحار يحيط بي» من رواية «بيير» .

وقد وجد «لنداورة» أن هناك ٣٧٦ إشارة حسية من هذا النوع في عينة الدراسة التي قام بدراسةها وبالمأخوذة من الروايتين منها ١٩٢ إشارة في رواية «موي ديك» ، ١٨٤ إشارة في رواية «بيير» ويعرض الجدول رقم (١) العدد والنمط الخاص بكل إشارة حسية في الروايتين ، ويشير هذا الجدول كذلك إلى عدد هذه الإشارات في كل قسم من أقسام كل رواية على حدة ، وقد كان هذا التقسيم الأخير بمثابة المراجعة لدى ثبات المحكمين في تصنيف المادة ، حيث إن تحديد قيم الصورة الحسية في نصف كل عمل يجب أن يكون متماثلا لدى المحكمين ، إذا كانت طريقة إعطاء الدرجات متسقة ، واستخدمت هذه الدرجة أيضا لقياس مدى تماثل أو تشابه أسلوب المؤلف (أو استخدامه للكلمات) في الأجزاء الأولى والأخيرة من العمل ، ولم تكشف الدراسة عن وجود فرق دال بطريقة جوهرية بين استخدام «مقليل» للإشارات والصور الحسية في نصف كل عمل على حدة ، أما الاختلاف الواضح بين الروايتين فظهر بشكل خاص في طبيعة أو نمط الإشارات والصور الحسية المستخدمة ، فقد كانت الإشارات والصور البصرية في «موي ديك» أكثر من مثيلتها في «بيير» ، بينما كانت الصور اللمسية والعضلية في «بيير» ، أكثر من مثيلتها في «موي ديك» ، وفي كل رواية كان الاختلاف أو البروز واضحا بالنسبة للصور والإشارات اللمسية والبصرية عن غيرها من الإشارات والصور الحسية والعقلية الأخرى .

كانت رواية «موي ديك» بإشاراتها العديدة إلى البحر وألوانه أكثر بصرية من رواية «بيير» ومن ثم اشتملت على صور بصرية أكثر ، وعلى العكس من ذلك كانت رواية «بيير» أكثر تأملية واستبطانية ، فقد كان «مقليل» يشير فيها كثيرا إلى حاسة اللمس أو ما يسمى أحيانا بحاسة القرب ، أو حاسة الأشياء القريبة ، على عكس الإبصار الذي يمكن تسميته حاسة الأشياء البعيدة . وقد وجد هذا المؤلف صعوبة في تفسير التشابه بين الروايتين في الإشارات والصور السمعية والشمسية والتلوقية رغم أنها أيضا حواس خاصة بالأشياء القريبة . ثم ينتج من دراسته بأن يشير إلى أهمية دراسة أعمال أخرى «المقليل» من فترات مختلفة لفحص عمليات التغير في استخدام الكاتب لإشارات حسية معينة ، ومن ثم صور حسية وعقلية معينة ، في فترات مختلفة من حياته ،

ويشير هذا الباحث أيضا إلى أهمية دراسة الإشارات والصور الحسية المختلفة لدى أدباء عديدين من نفس الفترة، أو من أصحاب نفس المدرسة، أو الأسلوب، ومن أصحاب مدارس وأساليب أخرى، لمعرفة التشابهات والاختلافات بين هؤلاء الكتاب وهذه المدارس والأساليب.

ويؤكد في النهاية أهمية أسلوب تحليل المضمون في القيام بمثل هذه الإجراءات مشيرًا إلى أنه حتى مجرد إحصاء الكلمات الحسية في النص الأدبي يمكن أن يتسم بالثبات المرتفع وبالأهمية الكبيرة، لكن مع ضرورة وضع الأبعاد والمكونات الأخرى للعمل الأدبي في الاعتبار أيضا.

جدول رقم (١)

ويوضح الإحالات الحسية في روايتين لحرمان ملفيل

الرواية	الإحالة الحسية	الشمية	الملمسة	الذوقية	البصرية	السمعية	الدرجة الكلية
موري ديك							
النصف الأول	٣	٣٣	-	٤٩	١٧	٩٢	
النصف الثاني	٦	٢١	٣	٥٦	١٤	١٠٠	
المعد الكلي	٦	٤٥	٣	١٠٤	٣١	١٩٢	
(%)	٥%	٣٣%	١%	٣٤%	١٦%		
نير							
النصف الأول	٢	٤٣	٢	٥٥	١٤	٩٥	
النصف الثاني	١	٣٨	-	٣٥	١٨	٨٩	
المعد الكلي	٣	٨١	٢	٦٨	٣٢	١٨٤	
(%)	١%	٤٤%	١%	٣٧%	١٧%		

إن ما يطمح إليه هذا المنحى هو ربط الظواهر أو العمليات الضمنية الداخلية (أو الوسيطة) في الأدب، أو لدى الأدب، بعمليات قابلة للقياس والملاحظة، أي بمعنىات معينة، وأيضًا بأشكال عيانية محسوسة من الناتج أو الاستجابة.

٤- هناك استراتيجية رابعة تستخدم تشكيلة كبيرة من أساليب وأدوات القياس والتحليل فالاستبيانات والاستبانات، وتحليل المضمون والتحليل العائلي، وغير ذلك من الأساليب لدراسة عملية الإبداع كما حدث في دراسة كاتب هذا المقال للعوامل المساهمة في عملية الإبداع في القصة القصيرة مثلًا أو في دراسة استجابات القراء^(١٠) أو غير ذلك من أبعاد الأدب والنشاط الأدبي.

أساليب للدراسة الموضوعية للأدب

هناك على كل حال أساليب علمية مناسبة يمكن الاعتماد عليها في دراستنا النفسية للأدب بطريقة موضوعية، نكتفي بذكر أسلوبيين منها فقط على سبيل المثال والتوضيح

أولاً: تحليل المضمون

الأسلوب الأكثر ذيوفاً في تحويل المضمون الأدبي إلى بيانات قابلة للملاحظة والقياس هو الأسلوب المسمى تحليل المضمون Content Analysis ويعرف «بيرلسون» B. Berelson هذا الأسلوب بأنه: أسلوب من أساليب البحث يستخدم من أجل الوصف الموضوعي المنظم والكمي للمضمون الاتصالي الصريح^(١).

ويشتمل هذا الأسلوب على خطوات عديدة منها:

١- أن يقوم الباحث بتحديد الهدف الذي سيقوم بإجراءات تحليل المضمون من أجله ومن ذلك مثلاً: كيف تعبر القصص الأدبية المنشورة في المجلات النسائية في فترة معينة عن صورة المرأة؟.

٢- تحديد أو تطوير بعض الفئات Categories التي ستقوم بتحليل مضمون الأعمال الأدبية وفقاً لها وتتوزع هذه الفئات أو الوحدات Units فتتألف في البساطة فتكون هي الكلمة المفردة، أو قد توغل في التركيب، فتصير الموضوع الرئيسي في العمل الأدبي، وبين البساطة والتركيب، نجد العديد من الفئات التي قد يستخدم محلل المضمون واحدة منها أو أكثر في عمله، فقد يستخدم البند Item (الفقرة، القصة، الكتاب، القصيدة... إلخ) أو الشخصية، أو الزمان، أو المكان، أو المساحة، أو القيم، أو السلطة، أو الأسلوب، أو السات، أو الهدف، أو المصدر، أو غير ذلك من الفئات. وتعتمد طبيعة الفئات بدرجة واضحة على الهدف من الدراسة، وعلى نوع المادة المستخدمة في التحليل.

٣- تدريب مجموعة من المحكمين على استخلاص هذه الفئات وتصنيفها من خلال إجراءات محددة، مما يسهل عمليات التواصل بين العلماء، ويجعل عمليات فهم المستقبلين لنتائج الدراسة أكثر سهولة، كما يجعل إمكانية قيام باحثين آخرين بتطبيق نفس الإجراءات والوصول إلى نفس النتائج — وهو ما يسمى بالقابلية لإعادة الإنتاج، وهو من الشروط الهامة في العلم — أمراً ممكناً.

٤- اختيار المواد التي سيتم تحليلها وهو ما يسمى عادة بعينة البحث، وقد تكون هذه العينة عملاً واحداً، وقد تكون نوعاً أدبياً واحداً، وقد تكون عدة أنواع أدبية تجري المقارنة بينها، وقد تكون أعمالاً لمؤلف واحد في فترات مختلفة من حياته، كأن أقارن بين الأعمال الأولى والأعمال الأخيرة لمؤلف معين، أو كأن أقارن بين أعمال بعض الكتاب قبل المرض وبعد المرض مثلاً، سواء كان هذا المرض جسدياً (كما في حالة «بدر شاكر السياب» أو «أمل دنقل» مثلاً) أو متعلقاً بالجهاز العصبي لكنه ليس مرضاً عقلياً (كما في حالة الروائي المصري الراحل عبدالحكيم قاسم مثلاً) أو اضطراباً عقلياً (كما في حالات نيتشه «وهولدرلين وفان جوخ» مثلاً). وقد يتم اختيار عينة الدراسة بالطريقة العشوائية Random وهي طريقة علمية مضبوطة وموضوعية ودقيقة، على عكس ما قد توحي بذلك الترجمة الحرةية للمصطلح، وقد تستخدم أية طريقة أخرى مناسبة في اختيار عينة البحث.

٥- يقوم المحكمون بفحص المواد الأدبية المختارة في ضوء الفئات المحددة سلفاً ثم يسجلون أحكامهم أو تقديراتهم المناسبة لها.

٦- توضع المادة التي استخلصها المحكمون في جدول وقد تتم معالجتها إحصائياً من خلال أساليب مناسبة (التحليل العاملي مثلاً)، أو قد يكفى بالتحليل الكيفي لنتائج التحليل، أو قد يجمع بين التحليل الكمي والتحليل الكيفي، وهو ما يعتبر، في رأينا، الطريقة المناسبة في تفسير النتائج التي يقدمها لنا تحليل المضمون.

بالطبع هناك إجراءات منهجية أخرى ينبغي وضعها في الاعتبار مثل محاولة تحقيق أكبر قدر من ثبات التحليل (أي إمكانية الوصول إلى نفس النتائج في أي وقت أقوم به بإعادة التحليل، أي إمكانية الاعتماد على النتائج، ودقتها، واتساقها، واستقرارها، وإمكانية التنبؤ منها)، وصدقه (أي أن يقيس التحليل ما وضع لقياسه) وغير ذلك من الشروط السيكمترية (أي الخاصة بالقياس النفسي) والتي تكفي هنا بالإشارة إليها، ويمكن للقارئ الراغب في المزيد من المعرفة الرجوع إلى أي كتاب مناسب في مجال القياس النفسي.

إن ما يجعل تحليل المضمون أداة قوية بشكل خاص، هو قابليته، من خلال إجراءات معينة، للتناول من خلال أجهزة الحاسوب، فالعديد من مجموعات برامج الحاسوب الجاهزة قد صممت من أجل تحليل محتوى الوسائل المختلفة. ويمكننا أن نجد تطبيقاً رائعاً لتحليل المضمون المبرمج ألياً - كما يشير «سيمونتن» - في كتاب «كولين مارتنديل» C. Martindale المتنون «التعاقب الرومانسي»، علم نفس التاريخ الأدبي الذي ظهر عام ١٩٧٥. وقد اختير «مارتنديل» فيه بعض التصورات النظرية الخاصة بالإبداع الشعري، من خلال تحليله لمحتوى قصائد خاصة بواحد وعشرين شاعراً إنجليزياً، وواحد وعشرين شاعراً فرنسياً، وحاول أن يكتشف الصلات بين بعض المتغيرات: مثل عمليات التفكير، والضغط المتواصل على الشعراء لأن يكونوا أصلاء دائماً، وبين التغيرات في المضمون الشعري، وإرتباط ذلك ببعض الظروف الاجتماعية عبر التاريخ^(٦٢).

كللك فإن أسلوب تحليل مسودات العمل الأدبي يندرج بشكل أو بآخر ضمن أسلوب تحليل المضمون، وقد قام «سويغ» في دراسته للشعر بتحليل مسودات بعض الشعراء، وقام «حنورة» في دراسته عن الرواية والمسرحية بتحليل بعض النصوص الأدبية المناسبة، وقام كاتب هذه الدراسة خلال دراسته لعملية الإبداع في القصة القصيرة بتحليل مسودة قصة قصيرة للكاتب «عبدالحكيم قاسم».

في محاولة منهم لتحريك المياه الراكة نسياً في حقل الدراسة النفسية الموضوعية للأدب، قام «لنداور» وتلاميذه، ومن خلال تحليل المضمون، بعدة دراسات تناولت موضوعات عديدة مثل: الخصائص القرائية للتعنوان في القصة القصيرة^(٦٣)، ومثل قياس الاستجابات العقلية والانفعالية لمشاهدي المسرح والأوبرا بعد مشاهدتهم لأعمال مسرحية وأوبرالية مختلفة، ومثل ارتباط الشعر بالقدرة القرائية والقصافية والخيالية للقارئ، ومثل اختلاف الشعراء عن غير الشعراء في علاقتهم بالكلمات ذات المعنى وغير ذات المعنى^(٦٤)، ومثل الاهتمام بذلك القارئ الخاص الذي أطلق عليه «لنداور» اسم الشخص الجمالي Aesthetic person والذي هو أعلى مرتبة من القارئ العادي وأقل مرتبة من المبدع، وهو الذي يمكن أن يصبح ناقداً أو مؤرخاً للأدب بعد ذلك^(٦٥).

عالم الفكر

ونعرض الآن ببعض التفصيل للدراستين قام بها «لندلور» وتلاميذه. وقد حاولت الدراسة الأولى منها الإجابة على السؤال التالي: هل يتغير أسلوب الكاتب في بداية حياته الأدبية وعبر مراحل هذه الحياة المختلفة، أي هل يكون الكاتب أكثر ميلا إلى استخدام الأساليب المركبة والصور الغامضة في بداية حياته أم العكس؟ هل يتحرك الكاتب عبر حياته من البساطة إلى التركيب أم من التركيب إلى البساطة؟ وما الفرق بين البساطة الأولى (مرحلة البدء في الكتابة) والبساطة الثانية (أعمال نهاية العمر)؟ وكذلك ما الحال بالنسبة للتركيب؟ في هذه الدراسة تمت المقارنة بين قصتين قصيرتين للكاتب الروسي «أنطون تشيخوف» كانت القصة الأولى هي «زهو متأخرة التفتح» Late Blooming Flowers وكانت القصة الثانية هي «المخطوبة» The Fiancée وقد درست هاتان القصتان من خلال أسلوب تحليل المضمون حيث تم اختيار فقرات عينات هي «كل عاشر فقرة من كل قصة» وتوفرت بناء على ذلك ثنائي عشرة مادة أدبية كي يتم تحليلها. واستخدمت في معالجة هذه المادة ما يسمى بمعادلة الانقرائية Readability Formula وقد نتج عن هذا الاستخدام مقياسان أحدهما هو ما يسمى بسهولة القراءة (RE) وهو يتعلق، مثلا، بمتوسط عدد الكلمات في كل جملة. أما المقياس الثاني فيتعلق بما يسمى بالاهتمام الإنساني (HI) أي متوسط عدد الضمائر المستخدمة مثل أنا وهو ونحن (في هذه المعادلة تستخدم الدرجة صفر كي تشير إلى الصعوبة الواضحة في سهولة الانقرائية وإلى القصور أو عدم الوضوح في الاهتمام أو الهم الإنساني، بينما تستخدم الدرجة ١٠٠ كي تشير إلى سهولة الانقرائية والاهتمام الإنساني الكبير والدرامي. وهناك بالطبع درجات متزايدة بين الصفر والمائة في ضوء المتغيرين السابقين).

وقد وجد القاصون بهذه الدراسة أن قصة «تشيخوف» الأولى كانت أكثر صعوبة في القراءة من قصته الأخيرة (بمتوسط سهولة قراءة مقداره ٦٩,٥٩ بالنسبة للقصة الأولى و ٨١,٩٥ للقصة الثانية). لكن، ورغم أن قصة «الزهو»... كانت أكثر صعوبة، فلما كانت أكثر انشغالا بالمعوم والاهتمامات الإنسانية، وأكثر إشارة للاهتمام من القصة الأخيرة (بمتوسط قدره ٦٤ و ٧٨ للقصة الأولى في مقابل متوسط قدره ٣٣, ٧٠ للقصة الثانية).

أما الدراسة الثانية التي قام بها «لندلور» وتلاميذه فحاولت الإجابة على السؤال التالي: هل يعتبر كتاب الأدب أكثر تعبيرا عن الإبداع من المبدعين في المجالات الأخرى؟ هنا تم فحص السير الذاتية لعدد من الكتاب والموسيقين والرسميين، ووقت المقارنة بين تعبيرات وأحداث كل منهم عن عملية الإبداع، وقد أجريت عمليات تحليل المضمون على ٥٠١ جملة تم استخراجها من ١١٥ سيرة ذاتية هؤلاء المبدعين، وتم الاهتمام في التحليل بالتركيز على فئات مثل مصادر الإبداع وعلاقته بالصعوبات التي يعاني منها المبدع، وغير ذلك من الفئات المتناسبة. والجدير بالذكر أن عدد السير الذاتية الخاصة بالكتاب والمضممة في الدراسة كانت أقل مقارنة بالمبدعين الآخرين (١٣ سيرة ذاتية للكتاب في مقابل ٣٠ بالنسبة للموسيقين و ٧٢ بالنسبة للمصورين) وربما كان هذا الانخفاض الواضح في السير الذاتية للكتاب راجعا كما يقول «لندلور» إلى أن الأعمال الأدبية كثيرا ما تكون بمثابة السير الذاتية لمبدعيها.

لكن الشيء الجدير بالذكر أيضا هو أن حديث الأدباء حول عملية الإبداع كان الأقل مقارنة بالمبدعين الآخرين (١١٩ جملة بالنسبة للكتاب في مقابل ٢٦٠ و ١٢٢ بالنسبة للموسيقين). ومع ذلك فلما عندما تم

تحويل هذه الدرجات الخام إلى متوسطات (حيث تمت قسمة عدد الجمل أو التعبيرات المعبرة عن الإبداع على عدد السير الذاتية) ظهر أن الكتاب قد تفوقوا على غيرهم في تعبيرهم عن الإبداع (بمتوسط قدره ١٥ و ٩ في مقابل ٦ و ٤ بالنسبة للموسيقين و ٦١ و ٣ بالنسبة للمصورين).

وهكذا كان الأدباء (في المتوسط) الأكثر حديثا من غيرهم من المبدعين حول عملية الإبداع، رغم قلة مكتبته هؤلاء الكتاب من سير ذاتية، أو من تعبيرات حول الإبداع، في السير الذاتية المكتوبة فعلا. وقد كان «هنري ميلر» هو أكثر الكتاب المساهمين في هذا الشأن ثم جاءت بعده «فرجينيا ولف» ثم «وردزورث» ثم «أمي لويل»، أما في التصوير فقد كان «نيكاسو» هو الأكثر حديثا. عن الإبداع وفي الموسيقى كان «كي بلانده»^(٦٦).

ثانيا : الدراسات السيرية (أو البيوجرافية)

ترجع بدايات هذا الأسلوب إلى «جالتون» في دراسته عن العباقرة التي نشرها في كتابه «العبقرية الروائية» عام ١٨٦٩، وقد امتد هذا الاهتمام حتى أيامنا هذه ولكن بأشكال ومناهج مختلفة، ولعل أبرز مثال عليه تلك الدراسات الحديثة التي قدمها «هوارد جريبر» H.Gruber و«سارا ديفيس» S. Davis و«والاس» D. wallace. حول مبدعين في مجالات مختلفة من الإبداع الإنساني ضمن ما يسمى بأسلوب «دراسة الحالة في مجال الإبداع»^(٦٧).

من الممكن أن يجتلب هذا الأسلوب اهتمام الباحثين في ميدان الدراسة النفسية للأدب لعدة أسباب منها:

- ١- أن السير غالبا ما تكون ذات شكل أدبي.
 - ٢- من بين أنماط السير المختلفة تعد السير التي يكتبها الأدباء أكثر أشكال السير جذبا للاهتمام.
 - ٣- تتوفر في هذا الأسلوب درجة واضحة من الثبات (كشروط سيكومتري) في التعامل مع المادة الأدبية المثيرة لدرجة أنه يمكن الاقتداء به وتطبيقه على الأشكال الأدبية أيضا، كأن يطبق على الرواية مثلا وليس على كاتبها، وعلى ما يسمى برواية السيرة مثلا.
 - ٤- أن التعبيرات الخاصة الموجودة في السير الذاتية للأدباء المبدعين حول مراحل عملية الإبداع مثلا هي مادة خصبة يمكن الاستفادة بها في القيام بالبحوث النفسية في هذا المجال وفي تفسير نتائجها أيضا.
- وهناك محاولات حديثة لإخضاع المادة السيرية لأساليب التحليل الإحصائي المتقدمة وللإستفادة من الإمكانيات الهائلة التي وفرتها الحاسوب أو الحاسب الآلي في معالجة مواد شديدة الضخامة، ومن ذلك مثلا ما قام به «سيمونتون» في إطار ما يسمى بالقياس بالتاريخي *Historimetry* ^(٦٨) لتحديد العوامل المؤدية إلى

٦٦ القياس التاريخي: ويقصد به هنا: تطبيق أساليب البحث العلمي المنسوبة على السجلات التاريخية وعلى السجلات الخاصة بالسير الذاتية من أجل اكتشاف العوامل النفسية والظروف الاجتماعية التي أدت إلى أن يقوم بعض المبدعين والفنانين بممارسة تأثيرهم البارز الكبير على التاريخ، تاريخ الأفكار أو تاريخ الشعوب وأول من استخدم هذا المصطلح هو «لورغ فرديريك» عام ١٩١١ كي يشير به إلى تلك الفئة من البحوث التي يتم فيها إخضاع حقائق التاريخ للمعالجة الإحصائية في ضوء بعض أساليب القياس الموضوعية.

زيادة أو نقص الإنتاجية الإبداعية لدى الأدباء والمؤلفين والموسيقين والفلاسفة والعلماء. وقد درس «سيموتون» السجلات الخاصة بالآلاف المبدعين هؤلاء والتي تمتد فيها بين عام ٧٠٠ قبل الميلاد وحتى عام ١٩٠٠ ميلادية وهي سجلات قد تم تخزينها في الحاسوب، كما ذكرنا، على هيئة موسوعات وقواميس وسير ذاتية (كتابات تاريخية وما شابه ذلك)، وقام «سيموتون» بحساب الارتباطات بين الإنتاجية الإبداعية وبين العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتاريخية المرتبطة بها. ومن بين النتائج التي وجدها «سيموتون» بالنسبة للأدباء أن الشعراء المبدعين غزيري الإنتاج، والروائيين المبدعين غزيري الإنتاج، غالباً ما يتعاصرون مع بعضهم البعض، كما أنه لاحظ أيضاً أن الإبداع الأدبي يزدهر إبان حالات الازدهار الفلسفي والعلمي والموسيقي لكن ازدهاره يجبو عندما تزهو فنون النحت والتصوير والعمارة. وقد حاول «سيموتون» تفسير هذا التفاوت في الازدهار من خلال فحصه لطبيعة القَوَامِل المشتركة والمختلفة بين الأدب والموسيقى والفلسفة والعلم، من ناحية، وبين الأدب والفن التشكيلي والعمارة، من ناحية أخرى، لكن تفسيراته هنا كانت شديدة العمومية، فمثلاً من النتائج التي توصل إليها «سيموتون» أن حالات عدم الاستقرار السياسي لا تؤثر على الإنتاجية الإبداعية الأدبية في الجليل المعاصر لهذه الاضطرابات السياسية (والجليل عنده مدهاء عشرون عاماً) لكنها تؤثر أكثر على الجليل التالي لهذه الاضطرابات، وذلك لأنه يكون قد تربي وترعرع في ظل حالات عدم اليقين هذه. وأن هذا التأثير يكون سلبياً (٦٨).

دراسة عملية الإبداع

تعتبر الدراسات النفسية التي أجريت في مصر حول عملية الإبداع في الشعر وفي الرواية وفي المسرحية وفي القصة القصيرة بمثابة المشروع البحثي المبني على أساس التراكم والتكامل للإلام بمعظم جوانب ظاهرة الإبداع الأدبي. ونعرض باختصار شديد لهذه الدراسات هنا، حيث إنها الآن منشورة ومتاحة أمام القارئ العربي.

أولاً: الإبداع الشعري

في دراسته الرائدة حول «الأسس النفسية للإبداع في الشعر خاصة» كان تأثر «سويف» واضحا بالمنحى الجشططي في علم النفس وخاصة من منظور «كيرت ليفين» K. Lewin «وشولسه» وأصحاب نظرية المجال. وقد استخدم «سويف» في دراسته هذه أدوات منهجية هي تحليل المضمون والاستبصار (أو الاستخبار) والاستبصار (أو المقابلة) وتحليل المسودات وتكونت عينة الدراسة من سبعة من الشعراء من مصر وبلاد عربية أخرى وكانت أهم النتائج التي توصل إليها:

- ١- أن العملية الإبداعية في الشعر لها جنورها الممتدة بدرجة كبيرة في حياة الشاعر الماضية.
- ٢- عندما يواجه الشاعر خبرة حية جليدة، فإن عقله يبدأ في المزج بين الخبرات الماضية والخبرات الجليدة.
- ٣- أن هذا المزج قد يكون غير كامل، ومن ثم يحدث تسارع وارتفاع في التوتر وفقدان للاتزان النفسي.
- ٤- أن العملية الإبداعية هي محاولة الشاعر الخاصة لتجاوز أو عبور التوتر واستعادة التوازن المفقود.

عالم الفكر

٥- أحد الملامح الخاصة المميزة للعملية الإبداعية في الشعر هي «الحاجة إلى النحن» التي تحاول الأنا المبدعة الوصول إليها أو تحقيقها.

٦- تلعب الخصائص الفراسية دورها الكبير في اختيار الشاعر للكلمات والصور والموضوعات الرئيسية في قصائده.

٧- القصيدة الإبداعية هي ناتج المحاولات الإبداعية من قبل الشاعر لتنظيم خبراته الإبداعية داخل إطار إبداعي.

٨- لا يتقدم الشاعر خلال إبداعه للقصيدة من بيت إلى بيت، ولكنه يتقدم من مجموعة من الأبيات إلى مجموعة أخرى، ويكون هذا عكسا من خلال وثبات إبداعية. وهكذا فإن القصيدة لا تتكون من أبيات ولكن من وثبات. والكل سابق على الجزء في الإبداع الشعري.

٩- وأخيرا، فإن العملية الإبداعية في الشعر لا تشبه اللعب الحر ولا التهويم أو أحلام اليقظة الطليقة، وذلك لأنها تحدث غالبا ضمن حدود خاصة بالأطر الفنية والثقافية واللغوية والاجتماعية (٦٩).

وما زالت هذه الدراسة منذ طبعها الأولى في أوائل الخمسينات تؤثر على مجالات علم النفس والأدب والنقد الأدبي والفن في مصر والوطن العربي بدرجة واضحة.

الإبداع الروائي والمسرحي

في عام ١٩٧٩ نشر «حنورة» كتابه حول «الأسس النفسية للإبداع الأدبي في الرواية» والذي كان عبارة عن رسائله للماجستير التي أنجزها تحت إشراف «مصطفى مسويف» وقد استخدم في دراسته هذه الاستبيان، والامتناع، وتحليل المضمون، وتحليل المسودات، وهي نفس الأدوات التي استخدمها «مسويف» في دراسته، لكن عينة «حنورة» كانت أكبر نسبيا فقد تكونت من ٢٤ كاتباً من المشاهير (نجيب محفوظ مثلاً) و١٢ كاتباً من غير المشاهير. وقد اشتملت دراسة «حنورة» هذه على تحليلات عديدة لمسودات كتاب عرب وأجانب. فمثلاً قام هذا الباحث بتحليل كتابات ومسودات «توماس وولف» و«هنري جيمس»، وقام أيضاً - كما سبقنا الإشارة - بتحليل كتاب كامل حول إبداع «توماس مان» لروايته «دكتور فاوستوس». ويمكننا أن نلخص أهم النتائج التي توصل إليها «حنورة» فيما يلي:

(١) أن العملية الإبداعية في الرواية تتكون من مرحلتين كبيرتين هما: الإعداد والتنفيذ.

(٢) تشتمل مرحلة الإعداد على:

أ- الاهتمامات المبكرة بالأدب.

ب- عادات الكتابة.

ج- تجميع البيانات وتسجيل الملاحظات.

د- مواصلة العمل الذي هو توجه إبداعي يعتمد على الإدراك والذاكرة والخيال.

١- اختيار الفكرة أو تبلورها .

(٣) تشتمل مرحلة التنفيذ على :

أ- جلسات الكتابة .

ب- التخطيط للكتابة .

ج- التركيز الإبداعي .

(٤) لا يعتبر عامل مرواصلة الأجزاء عاملاً آحادياً البعد، بل هو عامل متعدد الأبعاد، فهو يشتمل على عوامل إدراكية وخيالية وتقسيمية وانفعالية ومزاجية وإيقاعية وجسمية .

(٥) لا يتم إنجاز الإبداع الروائي من خلال مراحل منفصلة كما كان «الأمس» يقول، ولكن من خلال مراحل متفاعلة على نحو مستمر .

(٦) يكون «الكل» سابقاً على الأجزاء خلال كتابة الرواية، وهو ما توصل إليه «سويف» أيضاً، ومن ثم تم التأكيد لبعض القروض الجشططية .

(٧) يلعب المجتمع دوراً حاسماً قبل وأثناء وبعد العملية الإبداعية (٧٠) .

في عام ١٩٨٠ نشر «حنورة» دراسته الثانية حول الإبداع في المسرح ومن خلال أدوات مماثلة وعينات مقارنة، وتوصل إلى نفس النتائج تقريباً مع توسيع أكبر لحدود التفسيرات النظرية التي قدمها . فقد أكد في هذه الدراسة أن الكاتب المبدع ينجز مسرحياته المتميزة من خلال «أساس نفسي فعال» يتكون من أبعاد جمالية ومعرفية وانفعالية واجتماعية وهي فكرة طورها «حنورة» في عديد من دراساته بعد ذلك (٧١) .

الإبداع في القصة القصيرة

قام كاتب الدراسة الحالية بإنجاز رسالته للماجستير عام ١٩٨٠م تحت إشراف «مصطفى سويف» أيضاً وكان عنوانها «العملية الإبداعية في القصة القصيرة» . وقد نشرت بعد اثني عشر عاماً تحت عنوان «الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة خاصة» بعد إدخال تعديلات كثيرة عليها لم تمس الجوهر، وقد تمت الاستفادة من هذه الدراسة من دراسات «سويف» و«حنورة» على نحو واضح . وتكونت عينة الدراسة من خمسين كاتباً وكتابة للقصة القصيرة من مصر خاصة، وكانت أداة البحث الرئيسية عبارة عن استبيان مكون من ٤٥٠ بنداً تتناول الجوانب المختلفة لعملية الإبداع في القصة القصيرة (إضافة إلى استخدام أدوات أخرى مثل تحليل المضمون والاستتار) .

وقد اقترح كاتب هذه الدراسة أن عملية الإبداع في القصة القصيرة تشتمل على ست عشرة عملية فرعية هي على التوالي : تكوين الإطار - العمليات الإدراكية - أدوات الكتابة - التركيز - الدوران حول العقبات والأفكار والصور الغامضة - حالات النطق والتعب العقلي - الاسترخاء - الاكتشاف المفاجيء للأفكار - العمليات التنظيمية - التنفيذ - التقويم - التعديل - حالة السيطرة على العمل - العمليات اللاإرادية - العمليات الاجتماعية .

واستخدم الباحث أيضاً أسلوب التحليل العمالي بطريقة المكونات الرئيسية «مونتليج» (وهو إجراء نادر الاستخدام في دراسة العملية الإبداعية في الأدب) وكشف له هذا التحليل عن أن العملية الإبداعية في القصة القصيرة تشتمل على ثلاثة أبعاد أو عوامل رئيسية هي: التنظيم الإبداعي للمدركات، عامل التركيز، ثم العامل الاجتماعي. ورغم أن التحليل العمالي قد تم على عينة صغيرة نسبياً (٥٠ كتاباً) مما قد يحد من فرصة التعميم لهذه النتائج، فإنه قد ألقى أضواء عديدة على طبيعة البنية الخاصة بعملية الإبداع في القصة القصيرة^(٧٢).

الجدير بالذكر أن هذه الدراسات حول العملية الإبداعية في الأدب رغم قلتها، وتبايعها الزمني، كانت تنطلق أساساً من توجهات موضوعية إمبيريقية في مناخ سادته التحليل النفسي بدرجة كبيرة، فقد تم التأكيد على أهمية الدراسة الموضوعية للأدب وللأديب، وفي إطار تكاملي أكثر شمولاً وعمقاً، يضع في اعتباره الأبعاد المختلفة المتضاعلة في ظاهرة من أشد ظواهر السلوك الإنساني تعقيداً، وهي ظاهرة الإبداع الفني. وخلال ذلك تم التأكيد على أهمية البعد المنهجي من حيث اختيار الأدوات الدقيقة وتطبيقها على عينات كبيرة نسبياً، واستخدام الوسائل المناسبة في حساب صدق وثبات وموضوعية الأدوات. ثم استخدام الطرائق الإحصائية الدقيقة والمبسطة لتحليل وضبط وتعميم النتائج، وذلك في دراسة ظاهرة هرب «فرويد» من دراستها بشكل مباشر، واعتبرها «يونج» أشد ظواهر السلوك الإنساني مرلوغة وهروباً من محاولة الإنسان فهمها أو الإمساك الكلي بها^(٧٣).

علم النفس والتذوق للأدب

تحدث هنا عن بعض الموضوعات التي اجتذبت اهتمام علماء النفس المهتمين بالأدب ومنها:

أولاً: التذوق والتفضيل

يشير الناقد الكندي «نورثروب فراي N. Frye» إلى أن الدلالات الفنية لمصطلح الذوق أو التذوق Taste بدأت في الظهور في إنجلترا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ففي تلك الأثناء ذكر «أديسون» أن معظم اللغات تستخدم هذه الاستعارة الخاصة بالتذوق من مجال الأطعمة والمشروبات إلى مجال السلوك الفني، وذلك من أجل التعبير عن ملكة العقل التي تقوم بتمييز كل الأخطاء البادية، وكل مظاهر الاكتحال المرهقة في عملية الكتابة. وقد عرف «أديسون» هذه الملكة بأنها «ملكة الروح التي تنبته إلى مظاهر الجمال لدى أحد المؤلفين، وتستجيب لها من خلال السرور، وتنبيهه أيضاً إلى مظاهر عدم الاكتحال لديه، وتستجيب لها من خلال الكراهية أو عدم التفضيل». واعتقد «أديسون» أن الذوق - رغم أنه فطري في جانب منه، فإنه قابل أيضاً للتنقيح والتهديب، من خلال القراءة والحوار والإطلاع على كتابات أفضل نقاد الماضي والحاضر^(٧٤).

في كشف اصطلاحات الفنون «لكتهانوي» يعرف التذوق بأنه «قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسن الخفية»^(٧٥).

كذلك فإننا نجد شاعراً ونقاداً معاصراً مشهوراً وهو «ت. س. إليوت» يقول بأن هدف النقد هو «توضيح الأعمال الفنية وتقييمها، وأيضاً تصحيح عملية التذوق»^(٧٦).

بشكل عام تركز الدراسات النفسية للأدب على أمور قريبة من التعريفات السابقة، مع توسيع مدى

عالم الفكر

الاهتمام ليتناسب مع طبيعة مجال الدراسة النفسية. فهي تركز مثلا على الخبرة النفسية التي يمر بها المتدوق عند استغراقه في تأمل عمل فني، وأيضا على سمات الشخصية المرتبطة بعملية التفضيل الفني، وعلى الفروق أو التشابهات بين الثقافات والحضارات المختلفة في عمليات التذوق الفني^(٧٧).

نظر بعض علماء النفس العرب إلى عملية التذوق الفني على أنه الوجه الآخر لعملية الإبداع، ومن ثم فإن قوانين الإبداع ومراحله يمكن أن تكون أيضا هي قوانين عملية التذوق ومراحلها. ولعل أبرز التصورات على هذه الوجهة من النظر ما قدمه «سويف» من رؤية خاصة فحولها أن القانون الأساسي لعملية التذوق يتفق مع القانون الخاص لعملية الإدراك، فالإدراك يبدأ إجماليا ثم ينتقل إلى التفاصيل ليرتد بعد ذلك إلى إدراك الكل إدراكا يتسم بالوضوح والثراء. ويتفق هذا التصور مع تصور «سويف» الخاص بعملية الإبداع، وهو التصور الذي يشير إلى أن القصيدة (أو اللوحة) تبدأ في نفس الشاعر (أو الفنان) ككل سديمي غامض قبل أن تفتح عن أجزائها من خلال جهود المبدع التعبيرية^(٧٨).

يقرر «سويف» أنه توجد لحظات لا يمكن إغفالها خلال تشريح خبرة التذوق الفني، وربما كان أوضحها في السذهن فترة التهوي النفسي، بكل ما فيها من جوانب وجدانية ودينامية وعقلية. ثم هناك أيضا الإطار الثقافي للمتذوق والاستعدادات الشائعة لديه لإصدار أحكام تقويمية على الأعمال الفنية. كذلك فإن خبرة التذوق، في ضوء هذا التصور لا تنتهي بانتهاء الاطلاع على العمل الفني أو مشاهدته، بل تمتد فترة من الزمن بعد ذلك قد تطول وقد تقصر تبعا لموامل متعددة. أيضا يؤكد «سويف» أهمية وجود حالة من الترجه العام بتأثير المنه الفني، وهي تلك الحالة التي تشتمل على القيم الإيقاعية والصوتية وبعض الصور، وكذلك وجود حالة من الشعور بالتوقع والاستباق لنتيجة معينة، أو أثر معين خلال تلقي العمل الفني، وهو أمر شيه بما يسميه علماء الجشططت «الميل إلى الإغلاق»، أي الميل إلى إكمال العمل أو إكمال عملية التلقي له لأن وجود ثغرات أو نقص أو مناطق مجهولة أو غير مكتملة في هذه الخبرة يؤدي إلى الترتز والضيق والقلق. كذلك هناك تأكيد، في ضوء هذا التصور للمناسك، لأهمية عوامل أخرى مثل التفضيل أو القدرة على تحديد التفاصيل التي تساهم في تنمية فكرة معينة، واستمرار الربط بين هذه التفاصيل، وبين الفكرة الأصلية، وأيضا أهمية عامل المرونة التكنية، أي قدرة الشخص على تغيير الزاوية الذهنية التي ينظر منها هذا الشخص إلى حل مشكلة معينة^(٧٩).

كما سبقت، الإشارة، فإن هذا التصور الخاص لعملية التذوق تصور وثيق الصلة إلى حد بعيد بتصوير «سويف» الخاص لعملية الإبداع الذي هو بدوره تصور وثيق الصلة بالتصور الخاص لنظرية الجشططت لعملية الإدراك، وهو تصور يتسم بالخصوية ومازال يحتاج إلى الجهود التجريبية المناسبة للتحقق منه.

في عام ١٩٨٥ قدم «حنورة» نموذجا تحليليا تشريحيًا، يمكننا أن نعتبره نموذجا ثانيا، في مقابل نموذج «سويف» الوظيفي الدينامي لعملية التذوق. وفي ضوء هذا النموذج أشار «حنورة» إلى أن عملية التذوق تشتمل أيضا على أربعة أوجه أو (أبعاد أو مكونات) هي:

١- الوجه العقلي المعرفي: والذي يتمثل في البطانة المعرفية والاستدلالية الواعية القادرة على الفهم والمقارنة.

عالم الفكر

٢- الوجه الجمالي: وهو الجانب التقويقي التفضيلي التشكيلي الذي يجب أو لا يجب، يميل أو لا يميل، يفضل أو لا يفضل هذا العمل أو ذلك.

٣- الوجه الاجتماعي الثقافي: الذي يمثل البطالة الثقافية التي تمرد الفرد بمعايير وقواعد لتقبل أو رفض العمل.

٤- الوجه الوجداني: الذي يعبر عن درجة الرضا والميل إلى الانفعال بالعمل الفني.

وكما هو ملاحظ فإن هناك تداخلا ضروريا بين هذه الأبعاد الأربعة لعملية التذوق بدرجة واضحة، بل إنه يصعب الفصل أو التمييز بين بعضها، بحيث إنها تكاد تكون درجات مختلفة من نفس البعد، فمثلا ما الذي يميز بين النقد الثاني الجمالي التفضيلي (الذي يميل أو لا يميل، يفضل أو لا يفضل هذا العمل أو ذلك) وبين البعد أو الوجه الوجداني (الذي يعبر عن درجة الرضا والميل إلى الانفعال بالعمل الفني)؟ يبدو أن الفارق بينهما هو فارق في الدرجة لا في النوع، فالبعد الثاني يرتبط بوجود درجة أكبر من الخبرة أو الثقافة بيننا والبعد الرابع أكثر قربا من حالة الانفعال التلقائي والاستجابة العفوية للعمل الفني.

على كل حال، فإن الجوانب السابقة تتفاعل معا، تشكل ما أسماه «حنورة» «بالأساس النفسي الفعال» في خبرة التذوق الفني، والمائل في طبيعته أيضا للأساس النفسي الفعال أو التوجه الإبداعي العام في عملية الإبداع ذاتها، وهنا يشترك «حنورة» مع «سويف»، في تصوره لعملية التذوق على أنها عاتلة في جوهرها لعملية الإبداع، لكنه يقرر أيضا ضرورة وجود حالة من التوازن الخاص بين المكونات الأربعة للأساس النفسي الفعال في عملية التذوق «لكي يتمكن الإنسان المتذوق من تلقي الموضوع بحالة من الهدوء والاستقرار والكفاءة، وهو ما ينعكس في النهاية على نوع الحكم التفضيلي الذي يصدره، وينعكس أيضا في نفس الوقت، على الخبرة الشعورية التي تحقق له قدرا من التذوق»^(٨٠).

الجدير بالذكر أن جهود «حنورة» - وهو أول تلاميذ «سويف» في مجال دراسة الإبداع والتذوق الفني والأدبي - قد تضمنت خطوة هامة إلى الأمام في اتجاه الدراسة التجريبية لعملية التذوق الفني، فقد اشتملت كتاباته على مجموعة من الدراسات الهامة حول التذوق الفني عند الأطفال وأيضا الجوانب الجمالية في الرسالة الإعلامية وغير ذلك من الأبعاد^(٨١).

علينا أن نلاحظ أن هناك مصطلحا آخر كان يرد بشكل عابر أو مقصود، مباشر أو غير مباشر، في دراسات «سويف» و«حنورة»، لكنه كان يحتل مركز الاهتمام في دراسات عديد من الباحثين في مناطق مختلفة من العالم. هذا المصطلح هو التفضيل الجمالي Aesthetic preference وهو مصطلح يشيع في إطار ما يسمى بالجماليات التجريبية. وقد عرفه «سميتز» Smetz بأنه «تعبير لفظي أو سلوكي عن المعلومات التي يشتمل عليها الرمز أو العمل الفني»^(٨٢) وقال عنه «أبو حطب» بأنه «نوع من الاتجاه الجمالي الذي يتمثل في نزعة سلوكية عامة لدى المرء تجعله يحب (أو يقبل على أو ينجذب نحو) فئة معينة من أعمال الفن دون غيرها. ومعنى ذلك أن التفضيل الجمالي يتعلق بالآثر الذي تحدثه الأعمال الفنية في أبسط مظاهره. أي في صورة القبول والرفض، أو الحب والنفور»^(٨٣).

على كل حال، فإن الاتجاه الذي يسمى «الجماليات التجريبية» يرتبط بدرجة واضحة - بالبيانات العلمية الحقيقية لعلم النفس الحديث. بل إن بعض العلماء يميل إلى اعتبار عام ١٨٦٠ البداية الحقيقية لعلم النفس التجريبي الحديث (٥)، فقد ظهر في ذلك العام كتاب عالم الفيزياء والفيلسوف عالم النفس الألماني الشهير «جوستاف فخنر» J. Fechner المسمى «عناصر السيكوفيزيكا» elements of psychophysics (٨٤).

ويعد «فخنر» - كما يشير «برلين» Bertine من الرواد المبكرين لعلم النفس التجريبي، كما هو الحال بالنسبة «لفيهر» و«جالتون» و«فونت»، وهؤلاء هم الرواد الأوائل الذين حاولوا الإجابة على القضايا والمشكلات النفسية من خلال الأساليب الإمبريقية للموضوعية المنظمة، وقد كانت الظواهر الجمالية من بين أكثر الظواهر النفسية تركيزاً، وقد كان التركيب (أو التعقيد) هو الاعتدال المعتاد الذي استخدمه علماء النفس، أو طرحوه، عندما لم يكن لديهم الكثير كي يقولونه حول هذه الظواهر. ورغم ذلك فقد كانت الظواهر الجمالية فعلاً من أوائل الظواهر التي اهتم بها علماء النفس ووضعوها في اعتبارهم، بشكل مباشر أو غير مباشر، وقد كان «فخنر» من بين هؤلاء هو المؤسس لما سمي «الجماليات التجريبية»، فهو أول من قام بدراسات ينطبق عليها هذا المصطلح حين قام عام ١٨٧١ بدراسات على استجابات بعض الأفراد حين عرض عليهم أعمالاً فنية معينة وطلب منهم المقارنة والاختيار والتفضيل بينها، وذلك في متحف ملينة درسدن. ورغم أن هذه التجربة لم تحقق كل أهدافها، حيث لم يستجب إلا عدد قليل من زوار المتحف لطلبات «فخنر»، فإن الأساليب التي استخدمها «فخنر» في دراساته المبكرة تلك كانت لها أهميتها الفارقة، وذلك لأنها فتحت الطريق وقدمت النموذج لما يمكن أن تكون عليه الدراسات في مجال سادته التأملات والمخاوف والتفlections (٨٥).

في عام ١٨٧٦ نشر «فخنر» كتابه «عناصر الجماليات» Elements of Aesthetics وقد كان كتاباً نظرياً في المقام الأول، لكنه اشتمل أيضاً على تقارير حول عدد من التجارب التي قام بها «فخنر» في ظل ظروف تجريبية أكثر ضبطاً مما كان عليه الحال في تجربة متحف درسدن. وقد حدد «فخنر» في هذا الكتاب الخصائص المميزة لدراسة الجماليات التجريبية التي يتبناها على أنها تبدأ «من أدنى» أو «من أسفل» From Below قاصداً بذلك أنها دراسات تبدأ من الحقائق الخاصة والنوعية ثم تستمر من خلالها حتى تصل إلى العموميات، وذلك في مقابل الدراسات الجمالية التي تبدأ من أعلى From Above أي الدراسات التي تبدأ من الأفكار والمفاهيم الأكثر عمومية، وتستمر في طريقها حتى تصل إلى الخاص والنوعي، وكما تمثل تلك الدراسات الفلسفية التقليدية حول الجماليات (٨٦).

لم يتيح لهذه البدايات المبكرة الواحدة لدى «فخنر» أن تستمر حيث سادت مجال الدراسات النفسية نظريات متعارضة ومتضاربة بعضها يؤكد النزعة التجريبية الخارجية مع الاهتمام بالضبط الكمي (السلوكية الكلاسيكية لدى «واطسون» مثلاً)، وبعضها يؤكد أهمية الاتجاه الكلي التكاملي الذي يؤكد على الدناخل والخارج، وإن كان أقل اهتماماً بالتكسيم أو الأرقام (نظرية الجشطالت مثلاً)، بينما أوغل البعض الثالث في الاهتمام بالجوانب اللاشعورية والمرضية المؤثرة على السلوك الإنساني (التحليل النفسي مثلاً)، واحتاج الأمر إلى فترة طويلة تكاد تقترب من القرن حتى يعود الاهتمام بالجماليات التجريبية مرة أخرى على يد عالم اتسم عمله بالحماس وغزارة

(٥) هذا رغم وجود ما يشبه الإجماع على اعتبار عام ١٨٧٩، البداية الحقيقية لهذا العلم حيث تم تأسيس أول معمل في تاريخ علم النفس على يد «فونت» في لايبزيغ بألمانيا.

الإنتاج، ألا وهو «برلين»، ذلك الذي تطور لاهتمامه بالمكر بالفضول أو حب الاستطلاع Curiosity لدى الحيوان إلى الاهتمام بجعل السلوك الفني والجمالي لدى الإنسان، وقد كان توجهه مزيجاً من الدراسات النفسية والدراسات البيولوجية، ومن خلال إثارته، أو بالأحرى بعثه، للاهتمام بهذه الموضوعات طرح علماء النفس للمعرفين الارتقائيون وغيرهم مجموعة كبيرة من النماذج النظرية، ومن الأساليب المنهجية، من أجل استكشاف جذور وأصول عمليات ارتقاء القدرات والعمليات الجمالية، وطبيعة تكوينها ونشاطها، والعوامل المتضمنة فيها، بل وفي عملية الإبداع الفني ذاتها (٨٧).

ثانياً: فرض التوسط بين البساطة والتركيب

أشار «برلين» إلى أننا نتجلب ونستمر في اهتمامنا بالمشترقات والأعمال الفنية التي تمتلك قدراً معيناً من الجدة Novelty والتركيب Complexity والتباين Heterogeneity أو التباين والإدهاش أو المباغنة Surprisingness والغموض Ambiguity وغير ذلك من الخصائص المميزة للمثير الجمالي. فمثل هذه المثيرات تقدم مصادر جديدة مرتفعة من التنبيه للجهاز العصبي، ومن ثم تحقق تلك الحاجة البيولوجية الموجودة لدى الكائنات الحية التي تجعلها تقوم بالاستكشاف لإشباع الفضول المعرفي الخاص بها. وعلى سبيل المثال فنحن لا نفضل المثيرات شديدة البساطة، لأنها تكون شديدة الإثارة للمحلل، وتحلّو من القدرة على استشارة الاهتمام، وأيضاً لا نفضل المثيرات شديدة التركيب والغموض والتباين... إلخ، وذلك لأنها تكون مسببة للارتباك والإحساس بالغموض والاضطراب، ولا تحقق الاستجابة المناسبة، ونفضل، بدلاً من ذلك، تلك المثيرات أو الأعمال الفنية، التي تشمل على درجة متوسطة ومعتدلة من التركيب، فالأمر المثالي بالنسبة لأي عمل فني هو أن يقع فيما بين هاتين النقطتين، أي فيما بين البساطة والتركيب (٨٨).

لكن هذه الصورة الخاصة بالعلاقة بين التفضيل والتركيب تتعقد إلى حد ما عندما يتم إدخال نمط المادة المستخدمة في حساب هذه العلاقة، في الاعتبار، كأن تكون هذه المادة، مثلاً مألوفة أو غير مألوفة، كما أن المستوى الأمثل للتفضيل الجمالي سوف يتغير، صعوداً أو هبوطاً، اعتماداً على خبرة الملقى وخلفيته الثقافية (٨٩).

رغم هذه التحفظات فإن بعض الدراسات في مجال التذوق أو الاستجابة للأعمال الأدبية قد أكدت فرض التوسط لدى «برلين» إلى حد كبير. من ذلك مثل ما وجدته كامان Kamman عام ١٩٦٧ من أن تفضيل القراء للشعر المتسم بدرجة متوسطة من التركيب يفوق تفضيلهم للشعر المتسم بدرجة عالية أو بدرجة منخفضة من التركيب، ورغم أنه أجرى دراسته على نوع واحد من المادة الأدبية، فإن نتائجه تتسم بالأهمية، وذلك لأنها اتفقت مع نتائج أخرى مماثلة في مجال الفن التشكيلي، ومن ثم فإنها أكدت أيضاً فرض التوسط أو الاعتدال كما عبرت عنه دراسات «برلين» (٩٠).

قام كاتب الدراسات الحالية وزميلان له بدراستين تتدرجان ضمن هذا السياق (٩١): كانت إحداهما حول الفروق بين الذكور والإناث في التفضيل الجمالي لبعض الأعمال الأدبية، وكانت الأخرى حول علاقة هذا التفضيل الجمالي ببعض سمات الشخصية. وقد استخدمت في الدراسة الأولى بعض الأعمال الأدبية

الشعرية والقصصية العربية التي تم تصنيف بعضها على أنها قصائد أو قصص مركبة، وتم تصنيف بعضها الآخر على أنها قصص أو قصائد بسيطة. وقد تم هذا التصنيف في ضوء بعض الأحكام التي قدمها بعض نقاد الأدب ذوي الخبرة الكبيرة في هذا المجال. ثم قدمت هذه الأعمال الإبداعية لعينة من طلاب كلية الآداب جامعة القاهرة ومن أقسام مختلفة، وطلب منهم التعبير عن استجاباتهم المختلفة من خلال استبيان صغير الحجم لهذا الغرض، وقد كشفت النتائج عن وجود فروق واضحة بين الذكور والإناث في عمليات التفضيل الجمالي للمواد الأدبية التي عرضت عليهم، ففي حين فضل الذكور القصيدة البسيطة، فضلت الإناث القصيدة المركبة، وفي حين فضل الذكور القصة المركبة فضلت الإناث القصة البسيطة، وتبدو هذه النتائج متناقضة ظاهرياً وذلك لأنه يفترض أن الميل للتفضيل هو ميل عام يظهره الفرد تجاه كل الموضوعات التي يتعرض لها، فمن فضل القصيدة البسيطة كان من المفترض أن يفضل القصة البسيطة والعكس بالعكس، فبا تفسير هذا التناقض الظاهري؟

لعلنا نجد حل هذا التناقض في دراسة قام بها «سوف» و«أيزنك» على عينات من الطلاب المصريين والبريطانيين الدارسين وغير الدارسين للفنون وباستخدام مجموعة من الأشكال الهندسية وشبه الهندسية البسيطة والمركبة، فقد فضل الطلاب المصريون الدارسون للفنون الأنماط المركبة من الأشكال بينما فضل الطلاب غير الدارسين للفنون الأنماط البسيطة، وفضل الطلاب البريطانيون الدارسون للفنون الأنماط البسيطة من الأشكال، بينما فضل الطلاب البريطانيون غير الدارسين للفنون الأنماط المركبة من هذه الأشكال، واستخلص الباحثان أن مصطلحي بسيط ومركب ليسا أحاديي البعد كما يفترض غالباً^(٩٢). كذلك يمكننا افتراض أن تأثير عوامل مثل اختلاف الخبرة، والفروق بين الجنسين، والفروق بين الثقافات، يمكن أن تلعب دورها في هذا السياق أيضاً. وكثير من النقد الذاتي للدراسة السابقة لاحظ كاتب هذه الدراسة وزميله أنه كان يجب أن توضع الأعمال التي تتسم بدرجة منخفضة من البساطة، أو التركيب، ضمن الأعمال الأدبية التي استخدمت في دراستهم هذه، فالأعمال الأدبية التي استخدم لفظ «بسيطة» للإشارة إليها كانت في الواقع أعمالاً تتسم بدرجة متوسطة من التركيب، فقد كانت أعمالاً أدبية متميزة - ليست سطحية ولا مبتذلة - وقد وصفها النقاد والمحكمون بأنها بسيطة في مقابل الأعمال المتميزة الأخرى التي وصفوها بأنها مركبة، وكثير من النقد الذاتي، أشار كاتب هذه الدراسة وزميله إلى أنه رغم ما حدث من تأكيد معين لفرض التوسط لدى «برلين» إلا أنه كان ينبغي أن تتضمن الدراسة بعض الأعمال التي تتسم بالبساطة أو السهولة الواضحة، وتشتمل على أقل درجة من الغموض والتركيب والإدهاش، وغير ذلك من العوامل التي حددها «برلين» والتي ذكرناها آنفاً.

في الدراسة الثانية قام كاتب هذا المقال وزميله بمحاولة الكشف عن العلاقة بين التفضيل الجمالي لبعض القصائد والقصص العربية الحديثة، البسيطة والمركبة، وبين بعض سمات الشخصية: مثل الانبساط والعصابية والتصلب والثور من الغموض. وبعد عمليات التطبيق، وإجراءات الحسابات الإحصائية المناسبة، تبين عدم وجود ارتباطات مستقيمة بين التفضيل الجمالي للأعمال الأدبية البسيطة أو المركبة، وبين سمات العصابية والانبساط والتصلب والثور من الغموض، سواء لدى الذكور أو لدى الإناث، وأن العلاقات الارتباطية التي ظهرت بين التفضيل الجمالي للأعمال الأدبية البسيطة،

وبين العصبية والتصلب (خاصة لدى الذكور) من ناحية، وبين التفضيل الجمالي للأعمال الأدبية المركبة، وبين العصبية والانبساط (خاصة في عينة الذكور أيضا)، إنها كانت من قبيل العلاقات الإرتباطية المنحنية (٥).

وتشير هذه النتائج بشكل عام، إلى وجود ارتباط طردي بين التفضيل الجمالي للأعمال الأدبية الشعرية والقصصية، وبين سمات العصبية والتصلب والانبساط، وإلى حد معين، أما بعد هذا الحد فلا يرتبط اتجاه التفضيل بهاتين السمتين أو قد يرتبط بهما ارتباطا سالباً، فالسمات المزاجية يمكن النظر إليها هنا على أنها «مناخ» نفسي قد يساعد على الأداء الجمالي أو الإبداعي، أو قد يعوق هذا الأداء (٩٣) فدرجة متوسطة من التصلب قد تؤدي إلى تفضيل الأعمال التي تتوفر فيها بعض الخصائص الجمالية الراسخة أو الكلاسيكية، أما التمسك بهذه الخصائص دون غيرها فقد يعني الحمود، ومقاومة الجديد، والتجديد، ومن ثم درجة عالية من التصلب.

يرتبط «فرض التوسط» في رأينا بأهمية البعد عن المألوف والشائع والعادي والمبتذل بدرجة معينة، وهي فكرة شائعة بأشكال مختلفة لدى نقاد الأدب، مثلاً نجد لها لدى علماء النفس، فمثلاً أشار «بيكان» إلى أن المعنى الانفعالي مشتق في جانب من انتهاك هذا الشعر، أو هتكه، للمتوقع أو المألوف، ولذلك فإن الشعر يفقد كثيراً من خصائصه إذا تحول إلى نثر، وذلك لأن المتلقي لن يستطيع حينئذ أن يعيش أو يمر بخبرة الأثر الانفعالي الناتج عن عمليات تغيير الاتجاهات، أو التوجهات البنائية أو النحوية، وهي العملية التي أطلق عليها اسم Syntactical Disorientation أي تغيير التوجهات البنائية أو التركيبية التي يقدمها الشعر (٩٤). وإلى مثل هذا الرأي يذهب الناقد الفرنسي «جان كوين» J. Cohen في كتابه «بناء لغة الشعر» حين أكد أهمية ابتعاد لغة الشعر عن المألوف أو الشائع، بدرجة ما، حتى تحقق الأثر المنشود من وراء إبداعها، ومن ثم تحدث «كوين» عن فكرة الانحراف الانزياح Deviation، وهي الفكرة التي تتردد أصدائها حالياً بأشكال مختلفة في كتابات نقاد وشعراء عرب عديدين (أونيس مثلاً)، وهي أيضاً الفكرة التي قام «شكري عياد» في كتابه «اللغة والإبداع» بتوضيح أبعادها المختلفة وتمييزها عن الأفكار التي قد تختلط بها، مثل «الاختيار» و«مخالفة القواعد»، وغير ذلك من المفاهيم، كما أنه وجد جذوراً عميقة لهذا المصطلح في التراث العربي متمثلة في ما ساء البلاغيون الاستطراف والبعد في التشبيه، والغرابية في الاستعارة، وأن الانحراف يكون لدى العرب أيضاً في «البناء النحوي للجملة، ولكنه لا يعني مخالفة القواعد، وإنما يعني «العدول عن الأصل» (٩٥).

يؤكد «جان كوين» أن المستوى الذي يقصد الشاعر أن يفهمه هو مسافة وسطى بين الفهم وسوء الفهم، لذلك فقد تحدث هذا الناقد عن مرحلتين هامتين في تدلوق الشعر: الأولى أطلق عليها اسم وجود الانحراف أو حضوره أو عرضه Presentation of Deviation أما الثانية فهي: اختزال الانحراف Reduction of De-

• الاستقامة والانحناء من المفاهيم الإحصائية التي تصف العلاقة بين متغيرات معينة، فلماذا كانت العلاقة بين متغير وآخر تأخذ شكل أنبوبا يزيدان مما أو ينقصان مما قيل عنها إنها علاقة مستقيمة، أما إذا كان هذان المتغيران (التفضيل الجمالي وتركيب العمل الفني مثلاً) يزيدان مما أو ينقصان مما حتى نقطة معينة (حد التوسط مثلاً) ثم يفرقان بعد ذلك فلا يفتقران في اتجاههما، زيادة أو نقصاناً، قبل أن هله العلاقة منحنية.

viation والأثر هنا شبه بالحالة السلمية العامة التي تحدث عنها «برجسون» «وسوف» وغيرها في بداية عملية الإبداع أو التلقو، حيث توجد حالة من عدم التوجه ثم يتم اكتشاف التوجه أثناء الخبرة الجمالية، من خلال إنتاج وحدات فرعية، تختلف عن الوحدات الموجودة الخاصة بالمعنى الظاهري للرسالة أو العمل الفني، وقد يتم ذلك مثلاً من خلال القيام بإحداث التجاور أو التقابل مثلاً، بين الأفكار التي لا تبدو متشابهة أو قريبة في معناها. إن حالة الانحراف تعمق عملية الفهم للوهلة الأولى، لكن هذا التفاوت يتم حله عندما يبدأ أو يفتح التمثيل الداخلي (العقلي أو الخيالي)، لدى القارئ، للقصيدة طريقاً نحو تمثيل أو تمثيل آخر، وهو تمثيل يكون أقل وضوحاً وأكثر غموضاً، ومن ثم قد يشترك أو يتصادم مع المعنى الإشاري المحدد الذي يتفق مع معلومات أو موضوعات محددة ترتبط بها هو شائع أو مألوف، فالقصة هنا وكذلك أي عمل إبداعي (متجيز) تقوم كما قال «بيرنشو» Burnshaw بالتوحيد بين المألوف والغريب، بين الواقعي وغير الواقعي، بين الواقعي والتمثيل، ووظيفة الخطاب الشعري في رأى «كوين» هي تحطيم أو تغيير الاستجابة العادية المباشرة للغة بحيث يكون توصيل المعنى غير المألوف أو غير المعتاد أمراً ممكناً^(٩٦).

الشيء اللافت للاهتمام أن «برلين» يعود في أحد كتبه المتأخرة نسبياً إلى «كوين»، ويؤكد وجود جوانب كثيرة مشتركة بينها، خاصة في نظرتها للعناصر المكونة للأعمال الفنية، وللعوامل المحددة لاستجابات الأفراد لهذه الأعمال^(٩٧).

ثالثاً : دراسات حول العمل الأدبي

يصعب التمييز أو الفصل بين الدراسات التي تناولت المضمون الأدبي وبين الدراسات التي تناولت استجابات أو ردود أفعال القراء تجاه هذا المضمون، فالأمر الواضح هو أنه لا يمكن فصل المعنى النفسي للعمل الأدبي عن شخصية المؤلف بكل ما تشتمل عليه هذه الشخصية من خبرة ومن اتجاهات ومن قيم ومن سمات ومن قناعات فنية وسياسية واجتماعية . . . إلخ، ومن سياق اجتماعي وإنساني عاش فيه وتفاعل معه بأشكال مختلفة . في ضوء ما سبق فإننا نكتفي هنا بأن نشير إلى بعض الموضوعات الخاصة بقراءة الأدب والتي استأثرت باهتمام علماء النفس، رغم اختلاف توجهاتهم ومنطلقاتهم النظرية، أي أنه يمكننا أن نلخص اهتمامات علماء النفس بقراءة الأدب على أنها تتدرج - هذه الاهتمامات - ضمن واحد أو أكثر من المحاور التالية :

(١) تعبير الأدب عن الاتجاهات والدوافع والانفعالات

ومن أشهر الأمثلة على ذلك دراسات «ماكلياند» Mclelland الخاصة حول «مجتمع الإنجاز» والتي استخدم فيها الأسلوب البحثي المسمى تحليل المضمون . فمن أجل قياس الحاجة للإنجاز في اليونان القديمة مثلاً، قام بتدريب الباحثين على إحصاء الأمثلة الدالة في هذه الحاجة في الأغاني والأساطير والملاحم والفصائد الغنائية والمواويل والخطب وغيرها من المنتجات الأدبية في فترات مختلفة من تلك الحضارة، ثم قام بالربط بين أنماط الدافعية التي ظهرت في هذه الأعمال وبين بعض مؤشرات النمو الاقتصادي، وقد أكدت العلاقات التي وجدها «ماكلياند» التوجهات العامة لنظريته والتي تؤكد أن نهوض المجتمعات هو دالة للأنماط المبكرة لتربية الأطفال (التدريب على الاستقلال مثلاً في مقابل التدريب على التبعية)^(٩٨).

لقد أظهرت هذه الدراسات أن التعبير المرتفع عن «الحاجة للإنجاز» في الأدب يسبق عملية النهوض الاقتصادي لأحد المجتمعات، ثم عندما يصل النمو الاقتصادي للمجتمع إلى ذروته، فإن العادات الشخصية الخاصة بالاستقلال والكفاح تصبح غير مناسبة، وذلك لأن الأثرياء يمكنهم - حينئذ - شراء الخدمات من الآخرين، كما أن الأطفال سيتلقون تدريبات أقل على الاستقلال، ونتيجة لذلك تعتري دافعية الإنجاز حالة من الخمود أو المربوط، ومن ثم يتوقع حدوث حالة من الأثول أو الانحطاط الاقتصادي والاجتماعي^(٩٩).

إضافة إلى إمكانية دراسة دوافع نفسية مثل دوافع الإنجاز أو القوة أو المكانة أو تحقيق الذات من خلال تحليلنا المناسب للأعمال الأدبية، فإنه يمكننا أيضا أن ندرس انفعالات كالحب والكراهية والقلق والخوف، والمجاهات إيجابية أو سلبية، سياسية واقتصادية واجتماعية وجمالية ودينية، من خلال تحليلنا المناسب للأعمال الأدبية المعثلة لفترة معينة، أو فترات مختلفة من تاريخ حضارة معينة.

(٢) تعبير الأدب عن العمليات المعرفية

هنا اهتمت الدراسات النفسية بعمليات معرفية مثل الإدراك والتذكر والتخيل والتفكير المنطقي والإبداع والصور العقلية وما شابه ذلك من العمليات، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن موضوع الصور العقلية قد استأثر باهتمام العديد من الباحثين بدءاً من «فالنتين» Valentine الذي توصل إلى أن الاستمتاع الجمالي الخاص بالشعر وقدرة هذا الشعر على إحداث السرور بشكل عام، إنها يعتمدان على ما إذا كانت الصور العقلية التي يثيرها هذا الشعر هي صور تلقائية أم لا^(١٠٠)، وانتهاء بالدراسات الحديثة حول دور الصور العقلية في الإبداع الأدبي وفي التلوق الأدبي، وأنواع هذه الصور ومرتبتها المختلفة ودورها في الكتابة والقراءة، كما أن هناك أيضاً تلك الدراسات التي اهتمت بالمجاز بأشكاله المختلفة وعلاقته بالتلوق^(١٠١) وأيضاً الأحلام والرموز والتعبيرات المنطقية والجديدة واضطراب الوعي والتفكير وتعبير الأدب عن ذلك أو انتمكاسه فيه وغير ذلك من الجوانب المعرفية.

(٣) بنية النص الأدبي

الجانب الهام الذي اهتم به الباحثون هنا هو الأسلوب الأدبي، ذلك الذي لا يقوم باستشارة معرفية ووجدانية لدى القارئ فقط، لكنه يشكل أيضاً الأساس لوصف الخصائص البنوية المميزة للمواد الأدبية المختلفة، وأيضاً لتحديد الفروق بين هذه المواد. وقد كشف «لي» Lee عن توجه بالغ المحدودية نحو الأسلوب لدى بعض الكتاب، وذلك لأنهم اعتمدوا في كتاباتهم على عناصر لغوية محدودة ومعزولة إلى حد ما، وقال بأن أبرز مثال على ذلك هو كثرة استخدام «كارليل» مثلاً للزمن المضارع^(١٠٢).

أيضاً يمكننا الوصول إلى مقارنة كمية شديدة الوضوح حول الأسلوب من خلال الطريقة الإحصائية المسماة التحليل العاملي والتي تقوم على أساس تصنيف العدد الكبير والمائل من البيانات والمتغيرات (كلمات أو تعبيرات أو صور أدبية مثلاً) وتلخيصها في شكل عدد قليل موجز مكثف من المحاور أو الأبعاد، فقد استطاع «كارول» J.B. Carroll أن يستخلص مجموعة من القيم الرقمية من خلال تحليلاته العاملية لأشكال نثرية مختلفة، منها الروايات والمقالات وبعض المواد الصحفية الأخرى، واعتمد على بعض المقاييس مثل عدد الكلمات ونسبة الكلمات والجمل إلى العمل أو إلى جوانب منه، وظهرت لديه عوامل قال بأهميتها وضعها في الاعتبار عند فحص الأساليب الأدبية المختلفة منها: التقسيم العام (جيد - ردي) والأثر الشخصي (انفعالي -

عالم الفكر

عقلي) والبعد الزخرفي أو التزييني (متألق بلاغيا ومطرب في مقابل الأسلوب البسيط) ثم هناك أيضا التجريد في مقابل استخدام الكلمات التي تشير إلى وقائع عيانية أو محسوسة بعينها^(١٠٦).

بشكل عام يمكننا القول هنا بأنه من المفيد ألا يقتصر الباحث في تحليلاته على دراسة العناصر البسيطة من النص الأدبي (الكلمة أو الجملة مثلا)، بل لابد له أن يتم أيضا بدراسة الأعمال الأكبر (القصة الكاملة أو القصيدة الكاملة) حيث إنها قد تكون أكثر تعبيراً عن روح الكاتب وأسلوبه، كما أنه يفضل عدم الاكتفاء بدراسة النص الأدبي من داخله فقط (تحليل النص الأدبي والاكتفاء باستخراج خصائصه الأسلوبية)، بل لابد من الاهتمام أيضا بتحليل النص الأدبي من خارجه أيضا (العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية والنفسية المؤثرة فيه).

(٤) هناك محاور أخرى يمكن أن يتم بها علماء النفس في سياق اهتمامهم بقراءة الأدب ومن هذه المحاور على سبيل المثال لا الحصر:

أ- الاهتمام باللغة المنطوقة: أي بالأدب الشفاهي والشعبي، وتعبير هذا الأدب عن قيم وعادات وطرائق تفكير وأصاليب سلوك خاصة بجماة بشرية معينة، في فترة تاريخية معينة، أو عبر تاريخ هذه الجماة أو الشعب وأيضا الفروق المختلفة بين هذه الجماعات والشعوب. وقد اهتم بعض الباحثين بدراسة عناصر الإبداع وعناصر التقليد أو الإبداع في هذه النتاجات الشعبية مجهولة المؤلف كثيرة الحضور والتكرار^(١٠٧).

ب- قابلية الأدب للقراءة: وهنا يتم الفحص الكمي للخصائص الطبيعية للغة المكتوبة من أجل تحديد مدى وضوحها وجاذبيتها، وأهداف المؤلف من روايتها، ومدى إسهام هذه النصوص الأدبية في إشباع التوقعات لدى القراء.

ج- تحديد أصل الكتاب أو مؤلفه الحقيقي: وهذه الاهتمامات تتعلق بإجراء بعض التحليلات الإحصائية لتحديد المؤلف الحقيقي لمادة أدبية معينة متنازع عليها (مثلا هل «شكسبير» هو مؤلف مسرحياته فعلا؟) وهنا يتم تحديد وحدة أساسية باعتبارها تمثل الكاتب أكثر من غيرها: كالاسم أو الفعل أو الصور أو العدد الكلي للكلمات أو طول الكلمة المفردة، ثم يتم التحليل بعد ذلك وقد انتقد بعض الباحثين مثل هذه الدراسات على اعتبار أنها تهمل المضمون والدلالة والأسلوب وغيرها من الخصائص الأساسية المميزة للنص الأدبي^(١٠٨).

د- استخدام المواد الأدبية في الدراسات النفسية: كأن تستخدم المواد الأدبية في دراسات التعلم والتذكر والتخيل والتفكير وغير ذلك من العمليات النفسية. ومن ذلك مثلا ما قام به «بارتليت» في الثلاثينات حين عارض استخدام المقاطع الصماء والمواد غير ذات المعنى في الدراسات النفسية للتذكر، وقام بدلا من ذلك، بدراسة التغيرات الكيفية في تذكر المواد المركبة كالحكايات الشعبية مثلا، ومن ثم كان قادرا على أن يبين تلك الطبيعة النشطة للذاكرة^(١٠٩).

على كل حال، فإن الدراسات النفسية العربية للتذوق الأدبي، مازالت قليلة، مثلها في ذلك مثل دراسات الإبداع، ومازالت غير متناسبة بأي حال من الأحوال مع ذلك الاهتمام الذي أولاه العرب عبر تاريخهم للإبداع الأدبي، إنتاجا وتلقيا، ويمكن أحد الحلول فيما اقترحه «صوف»، في إحدى دراساته من ضرورة التعاون المحقق بين المتخصصين في مجال الدراسات النفسية والمتخصصين في مجال الدراسات الأدبية والنقدية^(١١٠) وهو اقتراح يوافق عليه كاتب الدراسة الحالية إلى حد كبير.

المراجع

- (١) انظر على سبيل المثال لا الحصر:
- أندريوس (ريوت. م) وستانسو (جورج ن) العلم في منظوره الجديد (ترجمة كمال خليلي) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (مسلسلة عالم للمرة العدد ١٣٤) فبراير ١٩٨٩ .
- (٢) Simonton D.K. Genius, creativity and Leadership, Cambridge, MA: Harvard University press, 1984.
- (٣) Lindauer, M.S. The Psychological study of literature: Limitations, possibilities, and Accomplishments, (٢) Chicago:Nelson-Hall, 1974, pp.31 - 33.
- (٤) Daiches, D. Critical Approaches to literature, London: Longman, 1981, p. 335.
- (٥) (٤) أوليف (و. م) بدايات علم النفس الحديث (ترجمة شاكرو عبدالحمد) بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧، ص ١٣٣ .
- (٦) - Daiches, op. cit, p. 331.
- (٧) عصفور (جابر). الصورة الفنية في التراث التقني والبلاغي عند العرب، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٣ .
- (٨) أحمد (محمد خلف الله) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب وتقلده، الطبعة الثانية، القاهرة: معهد للبحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠ .
- (٩) لبقولي (أمين). علم النفس الأدبي. مجلة علم النفس، ١٤٥، ١، ٣٦-٥١ .
- (١٠) عبدالقادر (حامد). دراسات في علم النفس الأدبي. القاهرة: لجنة البيان العربي، ١٩٤٩ .
- (١١) خاصة في كتابه ثقافة الناقد الأدبي الذي صدر عام ١٩٤٩م، (انظر: عز الدين إسحاقيل: التفسير النفسي للأدب).
- (١٢) العقاد (عيسى محمود): -ابن الرومي، حياته من شعره، الطبعة السابعة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٨ .
- (١٣) -أبو نوح، الحسن بن هاني، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٨ .
- (١٤) (١٢) إسحاقيل (عز الدين). التفسير النفسي للأدب، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣، ص ٥ .
- (١٥) (١٣) إبراهيم (نبيلة). الدراسة النفسية بين النظرية والتطبيق، القاهرة: مكتبة القاهرة للحلقة (د.ت).
- (١٦) لمزيد من للمعلومات حول هذه الدراسات العربية انظر:
-أحمد (محمد خلف الله)، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب وتقلده، مرجع سابق.
- (١٧) -إسحاقيل (عز الدين). التفسير النفسي للأدب، مرجع سابق، وخاصة الفصل الأول.
- (١٨) -عيسى (مصباح)، الاتجاه النفسي في دراسة الأدب وتقلده، مجلة فصول، ١٩٩١، المجلد الثالث والربع، ص ١٣٣ - ١٤٨ .
- (١٩) -عبد الحميد (شاكرو). بين علم النفس والأدب في مصر، للجنة لجمعية للعلوم الإنسانية (الكويت): ١٩٨٥، ص ١٧٤ - ١٩٠ .
- (٢٠) (١٥) صوف (مصطفى). الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠ .
- (٢١) (١٦) حنورة (مصري عبدالحمد). الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩ .
- (٢٢) (١٧) حنورة (مصري عبدالحمد). الأسس النفسية للإبداع الفني في المسرحية. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠ .
- (٢٣) (١٨) عبدالحمد (شاكرو). الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ .
- (٢٤) (١٩) فرج (فرج أحمد). -التحليل النفسي للأدب، مجلة فصول، ١٩٨٢، ٢، ٤، ١٦٩ - ١٧٨ .
- (٢٥) -التحليل النفسي والفنسة القصيرة، فصول، ١٩٨٢، ٢، ٤، ١٦٩ - ١٧٨ .
- (٢٦) (٢٠) ريد (فريتز). الفن اليوم (ترجمة محمد فتحي وجرجس عبده). القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١، ٩٤ .
- (٢٧) - Freud, S. Creative writers and Daydreaming. in: P.E. venon (ed) Creativity. Harmondworth: penguin Books, 1973, 126 - 136.
- (٢٨) - Freud, S. Leonardo (Translated by A.Tycon). Harmondworth: penguin Books, 1963.
- (٢٩) - Freud, S. Dostoevsky and parricide, in: The standard edition of the complete works of sigmund Freud. London: The (٣٣) Hogarth press, 1981, Vol. XXQ, 175-199.
- (٣٠) - Lindauer, op. cit, p.19.
- (٣١) - Freud, D ostoevsky and parricide, op.cit.
- (٣٢) - op. cit.
- (٣٣) - Finger, p.& Fadiman, I. Personality and personal Growth. New York: Harper & Raw, 1984, p. 56.
- (٣٤) - Jung, C.G. Psychology and Literature. In: B. Chiselin (ed) The Creative process. New York: The New Amer, Libr . (٣٨) 1952, 208 - 223.
- (٣٥) -Ibid.
- (٣٦) (٣٠) صوف (مصطفى). الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مرجع سابق، ص ٢٠، ص ٢٠١ .
- (٣٧) (٣١) بونج (كلود جوسيف) وآخرون، الإنسان ويومزه (ترجمة سمير علي) بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الكتب المترجمة، ١٩٨٤، دراسات مترجمة .
- (٣٨) -Daiches, op. cit, p. 334.
- (٣٩) - Lindauer, M. psychology and Literature: An Empirical perspective. In: M.H. Bornstein (ed.), psychology and its (٣٣) allied disciplines, Vol, I, The Humanities, Hillsdale, N. J. Earlham, 1984, 113 - 154.

- Ibid. (٢٤)
- Deiches, op. cit. p. 334. (٢٥)
- Charney, M. & Reppen, J. - (eds) *psychanalytic approaches to Literature and Film*, London: Associated University Press, 1987. (٢٦)
- Ganz, M. *Schreber's Memories of My Nervous Illness: Art proscribed*, In: Charney & Reppen (eds) *Ibid*, 37 - 58. (٢٧)
Harris, J. "But He was His Father": The Gothic and the Impossibilities in Dickens's *The Pickwick papers*. In: Charney (YA) & Reppen (eds) op. cit. 69 - 82.
Chessick, R.D. *The search of the Authentic self in Bergson and proust*, In: Charney & Reppen (eds), op. cit. 19 - 36. (٢٨)
Leuowitz, H.J. & Leuowitz, M. *Henry Beyle/ Stendhal: A psychodynamic Exploration of the Man and writer*, In: (٢٩)
Charney and Reppen, (eds), op. cit. 59 - 68.
Freedman, B. *Separation and Fusion in Twelfth Night*, In: Charney & Reppen (eds), op. cit. (96 - 119). (٣٠)
Hinely, J. L. *Expounding the Dream. Shaping Fantasies in A Midsummer Night's Dream*, In: Charney & Reppen (٣١)
(eds), op. cit. 120 - 138.
Westlund, J. *what comedy can Do For us: Reparation and Idealization in Shakespeare's Comedies*, In: Charney & (٣٢)
Reppen, (eds), op. cit. 83 - 95.
Paris . B.J. Brutus, Cassius, and Caesar: An Interdestructive Triangle, In: Charney & Reppen (eds), op. cit. 139 - 155. (٣٣)
Charney, M. *Amity and Infinite Regress in Hamlet*, In: Charney & Reppen (eds), op. cit. 156 - 170. (٣٤)
McLennan, S. *Sexuality and incest in the plays of Bertold Brecht*, In: Charney & Reppen (eds), op. cit. 192 - 214. (٣٥)
Pflieger, J.A. *Bandelair and Freud: The poet as Joker*, In: Charney & Reppen (eds), op. cit. 266 - 281. (٣٦)
Jones, E. *Hamlet And Oedipus*, N. J: Doubleday, 1955. (٣٧)
وهناك تفسيرات أخرى عديدة لحالة عاملت فيها ما لدمه فريد وجيز، انظر حل سبيل المثال:
- مولوي (جيمس) وكلاين (لورنس) تأويل جديد لسرعة عاملت (عرض) مصطفى سويف) مجلة علم النفس، ١٩٥١، ١٧، ١٠٢-١١٢ (جيمس) الرخاوي (جيمس) مقدمة عن: إنكالية العلوم النفسية والفن الأدبي، فصول ١٩٨٢، ٤، ١٠١، ٣٥-٥٧.
Groom, A. *Oedipus, Freud, and Us*, In: Charney & Reppen (eds), op. cit. 215 - 237. -
(٤٤) سويف (مصطفى). التحليل النفسي والفن، مجلة علم النفس، ١٩٤٦، ٢، ٢٨٢-٢٠٢.
(٥٠) سويف، المرجع السابق.
Lindauer, *The psychological study of Literature*, 1974, op. cit. 20 - 21. (٥١)
Ibid, 22. (٥٢)
Reber, A. *The penguin Dictionary of psychology*, Harmondsworth penguin Books, 1987. (٥٣)
Lindauer, M. *The Empirical Approach to the psychology of Literature: A Guide To Research* In: J. P. Noddi (ed) (٥٤)
psychological perspective on Literature: post Freudian and non Freudian, New York, Anchor/ Shoestring press, 1984, 1
- 43.
(٥٥) سويف (مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مرجع سابق.
(٥٦) حنوزة (مصري) عبد الحميد الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية، مرجع سابق.
(٥٧) عبد الحميد (شاذي) الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة، مرجع سابق.
(٥٨) سويف (مصطفى) صورة المرأة كإبداعها وسائل الإعلام، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٧٧.
(٥٩) Lindauer, M. *Imagery and the Arts*, In: A.A. Sheikh (ed): *Imagery, current Theory, Research and Application*, New York: John Wiley, 1983, 291 - 296.
(٦٠) انظر: عبد الحميد (شاذي) وآخرون: دراسات نفسية في الطوق الفني، القاهرة: مكتبة فريب، ١٩٨٩.
(٦١) Berman, B. *Content Analysis* Lindzey (ed) *Handbook of Social psychology*, 1954. (٦٢)
Simonton, op. cit. p. 118.
Lindauer, *The Empirical Approach to the psychology of Literature*, op. cit. (٦٣)
Ibid. (٦٤)
Lindauer, M. *Aesthetic Experience: A Neglected Topic in the psychology of Art*, In: D. O'Hare (ed), *Psychology (٦٥)
and the Arts*, New Jersey: Harvester press, 1981, 29 - 75.
Lindauer, M. *The Empirical Approach to the psychology of Literature*, op. cit. (٦٦)
Wallace, D. & Gamber, R. B *Creative people at work* Oxford: Oxford University press, 1989. (٦٧)
Simonton, op. cit. p. 118. (٦٨)
(٦٩) سويف (مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مرجع سابق، موضوع متفرقة.
(٧٠) حنوزة (مصري) عبد الحميد، الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية، مرجع سابق، موضوع متفرقة.
(٧١) حنوزة (مصري) عبد الحميد، الدراسة النفسية للإبداع الفني: منهج وتطبيق، فصول، ١٩٨٠، ١، ١٠١، ٣٦-٥١.

- (٧٢) عبدالحمد (شاكز)، الأسس النفسية للإبداع الأدبي في النصة النصرية خاصة، مرجع سابق، مواضع متفرقة.
- (٧٣) Jung, C.G. *psychology and Literature*, op. cit.
- (٧٤) Frye, N. et al, *The Harper Handbook to Literature*. new york: Harper & Row, 1985.
- (٧٥) الهانوي (محمد علي بن علي)، كشاف اصطلاحات الفنون، المجلد الأول، القسم الثاني، كلكتة: ١٨٦٧.
- (٧٦) Shipley J.T. *Dictionary of world Literature (taste)* New York 1953.
- (٧٧) فراع (محمد فخر)، مدخل إلى علم النفس، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ١٠٣.
- (٧٨) صوف (مصطفى)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مواضع متفرقة.
- (٧٩) صوف (مصطفى)، دراسات نفسية في الفن. القاهرة: مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣.
- (٨٠) حنونة (مصري عبدالحمد)، سيكولوجية الشوق الفني. القاهرة: دار للملوك، ١٩٨٥، مواضع متفرقة.
- (٨١) حنونة، المرجع السابق، مواضع متفرقة.
- (٨٢) Smetz, G. *Aesthetic Judgement and Arousal An experimental Contribution to Psychoaesthetics*. Belgium: Louven (٨٢) University press, 1973, p. 11.
- (٨٣) أبو حطب (نواف)، التفضيل الفني وسات الشخصية، لمجلة الأبحاث النفسية، ١٩٧٣، ١، ١٠، ٣ - ٣٠.
- (٨٤) لوتيل (و.م)، مرجع سابق، ص ١٢.
- (٨٥) Berlyne, D.E. *Aesthetics and psychobiology*, New York: A ppleton - Century, Grafts, 1971, p. 10.
- (٨٦) Berlyne, Ibid, p.11.
- (٨٧) Berlyne, D.E. *Conflict, Arousal, and Curiosity*. New York: McGraw - Hill, 1960.
- (٨٨) Berlyne, op. cit, 1971.
- (٨٩) O'Hare, D. Introduction. In: D.O'Hare (ed) *psychology and The Arts*, New Jersey: The Harvester press, 1961, 13 - 28.
- (٩٠) Lindauer, M. *The psychological Study of Literature*, 1974, op. cit, 161 - 162.
- (٩١) انظر:
- أ- عبدالحمد (شاكز) وآخرين. الفرق بين الجنسين في التفضيل الجمالي (في الأدب خاصة) في: شاكز عبدالحمد وآخرين، دراسات نفسية في الشوق الفني، مرجع سابق، ١٤٣ - ١٨٨.
- ب- عبدالحمد (شاكز) وآخرين: العلاقة بين التفضيل الجمالي وبعض سات الشخصية (في الأدب خاصة)، المرجع السابق، ١٨٩ - ٢٢٥.
- (٩٢) Soneif, M.J. & Bywcock, H.J. *Cultural Differences in Aesthetic preferences*. *International Journal of psychology*, (٩٢) 1971, 6: 293 - 298.
- (٩٣) السيد (عبدالحمد محمد)، الإبداع والشخصية، القاهرة: دار للملوك، ١٩٧٧، ٣٧١.
- (٩٤) Child, L.L. *Esthetics*, In: G. Lindzey & E. Aronson (eds). *Handbook of Social psychology*, Readings, Mass: Addison wesley, 1969, 953 - 916.
- (٩٥) حاد (شكري)، اللغة والإبداع، مباحث علم الأسلوب العربي. القاهرة: انترناشيونال برس، ١٩٨٨، ص ٧٨ - ٨٥.
- (٩٦) كوين (جان)، بناء لغة الشعر لترجمة: أحمد درويش. القاهرة: مكتبة الزهراء، ١٩٨٥، ١٥٤ - ١٥٥.
- (٩٧) Berlyne, 1971, op. cit.
- (٩٨) Lindauer, *The psychological study of Literature* op. cit, p. 193.
- (٩٩) Simonton, op. cit, pp 49 - 51.
- (١٠٠) Valentine, G.W. *An Introduction to the experimental psychology of Beauty*, London: T. C. & E.C. Jack Ltd, 1919.
- (١٠١) Ortony, A. (ed) *Metaphor and Thought*. Cambridge: Cambridge University press, 1979.
- (١٠٢) Lindauer, *The psychological study of Literature*, op. cit, p. 149.
- (١٠٣) - Lindauer, Ibid, p. 149.
- (١٠٤) - Vikis - Freilberg, V. *Creativity and Tradition in Oral Folklore, or the Balance of Innovation and Repetition in the Oral Poet's Art*. In: w.R. Grotzer & A. J. Chapman (eds), *The Cognitive Processes in the Perception of Art*. North Holland: Elsevier publishers, 1984, 325 - 343.
- (١٠٥) - Lindauer, *The psychological Study of Literature*, op. cit, 154 - 155.
- (١٠٦) - Bartlett, F.E. *Remembering*. Cambridge: Cambridge University press, 1932.
- (١٠٧) صوف (مصطفى) الغد الأدبي: ماذا يمكن أن يفيد من العلوم النفسية الحديثة، فصول، ١٩٨٣، ٤، ١، ١٩ - ٣٣.

القارئ والنص:

(من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا)

سيزا قاسم

(مثل الزارع)

فكلمهم بالأمثال في أمور كثيرة قال: «هو ذا الزارع قد خرج يزرع. وبينما هو يزرع، وقع بعض الحب على جانب الطريق، فجمادت الطيور فأكلته. ومنه ما وقع على أرض حجرية لم يكن له فيها تراب كثير، فنبت من وقته لأن ترابه لم يكن عميقا. فلما أشرقت الشمس احترق، ولم يكن له أصل فيبس. ومنه ما وقع على شوك فارتفع الشوك فخنقه. ومنه ما وقع على أرض طيبة فأثمر، بعض مثق، وبعض ستين، وبعض ثلاثين. فمن كان له آذان فليسمع!»

فلما تلاميذه وقالوا: «لماذا تكلمهم بالأمثال؟ فأجابهم: لأنكم أعطيتكم أنتم أن تعرفوا ملكوت السموات، وأما أولئك فلم يعطوا ذلك. لأن من كان له شيء يعطي ويفيض. ومن ليس له شيء يتزجر منه حتى الذي له. وإنما أكلهم بالأمثال لأنهم ينظرون ولا يبصرون ولأنهم يسمعون ولا يسمعون ولا هم يفهمون وفهم تتم نبوءة أشعيا حيث قال:

«تسمعون سمعا فلا تفهمون

وتنظرون نظرا فلا تبصرون

فقد خلط قلب هذا الشعب

وأصموا آذانهم عن السمع

عالم الفكر

وأغصوا عيونهم

لئلا يبصروا بعيونهم

ويسمعوا بأذانهم

وفهموا بقلوبهم

ويتوبوا فأشفيهم

وأما أنتم فتطوبون لميؤنكم لأنها تبصر، ولأذنانكم لأنها تسمع. الحق أقول لكم إن كثيرا من الأنبياء والصديقين تمنوا أن يروا ما تبصرون فلم يروا، وأن يسمعوا ما تسمعون فلم يسمعوا

(متى ١٣، ب ٣-١٣)

مدخل

كلنا يعيش في عالين: عالم الطبيعة وعالم الحضارة. أما عالم الطبيعة فيمكن أن نقول إنه عالم أصم أبكم: فالأشجار والزهور والجبال والصخور والبحار والصحارى والشموس والكواكب، والحيوانات والحشرات هي أشياء أو كائنات تتقاسم معنا حيزا في الكون الذي نحن جزء منه. والطبيعة مساهرة أيضا في أمانينا، في أننا بشر يخضع تكويننا البيولوجي لقوانينها، فالدم الذي في عروقنا، وقلوبنا وأعضائنا، والجينات التي تتحكم في لون بشرتنا، وملمس شعرنا، وطولنا، وفي كثير من طباعنا وخصائصنا كلها أيضا ظواهر من فعل الطبيعة. ولكن هل لكل ما ذكرنا أنفا معنى أو دلالة؟ قد تبدو الإجابة واضحة من الوهلة الأولى بالنفي. فما معنى الجبل أو البحر أو القلب أو الدم، أو البشرة السوداء أو الشعر الأملس؟ وهل حمرة الدم دلالة؟ إذن لماذا يقال إن بعض الناس يجري في عروقهم الدم الأزرق؟ لماذا يكره البعض من مختلف لون بشرته؟ لماذا يقارن الإنسان باليم؟ لماذا عندما نرى امرأة جميلة تتبدى لنا وكأنها البدر في تمامه؟

إن الإنسان يسعى إلى العالم الآخر، عالم الحضارة بكل قوته. فالحضارة هي تحويل عالم الطبيعة الأبكم الأصم إلى عالم ناطق يمكن التمازج معه: أكله فيجيب. وأستطيع بلحا أن أقول إن هناك تمازيا قويا بين عالم الطبيعة وعالم الحضارة، عالم الحياة وعالم اللذلة، عالم الذين يعيشون وعالم الذين يفسرون.

لا يستطيع الإنسان أن يعيش في الصمت والسكوت، فاللغة هي الملكة التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات، ولا يختلف الطيري ففيه القرن الرابع من الهجرة (العاشر الميلادي) عن شومسكي لغوي القرن العشرين - عن قلة ما يتفان فيه - في أن اللغة هي المميز الأساسي للبشر. يقول الطيري:

إن من عظيم نعم الله على عباده، وجسيم منته على خلقه، ما منحهم من فضل البيان، الذي به عن ضماير صدورهم يبينون، وبه على عزائم نفوسهم يملنون، فتلل به منهم الألسن، وسهل عليهم الاستصعب، فبه إله يوحون، وإياه به يسبحون ويلمسون، وإلى حاجاتهم به يتوصلون، وبه يبينهم

يتحاورون، فيتعارفون ويتعاملون. . . (١)

وإذا كان منطلق تشومسكي يختلف اختلافا جوهريا عن منطلق الطبري، إذ إن تشومسكي يرى أن اللغة ملكة بيولوجية لها نفس الخصائص البيولوجية التي للملكة البصر أو السمع عند الإنسان، أو للملكة الطيران عند الطيور. ورغم اختلافها الكبير عن مصدر اللغة، فقد اتفقا على أن اللغة كانت، ومازالت، تحتل مكان الصدارة في تميز الإنسان عن عالم الطبيعة الذي يعيش فيه.

كان الطبري في تعريفه «للبيان» - وهو هنا يعني اللغة في أرقى مستوياتها - مشغولا بالرسالة الإلهية. . القرآن، من حيث إنها معجزة لغوية وإنها آية من أي لغة إنسانية مهما توصلت إليه من كمال. أما تشومسكي فكان مشغولا بقضية البنيات النحوية التي تخضع لها اللغة والتي لا يمكن أن تفسر بالاكتساب أو التعلم. فالجانب الذي يهتم به الطبري هو جانب البيان أو جانب القصد، كيف يبين كل متكلم عما يخطئ في نفسه، وكيف يتواصل مع غيره من البشر، أما تشومسكي، النحوي التوليدي التحولي فإنه يحاول أن يعرف كيف تنتج الجمل النحوية الصحيحة. وفي هذين للمدخلين نرى أن الاهتمام الأسلمي هو في الجانب الإنتاجي للغة، أو الجانب الوظيفي للغة في حياة البشر. غير أن الذي يهنا نحن في هذا المقام هو الجانب المقابل لهذا المدخل؛ وهو كيف تستقبل اللغة؟ أو كيف تفهم؟ كيف تنتقل الدلالة من منبع ما إلى مستقبلها؟ كيف يفهم البشر بعضهم البعض؟

ولكن هل نستطيع أن نتناول الإجابة عن هذا السؤال دون أن نبدأ بالإجابة عن السؤال الأول، وهو ما أصل اللغة؟ يسدوني أن الإجابة عن هذا السؤال قد انتقلت في العقود الثلاثة الأخيرة من مجال الفلسفة التأملية إلى مجال النيورولinguistics، وذلك مع بداية دراسات عالم اللغة الأمريكي أيريك لينبرج الذي وضع الخطوط الأولى لدراسة الأسس البيولوجية لاكتساب اللغة. ولا شك أن علم اللغة أصبح اليوم عميق الجذور في العلوم الطبيعية البيولوجية، ولكن هذه الدراسات مازالت في مهدها، ولاستطيع أن أحل كثيرا من الجوانب الخاصة بالأبعاد الاجتماعية والحضارية للغة. فاللغة شأنها شأن كل ما يتعلق بالكيان البشري لها جانب طبيعي بيولوجي معطى ولها جانب مكتسب. ومن هنا يمكن أن ينطلق تأملنا حول تعاملنا مع اللغة في المجال الإنساني.

ونعود إذن إلى سؤالنا الذي طرحناه وهو كيف يفهم البشر بعضهم البعض؟ وكيف يفهمون العالم الذي يعيشون فيه؟ كيف يفهمون الطبيعة وكيف يفهمون الحضارة؟ وكيف يفهمون أنفسهم؟ وهل الفهم هو مقابل للمعرفة أم أنه حالة نفسية عقلية مختلفة؟ هل يمكن أن نتحدث عن سوء معرفة كما نتحدث عن سوء فهم؟ هل الفهم يستدعي التفسير والتأويل أو أن الفهم حالة سابقة للتفسير؟

إن الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالمعرفة تخص علم الإستمولوجيا الذي يبحث في إمكانية النفس الواعية معرفة العالم الذي يحيط بها، وهل لهذا العالم وجود خاص مستقل عن اللات العارفة أم هو إسقاط لما في هذه أنفس من ملكات وخبرات ونزعات. تتناول الإستمولوجيا كل ما يتعلق بما هو خارج النفس البشرية من أشياء سواء كانت طبيعية أو حضارية. فالإستمولوجيا، أو نظرية المعرفة، هي الباب الأول الذي ندخل منه إلى الفهم. ويؤثر للمحن الجوهرية في الإستمولوجيا على ما يتعلق بموقفنا من الفهم. إذا اعتقدنا أن العالم له وجود مستقل عن ذاتنا فمحاوله فهمه مستختلف عنها إذا ما اعتقدنا أنه إسقاط لما في نفوسنا.

وتتفرع الإستيمولوجيا إلى فرعين كبيرين ، الفرع الأول ينطوي على المشاكل الخاصة بعالم الطبيعة ومنه تولدت العلوم الطبيعية ، والفرع الثاني ينطوي على المشاكل الخاصة بعالم الحضارة ، ومن هذا الفرع تولد العلوم الإنسانية . ولا شك أن كل ما يخص الإنسان يتأرجح بين الفرعين . غير أن هناك علمين يخصان الفرع الثاني بشكل ربا يكون الصق ، هما السيميوطيقا والميرمينوطيقا . فهما يتعاملان في الأساس مع ما يتجه البشر من وسائل لتحويل محيطهم إلى محيط إنساني ، وأعني بإنساني محيطا ذا دلالة .

وإذا حاولت في البداية تعريف السيميوطيقا والميرمينوطيقا ، فأستطيع أن أقول إن الأولى تسعى إلى تعريف العلامات التي يدعها البشر وتصنيفها وتحليلها ، بينما تسعى الثانية إلى كشف الطرق والوسائل التي تمكن من فهم النصوص . ومن الوهلة الأولى يمكن أن نتبين أن السيميوطيقا أعم ، لأنها تتعامل مع جميع أنواع العلامات ، أما الميرمينوطيقا فإنها الصق بالنصوص التي تبعد في إطار اللغة الطبيعية . وإذا كانت السيميوطيقا الصق بالإطار الاجتماعي فالميرمينوطيقا الصق بالنطاق الفردي . ولكن في الأساس نجد أن العلمين هما في الواقع تطوير لعملية القراءة ، وتقنين لها ، وطرح لجميع المشاكل المتعلقة بها . إن السيميوطيقا والميرمينوطيقا هما في الواقع المنهج الذي يمكن أن نسلكه لقراءة العلامات والنصوص .

ماذا يحدث عندما يواجه قارئ نصا ما؟ ما نوعية العلاقة التي تتخلق من هذا اللقاء بين القارئ والنص؟ هل يمكن الفصل بين النص والقارئ؟ عمّ يبحث القارئ في النص؟

يمكن أن أقدم عملية القراءة على أنها تسلق سلم حلزوني يبدأ بالطابق الأول وهو طابق العلامات بكل أنواعها ، ثم التوصل إلى الطابق الثاني ، طابق اللغة الخاصة بكل نص ، ثم الطابق الثالث وهو طابق تفسير النص وتأويله ، ثم التوصل إلى الطابق الرابع وهو القمة التي يمكن أن نصل إليها وهو طابق الاستيعاب أو تحويل النص إلى معاشة فعلية .

يجسن أن نعرف القراءة هنا قبل أن نستطرد في بحثنا .^(٢) أقول إن القراءة خبرة محددة في إدراك شيء ملموس في العالم الخارجي ومحاولة التعرف على مكوناته وفهم هذه المكونات : وظيفتها ومعناها . هذا التعرف العريض لعملية القراءة ينطبق على كثير من الأنشطة البشرية في التعامل مع معطيات الواقع . ولا شك أنني أطرح هذا التعريف المبدئي انطلاقا من وعي بأن النفس المدركة للعالم الخارجي تتعامل مع هذا العالم على أنه عالم مركب متشعب يمد النفس بكم هائل من المدركات في كل لحظة من لحظات الإدراك الواعي . فهل كل إدراك قراءة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال هي النفي بكل تأكيد ، رغم ما في عملية الإدراك من تركيب وماتنطوي عليه من انتقاء وتنظيم . فالإدراك ليس عملية سلبية بحيث يستقبل للمتلقي المدركات دون رد فعل ولكنها عملية انتقائية تخضع لبعض المستلزمات^(٣) . فليس كل إدراك قراءة ، ولكن القراءة لابد أن تبدأ من نقطة هذا الإدراك لواقع محسوس ، ثم تنتقل النفس إلى تصنيف هذا الواقع إلى ما هو « قابل » للقراءة وما هو غير قابل للقراءة . وإذا كانت بعض الإدراكات تتم دون تدخل الوعي ، مثل أن أسحب يدي إذا ما لمست شيئا ساخنا ، فإن القراءة تستلزم قدرا كبيرا من تدخل الوعي ، بل أكثر من ذلك فهي عملية ذهنية تقوم على ترجمة عنصر مادي إلى عنصر معنوي . فالقراءة في المقام الأول عملية واعية ، أي أن الإدراك العفوي لمعطى ما - كما أسلفنا - لا يمكن أن يعد قراءة ، هذا بالإضافة إلى أنها عملية مركبة ومعقدة ذات مراحل ومستويات متعددة ، وكما ذكرنا هناك أربعة مستويات :

الإدراك، فالتعرف، والفهم، ثم التفسير.

فالإدراك هو مستوى حسي يعتمد على الحواس: الشم أو البصر أو السمع أو اللمس، إدراك حسي لشيء مادي موجود في عالم الواقع.

أما التعرف فيطوي على عملية ذهنية تستكنه الطبيعة السيميوطيقية لهذا الشيء، فرغم أن هذا المدرك شيء مادي ينتمي إلى عالم الواقع إلا أنه ذو طبيعة خاصة، إنه علامة أي ينتمي إلى نظام سيميوطيقي، وكما هو معروف فالعلامة شيء مادي مزيج البنية: له جانب مادي (سمعي أو بصري أو لمسي) وله جانب معنوي هو الدلالة.

أما الفهم فهو محاولة فك شفرة العلامات، وهو المستوى الأولي للتوصل إلى الدلالة، وهذا المستوى يتطلب درجة كبيرة من التعلم حيث إن الدلالة ليست معطى من معطيات الشيء، أو صفة من صفاته ولكنها تسند إليه بفعل الاصطلاح والمواضعة.

وقد تتوقف عملية القراءة عند هذا المستوى الثالث، عند فك شفرة الشيء. ولكن في أحيان أخرى تكون هذه الدلالة مبتورة أو مغلوطة وعندئذ لابد من محاولة معرفة إذا ما كانت هذه الدلالة تنطوي على مستوى أعمق يحتاج إلى عملية تفسير، أي قد تكون الدلالة المتعرف عليها غير كاملة ولذا لابد من البحث عن شفرة جديدة تكمل الشفرة الأولى وتوصل إلى المعنى الثاني أو معنى المعنى.

المستوى السيميوطيقي: مرحلة التعرف

يعيش الإنسان في عالم الطبيعة وعالم الثقافة، والذي يميزهما هو أن الأول مكون من الأشياء أما الثاني فمكون من النصوص. والثقافة هي في الواقع غزير هذه النصوص. والذي يميز النص عن غيره من الأشياء هو أنه حقيقة سيميوطيقية. ولا أود هنا أن أستعرض النظرية السيميوطيقية ولكنني أود أن أعرض بعض الأمثلة لكي أوضح كيف يستقبل القارئ النص بوصفه ظاهرة سيميوطيقية.

إذا ما تأملنا المكان، وهو المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، فإننا نستطيع أن نصفه طبقاً للإحداثيات المكانية من قياسات الحجم، والمسافة، البعد والقرب. غير أن المكان يكتسب صفة سيميوطيقية من خلال إعطائه قيمة دلالية تميز بين الظواهر المكانية التي لا يختلف بعضها عن البعض في الواقع. فالقرب والبعد، أو الطول والقصر، ليس لها قيمة في حد ذاتها غير أنها تكتسب قيمة من خلال تنظيم سيميوطيقي لهذه العناصر. ومن ثم نجد أن هذا النظام السيميوطيقي لعناصر المكان يتخلل كثيراً من النشاط الإنساني. فالنظام السيميوطيقي للمكان ينعكس على الاستخدامات اللغوية، فالملو والانخفاض، والقرب والبعد، والحركة والسكون كلها مفاهيم تكتسب بعلا جديداً من خلال قيمتها السيميوطيقية. وينعكس أيضاً النظام السيميوطيقي للمكان على تنظيم المحيط المكاني الذي ينشئه الإنسان ليستقر فيه. فاختيار الشاطئ الشرقي للحياة والغربي للموت في التراث الفرعوني ناشئ من تنظيم سيميوطيقي للمكان. ونجد هذا الاختيار في ثقافات كثيرة، وقد يكون معكوساً في بعضها دون أن يفقد دلالاته السيميوطيقية للمحلية. ففي العصر الحديث أصبح الغرب هو مرادف التقدم واكتسب الشرق صورة التخلف، بعكس ما كانت دلالاتها في أزمنة سابقة. وهذه الصورة تعتمد على الطريقة التي تترك بها كل ثقافة نفسها كما ترتب على الطريقة التي تترك بها الآخر. إن النظام السيميوطيقي للمكان ينعكس أيضاً على الطريقة التي ينظم بها كل مجتمع الفصل بين الجماعات وفقاً لنظريته الخاصة: أماكن للبيض وأماكن للسود، أماكن للأغنياء وأماكن للفقراء. ولا يظل هذا الفصل ثابتاً بل يخضع للتغيير. فالأحياء تتغير ملامحها، ويحجرها سكانها الأصليون لأن قيمتها تبدل مع مرور الزمن، بفعل متغيرات اقتصادية أو اجتماعية أو سيميوطيقية ويتمدد أن تفصل بين كل العناصر التي

تساهم في تشكيل وعي البشر بواقعهم. إن تنظيم الحيلة في المكان يخضع لتنظيم سيمبوتي صامر في بعض الأحيان. ومن أهم أنواع هذا التنظيم الفصل والوصل. قد تناول ميشيل فوكو في بحثين هامين^(٤) عمليات الفصل التي يقوم بها المجتمع لتفقيه نفسه من العناصر الشاذة. ومن وسائل الفصل التي كان يلجأ إليها المجتمع لإبعاد المجانين في القرون الوسطى وضعهم في سفن خاصة تظل تجوب البحار إلى الأبد. وقد درس فوكو أيضاً وسائل أخرى من الفصل وهي السجون. وتشبه السجون مصحات الأمراض العقلية في أنها أماكن مقطوعة من المكان الاجتماعي ولما وضعها الخاص، وهيتها ورهبتها. وإذا كان السجن له قيمته السيمبوتية بالنسبة لتنظيم المكان إلى منفصل ومتصل فإنه أيضاً له قيمة من حيث الحركة والسكون. غير أن الانفصال والاتصال لا يقتصر على هذين المكونين. أي السجن وسفينة المجانين أو المصحات الخاصة بالأمراض العقلية. ولكنها يظهران في أنماط أخرى من الأماكن مثل الأديرة والصوامع، وكثيراً ما نجد مثلاً في القرى الإثريّة الكاهن، أو الحكيم، يعيش في كوخ خارج زمام القرية لأنه يختلف عن باقي أفراد الجماعة بأنه يحمل في دخيلة نفسه أسرار الحكمة والمعرفة، وينتقل إليه أفراد الجماعة للمشورة عندما تواجههم مشكلة أو أزمة. وبصفة عامة يمثل الفصل - سواء كان اختيارياً أو إجبارياً - عملية بتر أو تهميش لجماعة ما، أو لفرد ما. ويعمل أيضاً الفصل والوصل على تنظيم المكان إلى خاص وعام، وهذا التقسيم يسري في تصور المسكن الفردي، كما يسري على الأماكن العامة، فالقهى يختلف عن المسرح من حيث نوع العلاقات التي يفرسها على رواده. فالقهى يمثل معبراً بين العام والخاص، بين الوحدة والتجمع، أما المسرح فيضع جمهور المشاهدين - رغم استقلالهم كأفراد - كمجموعة، في مقابل خشبة المسرح ومن عليها من ممثلين. فالسلوك البشري يختلف اختلافاً تاماً بين هذين القطبين: العام والخاص. وكذلك يتنظم المكان من حيث انفصال المقدس والإنساني. ويتم هذا الفصل بين الإنساني والمقدس من خلال تجليد المقدس ببعض العلامات والمؤشرات، وهذه تختلف من ثقافة إلى ثقافة. ويمكن فصل الإنساني عن المقدس بفعل جسدي مثلاً فعندما يتوجه المسلم نحو القبلة للصلاة، فإنه بهذا الفعل يحول المكان الذي يقف فيه من إنساني إلى مقدس. وتقول الرسامة الفرنسية أوليت فابر إن رسمها هو كنيسة بالنسبة لها، وعندما طُلب منها تفصيل هذه الفكرة قالت إنه مكان مغلق، محدد، مخصص للتأمل ولا يسمح لأي شخص بدخوله، لأن أغلب من يدخلونه يفسدون مناخه لعدم فهمهم أبعاد التأمل الذي يشع فيه، وإنها كثيراً ما تستمع في هذا الموضع إلى قلداس الموتى لمؤثرات وإن هذه الخبرة، إذا ما كانت في حالة من الاستعداد النفسي لتوهمها للتفاعل مع الموسيقى، تصل إلى حالة من الكشف تسبب لها توتراً جسدياً لا يحتمل في بعض الأحيان، وأنهت تحليلها بالقول: لو كان الله موجوداً بكل تأكيد موجود في هذه الموسيقى. فبالرغم من أن هذه الفنانة ملحدة فإن قيمة المكان المقدس وطلاته انتقلت من المكان للمقدس التقليدي وهو الكنيسة بكل العناصر المكونة له إلى مكان إنساني فحول إلى مكان مقدس في وعي من يشغله.

ولا أظن أن هذا الإدراك للمكان إدراك حديث، أو من اختراع علماء السيمبوتيقا المعاصرين، ولكن يمكن أن نقترح أن هناك وعياً أعمق بالبعد السيمبوتيقي للمكان بحيث إن المهندسين الممارسين اليوم كثيراً ما يتحدثون عن سيمبوتيقا العمارة. فالعمارة هي تقنية، وفن، وسيمبوتيقا في آن واحد. فالتقنية تتعلق بالجانب العملي للإنشاء، والفن يتعامل مع الجانب الجمالي للمبنى، والسيمبوتيقا تتعامل مع تنظيم دلالي وقيمي للحيز المكاني الذي يخص لوظائف مختلفة في حياة الجماعة^(٥).

ويمكن القول إن من آليات الثقافة الأساسية تحويل الأشياء الطبيعية إلى ظواهر سيمبوتيقية. ولكل ثقافة نظامها السيمبوتيقي الخاص والذي تحدد نفسها من خلاله وتحكم من خلاله على الآخر: فكل من يوجد داخل حيز هذا

النظام فهو منها ، ويوصف بالتحضر، وكل خارج عنه فهو بري. فالحضارة والبرية صفة نسبية داخل إطار كل حضارة. وقد تناول تودوروف^(٦) هذا الصدام الحضاري بين الآسيان والهنود الحمر في مرحلة غزو أمريكا في عصر النهضة في كتاب يقوم على أساس القراءة السيميوطيقية المغلوطة للثقافة الضد من جانب الآسيان ومن جانب الهنود الحمر. إن هذا الجهد من الصراع لا يلني بالطبع الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والنفسية، أو غيرها، إلا أن الاتصال بين الحضارات، مثله مثل الاتصال بين الأفراد، يقوم على معرفة الشفرات الخاصة بكل ثقافة، أو مجتمع، أو فرد. وكلما تعمق الوعي باختلاف الشفرات وتناظرها صعب الاتصال، وكلما تعمق الوعي بالتشابه بين الشفرات وتناغمها تيسر الاتصال.

ولم أستخدم مصطلح العلامة حتى الآن مفضلة استخدام كلمة ظاهرة، الأكثر اتساعاً ومرونة، خوفاً من إثارة الغموض أمام القارئ الذي يستقبل هذا الجليل ويشعر أنه يغير شيئاً يختلف عن الظواهر الطبيعية، فيه كثير من الجوانب للشبهة، إذ إن الظاهرة السيميوطيقية قد تكون في بعض الأحيان محددة، وفي أحيان أخرى غير محددة في الوعي. وهنا يمكن أن نطرح منذ البداية مشكلة العلاقة بين العلامة والدلالة والشيء الذي تدل عليه العلامة والدالات التي تستقبل هذه العلامة.

ويمكن أن تختبر هذه العلاقات من خلال بعض الأمثلة المحددة. فإذا أخذنا مثلاً المدينة، فإنها بوصفها علامة سيميوطيقية هي في المقام الأول حقيقة مكانية. تكتسب قيمتها السيميوطيقية من مجموعة من المكونات الدلالية والقيمية، بعضها يتعلق بخصائص تخص وضع المدينة نفسها في نطاق المنظومة الثقافية العامة: هل هي عاصمة؟ ميناء؟ حبيمتها؟ مناخها؟ من ولد فيها؟ ما أبرزها من الأحداث التاريخية؟ هل ننظر اليوم إلى سرايفو كما كنا ننظر إليها من سنة مضت؟ وكيف ينظر أهل المدينة إليها في مقابل نظرة الآخر إليها؟ وإذا كانت للمدينة الكبيرة تختلف عن المدينة الصغيرة، وكذلك عن القرية، فإن قلب المدينة يختلف عن الضواحي. ولكل من هذه التجمعات خصائص منها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والجمالي والسيميوطيقي. والمدينة بوصفها ظاهرة سيميوطيقية تتحقق في الوعي من خلال الممارسة الحياتية. فالذي يعيش في المدينة يعيش على مستويات مختلفة منها المستوى السيميوطيقي. وإذا ذكرنا قصيدة لافورتين فأر المدينة وفار الحقل تظهر الضدية الأولى التي تميز بين المدينة واللامدينة، فلكل منها خصائص محددة، هي التي تشكل الوعي السيميوطيقي للمكان. وقد نلكن من هذه الخصائص النور في مقابل الظلمة، (حتى أن باريس أصبحت تحمل اسم مدينة النور)، الحركة في مقابل السكون، الصحو في مقابل النوم، العنف في مقابل السكينة، النجاح في مقابل الفشل، الحيلة في مقابل الموت. وإذا ما نظرنا إلى خريطة العالم فإن هناك بعض المدن التي تمثل معالمها كثافة سيميوطيقية كبيرة مثل طيبة، أثينا، روما، القسطنطينية، وبغداد، قرطبة، باريس، لندن، إلخ... وفي كل ثقافة وعصر تمثل بعض المدن مكان الصلوة، وقد تلامس دوت أن تترك أثراً، وقد نحيا إلى الأبد في الوعي الإنساني. وتختلف الكثافة السيميوطيقية للمدينة طبقاً للمنظومة التي تدخل فيها فإذا كانت الثنائية الضدية التي تدخل فيها هي الحضرة والبلدة/الريف، فإنها تخضع لبعد دلالي يختلف عما إذا ما دخلت في منظومة المقدس والإنساني، ففي هذه الحالة نجد مجموعة أخرى من المدن تمثل مكان الصلوة مثل مكة، بنارس، كيوتو، القدس، وتكتسب المدينة قلاسة خاصة ينجح إليها المؤمنون كما «يجب» إلى المواضع من يسعى إلى البهجة والنجاح، وإذا دخلت للمدينة في منظومة العلم والجهل فإن الوضع أيضاً يختلف والكثافة السيميوطيقية تختلف.

ويمكن النظر إلى المدينة على أنها نص يمكن قراءته. ففي الواقع المعاش قرأ المدينة من خلال تحقق الوعي

السيمبوتيقي. هل يستطيع أي متلق للملمنة قراءتها؟ أم أن هذه القراءة تختلف من قارئ إلى آخر؟ هل تتفق قراءة الساكن الأصلي للملمنة مع قراءة السائح الذي يزورها؟ هل تختلف قراءة السائح الياباني عن قراءة السائح المصري؟ ومن بين المثاليين كيف قرأ الطهطاوي باريس في مقابل توفيق الحكيم أو حسين فوزي؟

إنني أدعي في هذا المضمار أن الكفاءة السيمبوتيكية تشبه الكفاءة اللغوية ولكنها أوسع، وهي في الواقع ناتج الحياة داخل إطار ثقافي معين في عصر معين، تمكن أفراد الجماعة من التواصل على المستوى الحيائي لا اللغوي فقط. فعندما زار رولان بارت اليابان نظر إليها على أنها نص لابد أن يقرأ. فكانت اليابان بالنسبة لرولان بارت، بوصفها نصاً، محصلة الظواهر الثقافية الدالة في هذا النص، من طرائق التحية إلى اختيار الأزياء، إلى تنسيق الزهور، إلى طقوس تناول الشاي، إلى المنتج الفني في كل مجاليته من شعر ورسم وموسيقى ومسرح، ومسرح عرائس، إلخ... ومن واقع قراءته لهذا النص، بعد أن زار اليابان ثلاث مرات، أصدر بارت كتاباً بعنوان إمبراطورية العلامات^(٧). ويبقى السؤال: هل تمكن بارت من قراءة اليابان - النص؟ هل أستطيع أنا بوصفي غافرة لبارت، من خارج الثقافة اليابانية والفرنسية، أن أتق في قراءة بارت لليابان - النص؟ ورغم ما في الكتاب من حساسية عميقة في قراءة علامات ثقافة مختلفة، يظل السؤال هل هذه القراءة صحيحة؟ وهل هناك قراءة صحيحة وقراءة خاطئة؟ أم أن قراءة بارت هي تأويل ذاتي لعلامات يجعل هو حقيقة دلالاتها وقيمتها؟ كيف نستطيع أن نعرف هذا؟ قد يساعد أن نقارن ما كتبه بارت عن اليابان بتحليل مقابل لنص الظواهر من إنتاج شخص من داخل الثقافة نفسها لنرى إذا ما كان هناك تطابق بين نتائج بارت ونتائج القارئ الياباني للثقافة. ومن اللافت أن كاتبين يابانيين علما على عمل بارت، والكاتب الأول هيكاكوداي ساكاموتو قدم بحثاً بعنوان «بنية مفهوم الـ «دوا» بوصفه وسيطاً سيمبوتيكياً يميز الروح اليابانية»^(٨)، يبدأ الكاتب بالقول إن كتاب بارت كتاب صادم، ولكنه سرعان ما يضيف أنه - حتى بالنسبة لليابانيين - يبدو تحليله جليداً وملهماً. ثم يذهب الكاتب بعد ذلك للقول بأنه يريد في مقاله أن يعمق المسار في إمبراطورية العلامات «لا من وجهة نظر الأجنبي ولكن من وجهة نظر الياباني». فنحن هنا أمام من يقف خارج الثقافة ويحاول قراءتها، ومن ينتمي إلى الثقافة ويقرأ قراءة الأخر. ويقدم هيكاكوداي ساكاموتو علامة هي في رأيه العلامة المنبع التي منها تولد كل الثقافة اليابانية والتي لم يتوصل بارت إلى الكشف عنها. والـ «دوا» كما يقول الكاتب هي في الواقع علامة تستخدم كنوع من الوسيط Interface بين الأوجه لتفادي الصدام. ويفسر الكاتب الانحناءة التي تميز التحية اليابانية بأنها نابعة من الـ «دوا»، وهي في الواقع تنبع من نزعة غريزية في محاولة تفادي الصدام بين أعضاء الفصيلة الواحدة. ويقول الكاتب إنه عند نوعية معينة من الأوز يعتبر مد العنق في اتجاه الأخر علامة على نية العدوان، أما مد العنق بعيداً عن الأخر فهو علامة على التحية. وهكذا فإن الانحناء يكشف عن غياب نية بالعدوان. فالانحناءة هي في الواقع وسيط سلام بين عضوين من جماعة واحدة. ويضيف الكاتب أن السيلة إذا ابتسمت عندما يعرض عليها عرض فهذا علامة على الرضا لأن الابتسامة في هذه الحالة هي تمحقيق للـ «دوا»، تسهل تقبل الرضا، أو تمنع المواجهة. ولذلك لا يستسيغ الياباني تبادل النظرات المباشرة لأنها تعني الاحتكاك المباشر وهو نزع من العدوان. ويضرب الكاتب أمثلة أخرى كثيرة عن الـ «دوا» في الثقافة اليابانية. وأما المقالة الثانية فهي بقلم كيكوكو تاتشييانا بعنوان «العلامات الفارغة في النص - اليابان»^(٩). والكاتبة في هذه المقالة تتحفظ على النتيجة التي توصل إليها بارت من أن العلامات في النص - اليابان فارغة رغم اتفاقها مع كثير من النتائج الفرعية التي توصل بارت إليها. وتتناول الكاتبة مجالات مختلفة من الثقافة اليابانية: الشعر، وطقوس تناول الشاي، وتنسيق الزهور التي تطورت تحت تأثير الزن Zen، وتظهر كيف أن هذه العلامات كلها مشحونة بالدلالة. وتنتهي إلى أننا



لأبد أن نقرر مقولة بارت بأن كلمة «فارغ» هي كلمة إيجابية وليست سلبية حيث إن العلامات في النص - اليابان هي نوع من الكتابة، تبدو في الظاهر مجردة من الدوال ولكنها في الباطن موجية بالدلالة في إطار معين ولا يمكن نزعها من إطارها. والإطار بالنسبة لكينوكو تانشيتا هو معاشة اليابان معاشة الاندماج الكلي، المكاني والزمني. فلا يمكن فهم الشعر دون اختبار فصول السنة وتبدلها ومعرفة مفردات اللغة التي تعبر عن الظواهر الطبيعية في اليابان، ولا يمكن فهم طقوس حفل الشاي دون معرفة تاريخ هذا التقليد الذي يعود إلى القرن الرابع عشر. والمسار الذي تتبعه الكتابة هو مسار الزمن، وهو في الحقيقة عملية معقدة من معرفة أولية للدلالة ثم التحرر منها كما أن الزمن هو... «تفريغ الوعي»، ثم بعد ذلك تفريغ اللاوعي، ثم بعد ذلك الخطوة التالية وهي أيضا ترك وتجاوز، فهي بعض الأحيان تفكر وبعض الأحيان لا تفكر، ثم بعد ذلك يصبح الذهن نقيًا مثل القمر، مثل انعكاس القمر الذي يبقى على صفحة النهر... وخلاصة القول إن الكاتبين اليابانيين لم يرفضوا تحليل بارت للنص - اليابان ولكن قداما تحفظات عامة على قراءة الثقافة. التحفظ الأول هو أهمية معرفة العلامات الأساسية التي تنظم حولها العلامات الأخرى، أو معرفة ما يسمى بروح الثقافة. وهذا لا يمكن أن يتم إلا من داخل الثقافة في رأي هياكوداي ساكاموتو، فبالرغم من إعجابه بتحليل بارت فإنه يرى أن غياب علامة الـ «دوا» من هذا التحليل أفقد باقي العلامات دلالة أساسية من دلالاتها أما التحفظ الثاني فيتعلق بمعرفة الإطار العام الذي تعمل فيه العلامات، وهذا الإطار مكاني وزمني. فبالرغم من اتفاق كاتبة المقالة الثانية مع بارت في كثير من النتائج التي توصل إليها فإنها ترى أنه لم يعايش النص - اليابان مكانيًا، أو زمنيًا، فالعلامات السيميوطيقية تكسب دلالاتها من التراكب المكاني والزمني على حد سواء. فالطبيعة اليابانية مثلًا تلعب دورًا هامًا في الشعر، ولكل ظاهرة مكانية دلالة محددة، فعاصفة الخريف لها علامة خاصة، والمطر الغزير له علامة خاصة، وجسر ميتا له دلالة خاصة حيث إنه يقع في مكان تشدد فيه الرياح ولابد لمن يعبره أن يسرع تحت شدة المطر المتهمس، فهذا الجسر له دلالة مكانية وزمانية في آن واحد، ولم يستطع بارت التوصل إلى هذه الدلالة. ومن جانب آخر فإن طقوس الشاي يرجع تقنيها إلى القرن الرابع عشر، ويقول الكاتبة إن هذه الطقوس قد تبدو للغريب كأنها مشهد شكلي، ولكن طقوس حفل الشاي ليست مجرد إجراء شكلي، ولكنه ما هيته الأجيال المتعاقبة من خلال تطوير طقوس الشاي الصينية، وارتباطها ارتباطًا وثيقًا بروح رياضة الزن. ويبدو لي من مناقشة هذين الباحثين أن العلامات السيميوطيقية مقننة تقنيًا ثقافيًا عديدًا، ولا يمكن التوصل إلى دلالاتها إلا من خلال التعلم، لا التلمس النظري ولكن التعلم الحياتي، الممارسة الفعلية. ولكن هل يعني هذا أننا لا نستطيع أن نقرأ علامات ثقافة غريبة عنا إلا من خلال تقمص ذاتية أعضاء هذه الثقافة؟ ألا توجد لغة إنسانية يمكن أن تكون وسيطًا بين الثقافات؟ فكلنا بشر ونشترك في نفس الخبرات البشرية الأساسية

للجنس البشري بين المهد واللحد. فهل تمثل الخصوصية الثقافية كثافة لا يمكن اجتيازها بالنسبة لمن ينظر إليها من الخارج؟ وإذا كان هذا صحيحا ذهبننا بهذا الفرض إلى نهايته المنطقية فإننا سنصل إلى استحالة الاتصال بين البشر، ومنفرض مثلا احتمال صحة الترجمة من لغة إلى لغة أخرى حيث إن اللغة تحمل في طياتها خبرة الجماعة التي تتكلم بها وأن هذه الخبرة تختلف من جماعة إلى أخرى. ولكنني سأترك هذا السؤال معلقا إلى فقرة تالية.

وأرد أن أتوقف هنا عند نوعية النص السيميوطيقي وتكوينه. وقد استخدمت حتى الآن مصطلحين بالتبادل: مصطلح الظاهرة السيميوطيقية ومصطلح العلامة السيميوطيقية. وأظن أن التمييز بينهما قد يكون مفيدا في بعض مستويات التحليل، فالظاهرة السيميوطيقية هي كل ظاهرة لا تندرج تحت إطار الظواهر الطبيعية. ويمكن القول إن كل ما يتعلق بالثقافة هو ظاهرة سيميوطيقية، سواء كانت هذه الظاهرة مادية أم معنوية، فيمكن القول إن الدفء ظاهرة سيميوطيقية، وإن آداب السلوك الاجتماعي ظاهرة سيميوطيقية؛ بينما الثوب الأصفر الذي يتدثر به الرهبان البوذيون علامة سيميوطيقية، وإن النقطة الحمراء التي يضعها الهندو على جبينهم علامة سيميوطيقية، وكذلك الشيد القومي للدولة. إن القارئ يبدأ التعرف على العالم السيميوطيقي من خلال هذا التمييز بين ماهو سيميوطيقي وماهو لاسيميوطيقي. وعند هذه النقطة يمكن أن يبدأ تصنيف هذه الظواهر ووصفها طبقا للشفرات المختلفة التي تتحقق من خلالها الظواهر. وقد تتحقق الظاهرة في أكثر من شفرة. فيمكن أن نمثل لذلك بالرجوع إلى مثالنا عن المدينة، فالمدينة بوصفها ظاهرة سيميوطيقية تشكل في الوعي الجماعي من خلال تحققها في شفرات مختلفة، منها الرسم البياني، والماكيت، والرسم، والتصوير الفوتوغرافي، والوصف اللغوي المهاري، والوصف اللغوي الشعري، والتسجيل الصوتي لصخب الشوارع وأصوات الناس والحيوانات. وأيضا إذا تناولنا فصول الستة - فإذا أدركناها على أنها ظاهرة سيميوطيقية - فإننا نتحقق في عدد من الشفرات منها الطقوس الاجتماعية من احتفالات باستقبال الربيع، واحتفالات الحصاد، ومنها طقوس دينية، فقد بني معبد أبي سمبل لتدخل أشعة الشمس إلى قدام الأقداس مرتين في السنة في ٢١ مارس و٢١ أكتوبر، ومن الشفرات الموسيقية مثلا متالبيه فيفالدي الفصول الأربعة، وكذلك الشفرات الشعرية.

والعلامة السيميوطيقية هي الوحدة التي تتكون منها الشفرات المختلفة، ثم تنظم هذه العلامة مع غيرها لتكوين النصوص. وأرد هنا أن أشير إلى دراسة رولان بارت حول الشفرات عندما تطرق إلى تحليل النص الأدبي في كتابه SZ^(١٠) وأرى أن بارت توصل فيه عند تحليله لقصة من قصص بلزاك إلى نتائج مفيدة من حيث توصيف الشفرات المختلفة التي تنظم حولها النص الأدبي. ولكن تجب الإشارة هنا إلى أن هذا التحليل يعيكل النص إلى حد ما، فالتحليل السيميوطيقي في رأيي هو التوصل إلى الميكال العام للنصوص السيميوطيقية ولكنه لا يعني بجمع جوانب الظواهر الإنسانية وبخاصة أكثر هذه الظواهر تركيبا وهي الظاهرة الفنية. وأظن أن الوصف السيميوطيقي هو في الحقيقة وصف ميكلي، ولا أعني بهذا أنه تبسيطي أو تبسيطي، ولكنه وصف يحاول التوصل إلى بنيات أساسية مجردة إلى حد ما، وقد تكون في بعض الأحيان مجردة من الدلالة. فإذا حاولت توصيف الفرق في طرائق الملابس من يجمع إلى مجتمع، أو من طبقة اجتماعية إلى طبقة اجتماعية فإنني في الواقع لا أستطيع أن أقول إن الطرحة السوداء لها دلالة معينة ولكن ارتداؤها يشير إلى الانتهاء إلى طبقة اجتماعية معينة، وما دلالة الحجاب أو الثغاب أو الجلباب، أو الحلة؟ إنها علامات على انتهاء أصحابها إلى فرق معينة. وكذلك فن المائدة أو طرق تناول الطعام، فإنها مفتحة إلى حد كبير؛ فهل للحساء دلالة؟ أم كحك العيد؟ ما دلالة أن أتناول صفتا معينتا من الطعام قبل الآخر؟ ومن هنا يمكن أن أقول إن الأنظمة السيميوطيقية هي في نفس الوقت أنظمة ميكليكية وفيها قدر من

الغمرض على مستوى الدلالة.

إن موضوع الدلالة السيميوطيقية لم يتضح لنا في كل تجلياته، حيث إن بعض الموسيقيين يتحدثون عن رسالة في الموسيقى ولكنهم بالقطع لا يعنون رسالة لغوية. فالولف البولندي فيتولد لوتسلفسكي Witold Lutoslawski، وهو من أشهر مؤلفي الموسيقى المعاصرة، يقول في حديث له، «إن اللغة للموسيقية إذا لم تحمل رسالة فالتلطي لن يقبل عليها أما إذا كانت تحمل رسالة فالتلطي بالقطع سيفهم هذه الرسالة». هل تولي الرسالة الدلالة بالنسبة للمؤلف؟ ومن الفنانين التشكيليين الذين كان لهم تأثير عميق في مسار الفن الحديث م. م. إس. M. C. Escher الذي يقول «كانت تولودي أفكار لم يكن لها علاقة بالحفر، أفكار كانت تبهري إلى الدرجة التي كانت تولد لدي رغبة عييفة في توصيلها. كان من المستحيل أن أغير عنها بالكلمات لأنها لا تتصل بالمجال الأدبي بل التمثيل، ولا يمكن فهمها إلا في شكل مرئي...»⁽¹¹⁾ ومن اللافت للنظر أنه يقدم في نهاية كتابه ما يسميه «صورة ذاتية قصيرة» هي في الواقع صورة ذاتية? *autobiographie* = *autoportrait*، والقضية هنا هي ماذا تعني بأنها «تدلى»؟ أو أنها تحمل «دلالة»؟ إن التعريف البسيط للعلامة هو أنها شيء مادي يستدعي إلى الذهن شيئاً معنوياً. وإني أقبل هذا التعريف بصيغة عامة ولكن الذي أود أن أناقشه هو طبيعة هذا الشيء للمعنى، معلمي طبيعته. هل هو فكرة؟ مفهوم؟ رسالة؟ شعور؟ إحساس؟ هل الشعور دلالة؟ إن التعريف الأساسي للدلالة هو الدلالة اللغوية، ولا نستطيع أن نتحدث عن الدلالة إلا من خلال اللغة الطبيعية، بمعنى أن العلامة السيميوطيقية - أياً كانت الشفرة التي تنتمي إليها - لا تكتسب دلالة إلا من خلال ترجمتها إلى علامات لغوية. ولكن هذا سيخرج من نطاق الدلالة أنظمة سيميوطيقية مثل الموسيقى، والرقص، والرسم، والأزياء، فمن يحاول ترجمة النوتة الموسيقية إلى مفردات من اللغة الطبيعية لا يقدر خصوصية الشفرة الموسيقية التي من طبيعتها خلوها من الدلالة اللغوية. ولكن في نفس الوقت تتميز كل موسيقى بخصائص تربطها بأطر ثقافية وجمالية وإبداعية خاصة، لا بد من معرفتها للتفاعل مع هذه الأنماط من الموسيقى، مما يجعلنا نستطيع أن نعرف على هذه النوعيات من الموسيقى عند سماعها. فالوضع غير الأخنعية الخفيفة غير الموالات ويختلف عن التقاسيم، هذا بخلاف أن الموسيقى المختلطة تختلف عن الصينية عن العربية عن الإفريقية، عن الموسيقى الكلاسيكية الغربية عن موسيقى الجاز إلخ... وإني أميل إلى نظرية بتفنتس الذي يميز بين الأنظمة السيميوطيقية التي لا تحمل دلالة وبين الأنظمة التي تدل. ففي رأيه أن اللغة الطبيعية هي النظام السيميوطيقي الوحيد الذي ينطوي على دلالة، أما باقي الأنظمة فتكتسب قيمتها الدلالية من ترجمتها إلى علامات من اللغة الطبيعية. ولكن ماذا تعني عندما نقول إن الرقص، أو الموسيقى أو الرسم، أو التصوير الفوتوغرافي لا يدل؟ وأتساءل لا بد أن نترجم العلامات السيميوطيقية الموسيقية، أو حركات الجسد البشري إلى علامات لغوية لكي تكتسب دلالة؟ إننا نستطيع أن نصفها من خلال اللغة الطبيعية ولكن هنا لا يعني أننا نسد إليها دلالة؟ غير أن عدم فهمنا، بعد، هذه العلامات يجب ألا يدفعنا إلى رفض أن لها معنى. ويجدر بنا أن ننظر إلى أحاسيس هؤلاء الفنانين الكبار على أنها إحصاءات لما لم يتكشف لنا بعد، وأن نحفظ بختنا في قدرة الذهن البشري، مع تقدم المعرفة، على فض شفرتها وتحديد معناها وتلقي رسالتها بوضوح فقطعه اليوم. فلنتق على تعليق الحكم إلى يوم قادم.

إن الاقتراح الذي أقدمه في هذه المرحلة من التفكير هو أن البحث السيميوطيقي قد أخذ يحل محل البحث عما كان يسمى بالأشكال الرمزية. ومصطلح الرمز في اللغات التي أعرفها له من التشعبات الدلالية ما يجعله غير صالح، في رأيي، للتعبير عن هذه الأشكال المختلفة من التنسيق والتنظيم في الحياة البشرية. فأتأ لا أستطيع أن أعد

حفريات (يشير رموزاً، أو سيميوفنيات يتهوون رموزاً، ولكنها في تقديري ظواهر سيميوطيقية تخضع لمجموعة من القواعد والأساق. والبحث السيميوطيقي يجمع في مجال أنماط مختلفة من الأنشطة البشرية. وبالقطع أنا لا أنادي بأن ننظر إلى جميع مظاهر الحياة الثقافية على أنها ظواهر سيميوطيقية. ولكن هذه النظرة - في رأيي وإلى الحد الذي أوصلتني إليه خبرتي الخاصة - تساعد على فهم خصوصية كل نظام من أنظمة العلامات المختلفة، والطرائق التي تنتقل العلامات بها من مجال إلى مجال. وأعود هنا إلى ما قدمت من تحليل سابق لتنظيم المكان الإنساني تنظيمًا سيميوطيقياً وكيف يمكن أن ينتقل هذا التنظيم إلى الأجيال الفنية المختلفة سواء كانت لغوية أم بصرية؟ وقد قمت في موضع آخر بتحليل المكان في ثلاثية نجيب محفوظ طبقاً لهذا التنظيم السيميوطيقي^(١٢). وقد أحاول هنا أن أضرب مثالا على هذا بالنظر إلى علامة سيميوطيقية محددة وهي الكتاب.

إذا نظرنا إلى الكتاب بوصفه علامة سيميوطيقية، فلنأخذ نبدأ أنه كشيء مادي من منتجات الحضارة يفصل بين الحضارة والبربرية. وفي جميع الحضارات كانت مهمة إحراق المكتبات علامة على بربرية الذين يقومون بهذا الفعل «الهمجي». والكتاب علامة تشير إلى الديانات الساوية، ورغم أن القرآن لم يبدؤ إلا زمن عثمان، ومع أنه نزل على نبي «أمي»، وأنه لم يكن «مكتوباً» فقد كان يسمى نفسه الكتاب. وتستدعي هذه التسمية لنص شفاهي كان لا يزال يتداول من خلال الحفظ والتلقين بعض التأمل والتفسير. وربما أتت هذه التسمية من الكتب الساوية السابقة على القرآن وهي التوراة والإنجيل. وإذا تأملنا علامة الكتاب في النص القرآني نرى أن المفسرين يرون أن التسمية تشمل القرآن والتوراة، بل إنهم يرون أن التسمية إذا كانت مطلقة فلها تشير إلى التوراة. ففي اللسان: «الكتاب، مطلق: التوراة؛ وبه فسر الزجاج قوله تعالى: نزل فريق من الذين أوتوا الكتاب. وقوله: كتاب الله جائز أن يكون القرآن، وأن يكون التوراة، لأن اللذين كفروا بالنبى، صلى الله عليه وسلم، قد نزلوا التوراة». ومعنى ذلك أن المفسرين المسلمين يوازنون بين الكتب الساوية المتزلة، التوراة والإنجيل والقرآن. وقد تقول إن القرآن سمي كتاباً لأنه كان مكتوباً على اللوح المحفوظ. ومن الأشياء اللافتة للنظر أن القرآن المكتوب الذي نجله بين دفتي كتاب لم يسم بالكتاب وإنما سُمي بالمصحف، وفي هذا تمييز بين «النص» - الأم - نفسه - الأصل الذي أنزل شفاهياً على النبي - والنص المكتوب المادي المنتشر بين الناس. والكتاب - دون تمييز - يعتبر في الثقافات الدينية المختلفة النص - الأم text الذي تتولد منه كل النصوص الأخرى وتنبع منه. أما إذا انتقلنا إلى ثقافات غير دينية فلنأخذ مستجد في كل منها «توراتها» bible أو «قرآنها»، فيمكن القول إن ثروات الأمم لأدم سميت هو كتاب الرأسمالية، بينما يمثل رأس المال توراة الشيوعيين، والكتاب الأحمر إنجيل الماويين إلخ. . . . حيث تتولد من هذه النصوص الأم جميع الأقول الخاصة بثقافة ما أو بقية ما. والكتاب في هذه الأحوال علامة سيميوطيقية تظهر في كثير من الأنظمة المختلفة لثقافة بعينها. وقد تتبع إرنست روبرت كورسيوس استعارة الكتاب في الثقافة العالمية من الثقافة الإغريقية مروراً بالرومانية والعربية والصين الوسطى حتى الرومانسية الألمانية^(١٣). ويظهر من دراسته أن الكتاب لم يظهر في الأدب الإغريقي والروماني مثلاً ظهر في الثقافة الغربية بعد ظهور المسيحية، وقبل انتشار الطباعة. ولا شك أن هذا التطور مرتبط بمركزية النص الديني المتداول في ثقافة بعينها. غير أن النظرة إلى الكتاب المتزل كان يصاحبها الاعتقاد أن العالم أيضاً كتاب، أي أن الله قد خلق كتابين: العالم بما فيه الإنسان، والكتاب المقدس، وأنه يمكن للإنسان التعرف على الله وقدرته وحكمته من خلال هذين الكتابين. وهي نظرة إلى الكتاب كان فيها الكثير من التفاؤل، نرى توجيهها في ختام الكوميديا الإلهية حيث «يرى دانتى في أعماق النور الأبدي كل الصالحات المتناثرة في الكون وقد انضمت في حب بعضها إلى البعض في مجلد واحد. . . .»^(١٤) وهي نظرة تصور أن

— عالم الفكر —

التنوع والاختلاف في الطبيعة يمكن أن يتجمع ويتألف في بنية واحدة كلية إذا توصل الإنسان إلى معرفتها أمكنه أن يضاهيها في عمله . وقد تأكل هذا التناول مع مرور الزمن إذ أن نشأة العلم الحديث ، وبخاصة مع كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو، غيرت نظرة الإنسان إلى «كتاب الطبيعة» وبدأ هؤلاء العلماء يرون أن العلم لا يعتدي قراءة الكتب كما عرفها الإنسان ، ولكن دراسة الطبيعة بالملاحظة والتتظير والاختبار تكشف أسرارها ؛ ورغم ذلك ظل الرومانسيون يرون أن كتاب الطبيعة يخفي وراء علاماته الظاهرة دلالات خفية ، مغلفة في لغة سحرية توصلنا إلى العرفان إذا نجحنا في فك طلاسمها . ويمكن أن تتبع تطور دلالة الكتاب في مجالات أخرى مثل الفلسفة (عند هيجل مثلاً) ، أو الشعر (نظرية الملامية عن الكتاب) ، وسنجد عناقيد من الدلالات التي تتولد من هذه العلامة منها بعض النتائج الخاصة بالمقدم وغير المقدم ، المقروء والمقروء ، المقترح والمغلق ، المتحرك والساكن ، المتكلم والصامت ، إلخ . . . هذه العناصر التي تتولد منها الدلالات السيميوطيقية . ويمكن أيضاً تتبع الكتاب بوصفه علامة سيميوطيقية في النصوص الأدبية . فالكتاب - الشعري يشير إلى نفسه في النص من خلال ذكر كتب أخرى تعمل وكأنها مرآة تنعكس فيها الكتاب الأصلي الواقعي في عملية انعكاسية لا متناهية .^(١٤)

ويظهر الكتاب بوصفه علامة سيميوطيقية في الفن التشكيلي الغربي . وقد تتبع يان بيالوستوكي في مقالة بعنوان «كتب الحكمة وكتب المزل» ، التطور الذي اعتري تمثيل الكتاب في الأيقونولوجيا الغربية من القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر ، حيث إن الكتاب على حد قوله علامة غامضة في الحقيقة لأنه يمكن أن يجري أشياء متعارضة ومتناقضة ، فقد يحفز على الخير كما أنه قد يدفع إلى الهاوية . وفي بعض الأحيان كان يظهر الكتاب في بعض شواهد القبر على أنه علامة على الحياة الأبدية الخالدة ، فالتفتي كان يمثل عسكاً بكتف وبعينه متجهتان نحو السماء ، وفي بعض الأحيان الأخرى كان الكتاب يدل على عكس ذلك . ففي بعض لوحات الطبيعة لبيئة *Nature morte* ، مثلاً ، التي تشير إلى زوال الحياة ، وعبث المعرفة الإنسانية ، كان الكتاب يظهر أيضاً ولكن مزمزاً منزوعة منه صفحات .^(١٥) فالعلامة السيميوطيقية فيها كثير من المرونة إذ تبدل طبقاً للنظام العام الذي تنتمي إليه^(١٦) .

تعدد الشفرات وما هي طبيعة دلالة الشفرة؟

استخدمت كثيراً في الفقرات السابقة مصطلح الشفرة^(١٧) أو الكود Code رغم أنني لم أحده أو أعرفه ، وأرى أن هذا المصطلح يمثل العصب الأساسي للتفكير السيميوطيقي . وقد انتشر في الكتابات السيميوطيقية منذ الستينيات وبصفة خاصة في كتابات رولان بارت . ورغم أهميته فإنه يشكل صعوبة للتحليل السيميوطيقي بسبب ما يرتبط به من تعقيد صادم في التصورات الشائعة له . فالشفرة في أبسط أشكالها هي علاقة تبادل دلالي بين عنصرين يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر ، وأبسط أشكال الشفرة هي مثلاً شفرة التلغراف القديم التي كانت تحمل فيها الرنات الطويلة والقصيرة محل الحروف الأبجدية ، أو شفرة بريل الخاصة بالعمى . وفي هذا النوع من الشفرات يمكن تحويل الرسالة من شفرة إلى أخرى والعكس دون تأثير في محتوى الرسالة . ويمكن القول أيضاً إن الكتابة شفرة تحول الكلام المنطوق إلى كلام مكتوب دون إبدال الرسالة ، فالكتابة هي تحويل للكلمات من سلسلة أصوات إلى أشكال خطية مرئية على سطح ما . وفي هذا النوع من الشفرات تكون المعادلة بين العنصرين تامة حيث $A = B$. وهناك دلالة أخرى لكلمة شفرة أو كود Code وهي أن الشفرة هي مجموع القواعد والقوانين التي تحدد السلوك الذي يجب أن يتبع في مواقف معينة ، مثل آداب السلوك الاجتماعي *Etiquette* ، أو شفرة فوسان العصور الوسيطة ، أو شفرة «الشرف» بين اللصوص . وهذه الشفرات تتحدد أيضاً بطريقة صارمة فهناك قواعد فواريس خاصة تحدد آداب السلوك الخاصة التي يجب أن تتبع في كل مناسبة .

قد يبدو من التعريفين السابقين أن الشفرة لابد أن تكون محددة تحديدا صارما حيث يمكن التعرف على كل عنصر من عناصرها بالمعونة إلى قواميس أو معاجم. غير أننا نصطلم هنا بمشكلة الدلالة. هل لكل شفرة دلالة محددة بحيث يمكن الانتقال من شفرة إلى أخرى كما في الأمثلة السابقة؟

هنا أجدني أميز بين الشفرات من حيث الدلالة (وهنا أعني الدلالة اللغوية) بين الشفرات الصلبة والشفرات المرنة، الشفرات المتسعة والشفرات المقررة، بحيث نستطيع أن نضع الشفرات في متوالية متدرجة تبدأ من الصفر وتمتد إلى ما لا نهاية. ونستطيع أن نقول إن التعرف على هذه المستويات يتم من خلال محاولة ترجمة الشفرة إلى اللغة الطبيعية. فالتعريف شفرة صلبة حيث تتساوى عناصرها مع عناصر اللغة الطبيعية. واللغة الطبيعية شفرة مرنة ترتبط بكثير من الظروف المحيطة للتعرف على علاماتها، كما تحتمل علامات اللغة الطبيعية دلالات متعددة، أما الشفرات الاجتماعية والفنية فلها شفرات متسعة أي أنها تحيل إلى دلالات عامة ثقافية واجتماعية، أما الشفرات الموسيقية والفنية المجردة فلها شفرات مفرغة. إني أقترح هذا التقسيم بوصفه تصنيفا أوليا للشفرات لم يطرح من قبل ويحتاج إلى كثير من التفصيل والمناقشة. ويحيل لي أن مفهوم الشفرة قد يساعد في التعامل مع كثير من الأنظمة الدالة وغير الدالة لتحليل النصوص. فإذا ما قارنا بين الشفرة الشفوية والكتابية نجد أننا أمام أنظمة سيميوطيقية تختلف من حيث القواعد التي تنظم العلامات في كلتا الشفرتين. فالتلقي إذا كان يستقبل الرسالة من خلال كلام شفاهي يتوقع اختلافات عما إذا تلقاها كتابة لاختلاف طبيعة الشفرتين. فالشفرة بالنسبة لي هي أقرب إلى النظام العام الذي يحكم تخليق النص. وتنتمي الشفرة بصفة عامة إلى المستوى الثقافي والاجتماعي، فالفرد يتعلم الشفرة ولا يبدعها. وليس للشفرة دور في تحديد الدلالة بقدر دورها في تنظيم الحيلة الاجتماعية والثقافية: أي أن الشفرة هي القواعد والشروط التي تحكم إنتاج النص الثقافي والفناني (١٩). غير أنه من الصعب تحويل شفرة مرنة إلى شفرة صلبة، أو شفرة ضيقة إلى شفرة متسعة، رغم المحاولات التي تمت في هذا المجال، مثل محاولات تحويل الألوان أو الموسيقى إلى شفرة مشاعر أو معاني بعينها.

قد ادعى في نهاية هذه الفقرة أن القواعد السيميوطيقية هي الطريقة التي تنظم بها كل ثقافة آليات العلامات للإشارة إلى نفسها. وللملك يمكن القول إن العلامة السيميوطيقية اصطلاحية في أساسها ومقتنة، وإن الفرد لا يملك القدرة على إبداع علامات سيميوطيقية ولكنه قادر على شحن هذه العلامات بدلالات خاصة به في صيغ الخطاب المختلفة. وتختلف نواحي الخطاب، وتصنف طبقا لشفرات محددة ثقافيا. ففي الخطاب العلمي تكون علاقة العلامة بالشيء الذي تدل عليه هي الملحك الأساسي، كما يكون ارتباط النص بعالم الظواهر التي يصفها هو هدف الخطاب الأساسي. أما في الخطاب الموسيقي فالعلامة لا تحمل دلالة معينة ولكنها لها معنى؛ يسميه المنظرون في علم الجمال الموسيقي «مؤثرات» (٢٠) Effects. ومن اللافت للنظر أن عالم الجليات إرنست جومبرتش يستخدم مصطلح المعنى Meaning ومصطلح مؤثرات Effects وكأنها تقريبا متساويان في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٩، The Sense of Order، ويشعر جومبرتش بصعوبة هذه المشكلة، فيقول إن وصف أي رد فعل بعنصر للفرن التشكيلي من خلال اللغة الطبيعية هو من باب الاستعارة والمجاز لا الحقيقة عندما نقول إن اللون الأحمر دافئ واللون الأزرق بارد، ويضيف جومبرتش:

هل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا؟ هل نستطيع أن نرصد هذه الاستعارات في مصطلحات سيكولوجية موضوعية؟ أو بعبارة أخرى هل نستطيع أن نشرح إحساسنا بأن بعض الألوان أكثر دفئا من أخرى، أو بعض الأصوات أكثر دكانة من أخرى؟ قد يقول قائل إننا لن نتوصل إلى إجابة إلا من خلال رصد خريطة كاملة للمخ

البشري . لابد أن نعرف كيف تتصل قنوات حواسنا المختلفة ، وكيف تتجمع ردود فعلنا للبصر والسمع واللمس والشم في مركز واحد . . . ومن ثم نستطيع أن نشرح المؤثرات البصرية من منحنى إدراكي فيسيولوجي فقط . . ولكن حيث إن هذا اليوم لم يحن بعد فلا حيلة لنا سوى البحث عن شروح لهذه المؤثرات في محيط ما نعلمه عن الحاسة البصرية لفهم ردود فعلنا للأشكال والألوان التي ندرها . (٢١)

إذا كنا نتعامل مع النصوص في المستوى السيميوطيقي على أنها حقائق ثقافية ، حضارية اجتماعية ، بعضها يحمل دلالة محددة ، مقنة ، وبعضها يحمل دلالة عامة متشعبة وبعضها لا يحمل دلالة في نطاق العلاقة بين الأنظمة السيميوطيكية واللغة الطبيعية ، فإذا يحدث عندها يواجه القارئ نصا يحاول أن يفك شفرته؟ وكيف يكون التفاعل بين القارئ والنص؟ كيف يتوصل القارئ إلى دلالة النص؟ كيف يقرر أن هذا النص يحمل دلالة أو لا يحمل دلالة؟ كيف يقرب النص؟ ما الطقوس الاجتماعية والفردية التي تحيط بهذا اللقاء؟ إذا كان القارئ في المستوى السيميوطيقي ينضج للفرق ولقواعد الشفرة فإنه في المستوى الدلالي أو السيميوطيقي يتمتع بحرية أكبر . وأود في الفقرات التالية أن أعتبر بعض المحاور التي تحس الإجابة عن الأسئلة المطروحة .

المستوى السيميوطيقي : مرحلة الفهم

علاقة القارئ بالنص :

هناك بعض التصورات للعلاقة التي تقوم بين القارئ والنص نجدها في جميع فروع المعرفة . وليس من السهل تفهم الآليات التي تحكم هذه العلاقة . فأنماط العلاقة التي تتحكم في التفاعل بين النص والقارئ مركبة إلى حد بعيد وقد تشبه العلاقة التي تربط بين الناس . فإذا نظرنا إلى العلاقة التي تربط القارئ بالنص من منظور علاقات القوة : يمكن أن نقول إن هناك علاقة سيطرة أو تبعية أو تكافؤ بين القارئ والنص . وأن هذه المستويات الثلاثة تتحقق بطرق وأشكال مختلفة . فهل النص يتبع القارئ أم القارئ هو الذي يتبع النص؟

إذا ضربنا مثلا من حياتنا المعاصرة التي تملؤها أغاني البوب POP صخبنا ونظرنا إلى فرقة الحنطاس البريطانية The Beatles التي لاقت شهرة منقطعة النظير في الستينيات ، والتف حولها الشباب من جميع أنحاء العالم ، غربه وشرقه ، نجد نوعا من الإسقاط اللغوي من قبل هذا الشباب الذي كان يجد في أغاني الحنطاس تعبيرا عن جيلهم ، وقيل إنهم كانوا يجدون فيها تعبيرا عما في نفوسهم من مشاغل وخواطر . كيف كان الشباب يستمعون إليها؟ هل كان المستمع يرى فيها تعبيرا عما في تفكيره ، أم كان يجد فيها تعبيرا عما يختلج في نفسه هو؟ عندما يسمع : «أريد أن أكون صيادا» هل يترجم هذا إلى «جون لينون يريد أن يكون صيادا» أم أن الخلفي هو الذي يريد أن يكون صيادا ، أي أن يهرب من تقاليد الحياة التي يعيشها وينطلق في البحار في حياة حرة؟ لا شك أن عملية الإسقاط بالنسبة لفرقة الحنطاس كانت على مستويات متعددة منها تبني النص الشعري للأغاني وكللك النص الموسيقي وأيضاً الإطار العام السيميوطيقي للفرقة بما فيها من مظهر الشعر الطويل ، حتى أننا في العالم العربي أسميناً من يطيلون شعرهم «خنطاس» . فالإسقاط في هذه الحالة لم يكن على الأفراد الواقعيين الذين يشكلون فرقة الحنطاس ، ولكن على بنية سيميوطيكية شاملة . وتفرقت فرقة الحنطاس في أواخر السبعينات ، واستقل أفرادها ، بعد أن تجاوزوا مرحلة الشباب ، ولكنهم ظلوا يعيشون ماضيهم المزدهر ويؤلفون موسيقى على غرار التي كانوا يقدمونها وهم شباب !! ووصلت في سنة ١٩٩٠ مجموعة أغاني لكل من بول ماكارتني وجون لينون ، غير أن رد فعل شباب اليوم جاء عكس ما كان في الستينيات ، استاء الشباب من كهول يتشكون هموم الشباب ، واغترابه وعزلة . وقال

بعضهم إنه لا يستطيع أن يتعاطف مع هذا المليونير الكهل الذي ينوح ويكي ويئن ويتشكى . . فالوقوفان متنافضان في الضاعل بين المتلقي والنص . ففي الموقف الأول هناك التحام بين المتلقي والنص ومصداقية المتكلم أيضا ، أما في الثاني فهناك انفصام بين المتلقي والنص والمتكلم . لا شك أن الموقف أكثر تركيزا ولابد من دراسة ظاهرة التفاعل بين الشباب المتلقي للموسيقى ومن يودعها من الفنانين . فلكل جيل أهله ومعبوده ، والشباب الذي انفصم عن فرقة الحنايف يلتحم اليوم مع مادونا وغيرها من الوجوه الصاعدة ، وهكذا تصطم أصنام وتقام أصنام . وقد شهدنا نفس الظاهرة في العالم العربي بالنسبة لعبدالحليم حافظ الذي التفت حول أغانيه أجيال من أبناء العالم العربي . ولا شك أن الذين كانوا يستمعون إلى عبدالحليم حافظ كانوا يسقطون أنفسهم ومراجعهم وشجونهم على هذه الأغاني ، ومن مظاهر هذا الإسقاط والالتحام مع عبدالحليم حافظ الحشود الغفيرة التي احتشدت في جنازته . ويري اليوم يجتلب بعض المغنين عملا مشابها للذي كان يجتلبه عبدالحليم حافظ ، غير أن الالتحام والإسقاط يقوى ويضعف طبقا لآليات يمكن تحليلها ودراستها دراسة ميدانية . ولكن النقطة الهامة في هذا المجال هي عملية الإسقاط في القراءة : عندما يبتنى القارئ النص ويعمله تعبيرا عما يختلج في نفسه وفي ذاته . وقد يصاحب هذا الإسقاط تتمص شخصية المتكلم ، غير أن هذا المتكلم لا يكون بالقطع منتج النص الواقعي ، وهذه الظاهرة من أوضح ما تكون في النص الفني .

يمكن أن نتبع بعض نواحي القراءة لكي نتعرف على أنواع العلاقة التي قد تربط القارئ بالنص . لابد أولا أن نتعرف على هاتين الحقيقتين المتواجهتين لكي نحدد نوعية العلاقة التي تربط بينهما . من أهم للمعطيات التي نحدد هذه العلاقة وهي القارئ بنفسه ، وهذا الوعي قد تغير تغيرا كبيرا على مر العصور ، وفي الحقيقة لكي نفهم التفاعل الذي يتم بين النصوص والقارئ لابد أن نتعرف على هذا الوعي بالذات . هل يمكن أن يُمجّع القارئ النص لذاته إذا لم تكن هذه الذات قد تشكلت ، ووضعت معالمها ؟ إن القراءة الإسقاطية لم تكن ممكنة في العصور السابقة لظهور مفهوم الفرد والفردية ، كما لا تتأتى هذه القراءة في مجتمع لم ينفصل الفرد فيه عن الجماعة . يقول جان بول فرنان إن مفهوم الفردية كما نعيه اليوم لم يكن موجودا في الثقافة الإفريقية^(٢٢) ، ولم يكن من المتصور أن يكتب كاتب إفريقي سيرة ذاتية مثل التي كتبها القديس أوسطون ، حيث إن هذه الذاتية الداخلية لا تتخلق إلا في نفس من مارسها ، ومن ثم لم تكن مطروحة بالنسبة للفرد الإفريقي ، إذ لم تولد إلا مع ظهور المسيحية . نقول إذن إن نوعية العلاقة التي تربط القارئ بالنص تتحدد من خلال وعي الذات بنفسها ، ووعيها بالنص الذي تتلقاه . فالذات المدركة ، من جانب ، والنص المدرك من جانب آخر ، يتم التفاعل بينهما طبقا للتصورات العامة السائدة في الثقافة المعاصرة لعملية القراءة التي تشكل «وعي» القارئ بهاتين الحقيقتين . فالمقولة - التي قبلها اليوم - بأن القارئ قد يستخرج من النص «دلالة» ليست هي ما قصد إليه المؤلف سواء لأن النص يجتمعا وفقا لضرورة غير ما قصد المؤلف ، بل وحتى من إسقاط القارئ ، لم تكن مطروحة من قبل ، ولم يكن من الممكن تصورها إلا بعد ظهور مفاهيم علم النفس الحديث وانتشارها ؛ وكان كل ما يمكن تصوره ، هو أن النص منتج من قبل متكلم يضع فيه «دلالة» يعينها ليس على القارئ سوى أن يستخرجها من النص ؛ وأن دوره دور سلمي ، فلا يمكن أن «يحمل» النص ما لم يكن من قصد منتج . ولا يعني ذلك استبعاد احتمال سوء الفهم ؛ فقد يسعى القارئ فهم قصد الكاتب . فيصل إلى قراءة مغلوطة ؛ ولكن ليس هناك سوى قراءة واحدة صحيحة ، هي التي يجهدهم القارئ لبوضها ؛ أما القول بأن هناك أكثر من قراءة صحيحة للنص الواحد فلم يكن مطروحا ، قبل أن يطرح وجود نظرة ذاتية ، في مقابل النظرة الموضوعية ، أو إمكان «تحمل» النص الواحد أكثر من دلالة (ويجب الحرص هنا على استثناء

نصوص العلوم الطبيعية من ذلك، حيث يتم تحديد وتعريف الكلمات والمصطلحات تحديدا صارما يمنع إمكان تحميلها أكثر من معنى واحد محدد، يحد من حرية كل من الكاتب والقارئ في استخدام الكلمة أو المصطلح في غير ما استهدف منه؛ غير أن ذلك يخرج عن مجال حديثنا). فكانت القراءة هي البحث عن الدلالة المرددة في النص مسبقا. ورغم أن النص من وضع متكلم معين فلم يكن ذلك يعني أنه ملك له، بل يمكن امتصاصه واستبطانه وهضمه ليصبح ملكا للقارئ، أو جزءا منه. ومن المقولات التي تؤمن بها، مثلا، مارجريت يورسينار الكاتبة الفرنسية المعاصرة، ربا لأنها عايشت ثقافة القرون الوسطى، أنه ليس من المهم من يقول الشيء، ولكن المهم هو أن يقال. إن الإحساس بالامتلاك، بما في ذلك النصوص، هو تطور من التطورات التي ظهرت مع ظهور الفردية وتبلورها. ولا يتنافى ذلك مع نظرية السلطة النصية أو الـ *Autoritas* في الثقافة المسيحية، أو الإنسان في الثقافة الإسلامية. إذا كان الغرض من تتبع سلسلة الإسناد الأقدمين إلى صديق الرواة في النقل وأمانتهم، حتى يمكن للمتلقي الركوز إليها واعتادها فيما يؤمن به والتصديق والتسليم بما جاء فيها، وليس حفظ حق من قالها في ابتكارها أو السبق إلى اكتشافها.

تتشرب بعض المقولات دون أن تفصح عن الافتراضات الضمنية التي بنيت عليها أو أن تتبين حقيقة المنطقات التي تكمن وراءها. من بين تلك المقولات الثنائيات الضمنية التي تميز نوعين من القراءة في التراث الإسلامي: النقل والعقل، أو الرواية والدراسة. فقد يترتب على المصطلح الأول أن القارئ كالوعاء الفارغ الذي يملؤه النص كما يملأ كوب فارغ سائل فيطوون الكرب بلون السائل الذي يسكب فيه. وأن الرواية هي في الواقع ترديد النص دون إحمال العقل. ومعنى هذا أن النوع الأول هو قراءة سلبية، أما النوع الثاني فهو قراءة إيجابية، أو أن النوع الأول هو تقصص النص، أما الثاني فإنه من نوع القراءة النقدية أو الحوارية. وكان ينظر أيضا إلى القراءة في العصور الوسطى المسيحية على أنها خويان في النص دون تفاعل أو رد فعل. غير أن الصورة قد تبدو مختلفة إلى حد ما إذا ما توقفتنا عند أساليب القراءة عند القراء المسلمين: علماء التفسير الذين اتكوا على القرآن يتخصصونه ويدرسونه ويعايشونه قرونا عديدة؛ وكذلك عند القراء المسيحيين، أي آباء الكنيسة الذين وضعوا الأسس التي شيدت عليها علوم قراءة الكتاب المقدس. ولا شك أن ثمار قرون من تأمل النصوص الدينية يكشف لنا كثيرا من جوانب علاقة القارئ بالنص. وقد تكون المقارنة بين نظريات القراء المسلمين والمسيحيين كاشفة إلى حد كبير لأليات القراءة. وبما لا شك فيه أن جهود هؤلاء العلماء لم تبق محصورة في إطارهم وحدهم. إذ إن قراءة النص الديني كانت منتشرة في المجتمع برمه الذي كان يحيا في «نور» قراءة النص ولكنه في نفس الوقت كان يعيش في «ظل» من ألوها أنفسهم مهمة قراءته قراءة «صحيحة». ولابد أن نعي كيف كان هؤلاء القراء الأوائل يتصورون أنفسهم في مقابل هذا النص الذي كان المرجع الأول والأخير في حياتهم الروحية والعلمية والعلمية.

لابد في البداية من تحديد بعض الأطر العامة التي كانت تغلف تنظير هؤلاء القراء للقراءة. إن قراءة النص الديني من داخل إطار الإيمان توجه القارئ ترجها خاصا. إذ يخضع لهذا الإيمان خضوعا تاما يوجه الباحث وهو يتفاعل مع نص يحيط به قدسية وعالية ورمزية تجعل الاقتراب منه عاطفا بالمخاطر. والمؤمن الذي يملأ قلبه الإيمان مقتنع في أعماقه من قبل أن يقرب النص بأن الله قد أودع الحقيقة في هذا النص ليتعرف عليها العباد. وإذا تأملنا هذه القراءة فإن القارئ يبحث في النص الذي يقرؤه عن المعنى والدلالة، والحقيقة، والمهلية، وأيقسا عن نفسه. غير أن القراءة لم تكن قراءة سلبية، بل كانت أقرب إلى المواجهة وضعت لها شروط امتدت إلى عصرنا هذا. فالمعريونوطيقا الحديثة نابعة من تراث تفسير الكتب المقدسة.

مستويات القراءة عند علماء المسلمين

ومن أهم المؤلفات حول أنماط القراءة كتاب الزركشي «البرهان في علوم القرآن». وأود أن أثقف عند هذا الكتاب بعض الشيء لما فيه من تأملات خصبة. وعمد بن بهادر بن عبدالله بندين الزركشي (٧٩٨هـ - ٧٥٤هـ) كان من علماء مصر الشافعية، وقد عرف عنه الزهد والتقشف، ويبدو أن الزركشي كان متواضعا رقيقا، يلبس الخشن ويقنع بالقليل. وتقول عائشة عبدالرحمن إن كتاب الزركشي لم ينتشر كثيرا في عصره ولم يشتهر إلا بعد أن نوه به جلال الدين السيوطي الذي صرح أنه اتخذ أصلا لكتابه الإتقان في علوم القرآن، ومع ذلك فقد اشتهر الفرع على حساب الأصل. والفروق كثيرة بين الكتاتين، فلا بد من التأمل في إعادة كتابة البرهان على يد السيوطي. وما يستعري الانتباه تعاطف الزركشي الواضح تجاه التصوف، ربما لما في نفس الزركشي من ميل إلى الحياة الروحية بصفة عامة، هذا من جانب، ومن جانب آخر يتمتع كتاب الزركشي بتوجه عقلائي معتدل في التعرض لعدد كبير من المسائل المطروحة. ورغم إغراء إجراء المقارنة بين الكتاتين أكتفي هنا بعرض ما يراه الزركشي مطروحا بالنسبة للمسلم الذي يسعى إلى قراءة القرآن، والعلوم المختلفة التي تعينه على القيام بهذا النشاط. وما لا شك فيه أن كتاب البرهان في أساسه يعرض نظرية التفسير القرآني وهو مصنف على غرار المقدمة في علوم الحديث لابن الصلاح، أي يحاول الزركشي أن يعرض في كتابه - وبطريقة تعليمية إلى حد كبير - جميع ما استقر على أن يسمى بعلوم القرآن وفنونه. وهذا الجمع له فائدة عديدة بالنسبة للزركشي وهي أن تكون «مفتاحا لأبوابه (القرآن)، . . . معنا لمفسر على حقائقه» (٢٣). وإذا قلنا إن التفسير هو القراءة المتعمقة للنص القرآني فالزركشي في الواقع يعرض لجميع مستويات القراءة، فيميز بين القراءة، والتجويد، والتلاوة، والترتيل، والتفسير، والتأويل. أما المستوى الأول فإنه موضوع علم القراءات ويتناوله الزركشي في الفصل الثالث والعشرين بعنوان «معرفة توجيه القراءات وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ»، ومرجع الزركشي في هذا العلم هو كتاب التيسر لأبي عمرو الداني.

وفي تعريف القراءات يقول الزركشي:

«واعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كُتُب الحروف أو كُتُبها؛ من تخفيف وتثقل وغيرها» (٢٤)

وعلم القراءات هو ضبط النص وهو علم دقيق المخزى لا يقوى عليه سوى علماء على مستوى رفيع من التخصص، أما مستوى التجويد فهو في طريقة إخراج الأصوات بالنسبة للمقرئين الذين يجهرون بالنص. بينا التلاوة والترتيل - وهي القراءة التي تهمنا هنا - فيرى الزركشي أنها تهم كل مسلم على اختلاف مستويات علمه. ويستعمل الزركشي هذا الفصل بمدخل يضع القارئ في موقف نفسي يوهله لاستقبال النص الذي هو بصدد تلاوته. يقول الزركشي إن تعلم القرآن نعمة من أكبر النعم التي منحها الله الإنسان، حيث إن القرآن أعظم المعجزات، وأن النبي خاتم الأنبياء والمرسلين. فالحاجة بالقرآن العظيم قائمة على كل عصر وزمان، لأنه كلام رب العالمين. وفي هذه المقدمة أسس الإيمان بإعجاز القرآن بعد الإيمان به. وكان الذي يبدأ التلاوة يبدأ بإثبات إسلامه وإيمانه بالله ورسوله. أما الخطوة الثانية في التلاوة فهي الاعتقاد بأن القرآن هو الهادي والمعين في توجيه العمل:

«فليمن عنده القرآن أن الله أنعم عليه نعمة عظيمة، وليستحضر من أفعاله أن يكون القرآن حجة له

لاعليه؛ لأن القرآن مشتمل على طلب أمور، والكف عن أمور، وفكر أخبار قوم قامت عليهم الحجة فصاروا عبرة للمعتبرين حين زاغوا فأنزغ الله قلوبهم، وأهلكوا لما عصوا، وليحذر من علم حالم أن بعض، فيصير ماله مآلهم؛ فإذا استحضر صاحب القرآن علو شأنه بكونه طريقا لكتاب الله تعالى، وصدوره مصحفا له انكفتت نفسه عند التوفيق عن الرذائل، وأقبلت على العمل بالصالح المأثل...» (٢٥)

ويجب ألا ننسى أن الزركشي يخط في هذا الفصل خطوطا عامة في «آداب تلاوته [أي القرآن] وكيفيتها». أي السلوك العام الذي يجب أن يتبع في جميع تفاصيل التلاوة. فلايد من الاستعداد الجسدي من الاستياك وتطهير الفم، إلى تطهير البدن بالطيب المستحب تكريما لحال التلاوة، وإرتداء ما يتجمل به التلي بين الناس من ثياب. ويعد هذا الاستعداد الروحي والجسماني يشرح الزركشي كيف يبدأ المسلم القراءة، وشروط الابتداء: التعويد واليسملة، وبعد هذه البداية هل تكون القراءة في المصحف أفضل، أم على ظهر قلب؟ وفي هذا يطرح الزركشي ثلاثة أقوال (٢٦):

الأول أنها من المصحف أفضل؛ لأن النظر فيه عبادة فيجتمع القراءة والنظر. والأدلة التي يقدمها الزركشي على أن طريقة القراءة من المصحف أفضل من القراءة على ظهر قلب هي أولا من التقاليد المتواترة في القراءة، فيذكر من الصحابة والأئمة من كانوا يقرؤون من المصحف مثل القاضي الحسين والغزالي والشافعي، ثم يذكر بعض الأحاديث النبوية التي تحلي من شأن القراءة في المصحف. ويؤكد أن أجر هذه القراءة أكبر من القراءة على ظهر قلب. والقراءة التي تجمع بين الصوت والصورة أو جارية العين وجارية اللسان هي القراءة جهرا لا القراءة الصامتة. ويبدو أن هذا النوع من القراءة - الجهر - كان هو السائد في المجتمع الإسلامي وفي القرون الوسيطة المسيحية على حد سواء؛ وأن التحول من القراءة جهرا إلى القراءة الصامتة كان تطورا كبيرا في علاقة القارئ بالمصحف.

أما القول الثاني: إن القراءة على ظهر القلب أفضل فيعضده الزركشي بتقدم رأي أبي محمد عز الدين بن عبد السلام الذي يقول في أماليه (٢٧).

قيل القراءة في المصحف أفضل؛ لأنه يجمع فعل الجارحتين؛ وهما اللسان المعين، والأجر على قدر المشقة. وهذا باطل لأن المقصود من القراءة التدبر لقوله تعالى «ليتدبروا آياته» (٢٨) والمادة تشهد أن النظر في المصحف يخل بهذا المقصود، فكان مرجوحا.

ويتضح هنا أن الهدف من القراءة هو أن يتدبر القارئ النص، والتدبر هو التأمل في أديار الأمور وعواقبها، ثم استطراد في شرح كل تأمل سواء كان ناظرا في حقيقة الشيء وأجزائه أم في سوابقه وأسبابه أم في لواحقه وأعقابها. فالهدف من القراءة هو التأمل في معاني القرآن، فالتمييز بين النوعين من القراءة على سبيل تحديد أياها أفضل في التوصل إلى التدبر وأياها يعين القارئ في ممارسة هذا التأمل.

ويؤكد الزركشي أن الهدف من القراءة هو تدبر النص وأن القارئ له حرية الاختيار بين الطريقتين في القراءة على أساس أياها تعينه على التوصل إلى هذا الهدف. تظهر أهمية غاية التدبر أوضح ما تظهر في القول الثالث، وهو قول النووي والذي جاء في الأذكار (٢٩):

إن كان القارئ من حفظته ويحصل له من التدبر والتفكير وجمع القلب أكثر مما يحصل له من المصحف فالقراءة من الحفظ أفضل، وإن استويا فمن المصحف أفضل، قال: وهو مراد السلف.

وإذا كان الزركشي في نهاية هذه المسألة لا يعبر عن رأيه بوضوح فإننا نجد أنه في القول الأول أتى بعدد من

الأحاديث النبوية تعضده. ويستند أيضا إلى القدوة بالسلف الصالح من الخلفاء الراشدين والأئمة بما فيهم الإمام الشافعي الذي يتبعه الزركشي؛ فيبدو من ذلك أنه يميل إلى القول الأول، وهو أن القراءة بالعين واللسان؛ أفضل من القراءة على ظهر قلب وذلك كان المتبع في تقاليد القراءة (عند السلف).

ويبدو من ذلك - وكما أسلفنا - أن القراءة كانت جهرا لتشمل الجارحتين العين واللسان، غير أن الزركشي في مسألة أخرى يطرح الاختيار بين القراءة جهرا والقراءة بالإسرار. ويستحب البعض الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها، لأن المرء قد يمل فأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيسترخ بالإسرار، «إلا من قرأ بالليل جهر بالآثر، وإن قرأ بالنهار أسر بالآثر». ويروي الزركشي عن معاذ بن جبل: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالسر بالصدقة». ويعلق الزركشي برقته المعروفة:

نعم من قرأ والناس يصلون فليس له أن يجهر جهرا يشغلهم به، فإن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يصلون في المسجد فقال: «يا أيها الناس كلكم يناجي ربه، فلا يجهر بعضهم على بعض في القراءة».

ويعد كل هذه الاستمدادات الروحية والنفسية والجسدية، واختيار القراءة الأكثر ملاءمة، يبدأ القارئ. والتلاوة تبدأ بالترتيل، وهو التلاوة بوعي شديد بكل حرف من حروف النص، وبكل كلمة من كلماته. والترتيل هو أيضا تصنيف للنص، أي الوقف عند كل مقطع، ويعرف الزركشي الترتيل بقوله:

«فحق كل مسلم قرأ القرآن أن يرتله، وكما الترتيل تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه والإقصاد لجميعه بالتدبر حتى يصل بكل ما بعده، وأن يسكت بين كل النفس والنفس حتى يرجع إليه نفسه، وألا يدهم حرفا في حرف، لأن أقل ما في ذلك أن يسقط من حسنة بعضها، وينبغي للناس أن يرغبوا في تكثير حسناتهم»^(٣٠)

فالقراءة لابد أن تكون مفصلة دقيقة فيها تدبر وفيها أيضا إحساس بإعجاز القرآن، أي بصفاته، أو كما يقول الزركشي بحسناته. ويجب في الترتيل أن يظهر القارئ مخزى النص، أو كما يقول الزركشي أن يقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تقييدا لفظ به لفظ التهديد، وإن قرأ لفظ تعظيم لفظ به على التعظيم. فلا يجب القراءة بلا تعبير وبطريقة آلية. فإذا كان الترتيل ينطوي على الجانب الصوتي من مخارج الحروف وتوضيح كل حرف من الحروف فإن قراءة النص لابد أن تنطوي على جانب «تمثيل»، أن يتمثل القارئ ما في النص من مشاعر مثل التهديد والتعظيم.

وبذلك تدرجت القراءة من المستوى الفونولوجي - الصوتي (وهذا مما يؤيد القراءة بالجهر)، إلى المستوى الأدائي، ثم يتصل القارئ إلى المستوى الدلالي. وفي هذا المستوى يقرأ القارئ بـ «القلب»، فـ «ينبغي أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ بلسانه». فنرى أن القراءة هنا تجمع بين ثلاث جوارح العين، واللسان والقلب. وهذا التفكير يوصل القارئ إلى «معرفة من كل آية معناها، لا بماؤها ولا غيرها حتى يعرف معناها»، ومن اللافت للنظر أن الزركشي في هذا الموضوع يعرف المعنى في هذا النوع من القراءة. فالمعنى هو الاستبطان لما تتضمنه الآية من توجيه نحو الرياضة النفسية والخلقية للتوصل إلى الرحمة واجتناب العذاب. فهذه القراءة هي قراءة أخلاقية في المقام الأول. وتعد هذه الرياضة النفسية - الأخلاقية إلى ذوي القارء وأهله، ولابد من امتدادها خارج نطاق الأقرباء إلى الغرباء. فإذا شعر وهو يقرأ أنه أساء إلى أحد فلا بد من النية إلى إصلاح الغلطات. والتوصل إلى هذا المستوى من الفعل يكون القارئ توصل إلى كمال الترتيل.

وفي كل هذه المستويات يفترض الزركشي ضمنا أن القارئ لا يواجه صعابا أو مشاكل في القراءة وأن النص

عالم الفكر

في تناول فهمه (لايستخدم الزركشي كلمة الفهم ولكن يستخدم كلمة التدبر)، ولكن إذا صادف القاريء آية لا «يعرف» معناها فما العمل؟ «عليه أن يحفظ الآية حتى يسأل عنها من يعرف معناها، ليكون متعلما لذلك طالبا للعمل به» ولكن قد نسال الزركشي في هذا الموضوع: «يسأل من؟» ولكنه لا يجده هنا سلطة مرجعية يرجع إليها القاريء، بل يتركه حكما في اختيار من يسأل. ثم إذا كانت الآية فيها خلاف فإذا يفعل القاريء؟ إن الاختيار هنا أيضا متروك للقاريء بأن «يعتقد من قولهم [المختلفين] أقل ما يكون»، وهذا الموقف المتدلل هو الذي يوجه اختيارات الزركشي بصفة عامة، ولكن هناك محك آخر يدخله الزركشي في الاختيار وهو «التوكيد»، يقول «إن احتاط [القاريء] على نفسه بأن يعتقد أوكد ما في ذلك كان أفضل له وأحوط لأمر دينه». (٣١)

ونجد أن الاعتدال بالنسبة للزركشي هو أساس الحيلة الروحية والنفسية والحلقية، فحتى الخوف والرجاء يجب أن يكونا معتدلين:

«فإن كان ما يقرره [القاريء]... وعيدا وعد الله به المؤمنين فليُنظر إلى قلبه، فإن جنح إلى الرجاء فرمعه بالخوف، وإن جنح إلى الخوف فسمح له في الرجاء، حتى يكون خوفه ورجاؤه معتدلين، فإن ذلك كمال الريان». (٣٢)

غير أن هناك منطقة من النص لا يجب أن يقرها القاريء وهي منطقة التشابه، حيث إن هذه الآيات في القرآن، طبق تصنيف المفسرين قد تفرد الله بتأويلها، فلا حق للقاريء في محاولة معرفة معانيها على حق قول الزركشي، ويستشهد الزركشي في هذا المقام بآيتين: «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيبتغون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله» (٣٣). وقضية التشابه من أصعب القضايا المطروحة بالنسبة للمفسرين وأكثرها تركيزا وتعقيدا، ولكل مذهب من مذاهب التفسير موقف خاص من هذه القضية وقد تعرض لها الزركشي في البرهان في موضوع آخر من الكتاب، فللمتشابه علم خاص به يقدمه الزركشي في الفصل الخامس بعنوان «علم التشابه». وليس هنا مجال عرض هذا الفصل ولكن ما نستطيع قوله إن القراء مراتب وإن مرتبة المسلم المؤمن - أي القاريء العادي غير المتخصص - يجب ألا يحاول الخوض في مسائل قد تفسد إيمانه وتبطل ذهنه.

وكما أسلفنا القول يحيل الزركشي إلى المنهج الصوفي ويدافع عن المتصوفة في أكثر من موضع من كتاب البرهان، رغم أن تفاسير المتصوفة كانت موضع هجرم شديد من جمهور العلماء، غير أن المتصوفة أنفسهم كانوا يسمون تفاسيرهم «إشارات» لتفادي ما كانوا يتعرضون له من هجمات، ويتبنى الزركشي هذا الموقف مع شيء من التحفظ، فإنه يعد تفاسير المتصوفة «تلاوة» للقرآن فنجد عنده المقولة التي شاعت في كتابات الشيعة والمتصوفة من أنه «ما من آية قرآنية إلا ولها أربعة معان: ظاهر وباطن وحد ومطلع». وأصل هذه المقولة يُرد إلى علي بن أبي طالب. غير أن الغزالي يستشهد بهذه المقولة لتأكيد أن للقرآن باطنا غير ظاهره، وأكثر من ذلك يجعل منها حديثا نبويا، وإن كان ينسب إلى أنه «ربما نقل هذا عن علي موقوفا عليه» (٣٤). وربما يكون من المقيّد تتبع تفسير هذه المقولة عند المفسرين على اختلاف مذاهبهم؛ ولكن الذي يتضح لنا من ورودها في البرهان أن الزركشي يمتحى إلى الاتجاه الذي يطلق عليه التصوف السني. والذي يمتحى في هذا المصباح أن الزركشي يرى أن القاريء يتمتع بقدر كبير من الحرية، وأن التلاوة عنده هي نوع من المجاهدة النفسية فإنه يقول بالنسبة لتفاسير المتصوفة:

فأما كلام المتصوفة في تفسير القرآن، فقليل ليس تفسيرا، وإنما هي معاني ومواجيد يجذبونها عند التلاوة،

كقول بعضهم في «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» (سورة البقرة ١٦-١٧)، إن المراد النفس، فأمرنا بقتال من يلينا ولأنها أقرب شيء إلينا وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه.

قال ابن الصلاح في فتاويه: وقد وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي أنه صنف أبو عبد الرحمن السلمي (٣٥) حقائق التفسير فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر.

قال: وأنا أقول: الظن بمن يورث به منهم إذا قال شيئا من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيرا، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم، فإنه لو كان ذلك كانوا قد سلخوا مذهب الباطنية، وإننا ذلك منهم ذكر لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظر يلكر بالنظر، فمن ذلك مثال النفس في الآية المذكورة، فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فياليهم لم يساهلوا في مثل ذلك، لما فيه من الإيهام والالتباس انتهى. (٣٦)

وقد أتى هذا التنبيه على طبيعة التفسير الصوفي في الفصل الخاص بتعريف التفسير والتأويل، والذي يعمل عنوانا فرعيا يقول: «معاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء». والواضح من التقديم السابق أن الزركشي ينظر إلى التفسير الباطني بشيء من التحفظ ويفضل تفسير الظاهر، أي اعتماد المعنى الحرفي دون المعنى المجازي أو الباطني. غير أن الزركشي يتقبل أن ينطلق في القراءة إلى بعض الاستنتاجات رغم تحفظه هو عليها. وبما يؤكد هذا التقبل العرض الذي يعرضه في هذا الفصل، فصل التلاوة، ففي التلاوة يمكن للمسلم أن ينطلق إلى آفاق واسعة من الرياضة النفسية والروحية والصوفية. ويقدم الزركشي مراتب ثلاثة للصوفية على لسان بعض المتصوفة، وإن لم يذكره؛ يقول المتصوف إن الناس في تلاوة القرآن على ثلاثة مقامات (٣٧):

المقام الأول هو مقام العاوين من المؤمنين الذين يتوصلون إلى الله من خلال كلامه، ومعرفة معاني خطابه، فإن التلاوة هنا هي التوصل إلى المتكلم، ويلكر الزركشي قول جعفر بن محمد الصادق وهو من أئمة الشيعة: «لقد تجلّى الله خلقه بكلامه ولكن لا يبصرون». فالعارفون أسمى مرتبة من القاريء المسلم العادي الذي يتدبر النص ليعرف نفسه وأفعاله، أما العارف فإنه يبحث عن الله في خطابه، فإنه لا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته... بل هو مقصور الفهم عن المتكلم، موقف الفكر عليه، مستغرق بمشاهدة المتكلم.

أما المقام الثاني فهو مقام عموم المقرئين، وهم من يشهدون بقلوبهم كأنه تعالى يخاطبهم ويناجيهم بالطائفة، وحالم الإصغاء والفهم.

والمقام الثالث، وهو أرفعها. هو مقام أصحاب اليمين الذين يرون أنهم يناجون ربهم سبحانه وتعالى. ولكن من هم هؤلاء العارفون والمقرئون وأصحاب اليمين؟ «إن كل أحد يفهم عنه بفهمه الذي قسم له، حكمة منه».

وتقديم الزركشي لقراءات الصوفية يتفق مع ما ذهب إليه الجابري من أن انتشار التيارات العرفانية في الإسلام أدى إلى:

«... تجاوز إقامة التقابل بين الظاهر والباطن على مستوى النص القرآني، إلى التمييز تمييزا حاسما بين «علم الظاهر» و«علم الباطن». يقول أبو نصر السراج الطوسي، وهو من أوائل المؤلفين في تاريخ التصوف في الإسلام: «إن العلم ظاهر وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة. والأعمال الظاهرة أعمال الجوارح وهي العبادات والأحكام... وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات

عالم الفكر

والأحوال . . . ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وفهم وحقيقة ويوجد . . . فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي الجوارح الباطنة وهي القلب، وأما إذا قلنا علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء . . . (٢٨)

وبناء على التقسيم السابق يمكن القول إن التلاوة تنقسم إلى تلاوة كل مسلم التي تنتمي إلى علم الظاهر، أما تلاوة المتصوفة فتتبع إلى علم الباطن.

ولكن الذي نود تأكيده أن منهج الزركشي هو منهج الاعتدال، فإذا كان يذكر مقامات المتصوفة بنوع من التعاطف (وقد أسقطها السيوطي من الإقتان)، فإنه في الحقيقة لا يعتمد التفسير الصوفية في البرهان بل على المكس من ذلك فإن أكثر رجوعه في تفسير الآيات لكشاف الزخشي المعتزلي. وقد تقول إن الزركشي يفصل بين التفسير والتلاوة، فالتفسير علم دقيق المنحى، وهو ما يفصله في أبواب مختلفة من كتابه، أما التلاوة فتقوم على العلاقة الشخصية بين القارئ والنص، بين القارئ والله. التلاوة نشاط خاص يسمو به كل قارئ بنفسه فوق نفسه، أما التفسير فنشاط عام لا بد من اتباع خطوات دقيقة وحريصة عند ممارسته. وبما لاشك فيه أن علماء السنين كانوا يتخوفون خوفاً عاماً في علوم القرآن دون علم ولذلك خطوا حدوداً فاصلة بين القراء ومن لهم الحق في تناول هذا النص بالتفسير والتأويل.

وإذا كنا قد أطلنا في تحليل هذا الفصل من كتاب البرهان فلذلك لأهميته بالنسبة لدراسة علاقة القارئ بالنص، والألا لا بد من عرض ما يقابل هذا الفصل من كتاب الزركشي عند علماء المسيحيين.

مستويات القراءة عند علماء المسيحيين

كان عالم القرون الوسطى يتوصل إلى المعرفة من خلال القراءة، سواء كانت هذه القراءة للنصوص، أي الكتب، أو الأشياء أي كتاب الطبيعة، فالله يكلم البشر من خلال مخلوقاته وأيضاً من خلال خطابه. وهذا ينطبق على العالم الإسلامي والمسيحي على حد سواء. فالقراءة - كل أنواع المعرفة - يصل إليها العارف من خلال القراءة، والمعرفة تنتقل من الأستاذ إلى المريد من خلال القراءة أيضاً. ففي العالم الإسلامي كان الدرس هو قراءة فالمرید يقرأ العلوم على الأساتذة، وكذلك كان الأمر بين الأساتذة والمریدين في العالم المسيحي. وكانوا يميزون بين ثلاثة أنواع من القراءة: هناك قراءة الأستاذ *Lego librum illi* (أي أقرأ الكتاب له)، وقراءة المرید *Lego librum ab illo* (أي أقرأ الكتاب عليه)، وهناك القراءة الخاصة *Lego librum* (أي أقرأ الكتاب). فالتدريس هو القراءة بالمعنى الدقيق للكلمة، الأستاذ يقرأ النص الذي يدرسه ومحاضره تسمى *Lectio* (٢٩) وهو نفسه يسمى قارئ *Lector*، وما زالت هذه التسمية مستخدمة حتى يومنا هذا في بعض الجامعات الغربية، ومنها مصطلح «المحاضرة» بالانجليزية *Lecture* فالقراءة نشاط جماعي في نقل المعرفة، فبالرغم من أهمية هذا الموضوع - أي انتقال المعرفة من الأستاذ إلى المرید والدور الجوهرى الذي يلعبه «الشيخ» في تكوين الحياة النفسية للمریدين - فلنا نريد في هذه الفقرة الإحاطة على قراءة المرید عندما يواجه نصاً بمفرده.

ونجد عند المنظرين الذين تناولوا ظاهرة نشاط القراءة وصفاً لكيفية تناول النصوص بصفة عامة والنصوص المقدسة بصفة خاصة، فكان يطلق على هذه القراءة مصطلح *Lectio divina* أي القراءة المقدسة (وما زالت هذه التسمية مستخدمة حتى الآن). وقد قننت القراءة في الأديرة حيث مثلت النشاط العلمى والنفسى الأساسى في حياة الرهبان. وكانت الأديرة، وبخاصة في القرون الوسطى المقدسة، هي المراكز التي انطلقت منها العلم بكل

صوره. ومن أهم أدوية القرن الحادي عشر دير سان فكتور الذي لمع فيه - من بين من لموا - هوج دي سان فكتور صاحب كتاب ديلماتيكون أوفن القراءة^(٤٠)؛ نجد في هذا الكتاب القواعد العامة التي تحكم عملية القراءة. ويميز هوج دي سان فيكتور - على غرار من سبقه - بين نوعين من القراءة، أو ربا من الألق أن نقول بين مستويين من القراءة: للمستوى الأول هو مستوى التلاوة Lectio والثاني هو مستوى التدبر Meditatio؛ ويشبه هذا التصنيف ذلك الذي وجدناه عند الزركشي. فالتلاوة أو Lectio هي التعرف على النص، وارتداد النص، أما التدبر أو Meditatio فهو تحويل النص إلى الداخل، استيعاب النص، يقول هوج دي سان فكتور:

إن التلاوة (أو القراءة) تسعى إلى تدريب قدرات القارئ الطبيعية Ingenium وهذا من خلال التصنيف ومنهج العرض والتحليل Ordo et Modus، وقد يساعد على هذا اللجوء إلى النحو والجدل. أما التدبر Meditatio فرغم أنه يبدأ بالتلاوة فإنه لا يخضع لحدودها وقواعدها ولكنه يتجاوزها. حيث إن التدبر يستحسن الانطلاق في الساعات الراحية حيث يركز نظرتة الحرة المطلقة على مشاهدة الحقيقة. فيستطيع القارئ في مرحلة التدبر أن يربط بين هذه الأفكار أو تلك. أو أن يوصف في أعماق الأحياق، حيث لا يترك شيئا مشكوكا فيه أو غامضا. إن الدراسة تبدأ بالتلاوة وتصل إلى تنويرها في التدبر.^(٤١)

وكنا أسلفنا القول إن القراءة في العصور الوسطى كان ينظر إليها على أنها عملية سلبية يكتفي القارئ بامتصاص النص، كالإسفنج، دون التضاعل معه. غير أن هذه النظرة فيها شيء من التبسيط للمخل حيث إن الهدف من القراءة لم يكن مجرد الحفظ على ظهر قلب، وإنما كان الحفظ أداة لتحويل النص من حقيقة مادية خارجة عن النفس إلى جزء من ذاتها. فكانت النصوص مخزن في الذاكرة - التي كانت تقارن بالمعدة - ولكنها لم تكن مخزن احتياطيا، وشهد على ذلك عدد الرسائل والكتب التي ألقت على مر العصور في "فكر الذاكرة"^(٤٢)، فالحفظ كان يتم من خلال ربط جزئيات النص بيا يشبهها أو يستدعيها في النفس، بحيث تلتمح بها وتنسج داخل نسجها. ولا نستطيع أن نتعرض لكل تفاصيل فم الذاكرة في هذا التراث، ونحيل القارئ إلى الدراسات المشار إليها في المامش. ولكن هناك نقطتين نود إثارتها هنا. الأولى هي أن النص كان لابد أن يستبين، وكانت النصيحة العامة التي ينصح بها جمهور المعلمين لطلابهم أن يستأنفوا النص، أي أن يجعلوه أليفا Familiar أوحسب عبارة ألبير العظيم Albertus Magnus أن يستأنسوا النص Domesticar. إن هذه النصيحة، أن يحول القارئ النص إلى جزء من نفسه، كانت العرف الشائع في أساليب القراءة في القرون الوسطى. وهذه النصيحة نابعة من التوجه الأخلاقي العام الذي كان يسود تلقى العلوم في القرون الوسطى، حيث كانت القراءة نوما من الرياضة النفسية لكي يصل القارئ إلى قمة الكمال الإنساني. ويوضح هذا المنهج رسالة مشهورة لهوج دي سان فكتور بعنوان "عن سفينة نوح الأخلاقية" "De arca Noe morali" وبقدم فيها الخطوات التي يجب أن يتبعها الريد من خلال التدبر للوصول إلى قمة الحكمة. فالقارئ لم يكن منفصلا عن النص، بل على العكس من ذلك كما تشير الاستعارات التي كانت تستخدم للتعبير عن القراءة. فالقارئ كان يقارن بالبقرة لأنه يجتر النص كما يجتر البقرة الطعام. وكانت حركة الفم عند الترتيل والتجويد تساعد على مقارنة القراءة بالارتجار. وتشابه هنا يأتي من أن كلا من الأكل والقارئ يحول للأكل والنص إلى جزء من نفسه؛ كما أنه هو نفسه يتحول إلى شيء آخر بعد الانتهاء من التناول. كما كان القارئ يقارن بالحلة التي تحول رحيق الزهور إلى عسل.

واللائق للنظر أننا نجد هاتين الاستعارتين في البرهان، فمتدما يتحدث الزركشي عن التلاوة، في سياق

عالم الفكر

ماروي عن خلط بلال الطيب بالطيب من السور؛ ونهى النبي عن ذلك، يعلق الزركشي على ما رواه الترمذي في نواذر الأصول «مثل بلال كمثل نحلة غدت تأكل من الحلو والمر، ثم يصير حلو كله» :

وإنما شبهه بالنحلة في ذلك لأنها تأكل من الثمرات حلوها وحامضها، ووطبها ويابسها، وحارها وباردها فتخرج هذا الشفاء، وليست كغيرها من الطير تقتصر على الحلو فقط لحظ شهرته فلا جرم أعاضها الله الشفاء فيها تلقية؛ وهذا كقوله «عليكم باليابان البقر فإنها ترم من كل الشجر فتأكل»^(٤٢).

فالقارىء يحول الحلو والمر إلى شفاء كما تحول البقرة ورق الشجر على أنواعه وألوانه إلى لبن.

وكانت مقارنة القارىء بالبقرة أو النحلة شائعة في الثقافات الإغريقية والرومانية والقرون الوسطى الأوروبية، ونجدها أيضاً في الثقافة العربية، ولن تساورني الدهشة إذا ما اتضح وجودها في ثقافات الشرق الأقصى القديمة أيضاً. فإذا كانت تلك نظرتهم لدور القارىء، فهل يجوز لنا القول بأن قارىء القرون الوسطى كان سلمي الدور في عملية القراءة؟ والعبرة هنا هي أن العسل واللبن معدنان في طبيعتهما، فلا يستطيع القارىء أن يحول ما يقراه إلى أي مادة يختارها لنفسه، فالعبرة معروفة، والدلالة منحوتة في النص، وضعها صاحبه؛ وألمّا كان اجتهد القارىء فالدلالة عددة العدد؛ قد تكون واحدة أو اثنتين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة. ففي التفسيرات المسيحية كانت الدلالة تحصر في نطاق عددي محدد من واحدة إلى خمس، لا أكثر. وكان على القارىء أن يتوصل إلى هذا العدد المحدد، لا يتجاوز. وكانت الخلافات بين مدارس التفسير تنحصر حول عدد الدلالات في النص الواحد، ولكن كان لابد من تحليل العدد، والطبيعة، والمغزى.

وقد انتشرت منذ أوريجين Origen (١٨٥-٢٥٤) في القرن الثاني الميلادي مقولة الدلالات الثلاثة للكتابات المقدسة واكتملت إلى أربعة عبر القرون الوسطى ووصلت إلى قمته على يد توماس الأكويني.

وقد تسلسلت هذه النظرية إلى منهج القراءة، فالدلالات الأربع هي الدلالة الحرفية Literal or historical (الظاهر)، والدلالة الأليجورية Allegorical (المجازية)، والدلالة التريولوجية Tropological (الأخلاقية) والدلالة الأناجوجية Anagogical (الباطن) إن القارىء في تلاوته لابد أن يرتفع من مستوى إلى مستوى، ويقول هوج دي سان فيكتور في كتابه فن القراءة إن المستويين الأول والثاني من الدلالة يتوصل إليهما القارىء عن طريق التلاوة Lectio، وهذا بالاستعانة ببعض العلوم ومنها النحو والبلاغة والتاريخ، أما المستويان الثالث والرابع فلا وصول إليهما إلا من خلال التذير Meditatio.

إذا كان منهج قراءة النصوص قد تأسس في نطاق تلاوة النصوص الدينية فإنه لم يظل محصوراً في هذا النطاق حيث كانت المقارنة مطروحة بين النص الديني المقدس والنص الإنساني بالنسبة لأبناء الكنيسة حتى تظهر الفروق التي كانت تميز كلام الله عن كلام البشر. وهناك كثير من المناظرات التي كانت تمس هذا الموضوع ليس هنا مجال عرضها، ولكن ما ساند تأكيده هو أن هذا المنهج تسلسل إلى قراءة النصوص البشرية. وكان الشاعر الإيطالي بيترارك^(٤٣) ممن تعرضوا لموضوع القراءة واختزن النصوص في الذاكرة. وصورة القارىء عند بيترارك درست كثيراً كما عرضها في مذكرات سرية، ساهما سر الأسرار، كان يكتبها ونشرت بعد وفاته. وقد كتبها في شكل حوار بين الشاعر الذي يطلق على نفسه اسم فرانيسكو والقديس أوغسطين الذي كان بيترارك من مريدبه ولا يتحرك إلا واعتزافاته معه. وقد أودع هذه المذكرات خليجات نفسه، وأعترف فيها بخطاياه ومعاناته وشكوكه للقديس. وفي فترة من الفترات يشكو فرانيسكو (بيترارك) إلى القديس ضعف الجسد وهوانه، وما يعاني من الحياة في مدينة ميلانو بقلارتها وضجيجها وصخبها. فيلنكره القديس بكل الأعمال الأدبية التي تعالج مثل هذه المشكلة - بما فيها مؤلفاته هو نفسه. ألا تساعده هذه القراءات على مواجهة مشكلته وعذابه؟ يجيب فرانيسكو - بيترارك:

في لحظة القراءة نفسها أشعر أنها تساعدني حقاً، ولكن ما إن تترك يدي الكتاب حتى يتلاشى شعوري به. يقول أوجسطين: هذا النوع من القراءة أصبح عادياً الآن بين جمهور المتأدين... ولكنك إذا سجلت في مكانها الصحيح ملاحظات مؤيدة سوف تحصد نتائج قراءتك. يقول فرانتسكو: أي نوع من الملاحظات؟ يقول أوجسطين: عندما تقرأ كتاباً وتقابل حكماً متكاملة تغيث بها روحك وتحقق، لا تتق بقدراتك الطبيعية، ولكن تأكد من حفظها على ظهر قلب، واجعلها أليفة لك من خلال التدبر... حتى أنك عندما يتألبك داء مفاجيء تجد الدواء وكأنه كتب في ذهنك... عندما تقابل مقاطع ما تبدو لك مفيدة، علمها بعلامات متينة، وكأنها أوتاد في ذاكرتك حتى لا تطير بعيداً عنك. (٤٥)

ماذا تعني في الحقيقة عندما نقول اجترار النص، امتصاصه، جعله جزءاً من كيان القارئ؟ هل نتقبل اليوم هذا القدر من سطوة النص نظرياً؟ هل يحدث هذا في الواقع أم أن كل قارئ يمتص من النص على قدر رغبته واستطاعته، على قدر ما هو مؤهل له؟

قد يكون من المفيد أن ننقل إلى مرحلة تالية تاريخياً وأن نتأمل نظرية ميشيل ديمونتاني Montaigne الكاتب الفرنسي. إن مونتاني يعد الفصل الذي يفصل بين عقلية العصور الوسطى والعصر الكلاسيكي. كيف كان ينظر إلى القراءة؟ كان مونتاني يقارن القراءة بلعبة التنس^(٤٦) (المضرب)؛ يقول في فصل بعنوان «عن الخبرة» في كتابه الشهر المقالات Les Essais:

إن الكلام parole لا يتعي بالمناصفة بين المتكلم والمستمع. إن الأخير يجب أن يستعد لاستقبال الكرة حسب الاتجاه الذي تتلخف إليه. كما هو الحال بين لاعبي التنس. المستقبل يتحرك، ويستعد على أساس حركة المضارب وحسب طبيعة الضربة. (٤٧)

لاشك أن هذه المقارنة توجهت توجهاً مختلفاً عن مقارنة البقرة أو النحلة، حيث إن الطرفين هنا متساويان في اللعبة ولكل استراتيجية الخاصة في استقبال الكرة والتعامل معها. وفي جميع عناصر العرض الذي قدمه مونتاني كثير من السخرية والدعابة في آن واحد؛ وقد كان يتمتع بثقة كبيرة في النفس ولا يشعر بحرج أمام العباقرة الذين يواجهونه في الكتب، مع تسليمه بأنه لا يرقى لمستواهم، فهو لا يحاول أن يشمخ لقمهم، بل يود أن يكون هو نفسه، وأن يعبر عن هذه النفس معها ضوئاً! وكان مونتاني يتباً برونلان يارت عندما ينادي بالقراءة لمجرد المتعة دون الترجه إلى غاية نفعية أو أخلاقية!

هل أية حال لن نستطيع أن نستفد هذا الموضوع في هذه السطور القليلة حيث إنني أريد أن أتعرض في نهاية هذا البحث إلى نقطة تشغلني منذ بدأت في كتابة هذه السطور وهي الإجابة عن السؤال من أين تنبع الدلالة؟

المستوى الهرمونيوطي: مرحلة فهم الفهم

منبع الدلالة:

عندما نقول إن القارئ يفهم النص أو يتدبره، أو إنه يعرف معناه، فإذا تعني؟ إن في هذه الإجابة ثلاثة أقوال: الدلالة تنبع من المتكلم، الدلالة تنبع من القارئ، والدلالة تنبع من النص.

إذا بدأنا بالتعريف الشائع في التراث العربي للغة فإنه ينطلق من منبع المتكلم، فاللغة في تعريف ابن جني في الخصائص أنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم». وهذا التعريف يمتد أيضاً إلى تعريف البيان حيث إن البيان هو على حد تعريف الطبري الإبانة عما في نفس المتكلم:

... البيان، الذي به عن ضمائر صلوهم يبتون، وبه على عزائم نفوسهم يلون، فلذل به منهم الأسن، وسهل به عليهم المستعصب فيه إياه يوحون، وإياه به يسبحون ويقلسون، وإلى حاجاتهم به يتوصلون، وبه يتهم يتحاوون، فيتعارفون، ويتعاملون. (٤٨)

فاللغة إذن هي أداة للتعبير عن «أغراض» المتكلم، وفي اللسان «الغرض: شدة النزاع نحو الشيء والشوق إليه»، غير أن هذه الأغراض ليست ظاهرة ولكنها مكونة في ضمير المتكلم، وفي اللسان «الضمير السر داخل الحاطر، الليث: الضمير الشيء الذي تضره في قلبك...»، وأضمرت الشيء: أخفيته، وأضمرته الأرض: غيبتة إما بموت أو بسفر...، فاللغة إذن هي الوسيلة التي يستطيع المتكلم بها تحويل الأغراض و«الشيء» المضمّر في دخيلة ذاته إلى علامات صوتية يمكن أن تصل إلى متلق يستطيع أن يعرف من خلال قراءتها هذه الأغراض أو «الأمشياء» التي تحمّس بها نفس المتكلم. والفرض المطروح هو أن المتكلم يتوجه نحو هذا المتلقي بالكلام فيسعى إلى توصيل محتوى النفس هذا إليه، فمن العبث إرسال رسالة إلى مخاطب دون هذا الهدف.

ونستطيع أن نقول هنا إن محتوى النفس هذا الذي يعبر عنه ابن جني بـ«الأغراض»، والطبري بـ«الضماير» هو ما يصطلح على تسميته في علم اللغة القديم والحديث بقصد المتكلم. ونحيل القارئ هنا إلى دراسة نصر حامد أبو زيد التي حلل فيها مستويات الدلالة في التراث العربي، حيث تعرض بالتفصيل إلى هذه القضية^(٤٩). وتطرق نصر حامد أبو زيد إلى الفارق بين دلالة العلامات المفردة التي تكسب دلائها من فعل اللواضعة ودلالة الخطاب الذي لا يكتسب دلالته إلا بفعل قصد المتكلم. وقد أسند نصر أبو زيد هذا التمييز إلى المعتزلة غير أنني أرى أن إسناد الدلالة إلى قصد المتكلم لا يقتصر على المعتزلة ولكنها مقولة مشتركة في الفقه الإسلامي (مقاصد الشريعة، أسباب النزول)؛ كما تستند إليها جميع التشريعات الإلهية والبشرية على حد سواء. وإذا تعمقنا هذه المقولة (أي أن الدلالة تتبع من قصد المتكلم) نرى أنها تتخلل جميع أنواع الخطابات. فيميز الغزالي مثلاً بين العبارة والخبر من منطلق قصد المتكلم يقول:

وأما العبارة فهي الأصوات المتقطعة التي صيغتها مثل قول القائل: زيد قائم وضارب، وهذا ليس خبراً لئانه، بل يصبر خبراً بقصد المتكلم إلى التعبير به عما في النفس. ولهذا إذا صدر عن نائم أو مغلوب لم يكن خبراً، وأما كلام النفس فهو خبر لئانه، وجنس إذا وجد لا يتغير بقصد المتكلم^(٥٠).

إن الكلام ينشأ من النفس، نفس المتكلم، مقولة جوهرية بالنسبة لكل التفكير اللغوي؛ وقد كان المفهوم الكلام النفسي مركز محوري في علوم القرآن، ونشر هنا إلى مقال شكري عياد القيم الذي يوضح أهمية هذا المفهوم في الكتابات الإسلامية بعنوان «المؤثرات الفلسفية والكلامية في النقد العربي والبلاغة العربية»^(٥١).

ولا شك أن مفهوم القصد يمثل جزءاً أساسياً من دلالة الخطاب سواء كان هذا في الفكر التراثي العربي والغربي أو الفكر اللغوي الحديث. ووجدتها في عدد من الكتابات التي تسعى إلى قراءة النصوص في التراث الغربي في القرون الوسطى، سواء كانت هذه النصوص دينية أو إنسانية. وقد قدم هذه النصوص عللاً برطانيان متخصصان في دراسات القرون الوسطى وقدمتا ترجمة إنجليزية لمجموعة من النصوص الخاصة بتقاليد التفسير التي تتناول النصوص المقدسة والإنسانية من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١٣٧٥^(٥٢). ونجد من بين

هذه النصوص المقدمة التي كانت تستهل الأعمال الشعرية وكانت هذه المقدمات تتبع منهاجاً محدداً يعد القارئ لفهم النص الشعري، وتسمى هذه المقدمات Accessus auctores أي التقريب إلى المؤلفين. فلكي يفهم النص كان على القارئ أن يتعرف على قصد المؤلف Intentio auctoris، عنوان الكتاب Titulus الإجراء التعليمي أو الأسلوبى Modus agendi أو Modus Tractandi، النظام المتبع في تقديم المادة Ordo، الفائدة التعليمية أو الأخلاقية Utilitas، المحتوى Materia والفرع المعرفي الذي ينتمي إليه المؤلف Cui parti Philosophiae supponitur.

من الصعب تقديم تتبع تاريخي لمفهوم قصد المتكلم في الدرس المغربي بصفة عامة، وفي درس النصوص بصفة خاصة في بحث مختصر مثل هذا، غير أن البحث عن قصد المتكلم ساد إلى حد كبير الدرس النصي حتى القرن الثامن عشر عندما بدأ الوعي بالوضع التاريخي لكل من المتكلم والمخاطب، والشقة التي قد تفصل بينهما يتشكل ومن ثم تحولت علوم التفسير والتأويل^(٥٣) من علوم تبحث عن الدلالة Interpretation إلى علم الميرمينوطيقا الذي يبحث في آليات الفهم Comprehension، وهذا التحول جعل القارئ موضع البحث بدلاً من المتكلم. وقد صاحب هذا التحول بعض الأسئلة حول الدلالة التاريخية للغة، وكيف أن دلالة الألفاظ المفردة تختلف من عصر إلى عصر، ويستشهد بيتر زوندي Peter Zondi بقراءة المجتمع الأثيني لهوميروس، فالفتوة التي كانت تفصل بين الأثينيين وهوميروس هي نفسها التي تفصل بين اللغة الألمانية الحديثة وأسطورة النيبلونج Nieblungen^(٥٤). غير أن مهمة الشارح أو المفسر كانت أن تقرب النص القديم إلى القارئ المتأخر وأن تلغي هذه الهوة، فكان يترجم الكلمات القديمة إلى كلمات حديثة. وهذا ما يحدث في شروح الشعر العربية، عند شرح غريب الألفاظ. وقد يكون من المفيد مقارنة شروح ديوان شاعر واحد على مر العصور لمعرفة تطور القراءة والابتعاد أو الاقتراب من النص. ومن اللافت للنظر لمن يتراد شرح المعكبري منا - وهو من القرن السابع الهجري - اقترابنا من شرحه لمعنى أبيات المتنبي. فالمعكبري في الحقيقة «يترجم» لغة المتنبي - الذي قال شعره قبل المعكبري بثلاثة قرون - إلى لغة عصرية (قد يقول قائل إنه يحول الشعر نثراً وهذا ليس بشرح بل تشويه، ولكن الذي أود تأكيده هو عمليه التقريب التي تتم دون الالتفات إلى أن هذا الشعر ينتمي إلى عصر مضى وانقضى وربما لا نستطيع أن نفهمه» لإبتعاده عنا ولا يكفي مجرد «ترجمة» الألفاظ القديمة الغريبة إلى ألفاظ مألوفة للقارئ).

إن تحول دراسة النصوص من محاولة تفسير النص المعتمد على التوصل إلى قصد المتكلم إلى محاولة معرفة آليات الفهم، تقول إن هذا التحول أثار كثيراً من المشكلات التي لم تكن مطروحة من قبل. منها الإطار الاجتماعي والثقافي والحضاري الذي ينتج فيه النص مقارناً بالإطار الذي يستقبل فيه. فالبعد الزماني والمكاني اللذان يفصلان بين النص والقارئ أصبحا عائقاً أمام فهم النص. فهل يستطيع قارئ عربي، أو فرنسي، أو إنجليزي يعيش في القرن العشرين أن يفهم رواية يابانية كتبت في نفس القرن^(٥٥)؟ أو هل يستطيع قارئ ياباني يعيش في القرن العشرين أن يفهم رواية يابانية كتبت في القرن السادس عشر مثل قصة جنجي The Tale of Genji؟ إن المشكلة ليست مشكلة دلالة الألفاظ «المغريبة» فحسب ولكنها مشكلة مفاهيم وعادات، مشكلة أبنية سييموطيقية، أنظمة معرفية، إلخ. لقد بدأت تتسلل إلى دراسة النصوص مفاهيم النسبية التي مؤداها أن كل منتج ثقافي مشروط بظروف إنتاجه التي تختلف من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى

عالم الفكر

مكان، ومن لغة إلى لغة، ومن ثقافة إلى ثقافة الخ... فكيف يستطيع القارئ أن يجاوز هذه العقبات وهل يستطيع فعل ذلك والتوصل إلى فهم «صحيح» للنص في ظل هذه المعوقات؟ وما هو الفهم «الصحيح» للنص. هل هناك فهم واحد صحيح أم هناك مناخل مختلفة للفهم تتساوى؟ إن علم الميرمينوطيقا الحديث يحاول الإجابة على هذه الأسئلة.

وقد طرحت منذ تبلور ما يعرف اليوم بعلم الميرمينوطيقا الفلسفي مجموعة كبيرة من التصورات حول عملية «الفهم» بصفة عامة، وفهم النصوص بصفة خاصة، وفهم النصوص الفنية بصفة أخص.

يمكن أن نطرح هنا مرة أخرى هذا السؤال: من أين تنبع الدلالة؟

من المتكلم؟ من القارئ؟ من النص؟ كانت الإجابة قاطعة في الماضي بأنها تنبع من المتكلم، أو بمعنى أصح من قصد المتكلم في توصيل رسالة معينة. وأصبحت الإجابة اليوم مفتوحة، تتراوح بين الخيارات الثلاث. هل هذا القصد قصد لغوي؟ هل الأفكار والرغبات والمعتقدات تمثلات ذهنية لغوية أم غير لغوية وتتصاغ في سلسلة من الأصوات هي اللغة؟ وإذا كانت لغوية هل تؤثر اللغة (وهي الكيان الاجتماعي) على تشكل هذا القصد؟ لقد انفصلت اللغة عن المتكلم، عن مستخدميها، ونشأ نوع من الصراع بين المتكلم واللغة، فأحيانا تسيطر اللغة، وأحيانا أخرى يسيطر المتكلم. إن هذا الانقسام جعل النصوص تكتسب نوعا من الاستقلال النسبي عن المتكلم.

ولكن التفجير الجوهري الذي ساد دراسة النصوص الفنية هو الدور الجوهري الذي أخذ يلعبه القارئ في تلقي النص الفني بحيث أمكن أن يقال إن القارئ هو الذي «يتيح» النص، مثل العازف الذي يؤدي القطعة الموسيقية، ويصبح هناك عدد من النصوص يقدر القراء الذين يتلقون النص. ولكن... أليس هذا ما قاله الجاحظ في القرن الثالث الهجري عندما وصف القراءة قائلا:

«... والكتاب وصاء ملىء علما، وظرف حُشي طرفا، وإناء شحم مزاحا وجداً إن شئت كان أبين من سبحان وائل، وإن شئت كان أعمى من باقل، وإن شئت ضحكك من نوادره، وإن شئت عجبك من غرائب فرائده، وإن شئت أهلك طرائفه، وإن شئت أشجبتك مواعظه. ومن لك بواعظ مله، ويزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخريس، وبيارذ حار...»^(٥٦)

هل يتحدث الجاحظ في هذا النص عن نفس الكتاب الذي يتبدل مع القراءة فيتحول من البيان إلى العي، ومن المزل إلى الجدل طبقا لمشيئة القارئ؟ أم أن الجاحظ يعني أن القارئ يستطيع أن يتنقل من كتاب ميين إلى كتاب عيي، وأن يرتاد الكتب المختلفة فتارة يطلع على الغرائب والفرائد، وتارة يطلع على الطرائف، وتارة على المواعظ. فهل «الكتاب» هنا اسم جنس أم اسم مفرد؟ أم هل يصف الجاحظ هنا طريقة التأليف العربية التي وضع أسسها والتي تجمع بين دفتي الكتاب الواحد الجدل والمزل، وتعرض مختلف مظاهر الحياة بما فيها من تناقضات، بما يتيح للقارئ أن يتنقل، وفق مزاج اللحظة، بين شتى الأجواء؟

قد تكون محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة موضوعا لبحث آخر...

الهوامش

- (١) أيرجيفر محمد بن جبر الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، القاهرة، البابي الحلبي، ط ٢ (١٩٥٤)، ج ١، ص ٦.
- (٢) سيزا تاسم «الفرادة في التصوير والأدب»، الندوة المأزاة لبيتال القاهرة الرابع، ديسمبر ١٩٩٢، تحت النشر.
- (٣) من أهم من درسوا آليات الإدراك الحسي عالم النفس الأمريكي جيمس جبريم جيبسون وأولريك نيسبر، راجع للمزيد من التفصيل James J. Gibson, The Perception of the Visual World, Westport, Greenwood Press, 1977
- The Senses Considered as Perceptual Systems, Westport, Greenwood Press, 1983
- Ulric Neisser, Cognition and Reality: Principles and Implications of Cognitive Psychology 1976, San Francisco.
- Michel Foucault, Histoire de la Folie à l'âge classique, Paris, Gallimard, 1972. Surveiller et punir. Naissance de la prison, 1975, Paris, Gallimard.
- Umberto Eco, A Componential Analysis of the Architectural Sign/Columbo/, in Semiotica, 5, 1, 1972, pp. 97-117. (٥)
- Huuri Raymond, Comaster et transister: La semiotique de l'architecture, in Communications, 27, 1977, pp. 103-112.
- Hugo Vandevordel, Towards a Semiotic Definition of Architectural «Type», in Signs of Humanity: Proceedings of the IVth International Congress of the IASS, Gerard Deledalle (ed.) Berlin, Mouton de Gruyter, 1992, pp. 903-909.
- Alexandros Ph. Lagopoulos, «The Social Semiotics of Space vs. the Semiotics of Space, in Signs of Humanity: Proceedings of the IVth International Congress of the IASS, Berlin, Mouton de Gruyter, 1992, pp. 879-884.
- Tzvetan Todorov, La conquête de l'espace: La question de l'autre, Paris, Éditions du Seuil, (٦)
- Roland Barthes, L'Empire des signes, Œuvre, a, Seize, 1970.(٧)
- Hyalndai Sakamoto, The Structure of the Wa-Concept as a Semiotic Interface Characterizing Japanese Ethos, in Signs(A) of Humanity: Proceedings of the IVth International 1989 Congress of the IASS Barcelona/Perpignan, Michael Balot & Janice Deledalle-Rhodes, eds., Gerard Deledalle, general editor, Berlin, Mouton de Gruyter, 1992.
- Kikuko Tachibana, «Empty Signs in the Text of Japan», in Signs of Humanity: Proceedings of the IVth International(٩) Congress of the IASS Barcelona/Perpignan 1989, Michel Balot & Janice Deledalle-Rhodes (eds.), Gerard Deledalle (General editor), Berlin, Mouton de Gruyter, 1992.
- Roland Barthes, S/Z 1970., Paris, Éditions du Seuil, (١٠)
- M.C. Escher, L'Esprit graphique: Introduction et commentaires de greuter, Köln, Benedikt Taschen, 1992.(١١)
- سيزا تاسم، بناء الزلية: دراسة في ثلاثة نجيب غفرط، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٤.
- (١٢) يمكن مراجعة دراسة أولست كورسيوس حول الكتاب بوصفه دروا.
- m European Literature and the Middle Ages, London, Routledge and Ernst Robert Curtius, The Book as Symbol, Kegan Paul, 1979, pp. 302-347.
- Dante, Paradiso, xxxiii, 85-88.(١٤)
- (١٥) درست هذه القاهرة رندا صبري في مقالة بعنوان:
- Randa Sabri, Les lectures des heros de romans, Poétique, 94, Avril 1993, pp. 183-204.
- (١٦) يمكن مراجعة دراسة مفصلة حول ظهور الكتاب بوصفه علامة سيميوطيقية في الأنثولوجيا الغربية في: Jan Bialostocki, «Books of Wisdom and Books of Vanity», in The Message of Images: Studies in the History of Art, Vienna, Iran, 1988, pp. 42-63.
- (١٧) يجر الإشارة هنا إلى دراسة عامة من علاقة الكتاب بالذن التشكيلى المعاصر Rainer Crone & Joseph Leo Koerner, Paul Klee: Legends of the Sign, New York, Columbia University Press, 1991.
- كما يمكن الإشارة إلى المؤلف العلمي الوائى عن تاريخ الكتاب في الثقافات العالمية على مر العصور للترجم من اليوسفلافية في جزئين: إلكستروستيفيشن، تاريخ الكتاب، ترجمة محمد م. الأنطولي، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والآداب، ١٩٩٢.
- (١٨) نعيد التأكيد هنا إلى الفصل الخامس بعنوان مفهوم الشفرة Umberto Eco, «Codes», in Semiotics and the Philosophy of Language, London, Macmillan, 1984, pp. 164-189.
- (١٩) نعيد هنا التأكيد على تجليات ليني شتروس حول العلاقة بين اللغة وبنات التربة في الثقافات البدائية. Claude Lévi-Strauss, Les structures élémentaires de la parenté, Paris, PUF, 1947
- (٢٠) أصبحني هذا المصطلح الذي يستفهمه عالم الجاليات للكسيكي غويل أنشا في كتابه: Juan Acha, stico y sus efectos El Consumo art, Mexico, Editorial Trilam, 1988.

كما يستعمله إرنست جومبرتش في كتابه:

Ernst H. Gombrich, «Towards an Analysis of Effects» in *The Sense of Order: A Study in the Psychology of Decorative Arts*, 1964, London Phaidon Press, 2 d. edition

E.H. Gombrich, «Towards an Analysis of Effects» p. 120. (٢١)

Jean-Pierre Vernant, «De la Psychologie historique à anthropologie de la Grèce, question dans les sciences humaines, (٢٢) in *Homme et sujet: La subjectivité en Grèce*, Éditions Julliard, 1992, pp. 15-47

(٢٣) الزركشي، اليرمان، في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفوائد العربي، ج ١، ص ٩.

(٢٤) الزركشي، اليرمان، ج ١، ص ٣١٨.

(٢٥) الزركشي، اليرمان، ج ١، ص ٤٤٩.

(٢٦) الزركشي، مسألة: في قراءة القرآن في المصنف أفضل أم على ظهر قلبه في اليرمان، ص ٤٦١-٤٦٣.

(٢٧) هو الإمام أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي، شيخ الإسلام، توفي سنة ٦٦٠.

(٢٨) سورة ص ٢٩.

(٢٩) هو كتاب حلية الأبرار وشمس الأخبار في تلخيص المعاني والآثار، المشهور بكتايب التوحي.

(٣٠) الزركشي، اليرمان، ج ١، ص ٤٥٠.

(٣١) الزركشي، اليرمان، ج ١، ص ٤٥١.

(٣٢) الزركشي، اليرمان، ج ١، ص ٤٥٢.

(٣٣) آل عمران ٧٧.

(٣٤) أبو حامد الغزالي، مشكلة الأنور، تحقيق أبو العلا العفيفي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤، ص ٧٣، في محمد عبد الجباري، بنية العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص ٢٧٥.

(٣٥) هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد السلمي، صاحب كتاب طبقات الصوفية وغيره من الكتب، توفي سنة ٤١٢.

(٣٦) الزركشي، اليرمان، ج ٢، ص ١٧٠-١٧١.

(٣٧) ندرس هنا المقامات الثلاثة في إجازة رزم أحبة نصر الزركشي، لا ينضم من وصف لتلويح التلاوة من القرارة إلى المكاشفة، اليرمان، ج ١، ص ٤٥٢-٤٥٣.

(٣٨) محمد عبد الجباري، بنية العقل العربي، ص ٢٧٧.

(٣٩) يمكن هنا مراجعة بعض الدراسات الخاصة حول منهج قراءة الكتاب لتقديم ومن بينها ذكر القائمة التالية التي أعددنا منها قائمة كبيرة في بلورة بعض الأفكار التي تعرضها هنا:

(٤٠) Hugues de Saint - Victor, *L'Art de lire: didactique* 1991, Paris Les Éditions du Cerf, Ivane Rich, *De lisible au visible*.
Sur l'art de lire de Hugues de Saint - Victor, Paris 1991, Les Éditions du Cerf.

Hugues de Saint- Victor, *De la lecture*, III, 7-101. (٤١)

(٤٢) هذا الموضوع العام والخص، يولج في عدد من الدراسات نذكر منها التي أعددنا منها في مواضيع متفرقة من هذا البحث:

Francis Yates, *The Art of Memory*, 1964, London, Routledge and Kegan Paul,

Mary J. Carruthers, *The Book of Memory: A Study of Memory in Medieval Culture*, Cambridge, Cambridge University Press 1990

Janet Coleman, *Ancient and Medieval Memory: A Study in the Reconstruction of the Past*, 1992, Cambridge University Press.

(٤٣) الزركشي، اليرمان، ج ١، ص ٤٦٩-٤٧٠.

(٤٤) فرنسيسكو بيتاركا Francoeco Petrarca (١٣٧٤-١٣٠٤ م) الشاعر الديق والعالم الإنساني، كان من بين الذين مهدوا الطريق لقائمة عصر النهضة وروبط بين التراث الإغريقي واللاتيني والمسيحي.

(٤٥) Francesco Petrarca, *Secret*, Translated by William H. Dwyer, London, Chatto & Windus, 1911, pp. 97 -100, in Mary J. Carruthers, *The Book Of Memory*...p. 163

(٤٦) راجع المزيد من التفصيل حول منهج القراءة عند مونتاني.

Cathleen M. Beauchamp, «Montaigne's Concept of Reading in the Context of Renaissance Poetics and Modern Criticism», in Susan R. Suleiman & Inge Crosman (Eds.) *The Reader in the Text: Essays on Audience and Interpretation*, Princeton, Princeton University Press, 1980, pp. 264-293.

(٤٧) Michel de Montaigne, «De l'expérience», in *Les Essais*, Paris, Gallimard, Éditions de la Pléiade texte établi et annoté (٤٧) par Albert Thibaudet, 1950, p. 1222-1223.

(٤٨) الطبري، جامع البيان، ج ١، ص ٥.

(٤٩) نصر حامد أبو زيد، «العلامات في التراث: دراسة استثنائية في مدخل إلى السيميوطيقا: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والتأليف، إشراف سيرة قاسم ناصر، حماد أبو زيد، القاهرة، دار إيليس، ١٩٨٦، ص ١٣٢-٧٣

- (٥٠) أبو حامد الغزالي، للتصنعي في علم الأصول، بولاق الطبعة الأميرية، ١٣٢٢ هـ. ج ١، ص ١٢٢٠، في محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص ١١٩.
- (٥١) شكري عباد، المؤثرات الفلسفية والكلابية في النقد العربي والبلاغة العربية، الأعلام، عدد ١١، آب ١٩٨٠.
- (٥٢) A. J. Minnis & A.B Scott (eds.) *Medieval Literary Theory and Criticism*, c. 1100 c. 1375: The Consensus Tradition 1988, Oxford, Clarendon Press,
- (٥٣) Peter Szondi, *Introduction à l'herméneutique litténaire*, traduit de l'allemand par Mayotte 1989, Bologne, Paris, Editions du Cerf,
- (٥٤) Friedrich Blass, «Hermeneutik und Kritik» in *Handbuch der Klassischen Altertums Wissenschaft in systematischer Darstellung...*, I. V.Müller (ed.), Munich vol.1, 1892, p. 149, in Peter Szondi, *Introduction...*, p.11
- (٥٥) لقد تعرض رينيه إيتامبل إلى هذه المشكلة في كتابه
- (٥٦) الجلاط، كتاب الجبرون، تحقيق عبد السلام محمد عارفين، القاهرة: الداعي الحلبي، الطبعة الثانية، د.ت، ج ١، ص ٣٨.

السقوط والخلاص

(قراءة في رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ)

د. حسن حنفي

مقدمة

١ - النقد الفلسفي

النقد الأدبي على أنواع طبقا للمارسه ومناهجه: نقد الأسلوب كما هو معروف في «الأسلوبية»، والنقد البلاغي للصور الفنية، والنقد البنوي لمعرفة تركيب العمل الفني، والنقد الاجتماعي لمعرفة مدى تصوير العمل الأدبي للواقع الاجتماعي، والنقد النفسي لمعرفة إلى أي حد يعبر النص الأدبي عن مكونات الشعور. وهذا عمل النقاد. ونظرا لأن الأسلوب الروائي عند نجيب محفوظ أسلوب واضح وسهل وخال من التراكمات المعقدة وأقرب إلى اللغة العادية يظل التحليل الأسلوبي لأعماله الروائية محدود الأثر. ونظرا لأن أعماله الروائية لنجيب محفوظ تكاد تخلو من الصور الفنية البسيطة أو المركبة مثل «وغنى الماء في القنبنة» لوصف قرقرة الماء في المجوزة فإن تحليلها يظل أيضا محدودا. لذلك يظل النقد البنوي لمعرفة المعيار الروائي عند نجيب محفوظ وأنهاطة المثالية السائلة والمتكررة في أعماله الروائية هو الأكثر غنى للكشف عن العالم الروائي عنده. ويظل النقد الاجتماعي كذلك هو الكاشف للنص الروائي الذي يعكس الواقع الاجتماعي الثقافي والسياسي هو الأكثر مباشرة والأقصر على الاقتراب من هذا العالم الروائي. وكثيرا ما يتحول النقد الأدبي المهني إلى الوقوع في تقنيات العمل الأدبي فيما يتعلق بالشكل والأسلوب والمهارة الفنية مثل الانتقال الزمني المتقطع من ولادة قدرتي وهما إلى كبرهما وهما يرحيان الغنم، ومن عبدة حاملا إلى رفاة صبيا^(١)، وبأساليب الحوار والوصف وحديث النفس والرمز والإشارة وأنواع الدلالات. ومع ذلك يظل ذلك قاصرا عن التوجه نحو المضمون مباشرة لمعرفة قصد الراوي واتجاهه منذ رؤيته للواقع إلى تصويره له في العمل الروائي إلى أداء رسالته في التبليغ لإحداث الأثر الاجتماعي المتضمن في رسالة الأدب وغاية الأديب.

مهمة النقد الفلسفي هي الدخول مباشرة في قلب العمل الروائي لمعرفة موضوعه ومساره وهدفه. فال موضوع قصد عند الروائي منذ رويته للواقع الاجتماعي إلى تصويره في عمل فني إلى أثره على جماهيره للمساهمة في عملية التغير الاجتماعي التي يصب فيها الفكر والمصلح والتأثير. هو نقد موضوعي لأنه يتجه نحو للموضوعات مباشرة. وهو فلسفي لأنه يعبر عن موضوع الدين و التقدم ، الدين والسلطة ، الدين والعلم ، الدين والصراع الاجتماعي ، الدين والثورة . مهمة الناقد هي الدخول في أعماق النص من أجل إخراجها إلى الواقع الذي منه نشأ ، إعادة إنتاج النص بتحقيقه في الواقع وتطويرة وكشف أبعاده القصوى . مهمة الأديب التعبير والتصوير والتأثير ومهمة الناقد الفهم والتطوير والتغيير. ومن ثم تكون مهمة النقد الفلسفي تحليل المضمون مباشرة دون الوقوف على تحليل الألفاظ ، الكشف عن الموضوع وراء اللغة والتركيب اللغوية بالعودة إلى الأشياء ذاتها ، معرفة الأنماط السابقة في الثقافة الشعبية التي استخدمها الروائي لرسم شخصياته مثل الفتوة والشيخ ، وابن أو بنت البلد لأنها ما زالت حاضرة في الواقع الاجتماعي ، تأويل هذه الأنماط وتوظيفها طبقاً لرؤية الأديب وقصده من العمل الروائي وهدفه النهائي في عملية التغير الاجتماعي ، مشاركة الناقد الروائي في الهدف والتأثير إعطاء أبعاد جديدة للنص الأدبي . النص النقدي في هذه الحالة تدعيم للنص الأدبي وتحقيق لأهدافه في الواقع الاجتماعي .

فموضوع «أولاد حارتنا» الدين والسلطة في ثلاثة نجيب محفوظ الشهيرة الدين ، والسلطة ، والجنس ، هذه المحرمات الثلاثة في الوجدان العربي . صحيح أن الجنس أيضاً حاضراً ، أميمة وأدهم ، هند وقديري ، ياسمينية ورفاعة ، قمر وقاسم ، عواطف وعرفة ولكن الدين والسلطة هما الموضوعان الغالبان ، كيف يتحول الدين إلى سلطة ، ممثلة في الكهنوت ورجال الدين ، وكيف يؤثر الدين ، في صيغة جديدة ضد السلطة ويعيد للدين ثورته وشبابه ودفاعه عن مصالح الناس . فالدين ظاهرة اجتماعية ، ينشأ بنشأة المجتمع ، ويتطور بتطوره ، يقوم بقيامه ويسقط بسقوطه . ينهض بنهضته وينهار بانهاره . الدين أسرع وسيلة للسلطة . إذ يعطيها الشرعية العقلية والوجدانية ، ويخو إلى الاستسلام والطاعة لها على نحو دائم فلا تبقى السلطة قائمة فقط على القهر والاضطراب مما يدفع إلى ثورة المضطهدين . ومن ثم يبدأ التحرر بتقد الدين من أجل نقد المجتمع ، وتقويض الشرعية الدينية للقهر والاضطراب حتى تنهار أنظمة القهر والطغيان^(١) . وفي النقد الفلسفي لا يوجد فرق بين النص الأدبي والنص الفلسفي والنص التاريخي والنص الديني والنص القانوني ، الكل موضوع للدراسة على الرغم من الاختلافات بينها . وهي اختلافات في الدرجة وليست في النوع . يهدف النص الديني إلى التصوير والتأثير من أجل توجيه السلوك نحو الخير والفضيلة عن طريق الأمر والنهي . والنص القانوني يهدف إلى السيطرة على السلوك عن طريق المنع والزجر والتعذيب بالعقوبات . والنص الفلسفي يصور العالم في معان مجردة من أجل إعطاء غطاء نظري للعالم ووثاق بين الذات والموضوع في عالم متكيف . والنص التاريخي يعطي معلومات عن الماضي بهدف المعرفة ورصد التجارب الماضية . والنص الأدبي يهدف كالنص الديني إلى التصوير والتأثير من أجل المساهمة في عملية التغير الاجتماعي تحقيقاً لرسالة الأديب . وكلها تخضع لمنطق واحد وهو علوم القراءة والتأويل أو ما يسمى بالهرمنيوطيقا ، أحد العلوم الفلسفية المعاصرة . قد يكون النص الديني أكثر التصوص غنى من حيث العمق والتصوير والتأثير وما يحيط به من تقليدس ووثبات ، و يليه النص الأدبي . لذلك سهل التبادل بين النصين . فالنص الديني نص أدبي ، والنص الأدبي يعبر عن الموقف نفسه الذي يصوره النص الديني . وقتلياً تعامل الفقهاء والبالغيين مع النصين على المستوى نفسه . فابن حزم صاحب «الإحكام في أصول الأحكام» هو نفسه صاحب «طوق الحليم» وعبدالقاهر الجرجاني صاحب «إعجاز القرآن» هو نفسه صاحب «دلائل الإحجاز» .

ولما كان نجيب محفوظ ذا ثقافة فلسفية منذ تخرجه من قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٣٤، حتى إنه لم يكن القول إن كل رواية لديه تقوم على فكرة فلسفية: الزمن، القدر، الحرية، المصير، الإنسان، الله، الآخر، الوطن، المدينة الفاضلة، الوهم، البطولة، الحيانة... لذلك كان النقد الفلسفي أكثر ملائمة لدراسة عمله الروائي، إذ يتوجه نحو الأفكار مباشرة، قلب العمل، فيها رواء الصياغة والأسلوب. فالعنى مقدم على اللفظ، والفكر سابق للغة، والفلسفة جوهر الأدب. وتبدو في «أولاد حارتنا» بعض الحكم الفلسفية والأمثال الشعبية ذات المغزى الفلسفي مثل «جاء الفرج»، «ما بعد الصبر، إلا الراحة»، أو «الأمر لصاحب الأمر» بعد ولادة أميمة زوجة آدم قصة طرد آدم وزوجه من الجنة بناء على الحسد والغواية والتجدي من كلها تقوم على فكرة فلسفية دينية تعتمد على قصة طرد آدم وزوجه من الجنة بناء على الحسد والغواية والتجدي من الشيطان ثم هلاقتها من جديد عن طريق رسائل الأنبياء المتتالية. فالرواية تقوم على مفهوم «السلطان والخلاص»، «الخطيئة والغفلة»، وهي أفضأ أقرب إلى اللاهوت المسيحي على الرغم من أن لفظ الخلاص والمخلص لا يرد في الرواية. وقد ساءها الصوفية الفتى والرق، الفرق والجمع^(٣).

ومن ثم لا فرق بين مدينة السماء ومدينة الأرض. كلاهما واجهتان لعملة واحدة. كلاهما يجتمع له رئيس ونواب، به حكومة ومعارضة، قانون وعصيان، كلاهما حارة، له فتوة وصبية، وقوادون. الحارة هي العالم كله بكل ما فيه من قوانين للصراع الطبيعي والبشري. له ماض وحاضر، له تاريخ وبنية. ومن ثم يمكن الحديث عن «أولاد حارتنا» وحكايات حارتنا. الحارة عالم واحد، عالم المثال تصبح مدينة السماء، وعالم الواقع تصبح مدينة الأرض. الأول من نسج الخيال والثاني من ثقل الواقع. الأول حلم والثاني مأساة.

ومع ذلك، لا يمكن قراءة «أولاد حارتنا» بنية المطابقة بين الرواية ومصادرها الدينية في قصص الأنبياء وإلا حولناها إلى كتاب في التفسير وليس رواية. ما عيم هول المغزى والمهدف والقصد. ولا تكون المطابقة بين الرواية والمصدر القرآني وحده، بل بين الرواية والواقع الاجتماعي كحلقة وصل بين النص الروائي والنص القرآني فكلا النصين يعبران عن واقع اجتماعي واحد، السلطة في المجتمع، السلطة الدينية ممثلة في الناظر والسلطة السياسية ممثلة في الفتوة. وكلاهما يطابق التجربة البشرية للأفراد والمجتمعات. وللأديب حرية الكاملة في إعادة القصص القرآني في أسلوب روائي. كلاهما قص. وللناقد الأدبي أيضا إعادة إنتاج القص لا فرق بين النصين. الحرية الأدبية والحرية التقليدية واحدة. لا يوجد خطأ وصواب في فهم القص الديني أو الروائي عند الأديب أو الناقد. كلها اجتهادات ومقاربات وجهات نظر وآراء. لا يوجد منها واحد صحيح والآخر باطل وإلا عدنا إلى حديث الفرقة الناجية الذي يصوب صياغة واحدة للمعتقد، عقائد السلطة، ويخطئ باقي الصياغات، صياغات المعارضة، عقائد السلف التي تستبعد عقائد الخلف^(٤). لا يوجد شيء في ذاته أو لسان في ذاته بل هناك عدة صياغات له طبقا للثقافات والصياغات الأدبية والصور الفنية سواء في القص الديني أو في القص الأدبي.

«أولاد حارتنا» نموذج من الأدب شبيه بقصص الأنبياء للتعبير عن روح الإسلام، وهو روح العلم، في أسلوب قصصي، ونقله من مدينة السماء إلى مدينة الأرض. فتطور الوحي من آدم حتى محمد هو انتقال من الدين إلى العلم، ومن الخرافة إلى العقل، ومن تدخل الإرادة الخارجية إلى الاعتماد على الإرادة الإنسانية، ومن قهر الطبيعة للإنسان إلى السيطرة عليها، ومن حكم الله إلى حكم البشر. وختم النبوة يعني إعلان استقلال الإنسان عقلا وإرادة.

وهي فكرة معروفة في تراثنا الإسلامي القديم في تراثنا الاغترالي في مبدأ العدل، وخلق الأفعال والحسن

والقبح العقليين، وفي التراث الفلسفي الغربي عند اسبينوزا في رسالة اللاهوت والسياسة التي يبين فيها توافق السلطتين الدينية والسياسية في الحكم الثيوقراطي وضرورة الفصل بينهما في الحكم الديمقراطي، وعند لسنج في «تربية الجنس البشري» عندما يبين تطور الوعي في مراحل الثلاث حتى استقل الإنسان عقلا وإرادة في فلسفة التنوير^(٥).

فليس في الرواية ما يستحق المنع أو التحريم، الرقابة أو المصادرة، التجاهل أو الامتناع، الخوف أو الحذر. فموضوعها وغايتها. . تم التعبير عنها من قبل ومن بعد في الروايات السابقة واللاحقة خاصة في «حكاية بلا بداية ولا نهاية» وفي «ملحمة الحرافيش». وقد تم نشرها في «الأهرام» على حلقات حتى تم إيقافها بناء على دمية وشاية من بعض رجال الدين، مزيفة في الإبان، وتقربا إلى السلطات، ووفية في التسلط على رقاب الناس. وما زالت تعتبر وكأنها لا وجود لها، يتم الحديث عنها سرا حتى بعد حصول صاحبها على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٠، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو إعادة طبعها أو رفع قرار منعها. السلطة السياسية تتذرع بالسلطة الدينية، والسلطة الدينية تعتمد على السلطة السياسية. ثم صدرت في بيروت في يناير ١٩٦٧ وكانت تتبنا بالهزيمة بإعلانها عن موت الجبلاوي. كانت المرحلة السياسية قد بدأت بـ «اللمس والكلاب» ١٩٦١ مروراً بـ «السمان والحريف» ١٩٦٢، «ثروة فوق النيل» ١٩٦٦، «ميرامار» ١٩٦٧ حتى «المرايا» ١٩٧٢، «الكرك» ١٩٧٤ وبلغت الذروة في «ملحمة الحرافيش» ١٩٧٧^(٦).

وتبدأ «أولاد حارتنا» بفتاحية من ثلاث صفحات تقدم الرواية^(٧). فالرواية قصة الحارة أو قصصها، قصة واحدة، تجربة واحدة ولكنها في عدة قصص أو مسلسلات، قصة الإنسانية ووعيها وصراعها ضد السلطتين الدينية والسياسية حتى تستقل وتتحرر وتتم بالسلام. هي مجموعة من الحكايات أي الشكل الشعبي للقصة، حكايات الحارة التي لا تختلف كثيرا عن قصص الأنبياء. الأولى يرويها الراوي الشعبي ويغنيها على الرباب، والثانية ينقلها النبي ويذكرها ويعتبر بها المؤمنون. تحدث في «حارتنا» نحن بصيغة جمع للتكلم في حياتنا ومكاننا وزماننا وتاريخنا وجماعتنا وثقافتنا ومؤسساتنا وصراعاتنا، لا فرق بين الماضي والحاضر، بين الدين والدنيا، بين مدينة السماء ومدينة الأرض، بين النص والواقع، بين الوعي والتاريخ. لم يشهد الراوي إلا طويها الأخير. لم يعاصر أدهم ولا جبل ولا زراعة ولا قاسم بل عاصر عرفة. سمع عن قصص الأنبياء، حكايات الحارة، شفاها من الرواة، من الكعب المقدسة والتراث الشفاهي الذي يتداخل فيه المقدس مع الدنيوي، الإلهي مع البشري، الرسالة السبائية مع الخيال الشعبي. الروايات متداخلة ومتضاربة ومتعددة. كل يرويها طبقا لكانه وزمانه وخياله وتقاضه عبر الأجيال كما هو الحال في السير الشعبية. تروى هذه الحكايات في المناسبات، على اللقاء، وفوق المصاطب، في الأفراح وفي الأمات. وظيفتها تفريغ الكرب، وتخفيف الهم، وتعويض الناس عن مسيهم وأحزانهم في عالم ينسجه الخيال ويتصر فيه الأبطال «كلما ضاقت أحدا بحاله أو ناء يظلم أو سوء معاملة» (ص ٥). شهد الراوي الفصل الأخير. وهو أحد أصدقاء عرفة، ابن الحارة البار الذي طلب منه كتابة القصة. فالعلم هو الذي بدون ويغفط الذاكرة. يريد العلم الرواية الصحيحة تاريخيا بدلا من أهواء المؤرخين وأخطاء الرواة كما يلاحظ ابن خلدون في «المقدمة». هذه الروايات «تروى بغير نظام وتخضع لأهواء الرواة وتخزينهم» (ص ٧).

قام الراوي بتنفيذ هذه الفكرة وتحقيق هذا المطلب لوجهات ولحي لمرقة. كانت الكتابة حرفة الراوي. كانت بدايتها كتابة المرافض والشكاوى للمظلومين ولأصحاب الحاجات. فالقص يبدأ من الواقع الاجتماعي، ولا فرق بين شكاوى الناس وقصص التاريخ.

والغرض من هذه الحكايات كما يصرح الراوي في نهاية كل منها علاج آفة الحارة وهي النسيان، من أجل تذكر الماضي وبطولة الوعي التاريخي لعل تكرار التجارب يؤدي إلى وعي علمي. ففي نهاية «جبل» يقول الراوي «ولولا أن آفة حارتنا النسيان ما انتكس بها مشال طيب، لكن آفة حارتنا النسيان» (ص ٢١٠). يتبنى القضاء على النسيان، لكنه يقبل الأمر الواقع. وفي نهاية «رفاعة» يتساءل فليذا كانت آفة حارتنا النسيان؟ (ص ٣٠٥)، تساؤل من أجل معرفة السبب ورفض الواقع. وفي آخر «قاسم» يقرر «وقال كثيرون إنه إذا كانت آفة حارتنا النسيان فقد أن لها أن تبرا من هذه الآفة، وأنها ستبرا منها إلى الأبد. هكذا قالوا... هكذا قالوا يا حارتنا» (ص ١٤٣).

وهو تجاوز للمواقف وتغني تغييره إلى الأبد. ولما كانت حكاية ورواية فإنها تظل ظنية غير يقينية. لذلك جاء القصص ليعبر الناس بالمخاطبة ضد آفة النسيان. ولكن هل يشفع الماضي للحاضر والمستقبل؟

وتقسم الرواية بعد الافتتاحية إلى خمسة فصول: أربعة في الماضي: أدهم، وجبل، ورفاعة، وقاسم، وواحد في المستقبل وهو عرفة. أدهم يمثل تاريخ الأنياء منذ آدم، وجبل يرمز إلى موسى ومرحلة اليهودية، ورفاعة إلى عيسى والمسيحية، وقاسم إلى محمد والإسلام، وعرفة إلى العلم والمستقبل، وأكبرها قاسم^(٨). وكل فصل مقسم إلى عدة مناظر كما هو الحال في الفيلم السينمائي يضم حوارا بين شخصيتين أو ثلاثة كما هو الحال في باقي الأعمال الروائية لنجيب محفوظ. ولأسماء الفصول دلالاتها. فأدهم يشير إلى آدم صوتيا، وجبل يشير إلى موسى الذي أوى إلى طور سيناء يتاجي ربه، ورفاعة يشير إلى السيد المسيح الذي رفعه الله إلى السماء، وقاسم يشير إلى محمد بن عبدالله الذي قسم بين العدل والظلم. ولبقي الأسماء دلالاتها كذلك فالجبلابي هو صاحب الوقف الذي يمتلك كل شيء ويختار رسله. وأسمية أم البشر حواء، وهام وقدرى قابيل وهابيل، وعبدلة تقابل مريم وصم شافعي التجار يقابل زكريا، وقمر تقابل السيدة خديجة، وبدرية تقابل السيدة عائشة، وصادق يشير إلى أبي بكر الصديق، وصجرة هو عمر، وحسن هو عل، والسقطوي الفتوة هو أبو جهل... إلخ.

وتقوم الرواية على حركتي السقوط والرفع، اللهاب والإياب، الخطيئة والغناء بلغة اللاهوت المسيحي عند هيجل. فأدهم يمثل السقوط، الخطيئة الأولى، الطرد والحرم، والهبوط إلى الأرض. وجبل ورفاعة وقاسم ثلاث تجارب لمحاولة الخلاص والرفع والعودة إلى الفردوس المفقود وبثلاث وسائل مختلفة: بالقوة عند جبل وبالمحبة والرحمة عند رفاعة وبالمعدل عند قاسم. ولكنها محاولات نسبية سرعان ما تعود إلى سابق عهدها، خلاص وقتي سرعان ما يتكس ويعود السقوط إلى سيرته الأولى. أما المحاولة الرابعة لعرفة، الخلاص عن طريق العلم، فهي وإن فشلت أيضا على الأمد القصير بعد قتل عرفة كما قتل رفاعة إلا أنها قد تمثل على الأمد الطويل بالنسبة للمستقبل الخلاص الدائم خاصة بعد أن مات الجبلابي.

٢ - السقوط: أدهم والخطيئة الأولى

في البداية كانت الحارة. وأصل الحارة ومنشوها هو جدنا القاطن في البيت الكبير على ناصيتها. هو أصل الأنياء ومنبع الحقائق وأبولو البشر. الكل انحدر من صلبه. ورثه الناس واستحقوا وقته، الخلق والدنيا ونعمها. هو لغز من الأنغاز، عمر أكثر مما يستطيع أن يتصور. له الأبدية والخلود. هو سيد الخلاص وصاحب الأوقاف، سيد الكون ومالكه. ضرب به المثل بطول العمر والبقاء. اعتزل في بيته لا يخرج. لا يراه أحد. خلق واعتزل، أبدع واعتكف، حرك ولا يتحرك بتعبير أرسطو. يرى ولا يرى، قريب بعيد. أما البيت الكبير فيقوم في صمت

منطويًا على ذاته كأنها لا يربطه سبب بهذا العالم الخارجي (ص ٧٧). هو الذي أعطى الحارة اسمها، حارة الجبلاني، فالدين جبرها وحياتها وبه تعرف، وبفضله أصبح لها تاريخ. به نهضتها وسقوطها، عظمتها وروسها، انتصارها وهزيمتها. يمتلك كل شيء فيها «هو أصل حارتنا، وحارتنا أصل مصر، أم الدنيا» (ص ٥) قمصر مهد الأنبياء ومنشأ التوحيد، أختاتون وموسى وفيها حط الأنبياء ورحلوا، عيسى وموسى، «جندنا خير أجناد الأرض وشعبها مرتبط إلى يوم القيامة». تعرفه المخلوقات، هذا الجبل وهذه الصحراء وهذه السماء. ربما يكون الخيال أو الغرض وراء هذه التناجية. فالخيال يبدأ من الحس، وينتهي إلى ما وراء الحس. والغرض يبدأ بالشيء للتحقق، وينتهي بالأماني والرغبات التي لم تتحقق، هل هو حقيقة أو وهم؟ موجود أو من صنع الخيال؟ خالق أم مخلوق؟

من صفاته العدل، فلم يفرض على أحد إناوة، والتواضع فلم يستكبر في الأرض، والرحمة بالضعفاء، فقد كان بالضعفاء رحيمًا، ولا شيء يعادل شدته إلا رحمته، والقوة فقد كان فتوة حقًا.

ولكن الصفة الغالبة عليه هي الجبروت، جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء وأن الناس أمامه لا شيء. ولهذا الجبروت لا يبقى أحد في البيت من أبنائه. علم ابنه إدريس أن يعامل الناس بالفظاظة والقسوة. ومن مظاهر الجبروت الظلم وغياب العدل. هل راعى مصالح العباد باختياره آدم دون إدريس ناظرًا على الوقف مما سبب الغضب بين الآخرين؟ لماذا اختار آدم الأخ الأصغر دون إدريس الأخ الأكبر؟ هل بدأ العالم بالظلم؟

ومن الطبيعي أن يثور الأخ الأكبر ضد هذا التحيز فهو الذي حول الملاك شيطانًا بظلمه لا يرى على الرغم من وجوده في البيت الكبير ذي الباب الضخم، وفوقه تمساح منخط. ليس من المحزن أن يكون للناس مثل هذا الجذ دون أن يروه؟ كيف يعيش في هذا التعالي ويعيش الناس في التراب؟ لماذا يحرم المساكين من نعم الدنيا؟ لماذا يمحرون ويضامون؟ كم من سيادة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تميمية. وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحًا يحمل على ظهره المعاري آثار سياط حلت أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه؟ لماذا يحقر هذا البيت للمساكين؟ إن العقل الإنساني يريد أن يعرف سبب اختيار آدم دون إدريس دون أن يكتفي بمجرد طاعة الأوامر. ولكن الجبلاني يرفض المعارضة ولا يرضى إلا بالرضوخ والاستسلام. فطرد إدريس الذي حاول فهم السبب. سبب استماده من نظارة الوقف وهو الأخ الأكبر.

خلق فتوة جبارًا فلم يعرف إلا أن يكون فتوة جبارًا يعامل أبنائه كما يعامل ضحايله. يغضب وينسبط، يعاقب ويثيب، يرضى ويسخط، يذل ويرفع، يفضل ويهين، يبارك ويلعن، يعفو ويقسو كما هو الحال في علم الكلام الأشعري. وقد لا يرحم ولا يعفو. وما طالب إدريس إلا بحقه في نظارة الوقف. يفرق بين أعضاء الأسرة، ويغرق الرابطة في يسر وبلادة. يسمع الصراخ كما يسمعه البشر ولكنه يعاود النوم كمن لا قلب له. علمه سر، ولا يصارع أحدًا بما يدور في رأسه على الرغم من تسجيله في حجة الوقف. يحب النساء والشكر والصلاة له. لذلك أحيانًا لا يعرفه الناس، ولا يقدرونه حق قدره، ويصفونه بصفات لا تليق بما يقضي على العدو في النفس والترفع على الواقع. هناك يتصف الجبلاني بصفات الله. فقد أمتلك مصر بقوة ساعده مع أنه صاحبها وأصل كل شيء. يتدخل الجبلاني مع السلطان، والإلهي مع البشري. وكيف تكون لهم منزلة عند الولي وهو ولي الولاية؟ الجبلاني ليس هو الله في ذاته بل الله كما يتصوره البشر سلطانًا على العالم، لا فرق بين الله والسلطان.

ويدور الفصل الأول من الرواية عن آدم حول قصة طرد إيليس من الجنة لعصيانته ثم قصة طرد آدم من الجنة

عالم الفكر

لوقوعه في غواية إبليس عن طريق حواء. فأدريس يشير إلى إبليس وأدهم يشير إلى آدم. طرد إبليس من الجنة لرفضه السجود لآدم ولأنه من نار وأدم من طين في حين طرد إدريس من البيت الكبير لرفضه التحيز للأخ الأصغر أدهم وإعطاء الأب له نظارة الوقت وليس لإدريس الأخ الأكبر. ثم يقوم إدريس بغواية أخيه بالاطلاع على حجة الوقف لمعرفة أين كتب الأب الميراث. ويضبط أدهم في خدع الأب ويطرد من البيت مع زوجته التي شجعته، ويعيش الأخوان إدريس وأدهم في الأرض، وتنشأ الذرية، وتتحول مدينة السماء إلى مدينة الأرض. وتتوارث اللعنات والخطايا ابناً عن أب، وأباً عن جد، وينشأ التاريخ. ويتوعد إدريس بأن العار والفضيحة ستحل بالأسرة على يديه بعد أن طرده أبوه دون حياة. فلتتحمل العواقب. ويصبح للأب حفيد من الزنا، خطأ يمر خطأ، وعقاب يمر عقاباً، والبادي أظلم. لا فرق بين طرد إدريس بسبب نفسه المتعصبة وبين طرد أدهم بسبب نفسه الضعيفة. فلا مكان في البيت الكبير للقوة، ولا للضعف إلا في صاحب البيت. فهو القوي لحد الفتنك بأبنائه، الضعيف لحد الزواج من جارية، أم أدهم. لذلك يتعرش بالأقوياء مثل إدريس، وبالضعفاء مثل أدهم. وتنشأ الكراهية بين الأخوين. يكره إدريس أدهم لتفضيله عليه ويكره أدهم إدريس لغوايته. كلاهما خطئان. وشهواتهما لا تقتعان إلا بأن تبني فوقهما تلاً من الذرية الصاخبة.

وبعد الطرد، يتجاوز إدريس وأدهم في المكان نفسه خارج البيت الكبير، في كوخين متجاورين. يقيم أدهم وزوجته أميمة كوخاً للعيش فيه. ويسمى أدهم للرزق، ويعيش في عالم السرقة والغلبان. يفضي بين الحين والأخر على قسوة الأب وكرياته الذي جعله يفرط في لحمه ودمه وإثارة العيش الرغيد، وأبناؤه في التراب يداسون بالأقدام كالخشرات. ولكن الحياة اختصار، والحكم الصحيح لا يكون إلا عند الامتحان. العمل طريق للخلاص، للعمل من أجل القوت، على الرغم من أنه لعنة اللعنات، لا يليق بكرامة الإنسان. تعلم أدهم اللباس لستر العورة وكذلك أميمة ومع ذلك يحتاج الإنسان إلى الدين. فلا يتعد عن البيت الكبير وإلا هلك في هذا الخلاف. وقد يؤدي هذا القرب وهذا الانتظار إلى فتح باب الرحمة والعدل فلوكني نبقي على مرمى بصره لعله يرق لحالنا» (ص ٥٢). ويشعر أدهم بالحنين إلى العودة فالتنس تتعلق بالمكان الذي تطرد منه، البيت الكبير. وتجعل أميمة كوخها مثل البيت الكبير تحقيقاً لحلمها القديم.

لم يكن إدريس وأدهم وحدهما بل كان هناك عباس ورضوان وجليل. عباس وجليل عقيان مثل زكريا. ورضوان لا يعيش له ولد مثل محمد. لذلك أنت الذرية من إدريس، ذرية الشر، ومن أدهم ذرية الخير. والكل لم يورث من الأب إلا الكبرياء. أدهم مطيع لإرادة الجبلاوي على الرغم من حرجه أمام أخيه إدريس. يريد أن يعرف سبب اختياره. إنه على دراية بطباع المستأجرين، يعرفهم بأسمائهم، وعلى علم بالكتابة والحساب، فوعلم آدم الأسماء كلها». اتخذ أدهم من الأمانة شعاراً وسجل كل شيء في دفتر الوقف «العمل رسالة وأمانة»، فالإنسان صاحب الذاكرة وحامل التاريخ يشعر بالحرمان والكبت والغضب ويكظم الغيظ. خرجت أميمة من ضلعه للاستئناس بها في وحدته كما خرجت حواء من ضلع آدم كما يروي العهد القديم. سمرام مثل أدهم المخلوق من الطين. ولكن روحه صافية، يعشق الحقيقة وساع التاي. يعشق الوجود ويصلي لله شكراً على نعمائه. أما إدريس فلهذه المعترض على إرادة أبيه وهو الأخ الأكبر ابن المرأة الحرة البيضاء. يدافع عن الكرامة ضد الظلم، ويرفض الجبن والخنوع لم يسه إلى أحد من إخوته ولكن الظرف هي التي دفعته لإقواء أخيه بالاطلاع على حجة الوقف والشروط العشرة واللوح المحفوظ اللذين بالفارسية في خدع عليه بسلط فارس وكأننا في جو التصوف الفارسي والساكت عن الحق شيطان أغرس. كما اعترضت أمه على الأب وهي محتضرة ولكنه اعترض الضعيف العاجز.

ويستمر جدل الخير والشر من إدريس وأدهم إلى قدرى وهام أبناء أدهم، جدل الطاعة والعصيان في توأمين. كلاهما يتسبب إلى الجبلاوي ومن صلبه. ولوله لاندثر الأحفاد. ولكن قدرى لا يلكره إلا باللغات، وأدهم لا يلكره إلا بالإجلال والإكبار. قدرى لا يعترف بجده لأنه يترك ذريته تشقى وتكد في الحياة الدنيا وهام يحترمه لأنه الجد. قدرى يراه شبيها بالشر ويضعفهم وهام يراه متعاليا مترفعا. وتقع هند ابنة إدريس من سفاحه مع نرجس خادمة البيت في حب قدرى ويتوارثان خطيئة الأب والجد. وينشأ الحسد بين قدرى وهام، بين العصيان والطاعة، بين الشر والخير. فيقتل قدرى هام كما قتل قابيل هابيل ودفعه دون أن يتعلم من الغراب. فالقتل من صنع الإنسان والشر من خلقه وإن توارثه. واكتشف أدهم الجريمة وجعل القاتل يحمل ضحيته. ولكن لماذا لم يدافع الجبلاوي عن حفيده هام؟ للجبلاوي حفيدان قاتل وعاهرة! أما هام فإنه مثل يوسف مع إخوته. حزن لاختيار الجبلاوي له ليقبى معه في البيت الكبير مما سبب حسد قدرى له كما حسد إدريس أدهم لنظارتها للوقف دونه. ورفض هام قبول العرض قبل استشارة أمه أو أخذهم معه. هو البدر الطيبة في الأرض الطيبة. لذلك زار الجبلاوي أدهم لتقديم العزاء والعفو وجعل الوقف لذريته.

وضعف البشر في أهوائهم: الحسد، والغيرة، والغواية، وحب الاستطلاع، والخوف، والطمع، والجبن. هي التي تحلّد سلوكهم وأخطأهم، يذب الخصام في الحارة بسببها، وينشأ فيها النزاع بدوافعها هي. أقوى من رسالة الجبلاوي. فعل الرزم من الترابط الأسري في الحارة لم يمنع ذلك الخصام وكان الدين يثير العواطف ويزيد من حدة الانفعالات كما لاحظ أسبنوزا من قبل، ويدفع إلى التطرف، ويبعد عن الاعتزال. وبدلا من أن يعم السلام في الحارة انتشر الحسد. الكل يحسد حارة الجبلاوي لأوقافها وقنواتها، للثروة والسلطة. نشأت الحارة من هذه القصة الأولى، الحسد، حسد الأخ الأكبر للأخ الأصغر، وحسد أخوة يوسف ليوسف، وحسد قدرى لهام لاختيار جده له للإقامة معه. والغواية هوى بشري آخر، غواية إدريس لأخيه أدهم للاستطلاع على حجة الوقف لمعرفة الورثة، وغواية أميمة لأدهم للاستجابة لطلب إدريس، والغواية ليست فقط من الخارج بل من الداخل، هوى النفس ونداء الشيطان لا تقع الغواية إلا لمن له استعداد للغواية. وحب الاستطلاع للاستطلاع على المستقبل أيضا هوى ودافع للسلوك مثل حب استطلاع أميمة على الوقف للاستطلاع على ميراث ذريتها والتحيز والمحابة أيضا أهواء لأنها لا يقووان على العدل. والفضب هوى مثل غضب الجبلاوي على أبناء إدريس وأدهم. وصلة الناس بالجبلاوي، المحبة والخوف أهواء وتشفي إدريس من أدهم بعد وقوعه في الغواية هوى. ومن ثم ارتبط الصراع في الحية بالأهواء واستحالت معرفة الحقيقة.

لم يكن نجيب محفوظ بدعا بين الروائيين في الاعتماد على قصة آدم وحواء وإعادة صياغتها في أسلوب روائي لتصوير نشأة البشر على الأرض، والصراع في المجتمعات؟ والخنين إلى الفردوس المفقود، ودور المرأة في الغواية، وتحدي الإنسان، ورغبته في العودة إلى الأصل الأبل بالعمل والجد والاجتهاد. عاجلها الأدباء كما تناولها الفلاسفة منذ أروسطين في مدينة الله حتى بول ريكير في «فلسفة الإرادة»، وقد كان ابن طفيل أكثر شجاعة عندما فسر نشأة حي بن يقظان على الجزيرة النائية تفسيراً طبيعياً، بلرجة معينة من الحرارة مع درجة معينة من الرطوبة تنشأ الخلية الحية ثم تنقسم إلى خلايا فينشأ الإنسان. لم يخرج نجيب محفوظ على التصير التقليدي للقصة، صراع الخير والشر كما استعملها الفقهاء من قبل مثل الشهرستاني لتفسير نشأة التعدد من الوحدة بأخطاء القياس وعصيان الأمر.

٣- جبل والخلاص بالقوة

وعلى الرغم من جبل الجبلاني الوقف في ذرية أدهم إلا أن الواقع كان على خلاف إرادته وصيته. استمر الكدح من أجل الحيلة والسعي وراء الرزق وأصبح آل حمدان، ورثة أدهم، هم البائع الجوال، وصاحب الدكان أو القهوة والتسولون، وتجار المخدرات. طابع الزحام والضمجيج. الأطفال الحقة أشبه عربايا. والنساء تقمن بأعمالهن يملأن الصمت بالصراخ والشتائم. تسمع دقة الزار بين الحين والآخر، وأصوات عربات اليد، والمعارك بالأيدي واللسان. قطط غموة، وكلاب تنبح، وأكوام زبالة، وفتران ونعابين، وعقارب وذباب ونمل وقمل. كل شاب يجذ في نفسه القوة يتحشش بالأمتين، ويصبح فتوة على الحي، يفرض الإتاوة والحماية، ويبيع سلطانه لمن يشاء مثل: (قدرة والليبي وأبوسريع وبركات ومودة وكبرهم زقلط). ويعتمد الأفندي ناظر الوقف على كبير الفتوات لينفذ أوامره ويسلب الناس حقوقهم ويرث آل حمدان أصحاب الحق الشرعيين الوارثين النبوة والملك مثل بني إسرائيل. ضاع حق آل حمدان في الوقف وقرعوا في تراب القلعة والبوس وتسلب عليهم فتوة ليس منهم بل من أحط الأحياء. يمتصون للمستمر أيما كان، ويملكون للقرى أيما كان. ويسجلون أمام النيابة، يدارون بملك كله الرعب الكامن في أعماقهم، غموس اللقمة في حارة الهوان. لقد وعد الجبلاني أدهم أن يكون الوقف خير ذريته عندما ظهر له في النهاية بعد قتل قلدي لهام عزاء له وعصفوا وبشارة. وشيدت الربيع ووزعت الخيرات. ولما أغلق الأب باب واعتزل الدنيا احتذى الناظر حذوه. ثم لعب الطمع في قلبه فاستأثر بالربع، وغالط في الحساب، وقتر في الأرزاق وقبض على الوقف معتمدا على فتوات الحارة بعد أن اشتراهم. فزاد البوس والفقر، وعم الجبن والذل. الفتوة وحده يعيش في بحيرة العيش والناظر في قمة السلطة الدينية وتحت الفتوة الأكبر في قمة السلطة السياسية وتحت باقي الفتوات الصغار، الشرطة وأجهزة الأمن وتحتهم جوع الناس يدفعون الإتاوات للكل. ومع ذلك فهي حارة محسودة من بين الحارات، تحظى بوقف وفتوات، خير أمة أخرجت للناس بلا سبب، لا يأمرهم بمعروف، ولا ينهون عن المنكر. الناظر لص، والفتوة جبار يعاونه على السرقة. فالإرث، إرث النبوة والملك، خاص ببني حمدان دون غيرهم. الصبر هو الحل، والتطلع إلى المستقبل لا يجيء.

وبناء حارة الجبلاني يدل على تسلط البيت الكبير عليها. الوقف وبيوت الناس في خطين متقابلين أمامه. وهناك خلاء حول البيت الكبير من جميع الجهات رمزا للاتناهي. وبيت ناظر الوقف، السلطة الدينية، على رأس الصف الأيمن من الحارة، خليفة الله في الأرض، الكهنة ورجال الدين. وأغلق البيت أبوابه على صاحبه وخدمه المقرين. ومات أبناء الجبلاني مبكرين، ولم يبق من سلالاته إلا الأفندي ناظر الوقف واجتمعت السلطان الدينية، الناظر، والسياسية، الفتوة، في سلطة واحدة تسيطر على مصر الحارة.

أما شعراء المقاهي فلا يروون إلا عهود البطولات، متجنين الجهر بما يبرج مركز السادة. ويتنقون بمزاييا الناظر والفتوات، يبدل لا تحظى به الحارة، ورحمة لا تعجدها، وشهامة لا تلقاها، وزهد لا تراه، ونزاهة لا تسمع عنها. وظيفة الشعراء إذن تبرير الواقع، والتكسب بالشعر والتفاق. ليس عيب الشعر الغريبة «والشعراء يتبعهم الغاويون» بل العجز والجبن «يقولون ما لا يفعلون». «أهَذَا هو حال الشعراء يارضون؟ ترددون حكايات الأبطال، ويتنقون على الرباب. فإذا جد الجلد تفهقتم إلى الجحور، وأستعتم التردد والمزمنة. ألا لعنة الله على الجبناء».

وفي قلب هذا الواقع الأليم تبدأ بذور الثورة والتلملم والاعتراض والوعي بالسقوط وبالتألل الضائع. البشر بطبيعتهم يتنازعهم وإقناع: الواقع والشدة إلى أسفل، والتألل والشدة إلى أعلى. الواقع مستمر: الغذاء والعمل

والكدح والسعي والرزق . والمثال جذوة تشتعل قترفع الواقع أو تنطفئ فيسقط الواقع . الواقع كالبدن والمثال كالنفس . الواقع بلا مثال موت ، والمثال بلا واقع نفس هائمة على وجهها لا مستقر لها .
للكل يبدأ الواقع بالتعلم من الداخل بإدراك البسطاء الذين أدركوا حدود الصبر وقبول المذلة والمهوان . يصف دعبس آل حمدان بأنه قضى عليهم بالذل إلى الأبد . لاشقهي ولا كرامة . يسمعون في العمل بعيدا عن الحارة . فإذا عادوا تواروا وراء الجدران . وإذا عثر بأحدهم فتوة عبث به صفقا أو بصفا . كما يبدأ التمرد أيضا عن طريق الشعر . رواية المقيي عندما تثير خيال الناس عن الماضي السعيد ، أيام البطولات والأنياء ، وقت العدل والمساواة يبدأ التحرير عن طريق القصص الشعبي وتذكر الماضي وتبني العودة إليه تعويضاً عن آلام الحاضر . يتحدث الشاعر عن هوان آل حمدان في هذه الحارة ، ويقابل بين ظلم الحاضر وعدل الماضي ، ويقارن بين المثال بالذكريات والواقع بالرؤية ، الصراع الأبدي بين الخير والشر ، بين أدهم وإدريس ، بين همام وقفري .

ويبدأ البحث عن طريق الخلاص بعد تراكم مظاهر الاختراض وبدليات التمركز والقلق دون زمامة ، الطريق هو القضاء «أماننا المحكمة» ، أن نلجأ إلى الناظر قمة السلطة الدينية . وتفضل الحارة مواجهة الناظر . فلذهبت إليه جماعة مع رجال الحي وليس آل حمدان وحدهم حتى ولو كان في ذلك شبهة عصيان . وعبروا له عن الأسرة والوحدة . فالكل أبناء أدهم وأميمة ولكن الناظر اعتبر أن ذلك عهد ولّى ومضى . «ذاك تاريخ مضى ، رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، وأن الطبقة مسار اجتماعي وتاريخي على الرغم من أن الناس هم أبناء الجبلاني ومستحقو الوقف . ويحرك الناظر في يده المسبحة ليوحى بالإيمان والتسوى ، يطلق بها كما يطلق النبوة على الرؤوس . فتاريخ الإقطاع هو تاريخ الدين . ويتصلب ويتشجن ويدعي أن هذا الوقف لحيه ، وأن الناس تصدق الحكايات الخرافية ، ويسمعون قصص الأنياء على لسان الشعراء ورواة السير والمغازي في المقاهي . يعتبر رجال الدين أنفسهم ورثة الله وخلفاءه في الأرض . يستأثرون بثروات النبوة في الساء والأرض . طلب الناس رؤية الشروط العشرة ، الوصايا العشر الأخلاقية التي لا ينصلح الفرد والمجتمع بدونها ، ولكن الجدل أغلق على نفسه الأبواب . وتذكر تمر حنة أن للوقف الخطأ في الأصل وليس في الفرع ، عند الجبلاني وليس عند الناظر . ويصرخ دعبس «يا جبلاني تعال شف حالنا . تركتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم» (ص ١٢٦) . والكل يصرخ «يا جبلاني» صرخات استغاثة واستنصار . الدين عند الناظر أفيون الشعب وعند الناس زفرة المضطهدين . أراد الناظر أخذ الأمر بالشدنة وعلم التهوان وإلا انتهى كل شيء . وقامت الثورة من الصراع ، ولا حل لهم إلا زلزل فتوة الفتوات الذي يقاسم الناظر الربع . وزلزل يتوق للدم . ولكن الناظر لا يريد تجاوز التأديب الجدل المعقول لا الإرادة . فكل من يلجأ إلى الأصل ، الجبلاني وأدهم ، يريد أن يسلب الناس أموالهم . فهو سلاح ذو حدين يستعمله الناظر ويستعمله الناس ، فالدين أحد عوامل الصراع الاجتماعي . يستعمله الظالم ويلجأ إليه المظلوم . وأدب زلزل آل حمدان بتهمة التهمج على الناظر مع أنها كانت مجرد رفع شكوى . وناقى الفتوات كبيرهم ولكن تظل شعلة الاختراض وتولد الثورة في النفوس حين تدعو تمر حنة على الظالم .

ثم تظهر النبوة في هذه الظروف «وهي نوع من البطولة الأخلاقية ، نوع من الفتوة كما هو الحال عند الصوفية» . الواقع عنصر تبريد ، والنبوة عنصر تسخين . يظهر النبي من الناس . يتبع إليهم وولاؤه لهم . يقودهم ويخبرهم ويقضي على الظلم الاجتماعي والفساد الأخلاقي بالقضاء على فتوات الحارة وبمجاهة السلطتين الدينية والسياسية . وهنا ما فعله جبل . وهو يتيم وليس لقيطاً ، أخذته امرأة الناظر من بائعة دجاج على حافة

النهر. وترى في بيت الناظر ولكنه في الأصل من آل حمدان. يشعر نحوها بحنان الأم ولكنه يرى استغلال الناظر، موسى في بلاط فرعون. هو ربيب الناظر، ابن زوجته العاقرة بالتبني، لم يعرف له الدنيا إلا هذا البيت ولكنه يتمي إلى آل حمدان، وإنكار الحقائق لا يغيرها. كانت وظيفة جبل في بيت الناظر تسجيل النفاخر كما كان يفعل أدهم، وتوقيع عقود الإيجار ومراجعة الحساب الختامي للشهر. يتنازع الولاة بين البيت الذي ربه والأصل الذي ينتمي إليه، بين بيت الناظر وآل حمدان. يتعاطف مع أمه لا مع أبيه، فالأومة أقوى من الأبرة.

قتل جبل قدرة دفاعا عن عيس كما قتل موسى المصري دفاعا عن العبري. فجبل لا يقوى على قبول الظلم «هل يرضيك هذا الظلم يا جبلاوي؟» (ص ١٣٥). كان يجلس على الصخرة نفسها التي كان يخلو فيها قدري إلى هند، ويسترجع الذكريات ويستمع إلى حديث النفس، كيف يستمتع بالحيلة على حساب الغير؟ أليس خائننا لآل حمدان؟ وتحتدر النفس عن طريق الذكريات، ويمرر مثال الماضي الواقع الحاضر. كان يجب الخفوات. فلعل نبي خلوة، خلوة المسيح إلى المعبد، وخلوة موسى في جبل سيناء، وخلوة محمد في غار حراء. كان يشعر بالظلم الواقع على آل حمدان، ويسمع الهاتف الباطني، ويسأل «ألا تعلم ذلك يا جبلاوي؟ إلى متى تسكت في بيت الناظر ويرفض تأديب آل حمدان انتقاما لقتل قدرة ويترك بيت الناظر من العار أن أترك أهلي زقلط في بيت الناظر ويرفض تأديب آل حمدان انتقاما لقتل قدرة ويترك بيت الناظر من العار أن أترك أهلي ييادون وأنا أنعم بظلك» (ص ١٤٧). وتستيره ذكريات الماضي، حديقة البيت الكبير، مسألة أدهم التي تروها الرباب، ويقرر أن يعيش كما يعيش أهل الحارة فالصادقة وحدها هي التي انتشلت. ويقوى الجبهة الداخلية، ويصلح بين المتنازعين، ويعلم الناس عدم الحكم بلا دليل كما يفعل الفتوات. ويقابل فتاتين لا تقدران على ملء صفيحتيهما بالماء فيساعدهما كما فعل موسى مع ابنتي شعيب. ويقابل أباهما، البلقطي الحاوي. ويتعلم منه السحر لكسب القوت، السيطرة على الثمايين. وقد كان الساحر أيضا من حارة الجبلاري، من آل حمدان. وتزوج صغرى الفتاتين، شفيقة وليس سيدة الكبرى طبقا للأعراف. وعاش سعيدا يفكر في هذه اللعنة التي حلت بذرية أدهم، أسرة مجيدة، تجري في دماها الجريمة منذ القدم. قوم ظالمون وهو رجل شهم. عاش أدهم ومات وهو يتمنى الحيلة البرية اللاهية — الحديقة والغناء. ثم يتساءل جبل: أين الجبلاري؟ بحثا عن الخلاص. خشيت عليه شفيقة وحل وليدها من هذه الموموم. ولكن كيف تطيب له الحيلة وهو ينسب إلى آل حمدان، والأفندي رأس الاختصاص، وزقلط رأس الإرهاب؟ شعر أنه مسئول عن الأرواح التي أزفقت، والأزواق التي سلبت. يعود جبل إلى آل حمدان ويرى الجبلاري في الطريق كما رأى موسى الناس. وتم اختياره لإنقاذ آل حمدان بعد أن سمع «أنا جندك الجبلاري» (ص ١٧٧). ودعا الجبلاري جبل إلى الثورة على الظلم. «بالقوة تميزسون البيغي، وتأخذون الحق، وتغيرون الحيلة الطبيعية» (ص ١٧٨). النداء حقيقي والمطلب حقيقي. ولن يكون النداء وهما إلا إذا كان المطلب وهما والنداء مبادئ عامة دون تفصيلات: الثورة على الظلم. فالتفصيلات والإجراءات متروكة لتقدير الناس. وصدق النداء مرون بتحقيقه مصالح الناس.

صمم جبل على أن يذهب إلى الناظر وحده بعد الاطمئنان إلى أن آل حمدان سيكونون وراعه، وحدة متأسكة لمواجهة الشدة. وقابل جبل ناظر الوقت وفي قلبه الحنين إلى الأم. وكشف له عن معاناة آل حمدان من الذل والموت والقتل. تريد الأم أن تنسى الماضي ولكن جبل يذكرها بآلام الحاضر ويجرم الفتوات. جاء جبل مطالبا بحقوق آل حمدان وحقوقهم في الوقت والحياة الآمنة تلك هي رغبة جده الجبلاري. تعجب الناظر من أن الواقف لم

ينادر بيته قط منذ اعتزل. ولكن جبل طلب الاحتكام إليه وإلى شروطه العشرة. متوعدا الناظر بغضب الجبلاوي إن لم يرد حتى آل حمدان المشروع.

وحدث أن ظهرت الثعابين في الحارة تلدغ الناس. فتطوع جبل لاستخراجها بما تعلم من السحر. فالتني ذو نفع، بقي الناس الغرر، ويحقق لهم المصلحة. ثم ظهرت الثعابين في بيت الناظر. وقرر جبل تخليصه منها مقابل كلمة شرف باحترام آل حمدان في كرامتهم وحقهم في الوقت. وهضمت الحارة لجبل: «جبل يا نصير المساكين، جبل يا قاهر الثعابين» (ص ١٩٢). ولكن الناظر لم يف بوعده، واستدعى الفتوات. ودخل معهم جبل مع آل حمدان في معركة ضد زقلاط الذي غرق في المياه والطين كما غرق فرعون وجنوده. وكانت حجة الناظر أن الناس يخضعون للقوة لا للشرف، ويخشعون خوفا من الثبوت لا إعجابا بالشرف. لذلك استعمل جبل معه المنطق نفسه، القوة. ثم توجه البعض إلى البيت الكبير متادين جدهم الجبلاوي لأن يخرج من عزلة لمعالج ما فسد من أمورهم. بينما ذهب آخرون إلى بيت الناظر، يلغون البوابة، واستسلم الناظر لتحقيق إرادة الواقع وإصلاح الأخطاء. وطلبت الهائم المروءة والرحمة تنبؤا بقدم رفاة. ما كان أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم. ولكن القوة لا تجابه إلا بالقوة. ليست الفتوة مطلب جبل ولكن استرداد حقوق آل حمدان دون الجور على حقوق الآخرين في مواجهة الزيادة ورد الفعل وجعل السيد والعبد، وأعطى جبل وصاياه الأخيرة بتذكيرهم بوصية جدهم، وبأن يكونوا أقوياء وأن يصمدوا للملمات، وأن التلذذ بالقوة إذا لم ينعف فلن يدفع بهم إلى أسوأ مما هم فيه. في البأس قوة وعزيمة. وعندما يجري الخير بين أيدي الناس سيتم رفع الباقي إلى مقام البيت الكبير. حاجات الناس أولا. والخير للحارة أولا دون باقي الحارات، لأن حمدان فقط دون غيرهم، فالهيدوية دين خاص باليهود وحدهم. لا فتوة في حمدان. والكل فتوة على من يطمع فيهم. ولما كان آل حمدان أحب أهل الحارة إلى الجدهم فهم سادة الحارة. يسود بينهم الحب والاحترام دون حسد أو شائنة. وتتره جبل عن أن يأخذ أكثر من حقه، وحقق العدالة بين الجميع. المجتمع يؤله الزعماء والزعماء يقاومون هذا التأليه.

ولكي يضمن جبل استمرار نجاح الثروة والقضاء على الظلم والظغيان من الشرية ووضع القانون للعجبة السالخية «العين بالعين والسن بالسن» بناء على واقعة فقه عين كميلها من دعبس في شجار على القمار، دعبس الذي أنقذ جبل حياته وقتل غدري بسبيه، ثم فقأ كميلها عين دعبس جزاء له. لذلك أيضا تم تحريم القمار «إن الواقف لم يؤثركم بحبه ليمتدي بعضكم على بعض. فإذا حيلة تقوم على النظام وإما فرضي لن يقي على أحد» (ص ٢٠٨). لا تنجح على ثورة ضد الظلم في الخارج إن لم تقم على عدل في الداخل. «ماكرهم الفتوة إلا لأنها كانت عليكم. وما أن يأس أحدكم في نفسه قوة حتى يبادر إلى الظلم والعُدوان والشياطين المسترة في أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا مودة. فإما النظام وإما الهلاك» (ص ٢٠٩). أصبح جبل بعد ذلك مخفوا مهربوا «وتبامس الناس بقسوته وظلمه، ولكن وجد هؤلاء دائما من يرد عليهم قوْلهم، ويذكر بالوجه الآخر لقسوته، وهو الرحمة بالمعتدى عليهم، والرفقة الصادقة في إقامة نظام يضمن العدل والنظام والإخاء في آل حمدان» (ص ٢٠٩).

هذه قصة جبل. كان أول من ثار على الظلم في حارثا. وأول من حظي بلقيا الواقف بعد اعتزاله. وقد بلغ من القوة درجة لم ينازعه فيها منازع. ومع ذلك تعفف عن الفتوة والبطوجة والإشراء عن سبيل الإتاوة وتجارة المخدرات، ولبث بين أنه مثالا للعدل والقوة والنظام. أجل لم يتم بالآخرين من أبناء حارثا. ولعله كان يضمم لهم احتقارا وازدراء كساتر أهله، لكنه لم يعتد على أحد منهم ولا تعرض لهم بسوء. وضرب للجمع مثالا جديرا بالاحتذاء (ص ٢١٠).

٤ - رفاة والخلاص بالرحمة

وعادت الحارة إلى السقوط. عم الظلم، وساد التسلط من الناظر والفتوات. الناظر له اسم هذه المرة «إرباب» بنسب الألف المملوكة التي لرفاعة وزوجته لها اسم هدى وبها نفس الهاء التي في هند في عائلة جبل الأولى. وأصبح الفتوة ليس زقلط بل بطيخة. ساء حال المجتمع، وانغمس الناس في الحياة الدنيا. عمهم الظلم وساءهم القهر. وأصبح أمياد الحارة عبيداً أكله. ذهب جبل وعنده السعيد. تهوى النبايت لأفقه سبب، وأصحاب الوجوه المستكبرة تختال كالقضاء والقدر. ويتمنى المساكين المحال كما تمتأ أدهم من قبل.

ومازال البيت الكبير قائماً في الخلاء، عاطا بالسور العالي. ومازالت حوله الذكريات: صخرة هند، المقام والمصل، سوق المقطم الذي ذهب إليه جبل أيام محته. لا يستطيع أحد أن يتحدث عن الوقف. أين جبل وعنده جبل؟ أين القرة العادلة؟ ماذا أرجع آل جبل إلى الفاقة والذل؟ لا بد أن يخرج الجبلاني يوماً من عزلة لينفذ أحضاده من الظلم والهرمان. اعتزل في المنزل، واستأثر ناظر الوقف بريمه إلا ما يبغ الفتوات نظير حمايت. وهذا هو الدهليز الذي أغرق فيه جبل أعداءه. وفي هذه البقعة أقام أدهم كوخه، وبارك الجبلاني ابنه وعفا عنه. رسم المبيض صورة الجبلاني فوق رأس الشاعر كما ترد أوصافه في الحكايات. فالجبلاني من خلق الإنسان والفنان. لما أخلق الجبلاني أبويه في وجه أحضاده؟ ربا بسبب الكبر. كيف غشي به الأيام؟ لو فتح أبويه لما بقي أحد من أهل الحارة في داره القلدة.

ويحكى عم جواد الضيرير الشاعر قصة جبل ليلة التقى بالجبلاني في الظلام. وطلب منه عدم الحرف، وحباه بالتأييد والعطف حتى انتصر. وعاد إلى حارته مجبوراً الخاطر. ما أحل العدة بعد الاعتراق. وما أكلب الشعراء. إذ يريد الشاعر إرضاء السامعين بأي ثمن. وتختلف الروايات والحكايات طبقاً للأغراض والمواقف. فالشعر مثل الحارة جبان خائف. ينتظر ويتربص، يذاهن ويتملق. يؤيد القوي، الناظر والقوة على حساب الضعيف.

ثم أصبح الوقت ناضجاً لإحداث تغير اجتماعي جليل بعد أن علت أصوات الاحتجاج. فقد لاحظ حجازي أحد أبناء حي جبل استكانة الحارة «هيكم أنكم تخافون الموت أكثر مما ينبغي. للملك يسيطر عليكم خنفس. وتسلط ييوسي، وصادر إرباب أوزاقكم» (ص ٢٤٣). العيب في الناس. كان جبل قوياً، وبالقوة والعنف استخلص الحق الذي أضاعه الجبن. لا سبيل إلا القوة، والقوة وحدها لاسترداد الحق. وبغيرها لا يسود العدل. قلنيا ذهب جبل إلى الأفندي يسأله العدل والرحمة فأرسل إليه زقلط ورجاله ولولا النبايت لا لرحمة لملك جبل وآله. تجربة ناجحة أيام جبل وتستطيع أن تنجح من جليل بعد أن ضاع تراث جبل.

وهنا تنهياً للظروف لمحاولة ثانية وأمل في خلاص للمجتمع بتطهير النفس أولاً حتى يتم خلاص المجتمع. وهي محاولة رفاة كما حاول يسوع المسيح. ليست الغاية الوقف بل تطهير النفس من الطمع والجشع والأهواء حتى تحل مشاكل الوقف والظلم الاجتماعي وتسلط الفتوات. الطريق إلى ملكوت الأرض هو ملكوت السموات. وإذا كان السقوط نتيجة للأهواء البشرية: الحسد والغيرة والغواية فإن التخلص منها هو الطريق إلى الخلاص.

بدا رفاة هاروا مع أبيه عم شافعي مع زوجه عبدة من الحارة بعد أن شعر الأب بالظلم وبدلته الاعتراض وقتل الأطفال الذين قد يظهر المخلص منهم كما هرب المسيح طفلاً مع كميله يوسف وأمه مريم من فلسطين إلى مصر، هرباً من هيرود الذي أمر ببلع الأطفال. عم شافعي هو أبو رفاة وليس الروح القدس. وهو زوج عبدة أم رفاة زواجاً شرعياً وولادة طبيعية. تأمل وقبّل وجهه في السماء مثل أدهم وجبل مما دفع رفاة أن يتسائل «انتصر جبل يا أبي ولكن ما جرى النصر» (ص ٢٢٣) وكان الجواب «تسبنا الجبلاني». وانتجذب كلاهما نحو البيت الكبير

الذي يقف عند رأس الحارة متضرعا، صاحب هذه الأرض ومن عليها. الخير خيره، والفضل فضله. ولولا عزلته لملأ الحارة نورا. باسمه ينهب الناظر الوقف ويتعدي الفتوات على الناس. لم ترد عين رفاعة عن البيت المغلق وأحس يائسا أن الجبلاني لا يتكرر. لقد أغلق أبوابه في وجه أحفاده وكان رفاعة يجب سماع الشعر والحكايات كما سمع عيسى التوراة من الأحبار. صادق عم جواد، وكرر زيارته له لتعليمه الحكمة. وقصص السابقين. وأحب رفاعة أم بخاطرها كودية الزار التي رأى أيضا صورة الجبلاني معلقة على الحائط فوقها. أراد رفاعة أن يرسم صورة مثلها في الدكان فتبته أبوه إلى أنهم أولى بنفقاتها. فما قيمة الخيال؟ كان لديها القدرة على إخراج العفاريات من الأبدان لإبراء للمرضى. والحارة كلها في حاجة إلى من يخلصها من شياطينها. عرف رفاعة فن تطهير النفوس من أم بخاطرها كما تعلم جبل السحر من البليطسي. والحقيقة أن العفاريات هم أولئك الناس. لكل إنسان عفريت هو سيده. وكما يكون السيد يكون العبد. ويحرق لكل عفريت البخور المناسب وتدل له الدقة المطلوبة لكل حالة. يتخلص العفريت بالبخور الزكي والنفقة الطيبة. وهل يمكن تخليص ناظر الوقف من عفريته؟، هل يمكن خلاص الشر بالخير؟ أراد رفاعة تعلم أسرار الزلز لتطهير الحارة لا لكسب المال مادام بالإمكان هزيمة الشر بالطيب الجميل. صحيح أن الناظر استولى على الوقف، ولكن الخلاص منه لا يكون باسترداد الوقف ولكن بتطهير النفس من الدنيا من أجل اكتشاف السعادة الحقيقية.

كان رفاعة وديما رفيق الحال، جبل على رقة ومودة. لا يستطيع أن يسلو الصلقات. فالأشياء الطيبة لاتنسى أبدا. كان ذا قامة طويلة وعود نحيل، ووجه ضياء. فنى جلاب ينفع بالدواعي والركة، غريب في الأرض التي يسير عليها. بعد أن تعلم التجارة هام على وجهه في الخلاه كما فعل جبل. احتقر الناس رفته غير المألوفة وصفاه عينيه وصوته الغلب. وهو من صلب الرجال كان عطوفا على الساقطات. هن معفورات في حاجة إلى هداية وليس إلى عقاب. أثار الحب والسلام على الرغم من عيشه بين نابات الفتوات. لم تتفق التجارة مع شخصه على عكس رمي الغنم والتجارة. لذلك اختفى في الصحراء مثل اختفاء جبل واختفاء المسيح ويحث مريم عنه والعثور عليه في المعبد. ظن أبوه أنه عند جواد الشاعر أو أم بخاطرها كودية الزار. أما هو فقد ضايق بحياته وذهب إلى الخلاه شعورا برغبته في الوحدة. كره مجالس الحشيش والزواج وخلا بنفسه ساعات طويلة عند صخرة هند، كان له تأويله الخاص لقوة جبل. لقد أراد جبل استخلاص الحق بالحسنى، ولم يعمد إلى القوة إلا دفاعا عن نفسه. بالجهירות أقام العدل. إن الحارة اليوم في حاجة إلى الرحمة. لم يستطع رفاعة السكوت عما يشعر به، يناقش في الدكان. واختار مكانا أسفل سور البيت الكبير المشرف على الخلاه. دمه شعور مشرق بأن صوت جده الجبلاني يناديه قائلا: «أما جبل فقد قام بمهمته وكان عند حسن الظن به، ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليه» (ص ٢٤٧). ولما طلب رفاعة من جده أن يمد إليه يد العون قال «ما أقبح أن يطلب شاب جده العجزو بالعمل والأبن الحبيب لا يعمل؟» (ص ٢٤٨). ولما اشتكى رفاعة أنه لا حيلة له حيال أولئك الفتوات وهو الضعيف رد الجبلاني «الضعيف هو النبي الذي لا يعرف سر قوته وأنا لا أحب الأتقياء» (ص ٢٤٨). إنهم لا يقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف ورفاعة يبحث عن الحيلة الصافية التي يبحث عنها أدهم من قبل. ولم يطلب جبل حقه في الوقف إلا سعيًا وراء الحيلة الصافية. ثم غلب الظن أن هذه الحيلة لن تيسر إلا إذا توزع الوقف على الجميع ونال كل حقه واستمره حتى يغني عن الكد فتخلص له الحيلة الصافية. ما أتفه الوقف إن أمكن بلوغ هذه الحيلة دونه. وهو أمر ممكن لمن يشاء. ومن الممكن الاستثناء عنه في الحال. لا يحول بين الإنسان والسعادة إلا العفاريات الكامنة في أعماقه فلا يتغير شيء في الخارج إلا إذا تغير الداخل أولا «لا يغير الله مايقوم حتى يشيروا ما بأنفسهم». عيب أم

بخاطرها أنها تنتظر حتى يجيء إليها المرضى الموسرون ولا تذهب هي بنفسها إلى المساكن كما يريد رفاة. لذلك اهتم بالتفوس لا بالوقف. ومادام لا يؤذي أحداً فلن يؤذي أحد. ولا عيال مادام الجند مازال حيا.

وكي يعطي رفاة مثالا حيا للرحمة والتضحية بالنفس وتطهيرها تزوج باسمية بعد أن أراد الناس معاقبتها كما فعلوا مع مريم المجلية، دفاعاً عن شرف آل حمات: إيقاظاً لسمعة خنفس حتى لا يبدو متهاوناً في تطبيق الشريعة ويوميخ خليلها. اتهم رفاة بأنه لا كرامة له وبأنه امرأة وأحق. ولكن رفاة طلب لها الرحمة بضعفها وذعرها، وقدم نفسه للعقاب بدلا عنها، رحمة باستغاثتها. وفي ليلة الزفاف طلب توبتها وتحليصها من العقاريت. ليست شريرة. أحبها الناس واحترموها للسبب نفسه. تمتعوا بها وزلزلوا عليها في الكرامة والشرف. يباهون بالكبار ويغترون بأنهم من صلب آدم. مادام التخلص من العقاريت ميسورا فالسعادة قريبة. لا يطلق رفاة أن يتعذب إنسان. يجب كل الناس وليست باسمية وحدها. وهذه هي السعادة الحقيقية. طهر أباه وزوجه وأمه حتى تتحقق السعادة الصافية. عمل بلا أجر. وشفي الفقراء لأنهم لا يملكون الثمن. خلص الناس من العقاريت ووبب الصحة والسعادة لوجه الله. أحبه الفقراء. وأصطفى من مرضاه أربعة وكأهم رسله، فصاروا إخوة له، برجيا وحشاشا وقوة وقوادا. لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الأخوة ولا المحبة من قبل. تخلصوا من العقاريت، وتطهروا من الحقد والطعم والكراهية وسائر الشرور التي تفتك بالحارة. وأصبحوا سعداء على الرغم من فقرهم وضعفهم. لا حظ لهم في الوقف أو الفتنة. لم يستطع جبل أن يغير النفوس بنبله حقه في الوقف، ولما رحل عن الدنيا انقلب الأقرباء مقتصين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع. أما أنا فأنقذ أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جنة (ص ٢٦٩). وعندما يلمس الأقرباء سعادة الضعفاء سيدركون أن قوتهم وجاههم وأمورهم المقتصية لا شيء.

وخاتمة باسمية مع بيومي مع أن مريم المجلية لم تكن. في رأيها أن رفاة أول كودية زار من جنس الرجال. لا عمل له إلا تحليص الفقراء من العقاريت، مشغول عن زوجته بعفاريت الناس. يعتقد أن مكلف بإسعاد الفقراء وتطهيرهم. هنا ما يريده الواقع لأبنائه تأويلا لأقوال يتغنى بها الشعراء. ويواجه بطيخة رفاة بعد أن قال إنه اتصل بالواقع، وكان الاتصال به حكر عليه دون الناظر. ويرفض بطيخة الاعتناء عليه لأنه مخلوق لا ذكر ولا أنثى والاعتناء عليه مهين للفتوة، كما أن له أنصارا عديدين يحمونه بإلقاء الحجارة. يحقر القوة والجاه والثراء باسم الجبلاري وهي مزاياه وصفاته في رأي الناظر. والعاجز عن شيء يلغيه وينفيه حتى ترتفع مكانته فيسلمه الناس. فالأخلاق قناع على مايقول نيتشه. ورفض رفاة الدخول في معركة، وأثر الحرب: «لا تفكروا في العراك فإن الذي يشقى لإسعاد الناس لا يكون عليه سفك دماهم» (ص ٢٨٣). ورفض الهجرة من الحارة حتى يؤذي رسالته. يجب الحارة والحارة تحبه. ولم يفعل شيئا يستحق العقاب إلا أنه من حي جبل المكروه لديهم. بالأنس حاربوا جبلا لمطالته بالوقف، واليوم يجاربون رفاة لاحتراره الوقف. ينكر رفاة الحيلة ولكنه لا يستحق الموت. لو عرضوا عليه بيت الراقف بدلا من بيوتا، ونفس حزينة حتى الموت. فمن الظلم قتله وليس فيه جانب واحد يستحق العقاب. خاتمة باسمية بدلا من بيوتا، وهو الوحيد في هذه الدنيا الذي أحسن إليها. ليس رفاة ضعيفا كما يتصورون ولكنه نقل المعركة من ميدان إلى ميدان، من الخارج إلى الداخل، من المادة إلى الروح، مما يتطلب شجاعة أسمى وقوة أشد.

وعاش رفاة مع تلاميذه الليلة الأخيرة. ترى هل يدري جلد بحاله؟ إن كلمة منه تستطيع أن تنقله من غلاب هؤلاء الجبارين وترد عنه كيلهم. إنه قادر على أن يسمعهم صوته كما أسمعته إياه في هذا المكان. لقد

وجد جبل نفسه في مثل هذا الموقف ثم نجا وانتصر. طالب رفاة تلاميذه باليقظة كما طالب المسيح، فهم في حاجة إلى الوعي. وصاحت الديكة. وقتل رفاة وصاح «يا جبلاوي» كما صاح يسوع ربه! ربه! لماذا تركتني. «كانت حياته حلما قصيرا لكنها ملأت قلوبنا بالحُب والبقاء. وما كنا ننصّر أن نغادرنا بهذه السرعة فضلا عن أن نقتل بيد أحد من الناس، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التي دلويتها وأحببتها، حارتنا التي أبت إلا أن تقتل الحُب والرحمة والشفاء ممثلة في شخصك فقضت على نفسها باللعنة حتى آخر الزمن... لماذا يلذهب الطغيون ويبقى المجرمون؟... لولا حُبك الباقي في قلوبنا لمتنا الناس إلى الأبد... لن يرحل لنا بال حتى نكفر عن جبننا» (ص ٢٩٧).

واخضت جنة رفاة. ربا نقلها التلاميذ إلى مكان آخر. ويقال إن جسده ظلت ملقاة في الحلاء حتى حملها الجبلاوي بنفسه فوارها التراب في حديقته الغناء. وتقبل ياسمينية الحوارين الأربعة وتجرهم باخضاء الجنة كما فعلت مريم المجدلية. وأعجبت الحوارين، ولكنهم يقتلون عقابا لما على خيانتها كما شق يوحنا نفسه على جذع الشجرة وتحول رفاة إلى حي، وأطلق عليه اسم دار الشفاء. وواصل أصحابه المخلصون رسالته وتبشيرهم بمجيئه. وقتلوا الناس أسرار علمه بتخليص الأنفس ليزاولوها في ملأوة المرضى. بذلك يعيدون رفاة إلى الحياة. أراد أحدهم الانتقام من القتل المجرمين ولكن الآخرين انهموه بأنه ليس من رفاة في شيء كما فعل بولص. ويقال إن الفتوات اختضت. داهمتها الحرائق، وأن مجانين رفاة منتشرون في كل مكان كالق. ورشق بيومي بالطوب وتم تدمير الظلم بالطوب والجراد كما تم تدمير بيت للقمص، المدينة الظلمة. واتفق الناظر مع أصحاب رفاة على بداية عهد جديد، والاعتراف بالرفاعين كحي جديد مثل حي جبل بهاله من حقوق وامتيازات. ونصب علي، أحد الحوارين ناظرا على وقهم، وسلم لهم نصيهم، ووزعه عليهم على أساس المساواة الشاملة. وعاد إلى الحي الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة في فترات الإرهاب وعلى رأسهم عم شافعي وزوجته وأصحاب رفاة. وحظي رفاة في موته بما لم يكن يحلم به في حياته من التكريم والإجلال والحُب حتى صار قصة باهرة تروى على كل لسان. تنفى بها الشعراء، خاصة رفح الجبلاوي لجسده ودفنها في حديقته. وقد أجمع الرفاعين على ذلك كما أجمعوا على الولاء له ولوالديه. لكنهم اختلفوا بعد ذلك. فأصر البعض على أن رسالة رفاة يجب أن تقتصر على ملأوة المرضى واحتقار الجله والقوة. وغال آخرون فتجنبوا الزواج حبا في عماكته.

ومسك فريق ثالث بحقه في الزواج ودعا إلى تجديد حي رفاة. لم يكره الوقف للآله ولكن ليريه على أن السعادة ممكنة دونه. وزع الربع بالعدل ووجه قسم منه إلى البناء والحجر. فالיום خير من الأمس. والغد خير من اليوم. فإذا كان رفاة قد وجد الناس في حياته فليهم تفرقوا واختلفوا فيه بعد موته، حول شخصه ورسالته.

٥ - قاسم والخلاص بالعدل

وسقطت الحارة من جديد، وعادت إلى سابق عهدها وكان شيئا لم يقع، لا محاولة جبل بالقوة ولا محاولة رفاة بالرحمة. انتهت المحاولتان إلى حيتين بالحارة، حي الجبلية وحي الرفاعية. لكل منهما فتوة. لم يمت رفاة يوم مصرعه ولكنه مات يوم انقلب خليفته إلى فتوة وتحولت النبوة إلى كهانة. في الحارة الأقدام عارية، والذباب يلهو بين أكرام الزبالة. الوجوه ذابلة مهزولة، والثياب مرقمة، والشتائم تحيات، والنفاق علاقات وسلوك. وهناك حي جديد، حي الجرابيع يضم الفقراء والمساكين والضعفاء والمرضى الذين لم يخرج من بيتهم زعيم. له فتوة، سوارس، كما كان أبرجهل في قريش.

عالم الفكر

والبيت الكبير مازال قائما على قمة الحارة وفي وسط هذا الانهيار، وراء أسواره غارقا في صمت الذكريات . على عينيته بيت الناظر، وعلى يساره بيت الفتوة، تجاور السلطين الدينية والسياسية، التشريعية والتنفيذية . لم يكن للناظر اسم أيام جبل . وكان اسمه ليصاب أيام رفاعة . واسمه الآن رفعت أيام قاسم . وقتوته لمطة . ويدل الاسم صوتيا على النهب والسلب واللبط والسرقة كما كان قنوة جبل جلطة من نفس الجسيم واللام، وكان قنوة رفاعة عجاج من العجيج بمعنى رفع الصوت يسرق وينهب وفي الوقت نفسه بحث الناس على اتباع سنة رفاعة في احتقار الجاه والثراء .

وكان الشعر كعادته يدافع عن الأمر الواقع . تؤكد الرباب أن نظام حملة التبايت ونظام الوقف نظام عادل جرت به شروط الواقف العشرة، وسهر على تنفيذه الناظر والفتوات . يبدأ الشاعر بتحية الناظر رفعت، ولمطة الفتوة، وسوارس سيد الحي قبل أن يروي قصة أدهم والجبلاري . يفرق الشاعر في الماضي دون الحاضر، ويخرج الناس عن واقعهم المساوي إلى حلم خيالي، يجد الناس فيه تعويضا وسكنا وبدلا .

وكان الناس كالعادة يتساءلون: أين جبلاري؟ لماذا اختفى؟ لماذا لا يخرج من البيت لإنقاذ الحارة وإعادة سيرة أدهم وجبل ورفاعة فيرد إليهم حقوقهم من ناظر الوقف ويخلصهم من الفتوات؟ وهنا ظهر قاسم، طفل يتيم . عمه زكريا يباع ببطاعة يتنادي على عربة «بطاعة العمدة . . . بطاعة القرن» . وهو قريب سوارس الفتوة من بعيد . لم يرزق عمه بملود فاعتبر ابن أخيه ولده . نشأ شبه وحيد . يذهب إلى الحلاء ليلعب حول صخرة هند حيث تبيع الذكريات، الجبلاري وأدهم وهمام وجبل ورفاعة، تعلموا من خبرات السابقين . كان يتطلع مع الصغار إلى البيت الكبير مفاخرا بجده ومقام جده . تعلم البعض عن جبل ، والبعض الآخر عن رفاعة وهو أمي ليس لديه مايقوله . انتهى ثمار المنزل وأشجاره . فدخل ليأخذ منها، ويسبح في فسقيته . كان يحب الدنيا منذ الصغر، ويتلوق الحياة الحنية، ويعشق النساء ويقدر جمالهن . كثيرا ما أخذ عمه زكريا إلى المعلم يحيى يستمع منه أخبار السابقين وقصص الماضي . وهو إنسان فاضل لرفاعة ترك الحارة هربا من الاضطهاد، من البقية الصالحة التي من خلالها استمر التاريخ . تعرف على مستقبل قاسم كما فعل ورقة بن نوفل مع محمد . يعيش في جو المقاهي والحشيش والجنس، ويسأل عن كل شيء وفائدته وضرره، ثم تحول إلى راعي غنم عندما كبر، فرعاية الحيوان مثل رعاية الأمة . وعالم الحيوان الرعي والتكاثر، مثل حال البشر، الطعام والجنس . رعى الأغنام من كل حي، جبل ورفاعة، ومن كل طبقة، الفقراء، والموسرين . وكلها ترضى في إخاء ووثاق على عكس حارة الأثقياء القساة وقد كان همام راعيا . كان يحب النظافة، ويعشق حسن المنظر حتى أحبته النساء .

تجلت حكمته في معرفة سارق نقود نجاد حسبا للنزاع بين القبائل وحفظا لكرامة الجميع كما فعل محمد في الحجر الأسود وتنازع القبائل على وضعه في مكانه في الكعبة . هي سرقة حلال للفقراء والمساكين واسترداد لأموالهم من الناظر التي دفعها لتجديد القرش . وكان الحل أن يضع السارق المحظوظ ليلا في الحارة حتى لا يرى أحد من الذي أخذها وإلى أي حي ينسب . وكان قاسم بعد هذه الشهرة في إنقاذ الحارة من معركة التبايت بين الفتوات يتعهد مال سيدة موسرة جميلة، قمر، لمحها ولمحته، وتبادلا النظرات والإشارات . ثم بعثت قمر جاريتها «سيدة» تومس إليه باستعدادها للزواج منه وتخطيته لها . ففانت عمه في الأمر، فهو ليس كرفاعة بل مثل جبل . أحب وتزوج واستخلص حقه في الوقف ووزعه بالعدل . رأى في قمر الزوجية والام،

حب المرأة وحنان الأم، ورأت قمر فيه الحكمة التي تجلّت يوم السرقة وفض الاشتباك بين الفتوات. يرى الحارة كما يرى الغنم، ويرد عليه الفتوات التحية احتراماً له. كان زوجها الأول من الأكابر وهذا ليس إلا راعي غنم، ولكن للنساء باستمرار ما يرضيهن خارج التكافؤ الطبقي والاجتماعي. تقاسم مثال العقل والكرامة رغم الفقر. وهي موسرة يتاجر معها في أملاكها وتريد القوي الأمين. طلبت إليه الجارية. ألا ينجع نعمة في حياته إكراماً لقمر، عادة تحريم الذبيح في الأشهر الحرم أو ذبيح الشلة في عيد الأضحي. وكانت قمر على قرابة مع أمانة زوجة الناظر من طريق زوجها السابق، مما أحنن قاسم نظراً لعدله الطبيعي للناظر ناهب أموال الحارة. أصرت قمر على موقفها ضد عمها بتجاوز الضاوت الطبقي ورضخ العم حرصاً على تجارته في أموال قمر. وما أفضل زواجاً يجتمع فيه الرجل المهذب والمرأة الموسرة. ولم تهدمها الوشاية بأنه كان يتردد على بيتها أثناء رعيه. وتكلفت قمر بمصاريف الرقة والفرج حيث دارت الأقداح، ووزع الحشيش، ورفض الفتوات، وفرح سوارس برفض الإتاوة على قاسم. وعاش قاسم في سعادة بالغة، ورزق بإسعاد. ولكنه كان يعمل همه الاجتماعي معه. كان مع زوجته حملاً وديعاً، لا يطلب ولا يزجر، وبلغ حالة من الرضى لا يطلب عندها شيئاً. كان خير الرجال في الحي ولكن يسد كالغريب في الدار. حل محل العم في إدارة الأملاك بما له من لباقة في التعامل مع السكان الأفظاظ. واكتسب ثقة العم عويس في حارة لا أخلاق لها إلا السرقة والنبت. كان همه الاجتماعي ينحصر عليه حياته. لماذا لا تكون السعادة للجميع؟ ولماذا يفرض الفتوة الإتاوة ولا تكون زكاة من الجميع لصالح الفقراء؟

وكان قاسم يلجأ منذ الصبا إلى المقطم حيث كان يجلو جبل وحيث قتل رفاعه. وكان يجلس على صخرة هند، ويعشق الأماكن المقدسة التي تهيج الذكريات المعطرة. وكان يمد بصره إلى الحلاء فيستقر على البيت الكبير، بيت الجبلاري الغارق في صمته كأنه لا يسالي بصراع الأبناء من أجله. ما أحوجهم إلى قوتهم الحارقة التي دانت لها هذه البقاع في الزمن الخالي. ولعل القلق لم يكن يساوره لولا ذكرى مصرع رفاعه على كعب من بيت جده. ووجد دافعاً من أعماقه يدفعه إلى أن يصبح بأعلى صوته فيا جبلاوي (٤٢٦). جالت عيناه صخرة قدرتي وهند وبين البقاع التي جرت عليها مصارع همام ورفاعة ولقاء الجبلاري وجبل. هنا الشمس والجبل والرمال والمجد والحب والموت، وقلب يبرز في الحب. ثم يتساءل: مامعنى هذا كله؟ مامضى منه وماهو أت في الحارة ذات الأحياء المتخاصمة والفتوات المتنابلين، والحكايات التي تروى في كل مقهى طبقاً للأغراض والمصالح والأهواء؟ وإذا كانوا جميعاً أولاد الجبلاري فلماذا لا يكونون كلهم في الغنى أو في الفقر سواء؟ كان قاسم يحلم بما يحلم به أدهم وجبل ورفاعة، ولكن كيف السبيل إلى تحقيق الحلم؟

وغاب قاسم ليلة دون أن يرجع إلى المنزل. ثم وجد عند مجيئه بعد أن غاب عن وعيه على الصخرة. لقد سمع قاسم صوتاً قال إنه قنديل خادماً الجبلاري. لقد ولت أيام الراحة عندما بدأ يحمل السر الكبير. قال له قنديل: مساء الخير يا عم قاسم، أنا قنديل، قنديل خادماً الجبلاري، خادم الوقف. سألت قاسم عن جده، كيف حاله؟ الجد بخير. هل يدري الجد بما يجري في الحارة؟ نعم، لأن المقيم في البيت الكبير يستطيع أن يطلع على كل صغيرة وكبيرة. لذلك أرسل قاسم. اختاره لحكمته يوم السرقة ولأمانته. رسالته أن جميع أولاد الحارة أحفاده على السواء، وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة، وأن الفتوة شر يجب أن يذهب، وأن الحارة يجب أن تصير امتداداً للبيت الكبير، وأن يحقق ذلك قاسم بنفسه، بتحقيق ملكوت السماوات على الأرض بالفعل والجهاد الإنساني. لم يكن حلماً بل واقعاً. رأى قنديل وهو يعود إلى البيت الكبير.

بدأ قاسم بتبليغ الرسالة للأقارب: صادق وحسن وعجيرة. وصدقوه فهو الصادق الأمين. لم يشهد أحد لقاء الجبلاري وجبل ولا لقاء الجبلاري ورفاعة. هي أخبار تروى وعادت بالخبر على أصحابها. الحكاية تخلق واقعها بصرف النظر عن صحتها والواقع العملي خير مقياس لتصديقها. الكل من صلب ذلك الرجل المتكف في بيته الكبير، لا فضل لحي على حي. صحيح أنه نشأ في حي الجرايع ولكن لإبلاغ رسالته أيضا لحي جبل وحي رفاعة تحقيقا لإرادة الجد. زكريا لا يفكر إلا في سلامة ابن أخيه، وعويس لا يفكر إلا في الربيع ولكن قاسم اختار كما اختار جبل ورفاعة حتى ولو قتل الأقوياء وهزأ به الضعفاء. لم يعمل لصالحه فله زوج وابنة ومال ولم يعمل ضد الفتوات وحدهم ليكون كبيرهم أو ضد ناظر الوقف وحده ليكون خليفته ويجمع بين السلطتين الدينية والسياسية. إنها أولاد الخير الذي أراه جده للناس جميعا. لا يخرج الجد إلى الحارة كما طالب العم عويس ولو محمولا على أعناق خدمه ليحقق شروط وقفه كما يشاء بل يتحقق ذلك بالفعل الإنساني والإرادة الإنسانية. لم تصب العين قاسما ولكنه سمع نداء الجبلاري، ولن يقلع عما في رأسه ولو ملك الوقف كله وحده. لقد انتصر جبل في حياته، وانتصر رفاعة بعد موته، وسيصير قاسم في حياته وبعد موته. الميراث للجميع على قدم المساواة كما قال الجبلاري. ولن يبقى في الحارة إلا جد رحيم وأحفاد بررة. ويقضي على الفقر والقدارة والتسول والطفیان، وتحضي الحشرات والذباب والنبات، وتسود الطمأنينة في فلل الحدائق الغناء. لن يأتى العام القادم إلا وقاسم سيد الحارة مثل فتح مكة. لن يتخل قاسم عن الأمر مهما تكن العواقب. ولن يكون دون جبل أو رفاعة برا بجده وأهل الحارة. لقد أفسد الجبن الرجال. يكذبون قاسم وهم آل جبل وآل رفاعة، وهم أولى الناس بتصديقه. الجبن داء الحارة والتناق للناظر والفتوات دينها.

وبدأت التشريعات بناء على متطلبات الواقع وحاجته وفي مقدمتها مساواة النساء بالرجال في حق الميراث بعد أن هضم حقهن في الوقف. فالوقف الآن للذكور فقط. لقد أخبره جده على لسان خادمه أن الوقف للجميع والنساء نصف كيان الحارة. وستحترم الحارة النساء يوم تحترم معاني العدالة والرحمة، لا فرق بين سيد وعبد، ولا بين سيده وجارية، ولا بين زوجة ناظر أو فتوة وزوجة خادم. ولما قتل سوارس شعبان شرع قاسم القصاص، قتل القاتل. فالتشريع يفرضه الواقع أولا ويصيح قانونا عاما ثانيا ولما سكر عجرة وأذاع سر اتباع قاسم جد واحد للجميع، ووقف واحد للجميع، والسلام على الفتونة، ثم تحريم الخمر التي تذهب بالمعول، وبدأ التفكير في الوسائل والإجراءات بعد أن آمن به زوجته وخادمه وأصحابه وآله وأتباعه. كانت البداية، بعد استشارة خام شرعي، أي اللجوء إلى السلطة القضائية لرفع ظلم السلطين التشريعية (الدينية) والتنفيذية (الفتوات) عن رقاب الناس. ثم توجه قاسم إلى الناظر مدعيا بالسلطة القضائية وفتوى المحامي الشرعي، ولكنه وجدته هناك عند الناظر مؤيدا له، وموظفا عنده، ويرر مواقفه، ويدافع عنه، ويقاسمه مع الفتوات الربيع. . لقد خان المحامي الأمانة. وهو خائن لموكله حتى في اسمه «الشنايفري». ثم بدأ التفكير في ناد رياضي لتكوين الأتباع وتدريبهم على الرياضة البدنية استعدادا للقتال وأخذ الحق باليد على طريقة جبل، تأسيس نظام رياضي لا نظام سري. نظام علني في حوش بيت قاسم يرتاده الجميع.

ولما اشتد اضطهاد قاسم وأصحابه فكروا في الهجرة إلى خارج الحارة، إلى جبل المقطم كما هاجر عمه يحيى من قبل وإقامة النادي الرياضي في مكان آمن. وسيهرب الجميع بالحيلة لا بالقوة حتى لا يلقى قاسم مصير رفاعة. وبدأ الجرايع يهاجرون مع قاسم دون أن يبقى أحد في فراشه تضليلا مع إحسان التنظيم والتدبير كي

يعود إلى الحارة منتصرا دون ناظر أو فتوة، وكانت زوجته قمر قد توفيت بعد أن آمنت به ورأت اضطهادها قبل الهجرة. وحين أنهت بدرية أخت صادق وليست عاتشة ابنته تحبته بضرورة الهجرة نظرا للخطر المحدق به ويعد أن كان قد دفن قلبه في التراب لأحظ جسمها ورشاقها. ونصحه سكرتيرة خادمته قمر أن يخرج من وحدته، واقترحت عليه الزواج من بدرية. وقد كان، بعد الحب والرعاية من قمر، ولكن ما أغنى الأموات عن إخلاص الأحياء، تبريرا للصدق أو سيرا مع المولى؟

وبدأت الغزوات. قتل في الأولى مسوارس في الرقة وليس للاستيلاء على تجارة قريش في بصرى، انتقاما لمقتل شعبان، ومن أجل القضاء على الفتوة فلا يفل الحليد إلا الحديد. وطالبته بدرية بالاعتساک قبل النوم من غبار المعركة. وهو يذكر قمر ويعداه بالنصر مما غير وجه بدرية غيرة من زوجته الأولى وليس ترجها عليها. وبعد الانتصار الأول، بدأ الناس يعلمون بامتلاك الوقف والتعظيم الذي غنما به أمينة هانم والنظر. المهم الصبر وقلة الضحايا. ما أكثر المظلومين الذين يتمنون النصر، وأدرك الفضلاء من آل جبل ورفاعة أن قاسم سيتحول مثلهم إلى حكاية من حكايات الرباب.

بدأ الناظر والفتوات الخطوة المضادة لإيقاف قاسم وأتباعه. فقد تمسكن حتى تمكن. يغري الحارة بالوقف مع أنه لا يكتفي لأصحابه. يعد بالقضاء على الفتوة فيطرب لذلك الجبناء كما أطرب الفقراء. وإذا كان محمد قد كسب الغزوة الثانية في أحد أولا ثم خسرنا ثانيا بالالتفاف حوله فإن قاسم كسب الجولة الثانية أيضا واستولى على الأغنام. وبادر بالمعركة. فإذا قتل هبطه ضمن النصر لأن جلطة والحجاج سيتنافسان على الفتوة. واستطاع قاسم وأمناره إيقاف صعود الفتوات إلى جبل المقطم ثم اغتيل حجاج فتوة الرفاعة بعد نزاعه مع جلطة ثم انتصر قاسم على جلطة في الجولة الثالثة. ثم يدخل قاسم الحارة فاتحها، دون ضالِب ومغلوب، أبناء حارة واحدة، لجند واحد والوقف للجميع. وهرب الناظر. وقرر قاسم عدم الفتك به احتراماً لزوجته لأنها قريبة لزوجته الراحلة قمر. فالقربة عامل في تحديد السلوك.

وفي قاسم يتحقق حلم كل الرجال الطيبين. وما أقلهم في الحارة: أدهم، همام، جبل، رفاعة. ومع ذلك لقد مات أدهم كمدأ، وقتل همام ورفاعة. سيرة عطرة ونهاية مؤسفة في حين كان قاسم سيرة عطرة ونهاية عطرة. انبعثت في صدره رغبة في أن يكون مثلهم. أما الفتوات فما أقيح حالهم. كم شهدت هذه الصخرة - صخرة هند - من أحداث أناس كغرام قذري وهند، ومقتل همام، ولقاء جبل والجيلاري، وحديث رفاعة وجده. وتبقى الذكرة الطيبة أئمن من حيلة الماخر والضأن. وشهدت أيضا حيلة الجند العظيم وهو يجرب هذه الأفاق وحده. يمتلك مايشاء، ويهرب الأشقياء. ترى كيف حاله في عزله؟ الوقف للجميع على السواء كما وعد أدهم حين قال له أبوه إن الوقف سيكون للزريته. المهم أن يحسن الناس استغلاله حتى يكفي الجميع أو يفيض للاستثمار. فيحيوا كما حي أدهم في رزق موفور وطمانينة شاملة وسعادة صافية.

لم يقبل قاسم الاختيار بين جبل ورفاعة، بين الخلاص بالقوة والخلاص بالرحمة. لقد سأله عمه عن أيهما أحب إليه رفاعة أم الفتوة؟ وكانت الإجابة صعبة على الصبي في البدلية. أراد عمه أن يكون باع بظلمة مثله.

أحيانا يكون قاسم مثل رفاعة. لم يجعل الوقف غايته فقط بل حسن المعاشرة (العذل والنظام مثل جبل.

لقد قتل رفاعة شر قتلة . وكاد جبل أن يقتل لولا انضمام أهله إليه . أما قاسم فقد دعا الجرايع ، الساكنين ، الملعدين في الأرض . قتل رفاعة على بعد أذرع من بيت الجبلاوي ، واعتمد جبل على القوة . وعند قاسم القوة عند الضرورة والحب في جميع الأحوال ، فالقوة هي الاستثناء والحب هو القاعدة . ولا يعيب قاسم الاهتمام بالوقف إذ كيف يعيش الناس بلا وقف ودون ما يقيم أود الحياة الدنيا ؟ بالوقف والقفاء على الفتنة تتحقق الكرامة التي أهداها جبل إلى حيه ، والحب الذي دعا إليه رفاعة بل والسعادة التي حلم بها أدهم . ولن تحتاج الحارة إلى أحد بعد قاسم إذا ما حقق حلمه «سترفع النبايت كما رفعها جبل ولكن في سبيل الرحمة التي نادى بها رفاعة ثم نستغل الوقف خير الجميع حتى نحقق حلم أدهم . هذه هي مهمتنا لا الفتنة» . (ص ٤٠٧) لا توجد شعائر وطقوس وعمارات فقد قام الشعر بها . لن تظهر الحارة من الفتنة إلا بالقوة ، ولن تحقق شروط الوقف إلا بالقوة ، ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة . وستكون قوة قاسم أول قوة عادلة غير باغية . لقد وضع جده ثقته بين يديه ، وهو على يقين بأن في أبنائه من هم أهل لحملها . كان جد قاسم في قوة جبل وفي رحمة رفاعة وقاسم مثله ، صاحب الوقف ، ومن حقه أن يغير ويبدل في الشروط العشرة ، وأن تتغير طبقا لتغير الواقع كما هو الحال في «الناسخ والمنسوخ» . العدل للجميع ، بذلك تتحقق شروط الوقف ، الخير للجميع . قوى الأبدان مثل جبل وطهر الأرواح مثل رفاعة وحقق العدل مثل جده . لا فرق بين حي وحي كما كان الحال أيام جبل ورفاعة ، كل زعيم لقومه ولكن قاسم بدأ يحيي الجرايع وانتهى إلى دعوة الناس جميعا ، مجتمع واحد دون فتنة ولا ناظر ، مجتمع متساو يعمه العدل . الحارة حارة الجميع والوقف للجميع . وفيها يقيم الجبلاوي ، لا تميز فيها بين الناس ، بين حي أو حي ، فرد أو فرد ، رجل أو امرأة ، عمل وعمل . الكل فيها بما في ذلك الحرفيون وأصحاب المهن اليدوية مثل خردة الزبال . كان صادق ابن عم شطح مبيض النحاس ، وعصمة ابن عبدالفتاح الفسخاني ، وأبو قصادة بن مهديون صاحب المقلة ، ومروش بن حسونة الفران .

ذهب الناظر إلى غير رجعة . واختفى الفتوات . فلا يوجد في الحارة بعد اليوم فتوة تؤدي إليه الإتاوات أو عريذ متوحش تخضع له الناس . يعيش الناس حياتهم في سلام ومحبة . ويبدعهم ألا يعود الحال كما كان ، إذا ما راقبوا الناظر . إذا خان عزلوه . وإذا نزع أحدهم إلى القوة ضربه . وإذا ادعى فرد أو حي سيادة أدبوه . بهذا وحده يضمن الناس ألا يتقلب الحال إلى ما كان عليه ووزع قاسم السريع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والإنشاء ، أجل ، كان نصيب الفرد ضئيلا ولكن إحساسه بالعدل والكرامة فاق كل حد . لم تشعر الحارة قبل قاسم بالسيادة حقا وبأن أمرها قد آل إلى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستنل ، ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الإحاطة والمودة والسلام . ويمكن تلخيص رسالة قاسم وشخصه في صورته لدى الجرايع إذ «رأى الجرايع فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد . جمع بين القوة والرفقة والحكمة والبساطة والمهابة والمحبة ، والسيادة والتواضع ، والنظارة والأمانة . وإلى ذلك كله كان ظريفا بشوشا أنيقا وعشيرا تطيب مودته فضلا عن ذوقه الجميل وجبه الغناء والنكت لم يتغير من شأنه شيء» . اللهم إلا أنه توسع في حياته الزوجية كأنها جرى فيه مجراه في تجليد الوقف وتميته . فعل حبه بديرة تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة وتعشق امرأة من الجرايع ثم تزوج منها أيضا . وقال أناس في ذلك إنه يحدث عن شيء اقتضه مذ فقد زوجته الأولى قمر . وقال بعد زكريا إنه يريد أن يوثق أسبابه بأبيه الحارة جميعا مع النسوان لكن حارتنا لم تكن بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث . بل الحق أنها إذا كانت قد أصعبت به لأخلاقه مرة

فقد أعجبت به لحيوته مرات. وإن حب النسوان في حارثنا مقلدة يتيه بها الرجال ويذهبون، ومنزلة تعدل في درجتها الفتوة في زمانها أو تزيد» (ص ٤٤٣).

٦ - عرفة والخلاص بالعلم

وعادت الحارة إلى السقوط من جديد بعد محاولة قاسم التي كان يعلن أنها آخر المحاولات، والباقية إلى الأبد، العدل للجميع والمساواة بين الناس عادت الحارة تحت إمرة الفتوات، يوسف فتوة حي جبل، وصجاج فتوة حي رفاعة، والسنطوري فتوة حي قاسم. ويسيطر الناظر على الجميع. وتجتمع السلطان الدينية والسياسية، التشريعية والتنفيذية. ولا توجد سلطة قضائية إلا في النوب. انتهى عهد قاسم بحكم صادق ثم حسن طبقاً لنظام القرابة. وبدأ آل جبل وآل رفاعة يرجعون إلى طوائفهم وأحيائهم. وتحولت النبوة إلى خلافة، ثم انقلبت الخلافة إلى ملك عضود. قتل الناظر في إحدى المعارك. وجاء الناظر قدرى، وهو نفس اسم قاتل حمام، من ذرية الشر. وكان سعد الله فتوة الحارة كلها بكل ما يحتويه اسم سعد الله من تناقض، بدأ الناظر بتوزيع الريع بالأمانة. واستأنف التعمير والتجديد ثم طمع مع الفتوات. استأنف بالنصف، والفتوات الأربعة بالنصف الآخر. فرض الإتاوات على المساكين. فتوقف الإنشاء والتعمير. وتحول حي الجراب إلى حي آل قاسم مثل باقي الأحياء، بلا كرامة ولا سيادة. ولم يعد جبل ولا رفاعة ولا قاسم إلا أسماء وأغاني يشدها الشعراء في المقاهي للمسطولين. الدنيا خروقة. والمواويل حزينة من الحنية والفقر والذل. الكل يتمني الموت أو الغيبة في السكر والحشيش. الأخنيات فاحشة داعرة، والقضاء والقدر يخيم على الجميع. فالكتوب مكتوب. الحارة تخرز بالعجلات، والقطط والقاذورات، والكلاب والحشرات والأطفال، طفل عار يلعب بفار ميت، عجوز ضرير يعمل صينية خشبية عليها لب وفول وحلوى وذباب. لقد انقلبت كل تجربة إلى ضلها. قوة جبل إلى ضعف، حب رفاعة إلى كراهية، عدل قاسم إلى ظلم. الحارة مشؤومة عليها لعنة دائمة، تسلط الناظر والفتوة ونفاق الناس وجبنهم.

وتغني الرباب كالعادة بذكريات الماضي، أدهم وهمام، ويحكيات جبل وفاعة وقاسم. انتهت التجارب، وقيت الذكريات في الحكايات عن طريق الخيال. يتأفق الشاعر الجميع. فوقه صورة عجاج محتطاً بجواده، وصورة أخرى للناظر قدرى بشاربه الفمض وعبايته الأنيقة، وصورة ثالثة لجثة رفاعة بين يدي الجبلاري وهو يرثها. يؤكد الشاعر أن رفاعة ماتت في سبيل الحب والسعادة ومع ذلك الناس تفسد. ويفني أشعاراً أخرى عن الصراع بين أدهم وإدريس. ولكن متى تكف الحارة عن هذه الحكايات؟ ماذا أفادت منها؟ هيئات أن تعمل بما تسمع. يظن الناس أن حارثهم قلب الدنيا وماهي إلا حارة للبلطجية والمتسولين. كانت في البدء مرتعاً قراً للحشرات حتى حل بها الجلد الواقف. غنى كل شاعر لفتوة حيه. واستعمل الناظر الرباب. وأوحى إلى الشعراء أن يتغنوا بمجده وعذله.

وهنا تظهر عرفة، مشتق من نفس حروف اسم رفاعة، رفاعة إلى أعلى، إلى السماء، وعرفة إلى أسفل، إلى الأرض. قدم مع أخيه حنش إلى حارة الجبلاري للسكن باحثاً عن حجرة. مجهول الأب، مقتول الأم. أتى للانتقام لأنه ثم الانتقام من الفتوات كلها. ينري الأطفال بالنعناع لتحقيق مطالبه العاجلة مما يكشف عن طابعه العملي المنمعي. أحب منذ الولادة الأولى وقبل أن يكشف عن شخصية عواطف باعثة المشروبات

الساخنة على ناحية الطريق وينت المعلم شكرون الرجل العجوز، وزواجه منها بمباركة عجاج فترة آل رفاعة. أثنى إلى الحارة باقعا ولا تعرف له طفولة مثل رفاعة وقاسم.

وجد أن الشعر في الحارة كمادته يقوم بتخدير الناس وأن الرباب والحكايات تسلب عقولهم. يقول شاعر آل قاسم إن قاسم قد استغل الوقف لتلبية مطالبه فيستغني عن العمل، ويفرغ للسعادة والثناء اللذين حلم بهما أدهم وهل الثناء هو الهدف الأخير؟ أليس حلما جميلا مضحكا؟ الأجل هو الاستغناء عن العمل لصنع الأحاجيب بشيء هو أشبه بالسحر وليس سحرا، هو العلم الذي يشارك عرفة في اشتقاق الاسم من المعرفة. يتحدث الآباء عن قاسم ويتحدثون عن الجد سماعا ولكن الناس لا ترى إلا الناظر قدره والفتوات سعد الله وصجاج والسنتوري ويوسف. الماضي شيء والواقع شيء آخر. الناس في غيبوبة تسلب بالأحاديث ولا تهتدي إلى شيء. أما العلم، هذا السحر الجديد فقد يتمكن يوما من القضاء على الفتوات أنفسهم ومن تشييد المباني وتوفير الرزق لكافة أولاد الحارة. ويمكن أن يحدث ذلك قبل يوم القياسة لا بعد كما تمد الحكايات لحوّل الناس جميعا إلى علماء أي إلى سحرة جلد هناك أدلة على وجود الفتوات بالنبوت لكن لا توجد أدلة على وجود جبل رفاعة وقاسم إلا بالحكايات. والشعر خيال، نفاق وتبرير. الكل مغلوب على أمره، يصبح كما صلاح أبناء الجبلاري «يا جبلاري». كيف لا يرى الأبناء الجد الواقف وهم يعيشون حول بيته المغلق؟ هل يوجد واقف يعبت العماثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا؟ هل هو الكبير، كبر سنه كما يرى شكرون والد عراطف ووجة عرفة؟ وإذا كان الله قادرا على كل شيء فكذلك هذا السحر الجديد. يبدأ الدين بتداه باطني، وهاتف داخلي في حين يبدأ هذا السحر الجديد بملاحظات خارجية واكتشاف لقوانين الكون والطبيعة. يحقق قاسم رغبة جده كما تحكي الحكايات، أما عرفة فيقوم بأعمال حاسمة. ما يكسر صفو عرفة هو مايكلر صفو الحارة، وما يؤمنه يؤمنها. صحيح أن عرفة ليس فتوة ولا رجلا من رجال الجبلاري ولكنه يملك الأحاجيب في حجرة سكنه الجديد، وفيها قوة لم يجز عرشها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين. وما السبيل إلى تنفيذ شروط الوقف العشرة؟ الجد قعيد الفراش. ما عاد بوسعه أن يكلف أحدا من أحفاده بالعمل، لم يبق إلا هذا السحر الجديد القادر على وراثة الحكايات القديمة، وهو انتقال نوعي من حكايات جبل ورفاعة وقاسم، مجاوزة القصر الكاذب بخطوة واحدة. العلم تطوير للدين وإرث وخلافة له.

ويشارك الواقع على لسان شكرون إحساسات عرفة، صوت اسم يهودي شاهد آخر عهد قاسم، ما يدل على أن الفترات بين التجارب السابقة ليست بعيدة ويتحسر على السعادة الماضية. يرى أن أهم عيب هو الكبير، كبر سن الجبلاري، عجوز لا يفيد. كما أن الماضي لا يعود بالحكايات: «قال أبي، قالت أمي. لا يخلص من الفتوات. «الكبير، إنه الكبير، اللهم احفظنا» (ص ٤٧٢) عاصر قاسم ورأى أيام العدل والأمانة. ينادي بالثورة «اضرب، اضرب» (ص ٤٧٣) ما يدل على قدوم التغيير وظهور نبي جديد، عرفة يرى أن الجبلاري اعتكف في بيته من قبل أيام جبل ويعصم «يا جبلاري، يا جبلاري» (ص ٤٧٥) متى يجيب بدلا من الصمت والاختفاء؟ وصاياه مهملة، أمواله ضائعة، وقفه مسروق، وأحفاده منهوبة. لقد كان إدريس الذي عاقبه الجبلاري خيرا ألف مرة من فتوات الحارة. ضرب شقرون السنتوري فيات. والتسليم هو أكبر اللعنات.

بدأ عرفة بممارسة سحره الجديد، العلم فيما يبدو، تحقيقا لمطالبة الناس وتلبية لحاجاتهم، ولكنه لم

ينقل إلا الإساءة. بدأ بالطلب والعلاج، للأبدان لا للنفس، كما كان يفعل رفاة، ثم بالسلاح للمقاومة كما نشأ العلم في الحضارة الإسلامية قديماً، وليست العلوم الرياضية أو علوم النبات والحيوان أو الفلك أو الجغرافيا علوماً من أجل إطالة العمر مثل الطب، ولا للقوة والسيطرة مثل السلاح، علوم الفرد والمجتمع. هو العلم في مجتمع الجنس والحشيش، في مجتمع القهر والغلبة. ولا يتعلم العلم شفاهاً، من عالم أو شيخ بل من الطبيعة في تجارب مباشرة عليها، وإن كان في البداية تعلم عرفة من شيخ تعرفت عليه أمه لديه بعض من هذا السحر العجيب. تقشل هذه التجارب مرات حتى تنجح مرة. له رسالة اجتماعية مثل الدين، تغيير المجتمع وإن اختلفت الوسيلة. يعطي الثقة بالنفس ويؤكد الفعل. يقوم على حب الاستطلاع والرغبة في ارتياد المجهول ومعرفة الأسباب وليس لطلب الرزق. إذ يعطي الساحر العجيب من جهده ووقته أضعافاً مضاعفة ما يتطلبه الرزق. يحلم أحلاماً عريضة عن السحر والمستقبل. وكان الرجل الوحيد في الحارة الذي لم يقبل على الحشيش لحاجة عمله في الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه. عنده ما ليس عند الجبلاني نفسه. عنده العلم الساحر الذي يستطيع أن يخفق للحارة ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين. ولأن يترك الحارة حتى يقضي السحر على الفتوات ويظهر النفوس من عشاريتها ويحلب من الخير ما يعجز الواقف عن جزء منه، ويصير هو قهر الغناء المشدود الذي كان يحلم به أدهم، صحيح أنه في زمن قصير حقق قاسم العلل بفر هذا العلم السحري ولكن سرعان ما انتهت التجربة في حين أن أثر العلم السحري لا يزول، صحيح أن الإصلاح يأتي إذا تحققت العدالة، بتنفيذ شروط الواقف، لكن صحيح أيضاً أن العدالة لا تبقى إلا إذا توفر لها العلم الساحر.

فإذا كان الحال كذلك فلماذا لا يذهب عرفة إلى البيت الكبير بدل أن يأتي صاحبه إليه؟ الدين يأتي إلى الإنسان في حين أن الإنسان يذهب إلى العلم. الأول هبة والثاني كسب. الأول حال والثاني مقام كما يقول الصوفية. وقرر عرفة الذهاب إلى البيت الكبير، والذهاب إلى السر دون انتظار قدومه. وما العجب في وجود حفيد داخل بيت جده؟ وقف أمام البيت الكبير حيث توجد فيه الوصية التي تركها جده. توجه عرفة للأصل، للنجد وليس للفرع أي الحفيد فالعلم توجه نحو الأصول. بدلاً من الانتقام لأمه ومن السطوري قاتل شكون طبقاً لتقاليد الحارة، هذا التقليد المقدس من قديم الزمان يتحول الانتقام إلى جزء من عمل أكبر. لم يعهد إليه الجبلاني بشيء. وهو لا يسيء كثير الثقة بالجبلاني ولا يحكيهايات الرياب. به رغبة جنونية في التسلل إلى البيت الكبير ليسأله المشورة فيما ينبغي أن تسير عليه الحارة كما فعل السابقون الذين اختارهم الجبلاني. لقد اختار عرفة نفسه بنفسه وهو الذي يذهب إليه. يريد معرفة شروط الوقف العشرة. ليس من أجل المعرفة وحدها بل للعمل بها. يريد أن يطلع على الكتاب الذي طرد بسببه أدهم إن صدقت الروايات. فالعلم تصديق للحكايات، ووسيلة للتحقق من صدقها. هل هو كتاب السحر الأول، سر قوة الجبلاني الذي ضن به على ابنه؟ رسالة عرفة سرقة الكتاب المقدس كما مرق بروميثيوس شعلة المعرفة من الآفة؟ لم يعد له هم في الدنيا إلا البيت الكبير. وليس غريباً على مجهول الأب أن يتطلع بكل قوته إلى جده. لقد علمت حجرة الخلفية، محرابه العلمي، ألا يؤمن بشيء إلا إذا رآه بعينه وجربه بيديه. فلا عيب من الدخول إلى البيت الكبير. قد يجد القوة التي يشدها وقد لا يجد شيئاً على الإطلاق. كان يوسع جبل أن يبقى في وظيفته عند الناظر، وكان يوسع

عالم الفكر

رفاعة أن يصير نجار الحارة الأول، وكان يوسع قاسم أن يتأبأ بأملك قمر وأن يعيش عيشة الأعيان، ولكنهم اختاروا جميعا الطريق الآخر. كان رفاعة يقف مكان عرفة هذا عندما ترمى إليه صوت الجبلاوي. هكذا تقبل الرياب. وسوف يعرف حقيقة كل شيء. فالعلم وسيلة التحقق من صدق الروايات. وفي هذا الحلال كلم جبل بنفسه، وأرسل خادمه إلى قاسم. وفيه أيضا قتل رفاعة، واغتصبت أمه وضربت ولم يجرم جده ساكتا! كان عرفة يفكر في الغد العجيب حين يسير في البيت المجهول لعله يلقى الجبلاوي نفسه ويحادثه فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن، وما شروط وقفه وسر كتابه، ذلك الحلم الذي لا يتحقق إلا بعيدا عن صحابات الدخان الذي تنفثه «الجزء». العلم وسيلة لمعرفة حقائق التاريخ.

ودخل عرفة البيت الكبير، ذكريات الماضي ورائحة الفل والياسمين. هنا طرد الجبلاوي إدريس جزاء لتخليه، والتقى أدهم وأميمة. ويرى في السحب أحوال نفسه. له حفيد ولا أب له لا هدف له إلا الخبز. فليقل به الجبلاوي ما يشاء. الأبواب مغلقة بلا مفاتيح مما يدل على سهولة الاطلاح على السر الإلهي. حسب الكتاب الذي يتضمن شروط الوقف وآيات السحر التي سيطر بها جده في الحلال والناس في زمانه الأول لم يكونوا يعرفون بعد. إن أحدا قبل عرفة لم يتصور أن الكتاب كتاب علم لأن أحدا قبله لم يراس العلم. فالعلم لا يعرف إلا بعد الممارسة. لماذا ضمن الجبلاوي على أبنائه بسر كتابه حتى يكتشفوا أن روح الدين هو روح العلم؟ حتى أدهم أحب أبنائه إلى قلبه لم يعرف السر. لقد أشعل أدهم شمعة، وهما عرفة يشعل شمعة أخرى، وهو مجهول الأب ويستغي الرياب بعده قصته إلى الأبد، وهو في طريقه إلى المخدع إلى الكتاب الأثري المشهور. وفي الظلام تثبتت به يد لتمسك به فقتل صاحبها بالضغط على رقبته. كانت جريمة أدهم العصيان، وجريمته هو القتل. قتل رجلا لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه أي سبب. ونسي الكتاب ربا بعد قتل المؤلف. هل قتل الخادم الذي أرسله الجبلاوي إلى قاسم أم قتل الجبلاوي نفسه؟ خيال أم واقع؟ ولماذا لم ينظر في الوصية؟ هل مات الجبلاوي أم أنه لما علم بخبر موت خادمه الأمين تأثر تأثرا لم تحمله صحته الروائية في تلك الذروة من العمر فضاقت روحه؟ إن الجبلاوي طيب، متأثر بالإنسان ومات لأجله. يموت الجبلاوي بموت الإنسان وليس بعلّة خارجية. إذا مات الإنسان مات الجبلاوي. إذا مات الخادم مات السيد. ولكن عرفة سبب موته من دون أحفاده جميعا حتى الأشرار منهم وما أكثرهم. ما ألغن هذه الحارة؟ حتى كبار الأشرار احترموها هذا البيت طيلة الماضي، حتى إدريس نفسه. عليها اللعنة إلى يوم القيامة. وربما يكون موت الجبلاوي خطأ. فلم يكن مسؤولا عن الشر. فهو الذي أرسل همام وأدهم ورفاعة وقاسم. لذا الشر هم الفتوات الحكام والناظر ورجال الدين. وربما كان الجدل من دنيا وعرفة من دنيا أخرى. ولعل الجدل نسي الوقف والفتاة والفتوات والحارة. واقتراح آل جبل دفن الجبلاوي في مقبرة جبل. أما الناظر فاعلنه أنه سيلفن في مسجد أقيم في مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير. وغنت الرياب أجداد الجبلاوي، سيد الجبلاوي، ورمز القوة والشجاعة، وصاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة. إن كلمة من الجدل كانت تدفع الطيبين من أحفاده إلى العمل حتى الموت. والآن موته أقوى من كلماته. إنه يوجب على الابن الطيب أن يفعل كل شيء، أن يعمل عمله، أن يكونه.

واستمر عرفة في عمله في تخليص الحارة أو دفاعا عن النفس بعد أن تعقبت الحارة عن طريق الناظر والتهديد بالوشاية به. قتل سعد الله الفتوة بالخنجر ثم قذف بالزحاجة الحارقة، الصورة الأولى للقبلة اليدوية

تتاج العلم الساحر، على أتصاره . ووضع خطة لقتل فتوة الحارة الثاني . بعدها يبدأ التناحر بين الفتوات وكان عهدهم موشك على الزوال . فبعد قتل كبيرهم وقع الفتوات الآخرون ، يوسف فتوة جبل ، وعجاج فتوة رفاعة ، والسنطوري فتوة قاسم في نزاع . وقامت المعارك بين الرجال في الشوارع وبين النساء في الحمامات . اتفق عجاج والسنطوري سرا على القضاء على يوسف من أجل الاقتراع بينها . ثم اغتيل السنطوري بعد أن كان مرشح القرعة ، وأصبح عجاج الفتوة ، ورفض الناظر فتوة عجاج بدعوى ضرورة العيش في أمان خاصة وأن لديه فتوة من نوع جديد هو عرفة وما يمتلك من علم سحري . لقد استطاع أعوان الناظر معرفة سر عرفة الدفين ، قتل الجبلاري . ومأومه على عدم تسليمه للحارة للقصاص أو إعطائه السلاح السري الجديد الذي يغبنيه عن الفتوة والأعتاد عليها . وقبل عرفة العرض مضطراً فأصبح العلم السحري الجديد سجين السلطة القديمة . وعاش عرفة في قصر الناظر ، وما أشبهه بالبيت الكبير . ففي الحارة الإشاعة حقيقية ، والحقيقة حكم ، والحكم إعدام . وحاول عرفة تبرير فعلته بأن النفس أسارة بالسوء دون الكشف عن الدافع الحقيقي ، الانتقام لاختصاب أمه وقتلها ثم الانتقام من الحارة كلها وكأنه يوحي بإمكانية المساومة . ولغة السحر لا يتكلمها إلا أهلها . وكشف الناظر نفاق العلماء ، وأن دخول عرفة إلى البيت الكبير لم يكن بهدف حب الاستطلاع بل للاطلاع على الوقف وللقضاء على الفتوات ، ورأى الناظر لانتقامهم أموال الوقف . بدأ عرفة بآمال بسيطة محدودة والآن لديه خطة جديدة تصبح آلة رهيبة لا يمكن مقاومتها للسيطرة على الحارة حتى تظل في يد الناظر ، وقام العلم السحري الجديد بوظيفة الدين والحكايات القديمة في قهر الحارة . يظن عرفة أن الناظر بين يديه نظراً لحاجته إلى سحره ويظن الناظر أن عرفة بين يديه سجين في بيته تحت تهديد الإعلان للحارة عن قاتل الواقف . أما النتيجة من هذا الارتباط فمروءة المستقبل . في الماضي جاء جبل وفاعا وقاسم فما المانع أن يحىء في المستقبل أمثال عرفة . فالعلم استمرار للنسبة ، والعالم وارث النبي .

ولما كان التميم لا يعدم فقد بدأ هم جديد . ضببت عواطف زوجة عرفة زوجها مع خادمة وغادرت القصر . فالجنس والمال يقضيان على العلم كما قضت عليه السياسة . لا البيت بيتها ولا الزوج زوجها ، سجن بالنهار وماخو بالليل . كانت تظن أنه رجل من رجال الرباب فلا فرق عندها بين الحكاية والسحر الجديد ، واتضح أنه وغد مثل قلدي الناظر وسعد الله الفتوة ، سلطة جديدة منحلة مثل السلطين الدينية والسياسية . ورفض عرفة مصالحة زوجته لأن المرأة لا تؤخذ بالدين طبقاً لحكمة الحارة حتى تعود بنفسها ذليلة ، وكان العلم لم يجرى الرجل في نظرتي إلى المرأة . وكشفت عواطف وهي المرأة أن حياة زوجها سلسلة من الأخطاء وأنها تحتاج إلى عشرات الأعداء لتبريرها ولن تمنحني من ورائها إلا المتأهب والمغلب .

ولم يجد عرفة أنيساً له إلا قلدي الناظر في بيته الكبير ، العلم والسياسة . كلاهما حبيس ، خائفان من الحارة . كلاهما يصبان في الموت في لحظة تحرر الحارة من قهرها باسم الدين مثل الناظر ، ومن قهرها باسم العلم مثل عرفة . وفي ليلة من الليالي الحمراء بين عرفة وقلدي يترحم عرفة على أدهم ويترحم قلدي على إدريس كان أدهم يحب الأحلام ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاري في رأسه ، الجبلاري الذي أراحه عرفة من عناء الكبر ، كلاهما سجين ماداماً مطوقين بأناس يحقرونهما مهما حولت أقراص عرفة برودة الشيوخوخة إلى حرارة الشباب . أبغض عرفة الأشياء من السجن الذي وضع فيه ومن الكراهية المحقة به ومن الهدف الذي تنكب عنه . ضاع الشباب ، والجبلاري مات ، والكل أموات أبناء أموات أصبح الموت جليسي . ينتظره في أية لحظة

ولأخذه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق.. أين الجبلاوي الآن الذي تتغنى بأعماله الرباب؟ هنا قضه
ساكنات ينبغي أن يكون. هل الموت نهاية الدين والعلم؟ انتهى الدين وانتهى العلم بالموت وخضيع كنيها
للسياسة. وحتى إذا أعادت الأقراص الشباب، فما جدوى ذلك كله والموت يتبع كالظل؟ لولا حسد
المحرومين حول البيت لتغير مذاق الحياة في الأقنواء. وحتى لو تم رفع مستوى حياة أهل الحارة إلى مستوى
الناظر والعالم الجديد فهل يقلع الموت عن اصطلياد الكل؟ يكثر الموت حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال.
وحتى لو جمع الناس السحرة لمقاومة الموت، فلموت يهدد السحرة. العلم موت يهدد الموت، والموت موت
يهدد العلم، فالكلمة الأخيرة للموت. الموت أقوى من السحر. عرفة والناظر حيسسان. لا يستطيع عرفة أن
يخلص نفسه كما لم يستطيع رفاعة. حتى السحر الجديد لا يستطيع أن يبعد من هذا المأزق المحتق عرجا.

ويدعو أن عرفة ندم على قتل الجبلاوي. فهل يستطيع العلم أن يجيبه من جديد؟ هل يعني ذلك قدرة
العلم اللانهائية أم ضرورة الدين لإعطاء قيمة للعلم وإلا تحول العلم إلى تدمير وسلاح وإلى وسيلة في أيدي
السلطة؟ كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة؟ إن مأثر جبل ورفاعة وقلم مجتمعة لا تكفي. وإن تعرض
النفس لكل مهلكة لا يكفي. وإن تعلم كل فرد السحر وفوائده لا يكفي. شيء واحد يكفي هو أن يبلغ
عرفة من السحر الدرجة التي تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوي، الجبلاوي الذي كان قتله أسهل من رؤيته.
فلنهبه الأيام القوة حتى يضمم الجرح النازف في قلبه. إن ذروة عجائب العلم رد الحياة إلى الجبلاوي. العلم
يرث الدين ثم يحتاج إليه من جديد ليحطيه سنندا من القيم بدلا من العلمية والموت.

وفجأة وعلى غير سابق إنذار أبلغته خادمة الجبلاوي أنه لم يقتل الجبلاوي بل مات الجبلاوي حزنا على
موت خادمه. وأخبرته برصيته فقد كانت خادمتها وماتت بين يديها. اشتد به التأثير عقب اكتشاف جثة خادمه
واحتضر. فسارعت إليه لإسناد ظهره المختلج، ذلك الجبار الذي دان له الخلاء. كانت وصيته أنه مات وهو
عن قاتله عرفة راض. وكان الدين نفسه مع العلم حتى ولو كان شرا ضد الدين. وكرر ذلك سبع مرات. قال
قبل صعود السر الإلهي «أذهب إلى عرفة الساحر وأبلغه عني أن جده مات وهو راض عنه» (ص ٥٣٨).
وكررها مرة ثانية. ثم أكدها عرفة بلسانه «مات الجبلاوي وهو عني راض» (ص ٥٤٠). وكررها مرة ثانية، ثم
أعادها «إن جدي أعلن رضاه عني رغم اقتحامتي بيته وقتلي خادمه» (ص ٥٤١)، وبعد هذا «لكنني واثق من
أنه مات وهو عني راض» (ص ٥٤٢)، وأخيرا «لذلك نبهني بلطف إلى سابق رضاه» (ص ٥٤٢). لم يقل
الجبلاوي للخادمة إن عرفة قد قتله. لم يقتل الجبلاوي أحد، وما كان في وسع أحد أن يقتله. هنا كذب
واقراء. لقد مات الرجل بين يدي خادمته. وذلك يعني أن عرفة لم يقض على الجبلاوي بل ساعد فقط على
الإسراع بنهايته والحلول محله. لقد اختفى الجبلاوي تدريجيا من المبادرة إلى العزة إلى الموت تأثرا دون ما حاجة
إلى ضربة قاضية. لا فرق بين الخيال والواقع، بين التوهم والحقيقة. وهو ما حدث في «اميرام» بعد ذلك.
الواقع لا يصدق أحد والخيال يصدق الناس. بدأ عرفة يتحدث عن جده باحترام على عكس الزمن الأول
الذي كان فيه كثير الأتياب وإذا تيسر له النجاح فلن يعرف الموت. وإذا كان هو سبب موت الجبلاوي فعليه
أن يعيده إلى الحياة. هنا ما أخبرته به الخادمة. أمنية قد تتحول إلى واقع. والواقع ينبع من الشعور. وبالتالي
يرد العلم إلى الدين. فالعلم بلا دين سجين السياسة ويكون الموت نهاية الكل.

هرب عرفة من بيت الناظر الذي كان سجيناً فيه، ولم يمد له إلا بأفكار الموت وكأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا ألحان الموت، وكأنه يشم رائحة القبور في أبيض الأزهار. وقبض على عرفة وهو في طريقه إلى أخذ زوجته عواطف. ودفاً معاً أحياء في جوال، مصير سيء مثل مصير رفاعة بل أسوأ لدن امرأة بريئة معه، اكتشفت زيفه وهجرته. لم يستطع عرفة أن يخلص نفسه كما لم يستطع رفاعة. حتى السحر لم يستطع أن يجد لهذا المأزق الحائق مخرجاً. إن رأسه المتورم من لطحات الناظر يرقد أسفل الجوال فيكاد أن يمتشق. ولم يعد له أمل في الراحة إلا بالموت. سيموت ويموت الأمل. وربما عاش ذو القهقهة الباردة، الناظر. فلمن البقاء اليوم؟ للدين أم للعلم أم لإحياء الدين أم للموت؟ فإذا قتل الناظر عرفة اليوم فسيفتله الشائرون غداً وكان الصورة هي التي لها الكلمة الأخيرة على الدين والعلم والموت. البقاء للحياة وللدين والبشر. واعتقد الناس أن عرفة قد قتل بنفس السلاح السحري الذي قتل به الجبلاوي وسعد الله. وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم الناظر. وكثر الشامتون من الفتوات، وفرحوا لقتل الرجل الذي قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم سلاحاً رهيباً يستدلهم به إلى الأبد. بدأ لهم المستقبل قائماً أشد قتامة مما كان بعد أن تركزت السلطة في يد واحدة قاسية. واختفى الأمل في أن ينشب بين الرجلين نزاع فيفضي إلى اختفائهما معاً ولجوء أحدهما إلى أهل الحياة. وبدأ لهم أنه لم يبق إلا الخضوع وأن يعتبروا الوقوف وشروطه وكلبات جبل ورفاعة وقاسم كلها ضالعة قد تصلح ألحاناً للرباب لا للمعاملة في هذه الحياة.

ويأتي حنش ليستأنف المسيرة بعد رفاعة. كان محاوره في حياته، وهو الآن خليفته في مماته وليس فقط أخاه ومريده. كان عرفة يسميه ابن جليل مؤلف «أخبار العلماء» في تراثنا القديم على الرغم مما يثيره الاسم بصوته من توحش. عندما أحس عرفة بالخطر بدأ بتدوين العلم السحري الجديد في كراسة وتدريب حنش على فك رموزها. وكان قد ساعده في إجراء التجارب من قبل، كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهده للضياع أو يكون موت العالم نهايةاً للتجارب. فالعلم يضيع بضياع العلماء. بدأ عرفة وحنش بإتلاف كل شيء إلا الكراسة. فهي كنز الأسرار. ووضعها عرفة فوق صدره ساعة الحرب. وفي منزل أم زنفل التي كانت تقطن زوجته معها ساعة هجرته اندفع نحو النافذة لما سدت أمامه السبل ثم رمى بها في قبر المنزل حتى يعود حنش إليها بقوة لا تقاوم ورائه أم زنفل وهو يرمي بها. فتسللت إلى القبو في اليوم التالي فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فائدة منها فتركتها ورجعت. لقد قتل عرفة الجبلاوي وأعطى الناظر سحره ولم يترك شيئاً وذهب. أما حنش فكان يرى أن عرفة كان من أولاد الحارة الطيبين ولكن الحظ خانه. كان يريد لهم ما أراد جبل ورفاعة وقاسم بل وأحسن مما أرادوا. سأل عن الكراسة. لعل الزبال أخذها مع الزبالة وأرسلها إلى مستودع الصالحية. لم يبق له من أمل الحياة إلا تلك الكراسة. هي أمله وأمل الحارة. قتل عرفة سيء الحظ مغلوباً على أمره. ولم يترك وراءه إلا الشر وسيء السمعة. ولعل هذه الكراسة جليدية بإصلاح أخطائه والقضاء على أعدائه وبعث الأمل في الحارة. وهنا تضعيف الحقيقة وتكثر الروايات والشائعات. تهاشم الناس فيما بينهم أن الكراسة التي أخذها حنش ماهي إلا كراسة السحر التي أودعها عرفة أسرار فتونه وأسلحته، وأنها ضاعت أثناء محاولته الهرب. فحملت في الزبالة إلى مستودع الصالحية حيث عثر عليها حنش. وانتشرت الأخبار من غرزة إلى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود إلى الحارة لينتقم من الناظر أشد انتقام. وأكد هذه الأقوال أن الناظر وعد من

عالم الفكر

يحيي به نحنش حيا أو ميتا بمكافأة كبيرة . لم يعد أحد يشك في الدور المنتظر الذي سيلعبه حشش وكأن العلم قد تحول إلى عقيدة المهدي المنتظر . وارتفعت في الأنفس موجة استيثار وتفاؤل بعيدا عن روح القنوط والخنوع . وامتلات النفوس عطفًا على حشش في خيئه المجهول . وامتد العطف إلى ذكرى عرفة نفسه . وتمنى الناس التعاون مع حشش ضد الناظر نصرا لهم ولحارثهم وضباننا لحية خير ومعية وسلام . هو الوحيد الباقي للخلاص ، وبالتالي ضرورة التعاون معه . لا يغلب السحر مع الناظر إلا سحر أقوى منه مع حشش . ويوما بعد يوم بدأت حقيقة عرفة تنكشف للناس ، لعلها تسربت من ريع أم زنفل التي علمت الكثير من عواطف . ولعلها جاءت من طريق حشش نفسه فيما كان يعرض للبعض من مقابلته في الأماكن النائية . عرف الناس الرجل وما كان ينشده من وراء سحره من حيلة عجيبة كالأحلام الساحرة . ووقعت الحقيقة من أنفسهم موقع العجب .

فأكبروا ذكراه ، ورفعوا اسمه حتى فوق اسم جبل وزقاعة وقاصم . وقال أناس إنه لا يمكن أن يكون قاتل الجبلاري كما ظنوا . وقال آخرون إنه رجل الحارة الأول والأخير ولو كان قاتل الجبلاري . وتنافسوا فيه حتى ادعاه كل حي لنفسه . ولا ينهي نجيب محفوظ هذا الفصل الخامس من «أولاد حارثنا» بأفة الحارة ، النسيان بل بانتظار المستقبل والأمل فيه ، «وحدث أن أخذ بعض الشبان من حارثنا يجتفون تباعا . وقيل في تفسير اختطافهم إنهم امتدوا إلى مكان حشش فانضموا إليه . وأنه يعلمهم السحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود . واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله فبشوا العيون في الأركان ، وفتشوا المساكن والدكاكين ، وفرضوا أقصى العقوبات على أفئدة المغفوات . وإنهالوا بالعصى للنظرة أو النكتة أو الضحكة حتى باتت الحارة في جو قائم من الخوف والحقد والإرهاب . ولكن الناس تحمّلوا البيغي في جلد . ولأدوا بالصبر ، واستمسكوا بالأمل . وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا لابد للظلم من آخر وللليل من نهار . ولشربن في حارثنا مصرع الطغيان وشرق النور والمعائب» (ص ٥٥٢) .

خاتمة

٧- لمن البقاء اليوم؟

واضح من بنية الرواية بفصولها الخمسة أنها بنية ثنائية تقوم على السقوط والخلاص ، السقوط واحد ولكن الخلاص ذو بنية ثنائية كذلك . الخلاص الوقتي عن طريق الدين ، والخلاص الدائم عن طريق العلم . والخلاص الوقتي ثلاثي البنية : خلاص بالقوة ، وخلاص بالرحمة ، وخلاص بالعدل . وبالتالي تكون البنية الثنائية على الرواية هي البنية الثنائية ، ثنائية الدين والعلم . فإلى أي حد هذه الثنائية قائمة بالفعل ؟ وهل العلاقة بينها علاقة تضاد أم تماثل ، تشابه أم اختلاف ؟ فبالنسبة للسقوط والخلاص الوقتي عن طريق الدين يلاحظ :

١- يبدأ الدين بالسقوط والطرد والحرمان ، كما هو واضح في سقوط أدهم وإخراجه من الجنة بعد غواية إدريس أخيه وأميعة زوجة له . وفي كل مرة تنهض الحارة من جديد عن طريق إحدى محاولات الخلاص الوقتي ، تعود إلى السقوط من جديد فالنبوة في البداية ثورة وفي النهاية ثورة مضادة بعد تحوّلها إلى مؤسسة دينية يسيطر عليها رجال الدين ورجال السياسة ، في دورة أبدية ، عودا على بدء ، وتبدأ كل دورة من الصفر دون

تراكم تاريخي إلا زيادة عدد القصص والحكايات والروايات عند شعراء الرباب . ولا تتعلم الإنسانية شيئا . لا تمشي إلا فترة سعادة وهناء ثم تعقبها فترة بؤس وشقاء ، في إطار الحود الأبدي الذي يسيطر على الفكر الشرقي الديني القديم .

٢ - يقوم الخلاص الوتقي على جدل ثلاثي استنفد كل محاولاته : الخلاص بالقوة عند جبل كما هو الحال في اليهودية ، والخلاص بالرحمة عند رفاعة كما هو الحال في المسيحية ، والخلاص بالعدل عند قاسم كما هو الحال في الإسلام . وهو جدل يقوم على تحديد جوهر كل مرحلة من مراحل تطور الوحي في التاريخ : القانون والمحبة والعدل الاجتماعي . لذلك انتهى الخلاص الوتقي باستنفاد تجاربه واحتلالاته وأصبح الطريق ممهدا للخلاص الدائم عن طريق العلم . والمجيب في هذا الخلاص الوتقي أنه يتقلب إلى عكس ما بدأ منه ، ويتقلب من التقيض إلى التقيض ، فتتقلب القوة إلى ضعف ، والرحمة إلى قسوة ، والعدل إلى ظلم كما هو الحال في كل الثورات عندما تتقلب بفعل الزمن ومن داخلها إلى ثورات مضادة .

٣ - تهدف كل محاولات الخلاص الوتقي إلى القضاء على السلطين الدينية والسياسية أو التشريعية والتنفيذية . الأولى عملة في سلطة ناظر الوقف ، والثانية عملة في سلطة فتوات الحارة . يبدأ الناظر بلا اسم ، أي سلطة دينية ثم يصبح له اسم معين ثم يتغير اسم الناظر من إنياب إلى رفعت إلى قدري ، اختلفت الأسماء والمسمى واحد ، وتختلف أسماء الفتوات زقلط وليطة وخنفس وصجاج والستوري ويوسف والمسمى واحد ، النبوت والإثارة وخدمة الناظر . وهناك سبب جوهري إذن في تجربة السقوط الثاني بعدما يموت نبيا وهو تحول النبوة إلى خلافة وخلافة إلى خلافة إلى ملك عضوض ، وتحول الوحي إلى كهنوت ، والدين إلى تسلط واستغلال . وبالتالي تنشأ المحاولة الثانية من أجل القضاء على السلطين الدينية والسياسية بالقضاء على السياسة أولا التي تدعم السلطة الدينية . ثم تخضع السلطة الدينية للثورة الجدليلة وتنكيف معها حتى يخف الدافع الثوري فتعود إلى التسلط من جديد ، تبحث عن فتوة جديد . فالداء في السلطة الدينية التي يصعب اقتلاعها . أما السلطة السياسية فإنها تخضع لقانون القوة . يكفي فتوة أقوى للقضاء على الفتوة الأقل قوة .

٤ - للمرأة دور إيجابي في هذا الجدل التاريخي . فعل الرغم من غواية أميمة لأدهم وعلى الرغم من سفاح هند من قدري إلا أن المرأة برجه عام تقف مع النبي في رسالته مثل شقيقة مع جبل وقمر وبندرية مع قاسم وعواطف مع عرفة العالم . كما تقف مع الحارة في ثورتها مثل تمر حنة ووقوفها ضد الفتوات . لذلك وعد قاسم النساء بإدخالهن في الميراث مع الرجال تحقيقا لبدأ العدل والمساواة . نموت أميمة بلنبيها وطلبها العفو والصنع من أدهم . وهند تفر ولا تظهر ولكن يسمع عنها من أبيها إدريس . وتقف قمر مع قاسم وتعرض عليه نفسها للزواج متجاوزة التفاوت الطبقي وتكون أول المصدقين لرسالته . وتغامر بدرية وهي تنبئ قاسم بالخطر المحقق به وبضرورة الهجرة ، وتؤنس في وحدته بعد وفاة قمر . وتدخل عواطف مع عرفة حية في جوال . وتثور تمر حنة وتدعو على الظالم إذا ما دخل الرجال الحجرات وقبلا الضيم . وتتعارك النسوان في الحماقات إذا ماتت الجبال في الحارات . ويأسمية التي دافع عنها رفاعة : «من لم يكن منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر» وتزوجها ولم يلحسها . عادت إلى بيومي لتأكيد هويتها كأمراء وكحتي طبيعي لها في الحياة . وأم رفاعة عبدة تهاجر حفاظا على وليدها من قتل الأطفال . والحامدة سكتية ، خادمة قمر تسمى في الخلال بينها وبين قاسم وتغضب لعدم إشراكها في رسالة قاسم وتؤمن بها . فالمرأة أما زوجا وحبيبة لها دور إيجابي في الأغلب . بل

علم النكر

لقد فاضت روح الجبلاوي على صدر خادته العجوز وأبلغها وصيته إلى عرفة بأنه مات راضيا عنه وقامت بإبلاغ الرسالة والأمانة.

٥- يبدو أن الجبلاوي، الواقف، القاطن في البيت الكبير الذي طرد أدهم وزوجه من البيت لساعة غواية أخيه إدريس والذي أرسل جبل ثم رفاعة ثم قاسم والذي توهم عرفة أنه قتل مع أنه مات لكبر سنه متأثرا بموت خادمه ومات وهو راض عن أولاد قتله ليس هو الله بل ذاته بل هو الله كما يتصوره البشر كسلطة قاهرة وما يتم باسمه من تسلط وقهر وجبروت من السلطة الدينية مثل ناظر الوقف، خليفته في الأرض. أما الله في ذاته فإنه يرد على لسان كل الشخصيات معبرا عن أمانتهم وتغنياتهم، يتعالى عن الوصف. ورد لفظ الله ١٢٨ مرة، ولفظ الرب ٢٤ مرة، ولفظ للمولى ٦ مرات، وألفاظ: الولي، خالق الكون، من في السماء، الحي الذي لا يموت كل منها مرة واحدة. ويرد على كل لسان بما في ذلك للمعارضون لإرادته إذ يقول إدريس «وليفعل الله ما يشاء» (ص ٤٠) «صجايب والله عجائب» (ص ٥٩ - ٦٢)، جزاء الله كل خير (ص ٨٠) وعلى لسان قدري «ألا لعنة الله على هذه الأسرة المجنونة» (ص ٨٤). ويرد على لسان الفتوات مثل «أبوسريع» «الله أكبر» (ص ١٤٢) والليثي «الله يرحمكم يا آل حمدان» (ص ١٤٢)، وعلى لسان ياسمينية العاهر «إن مد الله في العمر» (ص ٢٨٨). بل إن الفتوة نفسها اسم «سعد الله». ومن الطبيعي أن يرد على لسان المؤمنين البارين الأتقياء مثل أم أدهم «ستسعدك بمشيئة للمولى» (ص ٢٦) وأدهم «ليحفظنا المولى من الأخطار» (ص ٣٩)، وأمية ادع ربك دائما أن يقيك الشر ويحكك سواء السبيل دفعا للحسد (ص ٣٣) وهمام «اللهم احفظنا (ص ٨١)، كما يرد ذكره على لسان الأنبياء، على لسان جبل «ولله الأمر من قبل ومن بعد» (ص ١١٧) «رباه ما كنت أحسب غضبي بهذه الفظاعة» (ص ١٤٥)، «إن شاء الله» (ص ١٦١)، نعم ورب السموات» (ص ١٦٧). ويورد على لسان رفاعة «نعم ورب السموات» (ص ٢٤٨)، «ولنحمد الله» (ص ٢٥٠)، «الله يسامحك» (ص ٢٥٤)، وعلى لسان قاسم «الفضل للمولى» (ص ٣٢١)، «اللهم اكفنا شر العين» (ص ٣٢٥) «وريك لن يقع عيب» (ص ٣٢٥). الله يفعل ما يشاء، وقادر على كل شيء، يجزي على الخير، ويحفظ الناس، له الأمر من قبل ومن بعد، وأرحم رحيم له الحق والشكر، وعليه التوكل، عالم، كريم، فتاح، واحد، غافر الذنب، هاد، لا حول ولا قوة إلا به، ناصر عباده، شفيع، معين، حي لا يموت، متقمم... إلخ. أما الرب فإنه يتم الترجمة له بالدعاء، وهو على الفتوة والظالم، فاصل بين الحق والباطل، رب السموات، المتقمم، وهو المولى، صاحب المشيئة حافظ العباد^(٩).

وبالنسبة للمخلص الدائم عن طريق العلم يلاحظ:

١- يسمى العلم السحر، والعالم فرقة الساحر عرفة، وكأنه لا فرق بين الدين والعلم. فالسحر هو الجامع بينهما، سحر جبل وقدرته على التعامل مع الثعابين، وسحر عرفة وقدرته على تخليص الناس من العفاريث، مرضى وأصحاء. قاسم وحده هو الذي لم يسم ساحرا. سحر الدين وسحر العلم قادر على عمل الأعاجيب، معجزات الدين وسلاح العلم. كلاهما مفتاح سحري لتغيير الواقع والقضاء على السلطتين الدينية والسياسية. وكيف يصنع العلم الأعاجيب التي لا يحيط بها الخيال وهو يقوم على العلية وأن لكل معلول عللة؟ كيف يكون العلم مجرد استخراج مادة معينة من مادة قلدة وكأنه سحر يخرج النقيض من النقيض؟ هذه هي صيغة العلم في المجتمع المتدين، إيمان ومعجزات وأعاجيب وليس في المجتمع العلمي.

عالم الفكر

ويدعو أن العلم هنا لقيط لا أب له ولا أم ، مجهول الأصل على عكس الدين الموروث من أدهم . العلم وافد من خارج الحارة في حين أن الدين موروث منها .

٢ - وقع العلم سجيناً في أيدي السلطة السياسية ولم يستطع التحرر منها ، بل قضت عليه السلطة السياسية وانتصرت عليه في حين أن الدين انتصر على القوة السياسية في كل مرحلة وعم العدل والسعادة بين الناس . وأصبح العلم في يد السلطة السياسية بعد موت عرفة وهرب حنش . وانقلب مثل الدين إلى عكس ما بدا منه ، من التحرر إلى القهر ومن الوقوف في وجه السلطة إلى التبعية لها . كانت الحارة تستطيع أن تقف في مواجهة الفترة بفتوة آخر مثل جبل ورفاعة وقاسم . وبعد ظهور العلم وإملاك الناظر له لا تستطيع أن تقف الحارة في مواجهة السلطتين معا الدين والعلم بعد اتحاد المصالح بينهما .

٣ - تحول العلم إلى مطلق مثل الدين ، وطريق أوحده للخلاص ، ويوتوبيا يحلم بها الناس ، لذلك احتاج العلم إلى الدين من جديد ليعطيه نسقا من القيم لأن العلم لا قيمة له . أراد عرفة إحياء الجبلاوي من جديد . بل لم يكن يقصد قتله أو إزله بل مجرد الاطلاع على كتابه السري ، اللوح المفوظ الذي أودعت فيه كل الأسرار . ورث العلم الدين ولكنه تحول إلى دين جديد بكل سمات الدين القديم : الأحادية ، الإلحاقية ، الطوباوية ، وبكل عقائده مثل ، المهدي المنتظر والخلاص والنص المقدس سواء كان اللوح المفوظ الذي به شروط الوقف العشرة أو كراسة عرفة التي دوتها والتي عشر عليها حنش والتي أصبحت طريق الخلاص في المستقبل . فإذا كان الدين قد حول الله إلى إنسان في التشبيه ، الجبلاوي وخليفته الناظر والفتوة فإن العلم قد حول الإنسان إلى إله قادر على كل شيء ، عرفة وخليفته حنش والسلاح . والنصان سر لا يمكن قراءته أو معرفته : كلاما مخبأ ، وتحولان إلى كهنوت وسلطة . وهنا تبدو الحلقة المفرغة بين الدين والعلم . العلم يقضي على الدين ، والدين يبيح العلم . العلم يرث الدين ثم الدين يرث العلم ، وكلاهما وجهتان للمطلق في المجتمع وفي إيمان البسطاء .

٤ - ما الضامن لعدم فشل الخلاص الدائم عن طريق العلم كما فشل الخلاص المؤقت ثلاث مرات ، عن طريق القوة والرحمة والعدل ؟ إن العلم مجرد تطلع للخلاص بعد هرب حنش بالكراسة على أمل العودة . ما الضامن لعدم وقوع العلم من جديد بكراريسه كلها في يد الناظر واستبعاد الناس بعد التخلص من العلم ، فالسلطة السياسية هي الباقية مهما تغيرت السلطة الدينية من جبل إلى رفاعة إلى قاسم إلى عرفة حامل العلم باعتباره ديناً جديداً ؟ كل احتمالات المستقبل روايات وأقوال وحكايات وشائعات بالنسبة للعلم ولا يوجد أي ضمان للنجاح أو إيمان بالخلاص كما كان الحال عند الأنبياء . وهل يمكن تغيير المجتمع ، وتحقيق الإصلاح ، والقضاء على الظلم والفساد بالعلم أم يبقين الإيثار ؟

٥ - يبدو أن أخلاقيات العلم أقل بكثير من أخلاقيات الدين ، وأن سلوك العلماء أقل أخلاقية ومعيارية من سلوك الأنبياء . لم يأت الأنبياء للتجارة والكسب والارتزاق بالدين في حين أتى عرفة ليتكسب بالعلم ويعرضه لمن يشاء ولأهل سعور ، وسيلة للكسب والإثراء . العلم نفعي ، عملي ،

ذرائعي، مصلحي، يغير مبادئه ومعاييره طبقاً للظروف على عكس الدين المبني المعيارى الشامل. مقياس صدقه تجربه للملايين له وليس صدقه في ذاته. بدأ بدافع الانتقام للألم، ضحية الاختصاب والموت ثم تحول الانتقام الفردي إلى انتقام جماعي من المجتمع كله. ثم التخلي عن القضية الاجتماعية برمتها من أجل مقاسمة الأثرياء وأصحاب المال النعيم والثراء كما علش عرقه مع قدرى. نظرتة إلى المرأة متخلفة، إهمالها كى ترجع ذليلة، وهى صوت الضمير الذى يذكر الرجل بأخطائه كما فعلت عواطف مع عرفة. وهو سلاح تدميرى، زجاجات متفجرة وقنابل للفنك بالناس في حين أن الدين رسالة محبة وسلام.

وهنا يبرز السؤال: هل هناك خلاف حقيقي بين الدين والعلم في الرواية أم أن الخلاف ظاهري وأن أوجه الاتفاق أكثر من أوجه الاختلاف؟ ويمكن رصد أوجه الخلاف بين الدين والعلم في الآتي:

١ - يتجه الدين نحو الماضي، أحلام أدهم وهام، وآمال جبل ورفاعة وقاسم، يستلهمون أفكارهم وآراءهم من ذكريات مضت، أيام العيش في البيت الكبير مع الجد العظيم قبل الطرد والحرمان. في حين يتجه العلم نحو المستقبل وتحقيق عالم أفضل دون عود إلى عصر ذهبي سابق. والحقيقة أن الدين أيضا يتطلع نحو الخلاص في المستقبل وإن كان يستلهم الماضي، والعلم يبدأ بخبرات السابقين ويتأريخ العلم قبل أن يبدأ الفتح الجديد.

٢ - يعتمد الدين على الحكايات والروايات وأشعار الرباب، على المقامي وفي الحارات. تختلط قصص الأنبياء فيه بالقصص الشعبي وسير الأبطال أما العلم فإنه يعتمد على التجارب الطبيعية ويلونها في صيغة معادلات ورموز. يخاطب الدين الخيال، ويتجه العلم نحو العقل. قد يصبح الدين وهما في حين أن العلم حقيقة. يرتبط الدين بالأحياء الشعبية وما بها من عادات كالحشيش والأفيون، غيبابا بغياب، في حين رفض عرفة تناول هذه المكيفات وإن كان يصنعها لتقوية الرجال حرصا على البقطة والانتباه. والحقيقة أن الدين في بدايته الثورية يكون علما وواقعا كما أن العلم في مرحلته التقليدية يكون أيضا وهما وخيالا كما يبدو في الخيال العلمي. فالتقابل بين النظامين ليس بهذه الحدية والإطلاق.

٣ - يقوم الدين على نداء من الخارج ويسمعه الصوت الباطني، نداء الجبلابي لأدهم وجبل ورفاعة وقاسم، يؤكد الاختيار والأصطفاء، ويبلغ الرسالة للناس. بينما يقوم العلم على وعي بالواقع وإدراك لمستوى الفكر في المجتمع ولحدود إمكانياته العلمية. الدين من الله، والعلم من الطبيعة. الوحي إيمان ونبوء، والعلم تجربة وحواس. والحقيقة أن هذا التقابل أيضا ظاهري خالص. فنداء الله هو صوت الضمير، ويقظة العالم جزء من يقظة الوعي العام، وصوت الله هو صوت الطبيعة، وصوت الطبيعة هو صوت الله. لذلك وجه الوحي الإنسان إلى التفكير في الطبيعة وكانت الطبيعات عند القدماء مقدمة للإلهيات وإثبات لها ولا يعتمد الدين فقط على تدخل الإرادة الإلهية بل يحتاج أيضا إلى الإرادة الإنسانية، أفعال الأنبياء وجهاد المؤمنين، والوحي والإيمان والنبوء كل ذلك مرتبط بالواقع بأسباب النزول ومرآحله التاريخ وظروف المجتمعات كما أن العلم يقوم على افتراض بعض المسلمات التي لا يمكن تجربتها في الواقع كما هي الحال في الطبيعيات الثورية.

٤ - الدين له نهاية وانكسار وتوابع النبوءة منذ أدهم حتى قاسم حتى يكتمل الوعي الإنساني عقلا وإرادة.

في حين أن العلم لا نهاية له ومستمر إلى آخر الزمان. الدين بداية البشرية والعلم نهايتها. والحقيقة أن هذا التقابل أيضاً شائع في الثقافات الوليدة. فإذا ما تحول العلم إلى دين فالدين مستمر كما أن العلم في بداياته كان يخرج من الدين ويتكامل معه. وأحياناً تعود المجتمعات إلى الدين بعد أن تستنفد كل إمكانيات العلم. لقد بدأت الإنسانية بالدين والعلم معاً، الدين لتفسير الظواهر البعيدة، والعلم للسيطرة على الظواهر القريبة. وقد انتهت بهما معاً، والمستقبل ميدان لهما معاً.

٥ - الخلاص بالدين وقتي بكل وسائله، القوة والرحمة والعدل. يبدأ كي ينتهي، ويقوم كي يقعد. في حين أن الخلاص بالعلم دائم لا ينتكس. والحقيقة أن هذا التقابل إنما يعبر عن إجهاد المجتمعات الدينية وضيقها من كثرة تجارب الفشل. الحياة دورات متعاقبة وجدل بين النهوض والسقوط، بين القيام والقعود سواء في الدين أم في العلم. للمجتمع الديني يود التحول إلى مجتمع علمي. والمجتمع العلمي يبحث عن تأسيس العلم الجديد على أسس معيارية أخلاقية ثابتة يستطيع الدين أن يقدمها له.

ومع ذلك فالوجه الاتفاق الحقيقي بين الدين والعلم كثيرة وهي في مجملها:

١ - البحث عن المجهول وارتداد الآفاق المعرفية بصرف النظر عن مصدرها، بحث في أصول الأشياء يقوم على حب الاستطلاع. كلاهما تصور للعلم وفهم وإدراك.

٢ - الجمع بين العلم والعمل، بهدف امتلاك نواحي القوة وطرق السيطرة. يتوجه العمل في الدين إلى الأخلاق الفردية والنظام الاجتماعي بينما يتوجه العمل في العلم إلى النظام الطبيعي والعلاقة مع الأشياء.

٣ - التوجه نحو التغيير والإصلاح الاجتماعي وتحسين أحوال المعيشة حتى ولو اختلفت الوسائل. وبداية التغيير هو التحرر من السلطتين الدينية والسياسية وتحرير الإنسان والمجتمع منها. فالدين لا يقبل إلا سلطة الضمير والعلم لا يقبل إلا سلطة العقل.

٤ - الاعتماد على أسلوب المحاولة والخطأ والتعلم من الخبرات السابقة. فهناك على الأقل ثلاث محاولات في الدين، جبل ورفاعة وقاسم. وهناك على الأقل محاولتان لعسرة في العلم في تفجير الزجاجات الحارقة. لا فرق بين الاثنين في أن الحقائق تأتي بالتجربة حتى ولو كانت معطلة سلفاً.

٥ - التطلع إلى يوتوبيا مستقبلية وعالم أفضل يتحرر فيه البشر من كل صنوف القهر. يعبر الدين عنها في الأخرويات ويعبر العلم عنها في صيغة المستقبليات^(١٠). هناك ثقة بالنصر، وبأن الغد أفضل من اليوم على الرغم من ذكريات الماضي عن العصر الذهبي في الدين. فباب الرحمة والمغفرة فيه واسع، يسد أبواب اليأس والقتوط.

وقد يكون هذا التقابل أو التضاد أو الاختلاف أو التشابه بين الدين والعلم، بين الخلاص المؤقت والخلاص الدائم إنما هو من صنع الوهم. وإن الحقيقة في الاحتمال والنسبية واللا إرادية: الدين أو العلم، أو في العدمية، الموت الذي يضع نهاية لكل شيء، أو في الإنسان الذي حاول قتل الجبلاري قاتل الجبلاري من أجله، أو في الحارة أصل الدنيا والحياة والناس والتاريخ والتي يرجع إليها كل شيء.

المواضع

- (١) نجيب محفوظ أولاد حارتنا، دار الآداب، بيروت ١٩٦٧، ص ٦٨، ٢١٧.
- (٢) نفاذ بختنا «الدين والثورة» في أدب نجيب محفوظ، الندوة الدولية، نجيب محفوظ والرواية العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٧ - ٢٠ مارس ١٩٩٠.
- (٣) انظر دراستنا «الفلسفة والرواية، دراسة في توظيف الثقافة الفلسفية في أدب نجيب محفوظ»، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ندوة الرواية العربية ١٩٩١.
- (٤) من العقيدة إلى الثورة، الجزء الخامس، الإيمان والعمل والإرادة.
- (٥) امسينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، الحنية العامة للكتاب. للقاهرة ١٩٧٣ لسنج: تجربة الجنس البشري، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.
- (٦) يمكن تصنيف أعمال نجيب محفوظ الأدبية إلى أربعة مراحل: الأولى المرحلة التاريخية ١٩٣٢ - ١٩٤٥، والثانية المرحلة الاجتماعية ١٩٤٥ - ١٩٥٧ والتي بلغت ذروتها في «الثلاثية» والثالثة المرحلة السياسية ١٩٦١ - ١٩٧٩، والرابعة المرحلة الفلسفية التجريبية المتكررة لاعتدائه من ١٩٨٠ حتى الآن ولجميع بين التاريخ والاجتماع والسياسة والتي اعتدلت على القصص القصيرة أكثر من احتدادها على الرواية. كانت تشبه الرواية القصيرة القصيرة في المرحلة الأولى ٤: ١ وفي الثانية ٨: ٨، وفي الثالثة ١٣ - ٩ وفي الرابعة ٩: ٥.
- (٧) أولاد حارتنا ص ٥ - ٨.
- (٨) أحسن ص ١١ - ١١٢ = ١٠٢ ص (٢٣ متقرا).
- جبل ص ١١٥ - ٢١٠ = ٩٦ ص (٢١ متقرا).
- رفاعة ص ٢١٣ - ٣٠٥ = ٩٣ ص (٢١ متقرا).
- قاسم ص ٣٠٩ - ٤٤٣ = ١٣٣ ص (٢٨ متقرا).
- عروة ص ٤٤٧ - ٥٥٢ = ١٠٦ ص (٢٣ متقرا).
- (٩) دون إغتمام إحصاء كمي شامل لتحليل لفظ الله ومشتقاته طبقا لتحليل المضمون يكفي ذكر الصياغات الآتية للاعتماد على الآلة، والله، والرب والمولى.
- الله: ليعمل الله ما يشاء، والله ما ارتبكت جرعة، والله ما حررت الأرواح، صباب والله، والله إنك خير الرجال، أرس الله بقادر، جزه الله، اللهم احفظنا، الحمد لله، ألا لمة الله، أموز بالله، الشكر لله، والله الأمر، الله يلمن أولاد الحرام، وسد الله وأعم، صبحك الله بالسلامة، معاذ الله، أطل الله بقادر، والله أسد بين الرجال، الله أكبر، الله يرحمكم، اسم الله على أمك، أجادك الله، أتك الله، رصاك الله، والله ما أعزب أحدنا، فليارك الله، بالله خيرني، والله إن أمثالك يستحقون الظلم، والله ما كرهتم القفرة، أجمعه الله، ألا لمة الله، الله يحب المتص، الله يعلم بحاله، سلام الله على قفرة آل جيل، تركل على الله، والله ما قال إلا أنه ابن حدلان، الله يرحم، ساعك الله، وسد الله، إن شاء الله، يفتح الله، الله أسأل، أسعد الله أحلامك، شغاك الله، أرحمه الله، إن مد الله في العمر، اللهم اكفنا شر العين، الله يخرّب بيت أولاد الحرام، اللهم ليمد للشيخان، الله هو الخافي، خيرني بالله، تدهو الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يا الله، أنا والله كنفك، والله لتصنرن، اللهم حقن مطالبه، بحمد الله، وليحمد كل منكم الله، كان الله في عيونك، شفاعة الله، استغفر الله، يا إلهي، أطل الله عسكر، والله لقد مررت، نحن بفضل الله يسوان، نموز بالله، نصرك الله، أي والله، يأخذ الله، الله الله، الله حل كل الأكلة، والله كسكت الأصاحب تخرج من الحارة، الفضل لله، والله ما لست، اللهم طوبك يا ربيع، ما شاء الله، والله شهيد، لا سمح الله.
- الرب: ادع ربك دائما، رينا على القفرة، رينا على الظلم، رينا بيتنا وبينك، ربه، يارب السموات، رينا يصعب المتص، رينا يزيد في الرجال، ربك أن يقع حبيب، رينا يكرمك، يارب خلصنا من عيشنا، يارب يارب، ياستر يارب، وبهي شهيد، رينا يصبرنا، رينا أمرنا بالستر، رينا يأخذنا، رينا للمتص، ربك تاجر على كل شيء، ربه، أقسم بربي.
- المولى: بمشية المولى، ليحفظنا المولى، إن المولى نفسه لم يكن يوسمه أن يعيش وحده.

(١٠) انظر دراستنا: «علم المستقبل» في «دراسات فلسفية الأجدال المصرية، القاهرة، ١٩٨٧ ص ٥٥١ - ٥٩٩.

مطبعة الحكومة - الكويت

قسمة اشتراك



البيان	مجلة عالم الفكر		مجلة الثقافة العالمية		سلسلة عالم المعرفة		سلسلة المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	١٢	-	١٢	-	٢٥	-	٢٠	-
الأفراد داخل الكويت	٦	-	٦	-	١٥	-	١٠	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	١٦	-	١٦	-	٣٠	-	٢٤	-
الأفراد في دول الخليج العربي	٨	-	٨	-	١٧	-	١٢	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٢٠	-	٣٠	-	٥٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	١٠	-	١٥	-	٢٥	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	٤٠	-	٥٠	-	١٠٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٢٠	-	٢٥	-	٥٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:
العنوان:
اسم المطبوعة:
مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:
التوقيع:
نقدًا / شيك رقم:
التاريخ:

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة ممداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.
وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: ٢٣٩٩٦ - الصفاة - الرمز البريدي 13100



دولة الكويت

General Organization of the Arabic
Libraries (GUAL) - ٢١٩-
Bibliotheca Alexandrina

اقرأ في العدد القادم من

عالم الفكر

التعليم العالي في الوطن العربي

- مسألة الجامعات العربية : منظور القبول الحية
 - المهددات الداخلية والخارجية لجامعة القرن الحادي والعشرين
 - التعليم العالي بين حق المواطن في العلم وحق المواطن في النخبة
 - التعليم والإعلام
 - التكنولوجيا داخل الفصل
- تحرير وتقديم : د. عدنان مصطفى

الفولكلور والفنون المعاصرة

- الفولكلور في الوسائط الجماهيرية : مظاهر التأثير والتأثر بين فن الإعلام والثقافة الشعبية
 - حكايات الحيوان في التراث العربي - آفاق جديدة
 - نظريات الأسطورة
 - المأثورات الشعبية والإبداع الفني الجمالي
- تحرير وتقديم : د. حصة الرفاعي

الكويت ودول الخليج
الدول العربية الأخرى
خارج الوطن العربي

دينار كويتي .
ما يعادل دولارا أمريكيا .
ثلاثة دولارات أمريكية أو مايعادلها .



